مجمع القرآن الكريم بالشارقة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

المُجَلَّدُ الأَرْبعُونَ

سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الأَرْبعُونَ

سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعَ عشَرَ

سُورَةُ النَّمْلِ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦﴾ [النمل: 26]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

التَّرقّي في ذكرِ الأوصافِ الموجبةِ للعبادةِ

في مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها وجوهٌ متقاربةٌ:

منها: أنَّ قولَهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ كالتَّرقّي، فإنَّ الهُدْهُدَ لمّا وصفَ اللّهَ تعالى بما في خزانةِ خيالِه، مِنْ إخراجِ الخَبْءِ؛ رأى بعدَ ذلكَ تقصيرَهُ؛ لأنَّ السُّجودَ غايةُ الخُضوعِ والتَّذلُّلِ، ولا يستوجبُهُ إلّا مَنْ لهُ غايةُ الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ، فثنَّى إلى ما في هذهِ الآيةِ[1].

ومنها: أنَّهُ لمّا كانَ الوصفُ بإخراجِ الخَبْءِ، وعلمِ المُخفَى والمُعلَنِ موجبًا لعبادتِهِ سبحانَهُ وحدَهُ؛ صُرِّحَ بما يقتضيهِ في هذهِ الآيةِ[2]، أي: إنَّه لمّا ذكرَ استحقاقَهُ للعبادةِ بكمالاتِهِ وإنعاماتِهِ؛ ذكرَ أنَّهُ لا مُستحِقَّ للعبادةِ غيرُهُ؛ إذ لا يشاركُهُ في تلكَ الكمالاتِ والإنعاماتِ سواهُ، فكانتِ الجملةُ بمنزلةِ النَّتيجةِ لما قبلَها[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

تَفَرُّدُهُ ﷻ بالأُلوهيَّةِ والعبادةِ

اللّهُ الَّذي لا تَصلُحُ العبادةُ إلّا لهُ، لا إلهَ إلّا هو، فأخلِصوا لهُ العبادةَ، وأفرِدوهُ بالطّاعةِ، ولا تُشرِكوا بهِ شيئًا، مالكُ العَرْشِ العظيمِ الَّذي كلُّ عَرْشٍ - وإنْ عَظُمَ - فدونَهُ، لا يُشبِهُهُ عَرْشُ ملكةِ سبأٍ ولا غيرُهُ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

لا يستوجبُ السُّجودَ إلّا مَنْ لهُ غايةُ الجلالِ والعظَمةِ

فُصِلَتِ الآيةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها كالتَّرقّي، فإنَّ الهُدْهُدَ لمّا وصفَ

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 513.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 255.

(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 277.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 449.

اللّهَ تعالى بما في خِزانةِ خيالِه مِنْ إخراجِ الخَبْءِ؛ رأى بعدَ ذلكَ تقصيرَهُ؛ لأنَّ السُّجودَ غايةُ الخُضوعِ والتَّذلُّلِ، ولا يستوجبُهُ إلّا مَنْ لهُ غايةُ الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ، فثنَّى إلى ما في هذهِ الآيةِ، ولذلكَ قطعَهُ مِنَ الأوصافِ الجاريةِ على اللّهِ في الآيةِ السّابقةِ[1]، وفصلت الآيةُ لِما في هذهِ الآيةِ مِنْ معنى التَّعليلِ لوصفِه ﷻ بكمالِ القُدرةِ وكمالِ العِلمِ[2]، فيكونُ فصلُها عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّها استئنافٌ تعليليٌّ لهُ، وجوِّزَ أنْ تكونَ استئنافًا بمنزلةِ النَّتيجةِ للصِّفاتِ الَّتي أُجريَتْ على اسمِ الجلالةِ في الآيةِ السّابقةِ، وهو المقصودُ مِنْ هذا التَّذييلِ، أي: ليسَ لغيرِ اللّهِ شُبْهةُ إلهيَّةٍ[3].

بلاغةُ افتتاحِ الآيةِ بلفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ العبادةِ والتَّوحيدِ

لمّا كانَ السُّجودُ المذكورُ في الآيةِ السّابقةِ غايةَ الخُضوعِ والتَّذلُّلِ، ولا يستوجبُهُ إلّا مَنْ لهُ غايةُ الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ؛ جيءَ بقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ مقطوعًا عنِ الأوصافِ الجاريةِ على اللّهِ، وأُتيَ باسمِ الذّاتِ الجامعةِ، وقُرِنَ بكلمةِ التَّوحيدِ[4].

بلاغةُ الحصرِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الحصرُ حقيقيٌّ مناسبٌ لمقامِ إثباتِ الوحدانيَّةِ

عُبِّرَ بـ ﴿لَآ﴾ النّافيةِ للجنسِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لإفادةِ استغراقِ النَّفيِ لجميعِ الآلهةِ المعبودةِ، وأُردِفَ بالاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾؛ لدفعِ توهُّمِ دخولِه جلَّ شأنُهُ في النَّفيِ العامِّ، وهذا القصرُ حقيقيٌّ، وهو مِنْ قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وفيهِ مبالغةٌ في إثباتِ وحدانيَّتِه ﷻ؛ إذ أُثبِتَتْ لهُ الأُلوهيَّةُ بعدَ نَفْيِها عن كلِّ ما سواهُ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 513.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 188.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 513.

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

خُضوعُ جميعِ الأشياءِ لرُبوبيَّتِهِ تعالى

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾؛ للإشارةِ إلى رُبوبيَّتِهِ ﷻ لجميعِ الأشياءِ، وهذا الوصفُ مناسبٌ لسياقِ إثباتِ انفرادِهِ ﷻ بالأُلوهيَّةِ والعبادةِ، لا سيَّما وقد وردَتْ هذهِ الآيةُ عَقِبَ الإخبارِ بعبادةِ بِلْقيسَ وقومِها للشَّمسِ مِنْ دونِ اللّهِ، معَ أنَّها خَلْقٌ مِنْ مخلوقاتِهِ ﷻ، وأثرٌ مِنْ آثارِ صنعتِهِ، أي: لمّا ذكرَ وحدانيَّتَهُ في الألوهيَّةِ؛ ذكرَ وحدانيَّتَهُ في الرُّبوبيَّةِ، بانفرادِهِ بالخلقِ والملكِ والتَّصرُّفِ والتَّدبيرِ[1].

نكتةُ تخصيصِ العَرْشِ بالذِّكرِ:

أعظمُ المخلوقاتِ مملوكةٌ لله المستحقِ للعبادةِ والسجودِ

خُصِّصَ العَرْشُ بالذِّكرِ في قولِهِ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ مِنْ بينِ سائرِ المخلوقاتِ المربوبةِ لهُ تعالى؛ لأنَّهُ أعظمُ المخلوقاتِ، وما عداهُ في ضِمْنِهِ وقَبْضتِهِ[2]، وذلكَ يدلُّ على أنَّهُ سبحانَهُ هو المُتَّصفُ في القُدرةِ والرُّبوبيَّةِ بما لا مزيدَ عليهِ[3]، وفي هَذا تَعْريضٌ بأَنَّ عَظَمَةَ مُلْكِ بِلْقيسَ وعِظَمِ عَرْشِها ما كانَ حَقيقًا بِأَنْ يَغُرَّها بِالإعْراضِ عَنْ عِبادَةِ اللّه تَعالَى؛ لِأَنَّ اللّه هوَ رَبُّ المُلْكِ الأَعْظَمِ، فَتَعْريفُ العَرْشِ؛ لِلدَّلالَةِ عَلَى مَعْنَى الكَمالِ[4].

معنى التعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

العَرْشُ العَظيمُ هو الفُلكُ الأَعظمِ المحيط بِالعوالِمِ العُليا

جيءَ بلفظِ العَرْشِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ مُعرَّفًا؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ[5]، وكأنَّهُ وحدَهُ الَّذي يستحقُّ أنْ يُسمَّى عَرْشًا؛ لغايةِ عِظَمِهِ، فهو أعظمُ المخلوقاتِ، فإذا عُرِّفَ؛ فإنَّهُ لا ينصرفُ إلّا إلى عَرْشِهِ تعالى، فلَهُ العظمةُ المُطلَقةُ عندَ كلِّ الخَلْقِ[6].

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 277.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 257.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 553.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10774.

بلاغةُ التَّعريضِ في ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾:

بين العظمتين بونٌ عظيمٌ

يحتمل أن يكون قول الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾، من كلام الهدهد؛ استدراكًا لما وصفَ عرش بلقيس بالعظم، وأن يكون من كلام اللّه تعالى؛ ردًّا عليه في وصفه عرشَها بالعظم فبين العظمتين بونٌ عظيم، وفيه تعريضٌ بأنَّ عظَمةَ مُلْكِ بِلْقيسَ وعِظَمَ عَرْشِها ما كانَ حقيقًا بأنْ يَغُرَّها بالإعراضِ عن عبادةِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ هو ربُّ المُلْكِ الأعظمِ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

النَّظرُ في صِدقِ الخبرِ بعدَ الإخبارِ به

لمّا فرغَ الهُدهُدُ مِنْ كلامِهِ، وأبدَى عُذْرَهُ في غَيبتِهِ؛ أخَّرَ سليمانُ ﷺ أمرَهُ إلى أنْ يتبيَّنَ لهُ صِدقُهُ مِنْ كذبِهِ، فقالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَنظُرُ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُهُ[2]، والنَّظرُ: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيتِهِ[3]، وقد يُرادُ بِهِ التَّأمُّلُ والفَحْصُ[4]، وقد يُرادُ بِهِ المعرفةُ الحاصلةُ بعدَ الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، وتقولُ: نظرتُ إلى كذا؛ إذا مددتَ طرفَكَ إليهِ، رأيتَهُ أم لم تَرَهُ، ونظرتُ فيهِ؛ إذا رأيتَهُ وتدبَّرتَهُ[5]، والمرادُ بالنَّظرِ في الآيةِ: نظَرُ العقلِ، وهو التَّأمُّلُ[6].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

خبرُ الهُدهُدِ مُتأرجِحٌ بينَ الصِّدقِ والكذبِ

قالَ سليمانُ ﷺ للهُدهُدِ: سنتأمَّلُ فيما اعتذرتَ بِهِ مِنَ العُذْرِ، واحتججتَ بِهِ مِنَ الحُجَّةِ لغَيبتِكَ عنّا، وفيما جئتَنا بِهِ مِنَ الخبرِ، أصدقتَ في ذلكَ كلِّهِ أم كنتَ مِنَ الكاذبينَ فيهِ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

أظهرَ الهدهدُ عذرَهُ، فأمهلهُ سليمانُ ﷺ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ واقعٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 257، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(3) الراغب، المفردات: (نظر).
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 363، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.
(5) الراغب، المفردات: (نظر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 450.

موقعَ الجواب عن سؤالٍ مقدَّر نشأَ مِنْ حكايةِ كلامِ الهُدْهُدِ[1]، حين ذكر حالَ بلقيسَ وقومها، وسجودَهُم للشمس من دون اللّه تعالى، ثم ذكر عرشها وعظمتَهُ، ففُصِلَتِ الآيةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ وقعَ جوابًا، كأنَّهُ قيلَ: فماذا فعلَ سليمانُ ﵇ عندَ ذلكَ؟ فقيلَ: ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

دلالةُ السّينِ في ﴿سَنَنظُرُ﴾:

مِنْ تمامِ التَّدبُّرِ عدمُ التَّعجُّلِ

السّينُ في قولِهِ تعالى: ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ للتَّأكيدِ، أي: سنتعرَّفُ بالتَّجربةِ البتَّة[2]، والأصلُ فيها الدَّلالةُ على الاستقبالِ، ودلَّتْ هنا على أنَّ الأمرَ المهمَّ لا يُعاجَلُ على فَوْرِهِ، وبناءً على ذلكَ يجوزُ أنْ تكونَ للتَّأكيدِ والاستقبالِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿سَنَنظُرُ﴾:

صِدقُ الأخبارِ مبنيٌّ على وسائلِ إثباتها

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾؛ لأنَّ حصولَ النَّظرِ مِنْ سليمانَ ﵇ - وهو هنا بمعنى التَّأمُّلِ - أمرٌ يكونُ في المستقبلِ بعدَ سماعِهِ خبرَ الهُدْهُدِ، فجيءَ بالصّيغةِ؛ للدلالة على أنَّ سليمان لم يقبل منه كلامه، وإنَّما وجَّه إلى ضرورة التأكُّد؛ لما في ذلك من إدْخالِ الرَّوْعِ عَلَيْهِ بِأَنَّ كَذِبَهُ أَرْجَحُ عِنْدَ المَلِكِ؛ ليَكونَ الهُدْهُدُ مُغَلِّبًا الخَوْفَ عَلَى الرَّجاءِ، وذلك أَدخلُ في التَّأديبِ عَلَى مثلِ فعلَتِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ في ﴿سَنَنظُرُ﴾:

احتمالُ نسبةِ الفعلِ لهُ ولِمَنْ معَهُ، أو لهُ وحدَهُ على سبيلِ التَّعظيمِ

النّونُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿سَنَنظُرُ﴾ لسليمانَ ﵇ ومَنْ يتدبَّرُ، ويتأمَّلُ معَهُ، أو لهُ وحدَهُ، وقد عبَّرَ بنونِ الجمعِ؛ إعظامًا لِما أعطاهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 188.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 188.
(3) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 289.

اللّهُ لا لنفسِه[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ النّونُ لإعظامِ نفسِه؛ جَرْيًا على عادةِ المُلوكِ في قولِهم مثلًا: (نأمرُ بكذا).

دلالةُ جملةِ الاستفهامِ:

تـرديـدُ أمـرِ الـهُـدْهُـدِ بيـنَ الصِّدقِ والكذبِ

الجملةُ الاستفهاميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في محلِّ نصبٍ بـ ﴿سَنَنظُرُ﴾؛ لأنّها مُعلِّقةٌ لها[2]، وفي الإتيانِ بالاستفهامِ ترديدٌ لأمرِ الهُدْهُدِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ بعدَ إخبارِه بذلكَ الخبرِ العجيبِ، وفيهِ تشويقٌ لمعرفةِ مآلِ الأمرِ بعدَ النَّظرِ فيما جاءَ بِه، وتلويحٌ للهُدْهُدِ بأنَّهُ سيكونُ محلَّ اختبارٍ.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿أَصَدَقْتَ﴾:

الاستفهامُ عن تحقُّقِ الصِّدقِ ووقوعِهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾؛ لأنَّ الهُدْهُدَ قد انتهَى مِنَ الإخبارِ بما أخبرَ بِه، وقد اقترنَ بإخبارِه - لا ريبَ - أحدُ احتمالين، وهما الصِّدقُ أو الكذبُ، فالسُّؤالُ بصيغةِ الماضي عنِ احتمالِ تحقُّقِ الصِّدقِ ووقوعِه منهُ.

معنى ﴿أَمْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ كُنتَ﴾:

صِدْقُ الهُدْهُدِ وكذبُهُ احتمالانِ مستويانِ بحسَبِ الظّاهرِ

تفيدُ ﴿أَمْ﴾ المُتَّصلةُ معَ الهمزةِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ التَّساويَ بينَ احتمالَيِ الصِّدقِ والكذبِ، ولا يحتملُ كونُها منقطعةً[3]، وفي هذهِ التَّسويةِ تخفيفٌ على الهُدْهُدِ، وإلماحٌ لفتحِ بابِ نجاتِه.

غرضُ العُدولِ في قولِه: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

لا يجترئ على الكذبِ عندَ نبيٍّ إلّا من كان عريقًا في الكذبِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أم كذبتَ)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ مِنْ وجوهٍ، منها: أنَّ إقحامَ ﴿كُنتَ﴾ أدخلُ في نسبتِه إلى الكذبِ مِنْ صيغةِ ﴿أَصَدَقْتَ﴾؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿كُنتَ مِنَ

(1) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 289.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 606.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 379.

﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يفيدُ الرُّسوخَ في الوصفِ بأنَّهُ كائنٌ عليهِ[1]، حتَّى صارَ وصفُ الكذبِ كالجِبِلَّةِ لهُ[2].

ومنها: أنَّ قولَهُ: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أشدُّ في النِّسبةِ إلى الكذبِ بالانخراطِ في سِلْكِ الكاذبينَ، بأنْ يكونَ الكذبُ عادةً لهُ، فإنَّهُ لا يجترئُ على الكذبِ عندَهُ بما أوتيَ مِنَ النُّبوَّةِ والملكِ إلّا مَنْ كانَ عريقًا في الكذبِ، دونَ (أم كذبتَ)؛ لأنَّ هذا يَصْدُقُ بمرَّةٍ واحدةٍ[3].

وفي ذلكَ إيذانٌ بشدَّةِ تُهَمتِهِ بالكذبِ[4]؛ ليتخلَّصَ مِنَ العقابِ، وإيذانٌ بالتَّوبيخِ والتَّهديدِ وإدخالِ الرَّوْعِ عليهِ، بأنَّ كذبَهُ أرجحُ عندَ سليمانَ عليه السلام؛ ليكونَ الهُدْهُدُ مُغلِّبًا الخوفَ على الرَّجاءِ، وذلكَ أدخلُ في التَّأديبِ على مِثْلِ فِعْلَتِهِ، وفي حرصِهِ على تصديقِ نفسِهِ بأنْ يُبلِّغَ الكتابَ الَّذي يُرسَلُ معَهُ[5].

ومنها: أنَّ في العُدولِ إلى: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مراعاةً للفواصلِ[6].

ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مَيْلًا لهُم وقُرْبًا منهُم، فالنَّبيُّ بفراستِهِ وإلهامِهِ يعلمُ صِدْقَ الهُدْهُدِ مِنْ كذبِهِ؛ لكنَّهُ في موردِ تعليمِ جُنْدِهِ وضبطِهِم.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾:

التَّبعيضُ يُخفِّفُ وطأةَ التُّهمةِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: أم كنتَ بعضَ الكاذبينَ، وفي هذا التَّبعيضِ ترسيخٌ لحُسْنِ أدبِ الخطابِ النَّبويِّ، بإدراجِ الهُدْهُدِ في زُمرةِ كاذبينَ كُثُرٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5449.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 155.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 155.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 363، وابن المنير، الانتصاف: 3/ 363.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5449.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ وجمعِهِ:

الكاذبون كُثُرٌ، والمؤمن بعيد عنهم

تعريفُ ﴿ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾؛ للجنسِ، وجمعُهُ لإفادةِ كثرةِ الكاذبينَ، والمعنى: أم انخرطتَ في سِلْكِ جنسِ الكاذبينَ، وهم كثيرٌ، فكنتَ مِنْ جملتِهم؟[1].

علَّةُ تقديمِ الصِّدقِ على الكذبِ:

الأصلُ حُسْنُ الظَّنِّ، وذلكم مِنْ أدبِ النُّبوَّةِ

قُدِّمَ الصِّدقُ على الكذبِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّهُ الأصلُ[2]، ولا يُنافي ذلكَ المبالغةُ المذكورةُ في ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في المُدَّعي والمُخبِرِ أنْ يُحمَلَ كلامُهُ على الصِّدقِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ تأخيرَ ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ فيهِ مراعاةُ الفواصلِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ:

في تقابلِ الصّورتينِ تشويقٌ للمآلِ

في الجمعِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ مراعاةٌ للطِّباقِ، فيرَى السّامعُ صورتينِ متقابلتينِ يتأرجحُ حالُ الهُدْهُدِ بينَهما، وعدل هنا عن الفعل المطابق لما قبلَهُ إلى الاسم؛ لنكتة بلاغية تقدَّمت الإشارة إليها أكثر من مرة، وهي جعْلُهُ واحدًا من الفئة الموسومة بالكذب.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الصِّدقُ والكذبُ مَظِنَّةُ التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ

فعلُ (رأى) لفظٌ مُشترَكٌ بينَ مَعانٍ، يأتي بمعنى: (أبصرَ)، وبمعنى: (عَلِمَ)، وبمعنى: (ظنَّ)، وبمعنى: (حَلَمَ) في المنام، وبمعنى: (ضربَ رئتَهُ)، فهو على أضربٍ بحسَبِ قوَى النَّفْسِ: بالحاسَّةِ، والوهم والتَّخيُّلِ، والتَّفكُّرِ، والعقلِ[3]، والنَّظرُ: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراك

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 379.
(2) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 289.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رأى).

الشَّيءِ ورؤيتِهِ، وقد يُرادُ بِهِ التأمُّلُ والرَّويَّةُ، واستعمالُ النَّظرِ في البصر أكثر عند العامَّة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصَّة[1].

والحاصلُ: أنَّ رؤيةَ الشَّيءِ، تعني: إدراكَ حقيقتِهِ بالحاسَّةِ، أو بالوهم والتَّخيُّلِ، أو بالتَّفكُّرِ، أو بالعقلِ، والنَّظرُ تقليبُ البصرِ، والنَّظرُ في الشَّيءِ تدبُّرُهُ وتأمُّلُهُ، والنَّظرُ إلى الشَّيءِ لا يستلزمُ رؤيتَهُ، فالرُّؤيةُ أعمُّ مِنَ البصرِ والنَّظرِ، ومِنْ هنا اختيرَ في الآيةِ لفظُ النَّظرِ؛ لِما فيهِ مِنَ التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ اللَّذينِ يستلزمُهما الحكمُ على الأمورِ.

(1) الراغب، المفردات: (نظر).

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [النمل: 28]

بيانُ حالِ الهُدْهُدِ، والإسراعُ في هدايةِ الضّالِّ

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ شُروعٌ في النَّظرِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1]، فتكونُ مُبيِّنةً له؛ لأنَّ فيما سينكشفُ بعدَ توجيهِ كتابِ سليمانَ عليه السلام إلى مَلِكةِ سبأٍ ما يُصدِّقُ خبرَ الهُدْهُدِ؛ إنْ جاءَ مِنَ المَلِكةِ جوابٌ عن كتابِه، أو يُكذِّبُ خبرَ الهُدْهُدِ؛ إنْ لم يَجِئْ منها جوابٌ[2]، وفي الآيةِ مَلْمَحُ إسراعِ سليمانَ عليه السلام في هدايةِ مَنْ تناهَى إلى مسامعِهِ ضلالُهم، فجاءَ الأمرُ بعدَ سماعِ الخبرِ مباشرةً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَلۡقِهۡ﴾: (لقي) أصولٌ ثلاثةٌ: أَحدُها يدلُّ عَلَى عِوَجٍ، والآخَرُ على تَوافي شَيْئَيْنِ، والآخَرُ عَلَى طَرْحِ شَيْءٍ[3]. والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[4]، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: 115]، ويقالُ: ألقيتُ إليكَ قولًا وسلامًا وكلامًا ومودَّةً، قالَ تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، وقالَ: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [النحل: 86]، وقالَ: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: 87][5]، والإلقاءُ في الآيةِ مُستعمَلٌ إمّا في حقيقتِه، وهو رميُ الرِّسالةِ مِنْ مِنقارِه، وإمّا في مجازِه بالدُّخولِ إلى المكانِ ومناولةِ الرِّسالةِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 155، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 380.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 257.

2) ﴿تَوَلَّ﴾: المعنى المحوريُّ لـ (ولي): القُرْبُ، يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: بعدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: ممّا يُقارِبُني"[1]، ومِنْ ذلكَ: المَوْلَى، ولهُ معانٍ، منها: المُعتِقُ، والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ ولِيَ أمرَ آخرَ؛ فهو وليُّهُ[2]، ويقالُ: ولَّى وتولَّى هاربًا توليةً؛ إذا أدبرَ، وذهبَ، ويقالُ: ولَّى عنهُ؛ إذا أعرضَ، أو نأى، وكذلكَ: تولَّى عنهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ [يوسف: 84][3]، والتَّولّي هنا: الانصرافُ غيرَ بعيدٍ للتَّرقُّبِ[4].

3) ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: (رجع) أصلٌ يدلُّ على ردٍّ وتكرارٍ، يقالُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، وامرأةٌ راجعٌ: ماتَ زوجُها، فرجعَتْ إلى أهلِها، والتَّرجيعُ في الصَّوتِ: ترديدُهُ[5]، والرَّجْعةُ في الطَّلاقِ، وفي العَوْدِ إلى الدُّنيا بعدَ المماتِ[6]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ معناهُ: يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضِ القولَ[7]؛ ليُجيبوا عن الكتابِ بالقبولِ أو الرَّفضِ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ في اختبارِ صِدْقِ الهُدْهُدِ فيما أخبرَ بِهِ

اذهبْ - أيُّها الهُدْهُدُ - بكتابي هذا إلى بِلْقيسَ وقومِها، فاطرَحْهُ إليهم، ثمَّ تَنَحَّ عنهُم قليلًا، فتأمَّلْ بعدَ هذا ماذا يَرْجِعونَ مِنَ القولِ ويُردِّدونَ، وانظُرْ أيَّ رأيٍ يختارونَ[9].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ:

في الآيةِ إيجازُ قصرٍ بحذفِ عدَّةِ جملٍ

في الكلامِ حذفُ إيجازٍ لا بدَّ مِنْ تقديرِهِ؛ لتتناسقَ حوادثُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولي).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5450.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(6) الراغب، المفردات: (رجع).
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 363.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(9) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 134.

القصَّةِ، وحاصلُ المعنى: أنَّهُ كتبَ مكتوبًا إلى بِلْقيسَ وقومِها يدعوهُم فيهِ إلى التَّوحيدِ والإسلام، وأمرَ الهُدْهُدَ بالذَّهابِ بهِ وإيصالِهِ إليهم، فقالَ لهُ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ الآيةَ[1]، وهذا مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهرِ الإيجازِ البليغِ في القرآنِ الكريمِ[2]، وفيهِ إشارةٌ إلى شدَّةِ مُسارعةِ سليمانَ ﷺ إلى إزالةِ المُنكَرِ على تقديرِ صِدْقِ الهُدْهُدِ[3].

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الآيـةُ بيـانٌ لِما قبلَها

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ النَّظرِ، الَّذي وعدَهُ سليمانُ ﷺ بعدَما كتبَ كتابَهُ في ذلكَ المجلسِ أو بعدَهُ[4]؛ لأنَّ فيما سينكشفُ بعدَ توجيهِ كتابِهِ إلى مَلِكة سبأٍ ما يُصدِّقُ خبرَ الهُدْهُدِ؛ إنْ جاءَ مِنَ المَلِكةِ جوابٌ عن كتابِهِ، أو يُكذِّبُ خبرَ الهُدْهُدِ؛ إنْ لم يَجِئْ منها جوابٌ[5].

سرُّ تخصيصِ الهُدْهُدِ بالرِّسالةِ:

تخصيصُهُ لِما فيهِ مِنْ مَخايلِ العِلمِ والحكمةِ

تخصيصُهُ ﷺ الهُدْهُدَ بالرِّسالةِ في قولِهِ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾، دونَ سائرِ ما تحتَ مُلْكِهِ مِنْ أُمَناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التَّصرُّفِ والتَّعرُّفِ؛ لِما عاينَ فيهِ مِنْ مَخايلِ العلمِ والحكمةِ وصحَّةِ الفِراسةِ، ولئلّا يبقَى لهُ عُذْرٌ أصلًا[6].

دلالةُ الأمرِ في ﴿ٱذْهَب﴾ وما عُطِفَ عليهِ:

الذَّهابُ والإلقاءُ والتَّولّي والنَّظر واجبـاتٌ على الهُدْهُدِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في الأمرِ، ولا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 380، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 257.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10775.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 155.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 188.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 256.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.

صارفَ عنهُ هنا، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ الذَّهابِ والإلقاءِ والتَّولّي والنَّظرِ على الهُدْهُدِ.

معنى الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِّكِتَٰبِي﴾:

ملابسةُ الكتابِ دليلُ العنايةِ بهِ

الباءُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ إمّا للتَّعديةِ، أو للمُلابَسةِ[1]، أي: اذهبْ مُلتبِسًا بكتابي هذا، وفي ذلكَ مزيدُ عنايةٍ بالذَّهابِ بالكتابِ وإيصالِهِ إليهم.

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿بِّكِتَٰبِي﴾:

رسائلُ الأنبياءِ وكتبهم شرفٌ وخيرٌ وبركةٌ

أضافَ سليمانُ عليه السلام الكتابَ إلى نفسِهِ في قولِهِ: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾؛ لتشريفِ الكتابِ بكونِهِ صادرًا منهُ، وهو النَّبيُّ الَّذي أوتيَ مُلْكًا لم يُؤتَهُ أحدٌ، ولحثِّ الهُدْهُدِ على العِنايةِ بالكتابِ وحفظِهِ وصيانتِهِ مِنَ التَّغييرِ والتَّبديلِ والضَّياعِ ونحوِ ذلكَ، وأيضًا قد ازداد قلقُهُ عليه السلام بسجودهم لغيرِ اللّٰه، وهو مكلَّفٌ بالدَّعوة، فنسب الكتاب إليه باعتباره المكلَّفَ بالدَّعوة إلى اللّٰه تعالى.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

الكتابُ الحاضرُ محلُّ عنايةِ سليمانَ عليه السلام

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ صفةً لـ(كتابي)، أو بدلًا منهُ، أو بيانًا لهُ[2]، وعُبِّرَ باسم الإشارةِ للقريبِ؛ للتَّنبيهِ على قُرْبِ الكتابِ وحُضورِهِ[3]، والمعنى: اذهبْ بكتابي هذا، أي: الحاضرِ المكتوبِ الآنَ[4]، وفي ذلكَ بيانُ مزيدِ عنايةِ سليمانَ عليه السلام بالكتابِ، وأنَّهُ قريبٌ منهُ منزلةً، كما هو قريبٌ منهُ حسًّا، فلا ينبغي أنْ يتهاونَ الهُدْهُدُ في الذَّهابِ بهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَأَلۡقِهۡ﴾:

الإسراعُ في التَّبليغِ يناسبُ خطورةَ خبرِ ضلالِهم

لمّا كانَ سليمانُ عليه السلام قد ازدادَ قلقُهُ بسجودِهم لغيرِ اللّٰهِ؛ أمرَ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 380.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 606.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 188.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.

الهُدْهُدَ بغايةِ الإسراعِ، وكأنَّهُ كانَ أسرعَ الطَّيرِ طَيرانًا، وأمدَّهُ اللّٰهُ زيادةً على ذلكَ بمعونةٍ منهُ؛ إكرامًا لنبيِّهِ ﷺ، فصارَ كأنَّهُ البَرْقُ، فأشارَ إلى ذلكَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَلْقِهْ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإلقاءِ:

الدَّعوةُ إلى اللّٰهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ

عُبِّرَ بالإلقاءِ والطَّرْحِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ التَّبليغَ لا يمكنُ بدونِ ذلكَ[2]، ولأنَّ الإلقاءَ: رميُ شيءٍ مِنَ اليدِ إلى الأرضِ حيثُ تلقاهُ[3]، أي: في المكانِ الَّذي تريدُهُ وتراهُ بلُطْفٍ وتمهُّلٍ[4]، وذلكَ أمارةُ التَّلطُّفِ في الدَّعوةِ إلى اللّٰهِ تعالى.

فعلُ الإلقاءِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

بينَ الحقيقةِ والمجازِ تتَّسعُ صورةُ إلقاءِ الرِّسالةِ

الإلقاءُ في الأصلِ: الرَّميُ إلى الأرضِ، وهو في قولِه تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ مُستعمَلٌ إمّا في حقيقتِه؛ إنْ كانَ شأنُ الهُدْهُدِ أنْ يصلَ إلى المكانِ، فيرميَ الكتابَ مِنْ منقارِه، وإمّا في مجازِه؛ إنْ كانَ يدخلُ المكانَ المُرسَلَ إليه، فيتناولُ أصحابُهُ الرِّسالةَ مِنْ رِجْلِه الَّتي تُرْبَطُ فيها الرِّسالةُ، فيكونُ الإلقاءُ مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ [النحل: 86][5].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجمعِ في ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

الغايةُ تبليغُ ما في الكتابِ لجميعِ القومِ

قيلَ: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ على لفظِ الجمعِ، ولم يقل: (فألقِهْ إليها)؛ لأنَّ الهُدْهُدَ قالَ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقالَ: فألقه إلى الَّذينَ هذا دينُهم؛ اهتمامًا منهُ بأمرِ الدّينِ، واشتغالًا بهِ عن غيرِه[6]، فالمقصودُ تبليغُ ما في الكتابِ لجميعِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 156.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 43، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 189.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288، وينظر: السمين، عمدة الحفاظ: (لقي).
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9360.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 257.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 363، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 553.

القوم[1]، والدَّعوةُ يجبُ أنْ تَعُمَّ[2]، وأيضًا لم يخصَّها في الكتابِ دونَهم بكلام؛ لتصغُرَ إليهم أنفُسُهم بخطابِهِ معَ ما يدلُّهم على عظَمتِهِ، جمعَ، فقالَ: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: الَّذينَ ذكرتَ أنَّهم يعبدونَ الشَّمسَ، وذلكَ للاهتمامِ بأمرِ الدِّينِ[3].

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

مُكْثُ الهُدْهُدِ بعدَ إلقاءِ الكتابِ حتَّى يتأكَّدَ مِنْ وصولِ الكتابِ ويتحقَّقوا أمرَهُ

لمّا كانَ لو تأخَّرَ الهُدْهُدُ عنهُم بعدَ إلقائِهِ إلى موضعٍ يأمنُ فيهِ على نفسِهِ على ما هو فيهِ مِنَ السُّرعةِ؛ لداخلَهم شكٌّ في أنَّهُ هو الملْقي لهُ أمرَهُ بأنْ يَمْكُثَ بعدَ إلقائِهِ يرفرفُ على رؤوسِهم؛ حتَّى يتحقَّقوا أمرَهُ، ويتأكَّدَ هو مِنْ وصولِ الكتابِ إليهم، ويسمعَ ما يقولونَهُ، فأشارَ سبحانَهُ إلى ذلكَ بأداةِ التَّراخي، بقولِهِ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾، أي: بعدَ وصولِكَ وإلقائِكَ[4].

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾:

قُرْبُ المكانِ سبيلُ السَّماعِ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾، معناهُ: ثمَّ تنحَّ عنهُم إلى مكانٍ قريبٍ تتوارَى فيهِ؛ ليكونَ ما يقولونَهُ بمَسْمَعٍ منكَ[5]، وإنَّما حُمِلَ التَّولّي على ذلكَ؛ لأنَّ التَّولّيَ بالكلّيَّةِ يُنافي قولَهُ: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾[6].

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

تعقيبُ التَّولّي بالنَّظرِ إتقانٌ للمهمَّةِ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ للتَّعقيبِ، والمعنى: فانظُرْ عَقِبَ تولّيكَ[7]، وهذا مِن تمامِ إنجازِ المهمَّةِ على وجهِها الأكملِ، وأتى عقبها بالأمر (انظر)؛ لزيادة حرصه على التأمُّل والاستحضار في ذهنِ الهدهد[8]، ويحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: فانتظِر[9].

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 43.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 380.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 156.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 156، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5450.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 363، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 43.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 156.
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 233، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 233.

﴿مَاذَا﴾ بين الاستفهام والموصوليَّة:

ما يَرْجِعونَهُ محطُّ عنايةٍ بالغةٍ

في قوله تعالى: ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، إنْ جعَلْنا ﴿فَٱنظُرْ﴾ بمعنى: تأمَّلْ وتفكَّرْ؛ كانَتْ (ما) استفهاميَّةً، وفيها حينئذٍ وجهانِ: **أحدُهما:** أنْ تُجعَلَ معَ (ذا) بمنزلةِ اسم واحدٍ، وتكونَ مفعولًا لـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾، والتَّقديرُ: (أيَّ شيءٍ يَرْجِعونَ؟).

والثّاني: أنْ تُجعَلَ (ما) مبتدأً، و(ذا) بمعنى: (الَّذي)، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ صلتُها، وعائدُها محذوفٌ، تقديرُهُ: (أيُّ شيءٍ الَّذي يَرْجِعونَهُ؟)، وهذا الموصولُ هو خبرُ (ما) الاستفهاميَّة.

وعلى التَّقديرينِ فالجملةُ الاستفهاميَّةُ مُعلَّقةٌ لـ ﴿فَٱنظُرْ﴾، فمحلُّها النَّصبُ على إسقاطِ الخافضِ، أي: انظُرْ في كذا، وفكِّرْ فيه.

وإنْ جعَلْنا ﴿فَٱنظُرْ﴾ بمعنى: انتظِرْ؛ كانَتْ (ماذا) بمعنى: (الَّذي)، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ صلةٌ، والعائدُ مُقدَّرٌ - كما مرَّ - وهذا الموصولُ مفعولٌ بِه، أي: انتظِرِ الَّذي يَرْجِعونَهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المجموعِ في ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

شمولُ الدَّعوةِ المُرسَلِ إليهم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ مِن قائلٍ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنَّ رَجْعَ بعضِهم إلى بعضِ القولَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ إلقاءِ الهُدْهُدِ الكتابَ، وتولّيهِ عنهُم إلى مكانٍ قريب، وجمْعُ الضَّمائرِ؛ لِما أنَّ مضمونَ الكتابِ الكريمِ مِنْ سليمانَ عليه السلام دعوةُ الكلِّ إلى الإسلامِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلقاءُ والرَّميُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذ:

مكانُ إيصالِ الرِّسالةِ معلومٌ، والدَّعوةُ إلى اللهِ مَظِنَّةُ اللّينِ

الرَّمْيُ هو الأصلُ، وهو يُطلَقُ على الرَّمْيِ بالمعاني والأعيانِ، وعلى

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 607.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 283.

كلِّ حالاتِ الرَّمْيِ، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ. والقَذْفُ هو رَمْيُ الشَّيءِ مِنْ بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْيِ الإنسانِ بالتُّهَمِ البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِهِ. والرَّجْمُ أشدُّ معاني الرَّمْيِ؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْم. والطَّرْحُ والنَّبْذُ كلاهما يعني إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ. والإلقاءُ يعني: طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ، وهو رمي إلى الأرض بلطف ولين، وهو أنسبُ الألفاظِ بمقامِ إبلاغِ رسالةِ سليمانَ ﵇ مِنْ حيثُ مكانُ إيصالِها المعلومُ، ومِنْ حيثُ هيئةُ الرَّمي الَّتي تكونُ بلُطْفٍ ولينٍ يناسبانِ شأنَ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى.

﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾ [النمل: 29]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ خبر بِلْقيسَ بعدَ إلقاءِ الكتابِ إليها

لمّا كان من شأن الملوك ألّا يصل إليهم أحد بكتاب ولا غيره إلّا على أيدي جماعتهم؛ عظَّمتْ بلقيس هذا الكتاب بأنَّه وصل إليها على غير ذلك المنهاج، فلمّا ألقى الهُدْهُدُ الكتابَ إلى بِلْقيسَ وقومِها - كما أُمر - تشوَّفَت النَّفسُ إلى قولها عند ذلكَ، فقيلَ: ﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلُّ علَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ، ومَلَأْتُ الشَّيْءَ أَمْلَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسْمُ لِلْمِقْدارِ الَّذي يُمْلَأُ؛ وسُمّيَ؛ لِأَنَّهُ مُساوٍ لِوِعائِهِ في قَدْرِهِ، ويُقالُ: أَعْطِني مِلْأَهُ ومِلْأَيْهِ وثَلاثَةَ أَمْلائِهِ، ومِنْهُ أَمْلَأَ النَّزْعَ في القَوْسِ؛ إذا بالَغَ، ومِنْهُ المَلأُ: الأَشْرافُ مِنَ النّاسِ؛ لِأَنَّهُم مُلِئُوا كَرَمًا[2]، وسُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبَةً، والعُيونَ جلالةً[3]، وقيلَ: الملأُ: جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، قالَ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، ويقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعظَّمٌ عندَ مَنْ رآهُ، كأنَّهُ ملأَ عينَهُ مِنْ رؤيتِهِ، ومالَأْتُهُ: عاونتُه وصِرْتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[4]، والملأُ هنا: الجماعةُ مِنْ أشرافِ القومِ، وهم أهلُ مجلسِها[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 156 - 157.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(4) الراغب، المفردات: (ملأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 258.

2) ﴿كَرِيمٌ﴾: (كرم) أصلٌ يدلُّ على شَرَفٍ في الشَّيءِ في نفسِهِ أو شَرَفٍ في خُلُقٍ مِنَ الأخلاقِ[1]، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى بالكرمِ؛ فهو اسمٌ لإحسانِهِ وإنعامِهِ، نحوُ قولِه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: 40]، وإذا وُصِفَ بِهِ الإنسانُ؛ فهو اسمٌ للأخلاقِ والأفعالِ المحمودةِ الَّتي تظهرُ منهُ، والإكرامُ والتَّكريمُ: أنْ يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يلحقُهُ فيهِ غَضاضةٌ، أو أنْ يُجعلَ ما يوصَلُ إليهِ شيئًا كريمًا، أي: شريفًا، قالَ سبحانَهُ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات: 24][2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إخبارُ بِلْقيسَ بإلقاءِ كتابٍ كريمٍ إليها

لمّا ألقَى الهُدْهُدُ الكتابَ إلى بِلْقيسَ؛ جمعَتْ عندَ ذلكَ أُمَراءَها ووزراءَها وكُبَراءَ دولتِها ومملكتِها، ثمَّ قالَتْ لهُم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾، ثمَّ قرأَتْهُ عليهِم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

اجتماعُ القومِ للمشاورة استجابة لكتاب سليمان

جملةُ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ غرابةَ قصَّةِ إلقاءِ الكتابِ إليها تُثيرُ سؤالًا عن شأنِها حينَ بلغَها الكتابُ[4]، مفاده: ماذا فعلت بلقيس وقومها حين وصلهم الكتاب؟ فيكونُ فصلُ الآيةِ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ:

مِنْ تمامِ الطّاعةِ المسارعةُ إلى الخضوع

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ إيجازٌ يدلُّ ظاهرُ القولِ عليهِ، تقديرُهُ: فألقَى الكتابَ، وقرأَتْهُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(2) الراغب، المفردات: (كرم).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 188.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 258.

وجمعَتْ لهُ أهلَ مُلْكِها[1]، وإنَّما طويَ ذكرُ ذلكَ؛ إيذانًا بمسارعة بلقيس في النَّظر في شأن هذا الكتاب لأهمّية ما جاء فيه، وإشعارًا باستغنائِه عنِ التَّصريحِ بِهِ لغايةِ ظُهورِهِ[2].

بلاغةُ النِّداءِ بـ (يا):

الاهتمامُ بالأمرِ المُنادَى لهُ

جيءَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها المُعرَّفُ، ويُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً إلى شدَّةِ اهتمامِ بِلْقيسَ بمُناداةِ الملأِ، ولَفْتِ انتباهِهم للكلامِ الَّذي ستُلقيهِ عليهِم؛ لأنَّهُ كلامٌ مُهِمٌّ يتعلَّقُ بمصيرِ مملكتِهِم.

سرُّ تخصيصِ الملأِ بالنِّداءِ:

الملأُ هم أشرافُ قومِها وأهلُ مشورتِها

خصَّتْ بِلْقيسُ الملأَ بالنِّداءِ في قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾؛ لأنَّ الملأَ هم أشرافُ النّاسِ الَّذينَ يَنوبونَ مَنابَ الجميعِ[3]، وهي نادَتْ أشرافَ قومِها وأعيانَهم الَّذينَ هم أهلُ مجلسِها ومستشاروها[4] المعهودونَ، فـ (أل) للعهدِ، وفي ندائِهم بوصفِ الملأِ تعظيمٌ لهُم[5].

نكتةُ التَّوكيدِ بـ (إن) في الآيةِ:

الكتابُ الكريمُ المُلْقَى محلُّ عنايةٍ

جيءَ بالتَّأكيدِ بـ (إنَّ)، وتقديم شبه الجملة في قولِ الحقِّ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ الحُكْمِ[6]، وهو إلقاءُ كتابٍ كريمٍ إليها؛ لكونِها تملكُ قومَها، ولا تعرفُ مُلقيهِ، ولأنَّ هذا الحُكمَ مَظِنَّةُ الإنكارِ[7].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 258، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 191.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10776.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 258.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 258.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 157.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 190.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 381.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ في ﴿أُلۡقِيَ﴾:

غرابةُ إيصالِ الكتابِ مدعاةٌ للتَّعظيمِ أو التَّحقيرِ

الظّاهرُ أنَّ بناءَ الفعلِ للمفعولِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ لأنَّها لا تعرفُ المُلقيَ، ولذلكَ حذفَتْهُ[1]؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المُلوكِ ألّا يصلَ إليهِم أحدٌ بكتابٍ ولا غيرِهِ إلّا على أيدي جماعتِهم، فعظَّمَتْ هذا الكتابَ بأنَّهُ وصلَ إليها على غيرِ ذلكَ المنهاجِ، فبنتِ الفعلَ للمفعولِ[2]، ويحتملُ أنْ تكونَ بنتِ الفعلَ للمفعولِ؛ تحقيرًا للفاعلِ، وعدمِ العنايةِ بِهِ؛ إذ كانَ طائرًا، وهذا إنْ كانَتْ شاهدَتْهُ عندَ إلقاءِ الكتابِ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِلَيَّ﴾:

بيانُ أنَّ الكتابَ أُلقيَ إليها مباشرةً

يدلُّ التَّعبيرُ بـ ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ على أنَّ الكتابَ قد أُلقيَ إلى بِلْقيسَ مباشرةً دونَ توسُّطِ أحدٍ مِنْ رَعيَّتِها، وذلكَ على خلافِ المعتادِ في مجيءِ الكتبِ والرَّسائلِ إلى المُلوكِ.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيَّ﴾:

مَنْ يملكُ القومَ أحرَى بالمراسلةِ

تقديمُ شبهِ الجملةِ في: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾؛ للحصرِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الكتابَ أُلقيَ إليها لا إلى غيرِها؛ لأنَّها هي الَّتي تملكُ قومَها، وتَسوسُ أمرَهم.

غرضُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٞ﴾:

تفخيمُ شأنِ الكتابِ وتعظيمُهُ

جيءَ بلفظِ ﴿كِتَٰبٞ﴾ في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ مُنكَّرًا؛ لتفخيمِ شأنِ الكتابِ وتعظيمِهِ[4].

سرُّ وصفِ الكتابِ بالكريمِ:

تعظيمُ الرِّسالةِ لعظَمةِ مُرسِلِها

سببُ وصفِ بِلْقيسَ الكتابَ بالكريمِ في قولِها: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ إمّا: لأنَّهُ كانَ مختومًا، وإمّا: لأنَّهُ كانَ مِنْ مَلِكٍ، فوصفَتْهُ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 234، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 381.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 157.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 234، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 190، وأطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 291.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 381.

بالكريمِ تكريمًا لصاحبِهِ[1]، فيكونُ في الكلامِ إسنادٌ مجازيٌّ، وإمّا لحُسْنِ مضمونِهِ وما فيهِ[2]؛ لِما تضمَّنَ مِنْ لينِ القولِ والموعظةِ في الدُّعاءِ إلى عبادةِ اللّهِ ﷻ، وحُسْنِ الاستعطافِ والاستلطافِ، مِنْ غيرِ أنْ يتضمَّنَ سبًّا ولا لَعْنًا، ولا ما يُغيِّرُ النَّفْسَ، ومِنْ غيرِ كلامٍ نازلٍ ولا مُستغلِقٍ، وذلكَ على عادةِ الرُّسُلِ في الدُّعاءِ إلى اللّهِ ﷻ[3]، وإمّا: لأنَّ سليمانَ ﵇ بدأَ فيهِ بنفسِهِ، ولا يفعلُ ذلكَ إلّا الأَجِلّاءُ[4]، وإمّا: لغرابةِ شأنِهِ ووصولِهِ إليها على منهاجٍ غيرِ معتادٍ[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 452.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 191.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 191.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ مصدرِ الكتابِ ومضمونِه

من حكمة بلقيس كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب، وما ذاك إلا لتعلم أصحابها أنَّ لها اتصالاً إلى أمور لا يعلمون طريقها[1]، فشرعت في ذكر صاحب الكتاب الذي بين يديها في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾، فهو استئنافٌ لبيانِ مُرسِلِ الكتابِ ومضمونِه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[3]، فالعُلُوُّ: ضدُّ السُّفْلِ، والعُلُوُّ: الارتفاعُ[4]. والمرادُ بالعُلوِّ في الآيةِ: الاستعظامُ والتَّكبُّرُ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اشتمالُ كتابِ سليمانَ عليه السلام على ما لا بدَّ منهُ في الدّينِ والدُّنيا

ثمَّ بيَّنَتْ بلقيسُ مصدرَ الكتابِ، وما فيهِ لذوي الرَّأيِ في مملكتِها، ومضمونُ هذا الكتابِ - على وجازتِهِ - يدلُّ على أمورٍ لا بدَّ منها في الدّينِ والدُّنيا، وهي: اشتمالُهُ على إثباتِ اللّهِ ووحدانيَّتِهِ وقُدرتِهِ وكونِهِ رحمانًا رحيمًا، ونهيهم عنِ اتِّباعِ أهوائِهم، ووجوب اتِّباعِهم للحقِّ، وعلى أمْرِهم بالمجيءِ إليهِ مسلمينَ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

ما أُجمِلَ في سباقٍ فُصِّلَ في لحاقٍ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 190.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علو).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5451.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 135.

كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ ممّا سبقَ، كأنَّها لمّا قالَتْ: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾، قيلَ لها: ممَّنْ هو؟ وما هو؟ فقالَتْ: إنَّه مِنْ سليمانَ، وإنَّه كيتَ وكيتَ[1].

سرُّ التَّوكيدِ بـ (إنَّ):

مُرسِلُ الكتابِ ومضمونُ كتابِهِ محلُّ عنايةٍ واهتمامٍ

التَّأكيدُ بـ (إنَّ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾، وقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على اهتمامِ بِلْقيسَ بمُرْسِلِ الكتابِ وبما تضمَّنَهُ الكتابُ[2]، أو لوقوعِهِ في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ممَّنْ هذا الكتابُ؟ وماذا مضمونُهُ؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، ويَحْسُنُ التَّأكيدُ بـ (إنَّ) في جوابِ السُّؤالِ، ولا فَرْقَ في ذلكَ بينَ السُّؤالِ المُحقَّقِ والسُّؤالِ المُقدَّرِ[3].

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الضَّميرُ للكتابِ أو لعنوانِهِ

ضميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ في قولِهِ جلَّ شأْنُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ للكتابِ، أو لعنوانِ الكتابِ[4]، وهو ما يُكتَبُ على ظاهرِهِ.

علَّةُ تقديمِ سليمانَ عليه السلام اسمَهُ على البسملةِ:

التَّقديمُ واقعٌ في الحكايةِ لا في المحكيِّ

تقديمُ سليمانَ عليه السلام اسمَهُ على البسملةِ، معَ أنَّ اللّائقَ بسليمانَ عليه السلام ألّا يُقدِّمَ في كتابِهِ شيئًا قبلَ اسمِ اللّهِ تعالى: إمّا لأنَّهُ ابتدأَ بالبسملةِ، وإنَّما ذكرَتْ بِلْقيسُ أنَّ هذا الكتابَ مِنْ سليمانَ، ثمَّ حكَتْ ما في الكتابِ، واللّهُ تعالى حكى ذلكَ، فالتَّقديمُ واقعٌ في الحكايةِ[5]، وإنَّما فعلَتْ بِلْقيسُ ذلكَ؛ لإيقاظِ أفهامِ أهلِ مَشورتِها إلى التَّدبُّرِ في مَغْزاهُ[6]، وإمّا أنَّهُ قدَّمَهُ لاحتمالِ أنْ يصدرَ منها ما لا يليقُ؛ إذ كانَتْ كافرةً، فيكونُ اسمُهُ وِقايةً لاسمِ اللّهِ تعالى، أو كانَ عُنوانًا في ظاهرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 157.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 259.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 190.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 259.

الكتابِ، وباطنُهُ فيه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية[1]، وإمّا لأنَّ رُسُلَ المُتقدِّمينَ كانوا - إذا كَتَبوا كِتابًا - يبدؤونَ بأنفُسِهم، فيقولونَ: مِنْ فلانٍ إلى فلانٍ[2].

سرُّ اكتفاءِ سليمانَ عليه السلام باسمِهِ فقط:

كانَ سليمانُ عليه السلام معروفًا بينَ مُلوكِ الأرضِ

ابتدأَ سليمانُ عليه السلام في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ بذكرِ المُرْسِلِ، واكتفَى باسمِهِ، والظّاهرُ أنَّهُ كانَ معروفًا بينَ مُلوكِ الأرضِ؛ لأنَّهُ أقواهم، وأعظمُهم قَدْرًا، وأوسعُهم سلطانًا وعِلْمًا، فهو يعرفُ مَنْطِقَ الطَّيرِ ومَنْطِقَ الأحياءِ، وقد أوتيَ مِنْ كلِّ شيءٍ قوَّةً وعِلْمًا[3].

نكتةُ تكرارِ (إنَّ):

الإيماءُ إلى اختلافِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ

تكريرُ حرفِ (إنَّ) بعدَ واوِ العطفِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إيماءٌ إلى اختلافِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، بأنَّ المرادَ بالمعطوفِ عليهِ ذاتُ الكتابِ، والمراد بالمعطوفِ معناهُ وما اشتملَ عليهِ، كقولِكَ: إنَّ فلانًا لحَسَنُ الطَّلعةِ، وإنَّهُ لزكيٌّ، وهذا مِنْ خصوصيّاتِ إعادةِ العاملِ بعدَ حرفِ العطفِ معَ إغناءِ حرفِ العطفِ عن ذكرِ العاملِ، ومِثْلُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: 59]، أُعيدَ (أَطيعوا)؛ لاختلافِ معنى الطّاعتينِ؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ تنصرفُ إلى الأعمالِ الدّينيَّةِ، وطاعةَ الرَّسولِ يُرادُ بها طاعتُهُ في التَّصرُّفاتِ الدُّنيويَّةِ، ولذلكَ عُطِفَ على الرَّسولِ أولو الأمرِ مِنَ الأُمَّةِ[4].

سرُّ افتتاحِ سليمانَ عليه السلام كتابَهُ بالبسملةِ:

اشتمالُ البسملةِ على إثباتِ الصّانعِ سبحانه وتعالى

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استفتاحٌ شريفٌ بارعُ المعنى[5]، فهو

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 234.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 234.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5451.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 259.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 258.

مُشتمِلٌ على إثباتِ الصّانعِ ﷻ، وإثباتِ كونِه عالمًا قادرًا حيًّا مُريدًا حكيمًا رحيمًا[1]، وافتتاحُ الكِتابِ بِجُملةِ البَسملةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرادِفَها كان خاصًّا بِكُتُبِ النَّبيِّ سُليمانَ بأَنْ يُتْبَعَ اسمَ الجلالةِ بوصفَي (الرَّحمنِ الرَّحيم)، فصارَ ذلكَ سنَّةً لافتتاحِ الأمورِ ذواتِ الشَّأنِ في الإسلام، ادَّخرَهُ اللهُ للمسلمينَ مِنْ بقايا سنَّةِ الأنبياءِ بعدَ أنْ تُنوسيَ ذلكَ؛ فإنَّهُ لم يُعرَفْ أنَّ بني إسرائيلَ افتتحوا كُتُبَهم بالبسملةِ[2].

ما خابَ مَن استعانَ باللهِ

معنى الباءِ في ﴿بِسۡمِ﴾:

﴿بِسۡمِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، والباءُ للاستعانةِ[3]، والمعنى هنا: مُستعينًا باللهِ أبدأُ، أو نحوُ ذلكَ، ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ للمُلابَسةِ تبرُّكًا[4].

الإيجازُ بحذفِ فعلٍ مُضمَرٍ يدلُّ عليهِ المَقامُ

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الباءُ في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقةٌ بمُضمَرٍ يُنبِئُ عنهُ الفعلُ المُصدَّرُ بها، كما أنَّها كذلكَ في تسميةِ المسافرِ عندَ الحُلولِ والارتحالِ، وتسميةِ كلِّ فاعلٍ عندَ مباشرةِ الأفعالِ[5]، وبناءً على ذلكَ يكونُ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

الاعتناءُ بالمُقدَّمِ، وقصدُ التَّخصيصِ

غرضُ تقديمِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ على عاملِهِ المحذوفِ:

تقديمُ المعمولِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ في التَّقديرِ على عاملِهِ المحذوفِ، بأنْ يُقالَ مثلًا: مُستعينًا باللهِ أبدأُ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والقصدِ إلى التَّخصيصِ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5][6].

تقديمُ ما هو مختصٌّ باللهِ ﷻ

علَّةُ تقديمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾:

في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مِنَ المبالغةِ ما ليسَ في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وتقديمُهُ مع

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 260.
(3) السمين، الدر المصون: 1/ 14.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 9.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 9.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 9.

كونِ القياسِ تأخيرَهُ؛ رِعايةً لأسلوبِ التَّرقّي إلى الأعلى، كما في قولِهم: فلانٌ عالمٌ نِحْريرٌ؛ لأنَّهُ باختصاصِهِ بِهِ سبحانَهُ صارَ حقيقًا بأنْ يكونَ قرينًا للاسمِ الجليلِ الخاصِّ بِهِ تعالى، ولأنَّ ما يدلُّ على جلائلِ النِّعَمِ وعظائمِها وأصولِها أحقُّ بالتَّقديمِ ممّا يدلُّ على دقائقِها وفروعِها[1].

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾:

الـدَّلالـةُ على أنَّ الجملتينِ السّابقتينِ كالتَّمهيدِ لها

لم يُؤْتَ بحرفِ النَّسقِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجملتينِ السّابقتينِ كالتَّمهيدِ لهُ؛ لأنَّهُ المقصودُ بالذّاتِ[2]؛ إذ هو مقصود الكتاب، ومضمونه الَّذي خاطب به سبيمان ﷺ بلقيس وقومها.

معنى (لا) ودلالتها:

آفةُ التَّكبُّرِ هي أمُّ الرَّذائلِ

الظّاهرُ أنَّ (لا) في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ ناهيةٌ، و(أنْ) مُفسِّرةٌ، وهي تُفيدُ النَّهيَ عنِ التَّرفُّعِ الَّذي هو أمُّ الرَّذائلِ[3]، أي: لا تتكبَّروا، كما يفعلُ جبابرةُ المُلوكِ[4]، وأمّا إنْ جُعِلَتْ (أنْ) مصدريَّةً؛ فـ (لا) نافيةٌ.

نكتةُ تقييدِ النَّهيِ عنِ العُلوِّ بقولِهِ: ﴿عَلَيَّ﴾:

الإيذانُ بالتَّحذيرِ والتَّهديدِ

قيَّدَ سليمانُ ﷺ النَّهيَ عنِ العُلوِّ بقولِهِ: ﴿عَلَيَّ﴾، ولم يَنْهَ عنِ العُلوِّ مطلقًا؛ لِما في هذا التَّقييدِ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ العُلوَّ عليهِ ليسَ كالعُلوِّ على غيرِهِ ممَّنِ اعتادَ المُلوكُ العُلوَّ عليهِم، وفي ذلكَ تحذيرٌ لهُم وتهديدٌ.

إعرابُ جملةِ: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾:

الإسلامُ تمامُ عدمِ العُلوِّ وغايتُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾، فإنْ كانَتْ فيهِ (لا) ناهيةً؛ فعطفُ الأمرِ عليهِ ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ نافيةً و(أنْ) مصدريَّةً فعطفُهُ عليهِ مِنْ عطفِ الإنشاءِ على الإخبارِ، وهو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 11.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 516.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.

جائزٌ عندَ الأكثرينَ[1]، وعطفُ إتيانِهم مسلمينَ على عدمِ عُلوِّهم؛ لأنَّ الإسلامَ مِنْ تمامِ عدمِ العُلوِّ، بل هو غايةُ إرسالِ الكتابِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُسْلِمِينَ﴾:

الإيمانُ مُستتبِعٌ للانقيادِ

يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالإسلامِ في قولِه تعالى: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ معناهُ اللُّغويَّ، وهو الانقيادُ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بِهِ المعنى الاصطلاحيَّ، وهو الإيمانُ[3]، وهذا هو الأليَقُ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ غرضَهُ الدَّعوةُ إلى اللهِ، وتخليصُ النّاسِ مِنَ الكفرِ، على أنَّ الإيمانَ مُستتبِعٌ للانقيادِ[4].

بلاغةُ الطَّردِ والعكسِ:

مفهومُ كلٍّ مِنَ الجملتينِ مُؤكِّدٌ لمنطوقِ الأخرى

عطفُ الأمرِ ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ على النَّهيِ ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾ على سبيلِ الطَّردِ والعكسِ تأكيدًا[5] وإطنابًا[6]، وذلكَ أنَّ مفهومَ الأمرِ بإتيانِهم مسلمينَ عدمُ العُلوِّ، فيكونُ مُؤكِّدًا لمنطوقِ: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾، ومفهومَ النَّهيِ عنِ العُلوِّ الأمرُ بالإسلامِ والانقيادِ، فيكونُ مُؤكِّدًا لمنطوقِ: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

سرُّ تقديمِ النَّهيِ عن العُلوِّ على طلبِ الإسلامِ:

الشُّعورُ بالاقتدارِ أصلُ الكفرِ

معنى العُلوِّ مُتضمِّنٌ الارتفاعَ معَ الشُّعورِ بالاقتدارِ والقوَّةِ والشدَّةِ، مِنْ غيرِ رادعٍ أو خوفٍ، وهو أصلٌ لكلِّ استبدادٍ وطغيانٍ وكفرٍ، ولذلكَ قدَّمَ سليمانُ عليه السلام النَّهيَ عن العُلوِّ على الأمرِ بالإسلامِ، فكانَ ذلكَ بمنزلةِ طلبِ رفعِ المانعِ قبلَ طلبِ الفعلِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 235.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 235.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 283.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 516. والطرد والعكس: من أنواع البديع، وهو أن يُؤتَى بكلامين يقرِّر الأوَّل بمنطوقه مفهومَ الثاني، وبالعكس. ينظر: السيوطي، شرح عقود الجمان، ص: 144.
(6) الميداني، البلاغة العربية: 2/ 91.

بلاغةُ الإيجازِ في كتابِ سليمانَ عليه السلام:

اشتمالُ كتاب سليمان عليه السلام على تمام المقصودِ بأوجزِ العبارات

كتابُ سليمانَ عليه السلام مُشتمِلٌ على تمامِ المقصودِ؛ لأنَّ المطلوبَ مِنَ الخَلْقِ إمّا العِلمُ أو العملُ، والعِلمُ مُقدَّمٌ على العملِ، فقولُهُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُشتمِلٌ على إثباتِ الصّانعِ سبحانه وتعالى، وإثباتِ كونِه عالمًا قادرًا حيًّا مُريدًا حكيمًا رحيمًا، وقولُهُ: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ نهيٌ عنِ الانقيادِ لطاعةِ النَّفْسِ والهوى والتَّكبُّرِ[1]، وقولُهُ: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أمرٌ بالإسلامِ الجامعِ لأمَّهاتِ الفضائلِ[2].

ويُحتملُ أنَّ كتابَ سليمانَ عليه السلام كانَ وجيزًا؛ لأنَّ ذلكَ أنسبُ بمخاطَبةِ مَنْ لا يُحْسِنُ لغةَ المُخاطِبِ، فيقتصرُ لهُ على المقصودِ؛ لإمكانِ ترجمتِه وحصولِ فَهْمِهِ[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُلوُّ والارتفاعُ والصُّعودُ:

قد يُخصَّصُ العُلوُّ في حقِّهِ تعالى بالاقتدارِ على الخَلْقِ

الرِّفعةُ والعُلوُّ بمعنًى في اللُّغة، وهو الفَوْقيَّةُ، وقد يُخصَّصُ العُلوُّ في حقِّهِ تعالى بعُلوِّهِ على الخَلْقِ بالقُدرةِ عليهم[4]، وأمّا الصُّعودُ؛ فمقصورٌ على الارتفاعِ في المكانِ، ولا يُستعملُ في غيرِه، فيقالُ: صَعِدَ في السُّلَّمِ، ولا يقالُ: صَعِدَ أمرُهُ، والصُّعودُ أيضًا هو الذَّهابُ إلى فوق فقط، وليسَ الارتفاعُ كَذلكَ، يقالُ: ارتفعَ في المجلسِ، وإنْ لم يذهبْ في عُلْوٍ.

والعُلوُّ المُتضمِّنُ للشُّعورِ بالاقتدارِ والقوَّةِ هو ما نهَى عنهُ سليمانُ عليه السلام؛ لأنَّهُ أصلُ الطُّغيانِ والكفرِ.

الإتيانُ والمجيءُ:

سهولةُ الإسلامِ لِمَنْ خلعَ رداءَ الكِبْرِ عن نفسِهِ

فُرِّقَ بينَ المجيءِ والإتيانِ مِنْ وجوهٍ:

أحدُها: الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 554.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 260.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.

أَتيٌّ، وأَتاويٌّ[1]، والمجيءُ أعمُّ[2]، وفي اختيارِ لفظِ الإتيانِ في الآيةِ إشارةٌ إلى سهولةِ الانتماءِ للإسلامِ، وتمثُّلِ شريعتِهِ خُلُقًا ومنهجَ حياةٍ.

والثّاني: الإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[3]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[4]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ، ولمّا كانَ إتيانُهم مسلمينَ مُتضمِّنًا للقصدِ والحصولِ بالفعلِ؛ أمرَهم بهِ سليمانُ عليه السلام.

(1) الراغب، المفردات: (أتي).

(2) الراغب، المفردات: (جاء).

(3) الراغب، المفردات: (جاء).

(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 50.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾ [النمل: 32]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مشاورةُ الملأِ في الأمرِ بعدَ إعلامِهم به

بعدَ أنْ أخبرَتْ بِلْقيسُ مُستشاريها بأمرِ الكتابِ وما وردَ فيه؛ طلبَتْ منهمُ الرَّأيَ والمَشورةَ، فقالَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡتُونِي﴾: (فتي) أصلان: أحدُهما يدلُّ على طَراوةٍ وجِدَّةٍ، والآخرُ يدلُّ على تبيينِ حُكمٍ[2]، فمِنَ الأوَّلِ: الفَتيُّ، وهو الطَّريُّ مِنَ الإبلِ، والفَتَى مِنَ النّاسِ: واحدُ الفِتْيانِ، ومِنَ الثّاني: الإفتاءُ، وهو جوابُ السّائلِ عمّا يُشكِلُ عليه، ومنهُ: المُفتي؛ لأنَّهُ يُزيلُ إشكالَ المسائلِ، ويوضِّحُ الأحكامَ، ويقالُ: أفتَى الفقيهُ في المسألةِ؛ إذا بيَّنَ حكمَها[3]، والمرادُ بالإفتاءِ هنا: الإخبارُ بالفتوى، وهي إزالةُ مُشكِلٍ يَعرِضُ[4].

2) ﴿أَمۡرِي﴾: (أمر) أُصولٌ خَمسةٌ: الأَمرُ مِنَ الأُمورِ، والأَمرُ ضِدُّ النَّهيِ، والأَمَرَ النَّماءُ والبَرَكَةُ بِفَتْحِ الميمِ، والمَعْلَمُ، ولَعَجَبُ[5]. والأمرُ: الشَّأنُ، وجمعُهُ: أُمورٌ، ومصدرُ أمرتُهُ؛ إذا كلَّفتُهُ أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وعلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][6]، ومعنى الأمرِ في الآيةِ: الحالُ المهمُّ[7].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 258، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10777.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتي).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (فتى).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 262.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (أمر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 262 - 263.

3) ﴿قَاطِعَةً﴾: (قطع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[1]. والمعنى المحوريُّ له: فصلُ شيءٍ مِنْ شيءٍ[2]، سواءٌ كانَ الشَّيءُ مُدرَكًا بالبصرِ كالأجسامِ، أم مُدرَكًا بالبصيرةِ كالأشياءِ المعقولةِ، قالَ جلَّ شأنُهُ في قَطْعِ الأعضاءِ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، وقالَ في قَطْعِ الأرحامِ: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ [محمد: 22]، وقَطْعُها يكونُ بالهجرانِ ومنعِ البِرِّ، وقَطَعَ الأمرَ: فَصَلَهُ، وقَطْعُ دابرِ الإنسانِ: إفناءُ نَوْعِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: 45][3]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: 53]، معناهُ: صاروا أحزابًا وفِرَقًا مختلفةً في المذاهبِ والأديانِ، والقَطيعُ مِنَ الغَنَمِ: جماعتُها؛ لأنَّهُ قُطِعَ مِنْ جملتِها[4]، ومعنى قطعِ الأمرِ هنا: البتُّ فيهِ[5].

4) ﴿تَشْهَدُونِ﴾: (شهد) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[6]. والمعنى المحوريُّ له: الحُضورُ والعِلمُ والإعلامُ، والشُّهودُ والشَّهادةُ: الحُضورُ مَعَ المشاهدةِ، إمّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ، وقد يقالُ للحُضورِ مُفرَدًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73]، ويقالُ للمحضَرِ: مَشْهَدٌ، وجمعُهُ: مَشاهِدُ، ومنهُ: مَشاهِدُ الحجِّ، وهي مواطنُهُ الشَّريفةُ الَّتي يَحْضُرُها الملائكةُ والأبرارُ مِنَ النّاسِ[7]، وقولُهُ تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: 49]، أي: ما حضَرْنا، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: 72]، أي: لا يَحْضُرونَهُ بنفوسِهم ولا بهِمَمِهم وإرادتِهم، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصلَ بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصرٍ[8]، ومعنى الشُّهودِ في الآيةِ: حضورُ الأمرِ ومعاينتُهُ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَتْ بِلْقيسُ لأشرافِ قومِها: يا أيُّها الملأُ أَشيروا عليَّ في أمري الَّذي قد حضرَني مِنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قطع).
(3) الراغب، المفردات: (قطع).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (قطع).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5451.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(7) الراغب، المفردات: (شهد).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (شهد).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 263، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5451.

أمرِ صاحبِ هذا الكتابِ الَّذي أُلقيَ إليَّ، ما كنتُ قاضيةً أمرًا مِنْ أمورِ المملكةِ حتَّى تَحْضُروني، فأشاورَكم فيهِ(1).

المشاورةُ مِنْ دعائمِ الحُكمِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الآيةُ مستأنفةٌ بيانيًّا

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قالَتْ بِلْقيسُ بعدَ إخبارِ مُستشاريها بالأمرِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ الآيةَ(2).

سرُّ تكرارِ حكايةِ القولِ:

التَّنبيهُ على غايةِ اعتنائِها بما في حيِّزِه

كُرِّرَتْ حكايةُ قولِ بِلْقيسَ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾؛ للإيذانِ بغايةِ اعتنائِها بما في حيِّزِهِ مِنْ قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾(3)، ولدفعِ اشتباهِ كونِ ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ مِنْ تتمَّةِ مكتوبِ سليمانَ عليه السلام(4).

نكتةُ تكرارِ النِّداءِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾:

شدَّةُ الاعتناءِ بالنّازلةِ وطلبُ المُشاوَرةِ

كرَّرَتْ بِلْقيسُ نداءَ مُستشاريها في قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾؛ لشدَّةِ اعتنائِها بالنّازلةِ، وشدَّةِ اعتنائِها بأنْ يُعينوها، ويُساعِدوها(5)، واستُعمِلَ في النِّداءِ (يا) الَّتي يُنادَى بها المُعرَّفُ، ويُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً إلى عنايةِ بِلْقيسَ بمُناداةِ الملأِ، ولَفْتِ انتباهِهم لطلبِ المَشورةِ منهُم؛ لأنَّ ذلكَ يتعلَّقُ بمصيرِ مملكتِهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 453.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 262.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 192.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 383.
(5) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 292.

سرُّ تخصيصِ الملأِ بالنِّداءِ:

المَلأُ هم أشرافُ قومِها وأهلُ مشورتِها

خصَّتْ بِلْقيسُ الملأَ بالنِّداءِ في قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾؛ لأنَّ الملأَ هم أشرافُ النّاسِ الَّذينَ يَنوبونَ مَنابَ الجميعِ[1]، وهي نادَتْ أشرافَ قومِها وأعيانَهم الَّذينَ هم أهلُ مجلسِها ومستشاروها[2]، وفي ندائِهم بوصفِ الملأِ تعظيمٌ لهُم[3]، وشَحْذٌ لهِمَمِهِم في إخلاصِ النُّصحِ والمَشورةِ وبَذْلِهما.

وجهُ إيقاعِ الأمرِ بالإفتاءِ على ضميرِ المُتكلِّم:

إظهارُ شدَّةِ الحاجةِ إلى مَشورتِهم

أوقعَتْ بِلْقيسُ الأمرَ بالإفتاءِ على ضميرِ المُتكلِّم في قولِها: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾، ولم تقل مثلًا: (أفتونا في أمرِنا) بحيثُ تعمُّ نفسَها وقومَها؛ لإظهارِ شدَّةِ حاجتِها إلى رأيِ الملأِ ومَشورتِهم، وكأنَّهم يُسعِفونَها في شأنٍ خاصٍّ بها، وفي ذلكَ مزيدُ تحريكٍ لنشاطِهم في إبداءِ الرَّأيِ وإمحاضِ النُّصحِ؛ إذ كثيرًا ما يَخِفُّ النّاسُ في تلبيةِ حاجاتِ المُلوكِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الإفتاءِ:

الإفتاءُ مُستعارٌ للجوابِ في الحادثةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ الفَتْوَى هي الجوابُ في الحادثةِ، اشتُقَّتْ على طريقِ الاستعارةِ مِنَ الفَتيِّ في السِّنِّ[4]، والجهةُ الجامعةُ بينَ المُستعارِ والمُستعارِ لهُ: إمّا الإحداثُ، كما يقالُ للفتَى: هو حديثُ السِّنِّ، وإمّا القوَّةُ؛ فإنَّ في الفتَى مَظِنَّةَ القوَّةِ والشِّدَّةِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ عنِ الجوابِ بالفَتْوَى:

تهويلُ الأمرِ ورفعُ شأنِ الملأِ

قولُهُ ﷻ: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾، معناهُ: أَجيبوني في أمري الَّذي

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 258.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 157.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 364، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 519.

حزبَني، وذكرتُ لكُم خلاصتَهُ، وعبَّرَتْ عنِ الجوابِ بالفَتْوَى الَّتي هي الجوابُ في الحوادثِ المُشكِلةِ غالبًا؛ تهويلًا للأمرِ، ورفعًا لمَحَلِّهم بالإشعارِ بأنَّهم قادرونَ على حلِّ المُشكِلاتِ المُلِمَّةِ[1].

وجهُ إضافةِ الأمرِ إلى ياءِ المُتكلِّم:

إضافةُ بِلْقيسَ الأمرَ إلى نفسِها لكونِها رئيسًا متبوعًا

إضافةُ الأمرِ إلى ياءِ المُتكلِّمِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَفْتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾؛ للعهدِ بمَعونةِ السّياقِ، أي: أفتوني في الحادثةِ المُعيَّنةِ[2].

وهذا الأمرُ وإنْ كانَ عامًّا للمملكةِ كلِّها، لكنَّها أضافَتْهُ إلى نفسِها؛ لكونِها رئيسًا متبوعًا[3]، ولأنَّها المُخاطَبةُ بكتابِ سليمانَ عليه السلام، ولأنَّها القائمةُ بما يجبُ إجراؤُهُ مِنْ شؤونِ المملكةِ، وعليها تَبِعَةُ الخطأِ في المنهجِ الَّذي تسلكُهُ مِنَ السّياسةِ، ولذلكَ يقالُ للخليفةِ وللمَلِكِ وللأميرِ ولعالِمِ الدّينِ: وليُّ الأمرِ[4].

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

رأيُ الجماعةِ مهمٌّ لاختيارِ أفضلِ السُّبلِ

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾: نافيةٌ، والمعنى: لا أَبُتُّ أمرًا إلّا بمَحْضَرِكم[5]، والنَّفيُ بـ﴿مَا﴾ آكدُ مِنَ النَّفي بغيرِها، فيكونُ أنسبَ بعادتِها المُستمرَّةِ في استشارةِ الملأِ مِنْ قومِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ ماضيًا:

استشارتُهم عادةٌ مُستمِرَّةٌ للملكة بلقيس

في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ دلالةٌ على أنَّ المَشورةَ عادةٌ لبِلْقيسَ في جميعِ أمورِ المملكةِ، وأنَّها استمرَّتْ على ذلكَ، ولم يقعْ منها غيرُهُ في الزَّمنِ الماضي، فكذا في هذا الأمرِ العظيمِ النّازلِ بها وبمملكتِها[6].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 383، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 262.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 383.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5451، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 262.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 192.

وفي الكلامِ أيضًا إشارةٌ إلى دفعِ وهْمِ العَجْزِ، والمعنى: إنَّ عَرْضَ هذا الأمرِ وطلبَ الجوابِ لهُ ليسَ لعَجْزي عنِ الجوابِ، بل لكونِ عادتي المُستمِرَّة إلى الآن المُشاوَرَةَ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿قَاطِعَةً﴾:

المبالغةُ في نفي كونِها تبتُّ أمرًا دونَ مَشورةٍ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ للمبالغةِ في نفيِ كونِها تبتُّ أمرًا دونَ مَشورةٍ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ انتفاءَ الثُّبوتِ، والمعنى: ما كنتُ مُتَّصفةً بصفةِ قَطْعِ الأمرِ دونَ مَشورةٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿أَمْرًا﴾:

شمولُ المَشورةِ كلَّ أمورِ المُلْكِ

يدلُّ التَّعبيرُ بالنَّكرةِ ﴿أَمْرًا﴾ في سياقِ النَّفيِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ على أنَّ الأمرَ عامٌّ في كلِّ أمرٍ منَ الأمورِ المُتعلِّقةِ بالمُلْكِ[2]، أي: إذا كانَتْ عادتي هذهِ معَكم؛ فكيفَ لا أستشيرُكم في هذهِ الحادثةِ الكُبرى، الَّتي هي الخروجُ مِنَ المُلْكِ، والدُّخولُ في طاعةِ غيري، والصَّيرورةُ تَبَعًا؟[3].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾:

غايةُ قطعِ الأمرِ حضورُهم مجلسَها

التَّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ للدَّلالةِ على غايةِ القَطْعِ، وهي حضورُهم مجلسَها[4].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾:

الشُّهودُ كنايةٌ عنِ المُشاوَرةِ

﴿تَشْهَدُونِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ مضارعُ (شَهِدَ) المُستعمَلِ بمعنى (حضرَ)، كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]، أي: حتَّى تَحضُروني، وفعلُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 384.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 235.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 192.

﴿تَشْهَدُونِ﴾ هنا مُستعمَلٌ كنايةً عنِ المُشاوَرةِ؛ لأنَّها يلزمُها الحُضورُ غالبًا؛ إذ لا تقعُ مُشاوَرةٌ معَ غائبٍ[1].

غرضُ الإخبارِ بقولِها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾:

استعطافُ الملأِ واستمالةُ قُلوبِهم

أخبرَتْ بِلْقيسُ بقولِها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، أي: إلّا بمَحْضَرِكم وبموجَبِ آرائِكم؛ استعطافًا لهُم، واستمالةً لقُلوبِهم؛ لئلّا يُخالِفوها في الرَّأيِ والتَّدبيرِ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُكْمُ والقضاءُ والفَتْوَى:

الحُكْمُ رفعُ الخُصومةِ، والفَتْوَى الإخبارُ عنِ الحُكْمِ، والقضاءُ الإلزامُ بالحُكمِ

الحُكْمُ: رفعُ الخُصومةِ بينَ النّاسِ فيما يتعلَّقُ بأمورِ مَعاشِهم، والقضاءُ في أصلِ اللُّغةِ يرجعُ إلى إتمامِ الشَّيءِ وانقطاعِه، وهو إعلامٌ بالحُكمِ معَ إلزامٍ بهِ؛ لكونِه باتًّا جازمًا[3]، والفَتْوَى: الإخبارُ عنِ الحُكْمِ دونَ إلزامٍ بهِ، وصورتُها أنْ تكونَ جوابًا في حادثةٍ، أو إحداثَ حُكمٍ، أو بيانًا لمُشكِلٍ[4]، وهذهِ المعاني تناسبُ طلبَ بِلْقيسَ مِنْ مَلَئِها أنْ يُشارِكوها الرَّأيَ في رسالةِ سليمانَ ﷺ.

الفَصْلُ والقَطْعُ والبتُّ والحَسْمُ:

القطعُ أعمُّ منَ الفصلِ، والبتُّ والحسمُ استئصالٌ بلا رجعةٍ أو أثرٍ

الفَصْلُ: هو القَطْعُ الظّاهرُ، ولذلكَ يقالُ: فصلَ الثَّوبَ، والقَطْعُ يكونُ ظاهرًا وخافيًا، كالقَطْعِ في الشَّيءِ المُلْزَقِ المُمَوَّهِ، ولا يقالُ لذلكَ: فَصْلٌ، حتَّى يُبانَ أحدُ المفصولينِ عنِ الآخرِ، ومِنْ ثَمَّ يقالُ: فُصِلَ بينَ الخصمينِ، إذا ظهرَ الحقُّ على أحدِهما، فزالَ تعلُّقُ أحدِهما بصاحبِه، فتباينا، ولا يقالُ في ذلكَ: قَطْعٌ، ويقالُ: قطعَهُ في المُناظَرةِ؛ لأنَّهُ قد يكونُ ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ يظهرَ، ومِنْ غيرِ أنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 263.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 321.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 233، والطيبي، فتوح الغيب: 5/ 174.

يقطعَ شَغَبَهُ وخُصومتَهُ[1]، وقطعُ الطَّريقِ يقالُ باعتبارينِ: أحدُهما: قطعُها بالسَّيرِ، ومنهُ أُخِذَ المعنى المجازيُّ، وهو المُضيُّ في الأمرِ، وفي الآيةِ عبَّرَتْ بِلْقيسُ بلفظِ القطعِ؛ للدَّلالةِ على مُضيِّها فيما تريدُ[2].

أمّا البَتُّ: فهو القطْعُ المُستأصِلُ، ويُستعملُ في كلِّ أَمرٍ يَمْضي لا رجعةَ فيهِ ولا التواءَ، وهو غيرُ مُحبَّبٍ في مَوْرِدِ الاستشارةِ؛ لذلكَ عدلتِ الآيةُ الكريمةُ عنهُ[3].

وأصلُ الحَسْمِ: قَطعُ الشَّيءِ عن آخرِهِ، حتَّى لا يُظفَرَ منهُ بشيءٍ، ومنهُ سُمّيَ السَّيفُ حُسامًا؛ لأنَّهُ يَحسِمُ العدوَّ عمّا يريدُ[4]، وهو غيرُ مناسبٍ هنا أيضًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 406.

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (قطع).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بتت).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسم).

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ [النمل: 33]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

جواب الملأ مِن قومِ بِلْقيسَ بعدَ استشارتِها لهُم

لمّا استشارَتْ بِلْقيسُ الملأَ مِنْ قومِها في شأنِ كتابِ سليمانَ عليه السلام، استعطافًا لهم وتكريمًا؛ ليمالِئوها في الرد على كتاب سليمان، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قالوا في جوابِها؟ فقيلَ: قالوا: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُوَّةٖ﴾: (قوي) أَصْلانِ مُتَبايِنانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ، والآخَرُ عَلَى خِلافِ هَذا وعَلَى قِلَّةِ خَيْرٍ[2]. والقوَّةُ: ضدُّ الضَّعفِ[3]، وتُستعمَلُ تارةً في معنى القُدرة، كقولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً للتَّهيُّؤِ الموجودِ في الشَّيءِ، كقولِكَ: النَّوَى بالقوَّةِ نَخْلٌ، أي: مُتهيِّئٌ أنْ يكونَ منهُ ذلكَ، وتُستعمَلُ القوَّةُ في البدنِ تارةً، وفي القلبِ أخرى، وفي المُعاوِنِ مِنْ خارجٍ تارةً، وفي القُدرةِ الإلهيَّةِ تارةً[4]، والمرادُ بالقوَّةِ في الآيةِ: وسائلُ القدرةِ على القتالِ والغلَبةِ، وكثرةُ القادرينَ على القتالِ والعارفينَ بأساليبِه[5].

2) ﴿بَأۡسٖ﴾: (بأس) أَصْلٌ واحِدٌ بمعنى الشِّدَّة وما ضارَعَها[6]، فالبُؤْسُ والبأسُ والبأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروهُ، وقيلَ: البُؤْسُ في الفَقْرِ والحربِ أكثرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ أكثرُ، كقولِه تعالى:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 159.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (قوي).
(4) الراغب، المفردات: (قوي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 264.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: 84]، وقولِه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وقولِه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]، وقالَ ﷻ: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾ [الحشر: 14][1]، والبأسُ في الآيةِ: الشِّدَّةُ على العدوِّ في مواقعِ القتالِ[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تفويضُ الملأِ الأمرَ لبِلْقيسَ

قالَ الملأُ مِنْ قومِ مَلِكةِ سبأٍ إذْ شاورَتْهم في أمرِها وأمرِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نحنُ ذوو القوَّةِ على القتالِ، وذَوو البأسِ الشَّديدِ في الحربِ، والأمرُ - أيَّتُها المَلِكةُ - إليكِ في القتالِ وتركِه، فانظُري مِنَ الرَّأيِ ما تَرَيْنَ، فمُرينا؛ نأتَمِرْ لأمرِك[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ مِنْ حكايةِ قولِها، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قالوا في جوابِها؟ فقيلَ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ الآيةَ[4]، والفصلُ جارٍ على طريقةِ المُحاوَراتِ[5].

المرادُ بالضَّميرِ ﴿نَحۡنُ﴾:

جماعةُ المملكةِ مِنْ أهلِ الحربِ

أرادَ الملأُ مِنْ قولِهم: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ جماعةَ المملكةِ الَّذينَ هم مِنْ أهلِ الحربِ، فهو مِنْ إخبارِ عُرَفاءِ القومِ عن حالِ جماعاتِهم ومَنْ يُفوَّضُ أمرُهم إليهِم[6].

---

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بأس).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 264.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 453.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 192.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 264.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 264.

شأنُ الملأِ القوَّةُ في الحربِ، والبأسُ الشَّديدُ

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أُوْلُواْ﴾ دونَ (ذوو) و(أصحاب):

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿أُوْلُواْ﴾؛ لاختصاصِهِ بإضافةِ الأشياءِ المعنويَّةِ إليه، كالألبابِ، والعِلمِ، والقُربَى، والأرحامِ، والقوَّةِ والبأسِ الشَّديدِ هنا، بخلافِ (ذوو)؛ فإنَّهُ أعمُّ استعمالًا، وأمّا (أصحاب)؛ فيضافُ إلى الأشياءِ المادّيَّةِ، كأصحابِ مدينَ، والحِجْرِ، والكهفِ، والسَّفينةِ، ويُستعملُ حينَ يكونُ المضافُ إليه مُنفصِلًا عن المضافِ، كأصحابِ الأُخدودِ، وأصحابِ القريةِ، وأمّا ﴿أُوْلُواْ﴾؛ فيدلُّ على شدَّةِ المصاحبةِ، فـ ﴿أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: مَنْ كانَ شأنُهُ ذلكَ؛ لملازمتِهِ إيّاهُ، واتِّصافِهِ به.

ما لا تتمُّ القوَّةُ إلّا بهِ فهو من القوَّةِ

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿قُوَّةٖ﴾:

حقيقةُ القوَّةِ: حالةٌ في الجسمِ يتأتَّى لهُ بها أنْ يعملَ ما يشقُّ عملُهُ في المعتادِ، فتكونُ في الأعضاءِ الظّاهرةِ، كقوَّةِ اليدينِ على الصُّنعِ الشَّديدِ، والرِّجلينِ على المَشْيِ الطَّويلِ، والعينينِ على النَّظرِ للمرئيّاتِ الدَّقيقةِ، وتكونُ في الأعضاءِ الباطنةِ، كقوَّةِ الدِّماغِ على التَّفكيرِ الَّذي لا يستطيعُهُ غالبُ النّاسِ، وعلى حفظِ ما يَعْجِزُ عن حفظِهِ غالبُ النّاسِ.

ولمّا كانَ مِنْ لوازمِ القوَّةِ أنَّ قُدرةَ صاحبِها على عملِ ما يريدُهُ أشدُّ ممّا هو المعتادُ، والأعمالُ عليهِ أيسرُ؛ شاعَ إطلاقُها على الوسائلِ الَّتي يستعينُ بها على تذليلِ المصاعبِ، كالسِّلاحِ، والعَتادِ، والمالِ، والجاهِ، وهو إطلاقٌ كِنائيٌّ[1].

تنوُّعُ صوَرِ القوَّةِ، وتعظيمُ شأنِها

علَّةُ تنكيرِ ﴿قُوَّةٖ﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿قُوَّةٖ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾؛ لتعدُّدِ محامِلِهِ، فقد يُرادُ بِهِ قوَّةُ الأجسادِ، وقد يُرادُ بِهِ قوَّةُ الآلاتِ والعُدَدِ[2]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 99.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 364، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555.

والأولى قوَّةٌ ذاتيَّةٌ، والثّانيةُ قوَّةٌ عَرَضيَّةٌ[1]، ويحتملُ التَّنكيرُ أن يكونَ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ اعتدادٍ منهُم بما لهُم مِنَ القوَّةِ والبأسِ.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ﴾:

الجمعُ بينَ القوَّةِ وبينَ البأسِ والثِّقةِ بالنَّفسِ

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ للعطفِ، وهي تفيدُ أنَّهم اعتدّوا بقوَّتِهم، واعتدّوا ببأسِهم الشَّديدِ، وفي ذلكَ ثقةٌ عاليةٌ منهُم بأنفسِهم وإمكاناتِهم؛ فضلًا عن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في الدِّفاعِ عن مَلِكتِهم ومملكتِهم.

سرُّ تكرارِ ﴿أُوْلُواْ﴾:

المبالغةُ في الاعتدادِ ببأسِهم الشَّديدِ

كُرِّرَ ﴿أُوْلُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، ولم يقل: (نحنُ أولو قوَّةٍ وبأسٍ شديدٍ)؛ للمبالغةِ في الاعتدادِ بما لهُم مِنَ القوَّةِ، ومِنَ البأسِ الشَّديدِ، وتأكيدِ أنَّهم مُتَّصِفونَ بكلٍّ منهما.

علَّةُ تنكيرِ ﴿بَأۡسٖ﴾ ووصفه بالشِّدَّة:

بأسُهم عظيمُ الشَّأنِ

تنكيرُ ﴿بَأۡسٖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، ووُصِفَ البأسُ بالشِّدَّةِ لأنَّ البأسَ عندَ إطلاقِهِ قد ينصرِفُ إلى أدنى درجاتِ البأسِ، فبالَغوا في وصفِهِ؛ لإظهارِ كمالِ اقتدارِهم على الحربِ.

بلاغةُ التَّعريضِ في اختيارِ لفظ ﴿قُوَّةٖ﴾ و﴿بَأۡسٖ﴾:

التَّعريضُ بأنَّهم يميلونَ إلى الدَّفعِ بالقوَّةِ

قولُ الملأ: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ تصريحٌ بأنَّهم مُستعِدّونَ للحربِ للدِّفاعِ عن مُلْكِهم، وتعريضٌ بأنَّهم يميلونَ إلى الدَّفعِ بالقوَّةِ إنْ أرادَ سليمانُ عليه السلام أنْ يُكرِهَهم على الدُّخولِ تحتَ طاعتِهِ؛ لأنَّهم حَمَلوا ما تضمَّنَهُ كتابُهُ على ما قد يُفضي إلى هذا[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 384.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 264.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾:

الطاعةُ من وجوهِ القوَّةِ واجتماعِ الكلمة

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾؛ للعطفِ، وهي تُفيدُ دخولَ هذهِ الجملةِ في حيِّزِ مَقولِ الملأ، فيكونونَ قد جمعوا بينَ إظهارِ قوَّتِهم وشدَّةِ بأسِهم، واستعدادِهم للقتالِ، وبينَ إظهارِ شدَّةِ طاعتِهم لملكتِهم.

نوعُ التَّعريف في لفظ: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾:

تسليمُ الأمرِ كلِّه لبلقيس من تمام طاعتهم لها

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾؛ للجنسِ، أي: جميعُ الأمرِ مُفوَّضٌ إليكِ، وهذا الأمرُ أيضًا موكولٌ إليكِ، وجوِّزَ أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ، والمرادُ: أمرُ الانضواءِ تحتَ مُلْكِ سليمانَ عليه السلام، وضعَّفَهُ القونويُّ[1].

بلاغةُ القصرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾:

لا ينفُذُ أمرٌ دونَ موافقةِ بِلْقيسَ

﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ مبتدأٌ، و﴿إِلَيۡكِ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ خبرًا لهُ، ويُقدَّرُ مُؤخَّرًا؛ ليُفيدَ الحصرَ المقصودَ؛ لفَهْمِهِ مِنَ السِّياقِ، أي: والأمرُ إليكِ موكولٌ[2]، أي: والأمرُ إليكِ لا إلى غيرِكِ موكولٌ[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنظُرِي﴾:

مآلُ النُّفوذِ اتِّخاذُ القرارِ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا كانَ الأمرُ إليكِ؛ فانظُري ماذا تأمرينَ[4].

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿مَاذَا﴾:

تشوُّقُ الملأ لمعرفةِ قرارِ بِلْقيسَ

﴿مَاذَا﴾ في قولِهِ جلَّ سلطانُهُ: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ هو المفعولُ الثّاني لـ ﴿تَأۡمُرِينَ﴾، والأوَّلُ محذوفٌ، تقديرُهُ: تأمُرينَنا، والاستفهامُ مُعلِّقٌ لفعلِ ﴿فَٱنظُرِي﴾[5]، وفي هذا الاستفهامِ تشوُّقٌ مِنَ الملأ لمعرفةِ القرارِ والجوابِ، الَّذي ستُجيبُ بِهِ بِلْقيسُ سليمانَ عليه السلام.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 384.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 192.
(3) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 293.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5452.
(5) السمين، الدر المصون: 8/ 611، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 265.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَأۡمُرِينَ﴾:

قرارُ بِلْقيسَ أمرٌ مستقبليٌّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾؛ لأنَّ الأمرَ الصّادرَ مِنْ بِلْقيسَ يقعُ في المستقبلِ بالنِّسبةِ لزمنِ محاورةِ الملأِ لها، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿تَأۡمُرِينَ﴾:

الإيجازُ لإظهارِ شدَّةِ الطّاعةِ لبِلْقيسَ

في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ بحذفِ مفعولِ ﴿تَأۡمُرِينَ﴾ ومُتعلِّقِهِ؛ لظُهورِهما مِنَ المقامِ، والتَّقديرُ: (ما تأمرينَنا بِهِ)[1]، وفي هذا الإيجازِ بيانُ الملأِ شدَّةَ طاعتِهم لَمِلكتِهم؛ إذ أوامرُها إنَّما تكونُ موجَّهةً لهُم، فاستغنَوا عن ذكرِ الضَّميرِ الرّاجعِ إليهِم، وتترتَّبُ على هذا الحذفِ أيضًا مراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ.

وقولُ الملأِ: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ معناهُ: مُرينا بأمرِكِ؛ نُطِعْكِ، كأنَّهم أشاروا عليها بالقتالِ، أو المرادُ: نحنُ مِنْ أبناءِ الحربِ لا مِنْ أبناءِ الرَّأيِ والمَشورةِ، وأنتِ ذاتُ الرَّأيِ والتَّدبيرِ، فانظُري ماذا تَرَيْنَ؛ نتَّبِعْ رأيَكِ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوَّةُ والقُدرةُ والبأسُ والشِّدَّةُ:

لفظا القوَّةِ والبأسِ أنسبُ بمقامِ التَّلويحِ بالقتالِ

القُدرةُ: كونُ الحيِّ بحيثُ إنْ شاءَ؛ فعلَ، وإنْ شاءَ؛ تركَ، والقوَّةُ: هي المعنى الَّذي يتمكَّنُ بهِ الحيُّ مِنْ مُزاوَلةِ الأفعالِ الشّاقَّةِ، والبأسُ: الشِّدَّةُ في الحربِ[3]، والشِّدَّةُ: القوَّةُ في الجسمِ[4]، وبناءً على ما سبقَ فإنَّ لفظَي القوَّةِ والبأسِ أنسبُ بسياقِ التَّلويحِ بالقتالِ والحربِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 265.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 364.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شد).

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةًۭ ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٣٤﴾ [النمل: 34]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ ردِّ بِلْقيسَ كلامَ الملأِ

لمّا أحسَّت بِلْقيسُ منهم المَيْلَ إلى الحَرْبِ؛ شرعَتْ في تزييفِ مقالتِهم المبنيَّةِ على الغفلةِ عن شأنِ سليمانَ عليه السلام، وذلك قولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعِزَّةَ﴾: (عزّ) أصلٌ يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ وما شابهَهما مِنْ غلَبةٍ وقَهْرٍ[2]، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ مِنْ أنْ يُغلَبَ، مِنْ قولِهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، ويقالُ: تعزَّزَ اللَّحْمُ، أي: اشتدَّ، والعزيزُ: الَّذي يَقْهَرُ، ولا يُقْهَرُ، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]، وقد تُستعارُ العِزَّةُ للحَميَّةِ والأَنَفةِ المذمومةِ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206]، ويقالُ: عزَّ عليَّ كذا، أي: صَعُبَ[3]. والمقصودونَ بالأعزَّةِ في الآيةِ: مَنْ هم في موطنِ العزَّةِ والسُّلطانِ[4].

2) ﴿أَذِلَّةًۭ﴾: (ذلّ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخُضوعِ والاستكانةِ واللّينِ[5]، يقالُ: ذلَّتِ الدّابَّةُ تَذِلُّ ذلًّا، فهي ذَلولٌ[6]، والذُّلُّ: ضدُّ العزِّ، ورجلٌ ذليلٌ بيِّنُ الذُّلِّ والذِّلَّةِ والمَذَلَّةِ، مِنْ قومٍ أَذِلّاءَ وأَذِلَّةٍ[7]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًۭا﴾ [النحل: 69]، أي: منقادةً غيرَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 193.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزز).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عزز).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5452.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).
(6) الخليل، العين: (ذلل).
(7) الجوهري، الصحاح: (ذلل).

مُستصعِبةٍ، وقولُهُ: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: 14]، أي: سَهُلَتْ لمُتناوِلِها لدُنوِّها بمنزلةِ الدّابَّةِ المنقادةِ، وقولُهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، أي: ليِّنينَ سَهْلِينَ على إخوانِهم مِنَ المؤمنينَ(1)، والمرادُ بالأَذِلَّةِ هنا: أهلُ الهَوانِ(2) والصَّغارِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عادةُ المُلوكِ عندَ الغلَبةِ الإفسادُ والاستعبادُ

قالَتْ بِلْقيسُ للملأِ مِنْ قومِها، حينَ عَرَضوا عليها أنفُسَهم لقتالِ سليمانَ ﷺ: إنْ أمرَتْهم بذلكَ: إنَّ المُلوكَ إذا دخلوا قريةً على سبيلِ القَهْرِ والغلَبةِ؛ خرَّبوها، وجعلوا أَعِزَّةَ أهلِها أَذِلَّةً بالقتلِ والأَسْرِ والاسترقاقِ، وذلكَ دَيْدَنُهم على الدَّوامِ(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

وليُّ الأمرِ الصالحِ يفكِّرُ بعواقبِ الأمورِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قالَتْ بِلْقيسُ في جوابِ الملأِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ الآيةَ، وهذا الفصلُ جارٍ على سَنَنِ المُحاوَرةِ(4).

والكلامُ المستأنفُ مَسوقٌ للرَّدِّ على مستشاريها، وإبداءِ عدمِ رِضاها بمَشورتِهم، وهي خَوْضُ الحربِ، بل إنَّ مَيْلَها كانَ للسَّلامِ وعقدِ الصُّلحِ، وعلَّلَتْ ذلكَ بما جاءَ في الآيةِ(5).

غرضُ التَّوكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

طِباعُ ملوكِ الدُّنيا تتشابه إلّا من آمنَ باللهِ

افتتاحُ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (ذلل).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5452.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 454، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 189.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 265.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 207.

للاهتمامِ بالخبرِ وتحقيقِهِ؛ لِما لهُ مِنَ الخُطورةِ البالغةِ، فقولُها: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ استدلالٌ بشواهدِ التّاريخِ الماضي[1].

علَّةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُلُوكَ﴾ وجمعِهِ:

شأنُ جميعِ الملوكِ الإفسادُ والإذلالُ

جيءَ بلفظِ ﴿ٱلۡمُلُوكَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ جمعًا مُعرَّفًا؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ أمرٌ عامٌّ في جنسِهم[2]، أي: إنَّ المُلوكَ مُطلَقًا، فكيفَ بهذا النّافذِ الأمرِ العظيمِ القَدْرِ[3]؟ وفي ذلكَ تأكيدٌ لصُدورِ الأمرِ مِنْ سليمانَ عليه السلام، وأنَّهُ لا محالةَ صادرٌ منهُ[4].

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الاستدلالُ بشواهدِ التّاريخِ الماضي

﴿إِذَآ﴾ في الأصلِ: ظرفٌ لِما يستقبلُ مِنَ الزَّمانِ، وقولُ بِلْقيسَ: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ استدلالٌ بشواهدِ التّاريخِ الماضي، ولهذا تكونُ ﴿إِذَا﴾ ظرفًا للماضي بقرينةِ المقامِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: 11]، وقولِهِ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التوبة: 92][5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿دَخَلُواْ﴾:

الإفسادُ والإذلالُ قرينُ الدُّخولِ على جهةِ القَهْرِ والغلَبَةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾؛ لأنَّ أصلَ ﴿إِذَا﴾ الجزمُ بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ نفسِه، وإنْ نُقِلَ إلى معنى الاستقبالِ باعتبارِ أنَّ ﴿إِذَا﴾ في الأصلِ للشَّرطِ في الاستقبالِ[6]، وهي تفيدُ هنا الجزمَ بوقوعِ حوادثَ كثيرةٍ مِنَ الملوكِ، كانَ فيها دخولٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(6) التفتازاني، المختصر، ص: 270.

على جهةِ القَهْرِ والغلَبةِ وإفسادٌ وإذلالٌ، فأرادَتْ بِلْقيسُ تحذيرَ قومِها مِنْ مِثل ذلكَ.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَرۡيَةً﴾:

عمومُ الإفسادِ والإذلالِ للقُرى المغلوبةِ

تنكيرُ ﴿قَرۡيَةً﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾؛ للعموم؛ لأنَّهُ واقعٌ في سياقِ الشَّرطِ، أي: إذا دخلوا قريةً مِنَ القُرى على منهاجِ المُقاتَلةِ والمُحارَبةِ أفسَدوها، وإنْ كانَتْ عظيمةً مكوَّنةً مِنْ جموعٍ كثيرةٍ متكاثفةٍ[1].

دلالةُ الهمزةِ في قولِه تعالى: ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾:

القُرى المغلوبةُ محلُّ إفسادِ الملوكِ

الهمزةُ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ للتَّعديةِ، وهي تفيدُ إيقاعَ الفسادِ على القريةِ، والمرادُ بإفسادِ القريةِ: تخريبُ عِماراتِها، وإتلافُ ما فيها مِنَ الأموالِ[2].

بلاغةُ العطفِ في ﴿وَجَعَلُوٓاْ﴾:

إذلال أعزَّةِ القومِ غايةٌ في القَهْرِ

الإذلالُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ يكونُ بنَهْبِ أموالِهم، وتخريبِ ديارِهم، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الإهانةِ والأَسْرِ[3]، ومغايرةُ هذا الجعلِ للإفسادِ معَ أنَّ الظّاهرَ الإفسادُ أيضًا؛ لشُمولِه بالأَسْرِ ونحوِهِ دونَ الإفسادِ[4]، ولذلكَ عُطِفَ عليهِ، ولا يُعَدُّ مِنْ عطفِ الشَّيءِ على نفسِه.

سرُّ العُدولِ عنِ الإيجازِ إلى الإطنابِ في جملةِ الإذلالِ:

المبالغةُ في التَّصييرِ والجعلِ

قيلَ: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾، ولم يقل: (وأَذَلّوا أعِزَّةَ أهلِها) معَ أنَّهُ أخصرُ؛ لأنَّ في هذا الإطنابِ المبالغةَ في التَّصييرِ والجعلِ؛ إذ صُرِّحَ بِهِ[5]، وكأنَّ أمامَ القارئِ صورتين: صورةً لأعزَّةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 193، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5452.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 193.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 160.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.

(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 44، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.

القوم - وهم أعزَّةٌ - وصورةً لهُم، وقد انقلبوا إلى أذلَّةٍ، وهذا أنسبُ بمقامِ التَّحذيرِ.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾:

شُمولُ الإذلالِ جميعَ أهلِ القريةِ

تدلُّ إضافةُ ﴿أَعِزَّةَ﴾ إلى ﴿أَهْلِهَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ على شُمولِ الجعلِ والتَّصييرِ لجميعِ أَعِزَّةِ أهلِ القريةِ، من أعزَّتها وكبرائها وغيرهم من أهلها.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿أَعِزَّةَ﴾ و﴿أَذِلَّةٗۚ﴾:

جمْعُ هذينِ اللَّفظينِ يُشعِرُ بالرَّهبةِ

في الجمعِ بينَ ﴿أَعِزَّةَ﴾ و﴿أَذِلَّةٗۚ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ مراعاةٌ للطِّباقِ بينَ اللَّفظينِ، وهو مِنْ مُحسِّناتِ الكلامِ، يرى فيهِ السّامعُ صورتَي العِزَّةِ والذِّلَّةِ متقابلتينِ، ثمَّ تُجعَلُ إحداهما مكانَ الأخرى، فيشعرُ بالرَّهبةِ والخوفِ مِنْ سوءِ المآلِ، وهو ما قصدَتْ بِلْقيسُ تحذيرَ قومِها منهُ.

قائل جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ وموقعها الإعرابي:

الإفسادُ عادةٌ مُستمرَّةٌ للملوكِ في الحربِ

الظّاهرُ أنَّ القائلَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ هو بِلْقيسُ؛ تأكيدًا منها للمعنى الَّذي أرادَتْهُ، وتقريرًا بأنَّ ذلكَ مِنْ عاداتِهم الثّابتةِ المُستمرَّةِ، ويحتملُ أنْ يكونَ القائلُ هو اللّهَ تعالى مُعرِّفًا لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ وأمَّتِهِ ومُخبرًا بهِ[1]، وفيهِ تصديقٌ لكلامِها[2].

فإنْ كانَتِ الجملةُ مِنْ كلامِ بِلْقيسَ - كما هو الظّاهرُ - فهي منصوبةٌ بالقولِ، وإنْ كانَتْ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى؛ فهي مُعترِضةٌ بينَ قولَي بِلْقيسَ[3] اعتراضًا تذييليًّا، وفيهِ تقريرُ أنَّ الإفسادَ والجعْلَ عادتُهم المُستمرَّةُ[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 258، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 555، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 195.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 160.
(3) السمين، الدر المصون: 8/ 611.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 193.

مرجعُ اسم الإشارةِ في (كَذَلِكَ)، ونكتةُ التَّعبيرِ بِهِ:

تهويلُ شأنِ المُشارِ إليه

المُشارُ إليهِ بـ (ذلكَ) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ مصدرُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾، أي: ومِثْلَ ذلكَ الفعلِ - وهو الإفسادُ وجعلُ الأَعِزَّةِ أَذِلَّةً - يفعلونَ على الدَّوامِ والاستمرارِ، والتَّعبيرُ بالفعلِ للاختصارِ، فهو مفعولٌ مُطلَقٌ لهُ[1].

ونكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ تهويلُ المُشارِ إليهِ[2]، أي: ومِثْلَ ذلكَ الفعلِ العظيمِ الشَّأنِ، الوَعْرِ المَسْلَكِ، البعيدِ الشَّأْوِ - وهو الإفسادُ وجعْلُ الأَعِزَّةِ أَذِلَّةً - يفعلونَ[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

تجدُّدُ الإفسادِ والإذلالِ واستمرارُهما

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ على أنَّ الإفسادَ والإذلالَ مِنْ عاداتِهم الثّابتةِ المُستمِرَّةِ[4]؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ التَّجدُّديَّ[5]، أي: ذلكَ شأنُهم دائمًا، وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ أيضًا تصويرٌ لهذهِ العادةِ المُستمِرَّةِ الدّائمةِ، كأنَّها شأنٌ مِنْ شؤونِهم، وغايةٌ لهُم[6].

سرُّ إيثارِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ على (يعملونَ) و(يصنعونَ):

لازمَ اقتحامَ القرى في الحرب سرعةُ الإنجازِ، وعشوائيَّةُ الآثارِ

لمّا كانَ لفظُ (الفعلِ) دالًّا على الإتيانِ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ[7]، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ؛ ناسبَ هذا اللَّفظُ الإفسادَ والإذلالَ المصاحبينِ لدخولِ الملوكِ القُرى على جهةِ القَهْرِ والغلبةِ، ولم يُناسِبْهما لفظُ (العملِ) الدّالُّ على القصديَّةِ والمُثابَرةِ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ به مرَّةً أو بسرعةٍ، ولا لفظُ (الصُّنعِ) الدّالُّ على إجادةِ الفعلِ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 160، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5452.
(7) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 55.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّخولُ والوُلوجُ:

الدُّخولُ أعمُّ من الولوج

الدُّخولُ: نَقيضُ الخُروجِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ[1]، والوُلوجُ: الدُّخولُ في مَضيقٍ[2]، وبناءً على ذلكَ يكونُ الوُلوجُ أخصَّ مِنَ الدُّخولِ؛ إذ لا يُشترطُ في الدُّخولِ أنْ يكونَ في مَضيقٍ، والقُرى واسعةٌ، فيناسبُها لفظُ الدُّخولِ، ولذلكَ اختيرَ في الآيةِ.

(1) الراغب، المفردات: (دخل).
(2) الراغب، المفردات: (ولج).

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل: 35]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تقريرُ رأيِها بعدَ تفنيدِ آرائِهم

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجهانِ؛ **أحدُهما:** لَمَّا بيَّنَتْ بِلْقيسُ ما في المُصادمةِ مِنَ الخطرِ؛ أتبعَتْهُ ما عزمَتْ عليهِ مِنَ المُسالَمةِ، فقالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ الآيةَ[1]، **والثّاني**: قولُها: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ الآيةَ تقريرٌ لرأيِها بعدَما زيَّفَتْ آراءَهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرۡسِلَةٌ﴾ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: (رسل) أصلٌ يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ[3]، يقالُ: ناقةٌ رَسلةٌ، أي: سَهْلَةُ السَّيْرِ، وإبلٌ مراسيلُ: مُنبعِثةٌ انبعاثًا سَهْلًا، ومنهُ: الرَّسولُ المُنبعِثُ، وتُصوِّرَ منهُ تارةً الرِّفقُ، فقيلَ: على رِسْلِكَ؛ إذا أمرتَهُ بالرِّفقِ، وتارةً الانبعاثُ، فاشْتُقَّ منهُ الرَّسولُ، والرَّسولُ يقالُ تارةً للقولِ المُتحمَّلِ، وتارةً لمتحمِّلِ القولِ والرِّسالةِ، والإرسالُ يقالُ في الإنسانِ، وفي الأشياءِ المحبوبةِ والمكروهةِ، وقد يكونُ ذلكَ بالتَّسخيرِ، كإرسالِ الرّيحِ والمطرِ[4].

2) ﴿بِهَدِيَّةٖ﴾: (هدي) أَصلانِ أحدهما التَّقدُّم لِلإرشاد... والأصلُ الآخرُ: بعثةٌ بلطفٍ، ومنه الهديَّةُ، يُقالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً، والمِهْدَى: الطَّبَقُ تُهْدَى عَلَيْه، ومِنَ البابِ الهَديُّ: العَروسُ، وقَدْ هُديَتْ إلَى بَعْلِها هِداءً[5]، والهديَّة ما يتقرَّب بِهِ المهدي إلَى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.

المهدى إليهِ[1]، والمقصود بالآية: ما يُبعَثُ على جهةِ الإكرامِ، ويُتقرَّب بِهِ المُهدي إلَى المُهدى إليهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسالُ الهديَّةِ إلى سليمانَ وانتظارُ ما يُسفِرُ عنهُ إرسالُ الرُّسُلِ

عدلَتْ بِلْقيسُ إلى المُهادَنةِ والمُسالَمَةِ والمُصانَعةِ، فقالَتْ: سأبعثُ إلى سليمانَ وجنودِهِ بهديَّةٍ تليقُ بهم، وأنظرُ جوابَهُ بعدَ ذلكَ، فلعلَّهُ يقبلُ ذلكَ، ويكفُّ عنّا، أو يَضرِبُ علينا مالًا نحملُهُ إليهِ في كلِّ عامٍ أو نحو ذلك، ويتركُ قتالَنا ومحاربتَنا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الإتيانِ بالجملةِ الاسميَّةِ المُؤكَّدةِ:

بِلْقيسُ عازمةٌ على ما رأت في المصلحة

أتَت بِلقيسُ في قولِها: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّةِ على الثَّباتِ، المُصدَّرةِ بحرفِ التَّحقيقِ (إنَّ)؛ للإيذانِ بأنَّها مُزمِعةٌ على رأيِها، لا يَلْويها عنهُ صارفٌ، ولا يَثْنيها عاطفٌ[3].

فائدةُ العطفِ في جملةِ ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ﴾:

إتباعُ خطرِ المخاشنةِ العزمَ على المسالمةِ

الظّاهرُ أنَّ جملةَ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها مِنَ الجملِ الدّاخلةِ في حيِّزِ مَقولِ بِلْقيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ﴾ الآيةَ، ونكتةُ هذا العطفِ: أنَّها لمّا بيَّنَتْ ما في المُصادَمةِ مِنَ الخطرِ أتبعَتْهُ ما عزمَتْ عليهِ مِنَ المُسالَمةِ، فقالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ الآيةَ[4].

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿مُرۡسِلَةٌ﴾:

إرسالُ الهديَّةِ أمرٌ مُزمَعٌ عليهِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، وأنَّ اتِّصافَها بالإرسالِ أمرٌ مُحقَّقٌ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 190.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.

ثابتٌ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى شدَّةِ حرصِها على المسالمةِ والمهادنةِ وما فيه مصلحة لها ولقومها.

بلاغةُ الإيجازِ في جملة: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾:

العادةُ جاريةٌ بإرسالِ كتابٍ ورُسُلٍ في الجوابِ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ التَّقديرُ: (وإنّي مُرسِلةٌ رُسُلًا بهديَّةٍ أدفعُهُ بها عن مُلْكي)[1]، حُذِفَ مفعولُ ﴿مُرۡسِلَةٌ﴾؛ لظُهورِه، ولضيقِ المقامِ عن تفصيلِ الكلامِ[2]، أو لدلالةِ وصفِ ﴿مُرۡسِلَةٌ﴾ عليهِ، وكونِ التَّشاورِ فيما تضمَّنَهُ كتابُ سليمانَ عليه السلام، فالتَّقديرُ: (وإنّي مُرسِلةٌ إليهم كتابًا ووَفْدًا مصحوبًا بهديَّةٍ)؛ إذ لا بدَّ أنْ يكونَ الوفدُ مصحوبًا بكتابٍ تجيبُ به كتابَ سليمانَ عليه السلام، فإنَّ الجوابَ عنِ الكتابِ عادةٌ قديمةٌ، وهو مِنْ سُنَنِ المسلمينَ، وعُدَّ مِنْ حقِّ المُسلِمِ على المُسلِمِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿إِلَيۡهِم﴾:

عِظَمُ هديَّةِ بِلْقيسَ لسليمان ومن معه

قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ معناهُ: إلى سليمانَ ومَنْ معَهُ[4]، وقد عُبِّرَ بالجمعِ في ﴿إِلَيۡهِم﴾؛ إشارةً إلى عظيمِ ما تُرسِلُ به بِلْقيسُ[5]؛ إذ سيكون هدايا متنوِّعةً تصل إلى سليمان وجميع جنوده.

علَّةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِم﴾:

سليمان وجنوده محلُّ العنايةِ والاهتمامِ

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡهِم﴾ على ﴿بِهَدِيَّةٖ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ الإرسالِ إليهِم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، وهو الهديَّةُ العظيمةُ الشَّأنِ.

معنى الباءِ في ﴿بِهَدِيَّةٖ﴾:

الوفدُ المُرسَلُ إلى سليمانَ عليه السلام مصحوبٌ بهديَّةٍ

باءُ ﴿بِهَدِيَّةٖ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ باءُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 365، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 160.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 236.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 160.

المُصاحَبةِ، والتَّقديرُ: (وإنّي مُرسِلةٌ إليهِم كتابًا ووَفْدًا مصحوبًا بهديَّةٍ)[1].

غرضُ تنكيرِ ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾:

عِظَمُ الهديَّةِ يناسبُ مقامَ المُهْدَى إليهِ

الهديَّةُ: ما يُبعَثُ على جهةِ الإكرامِ، وهي اسمٌ للمُهدَى[2]، وتنكيرُها في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ للتَّعظيمِ، أي: وإنّي مُرسِلةٌ إليهِم رُسُلًا بهديَّةٍ عظيمةٍ[3]، تقعُ منهُم مَوْقِعًا[4].

علَّةُ عدمِ استشارةِ بِلْقيسَ قومَها في إرسالِ الهديَّةِ:

تفويضُ الملأِ الرَّأيَ إليها، واكتفاؤُها بسُكوتِهم

دبَّرَتْ بِلْقيسُ في قولِها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أنْ تتفادَى الحربَ بطريقةِ المُصانَعةِ والتَّزلُّفِ إلى سليمانَ عليه السلام، بإرسالِ هديَّةٍ إليهِ، وقد عزمَتْ على ذلكَ، ولم تَستطلِعْ رأيَ أهلِ مَشورتِها؛ لأنَّهم فوَّضوا الرَّأيَ إليها، ولأنَّ سُكوتَهم على ما تُخبِرُهم بِهِ يُعَدُّ موافقةً[5].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾:

بعدَ الإرسالِ انتظارُ الجوابِ

﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿مُرْسِلَةٌ﴾[6]، وقد عُطِفَ بالفاءِ؛ لأنَّ الإرسالَ سببٌ للانتظارِ[7]، والانتظارُ مُترتِّبٌ عليهِ على الإثرِ ترتُّبَ النَّتيجةِ على السَّببِ، وفي ذلكَ تصويرٌ لحالةِ ترقُّبِ بِلْقيسَ الَّتي تسبقُ رجوعَ الرُّسُلِ مِنْ عندِ سليمانَ عليه السلام.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾:

تلهُّفُ بلقيس في انتظارِها الخبرَ

معنى قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: مُنتظِرةٌ مُترقِّبةٌ الأمرَ الَّذي يرجِعُ بِهِ المُرسَلونَ مِنْ عندِ سليمانَ، إسلامٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 284.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 611.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 266.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 236.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 386.

وأمانٌ أم حربٌ ودمارٌ؟[1] وعُبِّرَ بصيغةِ اسم الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الانتظارَ منها أمرٌ مُحقَّقٌ ثابتٌ دائمٌ، لا ينفكُّ عنها حتَّى يرجعَ رُسُلُها بجوابِ سليمانَ عليه السلام.

رجوعُ المُرسَلينَ أمرٌ مستقبليٌّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَرۡجِعُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ لأنَّ رجوعَ المُرسَلينَ أمرٌ مستقبليٌّ بالنِّسبةِ لإرسالِ الهديَّةِ والانتظارِ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ.

رُسُلُ بِلْقيسَ هم المقصودونَ

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ في قولِهِ عز وجل: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بالرُّسُلِ رُسُلٌ معهودونَ، وهم الرُّسُلُ الَّذينَ سترسِلُهم بِلْقيسُ إلى سليمانَ عليه السلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

مقامُ الاستعطافِ يلائمُهُ الإرسالُ

البَعْثُ والإرسالُ:

الاستعمالُ القرآنيُّ لكلمتَي البَعْثِ والإرسالِ يشتركُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو التَّوجيهُ، وقد فُرِّقَ بينَهما مِنْ وجوهٍ:

منها: أنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجْري مَجْراها، وأمّا البعثُ؛ فيجوزُ دونَ ذلكَ[2].

ويُعترَضُ عليهِ بإرسالِ السَّحابِ المذكورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: 48]؛ فإنَّهُ لا إرسالَ فيه، إلّا أنْ يُحمَلَ الكلامُ على الغالبِ.

ومنها: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ، إلّا في المواضعِ التي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3][3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5453.
(2) معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(3) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 136 - 137.

ولمّا كانَ قصدُ بِلْقيسَ استعطافَ سليمانَ عليه السلام واسترضاءَهُ ومسالمتَهُ؛ أوثِرَ لفظُ الإرسالِ؛ لِما يتضمَّنُه مِنَ الرِّفْقِ والرَّحمةِ.

الهديَّةُ والهِبَةُ:

الهديَّةُ أنسبُ بمقامِ التَّعظيمِ والتَّودُّدِ

الهديَّةُ ما يتقرَّبُ بهِ المُهدي إلى المُهدَى إليه، والهِبَةُ ليستْ كذلكَ(1)، والهديَّةُ أيضًا يُقصَدُ بها الإكرامُ والتَّودُّدُ ونحوُهما، أمّا الهِبَةُ؛ فيُقصَدُ بها غالبًا النَّفعُ(2)، واختيرتِ الهديَّةُ في الآيةِ؛ لأنَّ قصْدَ بِلْقيسَ تعظيمُ سليمانَ عليه السلام والتَّودُّدُ إليه.

الرُّجوعُ والعَوْدُ:

رجوعُ رُسُلِ بِلْقيسَ إلى ما كانَ منهُ بَدْءُ انصرافِهم

العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ: إمّا انصرافًا بالذّاتِ، أو بالقولِ والعزيمةِ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107](3)، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا(4).

والرُّجوعُ فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُهُ إلى حالٍ كانَ عليها، والعَوْدُ يُستعمَلُ في هذا المعنى على الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابتداءِ مجازًا، يقالُ: (قد عادَ إليَّ مِنْ فلانٍ مكروهٌ)، وإنْ لم يكنْ قد سبقَهُ مكروهٌ قبلَ ذلكَ، وتأويلُهُ: أنَّهُ لَحِقَني منهُ مكروهٌ(5)، فيكونُ العَوْدُ أعمَّ مِنَ الرُّجوعِ، واختيرَ لفظُ الرُّجوعِ في الآيةِ؛ لأنَّ بِلْقيسَ مُنتظِرةٌ رجوعَ رُسُلِها إلى ما كانَ منهُ بَدْءُ انصرافِهم.

---

(1) العسكري، الفروق، ص: 555.
(2) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 240، والبُهُوتي، شرح منتهى الإرادات: 2/ 429.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (عود).
(4) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (رجع).
(5) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 250، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ [النّمل: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد بيان ذكاء الملكة في إرسال الهديّة لسليمان تمّ بيان تلقّيه لها وردِّ فعلِه عليها

بعد أن حكى النّظم الجليل، أنّ ملكة سبأ أرسلت وفدًا بهديّة إلى سليمان عليه السلام؛ أورد في الآية ما حصل بشأن هذه الهديّة، وبيانَ رَدِّ سليمانَ على هذا الوفد[1]، مؤكّدًا أنّ عطاء اللّه له أكبر من هديّتهم، ومتوعِّدًا إيّاهم بحربٍ تخرجهم من مملكتهم، في ذِلَّةٍ وصَغار.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾: (مدد/ مدَّ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ. تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا. ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أَيْ زادَ فيهِ وواصَلَهُ فَأَطالَ مُدَّتَهُ. وأَمْدَدْتُ الجَيْشَ بِمَدَدٍ[2]. والمَدُّ: أَن يَمُدَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في غَيِّه. ويُقالُ: وادي كَذا يَمُدُّ في نَهْرِ كَذا أَي يَزيدُ فيهِ. ويُقالُ مِنْهُ: قلَّ ماءُ رَكيَّتِنا فَمَدَّتْها رَكيَّةٌ أُخرى فَهيَ تَمُدُّها مَدًّا[3]. ومَدَدْتُهُ في غَيِّه، ومَدَدْتُ الإبلَ: سقيتُها المَديدَ، وأَمْدَدْتُ الجيشَ بِمَدَدٍ، والإنسانَ بطعامٍ. قال يونُسُ: (مَدَدْتُ) فيما كان مِنَ الشَّر، و(أمددتُ)، بهمزة، فيما كان من الخير. وقال الأَخْفَشُ: مددتُ له: إذا تركته، وأَمْدَدْتُه: إذا أعطيتَه. ومدَّ اللّه تعالى الرِّزقَ لعباده: أي بَسَطَه، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 323.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدّ).
(3) ابن منظور، اللّسان: (مدد).

﴿مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢﴾ [المدّثّر: 12][1]، وأكثر ما جاء الإمْدادُ في المحبوب، والمَدُّ في المكروه، نحو: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾ [الطّور: 22]، ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥﴾ [المؤمنون: 55]، ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾[2].

2) ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾: (هدى/ هدي) أَصْلٌ يدلّ على بَعْثَةِ لَطَفٍ. الهَدِيَّةُ: ما أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَى ذي مَوَدَّةٍ. يُقالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً. والمِهْدَى: الطَّبَقُ تُهْدَى عَلَيْهِ[3]. والهَدِيَّةُ: ما أَتْحَفْتَ بِهِ، يُقالُ: أَهْدَيْتُ لَهُ وإليه. والتَّهادي: أَن يُهْدي بعضُهم إلى بَعْضٍ. وأَهْدَى الهَدِيَّةَ إهْداءً وهَدّاها. وامرأَةٌ مِهْداءٌ، بالمَدِّ، إذا كانَتْ تُهْدي لِجاراتِها، وكانت كَثيرَةَ الإهْداء؛ وكَذَلِكَ الرَّجُلُ مِهْداءٌ: مِنْ عادَتِهِ أَن يُهْدِيَ[4]. والهَدْيُ مختصٌّ بما يُهْدَى إلى البيت. والواحدة هَدْيَةٌ، ويقال للأنثى هَدْيٌ، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة: 196]، والهَدِيَّةُ مختصّة باللُّطَف الّذي يُهْدي بعضنا إلى بعضٍ. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [النّمل: 35]، ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[5].

3) ﴿صَٰغِرُونَ﴾: (صغر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةٍ وحَقارَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الصِّغَرُ: ضِدُّ الكِبَرِ. والصَّغيرُ: خِلافُ الكَبيرِ. والصّاغِرُ: الرّاضي بالضَّيْم صُغْرًا وصَغارًا[6]. والصَّغار، بِالفَتْحِ: الذُّلُّ والضَّيْمُ، وكَذَلِكَ الصُّغْرُ، بِالضَّمِّ، والمَصْدَرُ الصَّغَرُ. يُقالُ: قُمْ عَلَى صُغْرِك وصَغَرِك. صَغِرَ فُلانٌ يَصْغَرُ صَغَرًا وصَغارًا، فَهوَ صاغِرٌ إذا رَضيَ بالضَّيْم وأَقَرَّ بِهِ. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]؛ أَي أَذِلّاءُ[7]، ومعنى ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾: "أي تؤخذ منهم الجزية على الصَّغار والذّلّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النّظم الجليل أنّ الرّسول الّذي بعثته ملكة سبأ، قد بلغ سليمان، فلمّا جاء الرّسول ومعه أتباعه بالهديّة المرسلَة إلى سليمان، لم ينظر إليها سليمان، وأعرض عنها، وقال

(1) الحِمْيَرِيّ نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (مدّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (مدّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) ابن منظور، اللّسان: (هدي).
(5) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صغر).
(7) ابن منظور، اللّسان: (صغر).

لا يصرف الدّاعيَ إلى الله عَرَضٌ زائلٌ؛ لأنّ ما عند الله خير وأبقى

مُنْكِرًا عليهم: أتمدّونني بمال، مبتغين أن أترككم على شِرْكِكم؟!! وإنّ الله تعالى أعطاني خيرًا أفضلَ ممّا أعطاكم، وهو النّبوّة والمُلْك الواسع العريض، والمال الوفير، فلا حاجة لي بهديّتكم، وإنّما أنتمُ الّذين تنقادون للهدايا، وتفرحون بها، وأمّا أنا فلستُ طالبًا للدّنيا الزّائلة، وإنّما أنا داعٍ إلى الله تعالى، أُطالِبُكم بالدّخول في دينه، وترك عبادة الشّمس، ارجعْ أيّها المبعوث إليهم بهديّتهم، فإنّا واللهِ سنأتيهم بجنود، لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجنّهم من بلدتهم أذلّة، وهم مهانون مدحورون، إن لم يأتوا مسلمين منقادين لله ربّ العالمين.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الفاء) في جملة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾:

وصول الرّسول مباشرة، دون انصراف عن تحقيق الإرساليّة

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ بالفاء العاطفة[1]، وهي دالّة على التّعقيب والتّرتيب، وفي ذلك دلالة على سرعة الإرسال وفوريّة المجيء، وفيه إشارة إلى أنّ الحضارة كانت في ملك سليمان في أوجها، وقد كان لمملكته هيبةٌ وسطوةٌ، تخطب وُدَّها الممالكُ العظام، كمملكة سبإ ذات التّاريخ العريق، وقد كان التّواصل سريعًا بين مملكة اليمن ومملكة فلسطين، ممّا يعطي فكرةً عن واقعِ العالم في ذلك الزّمان السّحيق.

دلالة (لمّا) في بيان سرعة الجواب:

بيان جواب الدّاعي؛ للرّد على انحرافهم، وقلّة فهمهم

عبّر النّظم الجليل بلمّا الحينيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، وهي ظرف زمان بمعنى حين، يتضمّن معنى الشّرط[2]، وهي تعلّق الجواب بالشّرط، فتربط بين جملتين، وتفيد أنّ الجملة الثّانية، قد وقعت حين وقعت الجملة الأولى. فهي

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 166.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 166.

تدلّ على أنّ سليمان لم يلبث أن ردّ على الرّسول من فوره، مستنكرًا عليه القدوم بالهديّة.

بلاغة استعمال فعل ﴿جَآءَ﴾ دون (أتى):

بيان أنّ مجيء الرّسول كان محفوفًا بالصّعاب، ولم يكن سهلًا

آثر النّظم المحكم التّعبيرَ بالمجيء دون الإتيان، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، لأنّ الإتيان يدلّ على المجيء بسهولة، فلمّا لم يكن مجيء الرّسول سهلًا، لبُعد الشُّقَّة، ولجسامة المَهمّة، ولخطورة الحالة عبّر بالمجيء الخالي من السّهولة.

نكتة إظهار ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ دون إضماره:

إظهار الاسم يزيد البيان بيانًا

آثر النّظم الكريم التّعبير عن سليمان عليه السلام، بالاسم الظّاهر، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، دون الإضمار، فلم يقل: (فلمّا جاءه الرّسول)؛ وذلك لبعد الفاصل بين ذكر سليمان وهذه الآية، فلو جاء بالضّمير لم يتبيّن المراد بالمجيء إليه، فالإظهار جاء في غاية البيان، تبريزًا لمقام سليمان بالملك، وقد كانت له هيبة وسطوة، بلغت سمعتُها الأقاصي، واهتزّت لها العروش الفخام، ناهيك عن الإلماح إلى جَمْعِ سليمانَ بين مُلك الدّنيا، وشرف النّبوّة، وهو تَمَيُّزٌ لم تحظَ به الملوك من قبل سليمان ولا من بعده، باستثناء مُلْكِ أبيه داوود الّذي كان سليمان امتدادًا له، وقد كان هو أيضًا، جامعًا بين المَهمّة الدّنيويّة والدّينيّة، ممّا أبانه اللّه من معالم تلك الوراثة، في موضع سابق من السّورة، بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النّمل: 15 - 16].

غرض الاستفهام بالهمزة في ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾:

الاستفهام عن فعلهم، يُظْهِرُ الإنكار والتّوبيخ

عبّر النّظم الجليل بالاستفهام الإنكاريّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، عن إنكاره لإمدادهم له بالمال، فأنكر عليهم

فعلهم، مظهرًا استخفافه به وانصرافه عن شأن الدّنيا، كما أنّه توبيخ لهم على إمداده بالمال مع عُلوِّ شأنِه وقوّة سُلطانِه[1].

بلاغة اختيار فعل ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾:

عَظَمَةُ المُلك بوَفْرَةِ المال، وقوّةِ الاستعداد، تُغني عن الحاجة إلى الإمداد

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الإمداد في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، مع أنّ الإمداد يعني وجود أصل المادّة الّتي يقع الإمداد بها؛ وذلك للدّلالة على وفرة المال لديه وأنّه في غنى عن هديّتهم، ليُعْلِمَ المخاطبَ بأنّه كما فاقهم قوّة قد فاقهم مالًا. والمعنى: أتجعلون المدد الواصل بيني وبينكم مالًا؟!! والمال هيِّنٌ عليَّ، وهو عندي متوفِّر بكثرة، بل عندي ما هو خير منه[2]، ومَن كَثُرَ المالُ عنده، لم تَتُقْ نفسه إلى الهديّة، ولم يتطلّع إلى هبةٍ ولا عطيّة، وخصوصًا وهو ملكٌ رسول، متفرِّدٌ بذلك مع أبيه، فلا حاجة له في عطاء الدّنيا.

نكتة استعمال صيغة المضارع في ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾:

بيان أنّ تجدّد الإمداد ودوامه، كان هو المقصود من الهديّة السَّنيَّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؛ للدّلالة على أنّ تقديمهم ذلك المال، كان المقصودُ منه الدّوامَ والاستمرار، على أنّه ضريبة دائمة، فكان الإنكارُ على ذلك الدّوام المقصودِ منه صرفُه عن الدّعوة.

دلالة الباء في شبه الجملة ﴿بِمَالٍ﴾:

حرف المعنى الخاصّ منبئٌ في سياقه عن المعنى العامّ

عبّر النّظم الجليل بالباء الجارّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، وهي هنا دالّة على الواسطة، أي تريدون أن تمدّوني وتزيدون ملكي بواسطة المال.

بلاغة اختيار مفردة (مال) دون (هدية):

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ المال دون الهديّة، في قوله جلّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 285.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 285.

شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، تحقيرًا لشأن الهديّة، ووصفًا لها بحقيقتها، والمراد منها؛ لأنّ إرسالهم الهديَّةَ، إنّما كان تعبيرًا عن تزويده بالمال كضريبة ليتركهم، فالمراد من إرسال الهديَّةِ التّنويه بالاستعداد على إرسال المال، فقطع الطّريق بأنْ عبَّر عن مقصدهم، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ الهديَّةَ قد كانت مالًا.

التّعبير بالمال يصف حقيقة الهديّة المرسلة من المال

غرض تنكير لفظ (مال):

عبّر النّظم الجليل عن المال بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ تحقيرًا لشأن المال وتهوينًا له، وبيان أنّه لن يصرفه عن دعوته، باعتبار أنّ المال عرض زائل، وعاريَّةٌ مستردّة، وأنّ الاعتبار في ميدان الدّعوة لميزان القيم، وهو ميزان معنويّ، يزري بالمادّة ويحتقرها، ويعتبر أنّ المال متاع الحياة الدّنيا، وأنّها متاع الغرور.

شأن المال هيّنٌ حقيرٌ أمامَ عِظَمِ الدّعوة والإيمان

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾:

افتتح النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾، بالفاء الدّالّة على التّفريع، فالجملة تعليل للإنكار المتقدّم الواقع على المال والهديَّة[1]، وفائدة هذا التّعليل، بيان أنّه علم أنّ الملكة لا تعلم أنّ لديه من الأموال، ما يغنيه عن قبول الهديّة، فلو قال: (وما آتاني اللّه)، لدلّ على أنّها تعلم ذلك[2].

بيان علّة إنكار سليمان مدَّه بمال، مع وفرة ما وهبه الله

دلالة (ما) في سياق الآية:

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول (ما)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ للدّلالة على عموم ما أنعم اللّه تعالى عليه به، وفي الإبهام بـ (ما) دلالة على فخامة ما آتاه اللّه تعالى، وأراد بذلك النّبوّة والملك الّذي لا غاية وراءَه[3]، والمعنى فَما آتانيَ اللّه

بيان عظمة العطيّة من جناب الذّات العليّة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 268.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 285.

من كرامة النّبوّة، ومُكْنَةِ الملك الواسع الغالب، خَيْرٌ مِمّا آتاكُمْ من أموال سائلة، وثروات حاصلة، من جملتها تلك الهديَّة المرسلة إليّ، لاستجلاب العطف، وضمان الحماية. فالجملة بهذا المعنى تعليل لإنكاره لهديتهم، واستخفافه بها، وسخريته منها[1]؛ اعتبارًا لنظرته الزّاهدة للمال، وانطلاقًا من أنّ دعوته خالصة للّه وحده، وأنّها لا تقدّر بثمن.

بلاغة اختيار لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

فخامة العطاء، مُنْبِئَةٌ عن جلالة المُعطي

عبّر النّظم الجليل عن اللّه تعالى بلفظ الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ تفخيمًا لشأن ما آتاه من النّبوّة والعلم والملك، وإشارةً إلى غناه به فهو الملك الأعظم والواهب الأجلّ.

نكتة التّفضيل بلفظ ﴿خَيۡرٌ﴾:

الخير يدلّ على المرغوب به، والأفضلُ قد يكون غيرَ ذلك

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ (الخير)، دون لفظ (أفضل)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾، فلم يقل: (أفضل ممّا آتاكم)؛ وذلك لأنّ الأفضلّ لا يشترط أن يدلّ على الثّناء، فهو يدلّ على الزّيادة عن الاقتصاد، وهو ضربان: محمود، ومذموم[2]، أمّا لفظ الخير، فهو يدلّ على ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل، والعدل، والشّيء النّافع، وضِدُّه: الشرّ[3]. فآثر الخير للإشارة إلى خيريّة ما آتاه اللّه تعالى.

دلالة الأداة (ما) في السّياق:

مهما كان شأن الدّنيا وما فيها فهو هيّنٌ لا يَغُرُّ إلّا الأغرار

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول (ما) الدّالّ على الإبهام والعموم، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾؛ للدّلالة على عموم ما أعطاهم اللّه تعالى، من المال والملك وكلّ ما كان من شأن الدّنيا، وفي الإبهام بـ (ما) يفيد تهوين ذلك. والمعنى:

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 324 (بتصرّف).
(2) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(3) الرّاغب، المفردات: (خير).

إنّ ما عندي خير ممّا عندكم، وذلك أنّ اللّه آتاني الدّين الّذي فيه الحظّ الأوفر، والغنى الأوسع، وآتاني من الدّنيا ما لا يُسْتَزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يُمَدَّ بمال[1]، وهو قد أوْثِرَ من عطاء اللّه بما لم يُؤْتَ أحدٌ في زمانه بمثله.

سرُّ الإضراب بالأداة ﴿بَلۡ﴾:

الانتقال من الإنكار إلى التّوبيخ لونٌ من التّغليظ عليهم

عبّر النّظم الجليل بحرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، وهي مستعملة هنا للدّلالة على الإضراب الانتقاليّ، فانتقل من الإنكار على تزويده بالمالِ إلى توبيخهم بفرحِهم بالدّنيا والهدايا، وافتخارهم بما يملكون[2]. ووجه الإضراب، أنّه: لمّا أنكر عليهم الإمداد، وعلّل إنكاره، أَضْرَبَ عن ذلك، إلى بيان السّبب الّذي حملهم عليه، وهو أنّهم لا يعرفون سببَ رضىً ولا فرحٍ، إلّا أنْ يُهدَى إليهم حظٌّ من الدّنيا الّتي لا يعلمون غيرها[3]، وفائدة هذا الإضراب التّغليظ عليهم، وبيان ضآلة فكرهم ومنهجهم وغاياتهم.

بلاغة مجيء المسند إليه ضميرًا:

مَنْ يفرح بالهدايا من المال الزّائل هم الأقوام الكفرة، لا الرُّسُلُ البَرَرَةُ

عبّر النّظم الجليل عن المخاطبين بالضّمير الواقع مسنَدًا إليه متقدِّمًا في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾؛ للدّلالة على القَصْرِ، أي أنتم وحدكم تفرحون بالهدايا لا أنا، فإنّ اللّه أعطاني خيرًا منها[4]. والقَصْرُ إضافيّ، حيث إنّ الفرح بالهدايا لا يقتصر على هؤلاء القوم، فهو قَصْرُهُ عليه بالإضافة إليه. أي أنتم تفرحون بها لا أنا.

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾:

فَرَحُ القوم حاصلٌ، بسبب الهدايا الماليّة، لا بالمعاني السّامية

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الباء، الدّالّ على السّببيّة،

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 605.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 285.
(3) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 8/ 237 (بتصرّف).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 269.

في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، تعبيرًا عن علّة فرحهم، ففرحهم يتحقّق بالهدايا، أي تفرحون بسبب الهديّة. وذلك تعبير عن جهالتهم وكونهم لا يعلمون إلّا ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا[1]، ولذلك قال لهم سليمان: "أتمدّونني بمال، فالّذي أعطاني اللّه من الملك في الدّنيا ﴿خَيۡرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، أي ما أفرح بما أهديتم إليّ، بل أنتم تفرحون بها، لأنّكم أهل مفاخرة بالدّنيا، ومكاثرة بها"[2].

نكتة ذكر الهديَّة، بعد تسميَتِها مالًا:

أكثر الهدايا نَفاسَةً، ماكانت من نفيس المال المتداول

ذكر النّظم الجليل لفظ الهديّة بعد أن ذكر المال، في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، بعد قوله: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، للدّلالة على أنّ من شأنهم الفرح بالهدايا، وهذا لا يعنيه بشيء، والواقع أنّ النّفوس جميعَها مجبولة على حبّ الهديّة، وخصوصًا إذا كانت من المال الغالي، من المعادن الّتي يتنافس النّاس في هذه الدّنيا على اقتنائها وحيازتها، وقد أشار القرآن الكريم، إلى ذلك الحبّ للمال، ممّا هو مغروز في الأنفس، ومغروس في القلوب، وهو عامل مشترك بين بني آدم قاطبة، قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر: 19 - 20]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8]، ومعناه: "وإنّ الإنسان بسبب حبّه الشّديد للمال، وشغفه به وتعلّقه بجمعه وادِّخاره، لبخيلٌ شديد البخل، حريصٌ متناهٍ في حرصه، وممسكٌ متناهٍ في إمساكه"[3].

دلالة إضافة الهديّة إلى الضّمير:

يفرح أهل الدّنيا بتبادل الهدايا؛ تعبيرًا عن فرحهم بالعاجلة

أضاف النّظم الجليل لفظ الهديّة إلى الضّمير العائد على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 285.
(2) مَكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5424.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 6031.

الرّسول وقومه في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، ويحتمل في هذه الإضافة أنّها تدلّ على ما يُهدونه هم لغيرهم، ويحتمل أنّها تدلّ على أنّهم يفرحون بما يُهدَى إليهم[1]. والمراد بيان كونهم حريصين على الأفعال الشّكليّة التي لا تعنيه.

غرض تقديم ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾ على المسند الفعليّ:

أغلبُ فَرَحِ أهلِ الدُّنيا بالهبات الغالية، والأموال الفانية

قدّم النّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجملةِ، من الجارّ والمجرور، في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾؛ للدّلالة على اختصاص فرحهم بالهدايا والمال والهبات. فلا يُفْرِحُهم شيءٌ غيرُها من الغايات السّامية، وفي هذا تنكيل بهم وسخرية من فكرهم.

بلاغة اختيار مفردة (الفرح):

لذائذ الدّنيا البدنيّة هي الشّغل الشّاغل لأهل الدّنيا

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفرح دون غيره، كالسّرور والحبور، في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، وذلك لأنّ الفرح يدلّ على انشراح الصّدر، بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذات البدنيّة الدّنيويّة[2]، فأشار بذلك إلى ذمّهم وتوبيخهم.

نكتة المضارع ﴿تَفۡرَحُونَ﴾ دون (فرحون):

أهل الدّنيا دائبون على الفرح باللّذات العاجلة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع عن الفرح، في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، للدّلالة على دوام فرحهم بذلك، وأنّهم ينهجون ذلك نهجًا في حياتهم دائبين عليه، والخطاب بالآية مفاده أنّكم مَعْشَرَ الكفّار، بهديّتكم تفرحون: لأنّكم أهل مفاخرة بالدّنيا الدّنيّة، ومكاثرة بممتلكاتها المتهالكة، إذا طال بها الزّمان، وامتدّ بها الأوان، تفرحون بإهداء بعضكم لبعض، فرحًا بعاجل الانتفاع، وأمّا أنا فلا أفرح بها، وليست لي في الدّنيا حاجة، لأنّ اللّه تعالى قد أنعم عليّ فيها بالتّمكين، وأعطاني منها ما لم يُعْطِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 268.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرح).

أحدًا من العالمين، ولأنّني مُؤْثِرٌ ما عند اللّه، على ما عند النّاس، أوْثِرُ ما أكرمني به، من الدّين والنّبوّة، فذاك مَعْقِدُ المناط، ومُرْتَكَزُ الاهتمام عندي بحكم مَهَمَّتي الرّساليّة[1].

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿ٱرۡجِعۡ﴾ عن السّياق:

أتبعَ الاستنكارَ بالتّهديد، فلا يُقْبَل منهم غيرُ إسلامِهم

فصل النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، لأنّها مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، فلمّا أوردَ النّظمُ الإنكار عليهم، أتبعه بالتّهديد، فقال لمن أرسلتْه بِلْقيسُ بالهديّة: عُدْ من حيث أتيتَ، ومعك هديتُك[2]. فأمره بالرّجوع مع الهديّة، إحالةً إلى الأمر بالمجيء إليه مسلمين.

نكتةُ العدول إلى خطاب المفرد ﴿ٱرۡجِعۡ﴾:

بيان أنّ الإمداد من المملكة، وأنّ الرّجوع من حامل الهديّة

عدل النّظم الجليل عن خطاب الجمع إلى المفرد، فبعد أن قال تعالى بصيغة الجمع: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾، عدل عنه إلى الخطاب بصيغة المفرد، في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، وذلك لأنّ الخطاب وقع مع كبيرهم، فخصّه بالخطاب، وقد خاطبهم معه فيما سبق، وذلك للافتنان في الكلام[3].

فائدة استعمال (إلى) دون اللّام:

ينتهي رجوع الرّسول إلى قومه، ولا ينتهي لأجل قومه

عدّى النّظم الجليل، فعل الرّجوع بحرف الجرّ (إلى)، الدّالّ على انتهاء الغاية في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، دون أن يقول (ارجع لهم)؛ لأنّ اللّام يدلّ على علّة الرّجوع، وهو ليس المراد، أي ليس المراد ارجع لأجل قومك، بل ارجع حتّى ينتهي رجوعك إليهم، أي إلى بِلْقيسَ وقومها.

نوع الفاء ودلالتها في ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم﴾:

بيان أنّ الفاء تربط جواب الشّرط بشرطٍ مقدّر

افتتح النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم

(1) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 162 (بتصرّف).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 324.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 159.

﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، بالفاء الرّابطة، فهي تربط جواب الشّرط بالشّرط المقدّر، وتقديره: إن لم يأتوني مسلمين، فوالله لنأتينّهم[1]. فهي تدلّ على جملة شرطٍ محذوفة، لدلالة القَسَم عليها، وهذا من الإيجاز البليغ، حيث دلّ حرف واحد على جملة مقدّرة.

دلالة اللّام في قوله ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم﴾:

إذا تمَّ القَسَمُ بالجليل كان الأمرُ واقعًا دونَ تأجيل

أكّد النّظم الجليل الجملة باللّام الموطّئة للقسم، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، أي فوالله لنأتينّهم بجنود لا طاقةَ لَهُمْ بهم، ولا قدرة لهم على مقابلتهم، وعليه فقد دخلتْ المسألة في طَوْر المواجهة؛ لأنّ كلام سليمان ﷺ، كان كلام النّبوة الّتي لا تقبل المساومة، ولا ترضى بالتّنازل عن المبادئ والقيم الّتي هي مناط البلاغ، لا كلام مَلِكٍ يسعى لحطام الدّنيا الفانية، وزخرفها المتلاشي[2].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم﴾:

الإصرار على طلب الاستسلام بتجدّد بعث الجنود وتواليه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم﴾، للدّلالة على تجدّد المجيء ودوامه، فهو مدد من الجنود لا ينقطع، تعبيرًا عن شدّة البأس، والإصرار على تحقيق الإسلام، ومفاد قوله في هذه العبارة: "ارجع - أيّها الرّسول - إليهم، فوالله لنأتينّهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ومقابلتها، ولنخرجنّهم من سبأٍ فاقدي العزّ، وهم مستعبدون"[3].

دلالة الباء، في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾:

مصاحبةُ الملكِ جنودَه في الغزو أَشَدُّ رهبةً للمغزوّين

عبّر النّظم الجليل بالباء الجارّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾، وهي يحتمل أن تكون دالّة على المصاحبة، فيكون المعنى أنّه

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 166 - 167.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 17/ 782.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 567.

يغزو بلدها بنفسه بصحبة الجنود. ويحتمل أن تكون الباء للتّعدية، أي أنّه أراد إرسال جنود، فيكون المعنى: فلنؤتينّهم جنودًا، أي نجعلها آتيةً إيّاهم(1). والأوّل أَوْلى وأَنْسَبُ للسّياق، فالتّهديد بحضور الملك نفسه أَوْقَعُ في النّفوس، وأَشَدُّ في التّرهيب.

دلالة ﴿لَّا﴾، في قوله: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم﴾:

نفي أصل الطّاقة والقدرة أَوْقَعُ في التّهديد وأَمْكَنُ

آثر النّظم الكريم النّفي بـ ﴿لَّا﴾ النّافية للجنس، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، تأكيدًا للنّفي وتقوية له، فهو ينفي جنس الطّاقة عنهم وأصلها، أي ليس لكم طاقة يمكنها أن تقف بمقابل هؤلاء الجنود، وفي ذلك تأكيد للتّهديد.

بلاغة استعمال لفظ ﴿قِبَلَ﴾:

فقدان الطّاقة المكافئة دليل الانهزام الوشيك

قوله تعالى: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، فيه لفظ ﴿قِبَلَ﴾، اسم ﴿لَّا﴾ النّافية للجنس، وهو متضمّن معنى المصدر، لأنّ حقيقته المقابلة والمقاومة، يقال: (ما لي به قِبَلٌ)، أي طاقة، ويقال: (لي قِبَلَ فلانٍ دينٌ)، أي عنده، و(أتاني من قِبَلِهِ) أي من عنده، فتكون بمعنى المصدر، وبمعنى الظّرف(2). وقد استعمل النّظم الجليل لفظ القِبَل، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، دون أن يقول: (لا طاقة لهم بها)؛ لأنّ هؤلاء القوم قد كانت لهم طاقة، ولكنّها ليست بمكافئة، لقوّة جيش سليمان وجنوده، فكان الأبلغ أن ينفي القوّة المقابلة لجيشه، أي ليس لهم قدرة على مقابلة قوّة جنودنا(3). فدلّ ذلك على تفوّق قدرة هؤلاء الجنود.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُم﴾:

حرف المعنى يعبّر عن الدّلالة، ويحقّق الغاية بدقّة وعناية

عبّر النّظم الجليل بلام الجرّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وهي هنا دالّة على المِلك، أي (لا قِبَلَ كائنٌ لهم)، فهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 269.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 19/ 269.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 286.

لا يملكون تلك الطّاقة المكافئة الّتي تعصمهم. والمواجهة إذا كانت بين قوّتين غير متكافئتين، فهي مواجهة خاسرة، وسيتضرّر فيها الطّرف الأضعف، ونفيُ القِبَل لهم بها، تعبيرٌ يبرز معنى الاستحالة، وعدم احتمال النّصر، ولو بنسبة ضئيلة، وبذلك يكون اللّفظ ﴿قِبَلَ﴾ محقِّقًا غايته في التّعبير عن مراد السّياق في هذه القصّة بدقّة.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾:

قــوّة الــنّــبــوّة المسنودة بقوّة الله لا تُغالَبُ أبدًا

عبّر النّظم الجليل بباء الجرّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وهي هنا دالّة على السّببيّة، أي انتفت طاقتهم المقابلة بسبب هؤلاء الجنود[1]، وفي هذا تهديد ووعيد، بهزيمة القوم، في مواجهة سليمان وجنودهم، ممّا سيسبّب لهم خراب ديارهم، وسقوط كيانهم، والمفهوم من السّياق، "وفيه يقول: (فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنودٍ من الإنس والجنّ وأصناف الوحوش والطّيور وأنواع السّباع والبهائم، والهوامّ والحشرات بالغةً من الكثرة إلى حَدٍّ لا قِبَلَ لَهُمۡ بها ولا يسع لهم مقابلتُها من بعيد فكيف بِمُمانَعتِها ومُقاتَلَتِها)"[2].

نكتة استعمال (الإخراج) دون (الهزيمة):

الإخــــراج من البلاد يدلّ على الهزيمة وزيادة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإخراج من المدينة دون الهزيمة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةً﴾، لأنّ الإخراج يكون بعد الهزيمة، فهو دالّ على هزيمتهم ضمنًا، والهزيمة هي مطلق الانهزام بلا دلالة على الخروج من البلاد، فالتّعبير به أبلغ وأكثر بيانًا.

سرُّ التّوكيد في قوله ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم﴾:

بيان أنّ الهزيمة والإخــراج من الــبــلاد، أمــرٌ محقّق لا شكّ فيه

أكّد النّظم الجليل الإخراج، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةً وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، بالفعل المضارع ونون التّوكيد واللّام الموطّئة للقسم للدّلالة على تأكيد تحقيق المضمون، فإنّ إخراجهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 269.

(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغَيبيّة: 2/ 63.

لا يُعْجِز قُدرةَ أولئك الجنود، فهو أمر واقع بلا شكّ، وذلك أشدّ ترهيبًا، وأوقع في نفوس المخاطبين.

دلالة (مِنْ) في شبه الجملة ﴿مِّنۡهَآ﴾:

الإخــــراج مع الذِّلّة والصَّغار، أســـوأ أنـــواع الاضطرار

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (مِن) الابتدائيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، للدّلالة على مكان ابتداء خروجهم، أي نخرجهم من بلادهم[1].

نكتة تقديم ﴿مِّنۡهَآ﴾ على ﴿أَذِلَّةٗ﴾:

تـحديدُ البـلادِ المُخرَجِ منها آكَدُ في المَذَلَّة والخِزْي

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على الحال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾، وذلك للاهتمام بالمكان الّذي سيُخرَجون منه، وهو سبب الذِّلّة، فبيان المكان المُخْرَج منه أوقع على نفوسهم، وأبلغ في بيان الذِّلّة.

نكتة استعمال ﴿أَذِلَّةٗ﴾ دون غيرها:

بيان أنّ الذِّلّ قَهْرٌ بعد عِزٍّ وتمكينٍ

آثر النّظــم الكريم التّعبير بلفــظ الذّلّ في قوله جلّ شــأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ وذلك لأنّ الذّلّ دالّ علــى نقيض العزّ، وأنّه كائن عن قهــر[2]، أي نخرجهم أذلّة بعدما كانوا فيه من العزّ والتّمكين[3].

بلاغة الحال جملةً بعد الحال مفردةً:

الــذُّلّ الـواقـع عليهم، يصحبه انـهـزامٌ وأَسْــرٌ وانهيارُ الكيان

أَتْبَعَ النّظم الجليل الحال المفردة ﴿أَذِلَّةٗ﴾، بالحال الجملة ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، وذلك لبيان أنّ ذلّهم كائن بطريق الأَسْرِ والتّخلّي عن أسباب المَنَعَةِ والقوّة، فذلُّهم ليس واقعًا بمجرّد الجلاء والإخراج[4]، بل مع الصّغار والقهر والانهزام.

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 286.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 286.

ذلّ الهزيمة ثابت على الكافرين، لا ينفكّ عنهم

دلالة استعمال اسم الفاعل ﴿صَٰغِرُونَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الصّغار، بصيغة اسم الفاعل، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، للدّلالة على تمكّن صفة الذّلّ منهم وثبوتها فيهم. "والصَّغار وقوعهم في الأَسْرِ، يعني لنخرجنّهم منها إن لم يأتوني مسلمين، قال وهب وغيره، أنّه لمّا رجع رسل بلقيس إليها، من عند سليمان، قالت قد عرفت واللّه ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة"[1]، والتّهديد بهذه العبارة القويّة: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، يُؤَكِّد مُكْنَةَ سليمان عليه السلام، بما أفاء اللّه عليه من قوّة، وما سخّر له من جنود، من الجنّ والإنس والطّير، وما أعطاه اللّه من هيبة، ملأت الآفاق، ومكّنت لنبوّته في الأرض.

(1) المَظْهَرِيّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المَظْهَرِيّ: 7/ 116.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ
مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ
مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا
رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي
غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النّمل: 38 - 40]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ ردِّ سليمانَ الصّارِمِ بقدومِ الملكة، وإعدادُ خارقةِ نَقْلِ العرش

لمّا حكى النّظم الجليل، ما رَدَّ به سليمان، على الرّسول، وما بعثوه من الهديّة، وأمره بالرّجوع إلى قومه، أورد النّظم ما أمر به سليمان جنوده، وما طلبه من جلسائه، بشأن ملكة سبأ، فلمّا رجعت الرّسل إلى بِلْقيس وأخبروها بما قال سليمان؛ بعثت إليه إنّي قادمة إليك، فلمّا علم أنّهم سيأتون مذعنين قال للأشراف من جماعته: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾، لترى بعض ما آتاني الله من الخوارق، فيكون ذلك مُعينًا لها على الدّخول في الإسلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَؤُاْ﴾: (ملي، ملأ) أصل يدلُّ عَلَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ. والمَلَأُ: الأَشْرافُ مِنَ النّاسِ، لِأَنَّهُمْ مُلِئوا كَرَمًا[2]. والمَلَأُ: جماعة من النّاس يجتمعون ليتشاوروا ويتحادثوا، والجميع: الأَمْلاءُ. ويقال: ما كان هذا الأمر عن مَلَأٍ منّا، أي: عن تشاور واجتماع[3]،

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 163، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملي).
(3) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (ملأ).

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 60]، ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النّمل: 29]. ويقال: فلان مِلْءُ العيونِ. أي: مُعَظَّمٌ عند مَن يراه، كأنّه مَلَأَ عينَه من رؤيته، ومنه: قيل شابٌّ مالِئُ العينِ. والمَلَأُ: الخَلْقُ المملوءُ جَمالًا. والمَلَأُ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا[1].

2) ﴿بِعَرْشِهَا﴾: (عرش) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غَيْرِ ذَلِكَ. مِنْ ذَلِكَ العَرْشُ: سَرِيرُ المَلِكِ[2]، والعَرْشُ في الأصل: شيءٌ مُسَقَّفٌ، وجَمْعُهُ عُروشٌ. قال تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، والعرش السّرير، يكون لِلْمَلِك والسُّلْطان، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النّمل: 23][3]، وسمّي مجلس السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بِعُلوِّه. قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾، وقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقال: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾[4]. والعرش كُرْسيٌّ كما في قَوْله ﷺ في حَديثِ بَدْءِ الوَحْيِ: «فإذا هو علَى العَرْشِ في الهَواءِ، يَعْني جِبْريلَ عليه السلام، فأخَذَتْني رَجْفَةٌ شَديدَةٌ، فأتَيْتُ خَديجَةَ، فقُلْتُ: دَثِّروني» وفي روايةٍ ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ الكُرْسيَّ بَدَلَ العَرْشِ فقال: «فَإذا المَلَكُ الذي جاءَني بحِراءٍ قاعِدٌ علَى كُرْسيٍّ بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فَجَئِثْتُ منه حتَّى هَوَيْتُ إلى الأرْضِ، فَجِئْتُ أهْلي فقُلتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني»[5].

3) ﴿عِفْرِيتٌ﴾: (عفر) أَصْلٌ يدلّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ، رَجُلٌ عِفْرٌ بَيِّنُ العَفارَةِ، يوصَفُ بِالشَّيْطَنَةِ. ويُقالُ إنَّهُ الكَيِّسُ الظَّريفُ. وإنْ شِئْتَ فَعِفْرٌ وأَعْفارٌ، وهوَ المُتَمَرِّدُ. وإنَّما أُخِذَ مِنَ الشِّدَّةِ والبَسالَةِ[6]. العِفْريتُ مِنْ كلِّ شَيءٍ: المُبالِغُ، يقال: فلانٌ عِفريتٌ نِفريتٌ، وعِفرِيَةٌ نِفْرِيَةٌ[7]. وقال الزّجّاج: العِفْريت من الرّجال النّافِذُ في الأمر، المُبالِغ فيه مع خبث ودهاء، وقد تعفْرَتَ، وهذا ممّا تحمّلوا فيه تبقيّة الزّائد مع الأصل في حال الاشتقاق،

(1) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(3) عيّاض بن موسى، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 2/ 77.
(4) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(5) متفق عليه، أخرجهما البُخاريُّ في صحيحه، الحديث رقم: (5885)، ورقم: (4660)، وأخرجه مسلم في صحيح الحديث رقم: (264).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (عفر).

توفيةً للمعنى، ودلالةً عليه[1]. قال تعالى: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، العفريت من الجنّ: هو العارم الخبيث، ويستعار ذلك للإنسان، استعارةَ الشّيطان له[2]، والمراد به في الآية الكريمة المارد الغليظ الشّديد، وهو رئيس الجنّ[3].

4) ﴿طَرۡفُكَۚ﴾: (طرف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأَعْضاءِ، فالطَّرْفُ: تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ. هَذا هوَ الأَصْلُ ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ الطَّرْفَ مَجازًا[4]. والطَّرْفُ: إِطْباقُ الجَفْنِ عَلَى الجفْن. طَرَفَ يَطْرِفُ طَرْفًا: لَحَظَ، وطَرَفَ البصرُ نفسُه يَطْرِفُ، وطَرَفَه يَطرِفُه وطَرَّفَه كِلاهُما إذا أَصاب طَرْفَه، والِاسْمُ الطُّرْفَةُ. والطَّرْفُ اسْمٌ جامِعٌ لِلْبَصَرِ، لا يُثَنَّى ولا يُجمع لأَنه في الأَصل مَصْدَرٌ فَيَكونُ واحِدًا ويَكونُ جَماعَةً. وقالَ تَعالَى: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 43][5]. وطَرْفُ العينِ: جَفْنُهُ، والطَّرْفُ: تحريكُ الجَفْنِ، وعبّر به عن النّظر إذ كان تحريكُ الجَفْنِ لازمُه النَّظرُ، قال تعالى: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

طَلَبُ سليمانَ إحضارَ العرشِ، وشُكْرُهُ اللهَ على تحقيق تلك المعجزة

يخبر النّظم الكريم، أنّ سليمان عليه السلام، خاطب مَن سَخَّرهم اللّه تعالى له، من الجنّ والإنس من مَلَئِه: أيُّكم يأتيني بسرير ملكها، قبل أن يأتوني منقادين طائعين؟ فأجابه مارد من الجنّ: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإنّي لقويٌّ أمينٌ على حَمْله، ثمّ استأذنه، رجل ممّن عنده علمٌ من الكتاب، فقال: أنا آتيك به، قبل ارتداد

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (عفر).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 160.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(5) ابن منظور، اللّسان: (طرف).
(6) الرّاغب، المفردات: (طرف).

طرفك، فأذن له سليمان، فلمّا رأى العرش حاضرًا لديه، قال: هذا مِن فضل ربّي، ليختبرني: أأشكر، أم أكفر؟ ومن شكر فلنفسه، ومن كفر فإنّ اللّه غنيّ عن شكره، يَعُمُّ بخيره في الدّنيا الشّاكرَ والكافرَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فَصْل جملة ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ﴾:

استئنافٌ بيان أحداث القصّة، مُفْصِحٌ عن المعنى المراد

فصل النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، لأنّها مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لذكر بعض أخبار القصّة[2]، وهي أشبه ما تكون بالحلقات المتلاحقة، أو المشاهد المنبئة عن جزء من مفاصل القصّة، له استقلاليّته وتميّزه، ولكنّه يمثّل ملمحًا من ملامحها، لا يخرج عن هيكلها العامّ، رغم أنّه يؤسّس لمنحىً ذي تفرّدٍ وخصائصَ.

دلالة النّداء بأداة البعيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النّداء بصيغة البُعْد يدلّ على أهمّيّة الخطاب

آثر النّظم الكريم التّعبير بحرف النّداء، الدّالّ على البعد، مع كون الجلساءِ قريبين منه، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وذلك لبيان أهميّة الطّلب والانتباه له، وأنّه بحيث يجب التّيقّظ لما سيقول، فأداة النّداء البعيدة، تسترعي انتباه المخاطب لعلوّ مكانة المتحدَّث عنه.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿ٱلْمَلَؤُاْ﴾ دون غيرها:

أهمّيّة المطلوب توجب خطاب الكبراء ذوي الشّأن

اختار النّظم الجليل الخطاب بلفظ الملأ، دون غيره في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ﴾، لأنّه خاطب الأشراف من جنوده وقومه[3]، فَجَسامَةُ الطّلب، تستدعي الحديث مع من له مكانة ومعرفة، ودراية عالية، وهذا شأن مخصوص بفئة قليلة من أكابر القوم.

---

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 270.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 163.

نكتة تعريف ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ بـ (أل) دون الإضافة:

مدّ الله سليمان بعطاياه، فسخّر له من يعمل بأمره ورضاه

عرّف النّظم الجليل ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ بالألف واللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ دون الإضافة لأنّهم جماعة معروفة معهودة، أي الملأ المعهود خطابهم ومشاورتهم، وقد كان سليمان في هيبة عظيمة، يعكسها مجلسه العامر بالقوّة، والموصول بمدد اللّه له، من جنٍّ وإنسٍ وطيرٍ، وخصوصًا من السَّراةِ والعِلْيَةِ، من رؤوس الجنّ وعفاريته، ومن نخبة الإنس، ممّن تميّز وبرز، بما أوتي من العلم، في ذلك المجلس الّذي لا يجود الزّمان بمثله.

نكتة الاستفهام بلفظ ﴿أَيُّكُمۡ﴾:

اشتراط أن يكون جالب العرش من المخاطبين في المجلس

عبّر النّظم الجليل بلفظ الاستفهام، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، لأنّه يعلم أنّ هناك مَنْ في وُسْعِهِ المجيءُ بالعرش، فعبّر باسم الاستفهام، الدّالّ على التّعيين بإضافته، فأضيف إلى ضمير المخاطبين، ليدلّ على أنّ الخطاب مخصوص بالملأ، أي إنّ الّذي يأتي به يجب أن يكون منهم، ولو قال: (مَن يأتيني به)؛ لدلّ على عموم من يستطيع ولا يختصّ بالمخاطبين؛ وذلك لأنّ معاليَ الأمورِ وكبيرَها لا يُطْلَبُ إلّا من الكبراء ذوي الشّأن.

نكتة مجيء الخبر فعلًا مضارعًا ﴿يَأۡتِينِي﴾:

التّوقّع المستقبليّ للإتيان بالعرش مناسبٌ للمضارع

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، لأنّه حَدَثٌ لَمّا يَقَعْ بَعْدُ، فهو واقع في المستقبل، وأنّ الإيتاء هو حدث يُزاوَلُ ويُعالَجُ، ويَتَطَلَّبُ جهدًا مستمرًّا، غير منقطعٍ. فكان من الطّبيعيّ أن يُؤْثِرَ النَّظْمُ الكريم استعمالَ الفعل المضارع على غيره لأنَّه دالٌّ على زمن الحال، وزمن الاستقبال بسبب امتداد زمن الانتظار بعد السّؤال، حتى وإن كان قصيرًا، كالقيام من المجلس، أو ارتداد البصر.

غَرَضُ ذِكْرِ المفعول في ﴿يَأۡتِينِي﴾:

الإتيانُ بالعرشِ ذو أهـمّـيّـةٍ؛ لِتَعلُّقِهِ بغايةٍ يريدُها سليمان

جعل النّظم الجليل الفعل متعدّيًا إلى ضمير المتكلّم، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، دون أن يقول: (يأتي بعرشها)؛ وذلك للدّلالة على أنّ الغاية من الإتيان به متعلّقة برغبة سليمان، تحقيقًا لخارقة، تبيّن لها صحّة دعوته، كما أنّ المجيء بياءِ المتكلّم مفعولًا به، يُضفي على الأمر مزيدًا من الهيبة والحثّ على الإنجاز.

نوع الباء ودلالتها ﴿بِعَرۡشِهَا﴾:

المطلوب المجيء بالعرش بذاته، لا بـمـجـرّد الوصف

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، وهي هنا صالحة للمصاحبة والتّعدية[1]، بمعنى أن يأتيني به مصاحبًا له، وهي صالحة للتّعدية، بمعنى يجلبه ويحضره لي، فتكون دالّة على تأكيد المجيء به ذاتًا، لا أن يأتيني بخبره أو وصفه، بل هو نفسه يكون حاضرًا عندي.

دلالة التّعريف بالإضافة في قوله: ﴿بِعَرۡشِهَا﴾:

عَظَمَةُ المُعجِزة في السّياقِ ترتبط بِعَظَمَةِ العَرْشِ المَجْلوب

عرّف النّظم الجليل لفظ العرش، بالإضافة إلى ضمير المَلِكَة، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، تأكيدًا على كونه عرشَها ذاتَه، وليس مطلق العرش، بل العرش الّذي ينتسب إليها، وهو ذلك العرش الّذي وصفه الهدهد بأنّه عظيم، في قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: 23]، "يعني: سريرًا كبيرًا أعظم من سريرك. ويقال: كان طول سريرها ثمانون ذراعًا في ثمانين، مرصّعًا بالذّهب والدّرّ والياقوت، وقوائمه من اللّؤلؤ والياقوت"[2]، وهذه الأخبار لم ترد في النّص القرآنيّ، ولكنّ الصّحيح أنّه كان عرشًا عظيمًا، وعظمتُه تتجلّى في فخامته، وبديع صنعه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 270.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 578.

نكتة ذِكرِ الظّرف ﴿قَبۡلَ﴾:

إحضارُ العرش قبل مجيء القوم برهانٌ قاطعٌ على النّبوّة

قيّد النّظم الجليل، إيتاء العرش بأنّه واقعٌ قبل مجيء الملكة، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، وذلك لتحقيق خارقةٍ تؤيّد صحّة دعوته، وهي مشترَطَةٌ بوقوعه قبل زمان مجيئهم، لأنّه سيكون أشدّ وقعًا، وأبلغ تأثيرًا؛ فاستدعى "العرش قبل وصولها، ليريها القدرة الّتي هي من عند اللّه، ويجعله دليلًا على نبوّته"[1]، وحكى الطّبريّ عن ابن عبّاس، أنّه قال هذه المقالة، وطلب هذا الطّلب، توخّيا للنّظر في صِدۡقِ الهدهد من كَذِبِهِ[2]، وقد قال له: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النّمل: 23]، فأراد أن يكون علمه عينَ يقينٍ، وأن يشاهد عظمة هذا العرش بأمّ عينيه، فقال: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، ثمّ وقع ما حقّق المعجزة، وأُتيَ بالعرش من اليمن إلى حيثُ كانت مملكةُ سليمانَ[3]. فقدرةُ اللّه تعالى لا يُعۡجِزُها أن تُطۡوَى لسليمانَ المسافاتُ.

بلاغة لفظ ﴿يَأۡتُونِي﴾ دون (يَجيئوني):

المجيء إلى سليمان كان بقدرة الله خاليًا من المعوّقات

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإتيان دون المجيء في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، لأنّ الإتيان يدلّ على المجيء بسهولة، فلمّا أعلنوا خضوعهم له، واستسلامهم لتهديده وسلطته، كان مجيئهم خاليًا من المعوّقات، فهو مجرّد إتيان وقدوم في الطّريق.

بلاغة استعمال لفظ ﴿مُسۡلِمِينَ﴾:

الإسلام قبول الدّين، والموافقة على أوامر ربّ العالمين

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الإسلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، دون غيرها من الألفاظ الدّالّة على الخضوع؛ لأنّ الاستسلام لا يدلّ على الخضوع وحسب، بل يدلّ على

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 160.

(2) ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 19/ 193.

(3) ابن عطيّة الأندلسيّ، المُحَرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 160.

الاستسلام لِما أُمِروا به، وما طُلِبَ منهم، ففيه موافقة على المِنهج والدّعوة الموجَّهةِ إليهم، أي يأتون منقادين طائعين، مستسلمين لما أُمِروا به[1].

علّة فصل الآية عن السّابقة ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ﴾:

تَعاقُبُ أقوالِ الحوار يُغْني عن الرَّبط بحرف العطف

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، لأنّها وقعت في سياق المحاورة[2]، فَفُصِلَتِ اكْتفاءً بالرّابط الحاصل بين الجمل الواردة في حكاية المحاورة الواحدة، فبعد أن قال سليمان لجنده: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، ردّ عليه عفريت من الجنّ بقوله ذلك.

بلاغة التّصريح باسم العلم (عفريت):

ذكر العفريت الّذي يعني الشدّة والقوّة مُظْهِرٌ فَضْلَ مَنْ أوتي العلمَ

صرّح النّظم الجليل بأنَّ المتحدّث من الجنّ، كان عفريتًا، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، دون أن يقول: (قال قائل من الجنّ)؛ وذلك لبيان أنّه كان على الغاية من القوّة والعظمة، ومع ذلك كان مَن أوتي العلم بالكتاب، أفضلَ شأنًا منه وأعظمَ قدرةً.

دلالة ذكر قيد ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾:

العفريت كائن من الجنّ، لا من قبيلٍ آخرَ

قيّد النّظم الجليل، أنّ العفريت كائن من الجنّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، وذلك لبيان أنّه من قبيل الجنّ، لأنّ العفريت من الألفاظ المشتركة الّتي تدلّ على غير الجنّ؛ فهو يطلق على الأسد، والمارد القويّ، والرّجل النّافذ في الأمر المبالِغ فيه، مع دهاء وقوّة[3]، فالقيد ليدفع الالتباس عن حقيقة هذا العفريت، فالقيد جيء به للنّصّ على أنّه جِنّيٌّ، والنّصّ على ذلك

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 325.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 270.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 162 - 163.

لبيان شِدّة هذا العفريت، وقوّة قدرتِه، وهذا يؤول إلى كمال قوّة سليمان، وسعة سلطانه.

نكتة تقديم المسنَد إليه ﴿أَنَا۠﴾:

تقديم المسنَد إليه تقوية للمضمون وتأكيدٌ لحصول المطلوب

قدّم النّظم الجليل المسند إليه، وجعل الجملة اسميّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، وذلك لتعظيم المتحدّث، أي أنا الدّاهية الغليظ الشّديد آتيك به[1]. وجَعْلُ التّعبير جملةً اسميّة يدلّ على تأكيد المعنى، وتقوية الخبر، وأنّه ناجزٌ وواقعٌ لا محالة.

فائدة استعمال جملة ﴿ءَاتِيكَ﴾ مسندًا فعليًّا:

القدرة على الإتيان بالعرش ثابتةٌ متجدّدة

عبّر النّظم الجليل بالجملة الفعليّة، مسندًا إلى الضّمير، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، فيكون قد جمع بين الجملة الاسميّة والفعليّة في عبارة واحدة؛ وذلك للدّلالة على تمام القدرة وثبوتها وتجدّدها، وهو أمر معلوم باعتبار إطلاق القدرة الإلهيّة وعظمتها، وقد حدّد السّياقُ الفعلَ المرادَ تجسيدُه في الواقع، كما حدّد الجهة الّتي يأتيها العرش دون سواها، وبدقّة دقيقة، انخرق بها المألوف، وتحقّق أمر الله بما طلبه سليمان.

نكتة ذكر المفعول به ضميرًا ﴿ءَاتِيكَ﴾:

جَعْلُ الكلامِ في الجواب على نظير السّؤال من بليغ البيان

صرّح النّظم الجليل بلفظ المفعول به الضّمير، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، دون أن يقول: (أنا آتي به)؛ لأنّه جاء بقوله هذا ردًّا على قول سليمان: ﴿يَأۡتِينِي﴾، فلمّا صُرِّح بالمفعول به في السّؤال صُرِّح به في الجواب، وهذا من جماليّة التّعبير، بأن يُجْعَلَ الكلام في الجواب على نظير السّؤال.

دلالة (الباء)، في قوله ﴿بِهِۦ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الباء، في قوله جلّ شأنه:

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 164.

﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ وهي هنا للتّعدية[1]، والغرض من التّعدية بالباء، تأكيد المجيء به، دون سواه، رُغم ضخامة العرش وعظمته، وبُعْدِ المسافة، ونأيِ المكانين. قال الطّبريّ: "ليجعل ذلك حجّة عليها في نبوّته، ويُعَرِّفَها بذلك قدرةَ اللّه وعظيمَ شأنه، أنّها خلَّفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعضٍ، مغلقٍ مقفلٍ عليها، فأخرجه اللّه من ذلك كلّه، بغير فتح أغلاق وأقفال، حتّى أوصله إلى وليّه من خلقه، وسلّمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجّة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوّته"[2].

قدرة الله لا يُعجزها شيءٌ مهما ضَخُمَ أو تعاظم

دلالة استعمال المصدر المؤوّل دون الصَّريح:

آثر النّظم الكريم، التّعبير بالمصدر المؤوّل، دون المصدر الصّريح، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، فلم يقل: (قبل قيامك)؛ وذلك للدّلالة على الشّروع بالقيام، فيكون المراد قبل البدء بالقيام، أي قبل انتهاء المجلس، وهذا إنّما يدلّ عليه الفعل لما فيه من دلالة على الزّمان.

التّصريح بأنّ القيام كائنٌ قبل الشّروع بأوّل جزءٍ من أجزائه

بلاغة استعمال ﴿تَقُومَ﴾ دون (تغادر):

آثر النّظم الكريم، التّعبير بالقيام دون غيره كالمغادرة، في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، تعبيرًا عن قيامه من مجلسه الّذي يجلس فيه للحكم بين النّاس[3]، وذلك لأنّ القيام يسبق المغادرة، فآثر ذكرَه تعبيرًا عن السّرعة.

سرعة الإيتاء كائنة قبل القيام للمغادرة

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن مَّقَامِكَۖ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، وهي مستعملة هنا للدّلالة على الابتداء، أي قبل أن تَبْتَدِئَ قيامَك من المجلس.

إيتاء العرش قبل الشّروع بالقيام من المجلس معجزةٌ خارقة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 270.

(2) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 19/ 463، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 202، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 362، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 364.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 160.

نكتة التّعبير بالمقام دون العرش أو الكرسيّ:

إيتاء العفريت بالعرش، مقيَّد بكونه بعد انقضاء مجلسه وقبل قيامه منه

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ المقام دون العرش أو الكرسيّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، فإنّه كان يلبث في مجلسه للحكم بين النّاس، فجعل وقته ذلك قيدًا للتّعريف بالوقت الّذي يتطلّبه الإتيان بالعرش، أي قبل تركه المكان الّذي هو فيه، فإنّه قد يقوم من الكرسيّ أثناء الحكم بين النّاس، فبيّن أنّه يأتيه به بعد انقضاء المجلس لا بعد قيامه من الكرسيّ.

نكتة عطف ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾:

الإتيان بالعرش لا يكفي، ما لم يتعهّد بحفظه وصيانته

عطف النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، على الجملة، في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، ليكون كلا القولين من كلام العفريت[1]، والمعنى أنّه قد تعهّد بالمجيء به مع المحافظة عليه.

بلاغة التّوكيد في ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾:

عرض القدرة على الإيفاء بالطّلب، مع نفي الشّكّ في عدم القدرة

أكّد النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، أي على حمله لَقويٌّ عتيٌّ لا يعجزني حمله، على ما فيه من الجواهر، وما يوصف به من ثقل، وما يمثّله من نفاسة، والتّوكيد تَقْوِيَةٌ لمضمون الخطاب، ودلالة على قوّته على ذلك، ونفيًا لعجزه عنه[2]، فَدَفَعَ الشّكَّ الّذي قد يقع إنكارًا عليه.

نكتة تقديم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الخبر:

لا يقدر على الإتيان بالعرش إلّا من له قوّة عظيمة

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة، من الجارّ والمجرور على الخبر، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، فلم يقل: (لقويٌّ عليه)؛ مبالغةً في تعظيم قوّته وأنّها كفيلة بنقل هذا العرش على عظمته والحفاظ عليه.

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 170.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 141.

دلالة استعمال حرف الاستعلاء (على):

قـوّةُ الله تعالى سرٌّ مودَعٌ في مَن أراد مِنْ خَلْقِهِ

عبّر النّظم بحرف الجرّ (على)، الدّالّ على الاستعلاء، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، أي على حمله لَقويٌّ قادر، لا يعجزني حمله، وأمينٌ على ما فيه من الجواهر والنّفائس، فلا أنقص منه شيئًا، ولا أبدّله بغيره، باعتباره أمانةً تُحفَظُ، حتّى تكون دلالةً على المعجزة الحاصلة، لتراها بِلْقيسُ بأمّ عينها، وتبصر العرش ماثلًا أمامها، فتتحقّق من صدق البلاغ، ومصداقيّة مَنْ أَرْسَلَ، عِلْمًا بأنّ جملة ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ حال من فاعل ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾[1]، وهذا وصف لمشهد مفْصَليٍّ مِنَ القصّة، يُنْبِئُ عن قوّةِ تَمَكُّنِهِ من حفظه، والاقتدار على جَلْبِهِ.

نكتة اقتران صفتي ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾:

القدرة لا تكفي، ما لم يرافقها حفظٌ وأمانةٌ بالأداء

جمع النّظم الجليل، بين صفتي القوّة والأمانة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾؛ للدّلالة على القدرة على حمل العرش، والأمانة على ما فيه[2]، فعبّر عن امتلاكه القدرةَ على الإتيان به من تلك المسافة البعيدة، مع الإيفاء به على وجهه، كاملًا بلا تغييرٍ، ولا فقدانِ شيءٍ منه.

نكتة تقديم ﴿لَقَوِيٌّ﴾ على ﴿أَمِينٞ﴾:

تحصيل الشّيء بالقوّة اللّازمة، يسبق حفظه والأمانة عليه

قدّم النّظم الجليل صفة القوّة، على صفة الأمانة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، لأنّ حفظ الشّيء لا يكون إلّا بعد تحصيله، ولا يكون تحصيلٌ له ما لم تكن قدرةٌ، فقدّم القوّة الّتي يتحصّل بها الشّيء على حفظ الشّيء بعد تحصيله.

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ﴾:

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي

(1) المَظْهَرِيّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المَظْهَرِيّ: 7/ 117.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 160.

﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لأنّها واقعة في جوابٍ في المحاورة[1]، فهي مُغْنِيَةٌ عن العاطف، لِما في الحوار من ربطٍ بين أجزاء الكلام. وفائدةُ هذا الفصل أيضًا بيانُ ما بين المقولتين من تفاوتٍ.

إجابة السّؤال بمقول آخر مفيدةٌ في البيان

بلاغة الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ دون (مَنْ):

التّخصيص بالموصول مَسْلَكٌ في تعيين المراد من الدّلالة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾، دون (مَنْ)، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وذلك لأنَّ المتحدَّث عنه شخص واحد بعينه[2]، وليس المراد العموم والإبهام.

نكتة تقديم الظّرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

عِلْمُ صاحبِ العلم مقتصرٌ على ما عَلِمَ من الكتاب

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لاختصاصه بهذا العلم، أي ليس عند غيره من الجلساء أو النّاس، أو ليس لديه سوى هذا العلم، فهو تزكية لعلمه.

غرض تنكير لفظ ﴿عِلۡمٞ﴾:

الموصوف بالعلم عظيم القدر، جليل الشّأن

نكّر النّظم الجليل لفظ العلم، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لما في التّنكير من دلالة على التّفخيم والتّعظيم[3]، أي لديه علم جليل بليغ من الكتاب، فقيل هو آصف بن برخيا، وكان رجلًا صالحًا، أطلعه الله على أسرار الكون، وقال آخرون: بل هو سليمان ﷺ، "وفَرْقٌ كبير في القدرات، بين مَنْ يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه، وبين مَنْ يأتي به في طَرْفة عين، ونَقْلُ العرش من مملكة بِلْقيسَ إلى مملكة سليمانَ يحتاج إلى وقتٍ وإلى قوةٍ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 270.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 198.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 17/ 1078.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

مصدر العلم في السّياق الكتب السّماويّة، أو اللّوح المحفوظُ

عرّف النّظم الجليل الكتاب بالألف واللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، للدّلالة على الجنس، فليس المراد كتابًا بعينه، بل جنسُ الكتاب الّذي يشمل جميع الكتبِ المنزلِة، أو يراد به كتابٌ بعينه، وهو اللّوحُ المحفوظ. وفائدة ذلك الإشارة إلى أنّه عِلّمٌ غيرُ معهودٍ[1].

بلاغة المقابلة بين (العفريت) و(ذي العلم):

بيانٌ لتميُّزِ قدرة العالِمِ بالكتاب في السرعة في تنفيذ الأمر، عن سرعة العفريت

قابل النّظم الجليل، بين مقولة العفريت: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾، ومقولة الّذي عنده علم من الكتاب، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، لبيان السّريع والأسرع[2]، فقول العفريت دليل على السّرعة، وقول الّذي عنده علم من الكتاب دليل على الأسرع. وهذا بيان لنعمة اللّه تعالى على عبده سليمان عليه السلام.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَرۡتَدَّ﴾ دون (يرجع):

ارتداد الطَّرْف تحويله إلى جهته الّتي كان عليها

آثر النّظم الكريم، التّعبير بلفظ الارتداد دون الرّجوع، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، لأنّ الرّجوع يدلّ على العودة مكان البداية[3]، أمّا الرّدّ فهو بمعنى الصّرف[4]، فارتداد الطّرف هو رجوعُ تحديقِ العينِ من جهةٍ منظورةٍ، تَحَوَّلَ عنها لحظةً[5]. فتحويل النّظر ثمّ إعادتُه إلى موضعه، هو ارتدادُ الطَّرْف.

سرُّ ذكر قيد ﴿إِلَيۡكَ﴾:

سرعة الإحضار، دليل على المُكْنَةِ مِن تقليصِ المدّة

قيّد النّظم الجليل لفظ الارتداد، بحرف الجرّ، الدّالّ على انتهاء الغاية، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، مع أنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 6/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 271.
(3) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 271.

ارتداد الطّرف لا محالة كائنٌ إلى صاحبه؛ وذلك لتأكيد بلوغه إليه، تعبيرًا عن سرعة الإحضار، أي أثناء زمان ارتداد الطّرف، وبلوغِه صاحبَه، وقبل انتهاء غايته.

نكتة تأخير المسند إليه وتقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تأخير المتحدَّث عنه يُشوّق الأذان، وينبّه الأذهان

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة، من الجارّ والمجرور، وأخّر الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، فلم يقل: (يرتدّ طرفك إليك)؛ لِما في تأخير المتقدّم من تشويق للأسماع، فلمّا ذكر الفعل، وأتبعه بشبه الجملة، تطلّع السّامع لمعرفة ما الّذي يرتدّ، ويكون دلالة على سرعة الإحضار، فتشوّقت النّفس لمعرفته، فلمّا ذكره، كان أشدّ وقعًا في لفت الانتباه، لِعِظَمِ هذه النّعمة.

دلالة إضافة الطّرف للضّمير في ﴿طَرۡفُكَۚ﴾:

المخاطب هو السّائل، والحديث يساق لأجله

أضاف النّظم الجليل لفظ الطّرف إلى ضمير المخاطب، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، لأنّ المقصود بإظهار هذه النّعمة، هو المخاطب، ولكونه هو السّائل.

بلاغة الكناية في ارتداد الطّرف:

إحضارُ الشّيء قبل ارتداد البصر سرعةٌ خارقة

استعمل النّظم الجليل العبارة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، كناية عن السّرعة الفائقة في الإحضار[1]، فمجيء الشّيء حاضرًا بين اليدين قبل طَرْفِ العين، أمرٌ بالغُ السّرعةِ.

دلالة (الفاء) في قوله ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾:

الفاء تُفْصِحُ عن جملة محذوفة؛ لتخبر عن وصول العرش عنده

افتتح النّظم الجليل الجملة، بالفاء الفصيحة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، لأنّها أفصحت عن جملة محذوفة معطوف عليها، والتّقدير: (فلمّا جاء عرش الملكة لسليمان، ورآه مستقرًّا عنده)، فالجملة المحذوفة، دالّة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 326.

على تحقّق الإحضار، وحُذِفَتِ اكتفاءً بدلالة ما بعد الفاء عليها[1]، وفائدة التّعبير بالفاء هنا، الإعلام بمدى سرعةِ الإتيانِ به، بحيث إنّه لم يقع فاصلٌ زمنيّ معتبر، بين قول صاحب العلم، وبين رؤية سليمان ﵇.

دلالة (لمّا) على الظّرفيّة:

نِسبةُ سليمانَ معجزةَ نقلِ العرشِ إلى فضلِ الله ومِنَّتِه

عبّر النّظم الجليل بظرف الزّمان (لمّا)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، وهي ظرف بمعنى حين، يتضمّن معنى الشّرط، والغرض منها تعليق الجواب بالشّرط، فتربط بين جملتين للدّلالة على أنّ الجملة الثّانية، قد وقعت حين وقعت الجملة الأولى. فهي تدلّ على أنّ سليمان قال ذلك، حال رؤيته العرش بين يديه من فوره.

دلالة استعمال الرّؤية ﴿رَءَاهُ﴾:

مجيء العرش كان مؤكَّدًا بيقين، وقد رؤي بالعين الباصرة

آثر النّظم الكريم استعمال الرّؤية، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، وذلك للدّلالة على كمال حضوره وقوّة ظهوره، تأكيدًا لمجيئه، فإنّه قد رآه بعينه، بحيث إنّه قد استغنى عن الإخبارِ بمجيئه، ببيان رؤيةِ سُليمان ﵇ إيّاهُ[2]، والظّاهر أنّ الطّريقة الّتي جيء بها بالعرش المذكور في السّياق المحكم هي أمر غيبيّ، لم ترد به نصوص القرآن، ولا تواترت به الرّوايات، وقد أجمله القرآن، وطواه السّياق طيًّا، ولم يأت تفصيل له بخبر صحيح، وهو - بلا شكٍّ - معجزة خارقة للعادة، كبقيّة المعجزات، الّتي ليس لنا إلّا أن نسلّم بها تسليمًا[3].

نكتة ذكر الحال بلفظ ﴿مُسۡتَقِرًّا﴾:

رؤية العرش مستقرًّا مفصحةٌ عن تأكيد سرعة إحضاره

قيّد النّظم الجليل الرّؤية بحال الاستقرار، في قوله جلّ شأنه:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 326.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 3/ 39.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، لتأكيد سرعة الإحضار ورؤيته ماثلًا أمامه، كأنَّه كان موجودًا من الأصل، كما أنّه يدلّ على دوام بقائه في ملكه[1].

سرّ ذكر الظرف ﴿عِندَهُۥ﴾ دون (في مجلسه):

انتظم العرش في حيازة سليمان له، باستقراره عنده

قيّد النّظم الجليل الاستقرار بظرف المكان ﴿عِندَهُۥ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، للدّلالة على مِلكه إيّاه على سبيل الدّوام والاستقرار عنده، مُنتظمًا في سلكِ مُلكه، والتّعبير بـ (مجلسه) لا يدلّ على التّمليك[2].

دلالة التّعبير بفعل القول ﴿قَالَ﴾:

مَنْ شَكَرَ النِّعمةَ أُعْطِيَ المَزِيدَ

حكى النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، ما قاله سليمان ﷺ عند رؤيته العرش، فقابل تلك النّعمة بالشُّكرِ جريًا على سَنَن الأنبياء، وعباده المخلصين[3]، "إمّا لأنّه أَقْدَرَهُ على الإتيان به بنفسه، أو سخّر له مَنْ عنده عِلْمٌ من الكتاب، فأتاه به، فهذه أو تلك فضلٌ من اللّه"[4]، وجب الاعتراف به، واللَّهَجِ بشكر اللّه على تفضّله به، دون حَوْلٍ من سليمان ولا قوّةٍ.

بلاغة الجملة الاسميّة ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾:

كلّ عطاءٍ واردٍ هو فضلٌ من الله الواحد

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الاسميّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، للدّلالة على قوّة المعنى وثباته، وتأكيد الخبر. ولا غرو أن يشير السّياق، إلى أنّ فيوضات الإحسان الإلهيّ على سليمان ليس إلّا فضلًا محضًا، وقد كان سليمان عارفًا بقَدْرِ النِّعمة، وجلال المُنعِم، الّذي خرق له نظام الزّمان والمكان، وأحضر له عرش بِلْقيسَ، فانصرف إلى شكر اللّه تعالى، على ما منحه

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 199.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 199.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 17/ 787 (بتصرّف).

من فضل، وما خصّه به من تَكْرُمَةٍ، وما أعطاه من جند مسخَّرين بالعلم والقوّة[1].

نكتة مجيء المسنَد إليه اسمَ إشارة:

بيان أنّ الفضل تعاظمَ حتّى صار شاخصًا يُشار إليه

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الإشارة، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، للدّلالة على تحقّق هذا الفضل، وتأكيد علوّ مكانته وعظمته، وجَعْلِهِ شاخصًا، بحيث إنّه يشار إليه. وقد جاء التّعبير بصيغة الإشارة الدّالّة على القرب؛ لربط الفضل بإحضار العرش، وليس المراد مطلق الفضل الإلهيّ.

بلاغة اختيار لفظ ﴿فَضْلِ﴾ دون (نعمة):

إحضار العرش محض تفضّل من الله، بلا استحقاقٍ موجِبٍ

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الفضل دون النِّعمة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، للدّلالة على أنّه لم يقدِّم ما يستوجب هذا الإحسان، بل محض تَفَضُّلٍ من الله تعالى، أي هذا مِن "تَفَضُّلِهِ جلّ شأنه عليّ مِن غير استحقاق ذاتيّ لي له، ولا عمل منّي يوجبه عليه"[2].

دلالة إضافة لفظ الرّبوبية إلى ضمير المتكلّم:

إحضارُ العرش نعمةٌ من الرّحمنِ، صاحبِ السّبق بالإحسان

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، للإشارة إلى أنّه مِنْ ربِّهِ الّذي طالما أحسن إليه، فإنّه قد كلّفه بالنّبوّة والرّسالة[3]، وأعطاه جندًا مسخَّرين بالعلم والقوّة، وأنعم عليه بإحضار العرش، وهي نعمة أخرى من نَعْمائِهِ وإحسانه، تستوجب الشّكر.

دلالة (اللّام) في قوله ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾:

بلاء الله لأنبيائه تمحيصٌ وتوطئة للتّمكين

عبّر النّظم الجليل باللّام الدّالّة على التّعليل، في قوله جلّ شأنه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 272.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 199.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 166.

﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، لبيان علّة الإنعام، أي إنّ الإنعام بإحضار العرش، كائنٌ لغاية الاختبار. ومعنى ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾، أي ليختبرني، وقيل: ليتعبّدني، وهو مجاز، والأصل في الابتلاء: الاختبار(1).

بلاغة استعمال الابتلاء دون الفتنة:

الاختبار بالنّعمة ابتلاء، وبالفتنة بلاء

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الابتلاء، دون الفتنة، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾؛ لأنّ الابتلاء يكون بالخير والشّرّ، والتَّفَضُّل على سليمان بإحضار العرش من كبائر النّعم، وأنّ الفتنة تدلّ على الاضطراب ويغلب عليها الاستعمال مع الشّهوات، وقد وردت فتنة سليمان في سورة (ص)، في غير هذا الأمر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ [ص: 34]، وبلاء الأنبياء الصّالحين، قدوة للعالمين، وتمحيص مستبين، وتوطئة للعزّة والنّصرة والتّمكين.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾:

الابتلاء متجدّد على المدى، والمبتلى إمّا شكور أو كفور

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع عن الابتلاء، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، للدّلالة على أنّ الابتلاء دائم لا ينقطع، فهو فعل متجدّد، والنّاس في كلّ العصور والدّهور ما فتئوا مُبۡتَلَيۡنَ، وهي صفة ملتصقة بوجود الإنسان، وكلّ بلاء ينتهي بالفرج والتّيسير، ويؤول برحمة اللّه ولطفه إلى ما فيه النّفع والخير.

دلالة الاستفهام في قوله ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾:

الاستفهام يعبّر عن موضوع الاختبار والغاية منه

عبّر النّظم الجليل بالاستفهام عن المراد من الاختبار المُعَبَّر عنه بالابتلاء، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، فإنّ الاختبار يقع لغاية الكشف عن معرفة المقصود بالاختبار عمّا في طويّته، أي إنّ اللّه تعالى يعاملني معاملة المختبِر، ليُظۡهِر لي حقيقة

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 46.

فِعلي ومكانتي، ومدى امتثالي لتعاليم شريعته، هل أشكر وأعترف بنعمته وتَفَضُّلِهِ عليّ بذلك، أم أكفر بترك الشّكر[1].

سرّ التّعبير بالشّكر في السّياق:

تجدّد الشّكر ودوامه واجبٌ على الصّالحين

عبّر النّظم الجليل عن مؤدَّى الاختبار وغايته، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، وهو وقوع الشّكر من عدمه، وقد عبّر بالشّكر لأنّه جاء عقب ذكر النّعمة، وقد جيء به فعلًا مضارعًا؛ لأنّه يراد به أنّ الشّكر يجب أن يكون دائمًا متجدّدًا.

فائدة تقديم (الشّكر) على (الكفر):

الأصل في النّعمة أن تُشكر، لا أن تُجحَدَ وتُكفَر

قدّم النّظم الجليل لفظ الشّكر على الكفر، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، وذلك لأنّ الأصل في النّعمة أن تُشكر مِمَّن اتّصف بصفة الإيمان عمومًا وبالأخصّ الأنبياء، فتقديم الشّكر هو دأب الصّالحين، ودلّ ذلك على أنّه اعْتَرَفَ بكونِه فضلًا من اللّه تعالى[2].

بلاغة الطّباق في ﴿ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾:

الجمع بين النّقيضين مُفضٍ إلى بيان فضيلة الشّكر

جمع النّظم المحكم، بين لفظي الشّكر والكفر في جملة واحدة، في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾، لبيان فضيلة الشّكر بإيراد نقيضها الذي هو الكفر، ولأنّ انتفاء الشّكر يدلّ على الكفر، مع ما فيه من جمالية في اللّفظ بجمع النّقيضين على سبيل الطّباق.

دلالة (الواو) في جملة ﴿وَمَن شَكَرَ﴾:

ذِكْرُ النِّعمة يوجب الشّروع في شكرها على الفور

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، بالواو الاستئنافية[3]، فالجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت للحثّ على الشّكر، على نعم اللّه تعالى، مُلْزِمًا نفسَه لشكر هذه النّعمة الجليلة.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 161، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 200.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 166 - 167.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 171.

دلالة (مَن) الشّرطيّة في السّياق:

الشّكران يعود بالنّفع على الإنسان

عبّر النّظم الجليل باسم الشّرط (مَن)، الدّالّ على العموم، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، للدّلالة على عموم هذا الشّرط، فكلّ أحد يزاول الشّكر، يكون انتفاعُه بالشّكر عائدًا على نفسه.

بلاغة مجيء فعل الشّرط ماضيًا:

التّحقّق بالشّكر يوجب زيادة النِّعم، وطلاقة الإنعام

النّظم الجليل التّعبير بالفعل الماضي، في الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، للدّلالة على أنّ الانتفاع واقع بعد تحقّق الشّكر، فمن أنجز الشّكر، فإنّه لن يُعْدَمَ جزاءَه، وقد كان الشّكر بعد وقوع المعجزة الخارقة، فقال سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، أي هذا النصر من فضل ربي ليختبرني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فلنفسه يشكر، لأنّ النفع إليه يرجع[1]، ومن اجْتَبَتْهُ القدرةُ لذلك، فهو من المصطفَين الأبرار، وعلى قَدْرِ المشقّة يكون الأجر، وعلى قَدْرِ البلاء يكون الجزاء.

دلالة (الفاء)، في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ﴾:

انحصار فائدة الشّكر بصاحبه متعلّقٌ بفعل الشّرط

افتتح النّظم الجليل الجملة، الواقعة جوابًا للشّرط، بالفاء الرّابطة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، لأنّ الجملة مستقلّة قائمة بنفسها، فجيء بالفاء لبيان ارتباط هذه الجملة، بفعل الشّرط، فتكون هي الجزاء المتعلّق بالشّكر.

بلاغة الحصر بالأداة (إنّما):

فاعل الشّكر لا ينفع الله بشكره، بل ينفع نفسه

استعمل النّظم المعجز أداة الحصر (إنّما)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، لبيان انحصار فائدة الشّكر بفاعل الشّكر لا بغيره، فإنّ الله تعالى غنيّ عن عباده، لا يُحوِجُهُ شيءٌ لِأَنْ يشكروه

(1) مَكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 543.

أو يثنوا عليه. وعبّر عن ذلك بأسلوب الحصر للدّلالة على تأكيد المعنى وتقويتُه، وهو حصر حقيقيٌّ من قَصْرِ الصّفة على الموصوف، فَقَصَرَ فائدة الشّكر على الموصوف بالشّكر.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشۡكُرُ﴾:

مَنْ شَكَرَ الله دام انتفاعُه بعطاياه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع، تعبيرًا عن الشّكر، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، للدّلالة على دوام انتفاعه من شكره الّذي سبق وأن فعله، "وحقيقة الشّكر - على لسان العلماء - الاعتراف بنعمة المنعم على جهة الخضوع، والأحسن أن يقال الشكر: هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه. ويقال: حقيقة الشّكر قَيْدُ النِّعم وارتباطُها، لأنّ بالشّكر بقاءَها ودوامَها"[1].

دلالة اللّام في قوله ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

الشّكر عِلّةٌ في تحقيق الفائدة للنّفس

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ اللّام، الدّالّة على التّعليل، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، للدّلالة على أنّ فعل الشّكر، يكون لأجل النّفس[2]، فعلّة فعل الشّكر الانتفاع بمزيد النّعم، وبالجزاء الجزيل على الشّكر، أي: "يعود نفع شكره إليه، وهو أن يستوجب به تمام النّعمة ودوامها، لأنّ الشّكر قيد النّعمة الموجودة، وصيد النّعمة المفقودة"[3].

دلالة الواو في: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

عَطْفُ جَزاءِ الكفر، على جَزاءِ الشُّكر، من كمال التَّقسيم

عَطَفَ النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾[4]، وذلك للتّقسيم وبيان جزاء المقابل للشّاكر، فبعد أن بيّن جزاء الشّاكر، عطف عليه جزاء الكافر.

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 40.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 166.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 168.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 172.

نكتة استعمال صيغة الماضي ﴿كَفَرَ﴾:

الإصرار على جحود النّعمة يوجب تحمّل عواقبه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل الماضي، تعبيرًا عن الكفر، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، للدّلالة على من تحقَّقَ بالكفر ورسخ فيه، وعلى أنّ جحود النّعمة والاستكبار عليها، لا يكون إلّا برسوخ صفة الكفر، والإصرار عليها.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَإِنَّ﴾:

الكفر بالنّعمة لا يضرّ الله شيئًا؛ لأنّه غنيٌّ عن عباده

ربط النّظم الجليل الجملة الواقعة جوابًا للشّرط، بالفاء الرّابطة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، لكونها جملة مستقلّة قائمة بنفسها، لا تحتاج إلى غيرها، فوجب المجيء بالفاء، للدّلالة على أنّ هذه الجملة مرتبطة ومتعلّقة، بالجملة الشّرطيّة الّتي قبلها.

بلاغة اختيار عنوان الرّبوبية ﴿رَبِّي﴾:

سياق ذكر النّعمة من متعلّقات الرّبوبيّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبِّي﴾، دون لفظ الجلالة (الله) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾؛ وذلك لأنّ السّياق في الحديث عن النّعمة وشكرها، وهذا يتعلّق برعاية الرّبّ ورزقه وعطائه، لا بجلال الألوهيّة.

دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى الضّمير:

إقرار سليمان لله بإغداق العطاء وكرم الاجتباء

أضاف النّظم الكريم لفظ الرّبوبيّة، إلى ضمير المتكلّم، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، إشارةً إلى أنّه هو المحسن إليّ بتوفيقي للنّبوّة، ولِما أنا فيه من شُكرِ النِّعمة[1]، وهو غنيٌّ عن الشُّكر، كريمٌ بترك تعجيل العقوبة لمن عُدِمَ منه الشُّكرُ أيضًا[2].

نكتة اقتران صفتي ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾:

أقرن النّظم الجليل بين صفتي الغنى والكرم، في قوله جلّ شأنه:

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 166.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.

بيان أنّ الله غنيّ عن شكر عباده، ولا يضرّه كفرهم

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾، لأنّه لما ذكر صفتي الشّكر والكفر، بيّن أنّه تعالى غنيّ عن الشّكر ولا يضرّه الكفر، وأنّه ينعم على عباده، بمحض كرمه، لا يتأثّر بفعل منهم حسُن أو ساء.

نكتة تقديم صفة ﴿غَنِيّٞ﴾ على ﴿كَرِيمٞ﴾:

الغنيُّ يُنْعِمُ، فيُقابِلُهُ الشُّكر، والكريمُ يُؤَخِّرُ العِقابَ فيُقابِلُهُ ذِكْرُ كُفْرانِ النِّعَمِ

قدّم النّظم الجليل صفة الغنى، على صفة الكرم في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ لأنّ الغنى يقابل الشّكر، وكلاهما متقدّم، وكونه كريمًا يرزق عبده الكافر، ويترك تعجيل العقوبة له[1].

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الارتداد والرّجوع:

الرّجوع عَوْدٌ إلى مكان المجيء، والارتداد لا يُشترَط فيه بلوغُ المنتهى

الرُّجوع يدلّ على العودة إلَى مُنْتَهَى المَقْصِد وإلى غيرِه[2]. الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقدير البَدْءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. فالرُّجوعُ: العَوْدُ[3]، أمّا الارْتِدادُ فهو الرّجوع في الطّريق الّذي جاء منه[4]. فيُلاحَظُ أنّ الرّدَّ لا يُشترَطُ له بلوغُ المنتهى أو الرّجوع إلى ما كان منه البَدْءُ، بل هو مطلق الارتداد عن المَقْصِدِ، فعبّر في الآية بالرّجوع لأنّه أراد من الرّسول أن يَبْلُغَ قومَه عائدًا إليهم.

الاستقرار والثّبات:

الاستقرار تمكُّنٌ من المكان، والثّبات انتفاءُ الزّوالِ عنه

الاستقرار يدلّ عَلَى تَمَكُّنٍ، يُقالُ قَرَّ واسْتَقَرَّ[5]. قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصله من القُرِّ، وهو البرد، وهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 303.
(3) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(4) الرّاغب، المفردات: (ردّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).

يقتضي السّكون[1]. أمّا الثّابت فهو ضدّ الزّوال[2]، ويدلّ على دَوام الشَّيْءِ[3]. وفي الآية الكريمة عبّر بالاستقرار، لأنّه أراد بيان تَمَكُّنِ حضوره عنده.

(1) الراغب، المفردات: (قرّ).

(2) الراغب، المفردات: (ثبت).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النّمل: 41 - 44]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ إحضارِ العرش، باختبارِها فيه، وإظهارُ الآياتِ المُفْضيَةِ إلى إسلامِها

بعد أن أورد النّظم الجليل طلب سليمان مِنْ مَلَئِهِ مَن يأتوه بالعرش، وطوى خبر إحضاره، على وفْقِ ما قال الّذي لديه علم من الكتاب، أن يكون عنده قبل طَرْفِ عينه، فلمّا حضر العرش من فوره، بيّن السّياقُ ما طلب سليمان من خدمه أن يفعلوا بالعرش، وبيّن ما قاله لملكة سبأٍ بعد أن قَدِمَتْ إليه، وما انتهى إليه أمرها من الإيمان بسليمان ودعوته وإسلامها للّه رَبِّ العالمين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَكِّرُواْ﴾: (نكر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إِلَيْها القَلْبُ[2]، والنَّكِرَةُ إنكارُك الشَّيْءَ، وهوَ نَقيضُ المَعْرِفَةِ. ونَكِرَ الأَمرَ نَكيرًا وأَنْكَرَه إنْكارًا ونُكْرًا: جَهِلَهُ. ويُقالُ: أَنْكَرْتُ الشَّيْءَ وأَنا أُنْكِرُه إنكارًا، والنَّكيرُ: اسْمُ الإنْكارِ الَّذي مَعْناهُ التَّغْييرُ. وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج: 44]، أَي إنكاري. وقَدْ نَكَّرَه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 327.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).

فتَنَكَّرَ أَي غَيَّرَه فتَغَيَّرَ إلى مجهولٍ[1]، وتَنْكيرُ الشَّيْءِ من حيثُ المعنى جَعْلُه بحيث لا يُعْرَفُ، قال تعالى: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾، وتعريفُه جَعْلُه بحيث يُعْرَفُ[2].

2) ﴿ٱلصَّرۡحَۖ﴾: (صرح) أَصْلٌ مُنْقاسٌ يَدُلُّ عَلَى ظُهورِ الشَّيْءِ وبُروزِه. والصَّرْحُ: بَيْتٌ واحِدٌ يُبْنَى مُنْفَرِدًا ضَخْمًا طَويلًا في السَّماءِ. وكُلُّ بِناءٍ عالٍ فَهوَ صَرْحٌ[3]. والصَّرْحُ، القَصْرُ والصَّحْنُ؛ يقال: هذه صَرْحةُ الدّارِ وقارِعَتُها أَي ساحَتُها وعَرْصَتُها، والصَّرْحُ: الأَرض المُمَلَّسةُ. والصَّرْحةُ: مَتْنٌ مِنَ الأَرض مُسْتَوٍ. والصَّرْحةُ مِنَ الأَرض: ما اسْتَوَى وظَهَرَ؛ يُقالُ: هُمْ في صَرْحةِ المِرْبَدِ وصَرْحةِ الدّارِ، وهوَ ما اسْتَوَى وظَهَرَ[4]. والصَّرْحُ: بيتٌ عالٍ مُزَوَّقٌ سُمّيَ بذلك اعتبارًا بكونه صَرْحًا عن الشَّوب أي: خالصًا. قال اللّه تعالى: ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾[5]، والمراد به في الآية الكريمة القصر[6].

3) ﴿لُجَّةٗ﴾: (لجّ/ لجج): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَدُّدِ الشَّيْءِ بَعْضِه عَلَى بَعْضٍ، وتَرْديدُ الشَّيْءِ. ومِنه: لُجُّ البَحْرِ، وهوَ قاموسُه، وكَذَلِكَ لُجَّتُه، لِأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ[7]. والملاجة: التّمادي في الخصومة. رجُلٌ لُجَجَة، ويُلَجْلِجُ المضغة في فمه، أي يردّدها فيه للمضغ. واللجْلَجة، والتَّلَجْلُج: التردّد في الكلام. يقال: الحقّ أَبْلَجُ والباطل لَجْلَجٌ، أي يُردَّد من غير أن ينفُذ[8]. ولَجَّةُ الصّوت بفتح اللّام: تردُّده، ولُجَّةُ البحر بضمِّ اللّام: تردُّدُ أمواجه، ولُجَّةُ اللّيل بالضمّ أيضًا: تردُّدُ ظلامه، قال تعالى: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ [النّور: 40] منسوب إلى لجّة البحر[9].

4) ﴿مُّمَرَّدٞ﴾: (مرد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجْريدِ الشَّيْءِ مِنْ قِشْرِه أَوْ ما يَعْلوهُ مِنْ شَعْرِه. والأَمْرَدُ: الشّابُّ لَمْ تَبْدُ لِحيَتُه. ومَرِدَ يَمْرَدُ. ومَرَّدَ الغُصْنُ تَمْريدًا: أَلْقَى عَنْهُ لِحاءَهُ فَتَرَكَهُ

(1) ابن منظور، اللّسان: (نكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرح).
(4) ابن منظور، اللّسان: (صرح).
(5) الرّاغب، المفردات: (صرح).
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 171.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لجّ).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (لجج).
(9) الرّاغب، المفردات: (لجّ).

أَمْرَدَ، ومِنْهُ شَجَرَةٌ مَرْداءُ[1]. المَرْدُ: ثمر الأراك الغضُّ منه، ورملة مَرْداءُ: لا نبتَ فيها، وغُصن أمْرَدُ: لا ورق عليه، وفرسٌ أمْرَدُ: لا شعر على ثُنَّتِهِ، وغلامٌ أمْرَدُ بيِّنُ المَرَد بالتّحريك. وتَمريدُ البناء: تمليسه، وتَمريدُ الغصن: تجريده من الورق[2]. وقوله: ﴿مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، أي: مملّس. من قولهم: شجرةٌ مَرْداءُ: إذا لم يكن عليها ورق[3]، والمراد به في الآية الكريمة أنّه مملّس[4].

5) ﴿قَوَارِيرَ﴾: (قرّ/ قرر) أصلٌ يدلّ على ثَباتِ ما شأنُه التّسيّب وامتساكُه في قاع عميق[5]. والقُرّ: القَرار في المَكانِ، تَقولُ قَرِرْتُ بِالمَكانِ، أَقَرُّ قَرارًا وقَرَرْتُ أَيضًا، أَقِرُّ قَرارًا وقُرورًا، وقَرَّ بِالمَكانِ[6]، القَرارُ: المستقِرُّ من الأرض، والقَرارَةُ: القاع المستدير. والقارورة: واحدة القوارير من الزّجاج[7]. والقارورة سُمّيَتْ لاستقرار الماءِ فيها، قال تعالى: ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾. والقارورة المرأَةُ شُبِّهَتْ بالزُّجاج لرقَّتِها، ونظافتها، وسرعة انكسارها[8]، والمراد به في الآية الكريمة أنّه زجاج، فهو يتّصف بشفوفة الماءِ، حتّى يُظَنَّ أنْ لا حائلَ دون هذا الماءِ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اختبار الملكة بعرشها، وحسن جوابها، وإسلامها لربّ العالمين

يخبر النّظم الكريم أنّ سليمان عليه السلام، قال لمن عنده: غيِّروا عرشها الّذي تجلس عليه، اختبارًا لها، وذلك لنرى أتهتدي إلى معرفته، أم تكون من الّذين لا يهتدون. فلما جاءت الملكة إلى سليمان، ودخلت

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (مرد).
(3) الرّاغب، المفردات: (مرد).
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 171.
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرر - قرقر).
(6) ابن منظور، اللّسان: (قرر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(8) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (قرّ).
(9) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 172.

مجلسه قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: إنّه يشبهه. فظهر حسن جوابها، وظهر لها من تلك الآيات، قدرة اللّه وصِحّةُ نبوّة سليمان، فعلمت الحقّ، وقد مَنَعَها عن عبادة اللّه وحده، والإسلامِ إليه، ما كانت تعبده مِن دون اللّه تعالى، ممّا ورثته من قومها الكافرين، عند ذلك قيل لها: ادْخُلي القصرَ، وكان صحنُه مِن زجاج، تحته ماء، فلمّا رأته حسبته لجّة، فكشفت ثوبها عن ساقيها، لتخوض الماء، فقال لها سليمان: إنّه صرح من زجاج والماء يجري تحته. فأدركت عظمة ملك سليمان، وقالت: ربّ إني ظلمت نفسي بشركي، وأسلمت مع سليمان لربّ العالمين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الجملة عن السّابق:

تمام الحوار يُغني عن رَبْطِ الجُمَلِ بالعاطف

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، لأنّها مستأْنَفَةٌ سيقَتْ لبيان تمام المحاورة، بين سليمان عليه السلام وبين مَلَئِهِ، وأغنى ورودُها في الحوار عن حرف العطف.

دلالة التعبير بالتّنكير:

سِرّ تغيير هيئةِ العرش حتّى لا يكون معروفًا لها

عبّر النّظم الجليل بفعل التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، للدّلالة على تغيير هيئة العرش بوجه من الوجوه، بحيث لا يكون كهيئته السّابقة، وهو من التّنكير المضادّ للتّعريف، والغرض من هذا الأمر اختبارها في الذّكاء والفطنة، وحسن الرّدّ، وذلك بمفاجأتها بعرض عرشها الّذي خَلَّفَتْهُ وراءها في بلادها[2].

دلالة اللّام في شبه الجملة ﴿لَهَا﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ اللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، للدّلالة على التّعليل، أي غَيِّروا العرشَ لأجلها، فيكون مقصود

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 380.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 327 - 328.

التّنكير واقعًا عليها، وهذا يدلّ على أنّه يجب أن يكون تنكيرًا خاصًّا؛ لأنّه عرشها، وهي تعرفه، فيكون التّنكير بصورة خاصّة لها، لِما لها من معرفة خاصّة به، وتنكيرُه نزعُ فُصوصِهِ ومَرافِقِهِ عنه، وما كان عليه من شيء يميّزه، ولكنّ الهيكل والملامح العامّة بقيت كما هي، ومع ذلك اهتدت إليه، ولكنّها تحفّظت في الجواب، فقالت بلغة الاحتراس والتّحفّظ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾، وهذا جواب حكيم، يَدُلُّ عن حِنْكَةٍ، وحُسْنِ جوابٍ.

غاية تنكير العرش التّمويه على الملكة في اختبارها

غرض تقديم ﴿لَهَا﴾ على ﴿عَرۡشَهَا﴾:

قدّم النّظم الجليل، شبه الجملة على المفعول به، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، لأنّها هي المقصود من التّنكير، فاهتمّ بها، ولأنّ المعلوم لدى السّامع أنّ التّنكير سيقع على العرش، فأرجأ ذكرَه لِعِلْمِ المُتلقّي به.

تقديم المقصود بالتّنكير، وهو صاحبة العرش

سرُّ استعمال ﴿نَنظُرۡ﴾ دون (نَرَى):

آثر النّظم الكريم التّعبير بالنّظر دون الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، لأنّ النّظر لا يراد به البصر، بل العلم وتحقّق الإدراك، فإنّ النّاظر يطلب ظُهور "الشَّيْءِ بإدراكه من جِهَة حاسة بصرِهِ أَو غَيرِها من حواسّه"[1]. أمّا رؤية العرش مستقرًّا فتحقّقت بالرّؤية العينيّة.

النّظر إدراكُ المعلومِ بالحواسّ، لا بالبصر وحسب

غرض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾:

عبّر النّظم الجليل بأسلوب الاستفهام، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، لبيان المراد من تغيير هيئة العرش، وهو اختبار قدرتها في الاهتداء من عدمه.

معرفة اهتدائها من عدمه، هو المراد من الاختبار

بلاغة استعمال ﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾ في السّياق:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الهداية، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، لأنّهم لمّا غيّروا

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 76.

هيئة العرش، وكانت معرفته تحتاج إلى توفيق ودراية وتَمَعُّنٍ، عبّر عن تلك المعرفة بالاهتداء؛ لأنّه تَعَرُّفٌ يقع بسبب علاماتٍ ودلائلَ، أي هل ستهتدي إلى معرفتِه أو معرفة الجوابِ اللّائقِ بالمقام[1]. وجاء التّعبير بصيغة الافتعال، وبالفعل المضارع للدّلالة على تَكَلُّفِ الهداية والاجتهاد، في السّعي لبلوغها، وتجديد ذلك الجُهْد.

تحقيق المعرفة بالدّلائل هدايةٌ وتوفيق

بلاغة ذكر الفعل ﴿تَكُونُ﴾:

عبّر النّظم الجليل بفعل الكون، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، لما في فعل الكون من دلالةٍ على رسوخ الصّفة، وهو هنا يدلّ على أنّها إذا لم تهتَدِ بهذه الآيات، فإنّها راسخة في الضّلال بحيث لا يمكن لها الاهتداء.

انتفاء الاهتداء متأتٍّ عن رسوخ الضّلال

دلالة الحرف ﴿مِنَ﴾ في السّياق:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، وهي دالّة هنا على التّبعيض، أي بعض الّذين لا يهتدون، بأن تكون واحدة منهم.

التّبعيض لونٌ من الاحتراز من تعميم الحكم

دلالة استعمال ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾:

آثر النّظم الكريم، التّعبير بالاسم الموصول، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، دون أن يقول: (أمْ لا تَهْتَدي)؛ لأنّ ذلك أبلغ في انتفاء الاهتداء[2]، فَكَوْنُ الفردِ في جماعة مُتّصفة بصفة ما، يدلّ على شدّة اتّصافه بها حتّى استحقّ أن يُعدّ منهم.

كونُ المرءِ من جماعة مُتَّصفة بصفة ما؛ يدلّ على شدّة اتّصافه بها

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾:

افتتح النّظم الجليل الجملة، بالفاء، وهي دالّة على تعقيب ما بعدها على ما قبلها، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، وذلك للدّلالة على سرعة مجيئها وخضوعها له[3].

توجيه السّؤال لها عن عرشها وقعَ وشيكًا عَقِبَ وصولها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 287.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 273.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 143.

فائدة بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المبني للمجهول، في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، لأنّ المراد من السّياق، بيان السّؤال والاهتمام به لا من حيث كونُه مِنْ قائلٍ معيّنٍ، فليس من فائدة بيانيّة أو دلاليّة للتّعريف بقائل هذا القول، ولأنّ الغرض في السّياق بيان السّؤال لا السّائل.

بيان أنّ السّياق قائم على الاهتمام بالسّؤال، لا بالسّائل

غرض الاستفهام ﴿أَهَٰكَذَا﴾:

عبّر النّظم الجليل بالاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، للسّؤال عن معرفتها من خلال مماثلة العرش الّذي أمامها لعرشها الّذي خلَّفَتْه وراءَها، وإنّما قَصَدَها بالسّؤال دون أَنْ يتركها تتنبّه مِن تلقائها للمماثلة؛ لأنّه أراد اختبار قولها وجوابها، باضطرارها للتّعبير عمّا ترى من التّماثل.

الاستفهام يحقّق المراد من موضوع الاختبار

غرض استعمال اسم الإشارة ﴿أَهَٰكَذَا﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال اسم الإشارة الدّالّ على القريب، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، لقرب العرش منها ولكونه حاضرًا في مكان المخاطبة. قال مقاتل: "عَرَفَتْهُ، ولكنّها شَبَّهَتْ عليهم، كما شَبَّهوا عليها، وقيل: اشتبه الأمر عليها، فلم تقل (نعم) ولا (لا)، خوفًا من الكذب، فعرف سليمان عقلها، حيث لم تُقِرَّ ولم تُنْكِرْ"[1].

مراعاة ظروف المشهد وملابساته في انتقاء الألفاظ

بلاغة استعمال كاف التّشبيه ﴿أَهَٰكَذَا﴾:

استعمل النّظم الجليل كاف التّشبيه، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، دون أن يقول: (أهذا عرشك)، لأنّ ذلك سيكون إرشادًا لها وتلقينًا، فيذهب المقصود من اختبارها[2]، ولأَنّ ذلك يفوّت ما قُصِدَ به تغيير الهيئة، وتحقيق الاشتباه.

التّشبيه يثير الاشتباه، والسّؤال المباشر يتضمّن تلقينًا للجواب

(1) تفسير المراغيّ: 7/ 119.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 328.

نكتة إضافة العرش لضمير المخاطبة:

الإشارة إلى مغزى السّؤال عن المماثلة في العرش المعروض عليها

أضاف النّظم الجليل لفظ العرش إلى ضمير المخاطبة، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، لأنّ المقصود بالمماثلة هو عرشها، كما أنّ فيه إشارةً إلى علم سليمان بحال عرشها، وأنّه يعرف شكله، بحيث إنّ الموضوع أمامها هو عينه، وأنّ سليمان يعرف هذه المماثلة.

بلاغة الرّدّ في استعمال كاف التّشبيه: ﴿كَأَنَّهُۥ﴾:

من الفطنة والرّويّة تَجَنُّبُ اليقين في الإجابة الارتجاليّة

عبّر النّظم الجليل في جملةِ جوابها بادئًا بأداة التّشبيه (كأنّ)، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾، فقد أجابت بالتّشبيه، لأنّ السّؤال وقع بالتّشبيه كذلك: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، فأوردت كلامها خاليًا من النّفي والإثبات، مَبْنيًّا على الظّنّ والتّشبيه، وذلك ليتناسب الجواب مع السّؤال[1]، وفي ذلك يقول أبو السّعود: "فَأَنْبَأَتْ عن كمالِ رجاحةِ عقلِها، حيثُ لم تقُلْ هو هو، مع علمِها بحقيقةِ الحالِ، تلويحًا بما اعتراهُ بالتَّنكير، من نوعِ مغايرةٍ في الصِّفاتِ، مع اتّحادِ الذاتِ، ومراعاةً لحسنِ الأدبِ في محاورتِه"[2].

دلالة (الواو) في قوله ﴿وَأُوتِينَا﴾:

إيتاءُ سليمانَ العلمَ مِنْ تمام فضلِ الله تعالى عليه

عَطَفَ النّظم الجليل جملةَ ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ على جملةٍ محذوفةٍ هي المعطوف عليه، دلّ عليها السّياق كما قال أهل التّفسير، والتّقدير: (أوتيَتْ مِنْ أَمرِ عَرْشِها عِلْمًا وأوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها)[3]، وقال مفسِّرون آخرون: يمكن أن يكون قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، هو المعطوف عليه، ويكون ما بينهما اعتراضٌ[4].

نكتة بناء فعل ﴿وَأُوتِينَا﴾ للمفعول:

عظمة العلم المُؤْتَى تكفي في معرفة أنّ الفاعل هو الله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المبنيّ للمفعول، في قوله

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 328.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 288.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 168.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 273.

جلّ شأنه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، دون أن يقول: (وآتانا اللّهُ العلمَ)؛ وذلك لأنّ الفاعل معلومٌ لا يُجْهَلُ، وهو اللّه تعالى؛ لأنّ العلم الّذي لدينا لا يَقْدِرُ على إيتائه غيرُ اللّه[1]، وأفاد ذلك الإيجازَ والاقتصادَ في التّعبير.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْعِلْمَ﴾:

بيان جنس العلم، ومتعلّقات الحكم والحكمة والقوّة

عرّف النّظم الجليل، لفظ ﴿ٱلْعِلْمَ﴾ بالألف واللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، للدّلالة على الجنس، أي جميع ما آتانا اللّه عِلْمَه[2]، أو المراد به العلم المعهود الّذي لاحَظَتْهُ بِلْقيسُ فيما يتعلّق بشأن العرش وغيره من العلوم الّتي لدى سليمان وجيشه ومَلَئِه.

بلاغة قيد ﴿مِن قَبْلِهَا﴾:

مكانة العلم حاصلة قبل علمها وإيمانها

قيّد النّظم الجليل إيتاء العلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، بأنّه كائن من قبلها؛ للدّلالة على القبليّة الزّمانية، أي أنا وأسلافي عريقون في العلم من قبل وجودها، فلذلك نحن على حقيقة من جميع أمورنا[3]، ويجوز أن يكون المراد بها القبليّة الاعتباريّة، وهي تفوّقه عليها في المزايا والفضل، أي نحن أوسع علمًا، وأكثر تفوّقًا فيه، فبلغنا فيه ما لم تبلغْه[4].

دلالة الواو، في قوله ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾:

بيان تفوّق سليمان بالعلم، وسَبْقُه إلى الإسلام

عطف النّظم الجليلُ قولَه جلّ شأنه: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ بالواو العاطفة، وفائدة العطف بيان سبب العلم وعلّة اتّساعه[5]، وفيه زيادة لبيان فضلهم عليهم بالإسلام بعد الأفضليّة بالعلم.

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 169.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 169.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 169.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 274.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 169.

بلاغة ذكر ﴿وَكُنَّا﴾ عوض (ونحن مسلمون):

بيان أنّ شأنهم في الإسلام قديم راسخ فيهم

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل الكون دون الوصف المباشر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾، فلم يقل: (ونحن مسلمون)؛ وذلك للدّلالة على اتّصافهم بالإسلام منذ القدم، ودوامهم عليه[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾:

كونُها غيرُ مسلمة لوجود آلهة موروثة عَبَدَتْها

صدّر النّظم الجليل الجملةَ بالواو الاستئنافيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فالجملة مستَأْنَفَةٌ[2]، والاستئنافُ بيانيّ، جيء به لبيان الأسباب الّتي صدّتها ومنعتها من أن تكون مسلمةً قبل ذلك[3].

بلاغة المجاز بإسناد الصّدّ إلى المعبودات:

المعبودات من دون الله تعالى سببٌ صدّ النّاس

أسند النّظم الجليل فعل الصّدّ إلى الاسم الموصول الدّالّ على المعبود من دون اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، على طريقة المجاز العقليّ، أي صَدَّها مَعْبودُها من دون اللّه عن الإسلام، والمعبود لا يَصُدُّ، ولكنّه سببُ صدِّها عن التّوحيد[4].

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَت﴾:

المعبود من دون اللّه وعبادتُه يورثان الضّلال ويَصُدّان عن الحقّ

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿مَا﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، وهي صالحة أن تكون موصولة، والتّقدير: (صدّها الّذي كانت تعبده من دون اللّه)، أي ذات الإله الّذي عَبَدَتْهُ من دون اللّه تعالى، وهو الشّمس، ويَصِحُّ أن تكون مصدريّة، أي: (صدّها عبادةُ الشّمس، عن أن تكون مسلمة في السّابق)[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 274.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 174.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 329.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 274.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 329.

بلاغة الجمع بين الماضي ﴿كَانَت﴾ والمضارع ﴿تَّعۡبُدُ﴾:

بيان أنّ من صفات ملكة سبأ وراثةَ الشّرك والدّوامَ عليه

جمع النّظم الجليل بين فعل الكون الماضي والفعل المضارع، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾، للدّلالة على رسوخ العبادة منذ القدم ووراثتها، وأنّها عبادة متجدّدة، فدلّ الماضي والمضارع، على تأكيد هذه الصّفة وتجدّدها فيها، تبعًا لانحدارها من أولئك القوم. وتأكيدُ كونِها كذلك فيه ثناء على إيمانها وإسلامها مع سليمان، فهي تخلّت عن موروثٍ عريق راسخ نشأت عليه منذ الصّغر وآمنت بالله تعالى الواحد.

دلالة ﴿مِن﴾ في السّياق المحكم:

الشّرك ضلال وسفالة وانحدار

عبّر النّظم الجليل بالحرف ﴿مِن﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، وهي دالّة هنا على الابتداء، أي عبادتها مبتدئة من دون الله تعالى، للدّلالة على أنّ شأن معبودها، يبدأ أمره من رُتْبةٍ كائنةٍ في الأسفل.

فائدة استعمال مفردة ﴿دُونِ﴾:

المعبود غير الله تعالى في رتبةٍ دونٍ سافلةٍ

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿دُونِ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، للدّلالة على خلوّ معبودها من صفات العلوّ والرّفعة، وأنّه كائن دون الملك الأعلى العظيم الّذي له الرّفعة والعلوّ والكمال، وفي ذلك بيان لرتبة السّبيلين، سبيل الله تعالى، وسبيل الشّيطان وأتباعه[1].

فائدة ذكر لفظ الجلالة:

الشِّرك شَناعةٌ عظيمةٌ لأنّه إعراض عن الملك الجليل

أورد النّظم الجليل لفظ الجلالة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، للتّشنيع على سبيل الضّلال وعبادة غيره تعالى، فهو الملك ذي الجلال والعظمة، وفي ذلك تحقير لِما عبدوا من دونه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 170.

الاعتذار عن سابق الضّلال بعد إظهار الإسلام

بلاغة جملة التّعليل ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾:

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّها مستأْنَفَةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فهي تعليل لسبب عبادتها غير الله تعالى، فالجملة تبيّن عذرها عن سبب التّأخّر في الإسلام، فهذه المرأة كانت من قوم كافرين، يعبدون الشّمس والأوثان منذ أزمان متطاولة، فلم يكن في مقدورها إدراك الإسلام وهي بينهم[1].

وراثة الكفر والشّرك ترسّخ الضّلال في وارثيه

نكتة ذكر الفعل ﴿كَانَتْ﴾:

عبّر النّظم الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ للدّلالة على "تمكّنها من عبادة الشّمس وكان ذلك التّمكّن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشّرك مُنْطَبِعٌ في نفسها بالوراثة، فالكفر قد أحاط بها"[2].

الكفر لا ينحصر في قوم سبأ، وهم قوم ذوو شأن كبير

غرض تنكير لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

آثر النّظم الجليل التّعبير عن القوم، بصيغة التّنكير، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، للدّلالة على أنّ الكفر لم يكن منحصرًا بهم، كما أنّه يدلّ على تفخيم شأن هؤلاء القوم، لما لهم من نعم جليلة.

كفر النّعمة أكبر أسباب الشّرك

بلاغة اختيار (الكفر) دون (الشّرك):

آثر النّظم الكريم، التّعبير بالكفر دون الشّرك في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، لأنّ قوم سبأ قد أنعم الله تعالى عليهم بجليل النّعم فكفروها، بإعراضهم عن عبادة الله تعالى وحده، فعبّر بالكفر ذمًّا لهم بنكران المنعم، ونسيان حقّه بالتّوحيد، كما أنّ جحود النّعمة هو المسبّب الأكبر لاتّباعِهم الشِّركَ وللزّيغِ عن الحقّ.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 329.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 274.

عِلَّةُ فصل ﴿قِيلَ﴾ عن السّابق:

تنكير العرش ليس الاختبارَ الوحيد

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾، لأنّها مُسۡتَأۡنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للإجابة عن سؤالٍ يثيرُه ذِكۡرُ الاختبار بتغيير هيئة العرش، فكأنّه قيل: هل كان بعد ذلك اختبار؟ فقيل: نعم، طُلِبَ منها الدّخول إلى الصّرح[1].

نكتة ذكر ﴿لَهَا﴾ مع الأمر ﴿ٱدۡخُلِي﴾:

اقتصر طلب الدّخولِ على المَلِكَةِ على وجه الخصوص

علّق النّظم الجليل فعل القول بشبه الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾، دون أن يقال: (قيل ادخلي الصّرح)؛ وذلك لتأكيد أنّ القول قد قيل لها هي نفسها، فالمقصود بالدّخول هي ذاتها، من غير مرافقيها.

غرض الأمر ﴿ٱدۡخُلِي﴾ في السّياق:

تعريف الملكة بمكان الدّخول للشّروع بعرض أعجوبة الصّرح

عبّر النّظم الجليل بفعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾، للدّخول في الصّرح الّذي بين يديها، وليس المرادُ منه الوجوبَ الّذي يأتي له الأمرُ عادةً، بل التّوجيه والدّلالة على ما عليها فعلُه، ضمن ما يجري في استقبال الملوك، والمراد من الأمر بدخولها الصّرحَ الشّروعُ بعرضِ آيةٍ أخرى عليها.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّرۡحَۖ﴾:

عظمة الصّرح دلالةٌ على عظمة صاحبه

آثر النّظم الكريم تعريف الصّرح بالألف واللّام، في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾، لأنّه صرحٌ مرادٌ بعينه، وهو الصّرح الحاضر بين يديها[2]، وذكر المفسّرون أنّ الصّرح، هو القصر العالي المزخرف، وهو مُمَرَّدٌ أَيۡ مَلۡمَسُهُ ناعِمٌ، وله بريق، بسبب تَمۡريدِه، وإزالة كلّ خشونة فيه، حتّى يظنَّ الرّائي له لِشِدَّةِ تنسيقه، وكأنّه لُجَّةٌ من الماء المتلألئ البرّاق، وهذا تطوّر عِمۡرانيٌّ كبير، باعتبار ذلك الزّمن الحضاريّ السّحيق[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 170.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 289.

(3) أبو زهرة د، زهرة التّفاسير: 10/ 545.

نوع الفاء في قوله ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ﴾:

امتثال الأمر الرّشيد بلا تردّد من كياسة العقلاء

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، وهي هنا للدّلالة على مبادرتها لامتثال الأمر وسرعة دخولها، وقد "روي أنّ سيدنا سليمان أمر الشّياطين قبل قدوم بِلْقيسَ، بأن يَحْفِروا على طريقها حُفَيرَةً، ويجعلوا سَقْفَها زجاجًا أبيضَ شفّافًا، يضعوا فيها ماءً وسمكًا، وضِفْدَعًا وغيرَ ذلك من حيواناتِ الماء، وصار الماءُ بما فيه كأنّه من هذا الزّجاج، فمَنْ أرادَ مجاوزتَه يَمُرُّ فوقَ السَّطح الّذي تحتَه الماءُ ولا يَمَسُّهُ الماء، ومَنْ لم يكنْ عالِمًا بحقيقةِ الأمرِ، يَظُنُّه ماءً مكشوفًا، ليس له سقفٌ يَمْنَعُ مِنَ الخوضِ فيه، ووضعَ سيّدُنا سليمانُ ﷺ سريرَه في صدر ذلك السَّطح، فَجَلَسَ عليه"[1]، وهذا المرويّ لم ترد به السّياقات القرآنيّة، ولكنّه نُقِلَ أخبارًا عند بعض المفسّرين.

نكتة استعمال ﴿رَأَتۡهُ﴾ دون (نظرت إليه):

من الإبداع العِمرانيّ ما يأخذ بالأبصار، ويسلب العقول

آثر النّظم الكريم التّعبير بالرّؤية دون النّظر، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، لأنّها أدركته برؤيتها له بعينها، لا بالفكر والحواسّ الأخرى. قال ابن عاشور تعليقًا على مدلول الفعل ﴿رَأَتۡهُ﴾: "وحكاية أنّها حَسِبَتْه لُجَّةً عند ما رأته؛ تقتضي أنّ ذلك بدا لها في حين دخولها، فدلّ على أنّ الصّرح، هو أوّل ما بدا لها من المَدْخل، فهو لا محالةَ ساحةٌ مُعَيّنةٌ للنُّزهة، فُرِشَتْ بزُجاجٍ شفّافٍ، وأُجْرِيَ تحتَه الماءُ، حتّى يَخالَه النّاظرُ لُجَّةَ ماءٍ"[2].

بلاغة اختيار مفردة ﴿لُجَّةٗ﴾:

بدا الصّرح لها غمرةَ ماءٍ عظيمةً، عُبِّرَ عنه باللُّجَّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ اللّجّة دون غيره، في قوله جلّ

(1) سليمان الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/ 381.
(2) محمّد بن عمر نووي الجاويّ، التّفسير المنير لمعالم التّنزيل المُسفِرُ عن وجوهِ محاسن التّأويل المسمّى مَراحُ لَبِيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 177.

شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، للدّلالة على أنّه قد بدا لها على أنّه غَمْرةُ ماءٍ عظيمةٌ، ومع أنّها كذلك لم تتردّدِ الملكة في خَوضِها إظهارًا لتمام الاستسلام[1].

وجه عطف الكشف عن السّاقين على الحسبان:

الحُسْبانُ أَوْزَعَها أَنْ تَرْفَعَ الثَّوْبَ خَشْيَةَ البَلَلِ

عطف النّظم الجليل كشف السّاقين على الحسبان في قوله جلّ شأنه: ﴿حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ للدّلالة على نتيجة ذلك الحسبان، تعبيرًا عن شدّة مفاجأتها، فَظَنُّها أنّه ماءٌ هو ما دَفعَها لرفعِ ثوبِها خشيةَ البَلَلِ.

سرّ التّعبير بالكشف دون الرّفع:

الكشف يدلّ على تفاجُئِها بما رَأَتْ

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الكشف، دون الرّفع، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، ولم يقل: (ورفعت عن ساقيها)، باعتبار أنّ المرادَ رفعُ الثّوب اتّقاءَ البَلَلِ، لا أنّها ترمي إلى كشفِ ساقيها. وإنّما آثرَ الكشفَ للدّلالة على أنّها تفاجأتْ، فهرعتْ إلى الكشفِ عن ساقيها من غيرِ أنْ تَنْتبهَ إلى أنها أظهرَتْ ساقَيها، فالكشفُ يَدلُّ على الغفلةِ المُتَحَصِّلة من المفاجأة، بما رأتْ من الصّرح المُمَرَّد الّذي ظنَّته لُجَّةَ ماءٍ.

نكتة حذف مفعول فعل ﴿وَكَشَفَتۡ﴾:

حذف المعلوم إيجازٌ في التّعبير على قاعدة ما يُلْحَظ لا يُلْفَظ

حَذَفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به للفعل (كشفَ)، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، فلم يقل: (وكشفَتْ ثَوبَها عن ساقيها)؛ لظهور المعنى، وللعلم به عُرْفًا وعقلًا، وذلك إيجازٌ في التّعبير يُغْنيهِ اللّحظُ عن اللّفظ.

نكتة ذكر ﴿عَن﴾ في السّياق:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿عَن﴾ الدّالّ على المجاوزة، في

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 171.

كَشفُ بِلْقيس عن السّاقين، لاتّقاءِ البَلَلِ، لا بِقَصْدِ الكَشْفِ المَهين

قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، للدّلالة على أنّ الكشف لم يكن القصدُ منه إظهارَ السّاقين، فظهورهما كان عَرَضًا لا قصدًا. فعبّر بذلك عن شدّة مفاجأتها بما رأت، فهي رَفَعَتْ ثَوبَها اتّقاءَ البَلَلِ من الماء، لا قَصْدًا لإظهارِ السّاقَين.

دلالة لفظ ﴿سَاقَيۡهَاۚ﴾:

بيان أنّ الغَمْرَةَ كانت عظيمةً، بحيث يبلغُ بَلَلُها السّاقَ

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ السّاق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، وذلك للدّلالة على قوّة الكشف، وأنّه قد تجاوز مقدار القدمين، فقد تعدّى الكشفُ القدمينِ على التّمام، فتابَعَتِ الكشفَ حتّى أسفرت عن السّاقين.

دلالة إضافة السّاقين للضّمير في ﴿عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾:

الكشف عن السّاقين، وقع حقيقة لا مجازًا

أضاف النّظم الجليل لفظ السّاقين للضّمير العائد إلى الملكة بِلْقيس، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾، للدّلالة على أنّ الكشف وقع حقيقة لا مجازًا، فقد كشفت عن ساقيها حقيقة، وليس تعبيرًا عن شدّة الأمر؛ فإنّ التّعبير بكشف السّاق، يستعمل كذلك للدّلالة على المشقّة والشّدة مجازًا.

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ﴾:

بيان أنَّ إعلان نظامِ الصُّنع كان لتحقيقِ الإبهارِ

فَصَلَ النّظم الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، لأنّها مُسْتَأْنَفَةٌ للإخبار عن عظيم علمه وعقله، وحكمته وقدرته[1]، تَهْيِئَةً لها لقبول الإسلام بالتّصريح بما لديه من جليل العلم الّذي ليس في وُسْعِ البشر، بل هو من الخالق الجليل.

نكتة التّوكيد بجملة ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ﴾:

رُقيُّ العمران علامةٌ على سُموِّ الإنسان

عبّر النّظم الجليل بالجملة الاسميّة المؤكّدة، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، للدّلالة على تعظيم عقله وعلمه، وحكمته

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 171.

وقدرته، ولأنّه شديد الغرابة، بكونه حائلًا عن الماء[1]. قال ابن قتيبة: الصّرح بَلاطٌ اتُّخِذ لها من قوارير.. وأصله من التّصريح وهو الكشف.. وحكى أبو عبيدة في الغريب: إنّ الصّرح كلّ بناءٍ عالٍ مرتفع[2]، ووُرودُها بالصّيغة الاسميّة، أكثرُ دلالةً على اكتماله، من حيثُ دِقّةُ صنعِه، وعجيبُ ما أدهشَ النّظرَ فيه، ممّا عبّر عن الإبهار والإعجاب.

دلالة تنكير لفظ ﴿صَرۡحٞ﴾ في الآية:

إبرازُ الصّرح في صورةٍ مدهشةٍ تعبيرٌ عن عَظَمَةِ المَشهد

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الصّرح بصيغة التّنكير، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، وذلك لما في التّنكير من دلالةٍ على التّفخيم والتّعظيم، وجاء السّياق لتأكيد أنّه مُسَقَّفٌ بسطح من قوارير، فمن أراد مجاوزته لا يحتاج إلى تشمير ثيابه. والصّرح المُمَرّد هو المَحْكوك المُمَلّس، والمُمَرّد أيضًا المُطَوَّل، ومنه قيل للحصن: ماردٌ[3]، وكلّ ذلك التّوصيفِ المُدْرَج في المادّة والصّياغة إنّما ورد لإبراز العظمة.

بلاغة الوصف بقوله: ﴿مُّمَرَّدٞ﴾:

شدّة النّقاء، بسبب الجُهد المبذول في جَعْلِ الصّرحِ مُمَرَّدًا

وَصَفَ النّظم الجليل الصّرح بأنّه مُمَرَّدٌ بصيغة (مُفَعَّلٌ)، بتضعيف العين في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، وذلك للدّلالة على شدّة المَلاسَةِ فيه، وقوّة الجُهد الّذي بُذِل فيه لتحقيقه.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾:

بيان أنّ جنس الصّرح كائنٌ من قوارير

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، وقوارير: جمع قارورة، والمراد بها هنا بيت الزّجاج، وقد استعمل السّياق لفظ ﴿مِّن﴾ في التّعبير عنه، وهي هنا بيانيّة، للدّلالة على حقيقة الصّرح، وبيان أصله ونوعه، وهو أنّه كائن من القوارير[4].

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 171.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 48.
(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 49.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 172.

الصّرح مُمَلَّس شديد اللّمعان، حتّى كأنّه يُرَى ماءً

بلاغة اختيار مفردة ﴿قَوَارِيرَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ القوارير، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾، لأنّ القارورة إناء يُظهِر للرّائي ما فيه، وهي من أسماء الزُّجاج[1]، فعبّر بذلك عن كونه شديد المَلاسَة، بحيثُ يظنّه الرّائي ماء، وإنّما هو زجاج.

إظهارُ الآيات للملكة أَفْضى بها إلى الإسلام لله تعالى

عِلَّةُ فَصْلِ جملة ﴿قَالَتۡ﴾:

فَصَلَ النّظم الجليل الجملة، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾، لأنّها مُسۡتَأۡنَفَةٌ واردة في سياق المحاورة، فيُغۡنِي رَبۡطُ السّياق عن إيراد حرف العطف، فالجملة جوابٌ عن قول سليمان، بأنّ هذا صرحٌ مُمَرَّد[2]. فلمّا رأت تلك الآياتِ العظيمةَ، والنِّعمَ الجليلةَ على سليمان، أيقنت أنّها على باطل، وأنّها ظلمت نفسها بصدّها عن الله تعالى.

مناجاةُ المولى لَونٌ مِنَ الاسترحامِ والإنابة

دلالة النّداء بقولها ﴿رَبِّ إِنِّي﴾:

عبّر النّظم الجليل بالنّداء في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ للدّعاء وإظهار الإنابة وإعلان الأَوۡبَةِ طلبًا للرّحمة والغفران. وجاء الخطاب مع الرّبّ تعالى إشارةً إلى سابق الإحسان، طمعًا في قبول الحادث من التّوبة بالإسلام.

الله تعالى قريب من عبده إذا تاب وأناب

نكتة حذف أداة النّداء:

آثر النّظم الكريم، حذف أداة النّداء في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتۡ رَبِّ﴾، فلم تقل: (يا ربّي)؛ للدّلالة على القرب والتّعجّل بالدّعاء، وأنّ الله تعالى لا يُحۡوِجُه أداة تنبيهٍ ليُقۡبِلَ على عبده، وهو مضمونُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 276.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 277.

نكتة التّوكيد بقوله: ﴿إِنِّي﴾:

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، بكونها اسميّةً مع تصديرها بحرف التّأكيد (إنّ)، للدّلالة على تقويَة الخبر، وتأكيد الاعتراف الّذي أقرّت به.

توكيدُ الخبرِ بالإقرارِ لسليمانَ واضحٌ في البيان

بلاغة التّعبير بالظّلم دون الضّلالة:

آثر النّظم الكريم، التّعبير بلفظ الظّلم دون الضّلال، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، اعترافًا منها بأنّها كانت على باطل، وأنّها قد ظلمت نفسها بعبادة الشّمس من دون اللّه[1]، والاعتراف بالظّلم يدلّ ضمنًا على التّنويه بالضّلال، فهي ظلمت نفسها بسبب كونها على الضّلال، فالظّلم نتيجةٌ للضّلال.

الظّلم نتيجةٌ عن الضّلال، وهو يدلّ عليه ضِمْنًا

دلالة إضافة النّفس إلى ضمير المتكلّم:

أضاف النّظم الجليل النّفس إلى ضمير المتكلّم، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، للدّلالة على الإقرار على النّفس، وتَحَمُّلِ اختيارها، لمتابعة الباطل الموروث، وهي في هذا مُقِرَّةٌ بضلالِ ما كانت عليه من عبادة غير اللّه، إذْ كانت تعبد الشّمس، وقيل في معنًى آخرَ: إنّها ظلمت نفسها بالظَّنِّ الّذي توهّمته في سليمان، لأنّها ظنّت أنّه أراد تغريقها في اللّجة، وقد أظهر الواقع عكس ذلك، والأَوَّلُ أَوْلَى[2].

الشّرك والعصيان أكبرُ ظُلْمٍ للنّفس يطال الإنسان

براعة عطف ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾، على الاعتراف بالظّلم:

عَطَفَ النّظم الجليل جملة إعلان الإسلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾، على جملة الاعتراف بالظّلم، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، لأنّها لمّا علمت أنّ سليمان صادق في دعواه، وأنّه مُؤَيَّدٌ من اللّه تعالى، واعترفت بأنّها ظلمت نفسها

التّخليَةُ مِنَ الباطلِ تَتْبَعُها التَّحْليَةُ باتّباعِ الحقّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 276.
(2) القِنَّوجِيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 49.

في اتّباع مُعْتَقَدِ قومها الباطل، فكان هذا يمثّل المرحلة الأولى في سُلَّم الاعتقاد، وهي رتبة التَّخْلِيَةِ؛ درجت إلى ما بعدها، وهي رتبة التَّحْلِيَة، فأعلنت الإيمان والإسلام[1].

اتّباع الدّاعي على دعوته اعترافٌ بسلامةِ منْهجِهِ

نكتة ذِكْرِ المَعِيَّة في قولها: ﴿مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾:

عبّر النّظم الجليل بكلمة ﴿مَعَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، للدّلالة على أنّها اعترفت بفضل سليمان، وأنّها أعلنت الاقتداء به ومتابعتَه[2].

إعلان الدّين المتَّبع وإظهارُه تصريحٌ بالإخلاص في المقْصِد

نكتة تقديم ﴿مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ في السّياق:

قدّم النّظم الجليل، ذكر مَعيَّة سليمان، على الإسلام للّه تعالى، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وذلك لبيان أنّها اتّبعت دين سليمان، ثمّ أتبعته ببيان مقصدها، فهو كائن للّه تعالى، وليس لأحد سواه[3]. فبيّنت الدّين الّذي ستتّبعه، ثمّ بيّنت الغاية من ذلك والدّافع له، وهو أنّها أسلمت للّه، وخضعت له، فيكون ذلك الخضوع على وفْقِ مَنْهَجِ سليمانَ ودينِه.

تعظيم المولى بإيراد عَلَم الجلالة (الله)

نكتة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

التَفَتَ النّظم الجليل من صيغة المخاطبة، في قوله جلّ شأنه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾، إلى صيغة الخطاب بالاسم الظّاهر الدّالّ على الغيبة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، دون أن تقول: (وأسلمتُ لك)؛ فالتفتت إلى الاسم الجليل، تعظيمًا له ﷻ، ولإظهار معرفتها بألوهيّته، واستحقاقِهِ الإسلامَ والخضوعَ والعبادةَ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 276.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 289.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 330.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 289.

بلاغة الجمع بين عنوان الألوهيّة والرّبوبيّة:

الجمع بين الوصفين إقرارٌ بجميع صفات الجمال والجلال

جمع النّظم الجليل، بين لفظي الرّبوبيّة والألوهيّة، في عبارة واحدة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، للدّلالة على الصّفات الموجِبَةِ للعبادة، بداعي الإحسان المُتَأَتّي من صفة الرّبوبيّة، وهي صفة جمال، ومن الجلال المُتَأَتّي من الألوهيّة، فجمعت بين الوصفين للإقرار له تعالى بالوحدانية[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّظر والرّؤية:

النّظر إدراكُ المطلوب استشفافًا واهتداءً بالبصيرة، والرّؤية إدراكُه عينًا بالبصر

النّظر طلب الهدى، والشّاهِد على ذلك قَوْلهم: نظرت فَلم أَرَ شَيْئًا. والنّظر طلب ظُهور الشَّيْء، وذلك بإدراكه من جِهَة حاسّة بصره وغيرها من حواسه. والنَّظَر أَيْضا هوَ الفِكر والتَّأَمُّلُ لأحوال الأشياء. والرّؤية هيَ إدْراك المَرْئيّ[2]، والنَّظر: الإقبال بالبصر، نحو المَرْئيّ، ولذلك قد ينظر ولا يراه، ولذلك يجوز أن يوصف ربُّ العزَّةِ بأنّه راءٍ، ولا يقال: إنّه ناظر. وفيه نظرٌ[3]. كما قيل: إنّ الأصل في الرّؤية أن تكون بالحاسّة، وهي العين الباصرة، الّتي هي إحدى الجوارح، وبها ينظر الإنسان إلى الأشياء، ومثالها في القرآن قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۞﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، وقد تكون بالتّخيّل والتّصوّر، فتكون غير حسيّة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، وقد تكون بالتّفكّر، نحو قوله تعالى ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]، وقد تكون بالعقل، فتُدْرَك باستعماله، وهي رؤية معنويّة جليلة، وذلك نحو قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞﴾ [النّجم: 11][4].

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 172 - 173.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 75 - 76.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 544.

(4) محمّد إسماعيل عَتُّوك، فروقٌ لغويّة بين الرّؤية والنّظر، موقع البيان، نُشِرَ بتاريخ: (29) سبتمبر، 2006م، على الشّابكة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قـصّـةُ ملكـةِ سـبـأ وثـمـود بـينَ الـتـوفيـق والخِذلان

ممّا يظهر في بيان وجه التناسب بين ذكرِ قصَّة صالح عليه السلام مع ثمود، بعد قصَّة سليمان عليه السلام وملكة سبأ هو: أنَّ ملكةَ سبأ؛ مع ما كانت عليه من كفرٍ موروث، حين رأتِ الصّرح الممرَّد، عرفت صدقَ سليمان عليه السلام، وأنَّه على صلةٍ بالسماء، فآمنَتْ بما آمن به هو، واتّبعتْ سبيله، وأنَّ ثمود قد طلع عليهم نبيّهم بآيةٍ من آيات اللّه، هي الناقة، فلم يروا فيها ما رأتْ ملكة سبأ في الصَّرح الممرَّد، بل كذَّبوا صالحًا، ورمَوه بالسّفَه. فهذا موقف، وذاك موقف؛ وكلا الموقفين بينَ يدي آيةٍ من آيات اللّه، فيكون في تلك الآية عبرةٌ وعظةٌ لقوم، وضلالٌ ومهلكةٌ لآخرينَ(1).

ولعل هذا هو السرُّ أيضًا في ذكر قوم صالح، دونَ قوم هود، إذ لم يكن مع هودٍ عليه السلام آيةٌ كهذه الآية التي جاء بها صالحٌ عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: (رسل) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلَى الِانْبِعاثِ والِامْتِدادِ. فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا. وشَعْرٌ رَسْلٌ، إذا كانَ مُسْتَرْسِلًا(2). والإرْسالُ يُقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة، والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتّسخير، كإرسال الرّيح، والمطر، وقد يكون ببعثِ مَن له اختيارٌ، نحوُ إرْسالِ الرّسل، وقد يكون ذلك بالتّخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 250.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).

ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ [مريم: 83][1]. والمقصودُ بالإرسالِ في الآية: البعثُ والتَّوْجيهُ، وبهِ فُسِّرَ إرْسالُ اللهِ ﷻ أَنْبياءَهُ ﵈[2].

2) ﴿ثَمُودَ﴾: (ثَمْدٌ) أَصلٌ واحدٌ لا مادَّةَ له، وهو القليلُ من الشَّيءِ، فالثَّمدُ الماءُ القليلُ. وثَمَدَتْ فلانًا النِّساءُ إذا قطعْنَ ماءَهُ[3]. ومنه سُمّيت قبيلةُ ثمود؛ لقلّةِ مائها. وثمودُ أُمَّةٌ من العَرَبِ البائدةِ العاربةِ، وهم أَنسابُ عادٍ. وثمودُ: اسمُ جَدِّ تلكَ الأُمَّةِ، ولكنْ غَلَبَ على الأُمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ من الصَّرْفِ للعَلَميَّةِ والتَّأْنيثِ باعتبارِ الأُمَّةِ أو القَبيلَةِ[4].

3) ﴿فَرِيقَانِ﴾: (فرق) أصلٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شيئَينِ[5]. الفَرْقُ: موضع المَفرِق من الرَّأسِ في الشَّعر. والفَرْقُ: تفريقٌ بين شيئَين فرقًا حتَّى يَفترِقا ويَتَفَرَّقا. وتَفارقَ القومُ وافتَرَقوا أي: فارقَ بعضُهم بعضًا[6]. والفِرْقُ والفِرْقةُ والفَريقُ: الطّائفَةُ مِنَ الشَّيْءِ المُتَفَرِّق. والفِرْقةُ: طائِفَةٌ مِنَ النّاسِ، والفَريقُ أَكثر مِنْهُ[7]. والمقصود بالفريقين في الآية: جماعتان من النّاسِ. والمُرادُ بهما: الفريقُ الذين استكبروا والفريقُ الّذين استُضْعِفوا وفيهم صالحٌ.

4) ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: (خصم) أصلٌ يدلُّ على المُنازَعَة[8]. والخَصِمُ: المختصُّ بالخُصومة، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ [الزخرف: 58][9]. والذَّكَرُ والأُنثَى فيه سَواءٌ. والخُصومةُ: الاسم من التَّخاصُم والاختصام. يُقالُ: اختصمَ القوم وتخاصموا، وخاصمَ فلانٌ فلانًا، مُخاصَمَةً وخِصامًا. والخُصْمُ: طرفُ الرّاوية الذي بحيالِ العَزلاء في مؤخَّرها. والطَّرف الأعلى هو العصمُ، وهي: الأَخْصام وزوايا الوسائد والجواليق والفرش كلُّها أخصام، واحدها: خُصْمٌ[10]. ومنه قيل للمتنازعين: خَصْمانِ، لأخذِ كلِّ واحدٍ مِنْهُما في شِقٍّ من

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(6) الخليل، العين: (فرق).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (فرق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(9) الراغب، المفردات: (خصم).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خصم).

الحِجاج والدَّعوى[1]. والمُراد بالاختصام في الآية: المُنازعةُ والمجادلةُ بالكلامِ. أي: يجادل بعضهم بعضًا ويحاجّه.

المَعْنى الإجْماليّ:

تأكيدُ الكلام من لــوازم النُّصح النّافع

يُخبر اللّهُ سبحانه عن جانبٍ مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السلام مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ إلى قبيلةِ ثمود، أخاهم صالحًا عليه السلام، فقال لهم ما قاله كلُّ نبيٍّ لقومه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تعالى وحدَه، ولا تشركوا معه آلهةً أخرى، فإذا قومُ صالحٍ فريقانِ: مُؤمِنون وكافِرون، يختَصِمون في الدّينِ، وكلٌّ يقولُ بأنَّ الحقَّ معَه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلَها:

في تــوالــي القَصَص دروسٌ وعِبَر

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ [النمل: 15] لاتّفاقهما في الغرض؛ فكلاهما مسوقٌ لتقرير أنَّ رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم يلقَّى القرآنَ من لدُنْ حكيم عليم، كما سبق في السّورة التأكيدُ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: 6]، فإنَّ هذه القصّةَ أيضًا من جملة القرآن الكريم، الذي لُقّيه صلى الله عليه وسلم. وكذلك القصّتان متفقتانِ على غرضٍ آخر؛ وهو تسليةُ الرسول صلى الله عليه وسلم بقصَصِ إخوته من الرُّسُل عليهم جميعا صلواتُ اللّه وسلامه، ليتأسَّى بهم في الثبات والصَّبر[3].

دلالةُ التوكيد في قوله: (لقد):

معالجةُ مرض الـشـكّ أسـلـوبٌ قرآنيٌّ فريد

(اللام) واقعةٌ في جواب قسمٍ محذوف، والتقدير: (وباللّه لقد

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85، والسمرقندي، بحر العلوم: 2/ 585، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 214، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 335.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 277.

أرسلنا...)، وإنما أقسمَ على ذلك اعتناءً بشأنِ الحكم[1]، وأيضًا لإزالةِ الشكِّ من نفس المنكر لإرسال اللّه تعالى أنبياءَ إلى البشر. و(قد) حرفُ تحقيقٍ، ودخولُه على الماضي يزيدُ معناه تحقُّقًا، لما أفادَه من التأكيد؛ فالماضي دالٌّ على تحقُّق الوقوع قبل دخول (قد) عليه، ويزدادُ معناه دلالةً على تحقُّق هذا الوقوع بدخولها عليه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: 1]، وبذلك يكون قد تعاضد مؤكِّدانِ في قوله (لقد) هما لام القسم، وحرفُ التحقيق (قد) للاهتمام بشأن الحُكم الذي سيقت له الآية والاعتناءِ به وتأكيده. وفي ذلك إزالةٌ للشكِّ من نفس المنكر لإرسال الأنبياء، تعريضًا بأهل مكّةَ الَّذين فعلوا هذا، وواجهوا الرسولَ ﷺ بالإنكار والصُّدود.

دلالة نون العظمة في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

إنّ العظمة لله وللسّائرين في طريقه

يدلُّ التعبيرُ بنون العظمة في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ على عظمةِ المُرسِل وجلاله وهو اللّه سبحانه، وتستلزم عظمةَ الرسول وهو هنا صالحٌ عليه السلام، وعظمةَ الرّسالة التي حملَها وهي رسالةُ التوحيد والإخلاص بالعبادة للّه سبحانه، وعظمةَ الإرسال وأهميتَه في حياة الإنسان.

سرُّ تخصيص ذكر ثمودَ دون عادٍ في قوله: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾:

سماعُ قصص السّابقين إنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين

يبدو للمتأمِّل أنَّ سياق الآيات في هذه السّورة كان معنيًّا بذكر الآياتِ الإلهية التي أيَّد اللّه بها رسلَه، ثمَّ بيانِ موقف المدعوّين منها من التوفيق والإيمان، أو الخِذلان والكفر، فلأجل هذا ذكرَ قصّةَ ملكةِ سبأ وكيف أنها أفادتْ من آية الصّرح الممرَّد من قوارير، ثمَّ ذكر قصَّة ثمودَ مع نبيهم صالح عليه السلام، وقد أمدَّه اللّه تعالى بالناقة آيةً دالةً على صدقه، فكذبّوه فعقروها، فكان ما كان من أمر إهلاكِهم. ولم يذكُر قصةَ قوم عاد مع نبيِّهم هود عليه السلام - مع أنَّ العادة في القرآن الكريم جاريةٌ على ذكرها معها، كما ورد في العديد من السّور، ومنها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 204، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 404.

سوَرُ (الأعراف وهود والشعراء) - لأنه لم يكن مع هودٍ آيةٌ كهذه الآية التي جاء بها صالحٌ، فلعل هذا هو السرُّ في ذكر قوم صالحٍ، دون قوم هود[1]. ويضافُ إلى هذا القربُ المكانيُّ بين ديار ثمود ومُلك سليمان عليه السلام، فهو من دواعي الإيثار بالذكر هنا أيضًا؛ "فديار ثمودَ كانت على تخوم مملكةِ سليمان، وكانت في طريق السّائر من سبأ إلى فلسطين، ألا ترى أنَّه أعقبَ ذكرَ ثمود بذكر قومِ لوط، وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياقُ هذه القصص مناسبًا لسياق السّائر من بلادِ اليمن إلى فلسطين"[2].

دلالة تقديم ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعول:

مراعاةُ أحوال النـاس غايةٌ لإرسال الرّسُل

قدَّم المجرور في قوله: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعول ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ للاهتمام والحصر، ولفت الانتباه والنظر إلى ثمودَ وما حلَّ بهم، فهم أهمُّ ذكرًا في هذا المقام؛ لأنَّ المجرور ﴿ثَمُودَ﴾ هو محلُّ العبرة، وأما المفعولُ فهو محلُّ التسلية، والتسلية غرضٌ تَبَعيٌّ[3]، ودلالةُ الحصر تفيدُ أنَّ كلَّ نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام كان يبعثُ إلى قومه خاصّةً إلّا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم فإنَّه مبعوثٌ للعالمين جميعًا، ومن أسباب تقديم المجرور على المفعول كذلك أنْ يعودَ الضمير في ﴿أَخَاهُمْ﴾ إليه، فلا يعودُ إلى متأخِّر لفظًا ورتبةً، وبذلك يتحقّقُ الاختصارُ بالإضمار[4].

سرُّ التعبير بـ﴿ثَمُودَ﴾ و﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ دون (قوم صالح):

علاقة الرّسول بالناس تستوجبُ التصديق والإيمان

قد يقول قائلٌ: لمَ عبَّر مُطنبًا بـ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل مختصرًا: (إلى قوم صالح)، والظاهر أنه لم يعبِّر عنهم بـ(قوم صالح)، وعبَّر عنهم بـ﴿ثَمُودَ﴾ باعتبار القبيلة؛ لأنهم لكفرهم الشّديد وعُمق عداوتهم لـ(صالح) عليه السلام، كانوا ألصقَ بالنِّسبةِ إلى ثمود جدّهم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 277.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 278.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 278، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 200.

منهم بالنّسبة إلى صالح عليه السلام. والظاهر أنه عبَّر بالأخوة في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ على معنى: أخاهم في النَّسب لكونه منهم، أي: من قبيلة ثمود، كما يقال: يا أخا العرب، ونحوه. وقدَّم ذكرَ كلمة ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿صَٰلِحًا﴾ تأنيسًا لقومه وتأليفًا لقلوبهم، أي: هو أخوهم ومنهم، فلن يدلَّهم إلّا على ما ينفعهم، لا ما يضرُّهم، وهذه المعاني لا تستفادُ فيما لو ذكر النصُّ الكريم مختصِرًا (قوم صالح) فحسب.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

الأخوّةُ مدعاةٌ إلى تمحيصِ النُّصح وعدمِ الارتياب

أضاف لفظ (الأخ) إلى ضميرهم؛ وهي إضافةُ تعريف، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يعرفون نسبَه بينهم، لما أبدَوْه تجاهَه من صدٍّ وإعراض وكأنّه غريبٌ عنهم يريد لهم الشرَّ، وهذه تسليةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بإعراضِ قومه عنه مع أنَّه أخوهم. أَوْ أنَّ الإضافة هنا إضافةُ تخصيص، غرضُها إبرازُ مظاهر الاهتمام بهم؛ إذ أرسلَ ربُّهم إليهم رسولًا خاصّا بهم يدلُّهم على الطَّريق المستقيم والنَّهج القويم في حياتهم الأولى، التي هي المعبَر للحياة الآخِرة. وأيًّامّا كان، فالنَّص بأنَّ صالحًا أخوهم الذي يعرفونَه يقتضي ألا يَنفروا منه، بل عليهم أنْ يُعينوه وأنْ يكونوا له عضُدًا في دعوته، فهو أخوهم وهم إخوته، ومقتضاه أنّه حريصٌ عليهم حرصَه على نفسه، وهم يسمعونَ له كما يسمعونَ لإخوتِهم، وذلك أدعى لاتّباعه، لا للارتيابِ فيه أوِ النّفورِ منه. وفي ذلك تعريضٌ بأهل مكة في معارضتهم للرَّسول صلى الله عليه وسلم ومعاداته، مع أنَّه أخوهم الحريصُ عليهم.

دلالةُ التصريح باسم النبيِّ صالح في قوله: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾:

تشريفُ الرّسول بالبيان تنويةٌ بالمرتبة والشّأن

السرُّ في التصريح باسم ﴿صَٰلِحًا﴾ عليه السلام، أنّه من باب المدح والتشريف؛ ففي التصريح بأسماء الأنبياء في القرآن أثناءَ الحديث عنهم فضلًا عن قصدِ التعريف بها، بيانٌ لشرفِ أصحابها وفضلِهم في قيامهم بواجبهم تجاهَ الرِّسالة والدَّعوة. وعليه فهو عطفُ بيان

لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ مقصودٌ به المدحُ وليس الإيضاحَ فحسب؛ لكونه معروفًا لهم لا إبهامَ فيه بالنسبة إليهم وإنْ كان إيضاحًا بالنّسبة إلينا، كما هو في قوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] فقوله: ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عطفُ بيان على جهة المدح، لا على جهة التوضيح"[1].

دلالة ﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

التوحيد يستحقُّ البيانَ والتمجيد

﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هي - على الأرجح - مفسِّرة لما في الإرسال مِن معنى القول دون حروفه[2]، ولذلك لم يُحتج إلى ذكر فعل القول، كما صرّح به في آياتٍ مناظرة، كقوله تعالى في سورتي الأعراف وهود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: 73] [هود: 61]. وفائدةُ التفسير الجوابُ عمّا يعتمل في أذهان المخاطبينَ من وجود فعلِ الإرسال دون بيانِ حقيقة المرسَل به، فأجابَ عنه مفسِّرًا بأهمِّ ما اشتملت عليه الرسالة من عبادة اللّه تعالى وحدَه دون إشراكٍ وأوهام، وكذلك فإنَّ التصريح بفعلِ القول في الآيات المناظرة بما جعلَه معلومًا، أغنى كذلك عن التصريح به في آيةِ النمل، وقيل: إنَّ هنا حذفًا تقديره: (أرسلناه بتبليغ) ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[3].

سرُّ التعبير بالعبودية في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دون الطاعة:

عبادةُ الرحمن نورٌ لقلبِ الإنسان

التعبيرُ بالعبادة في قوله سبحانه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو في حقيقته أمرٌ بالتوحيد، كما قال عكرمة: جَميعُ ما ذُكر في القُرْآن من العِبادَة فالمُراد بِهِ التَّوْحيدُ[4]؛ أي: توحيدُ اللّه الذي يتحقّق بإفرادِه سبحانه بالعبادة دونَ اعتقاد النّفع والضرِّ من غيره، إذ لا يكفي مجرّد

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 681.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 204.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 405.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 597.

الاعتراف بأنّه الخالق، دون الاعترافِ بأنه وحدَه الأحقُّ بأنْ يُعبد وأنّه النافعُ والضارّ دون الأصنام والأوثان. وتفسيرُ الأمر بالعبادة بأنّه الأمرُ بإقامة التوحيد هو التفسيرُ الذي لا محيدَ عنه هنا؛ لأنَّ ثمود لم يكونوا أصلًا مؤمنينَ بالله حتى يُؤمروا بتفاصيل العبادة والشريعة دونَ تحقيق الأصلِ وهو الإيمان بالتوحيد. وهذا هو السرُّ في إيثار لفظ (العبادة) على لفظ الطّاعة، التي تعني الانقياد(1) أي: الانقياد للأمرِ والنهي سواءٌ كان للأمرِ بالتوحيد أوْ غيره من فروع الشريعة وتكاليفها وفرائضها، فالأمر بالعبادة أخصُّ من الأمر بالطّاعة خصوصًا مطلقًا.

سرُّ الاكتفاء بالعبودية لله تعالى دون ذكرِ النَّهي عن الشرك:

غـايـةُ المـأمـول الخضوعُ لأوامرِ الرسول

اكتفى هنا بالأمر بالعبودية ولم يصرِّح بالنهي عن الشِّرك، من باب الاختصار والإيجاز والاكتفاء، فإنَّ ذكرَ أحدِ المتقابلين يُغني عن ذكر الآخر حالَ العلم به. وقد مضى أنَّ المقصود بالعبادة هنا التوحيدُ، فيكون الأمرُ بتحقيق التوحيد متضمّنًا النهيَ عن مقابله وهو الشّرك، وذلك من باب الإيجاز بالحذف والاكتفاء، كما في قوله سبحانه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: 26]، أي: والشر، وقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81]، أي: والبرد.

دلالة إسناد العبادة إليهم وتعليقها بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

خـيرُ الـسّلـوك تـخـصـيـصُ العبادة بمِلكِ الملوك

أسندَ فعلَ العبادة إليهم؛ لأنهم المأمورونَ بتوجيه العبادة إليه تعالى، وفي كون المسندِ إليه ضميرَ الجمع إشارةٌ إلى توافقِهم على الشّرك وأوهامه، وجعل في الآية متعلّقَ العبادة اسمَ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يُعبّر باسم (الرب)؛ لأنَّهم كانوا يدركونَ أنَّ لهم ربًا خالقًا، لكنَّهم كانوا يُشركون في العبادةِ غيره، فصرّح باسمِه العلَم للدلالة على مَن هو الأحقُّ بأنْ تتوجّه العبادة إليه دون مَن سواه من الآلهة المزعومة.

(1) الراغب، المفردات: (طوع).

عبادةُ ربِّ العالمين كلمةٌ سواءٌ للنّاس أجمعين

دلالة (الفاء وإذا) في قوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ﴾:

(الفاء) هنا للسببيّة، مرتِّبةٌ ما بعدَها على ما قبلها مع الدلالة على السُّرعة والفوريَّة وعدمِ الإمهال، على معنى: أنّهم صاروا بمجرَّد أنْ دعاهم صالحٌ عليه السلام إلى عبادة اللّه تعالى؛ فريقينِ مُختصمينِ مبادرينِ إلى هذا الاختصام، دونَ تريُّث أوْ تعقُّل من المخالفينَ الجاحدينَ، وكان الأصلُ أن يتّفقوا على قبولِ ما دعاهم إليه نبيُّهم عليه السلام. و(إذا) هي الفجائيّةُ الداخلةُ على الجملة الاسميَّة للدلالة على السُّرعة والفجأة، وهما معًا يُثيران العجبَ في النفس بتعكيسِ الأمور وقلبِها، حيثُ بادروا "إلى الافتراق بما يدعو إلى الاجتماع"[1]، فالإتيانُ بحرف المفاجأة كنايةٌ عن كون انقسامِهم غيرَ مَرضي، فكأنَّه غيرُ مترقّبٍ[2] ولا متوقَّعٍ؛ لأنَّ ما أمرهم به صالحٌ عليه السلام من توحيد اللّه وعبادته، أمرٌ لا يفترقُ العقلاءُ حوله، بل يتفقونَ عليه ويمتثلونَ له.

التشخيصُ والدّوامُ مُؤكِّدٌ للحال والمقام

دلالة التعبير بالضمير ﴿هُمۡ﴾ والجملة الاسمية:

الضمير في ﴿هُمۡ﴾ يعود إلى ﴿ثَمُودَ﴾ باعتبار القوم أو القبيلة، ولذا جاء الضمير جمعًا، وفائدةُ التعريف بالضّمير الدلالةُ على قوم معيّنين ومعروفينَ بذواتهم وأحوالهم وصفاتهم، واختارَ الجملةَ الاسميّة ﴿هُمۡ فَرِيقَانِ﴾ للدّلالة على ثبوتِ الانقسام بينهم، ودوام الافتراق بينَ فريق الإيمان باللّه تعالى وفريق الكفر والشِّرك به.

من سنة الله في خلقِه اختصامُ المحِقّين والمبطلين

دلالةُ التعبير بـ(الفريق) دون (الطائفة) في: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ﴾:

التعبير بـ(الفريق) أدلُّ على بُعد الشُّقَّة، والمفارقةِ الكاملة، وتمامِ الانفصالِ والمجانبة، فالفِرْقُ: القطعةُ المنفصلةُ، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعةِ المتفرّدة من النّاس، والفَريقُ: الجماعةُ المتفرّقةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 174.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 278.

عن آخرين[1]، والمعنى: أنَّ ثمودَ تفرّقتْ بعد دعوة صالحٍ عليه السلام إلى فرقتينِ أوْ جماعتين من الناس، قد استقلّت كلٌّ منهما برأيٍ حول دعوتِه تَرَتَّبَ عليه أنْ صارَ فريقٌ من المؤمنين، والفريقُ الآخر كافرونَ وهم الأكثرون، ولأنَّ الكفر والإيمانَ لا يلتقيانِ ولا يجتمعان، فقد كان التعبيرُ عنهما بالفريقينِ؛ أي: المنفصلينِ بحيث لا يجمعُهما جامع. ويدلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: 30] وقوله: ﴿۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: 24] وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7] فالملحوظُ في استخدام كلمة (فريق) في هذه الآيات أنَّه مَرْعيٌّ فيها المفارقةُ التامّة وعدمُ الالتقاء بين الفريقينِ المتقابلين.

وبناءً على هذا فإنَّ التعبير بالفريقينِ أنسبُ من التعبير بـ(الطائفتين)؛ لأنَّ الطائفة هي الجماعةُ من الناس تتفقُ فيما بينها، وإنْ قابلتها طائفةٌ أخرى أي: جماعة أخرى، فكانت طائفتان، وكونُهما طائفتين لا يعبّر عن تمام الانفصال كما يعبّر عنه لفظ (الفريقين)، فقد تختلفُ طائفتانِ أوْ حتى تقتَتِلا، ومع هذا لا يُخرجُهما ذلك عن الاجتماع في الوصف العامِّ الجامع بينهما؛ بدليل قوله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122] حيث قال: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: 122] فجعلَ الطائفتينَ منهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]، ومعَ وقوع الاقتتال بينهما لم يُخرجهما ذلك عن أن يكونا من المؤمنينَ.

دلالة التثنية في قوله: ﴿فَرِيقَانِ﴾:

فريق في الجنّة وفريق في السعير

الفريقانِ هم المؤمنون والكافرون، الوارد بعضُ تفصيلِ شأنهما في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن

(1) الراغب، المفردات: (فرق).

﴿قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: 75 - 76] وسياقُ هاتين الآيتين وأسلوبُ الحوار وضمائرُ الخطاب والتكلُّم الجمْعية الظاهرة في سجال الفريقين؛ كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ المؤمنين كانوا أيضا جمعًا، خلافًا لِمَن قال بأنَّ الفريقَ المؤمن هو صالحٌ عليه السلام وحدَه، فالسّياقُ دالٌّ على أنَّ "الجمعية حاصلةٌ في كلِّ فريق"[1].

دلالةُ الجمع في قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

قيل هنا ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ولم يقل: (يختصمان) بالنظر إلى تثنية ﴿فَرِيقَانِ﴾؛ قصدًا إلى اعتبار مجموعِ أفرادِ كلِّ فريقٍ من الفريقين، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: 9] ولم يقل: (اقتتلا)، فالتعبيرُ عنهم بالقريقينِ دلالةٌ على أنهم انقسموا إلى قسمينِ فقط، لكنَّ الاختصام بين الفريقينِ أخذَ نصيبه من كلِّ فردٍ من الفريقين، ومن ثمَّ كان الجمع مُعبرًا عن حالة الاختصامِ الجماعيَّة التي شملت الأفرادَ جميعًا. كما أنَّ الاقتتال بينَ الطائفتين وقعَ من أفرادهما جميعًا، ومن مسوِّغات الجمع أيضًا دونَ التثنية: رعايةُ الفواصل[2].

أهلُ الإيمان فريقٌ مقارعٌ لأهل الطغيان

نكتة التعبير بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مادّةً وصيغة:

أصل المُخاصَمَة: أن يتعلّق كلّ واحدٍ بخُصْم الآخر، أي: جانبه وناحيته، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمَيْن يأخذُ في ناحيةٍ وجانبٍ، غيرَ الذي أخذَ به صاحبه[3]. فدلَّت المادّةُ على شدَّة المنازعة وقوَّة الخصومة بين الفريقين. وأمّا عن الصيغة وهي (الافتعال) مع

لا يتوقّف الاختصام إلى يوم القيام

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 248.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.

(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).

المضارعة، فإنها دالّةٌ على تكرُّر المخاصمة وتَجَدُّدِها، وطولِ أمدها، والمبالغةِ فيها حتى صارتْ عنوانًا لهم، وذلك بكثرةِ المنازعة والمجادلة بين الفريقين؛ الفريقِ المؤمن والفريقِ الكافر.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

كلُّ إرسال بعثٌ وليس كلُّ بعثٍ إرسالًا

في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عبَّر بالإرسال دونَ البعث في قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾؛ لأنه ﷺ كان رسولًا محمَّلًا برسالة إلهيّةٍ إلى قومه ثمود، وهذا ما سوَّغ التعبيرَ بالإرسال وإيثارَه على التعبير بالبعث، فإنك تقولُ: أرسلتُ فلانًا إلى فلان، إذا حمَّلْتَه برسالةٍ إليه، أوْ حمَّلْتَه خبرًا، وما أشبهَ ذلك. وأمّا التعبير بـ(البعث) فإنه لا يقتضي ذلك بالضرورة، فقد "يبعثُ الرجل إلى الآخر لحاجةٍ تخصُّه دونك، ودونَ المبعوث إليه؛ كالصبيِّ تبعثه إلى المكتب فتقول: بعثته، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلا برسالةٍ وما يجري مجراها"(1) فكل إرسال بعث ولا ينعكس كليًا.

فإن قيل: فما تقول في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36] فعبَّر بالبعث دون الإرسال؟ فالجواب: أنَّ القيد المذكور في الموضعين ﴿رُسُلًا﴾ [يونس: 74] - ﴿رَّسُولًا﴾ [النحل: 36] يغني عن التقييد بالنص على الإرسال، ويضيفُ إليه ما يبعثه في النفس معنى الفعل (بعث) من معنى: الإثارة والتوجيه(2). وقد يبدو من تتبع مفردة (بعث) مع الرسُل في الكتاب العزيز، أنها تستعملُ حين يريدُ القرآن التعبيرَ عن تكليف رسولٍ برسالة، بعد فترة متطاولةٍ من الرسول السّابق، أو الرُّسُل السّابقين، ولذلك تعضّد أحيانًا بـ (ثم) العاطفة، وهي تدلُّ على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(2) الراغب، المفردات: (بعث).

الترتيب والتراخي، وبكلمة (بعد) كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: 103] وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74] وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75] ففي ذلك إيحاء وإيماء إلى ما ذُكِر. كما توحي بذلك أيضًا مفردة البعث في استعمالها خارجَ هذا السياق إلى سياق البعث بعد الموت، فإنه يكون بعثًا من رقاد، كما يعبر عنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52] وتأمَّلها أيضًا في إخبار القرآن عن رقاد أهل الكهف في كهفهم أكثرَ من ثلاثمائة سنة، فقد عبَّر القرآن عن إيقاظهم بالبعث، كما يظهرُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ١٢﴾ [الكهف: 12] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الكهف: 19].

الفريق والطائفة:

الفريقان لا يجتمعان ولا يلتقيان، والطائفتان تختلفان لكنهما تجتمعانِ في وصفٍ جامع

الفِرْقُ: القطعةُ المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرّدة من النّاس، والفَريقُ: الجماعة المتفرّقة عن آخرين[1]، والتعبير بالفريق يدلُّ على بُعد الشُّقَّة، والمفارقة الكاملة، وتمام الانفصال والمجانبة بين الفريقين، بحيث لا يلتقيانِ ولا يجتمعانِ، ويدلُّ لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: 30] وقوله: ﴿۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [هود: 24] وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7] فالملحوظُ في استعمال كلمة (فريق) في هذه الآيات أنّه مَرْعيٌّ فيها المفارقة التامة وعدمُ الالتقاء بين الفريقين المتقابلين.

وأما الطائفة فهي الجماعةُ من الناس تتفقُ فيما بينها، ولا يمنعُ تقابلُ طائفتين من اجتماعهما في وصف عامٍّ جامعٍ بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122] حيث

(1) الراغب، المفردات: (فرق).

قال: ﴿طَآيِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ [آل عمران: 122] فجعلَ الطائفتين منهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآيِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9]، ومع وقوع الاقتتال بينهما لم يُخرجهما ذلك عن أن يكونا من المؤمنين. ولأنَّ سياق آية النّمل لا يقضي بأيِّ اتفاق بين الفريقين فريق الكفر وفريق الإيمان، فكان من الملائم التعبيرُ بكلمة ﴿فَرِيقَانِ﴾ لا (طائفتان)؛ وذلك أنَّ ثمود تفرّقت بعدَ دعوة صالح عليه السلام إلى فرقتينِ أوْ جماعتين من الناس قد استقلَّ كلٌّ منهما برأيٍ حول دعوته، ترتَّب عليه أنْ صار فريقٌ مؤمن، وفريق آخرُ كافر.

الخصام والجدال:

الخصومة قضية بين محقّ ومبطِل فيها لَجاجٌ ولَدَدٌ، والجدال احتجاج واستدلال بحقٍّ أوْ باطل

الجِدال: المفاوضة والمقاومة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله مِن: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمتُ فتله[1]، وأصل المُخاصَمَة: أن يتعلّق كلُّ واحد بخُصْم الآخر، أي: جانبه وناحيته، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمَيْن يأخذُ في ناحيةٍ وجانبٍ، غيرِ الذي أخذَ به صاحبُه[2]. فدلَّت المادة على شدة المنازعة وقوّة الخصومة. وعن الفرق بينهما جاء في كتاب الكبائر للذهبي - منسوبًا للغزالي - أنَّ الجِدال، عبارةٌ عَن أَمرٍ يتَعَلَّق بِإِظْهَار المذاهب وتقريرها والاحتجاج لها، وأمّا الخُصومَة فلجاجٌ في الكَلام ليستوفي بِهِ مَقْصودًا من مال أَو غَيره[3].

وبتتبع المادتين في القرآن الكريم يظهرُ لنا أنّه يذكر الخصامَ في قضيةٍ متنازَعٍ فيها بينَ محقٍّ ومُبطِل: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: 204]، وقال سبحانه: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: 19]، وقال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: 105].

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).
(3) الذهبي، الكبائر، ص: 221.

وأما الجدالُ، فنوعان؛ **الأوّل:** أنْ يكون بحقٍّ وهو ممدوحٌ ومطلوب؛ وفيه قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125].

والثاني: أنْ يكون بباطلٍ وهو مذموم ومنهيٌّ عنه؛ وفيه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: 5]، فالفرق بينهما أن الخصومةَ قضيّةٌ يقع فيها الجدالُ بالحقِّ والباطل بينَ طرفين متنازعين.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شأنُ الأنبياء الإنكارُ لأعمال غير العقلاء

لمّا هال صالحًا عليه السلام افتراقُهم وتناحرُهم حولَ ما دعاهم إليه من توحيد اللّه والإيمان به، وهو شأنٌ حريٌّ بالعقلاء ألا يختلفوا حولَه، وأنَّ الأوْلى أن يُقبِلوا عليه شاكرينَ للدّاعي حرصَه عليهم، لكنَّ الكافرين منهم بالغوا في إنكار ما يدعوهم إليه نبيُّهم عليه السلام، حتى استعجلوا نزولَ العذاب بهم لو كانَ صادقًا، بعدَ ذلك استعادَ صالحُ عليه السلام نشاطَه وأبعدَ عنه ذهولَه، فاستأنفَ قائلًا لهم، مجيبًا عمّا سألوه عند الاختصام من نزول العذاب، مُنكرًا عليهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أصلُ التَّعْجيلِ الإسْراعُ، يُقال: تَعَجَّلَ الشَّخْصُ، أيْ: أَسرعَ وفَعَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أوانِه، وهو الاندفاعُ وطَلَبُ العَجَلَةِ[1]. والعَجَلَةُ: خِلافُ البُطْءِ والتَّأَخُّرِ، والتَّأْجيلِ والإمْهالِ، ومعناها: السُّرْعَةُ. ويأْتي التَّعْجيلُ بمعنى التَّقْديم، يُقال: تَعَجَّلْتُ لَهُ الطَّعامَ، أيْ: قَدَّمْتُهُ له قَبْلَ نُضْجِهِ. وهو أيضًا: السِّباقُ إلى الشَّيْءِ، تَقول: تَعَجَّلْتُ الشَّيءَ، أيْ: سَبَقْتُهُ[2]. والمُراد بالتَّعجيل في الآية: طلَبُ حصولِ الشَّيء قبلَ حُلولِ وقتِه[3].

2) ﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾: (غفر) الغَفْرُ في الأصْلِ التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بِها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفرَ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 447.

ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[1]. والغُفْرةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[2]. والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه هو أن يَصون العَبدَ مِن أنْ يَمَسَّه العذابُ[3]. والمرادُ بالِاستِغْفار في الآية: طَلَب الغَفْرِ، أي: السَّتْرِ والتَّجاوُزُ عن الذُّنوب.

3) ﴿تُرْحَمُونَ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأْفة، يُقالُ من ذلك: رَحِمَهُ يرحمَه، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه. والرَّحِمُ: علاقَةُ القَرابة، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هذا؛ لأنَّ منها ما يكونُ وما يُرحَمُ ويُرَقُّ له من ولَدٍ[4]. والرَّحْمَةُ: اسمُ مصدرٍ لصفةِ الرّاحِمِ وهي من صفاتِ الإنسانِ، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تبعثُ على سَوْقِ الخيرِ لمن تتعدَّى إليه، وإذا وُصِف به البارئ سبحانه فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمَةَ من اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[5]. والرَّحْمَةُ أيضًا: القرآنُ[6]، والمغفرةُ[7]، والنُّبوة[8]. والمقصودُ بالرَّحمة في الآية: ما بِهِ رِفْقٌ بالغَيْرِ وإحسانٌ إليهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستغفارُ سببٌ لرفعِ العُقوبةِ وجلْبِ الرَّحمةِ

كان هذا القولُ من صالح عليه السلام للفريق المكذِّب من قومه، إذ قال: يا قوم، لأيِّ شَيءٍ تَطلُبونَ عذابَ اللّهِ، ولا تَطلُبونَ رحمتَه، هلّا تتوبونَ إليه مِن كُفرِكم، فيغفرَ لكم عظيمَ جُرمكم ويصفحَ عن عقوبتكم على ما أتيتُم به من الخطايا، لعلكم تُرحمونَ بقبولها، إذ قد جرَتْ سُنّتُه ألّا تقبلَ التوبة بعد نزولِ العقوبة[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) الراغب، المفردات: (رحم).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 358، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 75.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(8) الشهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 173.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 214، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 147.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمّا قبلها:

طلبُ استعجال العذاب حمقٌ وجهالة

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ جاء مفصولًا عمّا قبله، لوقوعه موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر تقديره: فماذا قال لهم صالحٌ عليه السلام، لمّا افترق قومُه فريقين مؤمنين وكافرين، وبالغَ الكفارُ في موقفِهم منه، فاستعجلوا وقوعَ العذاب، الذي حذَّرَهم منه حينَ قال لهم مُحذِّرا لهم من المَساس بالناقة بما يَسوؤُها: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]، ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77] ليكون وقوعُه دليلًا على صدقه، وعندها يؤمنون، فكان الجواب: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾. وعليه فبينَ الجملتين شبهُ كمال اتصال.

دلالةُ التعبير بالقولِ في قوله: ﴿قَالَ﴾ عند الدعوة:

صبرُ الأنبياء نبراسٌ للدّعاة

التعبير بـ(القول) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ دليلٌ على أنّه عليه السلام قد صبرَ عليهم، وتلطَّف بهم وأقامَ بينه وبينهم حوارًا؛ ليقنعَهم بصحَّة ما دعاهم إليه، وبحرصه عليهم من أنْ يَنالهم سوءُ العذاب بكفرهم، وإنما أجرى القولَ على لسانه دونَ أفراد قومه؛ لأنَّه المتحدِّث بلسان فريقِ المؤمنين، وجاءَ بصيغة الفعل الماضي للدلالة على القطع بوقوعِه وتكلُّمِه معهم حثًّا لهم على الإيمان والعملِ الصّالح.

دلالةُ النِّداء في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

من دواعي النداء إيقاظُ الأسماع الواقرة وتنبيهُ القلوبِ الغافلة

من شأنِ أسلوبِ النداءِ استرعاءُ الانتباه والتيقّظ لما سيأتي في طيِّه وهو المنادى من أجله، وهذا من دواعي استعماله واللُّجوء إليه، فقوله عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فيه إيقاظٌ لهم من غفلتهم؛ لينتبهوا إلى ما يريد إلقاءَه عليهم من جليلِ الأمور وعظيمِها، وفي النداءِ تصويرٌ لتلك المخاصمةِ الواقعة بينهما؛ إذ جعلَهم لا يسمعونَ النُّصح ولا ينتبهونَ للمعاني فأراد إيقاظَهم وإسماعَهم وتنبيهَهم.

دلالةُ التعبير بالقوم وحذف الياء:

نـداءُ العطف والشفقة الممزوجين بالقوّة والشدّة

مناداتُهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دليلٌ على حرصِه عليهم وتلطُّفِه بهم، وهذا شأنُ كلِّ الرُّسُل ﷺ مع أقوامِهم، وحرص ﷺ على مناداتهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دون غيره في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ استثارةً لعواطفِهم باسم الأخوة في النّسب، فإنَّ من شأن هذه الأخوّة استنفارَ أواصر القُرب بينه وبينهم، بأن يدلَّ ذلك على حرصِه عليهم، وإدراكِ أنَّه لن يدلَّهم إلا على ما فيه مصلحتُهم، وأنْ يستشعروا هم هذا الحنوَّ وتلك العاطفة، فيقبلوا على طاعتِه ودعمه في دعوتِه. وقد حُذفت ياءُ الإضافة من قوله: (قوم) فلم يقل: (قومي) تخفيفًا واستغناءً عنها بالكسرة لكثرةِ الاستعمال، فإنَّ من دواعي تلطُّفه ﷺ بهم أنْ يكثرَ من نداء: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وكأنّه لم يُضفهم إلى نفسه إضافةً واضحة بالياء؛ لأنهم لا ينتمونَ إليه عندَ المخاصمة والمجادلة واللَّد، فهو عطفٌ مخلوطٌ بالشدَّة، وحنوٌّ ممزوجٌ بالقوَّة.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿لِمَ﴾:

روحُ الخصام تـؤجّـجُ غضبَ المتكلِّمين

نتلمّس في هذا الاستفهام المختزَل روحَ الخصام المتأجِّجة بين الفريقين المتنازعين؛ فريق الإيمان وفريق الكفر، واختارَ المتكلم أداةً يتحقّقُ باختزالها التكثيفُ في الإنكار والتوبيخ على طلبهم آياتٍ يتجلَّى فيها تعذيبُهم وإفناؤهم إنْ كان صادقًا فيما ينقلُه من وحي سماويٍّ، فكان الاستفهام الإنكاريُّ الرافض لذلك الاستعجالِ الدالِّ على عدم الرويَّة في سماع الآيات والبراهين الصّادقة.

بلاغةُ الجواب عن استعجالهم العذابَ مع أنّه لم يُذكر:

القرآنُ الكريم وحدةٌ موضوعيّةٌ متماسكةٌ يفسّر بعضُه بعضًا

دلّ قولُ نبيِّ اللّه صالح ﷺ لقومه كما ورد في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ عن سؤالٍ محذوفٍ من فريق الكفر بطلبِ نزولِ العذاب بهم إنْ كان صادقًا في دَعواه، فتضمّنَ قوله جوابًا عن استعجالِهم العذابَ؛ على أنَّ المراد بالسيّئة هنا

العذابُ، مع أنَّ النص الكريمَ لم يتضمّنِ الإشارةَ إلى العذاب، اعتمادًا على تصريحِهم بذلك في حوارٍ آخرَ معه، قد نقله القرآنُ في قوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77]، وهذا يدلُّ على أنَّ القرآن الكريم وحدةٌ واحدة يُجملُ في موضع ويفصّل في آخَر، فيغدو وحدةً متماسكةً يفسِّر بعضُه بعضًا.

سرُّ التعبير بالاستعجال دونَ غيره في قوله: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾:

المبادرةُ إلى الاهتداء أليقُ من تعجُّل نزول العذاب

العَجَلَةُ: طلبُ الشيء وتحرّيه قبلَ أوانه[1]؛ والقصدُ من استعمال هذا اللّفظ مقرونًا بالاستفهام لومُهم على طلبهم العجلةَ في وقوعِ العذاب بقولهم: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 77] بدلَ أن يتعجَّلوا بقبولِ الهداية. أوْ أنَّ المراد بهذا الاستعجال الإصرارُ على مباشرة أسبابه[2]. وقد ناقش الزمخشريُّ علّةَ استعمال لفظ (الاستعجال) في الآية الكريمة، فقال: فإنْ قلت: ما معنى استعجالِهم بالسيّئة قبلَ الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقّعتينِ إحداهما قبلَ الأخرى؟ قلتُ: كانوا يقولونَ لجهلهم: إنَّ العقوبة التي يَعِدُها صالح عليه السلام إنْ وقعَتْ على زعمه، تُبْنا حينئذٍ واستغفرْنا - مُقدّرين أنَّ التوبة مقبولةٌ في ذلك الوقت - ! وإنْ لم تقعْ، فنحن على ما نحنُ عليه، فخاطبَهم صالح عليه السلام على حسبِ قولهم واعتقادِهم[3].

دلالة التعبير بصيغة المضارع ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾:

استحضارُ الماضي درسٌ للمستقبل

قولُه عليه السلام ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ باستعمال صيغةِ المضارع يدلُّ على أنّهم كانوا يكرّرون استعجالَهم العذاب ويردّدونه كثيرًا، تحدّيًا لصالح عليه السلام، وثقةً منهم في عدمِ وقوعه. وقيل: صيغةُ المُضارعِ لحكايةِ الحال الماضية باستحضارِ صورة الماضي وكأنَّها تقع الآن؛ لبيان سوءِ

(1) الراغب، المفردات: (عجل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 175.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 371.

اختيارهم وضعفِ عقولهم، والسّين والتاء في ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ للطّلب، تدلُّ على شغفهم بمطلوبهم ورغبتِهم بتحقُّقه وإلحاحِهم فيه؛ والاستعجالُ من العبد، والتعجيلُ من اللّه تَعالَى بمعنى: الإسراع(1).

دلالة التعبير بالباء في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

المبالغة والتحدّي في الطلب مستدعيانِ التأكيدَ والتقوية

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ مزيدةٌ لتأكيدِ اللّصوق وتقوية ارتباط الفعل بالمفعول، فقد صارَ كلُّ خصومتِهم أنَّهم يُطالبونَ بنزول العذاب تكذيبًا له في تخويفِهم وتهديدِهم، مما يدلُّ على أنَّ الاختصام ينقطعُ عند العَجْز والضّعف إلى المطالبة متحدّين بنزولِ العذاب إنْ كان صادقًا، وزيادة الباء مثلُ ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6](2).

بلاغةُ حذفِ الموصوف وإبقاء الصّفة في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾:

شأنُ الكافرين المسارعةُ إلى تكذيب الأنبياءِ والمصلحين

كلمتا ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ و﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ صفتانِ لموصوفٍ محذوفٍ؛ فالسّيِّئة: صفةٌ لمحذوف، أي: بالحالة السيّئة، وكذلك الحسنة، أي: الحالةُ الحسنةُ. فيجوزُ أن يكون المراد بالسيِّئة الحالةَ السيئةَ في معاملتهم إيّاه بتكذيبِهم له مسرعينَ. والمرادُ بالحسنة ضدُّ ذلك، أي: تصديقهم لما جاء به(3). ولعلَّ من فوائد حذفِ الموصوف أنْ يَحْتَمِلَ تقديرُه أكثرَ من احتمال، فبينما احتملَ أن يكون المرادُ به في الموضعين التكذيبَ والتصديق، فإنَّه يَحتملُ أيضًا أن يراد بالسيِّئة استعجالُ العذاب، وبالحسنة الاهتداءُ والتوبة الموصلانِ للرَّحمة والإحسانِ، وبينَ كلٍّ من الموصوفينِ المقدّرين تلازمٌ واقتضاء؛ فإنَّ من استعجل التكذيبَ يكون متعجِّلًا لنزول العذاب، والعكس صحيح، ولذا حذفَ الموصوف ليكونَ جامعًا بين المعنيينِ المتلازمينِ والفعلينِ الصّادرينِ من الفريقِ الكافر.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 279.

نكتة التعبير بالسيّئة عن العذاب وبالحسنةِ عن التوبة:

السيئات أبوابٌ مشرّعةٌ لنيل العذاب

عبَّر بالسيّئة عن العذابِ من باب تسمية المسبَّب واللازم باسم السبب والملزوم، فالسيّئة هي بابُ العذاب وسببُ وقوعه، وعبَّر عن التوبة والنعيم المقيم بالحسنة لذلك، ولكونها منها فـ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ يعنى بها الطاعة "والتَّوْبَة من أنواع الطاعة"[1]. والغرض من تسمية الشيء باسم سببه إقامة الحجة على أن نزول العذاب كان بسبب ما اقترفته أيديهم من سيئات مستعجلة، ويحتمل المجاز أن يكون استعاريًّا بأن شبه العذاب المستعجل بالسيئة بجامع الإيذاء في كل منهما، وحذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

بلاغةُ الطّباق في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾:

بضدِّها تتميَّز الأشياء

في المقابلة بين ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ و﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ طباقُ الإيجاب، وذكرُ الضدَّين على ما فيه من جمالٍ تصويريٍّ وبراعةٍ في التركيب، فإنَّ كلَّ واحد من الضدَّين يبرز ما في الآخر، فقبحُ السيّئة يبرز جمالَ الحسنة فتُقْبَلُ النفس عليها، وجمالُ الحسنة يُبرزُ قبحَ السيّئة فتنفرُ النفس منها؛ فالأشياء تتميَّز بضدها. وللدلالةِ على أنَّ الموقف من الأنبياء عليهم السلام لا يكونُ إلا بين طريقينِ لا ثالثَ لهما: إمّا طريقُ السيِّئة والعذاب والنّقمة بسبب التكذيبِ، أوْ طريقُ الحسنةِ والخير والرَّحمة بسببِ التصديق.

دلالة التعبير بالإفراد والتعريف في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ - ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾:

ردُّ آيات الله تعالى البيّنات قبحٌ وسوءٌ

عبَّر بالإفراد في كلمة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ على إرادة العذابِ أوِ العقوبة، وفي كلمة ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ على إرادة التوبةِ أوِ الهداية أوِ الرحمة. أوْ "أنَّ المراد بالسيّئة تكذيبُهم إياه عليه السلام، وكفرُهم به، وبالحسنة تصديقُهم وإيمانُهم"[2]؛ وعليه فـ (أل) في المفردتين للعهدِ النّاجم عن إلحاحِهم

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 406.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.

المستمر أثناء الاختصام بطلب العذاب، وهو الظاهر. ويَحتملُ أنْ تكون (أل) للجنس، والمعنى: لمَ تبادرونَ إلى جنس السيّئات وتغلّبونها على جنس الحسنات، وهذا قويٌّ أيضًا؛ لأنّهم يُبادرون إلى حقيقة السيئة بكلِّ صنوفها من التحدّي والاختصام والرّفض وطلبِ نزول العذاب، فكأنَّهم لم يتركوا في جانب هذا الحقيقة من سيئةٍ إلا فعلوها.

دلالةُ التعبير بالقبليّة في قوله: ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾:

المبادرة إلى السيئات مانعةٌ من حصول الخيرات

قوله: ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ بالنصِّ على القبليّة، وهو قيدٌ زائد غرضُه المبالغةُ في الإنكار[1] وليس المقصودُ بقبليّة السيئة القبليّةَ الزمنيّةَ، فهي قبليّةٌ اعتباريّةٌ، على معنى: مختارينَ السيّئةَ دونَ الحسنة، والتعبيرُ بـ: ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ (مجازٌ) في اختيار الأخذ بجانبِ احتمال السيئة، وترجيحِه على الأخذ بجانب الحسنة، فكأنَّهم بادروا إليها فأخذوها قبل أنْ يأخذوا الحسنة[2]. وكان الظّاهرُ استعمالَ الظرف (دون)؛ لأنّهم استعجلوا العذابَ لغرضِ التصديق به، وبعدَ العذاب لن يكونَ هنالك تصديقٌ لانعدام الحياة أصلًا وعدمِ قبول التوبة في حالةِ التعذيب، لكنَّه عبّر بـ(القبليّة) بناءً على ظنّهم الفاسد ووهمِهم الكاسد أنَّ العذاب إنْ نزلَ بهم أوِ اقترب منهم فإنَّهم يُقبلُ منهم توبةٌ واهتداء ونزولُ رحمة عليهم بعدَ المعاينة للعذاب. وقوله: ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾؛ جملةٌ حاليةٌ من السيّئة. وفيها تنبيهٌ لهم على خطئهم في ظنِّهم أنه لو كان صالح صادقًا فيما توعّدهم به لعجَّل لهم به، وأنّه ما تأخَّر إلا لأنه ليس بوعيدٍ حقٍّ، لأنَّ العذاب أمرٌ عظيم لا يجوز الدخولُ تحت احتماله في مجاري العقول[3].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280، 13/ 92.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280.

بلاغة جواب صالح عليه السلام لقومه:

تغليفُ التهديد بالشفقة أسلوبٌ دعويٌّ هادف

اشتملَ جوابُ صالح عليه السلام لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ على أنماطٍ من البلاغة العالية وأسرارٍ لها فوقَ العلوِّ البلاغي تأثيرٌ عاطفيٌّ وجدانيٌّ؛ إذ استهلَّ جوابَه بالنداء الذي من شأنه إيقاظُ القلب الغافل والذهنِ المشوَّش ليستعدَّ لسماع ما هو مهمٌّ، ثمَّ جعل المنادى لفظَ (قوم) وهي كلمةٌ تفجّرُ كلَّ طاقات الحنوّ مع شيء من التهديد والتخويف والشدة لأنه آثرها على (الأخوة) مثلًا، وتحرّكُ كلَّ مشاعر القرب، ليشعُرَ المنادَى بأنَّ مناديَه هو بعضُه الذي يحسُّ بآلامه ويسعى إلى مداواتها، ويفرحُ لأفراحه ويسعى إلى دوامها، ثمَّ يوجِّه إليه السّؤال التقريعيَّ الإنكاريَّ اللّائم الذي يحتاج إلى تعليلٍ، فيستخدم لأجل هذا ما الاستفهامية المسبوقة باللام التعليلية ﴿لِمَ﴾ أي: إن السّؤالَ عن العلة[1]، وهو سؤال يقتضي جوابًا. لكن ما المسؤول عنه؟ إنّه وقوعهم في خطأ تأباه الفطرةُ السويّةُ ويرفضُه العقل السليم، وهو مبادرتهم إلى اختيار ما يضرُّهم على سبيل التحدّي والتكذيب وهو المعبَّر عنه بـ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بدلَ المسارعة إلى ما ينفعُهم وهو المعبَّر عنه بـ ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ ليحيلَهم من خلال ذلك كلِّه إلى التفكر بتجرُّد، وبالنظر إلى مصلحتِهم الخالصة، فيُجيبوا عن السُّؤال وقد ألقَوا بعصبيّتهم وعنادِهم وراءَ ظهورهم؛ فلو أنَّهم أفادوا من كلامه عليه السلام لبلغوا الغايةَ التي يُريدها منهم، وهو الاهتداءُ والتوبة وامتثالُ الحقّ والإذعانِ له، فمعَ كلِّ صور الشفقة هنالك روحُ الاختصام والجدال في الخطاب لبيان خطئهم وسوءِ اختيارهم.

بلاغةُ فاصلةِ الآية ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

يشتملُ هذا التذييلُ على براعة ترتيبِ النتائج السَّليمة على

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 255.

تَرتُّبُ النتائجِ السّليمة على مقدّماتها الصّحيحة

المقدِّمات الصّحيحة؛ ففيه مقدّمةٌ ونتيجةٌ، أمّا المقدّمة فقد تضمَّنتها جملةُ التحضيض التي حثَّتهم على الاستغفار، أي: طلب المغفرة من اللّه على ما فَرَط منهم، وأمّا النتيجة فهي ضمانُ قبولِ اللّه تعالى لتوبتهم واستغفارهم؛ لأنَّه سبحانه رحيمٌ رحمنٌ، وهو ما عبَّرت عنه الجملةُ الدالّةُ على الترجّي والتحقيق: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

سرُّ التعبير بأداة التحضيض: ﴿لَوۡلَا﴾:

أدواتُ الاستفهامِ والتحضيضِ منبئةٌ عن الاختصامِ العنيف

عبَّر بـ﴿لَوۡلَا﴾ التحضيضية؛ لأنه ﷺ قصدَ ما تدلُّ عليه من الحثِّ والحضِّ والترغيب في الاستغفار بدلَ المطالبة بالإتيان بالعذاب، وفي استعمالِ الاستفهام ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ سابقًا والتحضيض هنا دلالةٌ على اشتداد الخصومةِ وارتفاعِ مستواها بين الفريقين المتخاصمين، فكانت الأدواتُ اللغويّة منبئةً عنه ومشيرةً إليه.

سرُّ تخصيص الاستغفار بالذكر في قوله: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

من أماراتِ الإيمان طلبُ المغفرةِ من الديّان

كلمةُ ﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ في كلامه ﷺ لا يعني ما قد يتبادرُ إلى بعض الأذهان من أنّه قول: أستغفر اللّه فقط، بل ما هو أوسعُ من هذا، فالاسْتِغْفارُ كما يقولُ الراغب: طلبُ ذلك بالمقال والفِعال، وقوله تعالى حكايةً لقول نوح ﷺ لقومه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ [نوح: 10]، لم يُؤمَروا بأنْ يسألوه ذلك باللّسان فقط، بل باللّسان وبالفِعال، فقد قيل: الاسْتِغْفارُ باللّسان من دون ذلك بالفِعال؛ فعلُ الكذّابين[1]. بل قيل: إنَّ لفظ الاستغفار هنا هو كنايةٌ عن الإيمان[2]، وذلك أنّه حينَ طلبَ منهم الاستغفار لم يكونوا مؤمنين، فكنَّى بالاستغفار عن الإيمان؛ لأنَّ الإيمان يجبُ أنْ يبدأ بتوبة، وأوّلُ مراحلِ التوبة طلبُ المغفرة من اللّه على ما فاتَ وفرطَ من أعمال السّوء. ويَحتمِلُ أنّهم لمّا طالبوه بنزول العذابِ الموعود بهم إنْ كان

(1) الراغب، المفردات: (غفر).

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.

صادقًا في دعواه أصابوا ذنبًا عظيمًا؛ لأنَّ قولهم تشكيكٌ بالمرسَل والرّسول معًا، فطالبَهم بالاستغفار عن مقولتهم السيّئة تلك.

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

تكرير الاستغفار مكفّرٌ لكثرة ذنوبهم

عبَّر بالمضارع ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ تهيئةً لنفوسهم، وتوطينًا وتوطئةً لها "لاستحداثِ التوبة منهم والتحلّي بها"[1]، ونلحظُ أنَّ هنالك تناسبًا وانسجامًا بين طلبهم تعجيلَ العذاب وطلبه منهم أن يطلبوا المغفرة بدلًا من ذلك الطّلب الخاطئ، فناسبَ اختيارُ صيغة المضارع لتكون بديلًا موضوعيًا عن صيغة المضارع التي قدَّمها فريق الكفر وهَمًا منهم وخطأً، فهم قد كرَّروا طالبينَ تعجيلَ العذاب، وكان الأَوْلى والأَحرى بهم أن يكرّروا معه طلبَ المغفرة عمّا يطلبونه ويريدونه.

دلالة تعليق الاستغفار بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

الإنابةُ بالاستغفار إقرارٌ بمكوِّر الليل والنهار

علَّق الاستغفار بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ الربِّ، فقال: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (تستغفرونَ ربّكم) كما جاء في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [هود: 3]؛ لأنَّ الاستغفار في آية النّمل مُكنًّى به عن الإيمان، فقام قولِه: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مقام: (لولا تؤمنون باللّه)، كما أنَّ جهلَهم وجحودَهم كان متعلِّقًا بالألوهية دون الربوبيّة، فطالبهم باستغفارٍ يليقُ بمجحودهم ليكونَ موافقًا لمطلوبِه منهم بعبادةِ اللّه وحدَه.

دلالةُ التعبير بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

التحقيقُ للمرجوّ داعيةٌ للانخراط فيه

كلمة (لعلّ) للترجّي بالنظر إلى المخاطبين به، والمعنى: لتكونوا على رجاءٍ وطمعٍ في أن تنالَكم رحمةُ اللّه تعالى بالتوبة والإيمان، وفي الترجي تحقيقٌ لحصول الرّحمة، وإبلاغٌ من اللّه تعالى بقبولِ الاستغفار إنْ هم أقدموا عليه وتعرَّضوا له.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.

بالإيمان والاستغفار تستجلب الرّحمات

سرُّ ترتيب الرَّحمة على الاستغفار:

قوله ﷺ: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بترتيب الرَّحمة والإحسان إليهم وقبول التوبة منهم والعفو عنهم على الاستغفار والتوبة وطلب الرحمة؛ لأنَّ المراد بالاستغفار الإيمانُ كما مضى بيانُه، والإيمان وأوّلُه التوبة وأوَّلُها الاستغفار هي أسبابٌ لحصول الرَّحمة من اللّه تعالى، فيكون قد عبّر بالملزوم وهو الاستغفار وأراد لازمَه وهو الإيمان، وبين الرحمة والإيمان تلازم أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: 156].

رحمة الله بالعباد دائمةٌ بدوام الإيمان

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تُرۡحَمُونَ﴾:

عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ وهو دالٌّ على حصول ذلك في المستقبل؛ لأنَّ الرّحمة مترتّبةٌ على حصول الإيمانِ والاستغفار منهم، فإن حصلا استحقّوا الرّحمة، وهذا كلُّه لم يكن موجودًا ولا حاصلًا وقتَ الخطاب، وأمّا الرَّجاء فإنّه مقارنٌ للاستغفار؛ لأنَّ المعنى: استغفروا حال كونكم راجينَ حصولَ الرحمة عند الاستغفار، فالمضارعُ بالنظر إلى (الرجاء) بمعنى المقارن للاستغفار، وبالنظر إلى ذات (الرحمة) فإنه مستقبلٌ عن الاستغفار حاصلٌ عقيبه، فاختار المضارع المنبئَ عن الحاليَّة والمقارنةِ مع الاستقبال، وفي كونها صيغةً مبنيةً للمجهول لأنَّ الفاعل معلوم بقرينة قوله: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

رحمةُ الله تعالى نعمةٌ لا تعدُّ ولا تحصى

دلالة حذف متعلّق ﴿تُرۡحَمُونَ﴾:

حذفَ متعلّقَ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ لإفادةِ العموم، فتشملُ الرحمةَ في دار الدنيا؛ بكفِّ عذاب الاستئصال عنهم، وفي دارِ الآخرة بإنجائِهم من عذابها وإسعادِهم بنعيمها، فبدلًا مِن أنْ يقول: (لعلّكم تُرحمون في الدنيا والآخرة) حذف المتعلِّق وأبقى المتعلَّق به ليفيدَ العمومَ والاتساعَ والكثرةَ وعدمَ الإحاطة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الاستعجال والمسارعة:

التعجيلُ: طلبُ الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت العجلة مذمومةً في عامّة القرآن حتى قيل في الحديث: «العَجَلَةُ من الشّيطان»[1]، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء: 37]، وأما قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: 84] فقيل: إنّ عَجَلَتَهُ - وإن كانت مذمومةً - فالذي دعا إليها أمرٌ محمود، وهو طلبُ رضا الله تعالى ولقائه شوقًا[2]. وأمّا المسارعةُ فهي من سرَع، وأصلُه خلافُ البُطْء[3] بما يعني المبادرة إلى الشيء والتعجُّل إليه سواءٌ في باب الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61] أي: يبادرون إليها حتى لا تفوتهم، أوْ في غير باب الخيرات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: 176].

المسارعةُ تستعمل في القرآن محمودةً ومذمومةً، بخلاف التعجيل فإنه في عامة القرآن مذمومٌ

وعليه فالفرقُ بين العجلة والمسارعة في استعمال القرآن، هو أنَّ العجلة طلبُ الشيء في غير أوانه، وأنها تستعملُ غالبًا في مقام الذمِّ، وأما المسارعة فتعني التقدُّمَ في الشيء وهي بحسب موضوعها خيرًا كان أوْ شرًّا، فتكون محمودةً أوْ مذمومةً، وقد استعملها القرآن في المقامين.

الاستغفار والتوبة:

قال العسكري في الفرق بينهما: إنّ الاستغفار: طلبُ المغفرة بالدّعاء والتوبة أوْ بغيرهما من الطّاعة. والتوبة: الندمُ على الخطيئة مع العَزْم على ترك المعاودة[4]، بما يعني أنَّ الاستغفار أعمُّ من التوبة.

تساوي الاستغفار والتوبة انفرادًا، وافتراقهما اقترانًا

---

(1) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في التأني وعدم العجلة: 4/ 367، حديث رقم: (2131).
(2) الراغب، المفردات: (عجل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سرع).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

على أنَّ كلًّا من اللفظين يتضمَّن معنى الآخرِ عند الانفراد، والتفرقة بينهما لا تكونُ إلى عند الاقتران، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠﴾ [هود: 90]. قال ابن القيِّم: الاستغفارُ يتضمَّن التَّوبةَ، والتَّوبةُ تتضمَّن الاستغفارَ، وكلُّ واحدٍ منهما يدخُلُ في مسمَّى الآخر عند الإطلاق. وأمّا عند اقتران إحدى اللَّفظتين بالأخرى، فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرِّ ما مضى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقاية شرِّ ما يخافه في المستقبل من سيِّئات أعماله[1].

(1) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 475.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾ [النمل: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّهم الغليظُ على لومِه لهم بالاستعجالِ، وتحضيضِه إيّاهم بالاستغفار والتوبة

قولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ هو جزءٌ من محاورتهم ومخاصمتهم نبيَّهم صالحًا عليه السلام، أظهروا به مدى ملَلِهم من كلامه وتشاؤمهم منه، وأبرزَ أسلوبهم العنيف أثناء الخصومة والجدل واللّدد، فهو ردٌّ على قوله لهم: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾: (طير) أصلُ الطّيَرَةِ من الطَّيرِ، وهو الحيوانُ الطّائر كالغراب ونحوه، والطّيَرَةُ: التَّشاؤم، يُقالُ: تطيَّر بالشَّيء، يَتطيَّر، تطيُّرًا وطِيَرة، أي: تشاءَمَ به. والتَّطايُرُ: التَّفرُّق والذَّهاب؛ ومنه سُمّي التَّشاؤم طِيَرةً؛ لأنَّ أغلبَ اعتمادهم كان من جهة الطُّيور وأفعالها[1]. ومعنى ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ هنا: تشاءَمنا، وأصلُه: تطيَّرنا، قُلبت التّاءُ طاءً وأُدغمت في الطّاء، ثمَّ اجتُلبت همزةُ الوصل للتَّوصُّل بها للنُّطق بالسّاكن[2].

2) ﴿تُفۡتَنُونَ﴾: (فتن) أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ[3]. وأَصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[4]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أَحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: بالفَتّان،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طير).
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1688.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(4) الخليل، العين: (فتن).

وكَذَلِكَ الشَّيْطانُ[1]. والفِتنَةُ: الكُفر[2]، والعَذابُ، والبَلاءُ، والابتلاء[3]، والاختبار[4]، وما يَقَعُ بَيْنَ النّاسِ من الحُروب[5]. والمُرادُ بالفِتنةِ في الآية: الاختبارُ والامتحان، أي: تُختبرونَ وتُمتحَنون بما يقعُ عليكم من شرٍّ، حتى تتوبوا إلى خالقِكم، قبل أنْ ينزل بكم العذابُ الماحق، إذا ما بقيتم على كفركم[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المكذِّبون للرُّسُل يَسلُكونَ مَسالِكَ التَّشبيهِ والتَّمويهِ، والرَّدُّ عليهم مِن جنسِ الإيرادِ

قال مُشركو ثمودَ لنبيِّهم صالحٍ: تشاءَمْنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمنينَ؛ فنحن تُصيبُنا المصائِبُ والمكارِهُ بسَبَبِكم، فقال صالحٌ لِقَومِه: ما يُصيبُكم مِن مكروهٍ فإنَّما جاءَكم من عندِ اللهِ وحْدَه، ووقَعَ عليكم بإذنِه؛ بسَبَبِ ذُنوبِكم، بل أنتم قَومٌ يَختبِرُكم ربُّكم بالسَّرّاءِ والضَّرّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ[7]، فإنْ رَضيتم وصَبَرتُم نِلتُم الثوابَ والإحسان، وإنْ أنتم جَزِعتُم وكفرْتُم أصابَكم العذابُ والهوان.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

التشاؤمُ من الأنبياءِ والمرسَلين سبيلُ الخسرانِ المبين

فُصلتِ الآية عمّا قبلها على الاستئناف البيانيِّ، لكونها جزءًا من المحاورةِ القائمة بينهم وبين نبيِّهم صالح ﷺ، فكأنَّه قيل: فماذا قالوا لنبيِّهم بعدَ أنْ قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ فبينهما: شبه كمال اتصال، الذي كشفَ عن طبيعة ما يدورُ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتن).
(2) ابن سيده، المحكم: (فتن).
(3) الخليل، العين: (فتن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (فتن).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فتن).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 337.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 87، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 198، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 606.

بين الفريقين اللّذين يتخاصمانِ؛ فريقٌ يدافعُ عن الحقِّ وفريقٌ يدافعُ عن الباطل.

دلالة التعبير بالضّمير عن ثمود في قوله: ﴿قَالُواْ﴾:

اختلافُ القولين دليلٌ على تمايز الفريقين

عبَّر عن (ثمودَ) بالضَّمير دونَ ذكرِ الاسم الصَّريح لكونه معلومًا، وإنما كان الضميرُ جمعًا لَفْتًا إلى اجتماعِهم على هذا القول وطريقته الفظَّة واتفاقِهم عليه، لكونه منسجمًا مَعَ سوء طبْعِهم الجَمْعيِّ. واختلفَ قولُهم عن قولِه ﵇ سابقًا؛ فقد جاء قولُه مسندًا إلى ضمير الواحد ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ ممّا يدل على وحدةِ القائل وعدم تشتُّتِ الرأي في فريق الإيمان، وأنَّ المخوَّل بالكلام والمخاصمة عن فريق الإيمان هو نبيُّهم دون مَن سواه، وناداهم بـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، في حين تركوا نداءَه فَظاظَةً منهم، ولكونه منتبهًا إلى أقوالِهم الخاطئة فلا يحتاجُ إلى تنبيهٍ وإيقاظٍ، وأسندَ القول إلى جميعهم للدلالة على أنَّ المتحدِّث عن فريق الكفر متعدّدٌ ممّا يعطي جَوًّا من الخصومة، التي تسودُها الفَوْضى أثناءَ الحوار من طرفِهم.

دلالة التعبير بقوله: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ عن التشاؤم:

عقولُ الكافرين محلُّ الخرافة وأوهامِ الواهمين

عُبِّر بالتطيُّر عن التشاؤم؛ لأن التشاؤم مسبَّبٌ عن التطيّر؛ لما أنَّهم كانوا إذا خرجوا مسافرينَ فيمرّون بطائرٍ يزجرونَه ويطيّرونه، فإن مرَّ بهم سانحًا تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحًا تشاءموا، فلمّا نسبوا الخيرَ والشرَّ إلى حركة مرورِ الطّائر وما يفعلونَه به من زجرٍ وتطييرٍ، اشْتَقّوا منه فِعلًا عبّروا به عن التشاؤم إطلاقًا للسّبب على المُسبَّب.

دلالة نسبة قوم ثمود الطّيَرة إلى نبيِّهم:

التطيُّر من دعوة الصّالحين مجلبةٌ للضَّرر المبين

ما وقعوا فيه من نسبةِ الطّيَرة وهي التشاؤمُ إلى صالح ﵇ ومن اتَّبعه، هو لونٌ من ألوان الشِّرك الذي يُضاف إلى كفرهم، لأنَّ خلقَ كلّ شيءٍ إنّما هو من اللّه تعالى وهو النافع والضارّ وحدَه، كما قال سبحانه في معالجة هذه المسألةِ لمّا وقع المشركونَ فيها فاتّهموا بها

نبيّنا محمدًا ﷺ، بما اتّهمتْ به ثمودُ نبيَّها صالحًا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: 78]، وبذلك ردَّ عليهم صالحٌ عليه السلام قائلًا لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: طائِرُكُمْ على زعمِكم وتسميتِكم وهو حظُّكم في الحقيقة من تعذيبٍ أوْ إعفاءٍ؛ هو عِنْدَ اللّه وبقضائه وقدره[1].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

التـوهُّـمـاتُ المتراكمةُ سببٌ للضّلال المستبين

(الباء) في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ للسببيَّة، والمعنى: إنَّما أصابَنا الضرُّ بسببِك وبسببِ أتباعِك الذينَ أطاعوك، وتركوا دينَ آبائهم، وتأشيرُهم للسّبب في حدوث الشّرور النازلةِ بهم تناسٍ وتغافلٍ عن اختبار اللّه تعالى لهم، الّذي يُصيبهم بالآفات نتيجةَ عدمِ اتّباعهم نبيَّه صالحًا عليه السلام، وبدلًا من أنْ يفهموا الرّسالةَ الموجَّهة إليه بالتوبة والرّجوع عن إيذاء صالحٍ وأتباعِه، إلا أنّهم نسبوا وقوعَ تلك الشّرور إلى صالحٍ عليه السلام والمؤمنينَ به.

سرُّ تقديم ﴿بِكَ﴾ على قوله: ﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

صاحبُ الدّعوة أسّ التّشاؤم عندهم

قدَّموا ما يتعلّق به عليه السلام فقالوا: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾ على ما يتعلَّق بأتباعه فقالوا: ﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾؛ لأنه هو الدّاعي، وهو الأصل، وهم له تَبَعٌ، كما دلَّ التقديمُ على أنَّ تشاؤمَهم به مقدّمٌ على أتباعه، لأنَّه مصدرُ تلك الآفات والشّرور، وأنَّ دعوته كانت السببَ في تحول الأتباعِ إليه، وأشاروا إلى ذلك بالصّلة ﴿مَّعَكَۚ﴾ على علّةِ التشاؤم بهم، فهو المتبوعُ وهم التابعون له، ومن حقِّ المتبوع أن يتقدَّم على التابعينَ.

سرُّ التّعبير بالموصول (من):

آثروا التعبيرَ بالاسم الموصول (مَن) دون (الذين) في قولهم:

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 263.

﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ للامتهان للأتباع كما امتهنوا نبيَّهم من خلال توجيهِ الخطاب إليه دون اسمِه مثلًا، وهذا الامتهان والاحتقار في الخطاب ينبئُ عن حالة الاختصام الشديد، ويُظْهِر أنَّ الشؤم كان من ممتهنين ومحتقرينَ، فذلك أدعى للاستخفاف وأقوى في الخصومة وأعنفُ في الردِّ.

الاحتقارُ والامتهانُ عنوانُ خصومةِ أهلِ الباطل

سرُّ التعبيرِ بالمعيَّة في قوله: ﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

التعبير بـ(المعيَّة) أدلُّ على تمامِ الاقتداء والاتّباعِ حدَّ الالتصاقِ والمصاحَبة؛ فكأنَّ المعيَّة تعني عدمَ الانفكاك، وهو ما يعني أنَّهم قصدوا أتباعَه المخلصينَ الملازمينَ له، وفي تأشير المعيَّة على أنَّها متعلَّق الصِّلة إشارةٌ إلى أنَّ علّةَ الشُّؤم في الأتباع أنهم اختاروا معيَّتك، فيرجعُ الشؤم كلُّه إلى صالحٍ عليه السلام.

تعليلُ الأحكام من ضرورات الكلام

دلالةُ كاف الخطاب في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

دلَّ توجيهُ الكلام له عليه السلام بـ(كاف الخطاب) على الامتهان للمخاطبين، وعلى أنَّ قومه كانوا يواجهون لطفَه معهم بقسوةِ الخطاب، وأنهم لم يورّوا في اتّهامهم له بأنَّه وأتباعَه سببا شُؤمهم، حيث لم يتحدَّثوا بذلك في غَيبتِه بل في حضوره، بما يشعرُ بضراوةِ عداوتهم له، وإغلاظِهم له ولأتباعِه في القول والخصومة، وعدمِ اعتبارهم بمقامِه فيهم.

مقابلةُ تلطفه بالخطاب بـ(يا قوم) بقاسي الخطابِ وعنيفِه

سرُّ فصلِ قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبله:

فُصلت جملة: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبلها على الاستئناف البياني كسائر المحاورات والمقاولات، وذلك على تقدير سؤال: فماذا قال لهم صالح عليه السلام بعد أنْ قالوا له: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾؟ فكانَ الجواب: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، فبينَ الجملتينِ على هذا شبهُ كمالِ اتّصال.

من بلاغة الانفصالِ تحقيقُ التفاعل بالسؤال

سرُّ ذكرِ قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ رَدًّا على قولهم:

تشاكلُ الكلام لتحقيق التوبيخ على الاتهام

قولُه عليه السلام: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ يَقتضي التوبيخ[1] على قولهم فيه وفي أتباعِه، وفي التعبير من صالح عليه السلام بلفظ (الطائر) دون لفظ (التشاؤم) استعارةٌ تصريحيّةٌ للمشاكلةِ تنزُّلًا معَهم على مستوى تفكيرِهم وفهمِهم. يقولُ ابن عاشور: "واسْتُعِيرَ لِما حَلَّ بِهِمُ اسْمُ (الطّائِرِ) مُشاكَلَةً لقولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾، ومُخاطَبَةً لهم بما يَفْهَمونَ لِإصْلاحِ اعْتِقادِهِمْ، بقرينة قولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾"[2]. وأيضًا دلّ على سوء معتقدِهم في نسبة الشرِّ إلى مخلوقات اللّه، فردَّ عليهم موبّخًا ومُستعمِلًا لفظ التطيُّر مشاكلةً لما سبق أنْ قالوه وعلى حسب ما يعتقدونَ، فقال لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ "أي سببُكم الذي منه ينالُكم ما ينالُكم من الشرِّ عِنْدَ اللّه، وهو قدره سبحانه أوْ عملُكم المكتوبُ عندَه عز وجل"[3].

بلاغة الجناس الاشتقاقي:

مجاراةُ الخصم استخفافٌ به وامتهانٌ لمعتقدِه

بين قولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ وقوله عليه السلام: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وهو لونٌ بديعيٌّ يُضفي جمالًا على التعبير، ويثيرُ في النفس اليقظةَ والتنبُّهَ إلى ما يقرِّره التركيب، وهو هنا ردُّ ما ادّعَوه من شؤمه عليه السلام هو وأتباعُه إلى أنفسهم وما يصدرُ عنهم من أعمالٍ سيئةٍ تجلب لهم العقوباتِ الإلهيَّة، وفي التشاكل اللفظيِّ بين الكلامينِ استخفافٌ بمعتقدِ أهل الباطل وامتهانٌ لعقولهم التي تتشاءمُ بالناس دونَ التفكير بما وراءَ تلك المقادير من دلالاتٍ ومعانٍ وفتنةٍ لهم في الحياة.

دلالةُ التعبير بالعنديَّة في قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾:

مقاديرُ الله تجري وفق حكمةٍ عزيزة المنال

﴿عِندَ﴾ لفظٌ موضوعٌ للقرب[4]، ويستعملُ في المكان، وهي هنا

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 207.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.

(4) الراغب، المفردات: (عند).

للمكانِ المجازيِّ مستعارًا لتحقُّق شأنٍ من شؤون اللّه، به يقدّرُ الخيرَ والشرَّ، وهو تصرُّفُ اللّه وقدرُه؛ لأنَّ الشيءَ المتصَّرف فيه كالمستقرّ في مكانٍ، أي: سببُ شُؤمِهم مقدّرٌ من اللّه[1]، وأُضيف ﴿عِندَ﴾ إلى اسمِ الجلالة؛ لأنَّه معبّرٌ به عن قدر اللّه وتصرُّفِه في خلقِه، وبقرينةِ مُقابلة هذه الجملة بقوله: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أفادتْ هذه الجملةُ الانحصارَ بأنَّ ما يُصيبهم من شرور وآفات هو من عند اللّه تعالى وحدَه.

دلالة التعبير بـ ﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ﴾:

الترقي في الخطاب إفحامٌ للخصمِ ببيان الأسباب

﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ﴾ للإضراب، فقد أضربَ بـ ﴿بَلۡ﴾ للانتقال والترقي وليس للإبطال، وهو إضرابٌ من بيان طائرهم الذي هو مبدأُ ما يَحيق بهم، إلى ذكرِ ما هو الدّاعي إليه. أي: بل أنتم قوم ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تُختَبَرونَ بتعاقُبِ السّرّاء والضّرّاء[2]. وفي النصّ إشارةٌ إلى أنَّ ما ينزلُ بكم من آفاتٍ وأضرارٍ لتكذيبكم وعنادِكم، فيُلحِق اللّه بكم الآفاتِ لتعودوا إليه مُستغفرين، لكنَّكم بدلًا من الوعي بذلك أعلنتم أنَّ هذه الشّرورَ بسبب صالحٍ وأتباعِه، فيكون هنالك ترقٍّ من مجرَّد كون تلك الآفات أقدارًا يُلحِقُها اللّه بكم إلى كونها إنذاراتٍ لكم من اللّه بالعودةِ والتوبةِ والاستغفارِ والإيمان.

دلالةُ التعبير بالجملة الاسميّة ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾:

دوامُ الافتتان على نوع بني الإنسان

أوثر التعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ للدلالة على تأكيد ثبوتِ الحكم، وهو كونهم قومًا يُفتنون ويختبرون بأعمالهم على سبيل الاستمرار، التي يُباشرونها بأنفسهم، وعليها يكونُ جزاؤُهم من اللّه تعالى في الدنيا والآخرة، فلا يسوغُ لهم أنْ يَنسبوا ما يحلُّ بهم جزاءَ عملهم إلى غيرهم؛ إذ لا مدخلَ لأحدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281، 9/ 67.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 407، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.

فيها، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

سر التعبير بـ ﴿قَوۡمٞ﴾ منكّرًا:

امتهانُ الظّالمين نصحَ للمُعتبرين

التعبيرُ بلفظ ﴿قَوۡمٞ﴾ أمكنُ في الدلالة على وحدة قوميتهم وكثرتهم، وعلى الوشيجةِ القائمة بينه وبينهم؛ ولذلك قال ﷺ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ دونَ أن يقول: (جماعة، أو طائفة)، ونلحظُ أنَّ تعبيره بـ(القوم) منكّرًا فيه شيءٌ من الامتهان والاحتقار لهم، يُجابِهُ به امتهانَهم الذي صدرَ منهم، فما هم إلا جماعةٌ تتعرّضُ للفتنة والاختبار، وهذا المعنى يتآلفُ مع حالة الاختصامِ بينَ الفريقينِ، والمجادلةِ بين أهل الحقِّ وأهلِ الباطل.

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليه علَى الخبرِ:

مجابهةُ العصاة الفجّار تقريعٌ واستنكار

في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ عبَّر بضميرِ جمعِ المخاطبين، ليدلَّ على أنَّهم جميعًا مقصودونَ به لكونهم شركاءَ في خطأ اتّهامه وأتباعِه بأنّهم سببُ ما حاقَ بهم من سوء، ثمَّ أوثِرَ تقديمُ المسندِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ الموصوف بالفتنة لتقويةِ الحكم بأنهم مفتونون. وصيغَ النعتُ فعلًا مضارعًا، فقال ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ ولم يقل: (فتنتم) لدلالةِ المضارع على تجدُّد الفتون واستمرارِه[1].

سرُّ التعبير بالفتنة مادّةً وصيغةً:

الانتباهُ إلى الفتن والابتلاءات أوجبُ المسلّمات

الفتنة بمعنى الاختبار والامتحان والابتلاء، وإيثارُ التعبير بها دونَ غيرها من الألفاظ المقاربة لأسباب، منها:

أولًا: كونُها أعمَّ وأشملَ في الدلالة من غيرها؛ إذ إنّها تقع بالخير والشرّ، وبالمنحة والمحنة؛ لقوْله تعالَى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281.

ثانيًا: كونُ الفتنة إنّما تدلُّ على الاختبار الشديد وليس مجرّدَ الاختبار، وعليه يكون إيثارُ التعبير بلفظ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ دونَ (تختبرون) أي: تقعونَ في اختبارٍ شديدٍ يتميَّز به الصّابر مِن الجازع.

ثالثًا: ويمكنُ أن يرادَ بلفظ (الفتنة) هنا ما عادَ عليهم من جزاءِ أفعالهم السيّئة، كما هو معناها في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحديد: 14]، أي: أَوقعتموها في بليّة وعذاب، وعلى هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، فقد سمّى الأولادَ هاهنا فتنةً؛ اعتبارًا بما ينالُ الإنسانَ من الاختبارِ بهم[1]، والذي يبدو أنَّ الفتنة التي تعرَّض لها قومُ ثمود كانت نتيجةَ تصدّيهم لدعوة نبيِّهم، لعلَّهم يرتدعونَ عن الإنكار والتكذيب، لكنَّهم بدلًا من ذلك أحالوا سببَ الفتنة إلى نبيِّهم وأتباعه.

وأمّا عن إيثار صيغة المضارع، فللدلالة على تكرُّر وقوع الشَّدائد عليهم وتكرُّرها، جزاءً من اللّه تعالى لما وقعَ منهم من كفرٍ باللّه، وصدٍّ عن دعوة رسولِه، وعقرِهم الناقةَ، واستعجالِهم العذابَ.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ دونَ الغيبة:

خطابُ الكافرين النّاجح بالكلام الصَّريح الواضح

إيراد المضارع بأسلوب الخطاب في الفعل ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ مراعاةً لضمير الخطاب قبلَه، أي: أوثر التعبير بتاء الخطاب في قوله: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ دونَ الغَيبة؛ فلم يقل: (يفتنون)؛ لأنَّ السياق سياقُ خطاب؛ حيث ورد المسندُ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ وهو ضمير خطاب، فكان المناسبُ التعبيرَ بـ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ لا (يفتنون). وأيضًا لكونه أدلَّ من أسلوب الغيبة على المقصود؛ لأن القوم في حالة اختصام وحوار، وهو يستدعي توجيهَ الخطاب بين الحاضرين، مع أنّه كان يُمكن

(1) الراغب، المفردات: (فتن).

التعبير بـ (يفتنون) مراعاةً للخبرِ ﴿قَوۡمٞ﴾، لكنّه آثرَ التعبير بـ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ "ترجيحًا لجانب الخطاب؛ لأنه أدلُّ من الغَيبة"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والابتلاء والاختبار:

الفتنة والابتلاءُ متقاربانِ دِلاليًّا ومـلـزومـانِ للاختبار

لاشكَّ في أنَّ المشترك الدلاليّ والتداخل المعنويَّ بين الألفاظ الثلاثة قريبٌ جدًا؛ حتى إنَّ الفتنة عندَ المفسِّرين واللُّغويّين تُفسَّر بهما[2]، قال العسكريُّ في الفرق بين (الفتنة والاختبار): إنَّ الفتنة أشدُّ الاختبارِ وأبلغُه، وأصلُه: عرضُ الذهب على النّار لتبيُّنِ صلاحِه من فساده، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، ويكونُ في الخير والشرِّ، ألا تسمعُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعلَ النِّعمة فتنةً؛ لأنَّه قصدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المنعَم عليه بها، كالذّهب إذا أُريد المبالغةُ في تعرُّف حاله أُدخِل النار، واللّهُ تعالى لا يختبرُ العبد لتغييرِ حاله في الخير والشرِّ، وإنما المراد بذلك شدَّةُ التكليف[3]. وذكر الراغب أنَّ كلًا من الفتنة والبلاء يُستعملان فيما يدفعُ إليه الإنسان من شدّة ورَخاء، وهما في الشّدّة أظهرُ معنىً وأكثرُ استعمالًا، وقد قال اللّه فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][4]، وقال الكفويّ: الِابْتِلاء في الأَصْل: التَّكْليف بِالأَمر الشاقّ من البلاء، لكنه لمّا استلزمَ الاختبارَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَن يجهل العواقبَ ظُنَّ ترادُفُهما. وقالَ بَعضهم: الِابْتِلاء يكون فِي الخَيْر والشَّر مَعًا، يُقال في الخَيْر: أَبليتُه، وفي الشَّرّ: بلوتُه بلاءً[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/ 444، 3/ 565، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 486.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217.
(4) الراغب، المفردات: (فتن).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 34.

وبهذا يظهر لنا التقاربُ الدلاليُّ بين لفظي (الفتنة والابتلاء) أقوى منهما مع (الاختبار) الذي هو لازمٌ لهما، ولذلك فإنَّ القرآن الكريم يستعملُهما دونَ الاختبار، فكلٌّ من (الفتنة والابتلاء) ملزومان للاختبار.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ [النمل: 48]

الحقائقُ نشربُها في كأسٍ من مثال

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ سردتِ الآية السّابقة جزءًا من الحوار والخصومة الّذي كان قائمًا بين صالح عليه السلام وقومِه، وفيه تَطَيُّرُ قومِه به وبأتباعه، فقالوا: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾، فرَدَّ عليهم قائلًا: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾. ولمّا كان هذا التطيُّر منهم جزءًا من شرورهم ولونًا من ألوان سوئِهم؛ تابعتْ هذه الآيةُ ذِكْرَ خبرِ جماعةٍ من أهل الشرِّ منهم، فقالت: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَهۡطٖ﴾: (رهط) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ في النّاسِ وغيرهم، فالرَّهْطُ: العصابةُ من ثلاثةٍ إلى عَشَرَةٍ. قال الخليلُ: ما دونَ السَّبعةِ إلى الثَّلاثةِ نَفَرٌ، وتخفيفُ الرَّهْطِ أحسنُ من تثقيله[1]. ورَهْط الرَّجل: بَنو أبيه، ويُجمع رَهْط على أَرْهُط، ثمّ تجمع أَرْهُط على أراهِط[2]، وقيل: معناه الجمعُ لا واحدَ لَهُ من لَفظه، وهو للرِّجال دون النِّساء[3].

والمراد بالرّهْط هنا: الجماعةُ من النّاس من ثلاثةٍ إلى تسعة.

2) ﴿يُفۡسِدُونَ﴾: (فسد) أَصلُ الفَساد: الخُروجُ عن الاعْتِدالِ[4]، يُقال: فَسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّه. ويُقالُ فَسَدَ الشَّيء فسادًا وفسودًا وأفسدَه غيره، وضِدُّه: الصَّلاحُ[5]، والفَسادُ في الأرضِ: هَيجُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رهط).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رهط).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (رهط).
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).

الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءَ الاستقامة عن أحوال النّاس، والزَّرعِ والمنافعِ الدّينية والدُّنيويَّة[1]. والمقصود بالمفسدينَ في الآية: السّاعونَ في أرض الله بما يكرهُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قـادةُ السّـوء ودعاةُ الكفر هم أساسُ فسادِ البلاد والعباد

كان في المدينة الَّتي كانت مبعثَ صالحٍ عليه السلام تسعةُ أنفُسٍ يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، وكانوا عتاةَ قوم صالح، وقادةَ الشَّر فيهم، يُفسدون في الأرض، ويَأمرونَ بالإفساد فيها، ويَتتبَّعون عوّراتِ النّاس ومعايبَهم، يَظلمونَ النّاس، ولا يمنعونَ الظّالمَ عن ظُلْمه، ولا يَعملون صالحًا، ولا يَدعونَ إليه، ولا يعرفونَ طريقه، فعادتُهم الدّائمةُ المستمرّة الإفسادُ البحتُ الَّذي لا يخالطُه شيءٌ من الصَّلاح في عَمَلٍ أو قَولٍ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

حكايةُ نموذجٍ عن عتوّ قومِ صالحٍ عليه السلام وغطرستِهم

(الواو) استئنافيّةٌ[3]، وهو الأظهرُ، وما بعدَها كلامٌ مستأنَفٌ، وعليه فإنّ جملةَ: (كانَ في المَدينَةِ) لا محلَّ لها من الإعراب، وفائدة هذه الجملة المستأنفة بيانُ بعضِ مظاهر الشرّ المتأصّل في قبيلة ثمود. وقيل: الواوُ عاطفةٌ عُطِف بها جزءُ القصَّة على جزءٍ منها[4]، فالقصّةُ مشاهدُ، وهذا واحدٌ من مشاهدها، الذي انفردت بذكره (سورة النمل)، ولم يُذكر في سورةٍ أُخرى من السّوَر التي وردت فيها قصَّةُ ثمود.

دلالةُ التعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

تحديدُ محلِّ الوجود يقدّمُ أبعادًا متعدّدةً للقصَّة وأحداثها

عبَّر بـ ﴿فِي﴾ الظرفيَّة للدلالة على استقرارِهم في المدينة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فسد).
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1691.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 358.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 282.

وتمكّنهم منها، وأفاد تشخيصُ محلّهم أنَّهم كانوا يعيشونَ مع صالح ﵇، وليسوا قادمينَ من خارجِها ليتوضّح مدى المعاناة التي كان يُعانيها صالح ﵇ وأتباعُه معهم. و(أل) في ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ للعهد، والمقصود بها حِجر ثمود وديارها، وعبَّر بها قصدًا إلى ديارهم، وقد كانت ديارًا محصَّنة منيعةً محاطةً بالحجارة، ولذلك سُمّيت حِجْرا[1]. وفي إطلاق اسم ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عليها دلالةٌ على أنهم كانوا أهلَ حضَرٍ قريبٍ بعضُهم من بعض، وإنْ تفرَّقوا في ديار، وفي تقديمِ الخبر على المبتدأ ما يفيدُ الاهتمامَ بالمكان وتشخيصِه بشكلٍ دقيقٍ، ومن أجلِ تحقيقِ ترابطٍ بين المبتدأِ المؤخّر وصفتِه كما سيأتي.

دلالةُ العدد ﴿تِسۡعَةُ﴾:

التـعـيـينُ للـمـفـسدين الظالمين نصيحةٌ للمهتدين

يدلُّ تأنيثُ العدد ﴿تِسۡعَةُ﴾ على أنَّ المعدود مذكّرٌ، على معنى: تسعة رجال[2]، وأضاف ﴿تِسۡعَةُ﴾ إلى ﴿رَهۡطٖ﴾، وهو من إضافة الجزء إلى اسم الكلِّ على التوسُّع، وهي إضافةٌ كثيرةٌ في الكلام العربيّ، مثلُ: خمسةُ ذودٍ، واختلفَ أئمّةُ النحو في القياس عليها، ومذهبُ سيبويهِ والأخفش أنَّها سماعيّةٌ[3]؛ ولأنَّه مختلفٌ بينَ علماء النّحو حولَ طبيعةِ الإضافة إلى اسمِ الجمع، وقد ترجَّح لدى عددٍ منهم أنّه جائزٌ إذا كان اسمُ الجمع للقليل لا للكثير؛ فقد اختارَ غيرُ واحد أنَّ إضافة ﴿تِسۡعَةُ﴾ إلى ﴿رَهۡطٖ﴾ هاهنا باعتبار أنَّ رهطًا لكونه اسمَ جمعٍ للقليل في حُكم أشخاصٍ ونحوه من جموعِ القلَّة، وهي يضافُ إليها العدد؛ كـ(تسعة أشخاص، وتسع أنفُس)، وهذا معنى قولهم: إنّ وقوعَ رهطٍ تمييزًا لتسعةٍ، باعتبار المعنى فكأنَّه قيل: تسعةُ أشخاصٍ[4].

(1) الراغب، المفردات: (حجر).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 250.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 282.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.

سرُّ التعبير بالرّهط دون النَّفَر:

التعبيرُ بالرّهط أقوى من التعبير بالنّفر لسببينِ: **الأوّل:** أنَّ معنى (الرّهط) يشعرُ بالاجتماعِ والتوحُّد نحوَ هدفٍ، فالرّهط هم العصابةُ من ثلاثةٍ إلى عشرة[1]، فتعريفُ (الرّهط) بالعصابة أدلُّ على الاتّحاد والتقوّي. **والثاني**: أنَّ الرهط قيل: إنه يدلُّ على العدد من الثلاثة إلى العشرة، أوْ من السَّبعة إلى العشرة، وأما النفرُ فقيل: هو العدد من الثلاثة إلى التسعة[2]. وقال الخليل: إلى السَّبعة[3]. ومعنى هذا أنَّ العدد تسعةً داخلٌ في معنى الرَّهط بلا خلاف، وأمّا دخوله في معنى النّفر فمختلفٌ فيه.

اجتماعُ كلمة الكافرين مفسدةٌ للحياة والدين

دلالةُ موقعِ جملة ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

جملة ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ نعتًا للمعدودِ أوِ العددِ، فتكونُ في موضع جرٍّ أوْ رفع[4] أي: يجوز أن تكونَ هي صفةً إمّا لـ﴿رَهۡطٍ﴾ فتكون في محلِّ جرٍّ، أوْ صفةً لـ ﴿تِسۡعَةُ﴾ فتكونُ في محلِّ رفعٍ، والفرقُ بين الإعرابينِ من حيث المعنى أنَّه إنْ كانت الجملةُ صفةً للتّسعة فإنَّ المعنى أنَّ هؤلاء التسعةَ من بين الرَّهط كانوا يُفسدون ويُمارسون الفسادَ والإفسادَ، وأمّا إن كانت صفةً للرَّهط؛ فإنَّ المعنى سوف يتوسَّع ويكونُ الإفساد غيرَ منحصرٍ في التسعة فقط بل في الرّهط كلِّه؛ لأنَّ التسعة بعضٌ من الرهط وجزءٌ منه، والذي نميلُ إليه أنَّ الجملة صفةٌ للتسعة، الَّذين انفردوا عن الرَّهط بكثرة الإفسادِ في الأرض.

تقييدُ المعاندين تحديدٌ لدرجاتِ المفسدين

دلالةُ التعبير بالإفساد في قوله: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾:

الفسادُ لفظٌ عامٌّ يدلُّ على خروجِ الشيء عن حدِّ الاعتدال

المُغرِقُ في الفسادِ والإفسادِ ممارسٌ له بجميع صوَرِه وأنواعِه

(1) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رهط).
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 372.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهط).
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 623.

والاستقامة، قليلًا كان الخروج عنه أوْ كثيرًا، ويضادّه الصّلاح، ويستعملُ ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، وهوَ أعمُّ من الظُّلم[1]. ولهذا كان التعبيرُ به هنا دالًّا على تنوّع مسالكهم وتعدّد طرقِهم في شتى صور الفساد وأنواع الإفساد.

إذ قوله: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ من (أفسدَ) الرباعيّ، ومضارعه يُفسِدُ، ومصدره (إفساد) وهو متعدٍّ؛ لأنَّ المفسدَ لا يكتفي بفسادِهِ في نفسه عادةً، ولكنَّه يسعى في الأغلبِ إلى إفساد غيره، فضررُهُ مُتعدٍّ إلى غيره؛ إذ يلزمُ من الإفساد الفسادُ في ذاته بخلاف العكس، ومن ثم آثر التعبير صيغةَ الرباعيِّ ليشملَ الفساد الذاتي والمتعدّي للغير؛ وهذا يدلُّ على ممارساتٍ متنوّعة في مجالَي الفساد والإفساد. ويدلُّ لهذا التعبيرُ بالمضارع ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ المفيدِ تكرُّرَ فسادهم وإفسادهم وتجدُّدهما، فهم مستمرّون على ذلك وكأنّهم متفرّغون لهما ولا يحيدون عنهما.

سرُّ التعبير بالظرفيّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المفسدونَ يحرصونَ على نشر فسادهم بينَ العباد والبلاد

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿فِي﴾ هنا إمّا على أصل معناها من الدِّلالة على الظرفيَّة الحقيقيّة، والمظروف هو الأرض فتكون مشيرةً إلى الشمول والسّيطرة والتغلغلِ في جوانب الأرض إفسادًا، فتكون (أل) للجنس، وإمّا أنها ظرفيّةٌ مجازيَّة، بمعنى (على) فتكون (أل) للعهد؛ إذ الإفساد يكون على الأرض لا فيها، فتكون ﴿فِي﴾ مستعارةً استعارة تبعيَّةً لتدلَّ على الاستعلاءِ الذي تفيدُه (على)، فقد شبّه الاستعلاء على الشيء بالدخول في باطنه بجامع التمكّن منه، وكأنّ المفسدينَ في الأرض المقصودينَ في الآية قد بلغوا من علوِّهم فيها أنّهم دخلوا باطنَ الأرض ليُفسدوا فيها ولم يكتفوا بالإفسادِ في أعاليها وفوقَها، مبالغةً في تصوير إفسادهم، وهذه السّيطرةُ وهذا التمكُّنُ يشير

---

(1) الراغب، المفردات: (فسد)، والكفوي، الكليات، ص: 636.

إلى المكانة التي تمتّعوا بها؛ إذ يأمرونَ فيُستجابُ لهم، ويتوعَّدونَ فيُخشى بأسُهم، فغدَوا بذلك حجرَ عثرة أمامَ الدعوة وعَقبةً كَؤودًا في وجه أيِّ أحدٍ يريدُ أنْ يؤمنَ ويستجيب لصالح عليه السلام.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعظيمُ شأن الإفساد بيانٌ لما واجهَه الأنبياء والمصلحون

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد، والمقصود أرضُهم التي كانوا يعيشونَ فيها، وفيها بيوتهم وديارهم وزراعاتهم، فهي "أرض ثمود"[1]، وحينئذٍ يكون سرُّ التعبير عن ديارهم بالأرض تعظيمَ أمر الفساد الذي وقع فيها، فلو أنه وُزِّع على الأرض جميعًا لوسِعَها، ولذلك آثر التعبير بقوله: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون (يفسدون في المدينة)؛ للإشعار بهذا التهويل والتفخيم لشأنِ الإفساد الذي كان يقعُ منهم عليها.

علّةُ تحديد الإفسادِ في الأرض:

تبشيعُ حالهم بالنصِّ على محلّ الإفساد

في قوله: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نصٌّ على كون إفسادِهم واقعًا في الأرض، مع أنّه لا يُتصوَّر في غيرها، والهدف منها: الزّيادةُ في تبشيعِ حالهم لإفسادِهم في الأرض، وذاك بالنصّ على محلّ فسادهم، خصوصًا أنّهم خالفوا حكمةَ اللّه من خَلْقِهم، فاللّه تعالى خلق الناسَ ليَعمروا الأرض لا ليُفسدوها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61] أي: طلبَ منكم إعمارَها، لكنَّكم خالفتم هذا فأفسدتم فيها، فناقضْتُم الحكمةَ مِن خلقِكم فيها. ويضافُ إلى ذلك ما يُفيده قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من عموم إفسادِهم؛ لأنّ الإفساد لا يكون إلا في الأَرْض، فذكرها لتأكيدِ العموم، كقَوْله تَعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 38][2]. وفيه أيضًا تعريضٌ بخفّة عقولِهم وانعدام وعيهم وإدراكِهم؛ لأنَّ العاقل لا يُفسِدُ مكانًا يَحويه ويعيشُ فيه، بل يُعَمِّرُه ويُنمّيه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 112، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 176.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 409.

عطفُ النَّفي على المُثْبَتِ احتراسٌ من عدم استغراقِ المثبتِ جميعَ أحوالهم

دلالةُ عطف النفي في قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

(الواو) عاطفةٌ، عطفَتْ ما بعدَها على ما قبلَها، ومُسوِّغُ العطف بـ(الواو) والوصلِ هو الضدّية، وهو تأكيدٌ لوقوعِ الشيءِ بنفيِ ضدِّه، والغرضُ من عطف النَّفي على الإثبات الاحتراسُ عمّن يتوهّم أنّهم قد يُفسدون في الأرض أحيانًا وقد يكون منهم إصلاحٌ في بعض الأحوال؛ فاحترسَ عن ذلك بنفيِ الإصلاح تأكيدًا لكونِ الإفساد منهجًا لهم وطبعًا فيهم ثابتًا في جميع الأحوال والأوقات، وذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79][1]، فقد أزالَ القرآن الكريم هذا الاحتمالَ عنهم أصلًا، فأردف[2] بقوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، فقطع بذلك الإردافِ كلَّ احتمالٍ عنهم في وقوع الإصلاحِ منهم، ولو على سبيل النُّدرة، أوْ حتى مختلطًا بإفساد. قال الزمخشريُّ في تبيين المناسبة بين الجملتين: "فإنْ قلتَ: ما فائدةُ قوله ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؟ قلتُ: فائدته أنّ فسادَهم فسادٌ مُصمَتٌ ليس معه شيءٌ من الصَّلاح، كما تكونُ حالُ بعضِ المفسدينَ مخلوطةً ببعض الصَّلاح"[3].

استمرارُ انتفاء الإصلاح وتجدُّده دالٌّ على عتوٍّ عظيم وإفسادٍ كبير

دلالة التعبير بالفعل المضارع:

وعبَّر بالفعل المضارع في نفيِ وقوع الإصلاح منهم فقال: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ للدلالة على استمرارِهم على عدم الإصلاح، وأنهم كما يجدِّدون دائمًا نشاطهم في إيقاع الإفساد، فإنهم كذلك يجدّدون معه حرصَهم على ألا يقعَ منهم إصلاحٌ أبدًا، ولو كان مشوبًا بالإفساد، وذلك "أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح؛ كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 176.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 328.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 372.

دلالة النفي في ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

نفي وقوع الإصلاح منهم مطلقًا في الحال والمآل

(لا) في قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ نافيةٌ، ونفيُ المضارع بها دالٌّ على نفي الحال والاستقبال، فهي غيرُ مقيدة بزمنٍ على الراجح[1]، وعلى هذا فالنفي بها في الآية يدلّ على نفي وقوع الإصلاح منهم مطلقًا حالًا ومآلًا، و"ذلك أن الإنسانَ قد يُفسِد في شيء، ويُصلح في شيء، إنّما هؤلاء دأبهم الفساد، ولا يأتي منهم الصَّلاحُ أبدًا"[2].

بلاغةُ التتميمِ في قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

التتميم دالٌّ على استغراقِ الإفساد وعدمِ وقوع صلاحٍ منهم أبدًا

في قوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بعدَ قوله: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما يعرفُ بفنِّ (التتميم)، حيث أتى بهذه الزيادة ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ لإفادة أنه لا يقعُ منهم إصلاحٌ أبدًا؛ لأنَّ إثبات الإفسادِ لا يَنفي وقوعَ الإصلاح، فأتى بهذه الزيادة ليدلّل بها على عدم تلبُّسهم بما يسمَّى إصلاحًا مطلقًا. وذكرَ ابنُ عاشور وغيره أنَّ ذلك من باب الاحتراس، فقال: وعطف (لا يصلحون) على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ احتراسًا للدلالة على أنهم تمحَّضوا للإفساد، ولم يكونوا ممَّن خلطوا إفسادًا بإصلاح[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

المدينة والقرية:

القرية تقالُ باعتبار الاجتماع، والمدينةُ باعتبار الإقامة

القرْيَة: الأَبْنِيَة الَّتي تجمعُ النّاسَ، من قَوْلهم: قريتُ الماء في الحَوْض إذا جمعتَه، فإنْ عُبِّر بها فالمراد الاجتماعُ، وقد يعبَّر بها إذا كان المقام مقامَ ذمٍّ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، وذلك أنَّ مادة

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 206.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10654.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 282. والفرق بين: (الاحتراس، والتتميم): هو أن الاحتراس يكون لرفع إيهام خلاف المقصود، وأما التتميم فإنه يكون في كلام لا يوهم خلاف المقصود، ينظر: الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 50.

(قرا) تدورُ على الجمع الذي يلزمُهُ الإمساك[1]. ولمّا كان المقام غيرَ ذلك وإنما هو مجرّدُ الإخبار عن سبب إقامةِ الجدار، عبَّر عنها نفسِها بالمدينة فقال في نفس السورة: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82] فالمدينةُ هي الأبنيةُ التي تجمع الناسَ أيضًا لكنْ باعتبار الإقامة، فكان التعبيرُ بها أليق للإشارة به إلى أنَّ الناس يقيمونَ فيها، فينهدمُ الجدار وهم مقيمونَ فيأخذونَ الكنز[2]. وعلى ذلك فالتسميةُ بالقرية أوِ المدينة إنما يُراعى فيه الغرضُ ويحكمُهُ السّياق، فيقال: قرية أوْ مدينة بحسب الاعتبار وبحسبِ السّياق. وفي إطلاق اسم ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ في آية النمل ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على ديار ثمودَ دلالةٌ على أنهم كانوا أهلَ حضرٍ قريبٌ بعضُهم من بعض، وإنْ تفرَّقوا في ديارٍ، وفي تسميتها بذلك إشعارٌ بسهولة اجتماعهم في أيِّ وقت، واتفاقهم على الإفساد ووسائله. فمن هذه الوجهة أوثر التعبير بالمدينة دون القرية أو البلد.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 113.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 122.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾ [النمل: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكر مظهرٍ من مظاهر إفسادِهم وسوءِ تدبيرهم

بعد أنْ ذكر القرآن الكريم خبرَ الرّهط التسعة، ووصفَهم بالإفساد المطلق، ونفى عنهم الإصلاحَ من كلِّ وجه، انتقلَ بعد ذلك ليذكرَ على وجه التفصيل شيئًا ممّا كان منهم، ومظهرًا من مظاهر إفسادِهم وسوءِ تدبيرهم ضدَّ نبيِّهم ﷺ، فقال: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقَاسَمُواْ﴾: (قسم) أَصْلانِ صَحيحانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى جَمالٍ وحسنٍ، والآخَرُ عَلَى تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[1]. والقَسَمُ: الحَلِفُ واليَمينُ، يُقال: أَقْسَمْتُ بِاللّٰه قَسَمًا وإقْساما، أي: حَلَفْتُ، وتَقاسَمَ القَوْمُ، أيْ: تَحالَفوا. وقيلَ: أَصْلُ القَسَمِ مِن القَسامَةِ، وهي: الأَيمانُ تُقْسَمُ وتوَزَّعُ على أَوْلياءِ المَقْتولِ[2]. والمراد بالقسَم في الآية: الحَلِفُ، ولفظُ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ يصلحُ أنْ يراد به مثالُ الماضي، بمعنى: تحالَفوا، ويصلحُ أنْ يراد به مثالُ الأمر، بمعنى: احلفوا[3].

2) ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: أصلُ (بيت) المأْوى والمآبُ ومجمَعُ الشَّمْلِ، يُقالُ: بَيْتٌ وبُيوتٌ وأَبياتٌ، وبَيَّتَ الأَمرَ إذا دَبَّرَهُ ليلًا[4]. والبَيّوتُ: الأَمرُ يُبيِّتُ عليه صاحبُه مُهتمًّا به[5]. والبَياتُ والتَّبييتُ: أَنْ تأْتي العدوَّ ليلًا، كأنَّك أخذتَهُ في بيته، فالتَّبييتُ لا يكونُ إلّا لقصْدِ غَدْرٍ. وقد روي عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (قسم).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 260.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).

أبي عبيدةَ أنَّه قال: بُيِّتَ الشَّيءُ إذا قُدِّرَ، ويُشبَّه ذلك بتقديرِ بُيوتِ الشِّعْرِ. وهذا ليس ببعيدٍ من الأصلِ[1]. والمقصود بالتَّبييتِ والبَياتِ في الآية: مُباغتةُ العدوِّ ليلًا، وعكسُه التَّصبيحُ: الغارةُ في الصَّباحِ[2].

3) ﴿مَهْلِكَ﴾: (هلك) أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[3]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ، هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا: إذا ماتَ، فهو هالِكٌ[4]، والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[5]، والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبتُهُ إلى الهَلاكِ[6]، وتُطلَق أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِه، وعلى مَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيث لا يُدْرَى أينَ هو[7]. والمَهْلِكُ: مصدرٌ ميميٌّ من أَهلَكَ الرُّباعيِّ، وهو المرادُ في الآية، أي: شَهِدنا إهلاكَ مَن أَهلَكَهُم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤامراتُ الدنيئة مــن الكـفـرة على أنبياء الله وعبادِه المؤمنينَ مُستمرّة

قال التِّسعةُ المُفسِدونَ في الأرضِ بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللّهِ وتعاهَدوا على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، وبعدَ أنْ نقتُلَ صالحًا وأهلَه خُفيةً نقولُ لِقَريبِ صالحٍ الذي له حَقُّ المطالَبةِ بدَمِه: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنّا لَصادِقون في ذلك![8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ موقعِ جملة: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾ ممّا قبلها:

شبـهُ كـمال الاتـصـال مـسـتـلـزمٌ لـلـتـفـاعل مع الخطاب

جملةُ ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾ هي جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبلها، مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، لكونها جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر، فإنه: "لما اقتضى

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 283.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).

(4) الجوهري، الصحاح: (هلك)، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 6/ 1935.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 82.

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).

(7) المطرزي، المعرب: (هلك).

(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 92، والسمرقندي، بحر العلوم: 2/ 586، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 251.

السّياق السؤالَ عن بيان بعضِ حالهم، أجابَ بقوله: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾"[1]؛ فبينَها وبينَ التي قبلَها شبه كمال اتِّصال.

دلالةُ التعبير بـ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ صيغةً:

أثر الدلالة الصّرفية في العلاقات التركيبيّة

في قوله: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ من حيث صيغتُه احتمالانِ:

الأوّل: أنّه فعلُ أمرٍ؛ أي: أمرَ بعضُهم بعضًا، أوْ أمرَهم بعضُهم - وهم القادة أوْ أحدهم - بالتقاسُم باللّه، فقالوا: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: احلِفوا باللّه... فهو على ذلك: "أمرٌ من التقاسُم أي: التحالف وأداء اليمين الصّادقة، وقعَ مقولَ القولِ، وهو قولُ الجمهور"[2].

الثاني: جوازُ أنْ يكون فعلًا ماضيًا، على معنى الحكاية والإخبار، وقعَ بدلا من ﴿قَالُواْ﴾، أوْ حالًا من فاعله، بتقدير (قد) أوْ بدونها؛ أي: قالوا متقاسمينَ، ومقولُ القول على هذا هو ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾، وجوَّز أبو حيان على هذا أن يكونَ ﴿بِٱللَّهِ﴾ من جملةِ المقولِ[3]. وهذه الصيغةُ الصّرفيّة (تفاعلَ) تدلُّ على المشاركةِ في الفعل، فـ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ بمعنى: تشاركوا في القسَمِ ولا يتخلّفْ أحدٌ منكم عن أدائِه والعملِ بمضمونِه، ولذا عدلوا عن أمرِ الفعل الثلاثيِّ (اقسموا باللّه).

دلالة التعبير بـ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ مادّةً:

التعبيرُ بالقَسَم أبلغُ من الحلف

عبَّروا بمادّة القسم في قولهم: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولم يَستعيضوا عنه بمادة الحلف؛ لكونِ التعبير به - أي بالقَسَم - أبلغَ وأشملَ من التعبير بالحلف؛ لأنَّ معنى قولنا: أَقْسَمَ باللّه، أنَّه صار ذا قسمٍ باللّه. والقسمُ النصيبُ، والمراد أنَّ الذي أقسمَ عليه من المال وغيره قد أحرزَه، ودفعَ عنه الخصمَ باللّه. وأمّا الحلف فمن قولك: سيفٌ حليف، أي: قاطعٌ ماضٍ؛ فإذا قلتَ: حلفَ باللّه، فكأنك قلتَ: قطعَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 177.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 207، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 623.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 207، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 623.

المخاصمةَ باللّه. فالأوّلُ أبلغ؛ لأنه يتضمّن معنى الآخر مع دفع الخصم؛ ففيه معنيان، وقولنا: حلفَ يفيدُ معنًى واحدًا[1]. كما أنَّ القسم يستعملُ في اليمين الصّادقة، بخلاف الحلف الّذي يكون في الكذبِ غالبًا، فقد أردوا أنْ يكونَ يمينُهم باللّه قائمًا على الصِّدق حتى يُباشروا بتنفيذه إجرامًا وتصميمًا على السّوء.

دلالة إسناد القول إلى التسعة في قوله: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾:

القولُ الجماعيُّ دليلُ اتِّفاق كلمتهم على الإفساد

القول هنا وهو: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾ إما أن يكونَ قد وقع من جميعهم؛ والمعنى: قال بعضُهم لبعضٍ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾، أوْ أنْ يكون قد وقع من بعضهم والباقونَ مُستمعونَ مأمورونَ، على معنى: فقال قائلُهم أو بعضُهم: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾، "وهو يريدُ شمولَ نفسه؛ إذ لا يأمرُهم بذلك إلا وهو يريدُ المشاركةَ معهم في المُقسَم عليه، كما دلَّ عليه قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾، فلمّا قال ذلك بعضُهم، توافقوا عليه وأعادوه، فصار جميعُهم قائلًا ذلك، فلذلك أُسند القول إلى التسعة"[2]. وفي ذلك دلالةٌ على اتفاق كلمتِهم واجتماعِهم على هذا التدبير السَّيِّئ والتصرُّف الأهوج.

دلالة الأمر في قوله: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾:

الأمـرُ بالقسم قُصد به تأكيدُ تنفيذِ ما عزموا عليه

على القول بأنَّ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعل أمر كما تقدَّم؛ فقد دلَّ هذا الأمر الذي وقع منهم آمرينَ به بعضَهم بعضًا على كونهم قد عزَموا كلَّ العزم على ما أرادوا من قتلِ صالحٍ عليه السلام، حتَّى أكَّدوه بفعل القسم الَّذي به يُؤَخَذَ العهد على جميعِهم فلا يتخلّفُ عنه أحدٌ منهم، فلم يقولوا: (بيِّتوا إهلاكَه وإهلاكَ أهله)، بل قاموا بالتقاسم على ذلك الفعل المقيت إنجازًا لما تعاهدوا عليه وتوافقوا على صنيعِه.

دلالةُ التعبير بمتعلّق القسم ﴿بِٱللَّهِ﴾:

قولهم: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ يدلُّ "على أنَّهم كانوا يعترفون باللّه

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 282.

ولكنَّهم يشركون به"[1] بمعنى أنَّهم يُقرّونَ بخالقّيته سبحانه لهم وللسَّماوات والأرض وما فيهما؛ لكنّهم لا يوحّدونه، بل يعبدونَ من دونه آلهةً أخرى يعتقدون أنها تنفع وتضرّ، وهذا شأنُ المشركين في كلّ وقت، وكانت هذه عادةَ الأقوام وموقفَهم من اللّه تعالى؛ وهي الإقرارُ في أنفسهم بكونه الخالق، مع إنكارٍ لوحدانيّته، وللبعثِ بعد الموت، وتكذيبٍ وجحودٍ للأنبياء عليهم السلام.

التقاسمُ بالله إقرارٌ بوجوده ربًّا وخالقًا

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ هي لامُ القسم التي تدخلُ على جوابه، فتفيدُ تأكيدَ إيقاع الجواب، وهو المقسَم عليه، وجملةُ الجواب: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وهي جوابُ قسم ظاهر إذا جعلتَ ﴿بِٱللَّهِ﴾ داخلًا في مقول القول، وإلا فهي جوابُ قسم مقدَّر[2]، والغرضُ من هذا التوكيد بيانُ أنّهم عازمونَ على تنفيذِ اغتيالهم لصوتِ الحقِّ والحقيقة.

(اللام) في جواب القسم المؤكّدة تصريحٌ بمدى إرادتهم التنفيذ

سرُّ التعبير بـ(التبييت) في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ دون غيره:

عبَّروا بقولهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ دون (لنقتلنَّه) أوْ ما يقومُ مُقامه؛ لأنَّهم قصدوا أنْ يقتلوه غدرًا وغيلةً حتى لا يلاحقَهم وليُّ دمه، وأنسبُ الأوقات للغدرِ هو اللّيل البهيم المظلمُ؛ لأنهم أقدرُ فيه على التخفّي أثناءَ الإقدامِ على قتلِه وأهلَه، ثمّ على الفرار قبل أن يراهم أحدٌ فيُلاحقَهم، فكان التعبير به كنايةً عن قتله غدرًا وخفيةً، وهكذا يقالُ عن كلِّ مدبَّر تدبيرًا خبيثًا ماكرًا: هذا أمرٌ بُيِّت أوْ دُبِّر بليل، وفي هذا السّياق يأتي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [النساء: 81]، وقوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء:

التبييتُ كنايةٌ عن القتل غَدْرًا وغيلةً

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 283.

(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 362.

108]. قال ابن عاشور: "التبييتُ والبياتُ: مباغتةُ العدوّ ليلًا، وعكسُهُ التصبيح: الغارةُ في الصَّباح، وكانَ شأنُ الغارات عند العرب أن تكونَ في الصباح، ولذلك يقولُ مَن يُنذِرُ قومًا بحلول العدو: (يا صباحاه)، فالتبييتُ لا يكون إلا لقصدِ غدرٍ، والمعنى: أنهم يَغيرون على بيته ليلًا، فيقتلونه وأهلَه غدرًا من حيثُ لا يُعرفُ قاتلُه، ثمَّ يُنكرون أنْ يكونوا هم قتلوهم ولا شهِدوا مقتلَهم"[1].

تعاضُدُ المؤكدات دالٌّ على شدّة العزم والإصرار على تنفيذ مرادِهم

دلالةُ التأكيد والغيبة في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾:

قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ مؤكّدٌ باللّام التي هي لامُ القسم الداخلةُ على جوابه، وفائدتها تأكيدُ إيقاعِ الجواب، ثمّ أكّد المضارعَ كذلك بـ(نون التوكيد الثقيلة)، وتعاضدُ المؤكّدات من القسم ولامِه ونونِ التوكيد الثقيلة دالٌّ على قوّة عزمهم وإصرارهم على قتله عليه السلام هو وأهلَه. وإنما عبَّر بضميرِ الغَيبة في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ دونَ التصريح باسم صالح عليه السلام، لكونه معلومًا، فهو المعهود في الكلام ولا أحدَ سواه، وعدمُ التصريح باسمه امتهانٌ منهم له عليه السلام.

مشاركةُ المتكلّمين للمنفّذينَ رغبةٌ ملحّةٌ على التنفيذ الجماعيّ

دلالةُ تعدُّد القراءات في: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ وأثرُ ذلك في المعنى:

في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ قراءتانِ؛ فقد قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ونافعٌ وابنُ عامر وعاصمٌ بالنون هكذا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بنون التكلُّم، والدلالةُ في ذلك أن يكونَ المتكلمونَ قد أدخلوا أنفسَهم مع المقسِمين، أي: نحن جميعًا سنقومُ بذلك ونشتركُ فيه قولًا وفعلًا. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف العاشر ﴿لَتُبَيِّتُنَّهُۥ﴾ بتاء الخطاب وضمِّ التاء الثانية[2]؛ وذلك على إرادة الخطاب، فكأنَّ مخاطبًا خاطبهم فقال: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أي: تحالفوا ﴿لَتُبَيِّتُنَّهُۥ﴾، فأتى بالتاء دلالةً على خطاب الحضرة، وأُسقطت نونُ الرفع، وواوُ الجمع لالتقاء السّاكنين[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 283.
(2) ابن الجزري، النشر: 1/ 236.
(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 394، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 272، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 624.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ هي واوُ العطف، عطفتْ ما بعدها على ضميرِ المفعول قبلَها في قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ ولهذا نُصِب، ويجوز أنْ تكون الواو للمعيَّة، فيكون النصبُ لأجلها[1]، وإنما عطفوا أهلَه عليه حتى لا يكونَ هناك شاهدٌ على مسرح الجريمة يُخبر عنهم؛ والظاهر أنّ الغادرين التسعةَ كانوا معروفينَ لدى أهل بيتِ صالحٍ عليه السلام، وأرادوا التخلّصَ منه ومن الشّاهد فلا يقعونَ تحت طائلةِ الانتقامِ من عُصبته وجماعتِه المؤمنين به، وقد تناسَوا وتغافلوا عن اللّه تعالَى الذي أقسَموا به أنّه شهيدٌ على فعلِهم وإجرامِهم.

التخلُّصُ من الشّاهد الدنيويِّ مُتناسين أنَّ الله شاهدٌ عليهم وهم يُقسمونَ به

سرُّ التعبير بالأهل دونَ الآل:

أوثِر التعبير بـ(الأهل)؛ لأنهم أرادوا أهلَه الذين يعيشونَ معه ويُساكنونَه وقد اتّبعوه وآمنوا به، ويَحتمِل أنْ يرادَ بالأهل مجموعُ مَن آمنَ به، أي: أتباعُه الذين هم على دينه، وأهل الرجل في الأصل كما يذكر الراغب: هم مَن يجمعُهُ وإيّاهم مسكنٌ واحد، ثم تُجوّز به فقيل: أهلُ الرجل لمَنْ يجمعُهُ وإيّاهم نسبٌ أوْ دين[2]، لكنه احتمالٌ يضعفُ في الآية؛ لأنّهم لو أرادوا به الجماعةَ المؤمنةَ كلَّها ما احتاجوا أن يَغدروا به ليلًا، ويقولوا بعد ذلك: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾. وأمّا (الآل) فإنّه يستعملُ مع الأشرافِ خاصّةً شرفًا دنيويًّا أوْ أُخرويًا، ففي عدولهم عن (الآل) إلى (الأهل) امتهانٌ آخرُ، واحتقارٌ منهم لأهلِ بيتِه الّذين يساكنونَه في البيت. وفي الإضافة إلى ضميره تخصيصٌ لهم به وامتهانٌ آخر.

الخطاب قائمٌ على الامتهان والازدراء لصالح عليه السلام وأهله

دلالةُ التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الواو:

يدلُّ التعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ على التراخي الزمنيّ، فيُشعر التعبيرُ بها

التراخي الزمنيّ للتّملّص من جرمهم

---

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 362.

(2) الراغب، المفردات: (أهل).

أنهم قصدوا أنْ يبتعدوا عن الحدَث مدَّةً زمنيّةً ومسافةً مكانيّةً، تسمحُ لهم بعد أنْ يظهروا مرةً أخرى بادّعاء البراءة من مقتلهم. كما تفيد ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ عملية البحثِ عن الجناة سوفُ تستغرقُ زمنًا طويلًا؛ لأنَّ قتله وأهلَه من دون إبقاء شاهدٍ على الجريمة يؤخِّر الاتهامَ لهم، مع دلالةٍ في ﴿ثُمَّ﴾ على تضعيفِ توجيه الاتهام لهم أصلًا، فلو وُجِّه لهم ذلك بعدَ مدةٍ طويلة فيقولونَ ما اتفقوا عليه.

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾:

تـوالي المؤكـدات مـشيرٌ لـرغبـةٍ جـامـحـةٍ على التنفيذ للجريمةِ النّكراء

(اللّام) في قوله: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ هي لامُ القسم، كاللّام في ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾، وتوالي الأقسام دلالةٌ على قوّة الإصرار والعزم على تنفيذِ ما يتّفقون عليه من جريمة نكراء وفعل شنيع، والاستعدادِ لمواجهة أيِّ مصاعبَ من شأنها أنْ تعوقَ هذا التنفيذ أوْ تقعَ عقيبَهُ. كما أُكّد فعلُ القول بنون التوكيد الثقيلة، وكلُّ ذلك لتأكيد إصرارهم وعزمهم على تبرئة أنفسِهم أمامَ وليِّ الدم، بكلِّ صرامةٍ وقوّةٍ وجدّيَّة، ما لو تمَّ توجيهُ أصابع الاتهام إليهم، في قتل صالحٍ ﵇ وأهلِه. وكان اختيارُ المضارع المحفوفِ بأداتي التوكيد المشعِرِ باستمرار هذا الفعل؛ أنهم مُصرّونَ على تكرار هذا القول وعدم الرُّجوع عن فحواه.

سرُّ التعبير بالقول في قوله: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾:

الـحـوار المباشر مع أولـيـاء دمِ المقتول

اختير التعبيرُ بالقول في قولهم: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ دونَ غيره، فلم يقولوا: (لَنُعلمَنَّ أوْ لَنُخبرَنَّ)؛ لأنَّ كلًا من الإعلام والإخبار إنّما يتمُّ بالواسطة، وهم قاصدونَ الحضور والمباشرة، لإيهام أنَّهم واثقونَ في براءتهم من دم صالحٍ وأهلِه، فاختاروا فعلَ القول الدالِّ على المساجلة والمقاولة المباشِرة دونَ واسطةٍ.

دلالةُ تعدُّد القراءات في قوله: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ وأثرُ ذلك في المعنى:

اختلفَ القرّاء في قراءة ﴿لَنَقُولَنَّ﴾؛ فقرأها ابنُ كثير وأبو عمرو

المنفِّذونَ هم المتفقونَ على التخلُّص من الاتهامات

ونافعٌ وابنُ عامر وعاصمٌ بالنون. وقرأها حمزةُ والكسائيُّ وخلف العاشر بتاء الخطاب وضمِّ اللام: ﴿لَتَقُولُنَّ﴾[1] والاختلاف هنا مترتبٌ على الاختلاف في قراءة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾؛ فمَن قرأها بنون المتكلّمين قرأ ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ كذلك، ومَن قرأ الأولى بتاءِ الخطاب قرأ الثانية كذلك، لتناسُقِ الأفعال وتوافقِها صيغةً ودلالةً، وفي هاتينِ القراءتين بيانٌ واضح على أنَّ المتكلّمين هم المُنَفِّذون، وأنَّ المنفذين هم المتفقونَ على ما ينبغي قولُه عندَ توجيهِ الاتهام لهم، سواء قرئ بالنون أو بالتاء؛ لأنَّ المخاطِبَ لهم واحدٌ منهم.

دلالةُ التعبير بقوله: ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ دونَ (أهله) كما سبق:

الولي هو العَصَبة الذّكَر الأقربُ إلى القتيل من سائرِ الأهل

المقصود بـ(الوليّ) هو وليُّ الدّم، الذي يكون من حقّه المطالبةُ بالدم، وهو المَعْنيُّ بقوله سبحانه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: 33] وهو أقربُ الناس إلى القتيل، ويكونُ من الذكور دون الإناث[2]. ووليُّ صالح عليه السلام، هم أقربُ القوم له، إذا راموا الأخذَ بثأره[3]. ولأجل ما في التعبير بالوليِّ من دلالةٍ على شدَّة القرب، أوثر على التعبير بـ(الأهل)، فالوليُّ هو العصبةُ الذكَر الأقرب إلى القتيل من سائر القرابة، وقد يكونُ الوليُّ من أهل بيته الَّذين يُساكنونه أوْ أهلَه الذين لا يعيشونَ معه في بيتِه، وسواءٌ كان وليُّ الدم مؤمنًا بصالح عليه السلام أوْ كافرًا به؛ لأنَّ الرضا بقتل أحدِ أفراد العشيرة دون الأخذِ بثأره أوْ ديَته معيبٌ عند العرب الأُصلاء، فكان التعبير بالوليّ هنا دليلًا على أنَّ المراد بأهله السابقي الذكر هم أفراد بيته الّذين يُساكنونه البيتَ؛ فإنْ قُتلوا جميعًا فلا يمكنُ أنْ يكون الوليُّ واحدًا منهم، ولذا عدلَ عن الأهل إلى الوليّ؛ لإثباتِ المغايرة بين الأهلِ الواردينَ في معرض الإهلاك، والوليِّ من الأهلِ

(1) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 394.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 254.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 283.

الباقينَ على قيد الحياة. بقي أنَّ الإضافة في قوله: ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ هي إضافةُ تخصيصٍ، فيها امتهانٌ لوليِّه أيضًا.

سرّ النّفي بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾:

الدقةُ في نفي الاتهام دليلُ الحذاقة الجماعية في الإفساد

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ نافيةٌ، وهي الأنسبُ من بين أدوات النّفي هنا، فهي تأتي في نفي اتِّهام أو نسبةِ فعلٍ بقوّة لَمن لم يفعل، فإنّه إذا قيل: "لقد فعل فإنَّ نفيه: ما فعلَ؛ لأنَّه كأنَّه قال: واللّه لقد فعلَ فقال: واللّه ما فعلَ"[1]، فقد دلَّ النفيُ بها على أنهم اتّفقوا في حال أنّهم سُئلوا من وليِّ الدم: لقد قتلتُم صالحًا وأهلَه أنْ يقولوا: (ما شهدنا هلاكهما)، فسلّطوا النّفي على المشاهدة، لا على القتل؛ ليكون أبلغَ في التبرئة؛ لأنّهم إذا لم يشهدوا الهلاك، فبالأحرى أنّهم لم يقتلوا؛ فلهذا كان أبلغَ في النّفي فيما لو اتفقوا على القول في جوابه: ما قتلْنا. وأيضًا هو أبلغُ من نفي الحضور فيما لو قالوا: ما حضرنا؛ لأنَّ الحضور يقتضي التواجدَ في محلّ الحدث، أمّا المشاهدة فلا تحتاج إلى هذا الحضور؛ لأنها يمكن أن تتم من بُعد بحسب مدى الرؤية، فمن هذه الجهة كان نفي المشاهدة أبلغَ من نفي الحضور كذلك. ودلّ التعبير بالجمع في قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ على اتفاقهم مع بعضهم وإجماعِهم على هذا القول، ما لو وجَّه أحدٌ الاتهامَ إليهم بالقتل، فهم على هذا القول متَّحِدون، وفي التخطيط حاذقون.

سرّ التعبير بـ: ﴿مَهْلِكَ﴾ دون مَقتَل:

نفيُ اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم

آثروا التعبير بـ﴿مَهْلِكَ﴾ دون (مقتل) مبالغةً في التعمية، وكأنهم لا يعرفونَ نوعَ الهلاك الذي جرى لهم، ولو قالوا (مقتَل) لعيّنوا نوعه، فصاروا في دائرة الاشتباه. كما أنَّ الهلاكَ من لوازم القتل، ونفيُ اللّازم يستلزمُ نفيَ الملزوم، فيكون أبلغَ في الانتفاء وأعمقَ في

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

التصوير؛ فإنهم إذا لم يشهدوا هلاكَهم فإنهم بالتأكيد لن يعرفوا مَن قتلهم أوْ جنى عليهم.

دلالةُ تعدُّد القراءات في قوله: ﴿مَهۡلِكَ﴾:

أثرُ القراءات في ثراء المعنى

في قوله ﴿مَهۡلِكَ﴾ ثلاثُ قراءات، هي كما يلي:

قرأ الجمهور: ﴿مُهۡلَكَ﴾ بضمّ الميم وفتح اللّام مِن: أَهْلَكَ، وقرأ حفص: ﴿مَهۡلِكَ﴾ بفتح الميم وكسر اللّام، وقرأ أبو بكر: ﴿مَهۡلَكَ﴾ بفتحهما.

فأما القراءة الأولى: ﴿مُهۡلَكَ﴾ فتحتملُ المصدرَ والزّمان والمكان، أي: ما شهدنا إهلاكَ أهلِه، أوْ زمانَ إهلاكِهم، أوْ مكانَ إهلاكِهم، ويلزم من هذينِ أنّهم إذا لم يشهدوا الزمانَ ولا المكان؛ أنْ لا يشهدوا الهلاكَ نفسَه.

وأمّا القراءةُ الثانية: ﴿مَهۡلِكَ﴾ فالقياس يقتضي أن يكون للزمان والمكان، أي: ما شهدنا زمانَ هلاكهم ولا مكانه. والثالثة: ﴿مَهۡلَكَ﴾: يقتضي القياس أنْ يكون مصدرًا، أي: ما شهدنا زمانَ هلاكهم ولا مكانه. والثالثة: يقتضي القياس أنْ يكون مصدرًا، أي: ما شهدنا هلاكَه[1].

ومن بلاغة القراءات هنا أنهم نفوا عن أنفسهم دلالة الزمان والمكان والمصدر إمعانًا منهم في دفع الجريمة عن أنفسهم؛ فديدن الكاذب أنه يكثر من الحلف، ويبالغ في النفي.

سرُّ ذكرِ هلاك أهله دونَ ذكر هلاكِ صالحٍ معهم:

نفيُ قتل الأهلِ مبالغةٌ في نفي قتله بالأوْلى

نصّوا في قولهم: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ على عدم شهود قتل أهل صالح دونَ النصِّ على مهلكِه هو عليه السلام، مبالغةً في نفي قتلهم إيّاه كذلك؛ فهو مفيدٌ بالأوْلى "نفيَ قتلِهم صالحًا عليه السلام أيضًا؛ لأنَّ

(1) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 395، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 251، وابن الجزري: النشر: 1/ 236.

مَن لم يقتل أتباعَه كيف يقتلُه؟ وقيل: في الكلام حذفٌ أي: (ما شهدنا مهلكَ أهله ومهلكَه)، وفي حذفه أيضًا ما يبعدُ الشُّبهةَ عنهم أيضًا؛ واستظهر أبو حيان توجيهَ الحذف ثمَّ قال: وحذفُ مثلِ هذا المعطوف جائزٌ في الفصيح، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81] أي: والبرد"[1].

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّا﴾:

احتمالاتٌ ودلالاتٌ تدلُّ على مبالغتهم في الكذب

(الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ للاستئناف، والجملةُ بعدَها مستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، لغرض تقرير أنّهم صادقونَ في تبرئةِ أنفسِهم وتأكيدِه، ويحتمل أن تكون للحال، أي: نقولُ ما نقولُ، والحال إنّا لصادقونَ في ذلك؛ لأنَّ الشاهدَ للشَّيء غيرُ المباشِر له عُرفًا[2]. أو تكون للعطف، أي: عطفتْ جملةَ (إنا لصادقون) على الجملة قبلها: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ فتكونُ من تتمّة القول، على معنى: ﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ولنقولنَّ: (إنا لصادقون).

أوْ على تقدير: "ونحلفُ (إنا لصادقون) إشارةً إلى أنَّه معطوف على قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾، فهو من جملة المقسَم عليه"[3].

نكتة تعدّدِ المؤكّدات في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

براعةُ الجواب لإقناع وليّ الدم ببراءتهم من قتل صالحٍ وأهلِه

أُكِّدت جملة: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ بعددٍ من المؤكّدات هي: تصدير الجملة بـ (إنَّ) التوكيديّة، واسميّة الجملة، ثم دخولِ اللّام المزحلقةِ المؤكّدة على الخبر، وأخيرًا جعلُ الخبر اسم فاعلٍ مرادًا به الصفة المُشَبَّهة (صادقون)؛ ليكون أدلَّ على ثبوتِ الصِّدق لهم، وأنَّ اسمَ الصّادقين قد صدقَ عليهم لبروزه، وكونه فيهم سجيَّةً وطبعًا. وغرضُ هذه المؤكِّدات جميعها زعزعةُ وليّ الدم عن موقفِه في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 207.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 451.
(3) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 51.

تكذيبِه لهم واتِّهامهم بقتل صالح ﷺ وأهله، ومحاولةُ إقناعِه بأنهم بُرَآء منه، وذلك أنهم واثقونَ في أنّهم حالَ إقدامهم على ما عزموا عليه والنجاحِ في تنفيذه، لنْ يحارَ وليُّ الدم في البحث عمَّن قام بالقتل، وأنّه سيقوم بتوجيهِ الاتهام إليهم حتمًا، ولذلك جعلوا من أساليبِ صرفِ التُّهمة عنهم أنْ يتفقوا على ما يفعلون ليلًا، وعلى ما يقولونَ من كلامٍ نافٍ للشُّبهة عنهم.

دلالة عدم ذكر القسم مع قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

القسم إما مقدَّر، أوْ مُستغنىً عنه بتوالي المؤكِّدات في الجملة

مضى ذكرُ أحدِ احتمالات هذه الجملة، وهو أن تكون معطوفةً على الجملة قبلها: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾، وعلى هذا يكون فعلُ القسم مقدَّرًا، أي: ونحلفُ (إنا لصادقون) كما حلفنا على عدم الشهود، فيكون من جملة المقسَم عليه[1] أو: ونقولُ في جملة القسم تأكيدًا للقسم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فيا للعجبِ من قوم إذا عقدوا اليمين فزعوا إلى اللّه العظيم، ثمَّ نفروا عنه نفورَ الظَّليم، إلى أوثانٍ أنفعُ منها الهشيمُ[2].

وإنْ جُعلت الجملةُ استئنافًا أوْ حالًا - بناءً على الاختلاف في معنى الواو كما سبق - فيكون تعاضد المؤكِّدات وتعانقُها في الجملة مغنيًا عن ذكر القَسَم، فالقسَم إنّما يؤتى به للتأكيد، وهو ما قامتْ به المؤكِّدات المتوالية فأغنتْ عنه.

دلالةُ التعبير بـ(الصدق) في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ دون غيره:

للكذب أماراتٌ مهما احتالَ الكاذب في تمويهِه

الصّدقُ ضدُّ الكذب، وكلاهما إنّما يكونُ في الأقوال[3]، ويبدو أنَّ هاجسًا كان يهجسُ لهم في نفوسهم بأنَّ وليَّ الدم لن يُصدِّقهم؛ لأنَّ التصديقَ والتكذيب إنّما يكون بأماراتٍ لا بادِّعاءات، وللكاذبِ هزّةٌ في كلامِه تشعرُ بارتعاشِه مهما حاولَ أنْ يُظهرَ صدقَه. وهذا

(1) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 51.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.
(3) الراغب، المفردات: (صدق).

ما بدا في قولِ إخوة يوسفَ عليه السلام لأبيهم، لمّا ادَّعوا كذبًا على يوسفَ بأنّه قد أكلَه الذئب: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17] فالكاذبُ الّذي يحاولُ إثباتَ أنَّه صادقٌ مهما حاول تأكيدَ صدقِه بالقول، فإنّه يظهرُ على حاله مِن فُقدان الثقة ما يشعرُ بكذِبه ويدلُّ عليه، ويبدو أنَّ هذا الشعور كان حاضرًا لدى الرَّهط، فلذلك اختاروا كاذبينَ الاسمَ الدالَّ على كونهم صادقينَ، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾؛ تعبيرًا باسم الفاعل المرادِ به الثبوتَ والدوام إيغالًا في الخِداع، و"إيهامًا لتحقُّق الصّدق"(1) بادِّعاء أنَّ الصِّدق فيهم سجيَّةٌ وطبعٌ وعادةٌ. ونلحظُ أنَّ كثرة المؤكّدات وإنْ نفعتْ مطلوبهم فإنَّها تشير من طرفٍ خفيٍّ إلى الشكِّ فيهم، كما هو المعهود عادةً لدى الحالفين والمؤكِّدين عندَ الاتهام.

دلالةُ حذفِ متعلّق ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

حُذِف المتعلّق في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ قصدًا للتعميم مع الاختصار. أي: إنَّنا صادقون في قولنا ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ وفي كلِّ أقوالنا وأفعالنا؛ لأنَّ دأبَنا الصِّدقُ، وهو سجيَّتُنا وعادتُنا.

دلالةُ اختصاص سورة النَّمل بهذا القصة وعدم ذكرها في سوَر أخرى:

تحذيرُ كفّار مكة الماكرين بدرسٍ مماثلٍ من الأوّلين المتآمرين

قال ابن عاشور: "وهذا الجزءُ من قصة ثمود لم يُذكر في غير هذه السّورة، وأحسبُ أنَّ سبب ذكره أنَّ نزول هذه السّورة كان في وقتٍ تآمرَ فيه المشركون على الإيقاع بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو التآمر الَّذي حكاه اللّه في قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]؛ فضربَ اللّه لهم مثلًا بتآمر الرّهط من قوم صالحٍ عليه ومكرِهم به، وكيف كان عاقبةُ مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابهًا،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.

وترى تكريرَ ذكرِ مكرهم ومكرِ اللّه بهم، وذكر أنَّ في قصتهم آيةً لقومٍ يعلمون"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

القسَم والحَلِف:

القسمُ أخصُّ من الحلف مفهومًا، ومغايرٌ له إطلاقًا

عبَّروا بالقسم في قولهم: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولم يَستعيضوا عنه بالحلف؛ لكون التعبير به - أي: بالقَسَم - أبلغَ وأخصّ من التعبير بالحلف؛ لأنَّ معنى قولنا: أقسمَ باللّه أنَّه صارَ ذا قسم باللّه. والقسمُ: النصيبُ، والمراد أنَّ الذي أقسمَ عليه من المال وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّه. وأمّا الحلف، فمن قولك: سيفٌ حليف، أي: قاطعٌ ماضٍ؛ فإذا قلتَ: حلفَ باللّه، فكأنَّك قلت: قطعَ المخاصمةَ باللّه. فالأول أبلغُ؛ لأنّه يتضمّن معنى الآخر معَ دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا: حلفَ يفيدُ معنىً واحدًا[2]. كما أنَّ القسم يُستعملُ عند اليمين الصّادقة، بخلاف الحلف الذي يكثرُ مع اليمين الكاذبة، وكان غايةُ هؤلاء الماكرينَ أنْ يكونوا صادقينَ في يمينهم المتعلِّق باغتيال صالحٍ ﷺ وأهلِه.

الأهل والآل:

لفظ الآل أخصُّ دلالةً على القربى من لفظ الأهل، ومختصٌّ بالإضافة إلى ذوي الشَّرف

أهلُ الرجل في الأصل كما يذكر الراغب: هم مَن يجمعُهُ وإيّاهم مسكنٌ واحد، ثمَّ تُجوِّزَ به فقيل: أهل الرجلِ لَمن يجمعُهُ وإياهم نسبٌ أوْ دين[3]. أمّا (الآل) فإنّه يطلق على مَن هم أخصُّ من الأهل، فهو "يستعمل فيمن يختصُّ بالإنسان اختصاصًا ذاتيا إمّا بقرابةٍ قريبة، أوْ بموالاة"[4]، فهو أضيقُ من لفظ الأهل وأخصّ. كما أنَّ الأهل أقرباءُ الرجل الذي يُضاف إلى الأشراف وغيرهم، بخلاف لفظ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 283، 284.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.
(3) الراغب، المفردات: (أهل).
(4) الراغب، المفردات: (أل).

(الآل) المختصّ بالإضافة إلى ذَوي الشرف، سواء كان شرفًا دنيويًا أوْ أُخرويًا، فيقال: أهلُ الإسكاف ولا يقال آلُ الإسكاف، وإنّما أوثر في الآية التعبيرُ بالأهل دون الآل؛ لأنهم أرادوا أهلَه الّذين يعيشونَ معه ويساكنونَه في المنزل مع إرادةِ الامتهان والاحتقار.

الوليّ والنّاصر:

بين المفهومين عموم وخصوص مطلق

الفرقُ بين الوليِّ والنّاصر مستمَدٌّ من الفرق بين الولاية والنُّصرة؛ بأنّ (الولاية) لا تكونُ إلّا عن محبَّة، فالوليُّ إنّما يتولَّى أمرَ مَن يحبُّ فقط فيدافعُ عنه وينصُرُه، وأمّا الناصر أوِ النّصير فقد يتولّى النصرة لا عن محبَّة للمنصور، وإنّما لسبب آخرَ غير المحبَّة اقتضى تقويتَه والانتصارَ له. والعلاقةُ بينهما أنَّ كلَّ وليٍّ ناصرٌ، وليس كلُّ ناصرٍ وليًّا.

الشهادة والحضور:

نفي الشهادة أقوى من نفي الحضور

هنالك تقاربٌ دلاليٌّ واضحٌ بين المفردتين، حتى إنَّ كلًّا منهما تُعرفُ بالأخرى، قال الراغب: الشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضورُ مع المشاهدة، إمّا بالبصرِ أوْ بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال اللّه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، لكنَّ الشهود بالحضور المجرّد أولى، والشّهادةُ معَ المشاهدة أَولى[1]. فَفُهِم من ذلك أنّ (شهِد) إذا كانت مِن الشَّهادة، فهي بمعنى الحضور والمشاهدة، وإذا كانت من الشُّهود فهي بمعنى: الحضور فقط. ومن هذا الباب لفظ ﴿شَهِدَ﴾ [البقرة: 185] في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: 185] فالمرادُ به: حضَرَ، أي: كان حاضرًا غيرَ مُسافر، ومنه أيضًا قولُهم: فلانٌ شهِدَ مع النبيِّ ﷺ غزوةَ كذا، أي: حضَرَها، ويقال: مَشاهِدُ الحجّ، أي: مواطنه الشّريفة التي يحضُرها الملائكة والأبرارُ من الناس، وهي مواضع المناسك، قال تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾

(1) الراغب، المفردات: (شهد).

[الحج: 28](1)، وعلى هذا فالتَّعبيرُ بالشهود في قوله تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أَقوى ممّا لو قالوا: ما حضَرنا وإنْ تضمَّن معناه؛ لأنّه نفيٌ للحضور وزيادةٌ، أي: نفيٌ للرّؤية والمشاهدةِ معًا.

(1) الراغب، المفردات: (شهد).

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾ [النمل: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجزاءُ من جنس العمل

لمّا بالغ الرهطُ في سوءِ التدبير لصالحٍ ﷺ ومَن معه، والتخطيطِ لقتلهم، ثمَّ لكيفيّةِ التَّبرُّؤِ من دمهم بعدَ التنفيذ، وكان حالُهم في هذا وعملُهم حالَ و"عملَ مَن لا يظنُّ أنَّ اللّه عالمٌ به، قال تعالى مُحذِّرًا أمثالَهم عن أمثال ذلك: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَكَرُواْ﴾: (مكر) أصلٌ يدلُّ على الاحتيال والخداع[2]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[3]. قال الجُرجانيُّ: المَكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[4]. وقيل هو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمَنْ لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[5]. والمقصود بالمكْر في الآية: صرْفُ الغيرِ عمّا يَقصِدُه بحيلةٍ، أو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ. ومعنى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾: دبّروا أمرًا في احتيالٍ وخديعةٍ خفاءً، وهو إهلاكُ صالح وقومِه. وأمّا معنى: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾: فجازيناهم بمكْرِهم من حيثُ لا يتوقَّعون[6].

2) ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: (شعر) أصلٌ يدلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ؛ فالإشعارُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(3) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 227.
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكر).
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1692.

الإعلامُ، والشِّعار: العَلامة[1]، والأصلُ قولُهُم شَعُرتُ، أي: أَصبتُ الشَّعَرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: عَلِمتُ عِلمًا في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، والمَشاعِرُ: الحواسُّ، ومنه قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: 2]، أي: لا تدركونه بالحواسّ[2]. والشُّعورُ يُطلَقُ على العِلْم بالأشياءِ الخَفيَّة، ومنهُ سُمّيَ الشّاعِرُ شاعرًا لِعِلْمِه بالمعاني الَّتي لا يَهتدي إليها كُلُّ أَحَدٍ[3]. والمقصود بـ ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في الآية: نفيُ العِلْم والإدراكِ بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِه

دبَّرَ التِّسعةُ المفسِدونَ تدبيرًا لِقَتلِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، وعَلِم اللّه مكرَهم وتدبيرهم وتخطيطَهم، فقدَّر إهلاكَهم من حيث لا يشعرون أنَّ اللّه عالمٌ بتدبيرهم ومُجازيهم على نيّتِهم السيِّئة، ولا يحتسبونَ وقوعَ الهلاكِ بهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

التدبيرُ السَّيِّئُ مرصود والتخطيطُ للجُرم مشهود

(الواو) في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ استئنافيّةٌ، والجملة بعدَها مُستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ولا محلَّ لها من الإعراب، وغرضُها بيانُ أنَّ ما قاموا به من تدبيرٍ وخداع، إنّما هو مرصود، ومردودٌ أثرُهُ عليهم، واللّه تعالى مُجازيهم به بما يستحِقّون؛ لأنّهم ظنّوا مخطئينَ أنهم مُستترونَ عن اللّه تعالى بفعلهم، وأنَّ اللّه تعالى لا يطّلعُ على نيّاتهم وتدبيراتهم.

سرُّ التعبير بالمكر في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

التآمرُ في الخفاء على أهل الصّلاح غايةُ المكر

يعودُ أصلُ معنى المَكْرِ إلى الاحتيالِ والخداع[5]، والقصدُ منه:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(2) الراغب، المفردات: (شعر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 278.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 92، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1692.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).

صرفُ الغير عمّا يقصدُهُ بحيلةٍ[1]. ويستخدمُ غالبًا في التدبير الضّارّ والتآمُر السَّيِّئِ المذموم، ومحلُّه في القرآن إذا ما أُسند إلى الإنسان، ومنه هذه الآية: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا﴾ وعليه، فقد "سمَّى اللّه تآمُرَهم مكرًا؛ لأنَّه كان تدبيرَ ضُرٍّ في خفاء"[2] أمّا إذا ما أُسند إلى اللّه تعالى، فإنَّه يرادُ به جزاؤه سبحانه الّذي يوقعه على الماكرين، ومنه قوله تعالى في الآية نفسِها: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا﴾.

دلالةُ التعبير بالماضي في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾:

شأنُ الماكرين التدبير، وشأنُ اللّه تعالى التقدير

عبَّر بالماضي في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ باعتبارِ وقوع هذا التدبير منهم، فقد وقع فعلًا، لا باعتبار وقوع أثرِه من القتلِ ونحوه، إذ لم يتمكَّنوا من فعلِ ما دبَّروه وحاكوه لصالح عليه السلام وأهلِه، فقد باغتهم اللّه تعالى بعذابِه قبل أنْ ينالوا بُغْيَتَهم من نبيِّه عليه السلام.

دلالة التعبير بالمصدر ﴿مَكۡرًا﴾:

المكرُ العظيم بالأنبياء هدفُ الكافرين

قوله: ﴿مَكۡرًا﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِه، فهو مفعول مطلقٌ؛ "للدلالة على قوّته في جنس المكر، وتنوينُه للتعظيم"[3] والتفخيم؛ تنبيهًا على أنَّ أثره لو وقع، وهو قتلُ صالح عليه السلام وأهله وأتباعه، كان أمرًا جسيمًا، ونلحظُ في هذا التأكيد لمكرهم أنّه بالغُ التأثير قويُّ التدبير عالي التخطيط.

دلالةُ إسناد المكر إلى الضّمير:

التشاكلُ الصّوري والاختلافُ المضمونيّ

دلَّ إسنادُ المكر إلى نونِ العظمة في قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرۡنَا﴾ على عظمةِ الجزاءِ والعقابِ الذي حلَّ بهم بسببِ مكرهم السَّيِّئ بصالح عليه السلام، فإنَّ ما يسند إلى العظيم عظيمٌ، ونلحظُ أنّه أسند المكر إلى الضمير العائد إلى اللّه تعالى؛ ليُشاكل المكرُ الإلهيُّ المكرَ البشريَّ في

---

(1) الراغب، المفردات: (مكر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.

الفعل وما أسند إليه من ضمير، والغرضُ من المشاكلة بيانُ عظمة اللّه تعالى وقدرته الكبيرة. على أن هناك فرقًا بين (الواو ونا)، لأنّ الواو تنبئُ عن جمعٍ حقيقيٍّ، وأمّا (نا) فتنبئُ عن واحدٍ عظيم، ومع ذلك لا يقدر الجمع الكثير على الواحد العظيم، فهنالك تشاكلٌ صوريٌّ مع اختلافٍ مضمونيٍّ على مستوى الفعل والضمير.

بلاغةُ التعبير عن المجازاة بالمكر:

عِقابُ اللّه لبعض الظالمين خفيٌّ خفاءَ شرورهم وإفسادِهم

في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا﴾ استعيرَ[1] لفظُ (المكر) الّذي أُسند إلى اسم الجلالة، استعارةً تصريحيّةً تبعية لما حلَّ بهم من عقاب اللّه؛ لما فيه من دلالةٍ على طريقة وقوعِ هذا العقاب بهم، وذلك أنَّه سبحانه قد عاقبَهم بطريقةٍ تشبهُ "فعلَ الماكر في تأجيلِ فعلٍ إلى وقت الحاجة، معَ عدم إشعار مَن يفعل به"[2] حيث باغتَهم سبحانه وفاجأَهم بعقابٍ استأصَلَهم واقتلعهم من جذورهم، في وقتٍ لم يحسبوا فيه حسابًا لذلك، بل كانوا في غيِّهم يدبّرون ويخطّطون للانتقام من نبيِّ اللّه صالح ﷺ، فدبَّروا واللّه تعالى دبَّر لهم، حتى قضى عليهم. وعلى هذا إطلاقُ لفظ (المكر) على الجزاء عليه مشاكلةٌ لفظيّةٌ، أي: إنَّ اللّه تعالى دبَّر لعبده، وسمَّى تدبيره الحكيم مكرًا من قبيل المشاكلة اللّفظية، لا أنّه مكرٌ على الحقيقة. قال القونوي: المكرُ من حيث إنَّه في الأصل حيلةٌ يجلبُ لها غيره إلَى مفسدةٍ لا يسند إليه تَعالَى إلا عَلَى سبيل الازدواج والمشاكلة، أي: بطَريق الاسْتعارَة[3].

سرُّ تكرار ﴿مَكْرًا﴾:

المكرُ الإلهيُّ تحار فيه العقولُ وتندهشُ له الألباب

قوله: ﴿مَكْرًا﴾ الثانية في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ هي كالأولى، أي: مُؤكِّدة للفعل ومُقوّية لمعناه، وليس هذا من التكرار في شيء؛ لأنّهما جملتانِ منفصلتان، وكلُّ لفظةٍ منهما قد أكَّدت الفعل في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 253.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 284.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 412.

جُملتها، فقوله: ﴿مَكۡرٗا﴾ في الأولى هو مؤكّدٌ لمكر ثمود ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾، و﴿مَكۡرٗا﴾ الثانيةُ مؤكّدةٌ لمكر اللّه بهم، وهو جزاؤه وعقابُه الَّذي حلَّ بهم، حيث أكَّده بقوله: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾، وهذا من تمام المشاكلة بين الجملتين على مستوى الفعل وما أسند إليه والتوكيد. والغرضُ بيانُ الفرق بين المكرين؛ لأخذ العبرة والعظة بضَعْف الفعل البشري والتصوّر البشري أمامَ الفعل الإلهيّ والعلْم العظيم المحيط بكلِّ شيء. كما أنَّ تكرار ذكرِ اللَّفظين مع كونهما نكرتينِ يدلُّ على المفارقة والتغاير بينهما، كما هو معروف، مثلُ تغاير المراد باليسر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح: 5 - 6] بسبب التنكيرِ في اللفظين، مع اتّحاد المراد بالعُسر بسبب التعريف فيهما. وأمّا عن دلالة تنوين ﴿مَكۡرٗا﴾ فهي التعظيم والتفخيم كـ﴿مَكۡرٗا﴾ الأولى، مع الفارق قطعًا؛ فعظيمُهم مهما بلغ فهو محدودٌ متناهٍ، وأمّا عظيمه سبحانه فليست له حدودٌ.

دلالةُ التعبير بقوله: ﴿وَهُمۡ﴾:

لا يغني حذرٌ من قدر

(الواو) للحال، و(هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في محلٍّ رفع خبر المبتدأ[1]. أي: والحال أنّهم مع حرصهم و"اعتنائهم بالفحصِ عن الأمور، والتحرُّز من عظائم المقدور ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾"[2] بما دبّرناه لهم من العذاب. فالغرضُ من الحال بيانُ هيئةِ هؤلاء المتقاسمينَ على القتل، المتفقينَ على المكر والخديعة؛ أنَّهم في حالة عدم شعورٍ بما يجري لهم من مقاديرِ اللّه تعالى الخفيَّة، التي تحيط بهم ولا يَتحسَّسونها، وتُسلّطُ عليهم وهم عنها ذاهلون.

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 363.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 178.

بلاغة التعبير بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

مباغتةُ العذاب نقمةٌ فوق أذى العذاب

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ مؤكّدةٌ لما سبقَها من استعارةِ المكر للعقابِ الإلهيِّ الذي حلَّ بهم ووقعَ عليهم، "واخْتيرَت الجُمْلَة الاسميّةُ تأكيدًا لعدم شعورهم، وقدَّم المبتدأ عَلَى المسند الفعليِّ لتقوّي الحكم... ونزولُ العذاب بلا شعورٍ أفظعُ العذاب وأشدُّه، لا سيَّما حين انتظارِ نزول أصناف النَّعماء والسرّاء"[1].

دلالةُ نفيِ الشعور في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ دون نفي العلْم:

اندفاعُ الظّالمين للمكر يسلبُ عنهم إدراكَ المعلوم والمحسوسِ معًا

الشعورُ هو أدقُّ العلم، قال الراغب: يقال: "شَعَرْتُ: أصبتُ الشَّعْرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: علِمت علْمًا في الدّقّة كإصابة الشَّعْر، وسمّي الشّاعِرُ شاعرًا لفطنته ودقّة معرفتِه، فالشِّعْرُ في الأصل اسمٌ للعلْم الدّقيق"[2]. وقيل: الشّعور هو الإحساسُ، أي: الإدراكُ بالحواسّ الخمس الظّاهرَة، وبهذا هو مقابلٌ للعلم عند بعض أهل العلْم، وداخلٌ فيه عندَ بعضٍ آخرين[3]. ويكونُ التعبير حينئذٍ بنفي الشّعور أقوى من التعبير بنفي العلْم؛ لأنَّ الشعور إنْ كان داخلًا في العلم كما هو الظّاهر من كلام أهل اللّغة وكثيرٍ من العلماء، فهو نوعٌ دقيقٌ خاصٌّ من العلْم، يدرك بالفطنة الزائدة، ويصيبُ المقصود كإصابة الشَّعَر. وإنْ كان مفارقًا للعلم بوصفه إدراكًا بالحواس الخمس، فهو من هذه الجهة أيضا أقوى من العلم، لكونه قد صارَ من قوّة ظهوره خاضعًا لإدراك الحواس، وهذا أقوى من العلم النّظريّ بلا خلاف، فيكونُ العقاب محيطًا بهم قابلًا للإدراك والإحساس، ولكنّهم مع ذلك لا يدركونه ولا يحسّونه، وبذلك انتفى عنهم إدراك المعلوم والمحسوس معًا من شدَّة ظُلمِهم ورغبتِهم بالمكْر.

---

(1) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع القونوي: 8/ 453.

(2) الراغب، المفردات: (شعر).

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 127.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

استمرار غياب الشعور نتيجةٌ طبيعيّةٌ لاستمرار الخديعة والمكر

عبَّر بصيغةِ المضارع للدلالةِ على استمرار نفيِ شعورهم، وأنَّهم لا يشعرونَ في أيِّ وقت من الأوقات، بـ (نزول العذاب) وهو المتعلّق المحذوف، كما يدلُّ عليه المقام، وقد صُرِّح به في الآية الآتية في قوله سبحانه: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ والتعبيرُ بما يدلُّ على استمرار نفيِ شعورهم واضحُ الغرضِ في الدلالة على مُفاجأتهم بوقوعِ العذاب، ليكون أشدَّ عليهم وأنكى، وما استمرارُ عدمِ الشّعور إلا نتيجةٌ طبيعيّةٌ لاستمرار الظُّلم والتفكيرِ بالخديعة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكر والكيد:

الكيد أشدّ من المكر، وهو أخصُّ مطلقًا منه أو مباينٌ له

يشتركُ كلٌّ من (الكيد والمكر) في أنَّ كلًّا منهما لا يكون إلا معَ تدبُّر وفكر؛ إلا أنَّ الكيد أقوى من المكر، والشّاهد أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرف، فيقال: كاده يكيده ومكرَ به، ولا يقال: مكرهُ. والذي يتعدَّى بنفسه أقوى؛ فإن قيلَ: فما بالُ (الكيد) تعدَّى باللام في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: 5]، فالجواب: الكيدُ هنا تضمَّن معنى فعلٍ يتَعَدَّى باللّام تَأْكيدًا وهوَ (يحتال)، أي: فيحتال لإهلاكك حيلَةً[1]. والمكر أيضًا تقديرُ ضررِ الغيرِ دونَ أنْ يعلمَ ما يُفعَل به، ألا ترى أنّه لو قال له: أقدرُ أنْ أفعلَ بك كذا، لم يكن ذلك مكرًا، وإنّما يكون مكرًا إذا لم يُعلمْه به، والكيد اسمٌ لإيقاع المكروه بالغير قهرًا سواءٌ علِم أو لا، والشاهد قولك: فلانٌ يُكايدني، فسمّى فعلَه كيدًا وإنْ علِم به..[2]. فكل مكرٍ كيدٌ وليس كلُّ كيد مكرًا بناءً على هذا الأساس. ونقل البقاعي عن الحرّالي في الفرق بينهما قولَه: المكرُ إعمالُ الخديعة والاحتيال في هدم بناءٍ ظاهرٍ كالدنيا،

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 771.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، بترتيب وزيادة، ص: 508.

والكيدُ إعمالُ الخدعةِ والاحتيال في هدم بناءٍ باطنٍ، كالتديُّن والتخلُّق وغير ذلك، فكان المكرُ خديعةَ حسٍّ، والكيدُ خديعة معنىً[1]، وبناءً عليه تكون بينهما مباينةٌ تامّة. ولمّا كان ما وقعَ من ثمود من التدبيرِ الخفيِّ، وما وقع عليهم من العذاب غيرَ معلوم لهم ولا يشعرونَ به، وكان أيضًا تدبيرًا في هدم بناءٍ ظاهر فقد سُمّي مكرًا لا كيدًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 419.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـاقـبـةُ المكـر الـسَّـيِّـئِ دمـارٌ وخُسرانٌ مُبين

بعد أنْ أخبرتِ الآيةُ السّابقةُ عن مكرهم وتدبيرِهم الخفيِّ المحمَّل بكلِّ أنواع الضرِّ والسّوء، وأخبرتْ كذلك عن مُجابهة مكرِهم بما هو أقوى منه، وهو عقابُ اللّه لهم الَّذي باغتَهم فأفسدَ عليهم مخطَّطَهم؛ أفصحتْ هذه الآيةُ عن ذلك العقابِ المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا﴾، الّذي كان مسبَّبًا عن مكرهم وجزاءً عليه، فقالت: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، فهي "شروعٌ في بيان ما ترتَّبَ على ما باشروه من المكْر"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأْخيرِ شَيءٍ وإتيانهِ بعدَ غيرِه، وكلُّ شيءٍ يَعْقُبُ شيئًا فهو عَقيبُهُ[2]، والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل[3]. والعاقبةُ: آخِرُ الأَمرِ، وأَثَرُ عَمَلِ العاملِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما ينجلي عنه الشَّيءُ ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثَرٍ ونَتيجةٍ[4]. قال الرّاغبُ: العاقبةُ والعُقْبى يختصّانِ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد يُستعملُ في العُقوبةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10][5]، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تتلو الذَّنْبَ، من تعقَّبَهُ: إذا تبِعَه، وتعقَّبتُ الرَّجُلَ، أي: أخذتَه بذَنْبٍ كان منه،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الراغب، المفردات: (عقب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 92.
(5) الراغب، المفردات: (عقب).

والجَمْعُ: عُقوباتٌ[1]. والمقصود بالعاقبةِ هنا: نهايةُ الأَمرِ، أي: نهايةُ مكرهم ونتيجتُه.

2) ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: (دمر) أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغيرِه، يُقالُ دَمَرَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، إذا دخَلَهُ[2]، والتَّدميرُ: إدخال الهلاك على الشَّيءِ[3]، والدَّمار هلاكٌ بالاستئصال، يُقال: دَمَر القومُ يَدْمُرون دَمارًا: أَي هَلَكوا، ودَمَرَهم مَقَتَهم ودَمَّرهم اللّه تَدْميرًا[4]، والتَّدْميرُ في الآية معناه: الإهلاكُ الشَّديدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وما جـزاءُ المكر بالله ورسله إلا الدَّمارُ والخراب

يقول الحقُّ تعالى: فانظُرْ يا محمَّدُ ﷺ كيف كان آخِرُ أمرِ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ حينَ أرادوا قَتْلَه وأهلَه، فما أنزله اللّه تعالى من عذابٍ مدمّرٍ كان بسبب اعتزامهم قتلَ صالحٍ وأهلِه، وما كان اللّه تعالى ليذرَ رسوله نهبًا لهم يغتالونه، بل إنَّه سبحانه لهم بالمرصاد، فقتلَهم ودمَّرهم قبل أن يقتلوه[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الجمعِ بينَ الفاء والأمر في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

النـظرُ القلبيُّ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين واعتبارٌ للكافرين

الخطابُ الأمريُّ في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ للنبيِّ ﷺ، والمراد به النظرُ القلبيُّ، والمقصود به تسليةُ النبي ﷺ والمؤمنين به، وتطمينُهم بأنّ اللّه تعالى مع أنبيائه ورسلِه يحميهم وينصرهم، وفي ذلك لفتٌ لقريش وتنبيهٌ لها إلى أخذ العبرة ممّا حدث لثمود لمّا مكرت بنبيِّها، فـ "الاعتبار بمكر اللّه بهم هو المقصودُ من سَوْق القصَّة، تعريضًا بأنَّ عاقبة أمره ﷺ مع قريش أن يكفَّ عنه كيدَهم وينصرَه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).
(3) الراغب، المفردات: (دمر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دمر).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5463.

عليهم."[1] وناسبَ الأمرَ بالنّظر والتأمُّل في أحوالِ ما أصابهم من سوءِ العاقبةِ التفريعُ له بالفاءِ التي: للإفصاح عن شرطٍ محذوفٍ يترتّبُ عليه ذلك الأمرُ، أي: إذا كان اللّه قد دبَّر لرسولِه كما دبَّروا آثمين، فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ مَكْرِهم[2].

سرُّ التعبير بمادّة (النّظر) دون غيرها:

الأعمى الحقيقيّ مَن لا ينظرُ بعينِ البصيرة

يمتدُّ معنى النّظر ويتعمَّق حتى يتجاوزَ مجرّدَ رؤيةِ الشيءِ بالبصر إلى تقليبِه وتأمُّله بالعين، ثمَّ يتجاوز حدود الرّؤية بالعين إلى الرؤية بالبصيرة، ومنها إلى تقليبه وتأمُّله بها، حتى يحصلَ الإدراكُ ويقعَ الاعتبار، وهو ما يُعرَف بالنّظر القلبيِّ، "وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ"[3]، ولأجل عمقِ هذه المعاني التي يَستبطنها لفظُ (النظر) أوثر التعبير به في القرآن الكريم وتقديمُه على غيره في كلِّ سياقٍ يستدعي التأمُّل لإدراك موطن العبرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101] وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [يوسف: 109] وهي عبارةٌ مكرورةٌ في القرآن الكريم، ومذكورةٌ بنصِّها في عددٍ من آياته، والمقصودُ بالنظر فيها ليس مجرّدَ رؤيتها بالبصر، بل رؤيتُها بالبصيرة أيضًا، بتأمُّلها وتدبُّرِ سنن اللّه ﷻ في الانتقام من الظّالمين، ونُصرةِ المرسلين.

دلالةُ الاستفهام في قوله: ﴿كَيۡفَ﴾:

التعجيبُ من مآل الكافرين تسليةٌ للمؤمنين وتحذيرٌ للكافرين

﴿كَيۡفَ﴾ الاستفهاميّة يُسأل بها عن الحالِ والكيفيَّة، لكنها هنا ليستْ كذلك، فقد خرجَ الاستفهام بها عن حقيقته، إلى معنى التعجيبِ من حال قومِ ثمود بعدَ أنْ أهلكهم اللّه واستأصلَهم، ليقعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 285.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5463.

(3) الراغب، المفردات: (نظر)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 82.

بذلك الاعتبارُ والزّجرُ لكلِّ مَن يسير على طريقهم في مُعاداة المرسلين، وبالأحرى فإن الآيةَ كما تُسلّي النبي ﷺ وتُبشّرَه بالنَّصر، فهي كذلك توجّهُ نظرَ الكفّار به المعادينَ له إلى إدراكِ مصيرِ أسلافِهم الَّذين هم ماضونَ على طريقهم.

دلالة التعبير بـ ﴿كَانَ﴾:

الكينونةُ ثباتٌ علـى الحالـة واستمرارٌ في القضيَّة

﴿كَانَ﴾ هنا تحتملُ أنْ تكون التامّة فتفيدُ الوجودَ والحصولَ المُطلق، فلا تحتاجُ إلى خبر بل إلى فاعل، وفاعلُها هو ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، وقد تكون الناقصة فتفيدُ الاستمرارَ والدوامَ فتفتقرُ إلى خبر، وخبرُها هو ﴿كَيْفَ﴾ وقد تقدَّم عليها؛ لما أنَّ للاستفهام حقَّ الصَّدارة، وأَعرَب بعضُهم ﴿كَانَ﴾ زائدةً فتفيد التوكيدَ، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ مبتدأٌ، وخبرُه ﴿كَيْفَ﴾[1].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾:

تأشيرُ العلّة دعوةٌ للتحذير من مآلها

الإضافةُ في قوله: ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هي من إضافة الشيءِ إلى سببه، للتنصيص على أنَّ ما نالهم من سوء العاقبة وهو عذابُ الاستئصال، المكنَّى عنه بقوله: ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ إنّما كان بسبب مكرِهم لا غير، كما أوضحَ هذا قولُه سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، فيكونُ في التأشير على العلّة دعوةٌ خفيّةٌ لتركِها واجتنابها؛ لأنّها تقودُ إلى المصيرِ نفسِه.

سرُّ التعبير بـ ﴿مَكْرِهِمْ﴾ دون (كيدهم):

المكرُ خديعةُ حسٍّ، والكيدُ خديعةُ معنىً

مضى في الفروق المعجميَّة للآية السّابقة تفصيلُ الفروق بين (المكر والكيد)، وتأسيسًا على ما ذكر فإنَّ ما وقع منهم كان أيضًا تدبيرًا في هدم بناء ظاهر - وهو القتل - لا باطن، وهذا مسوِّغٌ أولُ لتسمية ما وقع منهم مكرًا لا كيدًا، وقد نقل البقاعي عن الحرالي

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 626، والهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 100، والخطيب وآخران، التفصيل: 19/ 364 وما بعدها.

في الفرق بينهما قولَه: المكرُ إعمالُ الخديعة والاحتيالِ في هدم بناءٍ ظاهر كالدنيا، والكيدُ إعمالُ الخُدعة والاحتيال في هدم بناءٍ باطن، كالتديُّن والتخلُّق وغير ذلك، فكان المكرُ خديعةَ حسٍّ، والكيد خديعةَ معنىً[1]. والمسوّغُ الثاني - فيما يظهر - أنّه أراد بيانَ الفرق بين مكرهم ومكر اللّه تعالى؛ فأبقى مكرَهم وسمّاه مكرًا لأنَّه خدعةٌ واحتيال، في حين بيّن حقيقةَ مكرِ اللّه أنّه تدميرٌ لهم ولقومهم الكافرين.

دلالةُ التعبير بالإضمارِ في قوله: ﴿مَكۡرِهِمۡ﴾:

صـدورُ المكر منهم، عِلّةُ نزول الدّمار بهم

عبَّر بضمير الغَيْبة في قوله: ﴿مَكۡرِهِمۡ﴾ اتّساقًا مع الضّمائر قبلَه، الراجعةِ إلى (الرّهط) وهم الماكرون، فقد سبقه ﴿وَمَكَرُواْ﴾ بضمير الغيبة، ثمّ قال: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فناسب أنْ يقول ﴿مَكۡرِهِمۡ﴾ لينسجم النّظم، وبالأخصِّ أنّه لم يوجد داعٍ للإظهار والالتفات، فمرجعُ الضّمير معروفٌ بلا أدنى التباس، كما أفادتِ إضافةُ المصدر إلى الضَّمير أنَّ هذا المكر مرتبطٌ بهم ارتباطَ الفاعل بالفعل، وفي هذه الإضافةِ ما يُشعر بعلّة ما أصابهم من دمار وعذاب.

دلالة تعدد القراءات في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾:

نتيجةُ المكر المبين التدميرُ العجيب

اختلفَ القرّاء في فتح ألف ﴿أَنَّا﴾ وكسرِها مِن قوله جلّ وعزّ ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ﴾، فقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر: ﴿أَنَّا﴾ بفتح الألف، وقرأ الباقون: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الألف[2] وتوجيه ذلك أن مَن قرأ ﴿إِنَّا﴾ بالكسر فعلى الاستئناف بعدَ تمام الكلام، ومَن قرأها: ﴿أَنَّا﴾ بالفتح، فقد جعلَها متّصلةً بما سبقَها من وجهين، **أحدهما**: أنَّه جعلها وما اتَّصل بها خبرَ كان.

والآخر: أنّه وصلها بالباء - أو اللام -، ثمَّ أسقطهما فوصلَ الفعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 419.

(2) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 396، وابن الجزري، النشر: 1/ 236.

إليها[1]، فتكون الجملةُ في محلِّ نصبٍ على نزع الخافض؛ أي: لأنّا دمّرناهم، أوْ بسبب تدميرنا لهم.

ويجوز على قراءة الكسر أن تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لا ابتدائيًّا، "لما يثيره الاستفهامُ في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ من سؤالٍ عن هذه الكيفية"[2]؛ فيكون بين هذه الجملة وما قبلها شبهُ كمال اتصال، ولا يبعدُ أنْ يكون الفصلُ من باب عطف البيان لتلك العاقبةِ التي آلتْ إليها حالتُهم العجيبة.

دلالة التأكيد في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾:

التأكيد إزالةٌ لريبِ المرتابين وشكِّ المتشككين

صدِّرت جملة ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: بـ (أنَّ) أو (إنَّ) - باعتبار القراءتين المتواترتينِ - التوكيديّة "للاهتمام بالخبر"[3]، وليس من سببٍ واضح للتأكيد غير هذا، فكونُ الله تعالى يخبرُ رسوله محمَّدًا ﷺ الّذي وجِّه إليه الخطاب في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ بخبر تدميرهم، ممّا لا يحتاج إلى تأكيد؛ لأنّ المخاطَب ﷺ ليس محلًا لأنْ يشكَّ في خبره سبحانه حتى يؤكَّد له، فبقي أنّ يكونَ سرُّ هذا التأكيد هو الاهتمامَ بالخبر من حيث هو، ويمكن أن يقال: إن المخاطب مباشرة هو النبي ﷺ، ومن ورائه عموم المخاطبين، فكان التوكيد إزالةً لريبِهم ونفيًا لشكِّهم.

سرُّ التعبير بالتدمير دون الإهلاك:

نتيجةُ المكر في المكامن دخولُ الهلاك إلى البيوت

أصلُ (دمّر) يدلُّ على معنى الدّخول، سواءٌ في البيت أوْ غيره[4]، والمرادُ به في قوله: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ الإهلاك، حيث أوثر التعبيرُ به دون التعبير بالإهلاك، للدّلالة على الإهلاك الشّامل، الذي لا يُبقي ولا يذر، فيهلكُ الحرثُ والنّسلُ، والزرع والضَّرع، "يقال دَمَر القومُ يدمُرون دمارًا، إذا هلكوا جميعًا، فهم دامِرون، والظّاهر أنَّ إطلاق

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 272، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 626.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 285.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 285.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).

التدمير على إهلاكِ المصنوع مجازيٌّ علاقتُه الإطلاق؛ لأنَّ الظاهر أنَّ التدمير حقيقتُه إهلاك الإنسان"[1]، وفي التعبير به عن الإهلاك دلالةٌ على كونه قد دخلَ عليهم بيوتهم وأماكنهم، فقضى عليهم لا عليها وعلى ما فيها ممّا يملكونه وكانوا يتفاخرونَ به، أي: إنه كان إهلاكًا شاملًا للكافرين دون المصنوعات والبيوت، فهو هلاكُ الاستئصال الذي وقع على الأناسيّ فحسب.

دلالة التعبير بالماضي ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾:

الإهلاك العظيم يناسبُ المكرَ الشَّديد

دلَّ التعبير بالماضي ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ على تحقُّق وقوعِ هذا التدمير الشّامل الذي هو هلاكُ الاستئصال، وفي تضعيفِ الفعل (دمَّر) دلالةٌ على التكثير والمبالغة، فيُعلَم أنّه كان تدميرًا عظيمًا، ولذلك أسنده أيضًا إلى نونِ العظمة ليُشعِر بضخامته وعظمتِه؛ إذ يعظُمُ الفعلُ بعظمة فاعلِه، ولأجلِ هذه المؤكّدات كلِّها ندرك سرَّ التعبير بـ﴿أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ دون التعبير بـ (تدمير) المصدر الَّذي يحلُّ محّله.

دلالة عطف (قومهم) عليهم في قوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾:

تعليقُ التدمير بالرّهط أصالةً وبقومِهم تبَعًا

عطفَ (قومهم) على ضميرهم بالواو في قوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ للدلالة على الجمعِ بينهم وبين قومهم في تدميرٍ واحدٍ عظيم، فقد كان تدميرًا شاملًا استأصلَ كفّار ثمود جميعًا، الرّهط التسعةُ وسائرُ القوم؛ لكونهم كانوا راضينَ عن مكرهم، ولذلك لم يُعد فعل التدمير مع القوم صراحةً، ولو أعاد ذكره لتوُهِّم أنهما تدميران لا تدميرٌ واحد، ولما أشعرَ بعظمةِ كلٍّ منهما، إذ التدمير العظيمُ يكفي وحدَه في استئصال القوم جميعًا، خصوصًا أنهم كانوا جميعًا شركاءَ في معاداة صالح عليه السلام والمكر به، كما أفادَ تعليقُ التدمير بالرّهط أصالةً وبالقوم تبعًا أنَّ نزولَ التدمير وإنْ عمّ الجميع لكنّه شمَلهم لعدم تصدّيهم ومنعِهم من التآمُرِ على صالح وأهله.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 78.

دلالةُ التعبير بـ(القوم) مع التدمير:

ما ينجمُ عن الذّنبِ العظيم إهلاكٌ كبير

لفظُ (القوم) يدلُّ على عموم الجماعة، حيثُ يطلق في الأصل على جماعة الرجال، ويدخل فيه النّساء بالغلبة، ففي عامّة القرآن أُريد به الرّجال والنّساء جميعا[1]، وفيه إشعارٌ بأنَّ عذاب الله الشّامل عندما يحلُّ بقوم لا يفرِّق بين ذكرٍ وأنثى، صغيرٍ وكبير، ولذلك أكَّد أيضًا هذا المعنى المفهومَ من لفظ القوم بقوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ دون (كلهم):

التأكيد على المزامنة أي الحالة الواحدة في الوقت الواحد هو مسوّغ إيثار (أجمعين)

وفي سبيلِ تأكيدِ شمول التدمير لعموم القوم الماكرين أوثر لفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، على لفظ (كلهم)، وذلك لأنَّ لفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ أدلُّ على المقصود من النصِّ على المزامنة، أي: إن جميعَهم قد دمِّروا في الوقت نفسه، وهذا متوافقٌ مع كون هلاكِ الاستئصال إنما كان هلاكًا عظيمًا لم يُفلتْ منه أحدٌ، ولو عبَّر بـ (كل) بدلَ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ أَوْهَمَ خلافَ ذلك؛ لأنّ لفظ (كل) وإنْ أفاد الاستغراقَ والعموم، لكنَّه ليس نصًّا في الدلالة على المزامنة، فيضعفُ معه إدراكُ هذا الغرض المقصود، وعلى هذا فإنّه لما أرادَ الاستغراق والمزامنة معًا في الإخبار عن سجودِ الملائكة لآدمَ عليه السلام قال تعالَى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30] قال الرازيُّ تعليقًا على هذه المزاوجة بينَ اللّفظينِ المؤكّدين: سُئِلَ المبرّد عن هذه الآية فقال: لو قال: (فسجد الملائكة) احتملَ أنْ يكون سجدَ بعضُهم، فلما قال: ﴿كُلُّهُمۡ﴾ [الحجر: 30] زالَ هذا الاحتمال، فظهر أنهم بأسرِهم سجدوا. ثمَّ بعد هذا بقي احتمالٌ آخر، وهو أنهم سجدوا دفعةً واحدةً، أَوْ سجد كلُّ واحد منهم في وقت آخر، فلمّا قال: ﴿أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30] ظهر أنَّ الكلَّ سجدوا دفعةً واحدة[2].

(1) الراغب، المفردات: (قوم).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 140.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّظر والرُّؤية:

في النظر رؤية بالبصر أو البصيرة مع تأمل بخلاف الرؤية

النّظَر: تأمُّل الشيء بالعين، وقد نظرتُ إلى الشيء، والنظَر أيضًا: تقليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيتِه، وقد يرادُ به التأمُّل والفحصُ، وقد يرادُ به المعرفةُ الحاصلة بعدَ الفحص، وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101] أي: تَأَمَّلوا. واستعمال النَّظَرِ في البَصَرِ أكثرُ عند العامَّة، وفي البصيرةِ أكثرُ عند الخاصَّةِ[1]. أي: إن لفظ النظر يعني التأمُّل إمّا بالعين فيكون بمعنى الرؤية لكنْ مع التأمُّل، وإمّا بالبصيرة وهي رؤيةُ القلب، وعلى هذا يمكن أن يقال: كلُّ نظرٍ إلى شيءٍ بالعين رؤيةٌ وليس كلُّ رؤية نظرًا، ولذا يطلقُ النظر على طلَبِ الهدى كما يقول العسكريّ، الذي ذكر أيضًا في الفرق بينهما أنَّ الرُّؤية هي إدراكُ المرئيّ، والنّظرَ: هو الإقبال بالبصر نحوَ المرئيّ[2].

التدمير والإهلاك:

التدمير أخص من الإهلاك، فهو دال على الإهلاك الشامل

هنالك تقاربٌ دلاليٌّ كبير بين لفظَي (التدمير والإهلاك)، بل إنَّ التدمير هو نوعٌ خاصٌّ من الهلاك وهو الهلاكُ الشّامل المستأصِل للبشر دونَ الدّور وما فيها، والهلاك: في الأصل مطلقُ السُّقوط، ولذلك يقال لمن ماتَ: هلكَ[3]. وأصلُ (دمّر) يدلُّ على معنى الدّخول، سواءٌ في البيت أَوْ غيره[4]، والمرادُ به هنا الإهلاك، حيث أوثر التعبيرُ به دون التعبير بالإهلاك، للدّلالة على الإهلاك الشّامل، للكافرين دون الحرثِ والنّسلِ، والزّرع والضَّرع والدور، "يقال دَمَرَ القومُ يدمُرون دمارًا، إذا هلكوا جميعًا، فهم دامِرون،

(1) الراغب، المفردات: (نظر).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 543، والراغب، المفردات: (نظر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر).

والظّاهر أنَّ إطلاق التدمير على إهلاكِ المصنوع مجازيٌّ علاقتُهُ الإطلاق؛ لأنَّ الظاهر أنَّ التدمير حقيقتُه إهلاك الإنسان"[1]. وفي التعبير به عن الإهلاك دلالةٌ على كونه قد دخلَ عليهم بيوتهم وأماكنهم، فقضى عليهم لا عليها وعلى ما فيها أيضًا ممّا يملكونه وكانوا يتفاخرونَ به، أي: إنه كان إهلاكًا شاملًا للبشر فحسب، وهو هلاكُ الاستئصال الذي وقع عليهم بالصَّيحة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 78.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الظُّلم مستوجبٌ للعذاب، فليعتبر بذلك أولو الألباب

لمّا أخبرتِ الآية السّابقة عن تدمير الرَّهط من ثمودَ وقومِهم أجمعين، وكان يتسبّبُ عن دمارهم بهذه الصّورة زيادةُ الهول والرُّعب في قلب كلِّ مُعاند وجاحد يَمضي على دَربهم ويَسلكُ طريقتهم، وبالأخصّ أهلُ مكة؛ لمّا كان ذلك كذلك، حرصتْ هذه الآيةُ على نقلِ صورةِ بيوتهم التي خلتْ من ساكنيها وخَوَتْ على عروشها بسبب ظُلمهم، بعدَ أنْ كانت مرتعًا لهم يَحيكون فيها المؤامراتِ، ويدبِّرون فيها المكايدَ والمخطَّطات، فقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ فعسى أنْ يعتبر الظّالمون بما جرى لأسلافِهم من أهل الظُّلم والمكر. وأيضًا فإنَّه لما أمرَ تعالى بالنّظَر فيما جرى لهم من الهلاكِ في أنفسهم، بيَّن ذلك بالإشارة إلى منازلهم وكيفَ خلتْ منهم[1] بقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾؛ فلم يكن العذابُ طبيعيًّا بحيث يهلكُ الكافر ويُهدَمُ دارُه، بل دخل العذابُ والدمارُ إلى الدور، مستأصِلًا أهلَ الدور، وأبقى الدورَ شاهدةً على تلك الصَّيحة التي تصرعُ الإنسانَ فحسبُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُيُوتُهُمْ﴾: (بَيَتَ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَأْوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّمْلِ[2]، والبَيْتُ: مَأْوَى الإنْسانِ باللَّيْلِ، يُقال: باتَ فُلانٌ، أيْ: أَقامَ بِاللَّيْلِ، ويأتي بِمعنى إِدْراكِ اللَّيلِ، يُقال: باتَ، يَبيتُ، بيْتًا، وبَياتًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 14/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

ومَبيتًا، أيْ: أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ. ومِن مَعانيهِ: المَسْكَنُ والدّارُ، وهو: كُلُّ ما لَهُ جدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ، وجَمْعُهُ: أَبْياتٌ وبُيوتٌ[1]. ومن مَعانيهِ أيضًا: المَنْزِلُ والقَصْرُ والمَسْجِدُ والكَعْبَةُ والقَبْرُ[2]. والمرادُ بالبيوتِ هنا: جمعُ بيت، وهو مكانٌ يُجعَلُ له بناءٌ وفُسطاطٌ يُحيطُ به، يُعيِّنُ مكانهُ ليتَّخذَهُ جاعلُه مَقرًّا يأوي إليه، ويَستكِنُّ به من الحَرِّ والقَرِّ.

2) ﴿خَاوِيَةًۢ﴾: (خوى) أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخُلوِّ والسُّقوط[3]، يُقالُ: خَوَتِ الدارُ خَواءً: أقوَتْ، وكذلك إذا سقطَت، وخَوَى النَّجم وأَخْوَى: إذا لم يكن منه عندَ سقوطه مطرٌ، تشبيهًا بذلك[4]. وخَوَتِ المرأة وخَوِيَتْ أيضًا خَوًى، أي: خَلا جوفُها عندَ الولادة[5]. ومعنى ﴿خَاوِيَةًۢ﴾ في الآية: خاليةٌ من السُّكان والأهل، أَوْ مُتداعيةٌ إلى السُّقوط.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلمُ يورثُ أهلَه الهلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ

يقول الله تعالى: إنْ كنتَ - أيُّها المخاطب - تريدُ دليلًا على تدميرهم جميعًا، فتلك مَساكِنُ ثمودَ قد صارتْ خَرابًا خاليةً من أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم بشِركِهم وتكذيبِ رَسولِهم، وقَتْلِهم الناقةَ. إنَّ في ذلِكَ الَّذي فعلناهُ بهم من تدمير وإهلاك لآيَةً بيِّنة، وعِبرةً واضحةً لِقَوْمٍ يتَّصفون بالعِلْمِ النّافع، الَّذي يتبَعُه العملُ الصّالح[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَتِلْكَ﴾:

نهايةُ الظّالمين دروسٌ للمعتبرين

الفاءُ للتفريع، فرَّع بها جملةَ (تلك بيوتهم خاوية) على جملة:

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوى).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوى).
(5) الجوهري، الصحاح: (خوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 95، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 218، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 200، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 339.

﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ ورتَّبها عليها، من باب تفريعِ الإخبار[1]، ففرَّع الإخبارَ بخواء بيوتهم بسببِ ظُلمهم، على الإخبار بتدميرهم، لأنَّه مسبَّب عنه ونتيجةٌ طبيعيّةٌ في الواقع، وبهذا التفريع أدركنا أنَّ العذابَ الّذي نزل بثمودَ كان صيحةً يسمعُها الكافرونَ فيهلكونَ ويَسقطون، وأمّا البيوتُ فتبقى صامدةً أوْ يحصلُ لها شيءٌ من التداعي، فيمرُّ بها أهلُ الطّريق فيرونها بيوتًا خاليةً من ساكنيها، فيثير عندَهم العجبَ ببقاء الدور من دونِ ساكنيها. وقيل: الفاء استئنافية[2]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ "مقرِّرة لما قبلَها"[3].

دلالةُ التعبير بالإشارة (تلك):

عظمةُ البيوت وفخامتها تعلنُ عجزَها عن حماية المعذَّبين

أوثر التعبير باسم الإشارة (تلك) دون (هذه)؛ لدلالةِ (تلك) على البُعْد، والمرادُ البعدُ في سوء المنزلة، بسببِ "الغضَب على أهلها"[4] لما بدرَ منهم من الكُفر بالله والظُّلم لصالح ﵇. كما أنَّ اسم الإشارة يستعملُ لتمييز الشيء أكملَ تمييز وذلك بالنظر إليه لحسّيَّته، وفي هذا التمييز له دلالةٌ على بقاء تلك المنازل محفوظةً خاليةً من ساكنيها، فيراها كلُّ من يمرُّ بأرض ثمود على أنها نموذجٌ واضحٌ للمعذَّبين. ويدلُّ اسم الإشارة للبعيد على أنّها بيوتٌ مميّزة عظيمةُ التشييد محكمةُ البناء فخمةُ الطّراز، ومع ذلك لم تنفعْهم عندما سمِعوا الصَّيحةَ فتساقطوا وهلَكوا.

سرُّ التعبير بالبيوت في قوله: ﴿بُيُوتُهُمۡ﴾:

البيوت التي تُشعِر بالاطمئنان عاجزةٌ عن توفير الحماية

قال الرّاغب: أصلُ البيت مأوى الإنسان باللَّيل، لأنّه يقال: باتَ أقامَ بالليل، كما يقالُ: ظلّ بالنهار ثمَّ قد يقال للمسكنِ بيتٌ من غير اعتبارِ اللّيل فيه... ويقعُ ذلك على المتّخَذ من حجَرٍ ومدَرٍ وصوفٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 285.

(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 367.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.

ووبَر[1]. وكانت بيوتهم مُتَّخَذةً من الحجارة، وبعضُها منحوتًا في الجبال، فكانت على نوعَيْها آمنةً ممكَّنة، وكانَ في التعبير عنها بالبيوت، مع ما حصل لهم من تدمير وإهلاك وفتكٍ بأهلها، أصدقُ التحذير وأبلغُه لِمَن يغترُّ من الظّالمين بإمهالٍ له، فيظنُّ أنّه في مأمَنٍ من عذابه وأخذه الشَّديد، وقد قال سبحانه محذِّرًا من أخذه الشديد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿بُيُوتُهُمۡ﴾:

أشدُّ الأخذ أن يكونَ من حيثُ يظنُّ الأمنَ

دلَّت الإضافةُ في قوله: ﴿بُيُوتُهُمۡ﴾ على شدَّة تلبُّسهم بها، وتمكُّنهم منها، واطمئنانهم إليها، فهي تقيهم من الحرِّ والبرد، وتؤمّنهم من كلِّ خوف، حتى أخذَهم اللّه تعالى أخذَ عزيزٍ مقتدر، من حيث يأمنونَ وبما لا يحتسبونَ، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾ [الفتح: 7].

سرُّ التعبير بقوله: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾:

بقاءُ الدّور بعدَ موت السّاكنين آيةٌ للعالمين وعِبرةٌ للمعتبرين

عبَّر في وصف البيوتِ بعدَ التدمير بقوله ﴿خَاوِيَةَۢ﴾؛ لكونه أبلغَ في التعبير من (خالية)؛ لأنَّ الخلوَّ يعني فقط فراغَ البيوت من ساكنيها مَعَ بقائها هي، أما قوله: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ فهو أوسعُ دلالةً؛ فإنّه يعني كونها خاليةً من سكانها، كما هو حالُ بعضها، حيثُ بقيت البيوتُ منحوتةً في الجبال مع فراغها من سُكّانها، وأمّا بعضها ممّا كان مبنيًّا بالحجارة، فمع شدّة أركانها، وإحكامِ بنيانها، فقد أصبحت متداعيةً إلى السّقوط، فسبحانَ الفعّال لما يريد، القادرِ على الضَّعيف كقدرته على الشديد[2]. وهذا التركيب ﴿بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ أرسلَه القرآن في عددٍ من آياته مثلًا للخرابِ التامّ، الذي هو سقوطُ

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.

سقوفِ البناء وجدرانه، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259](1).

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

تعليلُ الإهلاك منهجٌ قرآنيٌّ لإقامة الحُجَّة على الظّالمين

(الباء) في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ هي باءُ السببيّة، المشعرةُ بأنَّ ما بعدها، وهو ظلمُهم كان السّببَ في حصولِ ما قبلَها، وهو التدميرُ والإهلاكُ المستأصِل المؤدّي إلى أنَّ بيوتهم خاويةٌ. و(ما) هنا هي المصدريّة، فتؤوّل وما بعدها بمصدر، أي: بظلمهم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿خَاوِيَةَۢ﴾.

سرُّ التعبير بالظُّلم في قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْۚ﴾:

الظّلمُ مرتَعٌ مُبتغيه وخيم

كلمةُ (الظّلم) في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ مقصودٌ بها المعنى الأعلى للظُّلم، وهو الشركُ باللّه تعالى والكفرُ به، إذ هو أعظمُ معاني الظُّلم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وبالأحرى فإنَّه يشتملُ أيضًا على ما دون الكفر؛ كالتكذيبِ والمكرِ والإفسادِ وسائر ما فعلَتْه ثمود في مواجهةِ دعوة صالح عليه السلام إيّاهم إلى التوحيد وعبادةِ اللّه وحده، فهذا كلُّه ظلمٌ: ظلمٌ في جانب اللّه؛ لأنه اعتداءٌ على حقٍّ وحدانيّته، وظلمٌ للرسول بتكذيبِه وهو الصّادق المُؤَيَّدُ بالمعجزات، فهذا من مُسوِّغات التعبير بالظُّلم دون غيره من الكفر والتكذيب، كما أنَّ من مُسوِّغاته أيضًا أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ للظلم أثرًا في خرابِ بلادهم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنَّه قال: أجدُ في كتاب اللّه أنَّ الظُّلمَ يُخرّبُ البيوت وتلا: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾(2).

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿ظَلَمُوٓاْۚ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾؛ للدلالة على تلبُّسهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.

التلبّس بالظُّلم والإغراق فيه مجلبةٌ للعذاب الأليم

الكامل بالظُّلم، وتحقُّقِ وقوعِه منهم بكاملِ أشكالِه، فلا يستطيعونَ منه فكاكًا ولا يقدرونَ على تغييره. ولذا عبَّر بالمصدر المؤوّل فقال: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ ولم يقل: بـ(ظلمهم) تعبيرًا بالمصدر الصريح؛ للدلالة على أنَّ ما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال هو ما فعلوه وتحقّقَ وقوعُه منهم من الكفر والتكذيب والإفساد والمكر ونحو ذلك ممّا هو من أفعال الظُّلم، فالتعبيرُ بالزمن الماضي الذي دلَّ عليه الفعلُ مقصودٌ، فإنَّ اللّه تعالى إنما يرتّبُ وقوعَ الجزاء على تحقُّق وقوع الفعل.

سرُّ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾:

أهـلُ العلـم والنـظَـر هم المنتفعونَ بالآيات والبراهين

سرُّ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، هو كونُ هذه الجملة مؤكِّدةً ومقرّرةً لمضمون ما سبقَها، ومعلِّلةً أيضًا للإخبارِ بذلك، وهو كونُ ذلك الإخبار يفيدُ منه أهلُ العلم بحقائق الأشياء وغاياتها، فهم الّذين يعتبرونَ بسُنَن اللّه تعالى في القضاء على مَن تحقّقَ إفسادُهم ولا أملَ في إصلاحهم.

دلالة مباشرة الحرف لاسم الإشارة في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

كفايةُ العذاب المدمِّر دليلًا للعالمين

في دخولِ الحرف ﴿فِي﴾ المفيد للظرفيَّة على اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشارِ به إلى ما ذُكر من إهلاك ثمودَ وتدميرها، دالٌّ على كفاية هذا السّبب وهو المشارُ إليه، وتمكُّنه من تحقيقِ الاعتبار والاتّعاظ لكلِّ متيقِّظ لحكمة اللّه في الانتقام من الظّالمين، ولهذا أيضًا عبَّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدالِّ على بعدِ منزلةِ المشار إليه، وهو استئصالُ ثمود، في الإبهار والإقناع بنصر اللّه لعباده المرسلينَ بالانتقام لهم من ظالميهم، وقوّى هذا المعنى وهذه الكفايةَ تقديمُ الخبرِ الظرفيّ الدالِّ على الحصر والاختصاص، إذ في ذلك العذابِ دونَ غيره تكمن العظةُ والعِبرة.

سرُّ تنكير مدخولِ اللّام في قوله: ﴿لَأٓيَةٗ﴾:

المرادُ بكلمة (الآية) هنا ما تدلُّ عليه من معنى العِبرة والعِظة

الكافيةِ المقنعة، وأنَّها وحدَها كافيةٌ في تحقيقِ ذلك، ولذلك أفردَها ولم يضمَّ إليها غيرَها لتكون آياتٍ، وأكَّد نسبةَ كفايةِ ذلك العذاب في كونه آيةً بإدخالِ (لام الابتداء) الدالّ على التأكيدِ، وفي تنكير الآية في قوله: ﴿لَآيَةً﴾ تفخيمُ أمرها، وتعظيمُ شأنها وشأنِ الاعتبار بها، وهكذا اجتمعتْ عدّةُ عناصرَ تركيبيّة في بيان كفايةِ ذلك العذابِ؛ ليكون آيةً لقوم يعلمون، وهي: (إنَّ التوكيديّة، وتقديمُ الخبر الظرفيّ، واسميّةُ الجملة، ولامُ الابتداء، وتنكيرُ المسند إليه وإفرادُه).

يعتبر العاقل من أول آية، والغافل يحتاج إلى تكرار الآيات

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ هي لامُ التعليل والغرض، يعني: آيةً مسوقةً لأجلِهم، أي: لأجلِ إيمانهم إنْ كان لهم علمٌ وعقلٌ ونظرٌ في الآية، وفيه تعريضٌ بأنَّ المشركين الذين سبقتْ إليهم هذه الموعظةُ، إنْ لم يتّعظوا بها، فهم قومٌ لا يعلمون[1]، ولا يبعدُ أنْ تكون (اللام) للاستحقاق، بمعنى أنّ هذه الآية لا ينتفعُ بها إلا المستحقّون لها من أهل العلم والفكر والنّظر، وأمّا الذين يفتقدون العلم والعقل فإنهم لن ينتفعوا بتلك المعجزة من خواءِ الدار من ساكنيها وهَجْر السكان لها مع بقائها وثباتها.

الابتلاء في الدنيا خطاب لمن يعقل من الناس

دلالة التعبير بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

لفظُ القوم يدلُّ على عموم الجماعة، فهو أوسعُ دلالةً من التعبير بلفظ (فريق أو طائفة أو جماعة)، وهو في الأصل يطلق على جماعة الرّجال، ويدخلُ فيه النّساء بالغلبة، ففي عامّة القرآن أُريد به الرجال والنّساء جميعا[2] وهو الأنسبُ هنا من غيره؛ لأنَّ علّة الذكر هي الاتصاف بالعلم، وهذا يجب أن يكون عامًّا شاملًا لكلّ مَن يعلمون دونَ تخصيصٍ لهم بفريقٍ أوْ طائفةٍ ونحوها. وفي تنكير

آيـــاتُ الـلـه للعالِمينَ المتأمّلينَ ذُكرانًا وإناثًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.

(2) الراغب، المفردات: (قوم).

لفظ ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ مدحٌ لهم وتفخيمٌ لشأنهم، لكونهم يعلمونَ وينتفعونَ بما يعلَمون.

نكتةُ التعبير بقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾:

العلم النافع المفيد أثرٌ للعقل السّديد الرّشيد

المراد بـ(العلم) هنا هو العلمُ بسُنن الله تعالى في الانتقام والاستئصال، وأنّه لا يكون إلّا لَمَن لا يُرجى خيرهم، أوِ المراد به مطلقُ "العلمِ بحَقيقَة الأشياء - وأولاه العلمُ بهذه السُّنن الإلهيّة - وخصَّهم بالذكر؛ لأنّهم المنتفعونَ بها، وإلّا فهي آيةٌ لكلّ أحد"[1]. وهنالك تلازم بين ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و(يعقلون)؛ فإنَّ مَن يعلمونَ هم مَن تحلَّوا بالعقل السّديد والنظر الصّحيح، الّذي قادهم إلى العلم المفيد، ولأنَّ المقصود هنا هو حصولُ أثر التعقُّل وهو هنا العلمُ النافع، فقد تمّ التركيزُ عليه والاكتفاءُ به، كما أنّ نقيضَ يعقلون (لا يعقلون)، وهم المجانين، ولم يرد التعريضَ بالكافرين بأنهم مجانين، بخلاف نقيض يعلمون وهو (لا يعلمون) وهم الجهّال، وأراد التفريقَ بين نظرِ الجاهلِ ونظرِ العالم، فخصَّهم بالذكر.

نكتةُ العدول عن (للّذين يعلمون) إلى ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾:

ينتفع بآيات الله من عقل وعلم مآلات أعماله

العدول عن لفظ الموصول (الذين) إلى ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ وجعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ صفةً له فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن يعتبر بهذه الآية مُتمكِّن في العقل والعلَم، حتى كان ذلك من صفته القوميّة، وأنه قد بلغَ من التمكُّن في هذه الصفة حدَّ الطّبع والسّجيّة، أي: "إنّ ذلك الوصف سجيةٌ فيهم، وأنّه من مكمِّلات قوميتهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها وتشتهرُ بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التوبة: 56]"[2] فالمعنى أنَّ في ذلك ﴿لَأٓيَةٗ﴾ للّذين سجيّتُهم العلمُ والتعقُّل والنظرُ في المآلات طلبًا لإدراك الغايات.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 415.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 89، 19/ 286.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الخير كله في مداومة التعقُّل

فائدةُ التعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ إفادةُ التجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة الاتصاف بالعلْم، وإعمالِ العقل في التفكُّر والتدبُّر والتأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولحثِّ هؤلاء على بذل الوسْعِ في المداومة على هذه النّعمة العظمى؛ وفي تكرار التأمُّل مرّاتٍ ومرّاتٍ للانتفاع بها، لأنَّ التكرار وخصوصًا معَ مَن هو كلِفٌ بالعلْم يساعدُ على الوصول إلى فرائد المعاني، فالخيرُ كلُّ الخير في المداومة عليه. كما أن فيه حضًّا لمَن أهملوا نعمةَ العقل والعلم، أنْ يتداركوا ما فاتهم من إهماله، كي يتعقّلوا الأمور، ويحصِّلوا غاياتها وفوائدَها. وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين وأمثالهم ممَّن لم يعتبروا ولم يَفۡطَنوا إلى حكمة اللّه تعالى وسُنَّته في الانتقام من الظالمين - مع تمكُّنهم من هذا - بأنهم قومٌ لا يعلمون؛ لأنهم لا يستعملونَ عقولهم فيما خلقها اللّه لأجلِه.

دلالةُ حذف متعلِّق ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

تحقّقُ الاعتبار لمَن له مسكةٌ من علْم

حذفُ متعلِّق ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ هنا؛ إما اختصارًا لكونه معلومًا، أي: يعلمون العلمَ الذي يدلّهم على حكمة اللّه ﷻ في الانتقام من الظالمين والانتصارِ للمرسَلين، أوْ لقصدِ تعميمه، وإمّا لتنزيل الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ منزلةَ الفعل اللّازم الّذي لا يفتقر إلى مفعول، بحيث يكون أساسُ الاهتمام هو كونهم ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مُتّصفين بالعلم، أوْ من شأنهم الاتصافُ به، وهو المقصود، وأنّه وحدَه كافٍ في تحصيل الاعتبار. قال أبو السعود: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: - يعلمون - ما من شأنه أن يُعلَم منَ الأشياء، أوْ لقومٍ يتصفونَ بالعلْم[1].

بلاغة التعريض:

مدح أهل العلم تعريضٌ بأضدادِهم

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة اعتراضية بين متعاطفات تفيد أغراضًا متعددة، منها: الحثُّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

على الإيجابيّة والإفادةِ من نِعمةِ العلْم والعقل، ومنها: التعريضُ بأنّ المشركينَ الذينَ سبقَتْ إليهم هذه الموعظةُ إنْ لم يتّعظوا بها فهم قومٌ لا يعلمون[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيوت والمنازل والمساكن:

اختلافُ الدلالات باختلاف الاعتبارات

تتقاربُ الدلالات حدَّ الاشتراك بين الألفاظ الثلاثة، كما أنّها تشترك أيضًا فيما بينها في الموضوع، من حيث إنّ كلًّا من (المنزل والبيتِ والمسكَن)، هو مكانٌ للإيواء والمعيشة والاحتماء من عَوادي المناخ حرّا وقَرًّا، وعوادي البشر والحيوانات ونحو ذلك. لكنْ كلُّ واحد منها يقال باعتبارٍ يختلف عن الآخر، كما ينبئُ عنه هذا التفصيل. فـ(البيتُ) كما يقول ابن عاشور: اسمُ جنس للمكان المتَّخَذ مسكنًا لواحدٍ أوْ عددٍ من الناس في غرضٍ من الأغراض، وهو مكانٌ من الأرض يحيطُ به ما يميزه عن بقيَّة بقعته من الأرض؛ ليكونَ السّاكنُ مُستقِلًّا به لنفسه ولِمَن يتبعُه، فيكون مستقرًّا له وكُنًّا يَكُنُّهُ من البرد والحرّ، وساترًا يستترُ فيه عن النّاس، ومحطًّا لأثاثه وشؤونه. وقد يكون خاصًا وهو الغالب، وقد يكونُ لجماعةٍ مثلُ (دار الندوة) في العرب، و(خيمة الاجتماع) في بني إسرائيل. وقد يكون محيطُ البيت من حجَر وطينٍ كـ(الكعبة ودار الندوة)، وقد يكونُ من أديم مثلَ (القِباب)، وقد يكونُ من نسيجِ صوفٍ أوْ شَعْر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80]. ولا يكون بيتًا إلّا إذا كان مستورًا أعلاه عن الحرِّ والقرِّ، وذلك بالسّقف لبيوتِ الحجر وبيوتِ الأديمِ والخيام[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 708.

وأمّا المساكنُ فجمعُ (مَسكَن) من الإسكان، وهو: جعلُ الشّيء في مسكن، والمسكَن: محلُّ القرار، يقال: سكنَ فلانٌ البيت، إذا جعلَه مقرًّا له، وهو مَفْعَلٌ اسمُ مكان مشتقٌّ من السُّكون، والسُّكون هو ثبوتُ الشيء بعدَ تحرّك[1]، ويُستعملُ في الاستيطان، نحوُ: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][2].

وأمّا المنزل فهو اسمٌ لما يَشْتَمِلُ على بيوت وصحْن مُسقّف ومطبخ، يسكُنُه الرجلُ بعياله[3].

خاوية وخالية:

التعبير بـ(خاوية) أبلغ وأوسع دلالة من التعبير بـ(خالية)

أَصل (خوى): يدلُّ على الخُلوِّ والتّداعي[4]، وفي الآية الكريمة ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾، وعبَّر في وصف البيوتِ بعدَ التدمير بقوله ﴿خَاوِيَةَۢ﴾؛ لكونه أبلغَ في التعبير من (خالية)؛ لأنَّ الخلوَّ يعني فقط فراغَ البيوت من ساكنيها معَ بقائها هي، أما قوله: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ فهو أوسعُ دلالةً؛ فإنّه يعني كونها خاليةً من سكانها، كما هو حالُ بعضها، حيثُ بقيت البيوتُ منحوتةً في الجبال مع فراغها من سُكّانها، وأمّا بعضها ممّا كان مبنيًا بالحجارة، فمع شدّة أركانها، وإحكام بنيانها، فقد أصبحت متداعيةً إلى السّقوط، فسبحانَ الفعّال لما يريد، القادرِ على الضَّعيف كقدرته على الشديد[5]. وهذا التركيب ﴿بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ أرسلَه القرآن في عددٍ من آياته مثلاً للخرابِ التامّ، الذي هو سقوطُ سقوفِ البناء وجدرانه، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259][6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29، 14/ 238.

(2) الراغب، المفردات: (سكن).

(3) الكفوي، الكليات، ص: 239.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوى).

(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾ [النمل: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دفع توهُّم شمول العذاب للمؤمنين بيانٌ ربانيٌّ متين

لمّا أخبر سبحانه في الآية السّابقة أنَّ بيوتَ ثمودَ أصبحت خاويةً نتيجة تدميرهم وقومَهم أجمعين، وكان ذلك ربّما أوهمَ أنَّ الهلاك عمَّ الفريقين الكافرينَ والمؤمنين؛ قال تعالى مُبيِّنًا حال المؤمنين: ﴿وَأَنجَيۡنَا﴾ بعظمتِنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم الفريق الّذين كانوا مع صالح عليه السلام كلُّهم، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَنجَيۡنَا﴾: (نجو) أصلُ النَّجاء الانفصالُ مِنَ الشَّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ وأَنْجَيْتُه ونَجَّيْتُهُ[2]. والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فيهِ المَخافَة، ونَظيرُها السَّلامَة، والتَّنجيةُ: الإنجاءُ وهو جعلُ الغَيرِ ناجيًا[3]. والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المرتفعُ الذي تظنّ أنَّه نَجاؤُكَ لا يعلوهُ السَّيل[4]. والمقصودُ في الآية: الخلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ.

2) ﴿يَتَّقُونَ﴾: (وقى) أَصلُ الوِقايةِ دَفْعُ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه، يُقالُ: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِه، أيْ: دَفَعَهُ بِه. واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ، أَي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ[5].والمُتَّقي: مَن اتَّصَفَ بِالاتِّقاءِ وهو طَلَبُ الوِقايةِ، وهو الحَذرُ المُتطلِّبُ للنَّجاةِ من شيءٍ مكروهٍ مُضِرٍّ[6]. والتَّوقّي: الحَذَرُ. والاتِّقاءُ: تَكَلُّفُ الوقايَةِ وهي الصَّونُ والدَّفْعُ[7]. والمقصود بالوقايةِ في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويَضرُّه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.
(2) الراغب، المفردات: (نجو).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.
(4) الجوهري، الصحاح: (نجا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (وقى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 226.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 393.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: وأنجَيْنا مِن سَخَطِنا وعَذابِنا صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه، الَّذين كانوا يَتَّقونَ سَخَطَ اللّهِ وعذابَه، ويَتجنَّبونَ الشِّركَ والمعاصيَ، ويَعمَلونَ بطاعةِ اللّهِ تعالى ويخافونَه(1).

سنّةُ الله إهلاكُ الظّالمين وإنجاءُ المؤمنين المتّقين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا﴾:

رحمةُ الله بالمؤمنين متلازمةٌ مع إرادته العذابَ بالمعذَّبين

(الواو) في قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا﴾ هي واوُ العطف، عطفَتْ هذه الجملةَ في الظّاهر والمفردةَ في الحقيقة على سابقتها ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾، والمعنى: فانظُرْ كيف كان عاقبةُ مكرهم تدميرَهم وتعذيبَهم بمكرنا في جانبهم، وانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ مكرنا بجانب المؤمنين إنجاءَهم من ذلك العذاب والدّمار؛ فيكونُ المكرُ البشريُّ قائمًا على مجرّد الإهلاك، بخلاف المكر الربانيّ فإنّه إهلاكٌ للظّالمين وإنجاءٌ للمتقين، والغرض من العطف رفعُ توهُّم أنَّ هلاكَ الاستئصالِ قد شملَ المؤمنين أيضًا، ولا يبعد أن تكون الواو استئنافية لبيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين لتحقيق غرض الاحتراس أيضًا.

سرُّ التعبير بـ(النّجاة) دونَ غيرها:

التخليصُ الكاملُ من العذاب عنايةٌ ربانيّةٌ عظيمة

النَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فيهِ المَخافَة، وهي نَظيرُ السَّلامَة، والتَّنجيةُ: الإنجاءُ، وهو جعلُ الغَيرِ ناجيًا(2) وأصلُ النَّجاء: الانفصالُ مِنَ الشَّيء، ويقال للمكان المرتفعِ الّذي تظنّ أنّه نَجاؤُكَ لا يعلوه السَّيل: النَّجْوَةُ والنَّجاةُ(3). ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: 92] قال جماعةٌ: معناه نُلقيك على نجوةٍ من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 95، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 218، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 606.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.

(3) الجوهري، الصحاح: (نجا).

الأرض. وهي ما ارتفعَ منها(1). فيُفهَم من هذا أنَّ التعبير بالإنجاءِ هو أبلغُ ما يُعبَّر به في هذا المقام؛ لأنه يعني التخليصَ الكاملَ من هذا الهلاك، حتى لكأنَّ المنجَيْن قد حُيِّدوا في مكانٍ مرتفعٍ بعيدٍ عن محلِّ التدمير والإهلاك.

سرُّ التعبير بالإجمال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإجمالُ والتفصيل من دقائق التنزيل

في هذه الآية اكتفى بجعلِ المتعلَّق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في حين جعل في سورة هود المتعلَّق صالحًا عليه السلام وعطف عليه الّذين آمنوا فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]. والجواب عن هذا أنّه اكتفى في النّمل بذكر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باعتبار المشاركة في الإيمان، أي: لما كان قومُه مشاركين له في أصل الإيمان قيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولمّا كان صالحٌ أصلًا في الإيمان قيل في آية هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66](2). كما أنَّ في سورة هود لم تشتملِ القصةُ على المكر الإلهيِّ فجاء التفصيلُ بين صالح عليه السلام والمؤمنين، وهنا كان المغزى بيانَ حقيقة المكر الإلهيِّ الشّامل لعقوبة الكافرين وإنجاءِ المؤمنين دونَ التفصيل بين أفراد أهل الإيمان.

بلاغةُ التعبير بجملة الصّلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون المؤمنين:

تأشيرُ العلّة في الإنجاء بيانٌ لحقيقة الدّواء

عدلَ هنا عن التعبير بـ(المؤمنين) إلى التعبير بجملة الصّلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ للتنبيهِ على سببِ إنجائهم المذكور في حيِّز الصّلة، وهو كونهم قد تحقَّقوا بالإيمان وحافظوا على التقوى، فـ "التَّعْبِير بالإيمان والاتقاء إشارَةٌ إلَى علَّة الإنجاء بحسب مُقتضى الوعد"(3). ولا يقالُ: إنَّ (المؤمنين) مشتقٌّ أيضًا فيكون فيه إشارةٌ إلى تعليلِ حُكم الإنجاء لما اشتهرَ من أنَّ تعليق الحكم بالمشتقِّ يُؤذن

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 142.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 415.

(3) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع حاشية القونوي: 14/ 416.

بعليَّة المدخل فيه وهو الإيمان؛ لأن (المؤمن) لما غلَب استعماله شعارًا لأفراد بعينهم صار مُنسلخًا عن معنى الحدوث، كما أنَّ التعبيرَ بالصِّلة المشتملة على الفعل الماضي يفيد أنَّ الإيمان كان صفةً ماضية فيهم واستمرّوا على القيام بمضامينها بخلاف دلالة اسم الفاعل (المؤمنين).

سر التعبير بالإيمان في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ يستلزم الإسلامَ بلا عكس

عبَّر بالإيمان دونَ الإسلام؛ لكونِ الإيمان هو الأصلَ والأساسَ الّذي ينبني عليه الإسلامُ والشعائر الظاهرة، وعلى قاعدة اشتمالِ أحدهما على الآخر عندَ الانفراد، والتفريقِ بينهما عند الاجتماع، كالحال في لفظي (الفقير والمسكين)، فإن الإسلام متضمَّن هنا في الإيمان.

سر التعبير بالتقوى بعد الإيمان مادّةً وصيغةً:

العلاقاتُ بين المفاهيم يكشف عنها البيانُ القرآنيُّ الفريد

ذكر التقوى بعد الإيمان في قوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ لكونها الترجمة الحقيقيّةَ الدالّة على تمكُّن الإيمان في القلب، فالإيمانُ ما وقرَ في القلب وصدَّقه العمل، والتقوى خشيةٌ من اللّه تبعثُ على اجتناب المنهيّات وفعل المأمورات، فيبني المتَّقي بذلك حصنًا يَقيه سخَطَ اللّه وغضبَه. ويُلحظ أنّه عبَّر في جانب الإيمان بالماضي، وفي جانب التقوى بالمضارع، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وذلك لأنَّ الإيمان عقدُ القلب الجازم فهو حاصلٌ دفعةً واحدة، وأما التقوى فهي متجدّدةٌ بتجدُّد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان[1]، وهذا فضلًا عمّا في التعبير عن التقوى بصيغة المضارع من مدحٍ لهم "بتصوير حالهم في تقواهم"[2].

دلالة التعبير بالفعل ﴿وَكَانُواْ﴾:

أوردَ فعلُ (الكون) في الكلام، فقيل: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ للدلالة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 11.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5464.

ملازمة التقوى شعارُ المؤمنين الصّادقين

على أنهم مُتمكِّنون من التقوى، وأنَّها ملازمةٌ لهم ملازمةَ السَّجايا والطّباع[1]، فقد كانت معهم في الماضي لم تُفارقهم فيه، أخذًا من صيغة الماضي ﴿وَكَانُواْ﴾، ثمَّ إنها حاضرةٌ مستمرّة معهم ومتجدّدة أخذًا من صيغة المضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾[2]، فهي ملازمةٌ لهم دائمًا على سبيل الاستغراق الزمنيّ، توقظهم وتنبِّههم عند كلّ ما يخافُ وقوعُه من المعاصي أوَ إهمالُه من الطّاعات.

دلالةُ حذف متعلّق ﴿يَتَّقُونَ﴾:

حُذف متعلّق ﴿يَتَّقُونَ﴾ اختصارًا للعلم به، أي: ﴿يَتَّقُونَ﴾ اللّه، بتجنُّب الشرك والمعاصي، وبتحقيق الإيمان باللّه واتّباع الرُّسُل، ويحتملُ إرادةَ العموم بحذفِ المتعلّق، فيتّقون اللّه تعالى ومعصيتَه وكلَّ ما يُؤدّي إلى البُعد عن طريقه العظيم. كما يحتملُ أن يكون الفعلان ﴿ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ المتعدّيان منزلينِ منزلةَ الفعل اللّازم، ويكون المرادُ الّذين وُجِد منهم الإيمانُ والتقوى وتحقّقا فيهم على سبيلِ الرُّسوخ والدّوام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 218.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤﴾

[النمل: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سَوْقُ قصّة لوط بعد الفراغ من قصَّة صالح عليه السلام

لمّا فرغ من قصَّة القريب الذي دعا قومه - صالحٍ عليه السلام - فإذا هم قسمانِ يختصمانِ، بعد الغريبِ الذي لم يختلفْ عليه ممَّن دعاهم اثنان - وهو سُليمان عليه السلام - أتبعَها بغريبٍ لم يتّبعه ممّن دعاهم من قومه إنسانٌ - وهو لوط عليه السلام - فقال دالًّا على أنَّه له سبحانه الاختيار، فتارةً يُجري الأمور على القياس، وأُخرى على خلاف الأساسِ، الَّذي تقتضيه عقولُ الناس، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: (فحش) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَناعَةٍ، ويأتي الفُحْشُ بمعنى الزيادَةِ ومُجاوَزَةِ الحَدِّ، ومنْهُ قيل لِلطَّويلِ طولًا زائدًا: إنَّه لَفاحِشُ الطّولِ، وكُلُّ شَيْءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ فهو فاحِشٌ[2]. والفاحِشَةُ: القَبيحُ والسَّيِّئُ مِنَ القَوْلِ أوِ الفِعْلِ، يُقال: فَحَشَ، وفَحُشَ، وأَفْحَشَ عَلَينا: أيْ: سَبَّنا، وقال قَوْلًا فاحِشًا[3]. ومِنْ مَعاني الفاحِشَةِ: التَّعَدّي والذَّنْبُ والزِّنا، وجَمْعُها: فَواحِشُ[4]. والمراد بالفاحشة في الآية: الفعلةُ الشَّنيعة المتناهيةُ في القبح، وهي إتيانُ الذُّكورِ.

2) ﴿تُبۡصِرُونَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، يُقال: بَصُرَ الطَّريقُ أيْ: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ[5]. والبَصيرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 181.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين: 1/ 156.
(3) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (فحش).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

والمُبْصِرُ: النَّاظِرُ لِغَيْرِهِ، وضِدُّهُ الأَعْمَى. ويَأْتي البَصَرُ أَيْضًا بِمَعْنَى: العِلْم والإِدْراكِ، وهيَ الرُّؤْيَةُ بِالقَلْبِ، كَقَوْلِكَ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ إذا عَلِمْتَهُ وأَدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدْراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمْعُ: بَصائِرُ[1]. والمرادُ بقوله تعالى: ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ في الآية: تعلمونَ عاقبةَ فِعلِها، أوْ يُبصِرُ بعضُكم بعضًا علانيةً أثناءَ الفاحشة، أي: تجاهرونَ بها من دون حياءٍ أوْ خجَل.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من شأنِ العُقلاء تركُ الذّنب المعلومِ شناعتُه

يبيِّنُ اللّه تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلام مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: واذكر لقومك حديثَ لوط لقومه إذ قالَ لهم مُنذرًا ومحذِّرًا: إنَّكم لتفعلونَ فاحشةً لم يسبقْكم بها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيانُ الذُّكورِ في أدبارِهم - والحالُ أنَّكم تُبصِرونَ وتدركونَ خطأَ ذلك؟![2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

في ذكر قصص الصّالحين تسليةٌ للمؤمنين، وتخويفٌ للظّالمين

(الواو) عاطفةٌ، و(لوطًا) معطوفٌ على ﴿صَٰلِحًا﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ أي: و﴿وَلُوطًا﴾ على معنى: أرسلنا (لوطًا). وقيل: هو معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وأَنْجَيْنا (لوطًا)[3]. ورجَّح الشّهاب الخفاجيّ أنّ العطف هنا ليس من باب عطف المفردات، ولكنّه عطفُ قصّةٍ على قصة[4]، على معنى: واذكرْ يا محمّدُ ﷺ لوطًا كما ذكرتَ قصصَ الأنبياءِ السّابقين له.

بلاغةُ حذفِ عاملِ النَّصب في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

أحاديّةُ اللّفظ وتعدُّدُ المعنى

يجوزُ أنْ ينصب ﴿وَلُوطًا﴾ لا لعطفِه على ﴿صَٰلِحًا﴾ أوِ ﴿ٱلَّذِينَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: 1/ 59.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 200، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 606.
(3) السمين، الدر المصون: 8/ 628، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 51.

﴿ءَامَنُواْ﴾ ولكن بفعلٍ مقدَّر تقديره: اذكر، أي: واذكر (لوطًا)، لأنَّ وجود ﴿إِذۡ﴾ بعدَه يقرّبُه من نحو: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 30][1]. وقيل: بل منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ صدرَ قصّةِ صالح عليه السلام، داخلٌ معه في حيّز القسم، أي: وأرسلنا (لوطًا). وعلى كلٍّ من هذه الاحتمالات يتحقّق معنى (الإرسال والذّكر والإنجاءِ)، فيكون التركيبُ واحدًا والمعنى متعدّدًا[2].

سرُّ تغيير الأسلوب في قصة لوط:

التوافُق والاختلاف موجِباتٌ وأغراض

لاشكَّ أنَّ من أغراض ذكر قصَص الأقوام مع أنبيائهم في القرآن الكريم، أنْ يعتبر بها المخاطَبون بالرّسالة الخاتمة، فكثيرٌ من هذا القصَص كانت تتشابهُ فيه طبائعُ الكفّار، كما تتوافقُ مواقفُهم المعاندةُ مع الرُّسُل عليهم صلواتُ الله وسلامُه، وردودُهم الجافّة على خطاب دعوتهم إيّاهم إلى التوحيد، حدَّ التطابقِ أحيانًا والتقاربِ الشَّديد أحيانًا أخرى، وكأنَّ المشاهِدَ البشريّة تتكرّر، وكأنَّ المخاطبين مع اختلاف أزمانهم وبيئاتهم ما هم سوى نُسَخٍ مكرورة. وكانت ثمود ممَّن تشابهت قصّةُ دعوتهم في أصل الدعوة، ثمَّ في طريقة المواجهة، مع قصةِ دعوةِ الرّسول ﷺ قريشًا وأهلَ مكّة باعتبارهم أوَّل مَن خوطبوا بالدَّعوة والرسالة، ولذلك صُرِّح بذكرهم فقيل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ لتعتبرَ قريش بما جرى لهم فلا يفعلونَ مثلَما فعلوا. أمّا في قصة لوط عليه السلام هنا، فإنه "لم يذكر المرسَل إليهم كما ذُكِروا في قصة ثمودَ، لعدم تمام المشابهة بين قوم لوط وبين قريش فيما عدا التكذيبَ والشِّرك"[3]، فقريشٌ لم تكن فيهم تلك الخصلةُ الشَّنيعة[4] التي اعتنتْ دعوةُ لوط

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287، والسمين، الدر المصون: 8/ 628.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

ﷺ بإنكارِها ومعالجتها، وهي خصلةُ إتيانِ الرِّجال شهوةً من دون النِّساء. ومن أسباب تغييرِ الأسلوب كذلك في ابتداء قصة لوط وقومه، إذ ابتُدئت بذكر ﴿وَلُوطًا﴾ أنّه لم يكن لقوم لوط اسمٌ يُعرفون به[1]، أمّا ثمود فمعروفونَ فلذلك ذكِروا به، ولذلك اختلف الأسلوبُ في عرض القصّتين هنا.

سرُّ عدم وصف (لوط) بأنّه أخوهم:

قرابةُ النبيِّ من قومه وعدمُها مـؤثّـران في طبيعة التعبير

إنّ لوطًا ﷺ كان ابنَ أخِ إبراهيمَ ﷺ، وقد نزلَ ببلاد (سدوم)، وكان أهلها خليطًا من الكنعانيّين وممَّن نزل حولهم، ولم يكن بينهم وبينه ﷺ نسبٌ أوْ قرابةٌ، ولذلك لم يصرِّح هنا بأخوتِه لهم في النَّسب[2]. إضافةً إلى أنَّ فعلتهم المشينةَ تبعثُ على النفرة منهم، فلا يصلح التقرُّبَ إليهم باسم (الأخوَّة) على أيِّ معانيها حُملَت.

سرُّ التعبير بالظّرف ﴿إِذْ﴾ وموقعُها الإعرابيّ:

ثبـاتُ النـص وحـركـةُ المعنى وثراؤه

القولُ في إعراب ﴿إِذْ﴾ ودلالتها متوقّفٌ على الفصل في إعراب ﴿وَلُوطًا﴾، فعلى إعراب ﴿وَلُوطًا﴾ مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، على حسب تقدير النّاصب المحذوف يكونُ إعراب ﴿إِذْ﴾، فإنْ كان تقديره: (اذكر) كانتْ ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لما مضى من الزّمان متعلّقا بـ (اذكر)، وإنْ جُعل تقديرُه (أرسلنا) كانت ﴿إِذْ﴾ بدلَ اشتمالٍ من ﴿وَلُوطًا﴾[3]. ودلالةُ الظرفيَّة على تقدير: (اذكر) أنَّ المعنى: اذكر يا محمد وقتَ أنْ قال لوطٌ لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فيدلُّ ذلك على رفعة قدرِ هذا الوقت وتعظيم مكانته؛ لأنه وقتُ نهيٍ عن المنكر، والنهيُ عن المنكر من أعظمِ القُرُبات إلى الله تعالى. وأمّا على جعل ﴿وَلُوطًا﴾ معطوفًا على ما قبله، فإنْ ﴿إِذْ﴾ يكون منصوبًا على أنّه ظرفٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 229.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 230.

للإرسالِ أوِ الإنجاء[1]. ودلالته على كونه ظرفًا للإرسال الإرشادُ إلى أنَّ لوطًا عليه السلام قد بادرَ إلى القيام بواجب الدعوة في النهي عن المنكر بمجرَّد إرساله، ولم يتباطأ في تلبيةِ ما أوجبَه عليه الإرسال، ولم يخفْ سطوة القوم وبطشَهم به، إنْ هو نهاهم عن هذا المنكر الذي تمكَّنَ من نفوسهم، فقلبَ فطرتهم ونكّسَها.

دلالةُ التعبير بالقول في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ﴾:

أهميةُ عامل الزّمن في حركة الدّعوة واستمرارها

التعبير بالقول في جملة: ﴿إِذۡ قَالَ﴾ يدلُّ على أنه عليه السلام حاورَهم وجادَلهم وقاولَهم في سبيل الإقلاع عن الفاحشةِ التي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، وفي إضافة الظّرف إلى القولِ تشخيصٌ لعامل الزّمن وأهميته في الدعوة إلى اللّه تعالى؛ إذ يرتبط الحدثُ بالزمان فيدلُّ على أنَّ لوطًا كان حريصًا على دعوة قومِه والتكلُّم معهم والوعظِ لهم، فالإضافةُ للتخصيص للزّمن بحدث القول والحوار المشتملِ على الدعوة، وإنما عبّر عن الدعوة بالقول؛ لأنها تستلزمُ الحديثَ والحوار والأسلوبَ اللّيِّنَ مع الدقَّة والعمق.

بلاغةُ التعبير بالقوم في قوله: ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾:

التنزُّهَ عن الفحشاء خلُقُ الرّجال المتقين

عبَّرَ عن المدعوّين المقول لهم الكلام اللَّيِّن الهادف بلفظ (القوم)، وأضافهم إلى ضمير النبي عليه السلام، ليدلَّ على حرصِه عليهم، وأنّه ما قال لهم ما قال إلا مراعاةً لمصلحتهم، ودرءًا للمفاسد عنهم، وهذا من فَرْطِ اعتنائه بهم وشفقته عليهم، لأنهم قومُه باعتبار أنّه عاش معهم، وبُعِث فيهم وهم أهلُ دعوته، والإضافةُ تكون لأدنى ملابسةٍ. وأراد بالقوم (الرجال)؛ لأنَّ هذه الخصلة الشنيعةَ كان يفعلها الرجالُ من قوم لوط، ومِن ثمَّ خاطبهم بالقوم لأنَّ الرجلَ هو الذي يقومُ على أمور أهله، فكأنّه قال: (إذ قال للرّجال) المضافينَ إليه بعنوان الرجولة، لكنَّه لا يفعل مثلَ فعلهم تنزُّها عنهم، فمعَ كونه

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 370.

رجلًا ويتمتّعُ بما يتمتّعون به إلا أنَّه لا يرضى لنفسه أنْ يكون معَهم ومثلَهم في ذلك.

دلالة التعبير بقوله: ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ دون (يا قوم):

دعــوةُ الأنبياء لأقوامهم وظيفةٌ شاقّة

(اللّام) في ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ هي لامُ العلّة والغرض، أي: قال ما قال لأجلِ نُصحِ الرِّجال من قومه على فعلِهم الشّنيع. وتحتملُ التعدية أيضًا، وتسمَّى عند بعض النحويين لامَ التبليغ، التي تُشْعِر بأنّه ﷺ قد قام بواجبِ تبليغِهم رسالةَ ربِّهم. ولأجل أنّهم ليسوا قومَه في النسب لم يقل لهم: (يا قوم) بإضافتهم إليه بياء النّسبة كما سبقَ في قصَّة صالحٍ ﷺ، بل اكتفى بعبارة ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ مضيفًا لهم إليه بهاء الغائب؛ لأنه بعيدٌ عنهم نسبًا وفعلًا وأخلاقًا، وسبق تعليلُ الإضافة بأنه مَرْعيٌّ فيها إقامتُه ﷺ فيهم وإرسالُه إليهم، وأنَّ خطابه للرِّجال منهم فأضافَهم إليه لأجلها.

دلالة الاستفهام في قوله ﴿أَتَأۡتُونَ﴾:

التوبيخُ الشديد مـتـسـقٌ مع الفعلِ الشَّنيع

(الهمزة) الداخلة على المضارع في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ هي للاستفهام الإنكاريِّ، المقصود به التوبيخُ والزّجرُ والتشنيع[1]؛ لأنَّ المنكَر عليهم هنا ليس مجرّدَ ذنبٍ قد يقع فيه أيُّ أحد، ولكنَّه جُرمٌ شديدٌ يعبّر عن انحرافِ الفطرة التي فطرَ اللّٰه الإنسان عليها، حيثُ جعلَ منه ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النجم: 45]، لكنَّ هؤلاء القوم بدَّلوا فطرتهم فعافوا الإقبالَ على الزوجات، واستبدلوا بهنّ الرّجال، فكان هذا الإنكار الشديدَ عليهم. وقوّةُ الإنكار تكونُ على قدر قوَّة المنكَر ومَدى تفشّيه في مجتمعِ الدَّعوة.

سرُّ التعبير بالإتيان في ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ دون (أتفعلون):

التعبير بالإتيان يدل على القصد فــي الـفـعـل والـسـهـولـة في المجيء

أوثر التعبير بالإتيان في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ لما في التعبير به من دلالةٍ على القصدِ في الفعل، والسُّهولة في المجيءِ للفاحشة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/ 99.

والاعتياد وعليها حتى صارت حدثًا عاديًا، فهذانِ المعنيان أخصُّ ما يدل عليه لفظُ الإتيان[1]. والقصدُ يعني أنّهم لا يفعلونها عرَضًا أوِ اتفاقًا، أوْ نتيجةً لضعف النّفس وانهزامِها أمام شهوتها مرّةً أوْ مرَّتين، يعقبُهما ندمٌ وتوبةٌ وعزمٌ على عدم العوْد، بل إنهم كانوا يعمَدون إليها عن قصدٍ وعزمٍ وتدبيرٍ لها، وإصرارٍ عليها إصرارًا يُخرجهم عن دائرة الحيوانيّة، وليس فقط عن دائرة الإنسانيَّة؛ لأنَّ الحيوان لا يقوم بهذا الفعل مع أمثالِه في النوع. وأمّا السّهولة؛ فلأنَّهم لاعتيادِهم عليها صارَ الإقبالُ عليها بالنّسبة لهم هو العادةَ والإلْف، أي: ما يفعلُه المرء على أنَّه السّلوك الطبيعيُّ الذي لا يَتكلَّفُ له. لهذين السّببينِ كان التعبير بـ(الإتيان) هو التعبيرَ الأنسبَ هنا. وأمّا لفظ (الفعل) فهو من الألفاظ العامّة التي لا يعبرُ بها عن خصوصيّة عملٍ معيّن، وإنما يصلحُ التعبير به عن كلّ شيء يرادُ إنجازُه، كما أنّه ليس نصًّا في الدلالة على القصديَّة، ولذلك يُسند إلى الحيوانات غير العاقلة[2]، فيقال: (فَعَلَ، وفَعَلَت) فلهذا أوثر عليه التعبير بالإتيان. ونلحظُ أنَّ فعل الإتيان يستلزمُ أنَّ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ في مكانٍ ويأتون إليها راغبين، بخلاف الفعل الّذي لا يُجسّدُ الفاحشة على أنّه في محلٍّ ويقدمُ عليه، وفي ذلك دلالةٌ على طلبهم للفاحشة وحرصِهم عليها.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾:

تنزُّهُ ألفاظ القرآن غايةٌ تهذيبيّة

في قوله هنا: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ كنايةٌ عن مقارفةِ فاحشةِ[3] إتيانِ الذُّكران، فيما يُعرَفُ قديمًا بـ(اللِّواط)، وحديثًا بالشُّذوذ والمثليَّة، ومقصودُ الكناية الإشعارُ باستقذارِ هذه الفِعْلة وتبشيعِها، حتى إنّه لا يحسُنُ التصريحُ بها.

(1) الراغب، المفردات: (أتى - جاء)، والعسكري، الفروق اللغوية ص: 309، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.
(2) الراغب، المفردات: (فعل - عمل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/ 231.

سرُّ التعبير بـ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ معرّفةً:

الذّنبُ العظيم فحشٌ شنيع

الفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قبحُه من الأفعال والأقوال[1]، ولأنَّ هذه الفعلةَ من أقبحِ الفِعال وأشنعِها، فقد عبَّر عنها بـ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ تعظيمًا لها وتعريفًا بأمرها الشنيع. وآثر التعبيرَ بها معرَّفة بـ (أل) فقال: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ وهي للعهد العلميّ، ذلك أنه لمّا كان هذا الفعلُ معهودًا قبحُهُ مركوزًا في العقول فحشُهُ أتى به معرَّفًا بـ(الألف واللام) على سبيل الذمِّ. ويجوز أن تكون (أل) فيه للجنس على سبيلِ المبالغة، كأنّه لشدَّة قُبحِه، جُعِل كأنّه حقيقةُ الفواحش، لبُعد العربِ عن ذلك البعدَ التام[2]، وذلك بخلاف الزنا فإنه قالَ فيه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ [الإسراء: 32] فأتى به منكَّرًا، أي: فاحشةً عظيمةً من الفواحش، وكان كثيرٌ من العرب يفعلُهُ، ولا يستنكرونَ من فعله، ولا ذكرِه في أشعارهم[3].

دلالةُ التعبير بالمفرد ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

إفـــرادُ الـكـلام لـقُـبـحِ الـفـعـلِ المُلام

على القول بأنَّ (أل) للجنس يكون المفردُ قائمًا مقامَ الجمع لصدقِه بالواحد والجمع، وتكون هذه الفِعلةُ لِعظَم قُبحها كأنَّها قد جمعتْ قبحَ كلِّ الفواحش، فعبَّر عنها بالفاحشة قصدًا إلى ذلك، فكأنها لشدَّة قُبحها جُعلت جميعَ الفواحش[4]. وإنَّ قومًا كهؤلاء سَهُل عليهم أن يُنكِّسوا فطرتهم لا يُشكُّ في أنه كانت لهم فواحشُ أُخرى، وعظائمُ في القبح غيرَ هذه، لكنّ كلَّ فاحشة سواها فهي في القُبح دونها بلا رَيب، ولذا أفردَها وكأنّه ليست لهم فاحشةٌ سِواها.

دلالة التعبير بجملة: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾:

صـــدورُ القبيح مـن الـعـالـم به شناعةٌ عظيمة

قوله: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ من فاعل ﴿أَتَأۡتُونَ﴾ مفيدةٌ

---

(1) الراغب، المفردات: (فحش).

(2) يدل على ذلك ما صح نقله عن الوليد بن عبد الملك من قوله: "لولا أن الله قص علينا قصة قوم لوط في كتابه، ما ظننت أن ذكرا يأتي ذكرا كما تؤتى النساء". ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية: 12/ 403.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

تأكيدَ الإنكارِ عليهم وتشديدَه، وزيادةَ تبكيتِهم وتوبيخهم، فإنَّ تعاطيَ القبيح من العالم بقبحِه أقبحُ وأشنع، وهذا القبيحُ الذي تعاطَوه لا يجهلُ أحدٌ قبحَه، حتى إنَّهم يشاهدونَ تنزُّهَ الحيوان عنه، كما يعلمونَ سوءَ عاقبته، وسوءَ عاقبة الَّذين خالفوا أنبياءَهم من قبلهم[1]. ومع ذلك لم يستنكِفوا عن فِعلتهم أوْ يخجَلوا من ممارستِها.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ﴾:

استباحةُ الفعل الشنيع مستوجبةٌ للمواجهة الصّارخة

التعبيرُ بضمير الخطاب الجمعيِّ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا مُجمعينَ على ممارسة هذه الفعلة الشَّنيعة دونما خجلٍ أوِ ارعواء، وكأنَّها هي الفطرةُ وليس العكس، فإنهم لم يَلتفتوا يومًا إلى أنَّهم قد نكّسوها، وخالفوا سنّةَ اللّه فيها. كما يدلُّ خطابهم بالضمير الجمعيِّ كذلك على أنَّه ﷺ كان يواجههم - على كثرتهم مع سفههم- ولا يهابُهم أداءً لواجب البلاغ، وثقةً في حماية اللّه تعالى له ونَصْره إيّاه.

بلاغةُ التعبير بـ(البصر) في قوله: ﴿تُبۡصِرُونَ﴾:

البصرُ كافٍ للاعتبار ومانعٌ للفجّار

البصرُ في قوله: ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ يحتملُ أنْ يكون من (البصيرة) وهي رؤيةُ القلب وبصرُه ورؤيته للأمور، والمعنى: أتفعلونَها والحالُ أنتم تعلمونَ علْمًا يقينيًا أنها فاحشةٌ بالغةُ القُبْح؟ ويحتملُ - وهو الأظهرُ - أنْ يكونَ من بصَر العين ونظرها، أي: وأنتم ترونَ وتشاهدونَ كونها فاحشةً مستنكرةً تخالفُ الفطرةَ السَّليمةَ، وعمَلًا قبيحًا لا يُشكُّ في خساستِه، على تنزيلِ ذلك الكون لظهوره منزلةَ المحسوس[2]. أوْ أنَّ المعنى: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ ما حَلَّ بأصحابِ الفساد قبلَكم من أقضيةِ اللّه عليهم[3]. فتَعتبروا وتتّعظوا فَتَنتهوا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 452، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 341.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10805.

عنها. وعلى ذلك فإنَّ التعبير بالبصر "فيه إشارةٌ إلى أنَّ البصر يكفي لإثباتِ قُبحه، فهو قبيحٌ حسًّا وطبعًا وعقلًا، إذ هو بالحسِّ وضعٌ للشيء في غير موضعِه، واستعمالٌ للمكان في غير ما خُصِّصَ له بمقتضى الفطرة السَّليمة"[1].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ وحذف متعلِّقه:

اعتيادُ الذّنب من المجرمين مُستوجِبٌ للعقاب الكبير

عبَّر بالمضارع فقال: ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ للدلالة على حضور قُبحها أمامَهم حضورًا مستمرًّا؛ لكونها هي نفسُها حاضرةً بينهم حضورًا مستمرًّا، كسلوك مُنحرفٍ يتكرّرُ من عامَّتهم. وحُذِف المتعلِّق لتذهبَ النفس في تقديره كلَّ مَذهب، فيقال مثلًا: تُبصرونَ كونها فاحشةً، أوْ: تُبصرونَ قُبحها وتعلمونَ مَدى اعوجاجِها، أوْ: تُبصرون حالَ أهلِ الفساد من قبلكم كيفَ كان مصيرُهم؟ ويمكنُ أن يكون من تنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، والمعنى: "أوْ: وأنتم ينظرُ بعضُكم بعضًا - أثناءَ مُمارستها - لا يستترُ، ولا يَتحاشى من إظهار ذلك، لعدمِ اكتراثِكم به"[2].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التفصيلُ بعد الإجمال والتصريحُ بعد التلويح

بعدَ أنْ وجَّه لوط عليه السلام الإنكارَ إلى قومه بسببِ إتيان الفاحشة سالكًا سبيلَ الإجمال، انتقلَ من هذا الخطاب إلى البيانِ والتفصيل، فوضَّح "لهم قُبْحَ فِعلهم بالتوضيح الواضح، بعد التلويح اللّائح"[1] فقال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهۡوَةٗ﴾: (شهو) أصلُ الشَّهْوَةِ: الرَّغْبَةُ الشَّديدَةُ، يُقالُ: شَهِيَ الشَّيءَ وشَهاهُ، يَشْهاهُ، شَهْوَةً، واشْتَهاهُ، وتَشَهّاهُ: إذا أَحَبَّه ورَغِبَ فيه[2]، والشَّهْوَةُ أيضًا: اشْتياقُ النَّفْسِ، والشَّهْوانُ: الشَّديدُ الرَّغْبَةِ في الشَّيْءِ، والمَرْأَةُ: شَهْوَى، وشَيْءٌ شَهِيٌّ، أي: لَذيذٌ مَحْبوبٌ، والتَّشَهّي: شَهْوَةٌ بَعْدَ شهوةٍ، وتَشَهَّتِ المَرْأَةُ فأشْهاها زَوْجُها: أي أطْلَبَها ما تَشَهَّتْ[3]، والجَمْعُ: شَهَواتٌ. والمُراد بالشَّهوةِ في الآيةِ: تشوُّقُ النَّفْسِ إلى ما يَلَذُّ لها، وهي: إتيانُ الرِّجال مِنْ دونِ النِّساء.

2) ﴿تَجۡهَلُونَ﴾: (جهل) أصلٌ يدلُّ على خلافِ العِلْم، والجَهْلُ: التَّقدُّمُ في الأُمور المُنْبَهِمَةِ بِغَير عِلْمٍ[4]، قالَ الرّاغِبُ: الجَهْلُ على ثلاثَةِ أَضْرُبٍ: **الأوَّل**: هوَ خُلوُّ النَّفْسِ مِن العِلْمِ، وهذا هو الأَصْلُ. **والثّاني**: اعتقادُ الشَّيْءِ بِخِلافِ ما هو عليه، **والثّالِث**: فِعْلُ الشَّيءِ بِخِلافِ ما حَقُّه أَن يُفْعَلَ، سواءٌ اعتُقِد فيهِ اعتِقادًا صَحيحًا أم

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465.
(2) ابن سيده، المحكم: (شهو).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن سيده، المحكم: (شهو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (جهل).

فاسِدًا، كتارِكِ الصَّلاةِ عَمدًا[1]. والتَّجاهُلُ: أن يُرَى مِنْ نَفْسِهِ الجَهْلَ ولَيْسَ بِهِ، واسْتَجْهَلَه: عَدَّه جاهِلًا واسْتَخَفَّه أيضًا، والتَّجْهيل: أن تَنْسُبَهُ إلى الجَهْلِ[2]. والمرادُ بقوله: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ في الآية: تفعلونَ فِعلَ الجُهلاءِ الَّذين لا يُقدّرون العاقبةَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّهوةُ المحرَّمة تَصدُرُ عن جَهلٍ، لا عن طبيعةٍ وفِطرة

قال لوطٌ لِقَومِه: (أَينبغي أنْ تأتوا الرِّجالَ وتقودَكم الشَّهوةُ إلى ذلك، وتذروا النِّساءَ اللّاتي فيهنَّ محاسنُ الجمال، وفيهنَّ مباهِجُ الرِّجال، الَّتي أحَلَّها اللّهُ لكم، بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ، مُتجاوِزونَ لحُدودِ اللّه، مُتجرِّئون على محارِمِه)[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ هذه الجملة عمّا قبلَها:

الحاصلُ بعدَ الطّلب أعزُّ من المنساق بلا تعب

هذه الجملةُ مبيّنةُ الجملةَ السّابقة التي عمَدت إلى اتخاذ الإجمالِ منهجًا بقوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾؛ إذ سماعُ أنّهم يأتون بالفاحشة العظيمة والفِعلةِ الشَّنيعة يجعلُ الذهنَ مُشتاقًا لسَماعِ طبيعة ذلك الذَّنب العظيم، فجاء البيانُ في هذه الجملة التاليةِ المفتتَحة بأسلوب التأكيدِ أيضًا: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ بقصدِ زيادة التوبيخِ والإنكار، فكانَ بين الجملتين شبه كمالُ الاتصال، ولذلك فُصلتا. وقيل: سرُّ الفصل هو كونُ الجملتين معًا مقولَ القول، وأنّه ﷺ قال لقومِه الجملتين معًا بلا فاصلٍ يفصلُ بينهما[4]، ولذلك لم يُعطَفْ بينهما بـ(الواو).

دلالةُ الاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ وتكرُّره:

الذنبُ العظيم يحتاجُ إلى الإنكار الكثير

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ إنكاريٌّ أيضًا

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (جهل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 96، والواحدي، التفسير البسيط: 17/ 269، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 219.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 163.

كما أنَّ الاستفهام السّابقَ إنكاريٌّ كذلك، وفائدةُ الثاني تأكيدُ ما دلَّ عليه الأوّل من الإنكار، "وبيانٌ لما يأتونَه من الفاحشة بطريقِ التصريح بعدَ الإبهام"(1).

دلالةُ توالي المؤكِّدات في الجملة:

كثرة المؤكِّدات تشديد في الإنكار عليهم لكمال شناعة فعلتهم وقبحها

أُكِّدت هذه الجملة بثلاثةِ مُؤكّدات هي: إنَّ التوكيدية، واسمّية الجملة، ولامُ التوكيد الداخلةُ على الفعل المضارع، وهذه المؤكّدات المتواليةُ تدلُّ على تشديد الإنكار(2) عليهم بسببِ عُكوفهم على هذه الجريمةِ النَّكراء، التي هي في الواقع جنايةٌ على الفطرة الإنسانيَّة، وفي توالي المؤكّدات أيضًا إيذانٌ بأنَّ مضمونَ الجملة "ممّا لا يُصدّقُ وقوعَه أحدٌ لكمالِ شَناعته"(3).

سرُّ إيراد المفعول ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ بعنوان الرّجوليّة:

غايات التعبير في هذا الإنكار والتذكير

في قوله: ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بإيثارِ عُنوان الرجوليّة دون الذكوريّة غاياتٌ؛ منها: زيادةُ تقبيح هذه الفِعلة، فإنَّ ذلك الإتيانَ هو شأنُ النّساء لا الرّجال، وأمّا شأنُ الرّجال فغيرُ هذا، وتربيةُ هذا التقبيح في النّفوس، وامتهانُ مَن يفعل هذا الفعلَ ومَن يُفعَلُ به؛ إذ لو كان رجلًا حقيقيًّا رفضَ مثلَ هذا التصرُّف القبيح، وتحقيقُ المباينة بينَها وبينَ الشّهوة التي علَّل بها الإتيان(4)؛ فإنَّ هذا الإتيانَ وإنْ كانت وسيلته الشّهوةَ، إلا أنَّ له علّةً عُليا، وهي الإنجابُ لحفظ النَّوع، وتلك غايةٌ كلّيّةٌ لا يمكنُ تحقيقُها إلا بالمباشرة الطبيعيَّة بينَ الذّكَر والأُنثى، ولذا جعلَ اللّه تعالى خلْقَ الذّكر والأنثى، فيكونُ كلُّ واحدٍ منهما للآخر، وجعلَه إحدى دلائلِ قُدرته ونِعَمِه على خَلْقه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم: 45]، وجعلَ هذه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 292، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 163.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 292، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 292.

القدرةَ مَحَلًّا للقسم، فقال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل: 3] أي: والقادرِ الّذي خلقَ صنفَي ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل: 3][1]، وجعل سبحانه النِّساء للرِّجال محلَّ الإتيان لحفظِ النّوع، فقال: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 223]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ [النحل: 72]. فهذه النصوصُ القرآنيّةُ المتنوّعة في تراكيبها وأغراضها وسياقاتها، تؤكّد كلُّها أنْ لا مكانَ لعلاقة طبيعيّةٍ إلا إذا كانتْ مقيّدةً بذكر وأنثى، مع ضبطِ هذه العلاقةِ وربطها برباطِ الزوجيَّة الشرعيَّة، وهو ما لا يتحقّقُ في إتيان الرِّجالِ الرَّجالَ، وهذه أيضًا إحدى غاياتِ الإنكار المنبعثةِ من فيضِ قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ لأنَّ هذا الإتيانَ لا يتأتّى شرعًا إلا بواسطة الزَّواج، ولا تزاوجَ بينَ رجلٍ ورجلٍ. بقي أنَّ جمع ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ وتعريفَهم يدلُّ على شيوع هذه الفاحشة، وانتشارِها انتشارَ النّار في الهشيم.

سرُّ تعليل الإتيان بالشّهوة في قوله: ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾:

اتّباعُ الإنسان لشهواتِه انحطاطٌ لرُتبة البهائم

في تعليلِ الإتيانِ بالشَّهوة تقبيحٌ على تقبيح، ليس لقُبحِها في نفسِها فإنَّ اللّه تعالى هو الذي ركّبها في خلْقِه لتحقيقِ غاياتٍ جعليّةٍ من ورائها، ولكنْ محلُّ القبح هو أنها ليستْ في محلّها، فإنَّ محلَّها النّساء وليسَ الرجال؛ ففي قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ إشارةٌ إلى أنهم مُخطئون في محلّها فعلًا، كما أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ الغرض الأَسمى والحِكمة الأعلى في المواقعة هي طلبُ النّسل، وليس مجرَّدَ قضاء الوطَر والشّهوة، خصوصًا إذا كان قضاءُ الوطَر بهذه الطّريقة الشاذّة المباينةِ للفطرة، وكأنَّ فاعلَها قد انحطَّ ونزل بها إلى رُتبة البهائم، التي ليس لها فيها قصدُ ولدٍ ولا عفافٌ[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 163، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 182، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 245، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

سرُّ التعبير بـ﴿شَهۡوَةٗ﴾ دون اللّذَّة والرغبة:

إشباعُ الشّهوة المنحرفة انـزلاقٌ في دهليزٍ مُظلم

التعبيرُ بالشّهوة أقوى من التعبير بغيره؛ لأنّه يعني "نزوعَ النّفس إلى ما تريده"[1] بما يعني شدَّةَ التعلُّق بالشيء، وهي أسبقُ وجودًا من اللّذَّة، فاشتهاءُ الشيءِ يعني شدَّةَ التعلُّق بما يحقّقُ اللذَّة، وهو أمرٌ نفسيٌّ وقلبيٌّ، واللذّةُ هي حصول المُشتهَى وهو أمرٌ حسيٌّ، وقد قالَ العسكريّ في التفريق بينهما: الشّهوةُ توَقانُ النّفس إلى ما يلذُّ ويسرّ، واللذّةُ ما تاقتِ النفس إليه ونازعتْ إلى نيله[2]. ولذلك أسندَ القرآن الكريم الشَّهوة إلى النفس، واللذَّة إلى العين في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف: 71]. كما أنَّ تعلُّقات النفس أوسعُ وأكثرُ من تحقُّقات اللذَّة، فكم تشتهي النفسُ من أشياء، ولكن ليس كلُّ ما تشتهيهِ يتحقّقُ، أوْ قد يتحقّقُ لكن لا تحصَلُ لذّتُه، فكان التعبير بالشَّهوة باعتبارها الداعية المحرّكة نحو حصول اللذَّة، أقوى من التعبير باللذّة، وأقوى أيضًا من التعبير بالرّغبة على كلِّ حال.

الدلالة الإعرابية لـ﴿شَهۡوَةٗ﴾:

تـعـدُّدُ وجـوهِ الإعـراب ثـراءٌ في المعنى

في نصب ﴿شَهۡوَةٗ﴾ احتمالاتٌ متعدّدة:

الأوّل: إنّه مفعولٌ من أجله، أي: تأتونَ الرّجالَ لأجلِ الاشتهاء، لا حاملَ لكم عليهِ إلّا مجرّدَ الشَّهوة لا غيرُ.

الثاني: أنّها مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، أي: مُشتهينَ إتيانَ الرّجال.

الثالث: إنه باقٍ على مصدريّته، وناصبُه ﴿لَتَأۡتُونَ﴾؛ لأنه بمعنى تشتهون[3].

دلالة التعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ ابتدائيّةٌ، والظَّرف صفة

---

(1) الراغب، المفردات: (شها).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 306.

(3) السمين، الدر المصون: 5/ 372.

الشّهوة، والمعنى: شهوةٌ مُبتدأةٌ مِن دونهنّ، أو: إتيانًا مُبتدئًا مِن غيرهنَّ، وقيل: هي في محلِّ نصبِ حالٌ من ﴿ٱلرِّجَالَ﴾، أي: تأتونَ الرّجالَ مُنفردينَ عنهنَّ، أوَ مُتجاوزينَ عنهنَّ، وهُنَّ في الأصل محالُّ الشّهوة. وفي الجملة هناك إشارةٌ إلى أنّهم مُخطئون في ذلك تركًا، كما كانوا مخطئينَ في إتيان الرِّجال فعلًا، فأساؤوا من الطّرفين في الفعلِ والتَّرك[1].

الدلالة على أن خطأهم في ترك إتيان النساء ليس أقلَّ من خطئهم في إتيان الرجال

دلالة التعبير بـ ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾:

الترقّي في سِلك العِصيان شأنُ المُخطئين

﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ للإضراب، فقد أضربَ بـ ﴿بَلْ﴾ للانتقالِ والترقّي وليس للإبطال، وهو إضرابُ انتقالٍ من الاستفهام الإنكاريِّ، إلى محض تقريعِهم وتبكيتِهم بوصفِهم بالجهل، والجملةُ استئنافيّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب[2]، وقيل في توجيه الإضراب أيضًا: إنَّه لمّا كان قوله: ﴿شَهْوَةً﴾ ربَّما أوهمَ أنّهم لا غنىً لهم عن إتيانهم للشّهوة الغالبة، لأنّ النّساء لا تكفيهم، لذلك نفى هذا بقوله: ﴿بَلْ﴾ أي: إنَّكم لا تأتونهم لشهوةٍ مُحوجةٍ، بل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3] فتكون (بل) للإضرابِ والإبطالِ حينئذٍ.

دلالةُ التعبير بالخبر: ﴿قَوْمٌ﴾:

الإقدامُ على هذا العمل الشّنيع دليلُ الجهل الفظيع

الإخبارُ بقوله: ﴿قَوْمٌ﴾ في الجملة، بحيث لم يكتفِ في تكوين الجملة بالقول: (بل أنتم تجهلون) يدلُّ على أنَّ ما تبعَ لفظَ ﴿قَوْمٌ﴾ من وصْفِ الجهل هو سجيَّةٌ في المخاطبين وطبعٌ فيهم، وهذا يعني أنَّ معنى قوله: ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: قومٌ مطبوعونَ على ممارسةِ الجهل، وأنَّكم قد بلغتم فيه مبلغًا لا يوصَف، فإعادتُه تأكيدٌ على سوءِ طَبْعهم وقُبْحِ سَجيّتِهم.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 417، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 182، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 372.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 182.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

الخطابُ المباشر أرسخُ تأثيرًا وأوضحُ بيانًا

قد يقالُ: كانَ من الممكنِ أنْ يقال: (يجهلون) لمناسبة ﴿قَوۡمٌ﴾ المعاملِ في إرجاع الضّمير إليه معاملةَ الغائب، فلِمَ العدول؟ قال الزمخشري في تصوير هذا السُّؤال، ثمَّ الإجابة عنه: فإن قلت: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ صفةٌ لـ(قوم)، والموصوف لفظُه لفظُ الغائب، فهلّا طابقتِ الصفةُ الموصوفَ فقُرئ بالياء دون التاء؟ وكذلك ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تُفۡتَنُونَ﴾؟ قلتُ: اجتمعتِ الغَيبة والمخاطبة، فغُلِّبت المخاطبة، لأنها أقوى وأرسخُ أصلًا من الغيبة[1]. وعلّل بعضُهم ذلك بأنَّه من (باب الالتفات) من الغَيبة التي في ﴿قَوۡمٌ﴾ إلى الخطاب في ﴿تَجۡهَلُونَ﴾، قال الآلوسي: وتعقَّبَه الفاضل السّيالكوتي بأنّه وهمٌ؛ إذ ليس المراد بـ ﴿قَوۡمٌ﴾ قومَ لوط، حتى يكونَ المعبَّرُ عنه في الأسلوبينِ واحدًا، كما هو شرطُ الالتفات، بل معنىً كليٌّ حُمِل على قوم لوط عليه السلام[2]. وثمّتَ سؤالٌ آخر طرحَه الزمخشري أيضًا قال فيه: فإنْ قلتَ: فسَّرتَ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ بالعلْم وبعدَه جاء ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾ فكيف يكونونَ عُلماءَ وجُهلاء؟ قلت: أرادَ تفعلونَ فعلَ الجاهلينَ بأنّها فاحشةٌ، مع علْمِكم بذلك، أوِ المعنى: تجهلونَ العاقبة، أوْ أرادَ بالجهل السّفاهةَ والمجانةَ التي كانوا عليها[3].

دلالة وصفهم بالجهل في قوله: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

الجهلُ أساسُ كلِّ شرٍّ ومعصيةٍ وضلالٍ

تضمَّن قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾ وصفَهم هنا بالجهالة، وهي اسمٌ جامع لأحوال أَفَنِ الرّأي، وقَساوةِ القلب، وسفاهةِ التصرّف وحُمْق العمل، وقد وصفَهم في آية (الأعراف) بالإسراف، فقال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ مُّسۡرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف: 81]، وفي آية (الشعراء) بقوله:

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 374.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 210.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 374، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 562.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: 166] وقد يُعلَّل ذلك باختلاف المقامات، وتعدُّد مرّات الحوار وتغايُرِ أوقاته، بأنْ يكونَ قال لهم مرّةً: ﴿مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81] ومرّةً: ﴿عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: 166] ومرّةً: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾، لكنْ يبقى السُّؤال: لمَ أوثرَ ذكرُ الوصفِ بـ(الجهل) هنا في سورة (النّمل) دونَ غيرها، فقال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ دونَ (عادون) و(مسرفون)؟ والجوابُ عن هذا قد تكفَّل به البِقاعيُّ في قوله: لمّا كان مقصودُ السّورة - سورة النّمل - إظهارَ العلْم والحِكمة، وكانوا قد خالفوا ذلك إمّا بالفعل، وإمّا لكونهم يفعلونَ من الإسرافِ وغيره عملَ الجهَلة، قال: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ أي: تفعلونَ ذلك إظهارًا للتزيُّن بالشّهَوات، فعلَ المبالغينَ في الجهل الَّذينَ ليس لهم نوعُ علْم، في التجاهر بالقبائح خُبثًا وتغليبًا لأخلاق البهائم، معَ ما رزقكم اللّٰه من العقولِ التي أهملتموها حتّى غلبَتْ عليها الشّهوة[1].

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

الاستمرارُ على المعصية تفنُّنٌ في الجهل

عبَّر بالمضارع في قوله ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم في الجهل، وتجدُّد نشاطهم في ممارسته، وتفنُّنِهم في أنواعه وألوانه، ولم يقل: (جاهلون) فيدلُّ على الثبات والطّبع؛ لأنه جعلَ المسندَ ﴿قَوۡمٞ﴾ الذي قام مُقامه في إفادة الثبات على هذا الطّبع، ليستأثرَ الفعلُ بعد ذلك بإضافةِ ما لا يفيدُه الاسم من التجدُّد والتكرير والتلوين، فيكونُ التذييل قد جمعَ بينَ ثبوت القومية لهم وتجدّد الجهالة فيهم.

دلالةُ حذف متعلّق ﴿تَجۡهَلُونَ﴾:

ثبوتُ الجهل العميق لدى الجناةِ المُخطئين

قوله: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكون منزَّلًا منزلة الفعل اللّازم، فلا يحتاجُ إلى مفعولٍ، ويكون معنى ﴿تَجۡهَلُونَ﴾: أنتم موصوفونَ بالجهلِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 142.

والسّفاهة، فيكون القصدُ فقط نعتَهم به والإخبارَ عنه. ويحتمل أنْ يكون قد حذفَ المفعولَ لإفادة التعميم، فيكون المفعولُ غير محدّد لتذهبَ نفسُ السّامع في تقديره كلَّ مذهب. أوْ أنّ المفعول يمكن إدراكُه من خلال السّياق، أي: تجهلون عاقبةَ[1] فعلِكم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 374.

الجُزْءُ العِشْرُونَ

﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾ [النَّمل: 56 - 58]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

عنـاد المجرمين يفضي بهم إلى العذاب والهلاك

لَمّا أشارَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ إلى تَغالي قومِ لوطٍ عليه السلام في الجهلِ وافْتخارِهم به، وقولِ لوطٍ عليه السلام لهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النَّمل: 55]، جاء جوابُ قومِه عاريًا عن أيِّ حُجَّةٍ في دفعِ ما وقعوا فيه من جَهْلٍ؛ بل قد صَدَّقوه في نسبتِه لهمُ الجَهْلَ، بأن قالوا: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، مُعلِّلينَ ذلك بقولهم: إنَّهم أُناسٌ يتطهَّرونَ من أفعالِنا النَّجِسةِ، ويتنزَّهونَ عنها، فلمّا وصلوا في هذا الخُبثِ إلى هذا الحدِّ، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ جميعَهم منَ العذاب، إلّا امرأتَه جعلناها مع الباقين في القريةِ، ليلحق العذابُ بها معهم، وأَمْطَرنا عليهم الحجارةَ، فساءَ المَطَرُ الَّذي هو أشدُّ وأَقْسى عذابٍ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: (طهر) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ(2)، والطُّهرُ: نقيضُ النَّجاسَة، والجمع أطهارٌ، وقد طَهَرَ يَطهُرُ، وطَهُرَ، طَهرًا وطَهارَةً، والمصدران عَن سيبَوَيْهِ. ورجل طاهِرٌ، وطَهِرٌ عَنِ ابْنِ الأَعرابي(3). والطَّهارةُ ضَرْبان: طَهارةُ جِسْمٍ، وطهارةُ نَفْسٍ، وحُمِلَ عليها عامَّةُ الآيات، يقالُ: طَهَّرْتُه فطَهُرَ، وتَطهَّرَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183 - 184.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طهر).
(3) ابن سيده، المحكم: 4/ 245.

واطَّهَرَ فهو طاهرٌ ومُتَطهِّرٌ[1]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: 6]، وهي طهارةُ الجسم باستعمالِ الماء أو ما يقومُ مقامَه، قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]، أي: التّاركينَ للذَّنْبِ والعاملينَ للصَّلاح[2]. ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أي: يتنزَّهونَ عن فعلِ الفاحشةِ بالرِّجال[3].

2) ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ[4]، وقَدَرَ على الشَّيءِ قُدْرَةً وقُدْرانًا، وقَدِرَ يَقْدَرُ قُدْرَةً لغةٌ فيه كعلِمَ يَعْلَمُ، وقَدَرَ الشَّيءَ، أي: قدَّرَهُ منَ التَّقدير، وبابُه: ضَرَبَ ونَصَرَ[5]. والقُدرةُ: إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فاسْمٌ لهَيْئَةٍ له بها يتمكَّنُ من فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى بها، فهي نَفْيُ العَجْزِ عنه، وإيْجادُهُ الشَّيءَ بالفعلِ على مقدارٍ مخصوصٍ ووَجْهٍ مخصوص، حَسْبَما اقْتضتِ الحكمةُ، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: 60]، فاللّهُ هو المقدِّر[6]، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: قدَّرْنا كَوْنَها منَ الغابرين[7]، أو قدَّرناها بما كتبنا عليها وقضينا أنَّها[8]، أو جعلناها بتقديرنا[9].

3) ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: (غبر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على البَقاء، وغَبَرَ أيضًا: مَضى، وهو من الأضداد[10]. يُقالُ: بالنّاقةِ غُبْرٌ، أي: بقيَّةٌ، وبه غُبَّرٌ من مرَضٍ، أي: بقيَّةٌ[11]، قال أبو بكر: الغابر في كلام العرب: الباقي، وهو الأشهرُ عندهم. وقد يقال أيضًا للماضي[12]، والغابر منَ اللّيل: ما بقي منه، والغابر: الباقي، هذا هو المعروف والكثير في كلام العرب، ومنه ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: 83]، وقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصّافات: 135]، هي

(1) ابن الحدّاد، الأفعال: 3/ 273، والرّاغب، المفردات: (طهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (طهر).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 192.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (قدر).
(6) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(7) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2.
(9) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصّحاح: (غبر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غبر).
(12) ابن الأنباريّ، كتاب الزّاهر في معاني النّاس: 2/ 324.

امرأةُ لوطٍ بقيت في القرية ولم تخرج معهم، فلم تنجُ معهم[1]، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العذاب[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من التزم العفَّةَ نجا، ومن انتكسَ عن الفطرة السَّليمة، آلَ إلى عاقبة ذميمة

يُخبِرُ ﷻ عن جوابِ قوم لوطٍ عليه السلام، لَمّا أَنْذَرهم نِقمةَ اللّهِ بهم في فعلِهمُ الفاحشةَ الّتي لم يَسبقْهم إليها أحدٌ من بني آدمَ، ذاك الجوابُ المُعبِّر عنِ الكِبْرِ والضَّلال، وهو أنَّهم قالوا: أَخْرِجوا آل لوطٍ، إنَّهم أُناسٌ يتحرَّجونَ من فِعْلِ ما تفعلون، فعزَموا على ذلك، فدمَّرَ اللّهُ عليهم قَرْيتَهم، وأَنْجى اللّهُ تعالى لوطًا عليه السلام وأهلَه، إلّا امرأتَه بقيتْ مع الهالكينَ؛ لأنَّها كانت تدُلُّ قومَها على ضيفانِ لوطٍ عليه السلام ليأتوا إليهم، وكان عذابُهم حجارةً من سجّيلٍ مَنْضودٍ، مسوَّمةً عند ربِّكَ، فقبُحَ هذا المطرُ مِنَ الحجارةِ الملتهبةِ نارًا، فقد وصلَ إليهم الإنذارُ، لكنَّهم كذَّبوا رسولَهم، فَبِئْسَ ما أصابَ أولئك المنذَرين[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

لا تجتمعُ طهارةُ الإيمانِ، مع دنَس الكفران

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

جاء العطفُ هنا في قوله تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، من قَبيلِ عَطْفِ الجُملةِ المصدَّرةِ بالفاءِ على الّتي قبلها: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [النَّمل: 54]، تعقيبَ جُزْءِ القصَّةِ على أوَّله، فلا تُفيدُ إلّا تعقيبَ الإخبار، وهي في ذلك مساويةٌ للواو[4]، وهذا العطفُ في: ﴿۞فَمَا كَانَ﴾، يقتضي المبالغةَ في الرَّدِّ حيث لم يُمهلوا في الجواب زمانًا؛ بل أَعْجلوه بالجوابِ سرعةً وعدَمَ البراءةِ بما يُجاوبونَ به[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/ 552.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2، وابن أبي حاتم، التَّفسير: 9/ 2905، عن ابن عباس.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 345 - 346.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 5.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.

وقد تكون الفاء هنا للإفْصاحِ عن شرطٍ مُقدَّر، أي: إذا ما كانوا على هذه الحالِ من سَيْطرةِ الجهل، فإنَّ الجهلَ لا يطيقُ الطَّهارةَ والتَّطهُّر، ولذا كان جوابُهم - وإن قالوا مُصرّين - أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من مدينتِكُمُ العظيمة؛ لأنَّه لا تجتمعُ الطَّهارةُ المعفّةُ، مع الدَّناسةِ الجاهلة المسفّةِ[1].

دلالةُ لفظِ (ما) على النّفي:

(ما) في قوله تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ نافيةٌ، تفيدُ التَّأكيدَ، وقد كان يمكنُ أن يُقال: فكانَ جوابَ قومه، فمجيء (ما) هنا حسّن دخولَ ﴿إِلَّآ﴾ ليجتمع نفيٌ مع استثناء للدّلالة على المبالغة بأسلوب القصر.

تأكيدُ جوابِ الشّاذّين عنِ الفطرة، بِنَفْيِ نُصح من يُنكر عليهم

سرُّ مجيءِ فعلِ الكَوْنِ ماضيًا:

جاءَ فعلُ الكونِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ للدَّلالةِ على صدورِ هذا الجوابِ عنهم، على يقينٍ تامٍّ بالكُفْرِ والعناد، وأنَّه صدر عنهم في المَرَّةِ الأخيرةِ من مرّاتٍ عديدة قبْلَها، مقابلَ تكرّرِ مواعظِ لوطٍ عليه السلام بالأمرِ والنَّهي، لا أنَّه لم يصدرْ عنهم كلامٌ آخرُ غيرُه[2].

التَّحقُّق بالعنادِ التّامِّ، في مواجهةِ دعوةِ الرُّسُل الكرام

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الجوابِ دون غيره:

الجوابُ: هو الكلامُ الَّذي يُقابَلُ به كلامٌ آخر: تقريرًا، أو ردًّا، أو جزاءً[3]، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ توافرتْ وتوفَّرت في جوابِهم لنبيِّهم، وذلك أنَّه لَمّا لم يكن لقومِ لوطٍ عليه السلام حُجَّةٌ في دفعِ اسْتنكارِ نبيِّهم لفعلِهم القبيح بقوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النَّمل: 54 - 55] - وهو كلامٌ حَسَنٌ مُقنِعٌ، لمن كان له حظٌّ يسيرٌ، من خُلُقٍ أو بقيَّةٍ من

عظيمُ الجهل في ردّ كلام النّاصح الصّادق

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5466.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 270.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.

حياء -، جاء جوابُهم ردًّا مصدِّقًا في نسبتِه لهم إلى الجهل، وقد حمَلَ معه تقريرًا منهم، في صيغةِ جوابٍ مُؤكِّدٍ صحَّةَ ما اسْتنكره عليهم، ولم يكن لهم حيلةٌ إلّا الأمرُ بإيقاعِ الجزاء عليه بنَفْيه وأهلِه من قريتِهم[1].

صدورُ الجوابِ بالنَّتيجةِ الفعليَّةِ بالإخراج، لا بمجرَّد القولِ والحِجاج

سرُّ إضافةِ الجوابِ إلى القوم:

جاءتْ إضافةُ الجوابِ إلى القوم في قوله تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الجوابَ هو الَّذي صدرَ عنهم كلِّهم جميعًا، فقد تواطؤوا على الفاحشة، وعلى قلب الفطرةِ التي فطر اللّٰه الخلقَ عليها، وكأنّهم يظنّون أنّهم بجواب الإقصاء، وإعلانِ البغضاء، وطردِ لوطٍ عليه السلام، هذه الطّردةَ الشّنعاءَ، سيخلو لهم الجوُّ فيعيثون في الأرض فسادًا، ولا يجدون من ينكر عليهم فِعالَهم، أو يَنعى عليهم شذوذَهم، أو يحاولُ ردَّهم إلى صوابهم، ولا يطالُهمُ العقاب، وهنا تأتي العقوبة من حيث لا يحتسبون، ولا عجبَ، إذْ من مأمنه يُؤتَى الحذِرُ، كما قالتِ العرب[2].

المعانِدون للحقِّ والهدايةِ، يُعاملون أنبياءَهم بالجَفاء والإذاية

نكتةُ عدمِ مطابقة الجوابِ:

لم يُطابِقْ جوابُ القوم في قولِهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، ما أنكره عليهم لوطٌ عليه السلام بقوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [النمل: 54]، إلى أن قال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النَّمل: 55]؛ لأنَّه لَمّا أَنْكرَ عليهمُ الفاحشةَ، وعظَّمَ أمرَها، ونَسَبَهم إلى الإسرافِ، بادَروا بشيءٍ لا تعلُّقَ له بكلامه، وهو الأمرُ بالإخراج، ونظيرُه جوابُ قومِ إبراهيمَ عليه السلام له، بأن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68][3]، ونظيرُه كذلك موقفُ كفّارِ قريشٍ من رسولِ اللّٰه صلى الله عليه وسلم، عندما دعاهم إلى الإيمانِ باللّٰه، وتركِ عبادةِ الأوثان، ممّا حكاه لنا القرآنُ، في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 182.
(2) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 4/ 151.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.

تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: 30]، وهذا يدلُّ على انقطاع حجّتِهم، وبهتِهم عن كلِّ إجابة وعذرٍ؛ إذ فاحشتُهم أمرٌ معلوم النّكير باتّفاق كلِّ من سَلمت فطرتُه عنِ الانحراف، فغاب عنهم الجوابُ وذهبوا إلى التّهديد والوعيدِ.

نكتةُ مرجع ضميرِ في: ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾:

قومُ لوطٍ عليه السلام، هم أسوءُ قومٍ في تاريخ النّبوّات

في قوله تعالى: ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾ عادَ الضّميرُ (الهاء)، إلى نبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام، أي: قوم نبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام الّذين كانوا يفعلون أقبحَ الأعمال، وإضافةُ القوم إلى لوطٍ عليه السلام، للدّلالةِ على أنّه ليس دخيلًا بينهم؛ بل هو من أُسَرتِهم وجماعتِهم، ولكنّهُم انْحرفوا عنِ الإنسانيّةِ والفطرةِ السَّويَّة[1].

دلالةُ الاستثناءِ المُفرّغِ في الآية:

لا جوابَ للمعاندين إلّا إنزالُ العقوبةِ بالدُّعاةِ النّاصحين

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ اسْتثناءُ مُفرَّغٌ، وما بعده واقعٌ في موقعِ اسْمِ كان، وهذا هو الاسْتعمالُ الفصيحُ في مثلِ هذا التَّركيب، إذا كان أحدُ مَعْمولَي ﴿كَانَ﴾ مَصْدرًا مُنْسبِكًا من ﴿أَن﴾ والفعلِ بعدَها، وهذا الاسْتثناءُ، يدلّ على قَصْرِ الجوابِ على ما قالوا دون غيره[2]؛ إذِ الاسْتثناءُ المفرّغُ مع النّفي يفيد القَصْرَ الاصْطلاحيَّ على معنَى (إنَّما)[3]، فكأنَّ القومَ قالوا: إنّما جوابُنا على إنكارِك، أو ما جوابُنا على إنكارِك إلّا إخراجُكَ من قريتِنا، فقصَروا جوابَهم لنبيِّ اللّهِ لوطٍ عليه السلام، على هذا المعنَى تعنُّتًا في الباطل، وعنادًا عن قَبولِ الحقّ، وإنفاذًا للإجراءِ الجزائيِّ الَّذي لا جزاءَ غيره عندهم؛ فإنّهم عجزوا عن كلِّ جواب وعذر، فلم يجدوا إلّا المكابرةَ والتّهديد.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/ 2892.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 213، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(3) جامعة المدينة العالمية، البلاغة، المعاني، ص: 433 - 434.

سرُّ ورودِ الحرفِ ﴿أَن﴾ في السّياق:

المحافظةُ على الحَدَثِ مع زمنِه، مفصحةٌ عنِ المراد

﴿أَن﴾ حرفٌ مصدريٌّ، يُؤَوَّلُ مع الفعلِ بعده ﴿قَالُوٓاْ﴾ بمصدرٍ، على أنّه اسْمُ ﴿كَانَ﴾ المؤخَّر، وورودُ الحرفِ ﴿أَن﴾ هنا قبلَ الفعل الماضي، حافظَ على الزَّمنِ الماضي في ﴿قَالُوٓاْ﴾، ولو عُبِّر عن ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ بالمصدر (قولُهم) لانْتفى عنصرُ زمنِ الحدث الَّذي سيقتْ ﴿أَن﴾ من أجلِه، وبقي الحَدَثُ مجرَّدًا عن زمنِه[1].

سرُّ مجيءِ فعلِ القول ماضيًا مضافًا إليهم:

تحقُّقُ الفعلِ بزمنه الماضي، من قِبَلِ قوم لوطٍ عليه السلام

جاءَ فعلُ القولِ ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قومُ لوطٍ عليه السلام لإفادةِ أنّ الحَدَثَ الَّذي وردَ في سياقِ الآيةِ بمشهدِ المناظرةِ والحوارِ، ما بين اسْتنكارِ لوطٍ عليه السلام قبائحَ قومه وفُحشَهم المُقذِعَ، وردِّهم استنكارَه بأن قالوا: أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من قريتِكم، فهذا المشهدُ هو حَدَثٌ وقعَ في زمنٍ ماضٍ عبَّر عنه السّياقُ بالفعل الماضي، الَّذي تحقَّقَ وقوعُه من قومِه، بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[2].

دلالةُ فِعْلِ الأمرِ في قولِه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ﴾:

إصرارُ الشّاذّينَ على إخراجِ العفيفينَ من أرضِهم

قولُه تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ يعني إصرارَ القومِ الكافرين الشّاذّين على إخراجِ آلِ لوطٍ منَ القرية؛ لأنَّه لا تجتمعُ الطَّهارةُ العفيفةُ، مع النَّجاسةِ السّخيفة[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإخراجِ، دون مُرادفاتِه:

إخراجُ الكافرين لوطًا ومن معه استراحةٌ منَ العذل، وهروبٌ منَ الحقِّ

جاء التَّعبيرُ بالإخراجِ في قولِه تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾؛ للدَّلالة على الاسْتراحةِ من إنكارِه عليهم اسْتراحةً تامَّةً كاملةً، من دعوتِه وطهارتِه وعفَّتِه، فإذا خرجَ بشخصِه وجسمِه ونُفيَ من أرضِه، لم يعدْ له عليهم أيُّ سبيل؛ لأنَّ صدورَهم تضيقُ عن تحمُّلِ الموعظة،

---

(1) السُّهيلي، نتائج الفكر، ص: 126، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 101 - 102.

(2) الأنباري، أسرار العربية، ص: 127، والجرجانيّ، المقتصد في شرح الإيضاح: 1/ 356 - 357.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5466.

وأسماعَهم تصمُّ لقَبولِها، ولم يزلْ من شأنِ المنغمسينَ في الهوَى تجهُّمُ حُلولِ مَنْ لا يشاركُهم بينَهم[1].

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾:

أهلُ نبيِّ اللهِ لوطٍ، والمؤمنون به معهم، هم آلُ بيتِه

جاءتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ آلَ لوطٍ عليه السلام كانوا مؤمنين برسالته، وهما ابْنتاه رغواءُ ورَيْفاءُ، ومَن تبعَه منَ المؤمنين، فآلُ لوطٍ همُ المؤمنون به وأهلُ بيتِه منهم[2]، وهمُ الذين كتب اللّه لهم النّجاةَ من غِمار ذلك العذاب المُفعَم بالغضب والسّخط، وقد وقع على القوم الكافرين والمعاندين، وأُلحقت بهم امرأةُ لوطٍ، لِما كان لها من دور، في مناصرة الكفر، والدّلالةِ على مواطن أذَى لوطٍ والمؤمنين.

دلالةُ الحرفِ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

مدلولُ الإخراجِ مِنَ القريةِ أو عنها

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: ابتداءُ خروجِهم من قريتكم، وقد تكون بمعنى (عن) أي: عن قريتكم؛ لأنَّ فيها معنى الإبعادِ عنِ المكانِ الَّذي هو القريةُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (القريةِ) دون سواها:

تفاخرُ قومِ لوطٍ بنسبتِهم لأرضِهم الَّتي يقيمون عليها

القريةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويُستعملُ في كلِّ واحدٍ منهما[3].

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ اسْتعمالَ لفظِ القريةِ دون سواها، في قولِه تعالى: ﴿قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ المرادَ منها المدينةُ بمكانِها، والَّتي يجتمعُ النّاسُ فيها، ويَحرِصونَ على سُكناها، فهي تعني بالنّسبةِ لهم تجمّعًا ذا قيمةٍ عاليةٍ، وصدَرَ هذا اللَّفظُ منهم زيادةً في مِنَّتهم على لوطٍ عليه السلام وآلِه، أن كان بينهم في هذه القرية مع أهله، وزيادةً في التَّنكيل بهم بإخراجِهم منها، وهي عندهم ذاتُ شأنٍ عظيم.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 234.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 101.

(3) الرّاغب، المفردات: (قرى).

تهوينُ أمر إخراجِ لوطٍ وآلِه، من مكانٍ هم أصحابُه

إضافةُ القرية إلى المخاطَبين:

أُضيفتِ القريةُ إلى المخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، إظهارًا لِمَنَّتهم عليه بإسكانِه عندهم، وإذا كان ذلك كذلك فإنَّ لهمُ الحقَّ في إخراجِه منها متى شاؤوا، وفي هذا فَرْطُ قُبحِ أخلاقِهم وسوءِ طَويّاتهم[1]. وكذلك فإنَّ في هذه الإضافةِ تهوينًا لأمرِ الإخراج، وكيف لا وهم أصحابُ الأرض والقرار؟![2].

قلبُ الموازين، بتعليل أمرِ الإخراج بالطَّهارة والعفَّة

سرُّ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٌ﴾ عمّا سبق:

جملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾، جملةٌ تعليليّة لقولِهم تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، أفادتْ كونَها علَّةً للأمرِ بالإخراج، وهو طهارةُ لوطٍ عليه السلام وآلِه وعفَّتُهم، واسْتنكارُهم لِما عليه القومُ منَ القبائحِ والشُّذوذ[3].

مَن لا يوافقُ أهلَ الفواحشِ، يُقصَى ويُسخَرُ منه

مجيءُ وصفِ آلِ لوطٍ بأنّهم ﴿أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

جاءَ وصفُ آلِ لوطٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على علَّة إخراجِهم منَ القرية، أي: عابوهم بما يُمدَح به، أي: لأنَّهم لا يوافقوننا على ما نحن عليه، ومَنْ لا يوافقُنا وجبَ أن نُخرجَه[4]. ويحملُ هذا الوصفُ كذلك سُخريةً بهم وبتطهُّرهم منَ الفواحش، وافْتخارَ القومِ بما كانوا فيه منَ القَذارة[5]، كما يقولُ الشَّيطانُ منَ الفَسَقَةِ لأحدِ الصُّلحاء إذْ وعَظهم: أَبعدوا عنّا هذا المتقشِّفَ، وأَريحونا من هذا المتزهِّد[6].

زيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى

دلالةُ لفظِ (التَّطهُّرِ) بصيغةِ التّفعُّل:

التَّطهُّرُ: تكلُّفُ الطَّهارة، وحقيقتُها النَّظافة، وتُطلَقُ الطَّهارة -

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 213.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.

مجازًا - على تزكيةِ النَّفس، والحَذَرِ منَ الرَّذائل، وهي المرادُ هنا، وهي صفةُ كمال، لكنَّ القومَ لَمّا مَرَدوا على الفُسوق، كانوا يَعُدّون الكمالَ مُنافِرًا لطباعِهم، فلا يُطيقونَ معاشرةَ أهلِ الكمال، ويَذُمّون ما لهم منَ الكمالاتِ، فيُسمّونها ثِقْلًا، ولذا وصفوا تنزُّهَ لوطٍ عليه السلام وآلِه تطهُّرًا، بصيغةِ التَّكلُّفِ والتَّصنُّع، ويجوزُ أن يكونَ حكايةً لِما في كلامِهم منَ التَّهكُّم بلوطٍ عليه السلام وآلِه، وهذا من قلبِ الحقائق لأَجْلِ مَشايعةِ العوائدِ الذَّميمة، وأهلِ الفِسقِ والمجون(1).

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

طهارةُ لوطٍ عليه السلام وأهلِه، فطرةٌ مستمرّةٌ معهم

جيء بـ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ خبرًا بجملةٍ فعليَّة مضارعيَّة؛ لدَلالتِها على أنَّ التَّطهُّرَ متكرِّرٌ من لوطٍ عليه السلام وآلِه، ومتجدِّدٌ، وذلك أَدْعَى لِمُنافَرتِهم طباعَهم، والغضبِ عليهم وتجهُّم إنكارِ لوطٍ عليه السلام عليهم(2)، وعليه "فلم يكن من قوم لوط، حين دُعوا إلى التّطهّر من تلك القذارة، إلّا أن حَمَلوا على لوطٍ والمؤمنين معه، وطلبوا إخراجَهم منَ القرية لمخالفتهم لهم فعلتَهم الدّنيئةَ، وترفّعِهم عن رجس ما هم عليه.. قال قتادة: "عابوهم بغير عيب: أي إنّهم يتطهّرون من أعمال السّوء"(3).

حذفُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

لوطٌ عليه السلام وآلُهُ، يتطهّرون عن إتيانِ الفواحشِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعل ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ لدلالةِ السّياقِ عليه، حيث قال لهم لوطٌ عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النَّمل: 54 - 55]، أي: إنَّهم أُناسٌ يتقذَّرون عن إتْيانِ أَدْبارِ الرِّجال والنِّساء، وهم يأتون النِّساءَ في الأطهار، ويتنزَّهونَ عن فعلنا، ويَغْتسلون منَ الجنابة، ويتطهَّرون بالماء(4).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 235 - 236.
(3) مأمون حمّوش، التّفسير المأمون: 5/ 557.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.

سرُّ العطفِ في جملة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

بيانُ أنّ إرسال لوطٍ إلى قومِه، كان مقدّمةً لنزولِ العذابِ بهم

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ تعقيبٌ لجملة: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أو لجملة: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: 54]، وهذا التَّعقيبُ يُؤْذِنُ بأنَّ لوطًا عليه السلام أُرسِلَ إلى قومِه قبلَ حلولِ العذابِ بهم بزمنٍ قليل(1).

والفاءُ في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ الَّذي يفيدُ عدمَ تأخيرِ الإنجاء؛ بل هو إنجاءٌ سريعٌ، ولذلك أمرَ اللّهُ نبيَّه لوطًا، فقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: 81]، وقال عز وجل: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65]، أي أنَّه سبحانه وتعالى قرَّرَ هلاكَهم، وقرَّرَ النَّجاةَ للوطٍ وأهلِه، فكان معقّبًا أو مقارنًا لتقريرِ الهلاك، وهو أقربُ منَ التَّعقيب(2).

اختيارُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ دون (نجَّيناه):

تنجيةُ اللهِ لِلوطٍ وأهلِه قبل حُلولِ العذابِ بقومِهم، خصوصيّةٌ وتكرمةٌ

الفعلُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، يُستعمَلُ للإسراعِ في التَّخليصِ منَ الكَرْبِ والشِّدَّة، كما هنا، في تخليصِ لوطٍ عليه السلام وأهلِه منَ العذاب، ويكون هذا كذلك قبل التَّعرُّضِ للمِحنةِ والبلاء، وذلك بالإبعادِ عنِ الخطرِ القادم، وأمّا (نجَّينا) فيقتضي التَّلبُّثَ والتَّمهُّلَ في التَّنجية، ولم يكنِ الأمرُ كذلك مع لوطٍ وأهلِه.

مرجعُ ضميرِ الفعلِ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

المُنجّي هو اللهُ، لا أحدَ سواه، والسّعيدُ من رضي الله عنه وأرضاه

الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعودُ على الفاعلِ الحقيقيِّ، وهو اللّهُ عز وجل، أي: بعظمتِنا وقدرتِنا ورَحْمتِنا أَنْجينا رسولَنا لوطًا عليه السلام، ذلك أنّه في ذلك الهلاك العامّ الّذي عمّ تلك الدّيارَ، ومحا تلك العمائرَ والآثارَ، وقد احتدم البلاء، وجاء أمرُ اللّه القاهرِ الجبّارِ، لا رادَّ لأمره، ولا مُنجيَ من عذابه، إلّا باللّجوء إليه، وهو الّذي تعهّد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 236.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

بنجاة نبيّه لوطٍ، وحمايةِ أهله المؤمنين الصّالحين، باستثناء امرأتِه، وذلك ما عبّر عنه اللّفظُ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ في هذا السّياق المُحكَم.

سرُّ عطفِ ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ عليه:

مَنِ اتّبع الأنبياء كان في زمرة النّاجين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الأهلَ على لوطٍ عليه السلام في الإنجاء، فقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، للدّلالةِ على أنَّ اللهَ أنجَى نبيَّه وأهلَه كلَّهم منَ العذابِ الّذي حلَّ بقومِه، ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ وهُمُ المؤمنون به ومعه ابْنتاه[1]، وقد نجّى اللهُ تعالى أهلَ لوطٍ، كما نجّى أهلَ نوحٍ من قبل، واستثنى امرأة لوط، كما استثنى امرأة نوح من قبل، وانطبق عليهما نفسُ الحكم، قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: 40].

دلالةُ الاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

امرأةُ لوطٍ خانت زوجَها في رسالتِه ودعوتِه، فشملَها العذابُ

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي: إلّا امرأةَ لوطٍ عليه السلام، فلم تَنْجُ، وكانت منافقةً تُسِرُّ الكفرَ، مواليةً لأهلِ سَدوم، فأصابَها منَ العذابِ ما أصابَ قومَها، فاكتفَى بها في أنّها لم تَنْجُ، ثمَّ ابتدأ وصفَها بعد ذلك بصفةٍ لا تتعلَّقُ بها النَّجاةُ ولا الهلَكة، وهي أنَّها كانت ممَّن أَسَنَّ وبقي من عصرِه إلى عصرِ غيرِه، فكانتْ غابِرة، أي: متقدّمةً في السِّنّ[2].

إيثارُ التَّعبير بلفظِ (المرأةِ) دون (الزَّوجة):

لم تكنِ امرأةُ لوطٍ عليه السلام مؤمنةً على دين زوجها، فهلكت

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي: زوجتَه، فامرأةُ الرَّجلِ بمعنى زوجته، ولم ترد بقول: (إلّا زوجتَه)؛ لأنَّ المرأةَ إذا أُضيفتْ للرَّجُلِ بالاسْمِ العامِّ، عُرِفتِ الزَّوجيَّةُ ومِلْكُ النِّكاح[3].

ويمكنُ أن يكونَ ذكرُ المرأةِ هنا في قولِه تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) البحر المحيط: 5/ 102، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/ 312.

امرأةَ لوطٍ عليه السلام دون أن يقول: (زوجَه) أو (زوجتَه)؛ لأنَّ لفظَ الزَّوجةِ يُطلَقُ على الحالاتِ الَّتي تكونُ فيها المرأةُ على توافقٍ مع زوجِها في الدّينِ والعقيدة، أو من ناحيةِ التَّوافقِ النَّفسيّ، أمّا المرأةُ فيُطلَقُ على الزَّوجةِ الَّتي انقطعتْ صلتُها بزوجِها من ناحيةِ العقيدةِ، أوِ التَّوافقِ النَّفسيِّ والرَّحمةِ والمودَّة، وهو ما كان من امرأةِ لوطٍ عليه السلام، حيث كانت تُظهِرُ الإيمانَ وتُبطِنُ الكفر[1].

سرُّ اختيار فعلِ التَّقديرِ ماضيًا في ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾:

ما قـدَّره الله تعالى بحكمته، متحقِّقٌ نافذٌ بتدبيره وإحاطته

جاءَ فعلُ التَّقدير ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ المرادَ ما قضاه اللّهُ تعالى من قبلُ في شأنِها في علمِه، وأَوْقَعه في قدَرِه، أي: جعلْناها بتقديرِنا منَ الغابرين، أَوْ قدَّرْناها بما كتَبْنا عليها، وقضَيْنا أنَّها منَ الغابرين، فهو أمرٌ متحقِّقٌ لا محالةَ[2].

مرجعُ الضَّميرِ في الفعل ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾:

الله تعالى مالكُ الملك، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد

مرجعُ الضَّميرِ في الفعلِ ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾، وهو (الهاء)، إلى امرأةِ لوطٍ عليه السلام، المتقدِّمِ ذكرُها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾، أي: جَعَلْنا امرأةَ لوطٍ عليه السلام، بعظمتِنا وقُدرتِنا في الحكم، وإن كانتْ خرجتْ معه أنَّها منَ الغابرين[3]، وفي تقدير اللّه تعالى أنّها منَ الهالكين دليلٌ على عظيم حكمته وقدرته، فهو سبحانه يفعل ما يشاء، وكلُّ شيء عنده بقدَرٍ ومقدارٍ، ومعنى ﴿قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: تركناها منَ الباقين في العذاب. ويقال: قضينا عليها أنّها منَ الباقين في العذاب[4]، وما حلّ بامرأة لوط، كان على شاكلة ما وقع لامرأة نوح من قبل، حالةً وعاقبةً، حيث قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التّحريم: 10].

---

(1) عائشة عبد الرّحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 230، وعبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآني: 1/ 295 - 296.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 589.

نكتةُ ذكْرِ الضَّمير في الفعل ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾:

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾، وتقديرُ الكلام: (قدَّرنا كونَها منَ الغابرين)، وقُدِّرَ المضاف هنا؛ لأنَّ التَّقديرَ يتعلَّقُ بالفعلِ لا بالذّات، وجاء في آيةٍ أُخرى ما يقتضي ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحِجر: 60][1].

قـدَّرَ اللـهُ كونَ امـرأةِ لـوطٍ منَ الهالكين، لإبراز وعيدِه للكافرين

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ تبعيضيّةٌ، والمعنى: امرأةُ لوطٍ عليه السلام كانت بعضًا منهم[2]؛ أي منَ الباقينَ مع قومِها في العذاب، فقد "أصابها مثلُ عذاب الرّجال سواء، لم تنقص عنهم لأنها كانت كافرة مثلَهم"[3].

بيانُ مصيرِ امرأةِ لـوطٍ عليه السلام، في أيلولتها إلى الهلاك المُطبِق

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ اسْمًا:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ اسْمًا للدَّلالةِ على تحقّق الغُبور فيهم ولصوقِه بهم، وهُمُ الباقون في العذابِ الهالكون به، ومنهم امرأةُ لوطٍ عليه السلام، أي: امرأةُ لوطٍ منَ الباقين في العذاب، بما قدَّره اللّهُ في أمرِها مع قومِها[4]، فقد كانت تدلّ قومها إذا جاء لوطًا شابٌّ أو رجل، كما فعلت عندما جاء ملائكةُ الرّحمن، حيث جاؤوا يخبرونه بأن يترك البلدَ خلال ثلاثة أيّام، وبأنّه سبق في علم اللّه تدميرُ قرية سَدوم، والقضاءُ عليها وسحقُها، وجعلُ عاليها سافلَها، وإمطارُها بحجارة من سجيل"[5].

امرأةُ لـوطٍ عليه السلام مـنَ المـعذَّبـينَ بـقـدَرِ اللـه وحُكمِه

حذفُ متعلّقِ لفظ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

لم يذكرِ النَّظمُ الكريمُ متعلَّقَ ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، فيقول: (من

تنجيةُ المؤمنينَ وإهـلاك الكافرين، عدلٌ من الله تعالى

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 214.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 409.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/ 457.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 214.
(5) الكتانيّ، تفسير المنتصر الكتانيّ: 5/ 137.

الغابرين الَّذين بَقَوْا في ديارِهم فهلَكوا)؛ لأنَّ قولَه المتقدّمَ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، دلَّ على أنَّ التَّنجيةَ كانت للوطٍ ﷺ ولأهلِ بيتِه والمؤمنين معهم، وأنَّ غيرَهم بَقَوْا في ديارِهم فَهلَكوا بالعذاب، فلا حاجةَ لإعادةِ ذِكْرِ ما فُهِمَ منَ السّياق. وكذلك فإنَّ قولَه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، تفسيرٌ وتوكيدٌ لما تضمَّنه الاسْتثناءُ، من كونِها لم يُنجِها اللّهُ تعالى كقومِها[1].

بلاغةُ العطفِ في ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

انتقامُ اللهِ من أعدائه، وإنجاءُ أوليائه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، فبدأ بإنجاءِ نبيّه وأهلِه، وعطفَ عليه إمطارَ العذابِ، مع أنَّ الأصلَ أنْ يقال: فأَمْطَرْنا عليهم مطرًا وأنجيناهُ وأهلَه وذلك لبيانِ رعايةِ اللّهِ وحفظه لنبيِّه والمؤمنين معه، وهمُ الأصلُ في الخير والأحقُّ في الحفظِ الإلهيّ، ومَن خالفَهم وأرادَ إيذاءَهم أمْطرهُم اللّهُ بوابلِ عذابِه وأذاقَهم سوءَ انْتقامِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ دون غيره:

إمــطــارُ أهــلِ الكفرِ والشُّذوذِ عذابًا، يَستأصلُ شــأفــتَــهــم ويُبيدُهم

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾، للإشارةِ إلى أنَّه إمطارُ عذابٍ بالحجارةِ، مع تعْديتِه بالهمزة، وهو مُعدّى بدونِها، فصارت كأنَّها لإزالةِ الإغاثةِ بالإتيانِ بضدِّها، فهو ليس مطرَ خيرٍ وانْتفاع؛ بل مطرَ شرٍّ واندثار، وقد ضُمِّن ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ معنَى أرسلْنا، فلذلك عدّاه بـ(على)[2].

مرجعُ ضميرِ الفعلِ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

اللهُ هو المنتقمُ المعذِّبُ لأعدائه، ولا يُعجزه أحدٌ مهما قوي أو عتا

قولُه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ أي: أمطرْنا نحن بقضائنا وقَدَرِنا وعظمتِنا، وبقُدْرتِنا وحُكْمِنا على المعاندين الشّاذّين عذابًا مُهلِكًا[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 183.

وقد نسب المطرَ إليه سبحانه، في قوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾، للدّلالة على هول المطر، الّذي أهلك القوم الكفرة، ودمّر بلادهم، فأصبحت أثرًا بعد عين، وهو مطر لم يَسبق له مثيلٌ، ومعلومٌ أنّ من خصائص القرآن الكريم أن يستعمل كلمةَ المطر للدّلالة على العذاب والهلاك، والتّعبيرِ عنِ الدّمار والفيضانات، وما يتبع ذلك من سحقٍ ومحقٍ، لا يُبقي ولا يذرُ، بينما يَستعملُ كلمةَ الغيث، دلالةً على الخير والنّفع[1].

دلالةُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾:

بيانُ أنّ الحجارة أظلَّتهم من فوقِهم فأهلكتْهم عن بَكرتهم

دلَّ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على أنَّ الإمطارَ كان مُستعليًا عليهم مُستحكِمًا بهم، لا يستطيعون الفرارَ منه؛ لأنَّه من فوقِهم، أي: أَمۡطَرۡنا عليهم من فوقِهم حجارةً منَ السَّماءِ تصيبُهم على رؤوسهم فتُهلِكهم[2].

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ في السّياق:

العذابُ حالٌّ بالقومِ الشّاذّين، لا بغيرِهم منَ الطّاهرين

في تقديمِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، فلم يقل: (فَأَمۡطَرۡنا مطرًا عليهم)؛ دلالةٌ على قَصْرِ المطرِ - وهو مطرُ عذابٍ - عليهم لا على غيرِهم، فهُمُ المعنيّون به لا غيرُهم، وهمُ المختصّون - بأمرِ اللّه - بالإهلاكِ دون غيرِهم من المؤمنين برسالة لوطٍ ﷺ، فالمطرُ الَّذي يحملُ في حجارته قَتۡلَهم وإحراقَهم جنديٌّ من جنودِ اللّه، مأمورٌ بأمرِ خالقِه ﷻ، لا يخالفُ مولاه ولا يتعدَّى حدودَ مأموريَّته، لا كما فعلَ أولئك الشّاذّون السّادِرونَ في غَيِّهم، يَصدّونَ دعوةَ نبيِّه، ويتكبَّرون على أهلِه والمؤمنين به، ويأمرونَ بإخراجِهم من قريتهم ظلمًا وعدوانًا، ومَن كان هذا حالُه مع نبيِّ اللّهِ وأهلِه، لا مُغيثَ له ولا مُجير[3].

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 19/ 230.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 102.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

عَـوْدُ الضَّمير على قومِ لوطٍ عليه السلام المُستحِقّين للعذاب

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِم﴾ عائدٌ على الَّذين قالوا: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهم الَّذينَ وصفهمُ اللّهُ بقولِ لوطٍ لهم: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النَّمل: 54 - 55].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظ ﴿مَّطَرٗاۖ﴾:

بيانُ أنّ المطر كان غزيرًا، وأنّ حجارته كانت قاتلةً

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ بصيغةِ التَّنكير، للدَّلالةِ على الكَثْرةِ الكاثرة، وقذائفِ الحجارةِ العامرةِ الغامرة، أي: وأيُّ مطرٍ هذا المطرُ الَّذي أَمْطَرْنا عليهم؟!! إنَّه مطرٌ لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُدفعُ قَطْرُه، ولا مَنجى ولا مَلْجا منه، ولا وقايةَ من أذاه وسوئه[1]، إنَّه مطرٌ شديدٌ غيرُ معهود[2].

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَسَآءَ﴾:

الاسْـتـئـنـافُ تـجـديـدٌ لِمَعنى المعنى، وإفصاحٌ عـنِ المدلـول المستفاد

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اسْتئنافيَّةٌ، أي: قولُه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾ على نحوِ ذاك المطرِ العجيبِ، في رمْيِهم بالحجارةِ القاتلة، سُبِّبَ عنه قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾[3].

دلالةُ أسلوبِ الذَّمِّ في الآية:

بِئْسَ العذابُ عـذابٌ يـكـون بـالأهـوال والاستئصال

في قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، بيانٌ كافٍ في الذَّمّ، أي: بِئْسَ مطرُ المنذَرين[4]، أي: ما أَسْوَأَ مطرُ المنذَرينَ ذاك المطر[5]. ومعنى العبارة، أنّنا أنزلنا عليهم منَ السّماء حجارةً، هي أشبه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 270.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 14/ 183.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

بالمطر، في وابله وتراكُمِه، وقد فاجأتهم بغزارتها وسرعةِ نزولها، وقوّةِ دمارها، وبذلك فهي أسوأ المطر، وأشدُّه إيلامًا وأذاةً، ولذلك عبّر عنها بعبارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي ما أسوأَ مطرَ المنذرين الّذين أنذرهم(1).

سرُّ إعادةِ لفظِ المطرِ هنا:

تأكيدُ ما أصاب القومَ من عقاب، بتعبير المطر عن سوء العذاب

أعادَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ المطرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، لتأكيدِ سوء العذاب وتهويله، وأنَّ سوءَ الأثرِ يكونُ ناتجًا عن سوءِ الفعلِ الَّذي نشأ عنه، وأيُّ فعلٍ أسوأُ من فعلِ الشُّذوذِ عنِ الفطرةِ السَّويَّة، ولذلك استحقَّ أصحابُه تأكيدَ ما أصابَهم منَ العذاب(2).

بلاغةُ إضافةِ المطرِ إلى ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

بيانُ المناسبة بين سوء المُنْذَرين، وسوء المَطَر

أضافَ السّياقُ المطرَ إلى المنذَرين في قَولِه تعالى ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، لبيانِ أنّهم قد أُنذروا بالعذاب، وأنّ نبيّهم قد حذَّرهم وخوّفهم، فلا حجّةَ لهم يدفعون بها عذاب اللّه وقد بلغهم الوعدُ والوعيد، فما أسوأَ هذا المطرَ الذي نزل بالذين خوّفهم لوطٌ عليه السلام(3).

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اسْمًا:

لا عذاب إلّا بعد إنذار وحُجَّة

الاسْمُ يدلُّ على تحقّق الوصف في المسمّى، وتمكّنِه فيه، فالتّعبير هنا بقوله: ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ يدلُّ على وصول النّذارة إليهم، وتمكّنِها منهم، فقد أنذرهم نبيُّ اللّه لوطٌ عليه السلام، وبلّغهم رسالةَ ربّهم أتمَّ بلاغ، لكنّهم عاندوا وكابروا واتّبعوا شهواتِهم وانتكاسَ فطرتهم.

سرُّ حذفِ متعلَّقِ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

ساءَ مطرُ المنذَرينَ لَمّا فَحُشوا

قولُه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس مَطَرُ الَّذين

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 167.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 183.

أُنْذِروا بالعذاب، ذلك أنَّهم كذَّبوا نبيَّهم وأَمَروا بإخراجِه وأهلِه من قريتِهم كما ذُكر في السّياقِ المتقدِّم، فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: ساءَ مَطَرُ المنذَرينَ مطرُهم[1]، والحذف هنا لدلالة السّياق عليه، ولزيادة التّهويل والتّشنيع.

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 192، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5467.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ [النَّمل: 59 - 61]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ربطُ الاعتبار بهلاك المكذِّبين ونجاةِ المؤمنين، بشُكرِ اللهِ على نعمِه، وعدمِ الإشراكِ به

لَمّا استوفى غَرَضُ الاعْتبارِ والإنذارِ حقَّهُ بذكرِ بعضِ الأُمَمِ الَّتي كذَّبتِ الرُّسُلَ، وهي أشْبَهُ أحوالًا بأحوالِ المكذِّبين بمحمَّد ﷺ، وبالكتابِ الَّذي أُنزِلَ عليه، أَقْبَلَ اللهُ بالخطابِ إلى الرَّسولِ ﷺ، يُلقّنُهُ أفانينَ العِبرِ منَ القَصصِ السّالفةِ، وشُكرَ اللهِ على المقصودِ منها[1]، مقدِّمًا الدَّليلَ الواضحَ على حكمتِه تعالى وعلمِه، وتنزُّهِه عنِ الشّريك في قدرتِه وحِلْمِه، وهو ﷻ الَّذي جعلَ الأرضَ راسيةً، وجعلَ فيها أنهارًا جارية، وجبالًا عالية، وجعل بين البحرَيْن حاجزًا، بألطاف قدرته، ودلائلِ حكمتِه، فهل يكونُ مع اللهِ معبودٌ سواه، أو خالقٌ غيره، جلّ في كماله وعلاه؟ ومَنْ أنكر ذلك، فليس له أَثارةٌ من علم، ولا بقيّة من عقل، خصوصا وأنّه قد بان الدّليل، وزهقت الأباطيل[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: (سلم) مُعْظَمُ بابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، ويَكونُ فيهِ ما يَشِذُّ، والشّاذُّ عَنْهُ قَليلٌ، سَلِمَ يَسْلَمُ سَلامةً وسَلامًا: أَنْ يَسْلَمَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186 - 190.

الإنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذَى[1]، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ [الأنفال: 43]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]. وقال تعالى: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾ [الواقعة: 91]، والسَّلامُ هنا أنَّها تُسلِّمُ عليهم بالقولِ والفعلِ جميعًا، وهو من بابِ التَّحيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النِّساء: 86]. وقولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصّافّات: 109] وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾، كلُّ هذا تنبيهٌ منَ اللّهِ تعالى أنَّه جعلهم بحيث يُثْنَى عليهم، ويُدعَى لهم[2]، أو يكونُ المعنى أنَّه يُسلِّمُ على مَنِ اصْطفاهُ بالعصمةِ عنِ الفواحشِ والنَّجاةِ عنِ الهلاك[3].

2) ﴿ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾: (صفو) أصلٌ يدُلُّ على خُلوصٍ من كلِّ شَوْب، من ذلك الصَّفاءُ، وهو ضدُّ الكَدَر، يقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ، يقالُ: لكَ صَفْوُ هذا الأمرِ وصِفْوَتُه، واصْطَفى الطّاءُ فيه بَدَلٌ منَ التّاءِ، والصَّفاءُ: ضِدُّ الكَدَرِ مَمْدودٌ، وصَفْوَة الشَّيْءِ: خالِصُهُ، ومُحَمَّدٌ ﷺ صَفْوَةُ اللّهِ ومُصْطَفاهُ[4]، والرُّسُلُ والأنبياءُ هم صفوَةُ اللّهِ من خَلْقه، اصْطفاهُم لأداءِ مُهمَّةِ الرِّسالةِ والبلاغِ عنِ اللّهِ تعالى بوَحْيِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: 32]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: 47][5]. وقولُه تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ هم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ[6]، ويمكن أن يُراد: هم أُمَّةُ محمَّدٍ ﷺ، اصْطفاهُمُ اللّهُ لمعرفتِه وطاعتِه[7]. ويمكن أن يكون المعنَى: همُ الَّذين وحدّوني وآمنوا بي[8]، وهو الأَوْلى لعمومه، فيدخلُ فيه الرُّسُلُ والأنبياءُ وأتباعُهم[9].

3) ﴿حَدَآئِقَ﴾: (حدق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الشَّيْءُ يُحيطُ بِشَيْءٍ[10]، يقال: حَدَقوا به وأَحْدَقوا: أَحاطوا به، تشبيهًا بإدارة الحَدَقَة، وحَدائِقُ جمعُ حديقة، وهي قطعةٌ من

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 271.
(4) إبطال الرّكبي، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/ 133.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2، وابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 9/ 2906.
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 185.
(9) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدق).

الأرضِ ذاتُ ماء، سُمّيت بِحَدَقَةِ العَيْن في الهيئةِ وحصولِ الماء فيها، قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[1]، والحديقةُ: أرضٌ ذاتُ شَجَرٍ مُثْمِر، والحديقةُ مِنَ الرِّياض: كلُّ روضةٍ قد أَحْدَقَ بها حاجز، أو أرضٌ مُرتفعة، وكلُّ شيءٍ اسْتدارَ بشيءٍ فقد أَحْدَقَ به[2]. والحدائقُ: جِنانٌ من جِنانِ الدُّنيا، واحدتُها: حديقة[3]. وإنَّما يقالُ حديقةٌ لكلِّ بستانٍ عليه حائط، وما لم يكن عليه حائطٌ، لا يقالُ له: حديقة[4]. وتُطلَقُ الحديقةُ على القِطْعةِ مِنَ النَّخْل[5].

4) ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: (بهج) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ السُّرورُ والنَّضْرَةُ[6]، يقال بَهِجَ يَبْهَجُ، فهو بَهيجٌ به وبهِجٌ، أي: فَرِحَ به وسُرَّ، وأَبْهَجَه: سرَّهُ، والابْتهاجُ: السُّرور، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧﴾ [ق: 7]. والبَهجةُ: حُسْنُ اللَّونِ وظُهورُ السُّرور[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، أي: حدائقَ ذاتَ حُسْنٍ[8] ورَوْنَق، فيبتهجُ مَنْ رآها: أي: يُسَرُّ ويَفْرح[9].

5) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: (عدل) أَصْلان صحيحان، لكنَّهما متقابلانِ كالمتضادَّيْن: أحدُهما يدلُّ على اسْتواء، والآخرُ يدُلُّ على اعْوجاج. فالأوَّلُ: العَدْلُ مِنَ النّاس: المرضيُّ المُستوي الطَّريقة، يقال: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ. وأمّا الأصلُ الآخر - وهو المعنيُّ هنا - فيقالُ في الاعْوجاج: عَدَل، وانْعدَلَ، أي: انْعرَجَ، يقال: عَدَلَ، يَعْدِلُ، عَدْلًا وعُدولًا، وانْعدَلَ عنه مثلُه، ومنه: عَدَلَ عنِ الحقِّ - إذا جارَ - عُدولًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1][10]، وقولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾، أي: يشركون به غيرَه[11]، أو بمعنَى: يَعْدِلونَ عنِ القَصْدِ والحقّ، أي: يكفرون[12].

(1) الرّاغب، المفردات: (حدق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حدق).
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 297.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بهج).
(7) الرّاغب، المفردات: والرّازي، مختار الصّحاح: (بهج).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 326.
(9) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عدل).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3.
(12) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.

6) ﴿قَرَارًا﴾: (قرّ) قَرَّ في مكانِه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا، وأصلُه منَ القُرِّ، وهو البَرْد، وهو يَقْتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة[1]. قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، وأصلُه: اقْرِرْنَ فحذفَ إحدى الرّاءيْنِ تخفيفًا[2]، والقَرارُ في المكان: الاستقرارُ فيه، تقول منه: قررت بالمكان بالكسر، أَقَرُّ قرارًا، وقَرَرْتُ أيضًا بالفتح أقِرُّ قرارًا وقُرورًا. وقَرَرْتُ به عينًا وقَرِرْتُ به عينًا قُرَّةً وقُرورًا فيهما. ورجلٌ قريرُ العينِ، وقد قرَّت عينه تَقِرُّ وتَقَرُّ: نقيضُ سخنت. وأقرّ اللّه عينَه، أي أعطاه حتَّى تَقَرَّ فلا تطمح إلى من هو فوقَه[3]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: دَحاها وسوّاها وجعلَها مُستقرًّا لا تَميدُ بأهلِها[4].

7) ﴿خِلَٰلَهَآ﴾: (خلّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَتَقارَبُ فُروعُهُ، ومَرْجِعُ ذَلِكَ إمّا إِلَى دِقَّةٍ أَوْ فُرْجَةٍ[5]، فالخَلَلُ: فُرجةٌ بين الشَّيئَيْن، وجمعُه خِلال، كخَلَلِ الدّار، والسَّحاب، والرَّمادِ وغيرِها، قال تعالى في صفةِ السَّحاب: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: 43][6]، قال الشّاعر: (أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمْر)[7]، وقال الأصمعيّ: تخلّلت القومَ: دخلت بين خللِهم وخلالَهم، وجلسنا خلال البيوت، وخلالَ الدّور أي بينها، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: 43]، أي: من فتوقِه ومخارجه، جمع خلل كجبل وجبال[8]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ أي: فيما بينَها[9].

8) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: (رسو) أصلٌ يدُلُّ على ثبات، تقول: رَسا الشَّيءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ، واللّهُ ﷻ أَرْسَى الجبال، أي: أثبتَها، وجَبَلٌ راسٍ: ثابت، قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النّازعات:

(1) الرّاغب، المفردات: (قر).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 342.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلّ).
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (خلل).
(7) هذا شطرُ بيت، وعجزه: فيوشكُ أن يكونَ له ضِرامُ، وهو لنصرِ بن سيّار، استشهد به ابن قتيبة، عيون الأخبار: 2/ 128، وأبو الفرَج الأصفهاني، الأغاني: 6/ 124.
(8) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 974.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3.

32][1]، ورَسَت السّفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ وانتهى إلى قَرار الماء، فثبَتَتْ وبقيت لا تسيرُ[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ﴾ أي: الجبالَ الثَّوابت، تُمسِكُها وتمنعُها منَ الحركة[3].

9) ﴿حَاجِزًاۗ﴾: (حجز) أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدُ القياس، وهو الحَوْلُ بين الشَّيئَيْن، وذلك قولُهم: حَجَزْتُ بين الرَّجُلَيْن، وذلك أن يمنَعَ كلّ واحدٍ منهما من صاحبِه. قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقّة: 47][4]. وقولُه: ﴿حَاجِزًاۗ﴾، أي: لا يغيِّرُ أحدُ البحرين الآخَر بوجود حائل[5].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المُستَحِقُّ للعبادة، والحمدِ على آلائه العظيمةِ؛ هو اللهُ لا أحدَ سواه

يأمر اللّه رسولَه ﷺ أن يحمد اللّه على نعمِه الجليلة، ومننِه الجميلة، وعلى ما اتّصفَ به منَ الصِّفاتِ العُلَى، والجلال الأسنى، وأن يُسلِّمَ على رسل اللّه المصطفين، ملفتًا في اسْتفهام تقريريّ، إلى أنّه خلقَ السَّماواتِ والأرض، وأنزلَ منها الماء، وأنبتَ به الشّجرَ الباسق، والثّمرَ اليانع، والحدائقَ الغنّاء، والمروجَ المزدانةَ بالأزهار والاخضرار، ممّا لا يخلقه إلّا اللّه الواحد القهّار، ولكنّ البشر يَعْدِلونَ عنِ القَصْدِ والحقّ، ويعبدون من لا يقدر على شيء، ولا يلتفتون إلى أنّ قدرة اللّه تعالى هي الّتي ضمنت في الأرض القرارَ، وأجرت خلالها الأنهار، وخلقت الرّواسيَ منَ الجبال، وجعلت بين الأمواج حاجزا يمنعُها منَ الامتزاج، لتستخلص أنّه لا إله إلّا اللّه، ولكنّهم عنها محجوبون، لأنّهم لا يعلمون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسَى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسَو).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (حجز).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 275.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملة ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عمّا قبلها:

المعبوداتُ بغيرِ حقٍّ مُباينةٌ للهُ، في ذاتِه وأفعالِه وأسمائه وصفاتِه

جاءَ الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، اسْتئنافًا مترتّبًا على ما سبق، فقد تمَّ بما قصّه اللّهُ من أنباءِ الأنبياءِ مع أقوامهم - وكان لوطٌ عليه السلام آخرَهم - استنتاجُ ما أرادَ اللّهُ سبحانه وتعالى منَ الدَّليل على حكمتِه وعلمِه، ومُباينتِه للأصنام في قدرتِه وحلمِه[1]، فجاءت بعد ذلك الآياتُ مُفتتحةً بتعظيم من ثبت له الوحدانيّةُ والألوهيّةُ فقال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

بلاغةُ الأمرِ في جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمدُ للهِ على إنجاءِ الصّالحين، وإهلاكِ الكفرة الظّالمين

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أمرٌ للرَّسولِ صلى الله عليه وسلم بإنشاءِ حَمْدِ اللّه، إنشاءً منصبًّا على كلِّ ما دلَّت عليه القَصصُ السّابقةُ، من نجاةِ الرُّسلِ منَ العذابِ الحالِّ بقومِهم، وعلى ما أَعْقَبَهُمُ اللّهُ على صبرِهم منَ النَّصرِ ورِفعةِ الدَّرجات، وعلى إهلاكِ أعدائِهمُ الظّالمين، كقولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45][2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمدُ أدبٌ مع مؤيِّدِ المرسَلين بمعجزاتِه، وجاعلِهم أصحابَ فضلٍ على عبادِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ فيه تعليمًا حسَنًا، وتوقيفًا على أدبٍ عظيمٍ توارثتْه العلماءُ والخُطباءُ والأُدَباء كابرًا عن كابر، فحمدوا اللّهَ تعالى أمامَ كلِّ علمٍ مُفاد، وقبلَ كلِّ موعظةٍ تنشأ، وتذكرةٍ تبدأ أو تعاد[3]، وإيثارُ الحمدِ هنا على وجهِ الخصوص؛ لأنَّه يشملُ سائرَ صفاتِ الكمالِ الَّتي لا تُستحقُّ إلّا للّهِ جل جلاله[4]؛ فهو سبحانه الَّذي أيَّد أنبياءه ورُسلَهُ بالمعجزاتِ الباهرات، وجعلَهم أصحابَ فضلٍ على عبادِه، بأدائهمُ الحقَّ واجتهادِهم في الدّين[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 134.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.

سرُّ إضافةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى الذّاتِ العَليّة:

الحمدُ بتمامِه وكمالِه، مقصورٌ على اللهِ دون سواه

أضافَ النَّظمُ القرآنيُّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى الذّاتِ القُدسيَّةِ العليَّة؛ لأنَّه لا أحدَ يستحقُّ تمامَ الحمدِ وكمالَه إلّا صاحبُ المحامدِ كلِّها، بأفعاله وسُنَنِه الشَّرعيَّة، والخَلقيَّةِ التَّكوينيَّة، وهو اللهُ الخالقُ الَّذي لا معبودَ بحقٍّ سواه، فَحَصْرُ الحمدِ له تعالى، وإضافتُه إليه، بناءً على ما تدُلُّ عليه جملتُه ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من اخْتصاصِ جِنْسِ الحمدِ به تعالى، واسْتحقاقِه لذلك الاخْتصاص[1]، فهو ﷻ مختصٌّ بالمستجمع للأسماءِ الحُسنَى، والصِّفاتِ العُلى عند الإعدام، كما كان عند الإيجاد[2].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ في السّياق:

السَّلامُ تابعٌ للحمدِ، وهو مظهرٌ من مظاهره

عُطِفَ على المأمورِ بقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ السَّلامُ على الرُّسُلِ الَّذين سبقوه قدرًا؛ لقَدْرِ ما تجشَّموهُ في نشرِ الدّين الحقّ، وأصلُ (سلامٌ): سلَّمْتُ سَلامًا، مقصودٌ منه الإنشاءُ، فحُذف الفعلُ وأُقيمَ مفعولُه المطلقُ بدَلًا عنه، وعدَلَ عن نَصْبِ مفعولِه المطلَقِ إلى تصييره مُبتدأً مرفوعًا للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوام، فعُطِفَ سلامٌ عليه، ليكونَ الأمرُ متوجِّهًا للمأمورِ بإنشاءِ حمدٍ وإنشاءِ سَلام[3].

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ هنا:

السّلام على عبادِ اللهِ المصطفين ثابتٌ دائمٌ في كلِّ حال

السَّلامُ في الأصلِ اسْمٌ لما يقولُه القائلُ لمن يُلاقيه، بلفظِ: سلامٌ عليك، أوِ السَّلامُ عليك، وجاء ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ - هنا - نكرَةً؛ للدّلالة على العموم، فهي سلامةٌ في كلِّ ما تَعْنيه كلمةُ (سَلامة)، في أمورِ الدّين والدُّنيا، وفي كلِّ الأحوالِ، فعباد اللهِ الذين اصطفاهم - وأوّلهم الأنبياء - قد نالوا السّلامة كلّها، بالخير في الدّنيا، ورفعةِ المقام في الآخرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 134.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6 - 7.

بلاغةُ استعمال ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية:

تمكُّنُ السَّلامِ من عبادِ اللهِ المصْطَفَيْن، دالٌّ على حالِهم ومآلهم

اسْتعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾؛ لِما تُؤذِنُ به ﴿عَلَىٰ﴾ منَ الاسْتعلاءِ المجازيّ، المرادِ به التَّمكُّنُ، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5](1)، وأشارَ به كذلك بأنَّه لا وصولَ للعطبِ إليهم أبدًا(2).

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ العبوديَّةِ دون سواها:

العبوديَّةُ للهِ أَعْظَمُ النِّعم الَّتي تستحقُّ اسْتغراقَ الحمد

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظِ العبوديَّة، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ دون سواها؛ لأنَّها أعظمُ المقاماتِ وأشْرفُ المكرُمات، ولذلك قدَّم لها بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، فأَجَلُّ نعمةٍ، وأسْمى فضيلةٍ، أَحْسَنَ اللّهُ بها على خَلْقه، هي نعمةُ العبوديَّة له ﷻ، فالحمدُ مُستحَقٌّ بكمالِه وتمامِه لمعبودِهمُ الحقِّ ﷻ أزلًا وأبدًا(3).

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾:

المصْطَفَوْن الأخيارُ، عبادٌ مُشرَّفونَ مُكرَّمون، عند إلهِهم الأحد

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿عِبَادِهِ﴾، إشارةً إلى شرفِ عبادِه الَّذين اصْطفَى، فهي إضافةُ تشريفٍ لهم ورفعةٍ لمقامِهم عند مليكِهم ﷻ(4)، فمن أضافه اللّه إليه نال الخيرَ كلّه، فهو في حفظه ورعايته وتوفيقه.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصوليَّة بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تأكيدُ التَّشريفِ بالعبوديَّة والاصْطفاء

اسْتعمالُ الاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾، تأكيدٌ لاسْتحقاقهمُ التَّشريفَ بعبوديَّتهم للّه، وأنَّ هذا الاصْطفاءَ حاصلٌ منه لهم لا لغيرِهم، فهو تشريفٌ فوقَ تشريف، اصْطفاءٌ بالعبوديَّةِ واصْطفاءٌ بالرِّسالة(5).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6 - 7.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.

اخْتيارُ صيغةِ الاصْطفاءِ في الآية:

الاصْطفاءُ لأداءِ رسالةِ التّوحيدِ ونَبْذِ الشّرك، مقصدٌ جوهريٌّ في البلاغ

ذكرَ الاصْطفاءَ في قولِه تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، وقد كان هذا الذِّكرُ عِرفانًا لفضلِ المصطفَيْن، وأداءً لحقِّ تقدُّمهم واجتهادِهم في الدّين، وبيانًا بأنَّ اللّهَ لا يَصْطفي إلّا مَن اتَّصفَ بصفاتٍ تؤهِّلُه لهذا الاصْطفاء[1]، وأنَّ العبادَ الَّذين اصْطفاهُمُ اللّهُ هم الرُّسُلُ والأنبياء، ويشملُ ذلك الصّالحينَ من عبادِه، وقد جاؤوا كلُّهم بحاصلِ قولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية الكريمة:

إلجاءُ المخاطَبِ للإقرارِ بالحقِّ، إفصاحٌ عنِ المراد في السّياق

الاسْتفهامُ في قولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُستعمَلٌ في الإلجاءِ، وإلزامِ المخاطَبِ بالإقرارِ بالحقِّ، وتنبيهِه على خَطئِه، وفيه أيضًا تَهَكُّمٌ بالمشركينَ الَّذين أَفْرَطوا في خطئِهم وجَهْلِهم، فعبَدوا مع الإلهِ الحقِّ الأحد شُركاءَ من خَلْقه، أو أصنامًا هم صَنعوها لا تضرُّ ولا تنفع[3]. فالاسْتفهامُ الَّذي صُدِّرت به جملةُ ﴿ءَآللَّهُ﴾، يُقصَدُ به في مثل هذا السّياق إلزامُه الإقرارَ بحَصْرِ التَّفضيلِ في جانبٍ واحدٍ، وانْتفائه عنِ الآخَر[4].

مجيءُ أفعلِ التَّفضيل ﴿خَيْرٌ﴾:

اسْتدراجُ المشركينَ في التّنبيهِ على خطئِهم، مع التّهكّم بهم

معلومٌ أنَّه لا خَيْرَ فيما أَشْركوهُ أصْلًا، حتَّى يوازَنَ بينَه وبينَ مَنْ هو خالقُ كلِّ خيرٍ ومالكُه، وإنَّما هو إلزامٌ وتبكيتٌ وتَهكُّمٌ بحالِهم، وذلك أنَّهم آثروا عبادةَ الأصنامِ على عبادةِ اللّه، ولا يُؤْثِرُ عاقلٌ شيئًا على شيءٍ إلّا لداعٍ يدعوه إلى إيثارِه من زيادةِ خيرٍ ومنفعة، فقيلَ لهم مع العلمِ أنَّه لا خيرَ فيما آثروه، وأنَّهم لم يُؤْثروه لزيادةِ الخير، ولكن هوًى وعبَثًا ليُنبَّهوا على الخطأِ المفرطِ، والجهلِ المورِّطِ، وإضلالِهمُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 8 - 9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.

التَّمييزَ ونبذِهمُ المعقول، وليعلَموا أنَّ الإيثارَ يجب أن يكونَ للخيرِ الزّائد، ونحوُه ما حكاه عن فرعونَ، في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزُّخرف: 52]، مع علمِه أنَّه ليس لموسى عليه السلام مثلُ أنهارِه الَّتي كانت تجري تحتَه[1]، فلَمّا كان المشركونَ يتوهَّمون في الأصنام وفي عبادتِها خيرًا، قيل لهم احتجاجًا عليهم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

دلالةُ (أَمْ) وسرُّ ورودها:

غرضُ الاسْتفهام الإنكــاريِّ، زيـادةُ التَّهكّم بالمشركين

لفظُ (أَمْ)، في قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُتَّصلةٌ، أي: أيُّهما خير؟، وهي (أم) المعادِلةُ للهمزة، وفي هذا الأسلوب زيادة في الازْدراءِ بالمشركين وبيانِ فداحةِ ما هم عليه منَ الخطأِ الشَّنيع والجهلِ المُطبِق[3]، فكيف يساوون بين الخالقِ سبحانه وغيرِه منَ المخلوقات. ومعلوم أنّ ﴿أَمَّا﴾: مكوَّنةٌ من (أم) مع (ما)، و(ما) مصدرية أو اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي[4].

مفهومُ (ما) في قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

سفاهةُ المشرك الـذي يعلم أنّ مـعـبـوداتِـه لا تضرّ ولا تنفع

(ما) في قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، اسْمٌ موصولٌ بمعنَى (الَّذي)، جيء به بعد (أَمْ) لِما في صِلاته منَ الصِّفاتِ الَّتي تعدُّ من قبائحِ ما يُشركونَه مع اللّهِ منَ الأصنام الَّتي ليس لعابديها أيُّ حظٍّ منها، في جَلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرّ[5]، ويمكنُ أن تكونَ (ما) مصدريَّةً، والتَّقديرُ: (أتوحيدُ اللّهِ خيرٌ أَمْ إشراكُهم)[6].

اخْتيارُ الفعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ دون سواه:

أهلُ مكّة كانوا يُشركونَ مع اللهِ غيرَه في العباد، جـهـلًا وضـلالًا وغُلوًّا

جاءَ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لبيانِ حقيقةِ ما كانت عليه قريشٌ ونحوُهم

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(2) النَّحاس، إعراب القرآن: 3/ 217.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 272.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 4/ 20.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 9.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.

منَ الإشراكِ في اللّهِ بعبادةِ الأصنام - الَّتي صنعوها بأيديهم - مع إيمانِهم بأنَّ اللّهَ هو الرَّبُّ الخالق، لكنَّ العبوديَّةَ الخالصةَ له لا تستقيم، فلا بُدَّ من إشراكِ معبوداتٍ أُخرى معه - حسب وهمهم - فهذا إشراكٌ حاصلٌ منهم يعبِّر عنه خيرَ تعبيرٍ الفعلُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾.

مجيءُ فعلِ الإشراكِ هنا مضارعًا:

اسْتمرارُ المشركينَ على شِرْكهم، جحودًا وعنادًا

جاءَ فعلُ الإشراكِ بصيغةِ المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ لأنَّه يفيدُ الاسْتمرارَ والتَّجدُّد، وهذا بيانٌ لحالِ مُشركي مكَّة، حيث أشركوا باللّهِ قبل بعثةِ رسولِ اللّه ﷺ، وداوموا على شركِهم باللّه، بعد بعثته ﷺ وبَقَوْا على شِركهم، ويتجدّد منهم الشّركُ رغم تجدّد الآيات الواضحات الدّالّة على أحقّية اللّه تعالى وحده بالعبودية والاستسلام والانقياد.

عودُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

الخطابُ لمشركي قريشٍ، ولمنِ اقْتدَى بضلالِهم

عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ لقُريش ونحوِهم منَ المشركين، ويمكنُ أن يعودَ لأولئك المهلَكين، والأوَّلُ أظهرُ وأَوْلى بالسّياق[1]، ومُفاد الجملة أن لا خيرَ فيما أشركوه أصلًا حتَّى يوازنَ بينَه وبينَ مَن هو خالقُ كلِّ شيءٍ، وإنَّما هو إلزامٌ لهم، وتهكُّم بحالهم؛ ليتنبَّهوا على الخطأ المُفرط، والجهل المورِّط، وليعلموا أنَّ الإيثار يجبُ أن يكون للخير الزّائد"[2]، وأنّ اللّه هو مصدرُ كلِّ عطاء ونفع، وأنّ الشّركاء لا نفعَ فيهم يُؤملُ، ولا خيرَ منهم يُرتجى.

توجيهُ القراءتيْنِ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

الخطابُ للمشركين الفجرة، من أهل مكَّةَ وغيرِهم منَ الكفَرَة

في قولِه تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ قراءتانِ متواترتان، فقرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم بالغيب ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب ﴿تُشۡرِكُونَ﴾[3]، فعلى القراءة الأولى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ بياءِ الغَيْبة، يكون القولُ الَّذي أُمرَ به النَّبيُّ ﷺ مَحكيًّا بالمعنَى، روعيَ فيه غَيْبةُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 481.

(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 338.

المشركينَ في مقامِ الخطابِ بالأمر، فالمرادُ بهم قريشٌ ونحوُهم من المشركين. وعلى القراءة الثّانيةُ: ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ بالتّاء، يكون توجيهُ الخطاب للكَفَرةِ ومَن كان على شاكلتِهم[1].

دلالةُ (أَمْ) في قوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ﴾:

الانْتقالُ مِنَ التَّهكُّمِ بالمشركينَ، إلى تقريرِ قدرةِ اللهِ على العالمين

(أمْ) في قولِه تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ﴾ منقطعةٌ، بمعنَى بلْ والهمزة، لَمّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾ أم الآلهة؟ قال: بل ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ خير[2]، ولَمّا كانت (بل) للإضرابِ الانْتقاليّ من غَرَضٍ إلى غرضٍ، مع مراعاةِ وجودِ الاستفهام، أو لفظِه بعدها -؛ لأنَّ (أمْ) لا تفارقُ معنَى الاستفهام -، انتقل بهذا الإضرابِ منَ الاسْتفهامِ الحقيقيِّ التَّهكُّميِّ، إلى الاسْتفهامِ التَّقريريّ، ومنَ المقدّمةِ الإجماليَّة، وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾ إلى الغرضِ المقصود، وهو الاسْتدلالُ[3].

دلالةُ (مَنْ) وأثرُ موقعِها الإعرابيّ:

الابْتداءُ بتقريرِ قدرةِ اللهِ على الخلقِ، مُبين عنِ المراد

(مَن) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ﴾ أعطتْ تقريرًا مؤكَّدًا، بأنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ العالَمِ خيرٌ من جمادٍ لا يقدِرُ على شيء[4]، وفي هذا تبكيتٌ لهم وتهكُّمٌ بما هم عليه من سفاهةِ الأَحْلامِ ونزولِهم إلى أدْنَى دَرَكاتِ العَمَى عن حقائقِ الأمور، و(مَنْ) اسمٌ موصولٌ، وكان الأصلُ أن يقال: أمْ هو، ولكنَّه عبَّر باسْمٍ موصولٍ أصْلُ وضْعِه لذي العلم، ووَصَلَه بما لا يصحُّ أن يكونَ لغيره، ليكونَ كالدَّعْوَى المقرونة بالدَّليلِ الحسّيّ المشاهَد، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[5].

ورودُ الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾ ماضيًا:

تحقُّقُ الخلقِ بقدرةِ اللهِ، مُفْضٍ إلى الإيقانِ بعظمةِ الخالق

وردَ الفعلُ ﴿خَلَقَ﴾ بصيغةِ الماضي تنبيهًا على تحقُّقِ الخَلْقِ،

(1) مكّي، الكشف: 2/ 163، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 10.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.

ولدلالة القدرةِ على بدئه على القدرةِ على إعادته؛ بل من بابٍ أَوْلى، فمَن تحقّقَ منه بدءُ الخلق، تحقَّقَ منه بعثُ النّاسِ ليوم القيامة، وفي هذا دلالةٌ على أمريْن: الإيمانُ بأنَّ اللّه هو الخالقُ، والإيمانُ بالآخرة(1).

سرُّ التَّعريفِ في كلٍّ من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

جاء التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، لبيانِ اسْتحقاقِ السَّماواتِ والأرض أن تكونَ من خلق اللّهِ وحده، فهي مخلوقةٌ بأمرِ اللّهِ وقدرته، فلا يصحُّ أن يكونَ خلقُها لغيره، فهي السَّماواتُ والأرضُ المعهودةُ المعلومةُ المشاهدةُ للخَلْق، فهذه الدَّعوى في خَلْقِها مقرونةٌ بالدَّليلِ الحسّيّ المعهود(2)، فالتّعريفُ فيهما للعهد.

السَّماواتُ والأرضُ المعهودة، من خلْقِ اللّه وحدَه دون سواه

دلالةُ عطفِ فعلِ الإنزالِ على الخلقِ:

عُطِفَ فعلُ الإنزالِ على الخلقِ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم﴾، وفيه أنّه لَمّا كان الإنباتُ من أدلِّ الآياتِ على إحياءِ الأموات، عطفَ ما يُسبِّبُه وهو إنزالُ الماءِ منَ السَّماء، والماءُ المنزَّلُ منَ السَّماءِ والإنباتُ كلاهما بخَلْقِ اللّهِ وقدرتِه(3)، وفيه تعميمٌ لبيان أنّه خالقُ الوجود كلِّه: السّماواتِ والأرضِ وما فيهما، ثم تخصيصُ التقاء السّماء بما فيها والأرض بما فيها من خير للإنسان والحيوان، لكيلا يظنَّ أحدٌ أنّ ذلك الإنباتَ منَ الأخذ بالأسباب والمسّببات، بل بيّن اللّه تعالى أنّ ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسّببات(4).

الّذي أنبتَ الأرضَ بالماء، هو من خلقَ الأرضَ والسَّماء

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُم﴾:

تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، لتخصيصِهم بهذه النِّعمةِ العظيمةِ الَّتي فيها

تخصيصُ العبادِ بنعمةِ الماءِ، يوجبُ الشُّكران لا الكُفران

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 171.

قَوامُ معاشِهم وحياتهم، أي: لأجلِكم ومنفعتِكم خاصَّةً أنزلتُ الماءَ منَ السَّماء، وأنتُم تكفرون بي، وتنسبونَ ما تفرَّدتُ به من ذلك لغيري[1]!!. وهذا التَّخصيصُ على سبيلِ الامْتنان، وأنَّ ذلك من أجلِكم لا من أجلِ غيرِكم[2]، وفيه تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم ما شكروا نِعمةَ اللّه[3].

دلالةُ التَّنصيصِ على ذكرِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ مصدرُ النِّعمِ النّازلة للأرض، عطاءً منَ الله ونعمةً

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، تعبِّرُ عن ذكرِ اللّهِ تعالى لمقرِّ العالمِ العُلويِّ، فبدأ تعالى بذكرِ إنشاءِ مقرِّ العالمِ العلويِّ وإنزالِ ما به قَوامُ العالمِ السُّفليِّ، على سبيلِ الامْتنان؛ إذِ السَّماءُ مصدرُ النِّعمِ والخيراتِ للأرضِ وعُمّارِها[4].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿مَآءً﴾:

التَّنكيرُ في لفظ ﴿مَآءً﴾ للتّنويع، أي: لبيان نوعٍ منه، وهو المطر[5]، الَّذي به حياةُ الأرضِ بالإنْبات، وإلّا فإنَّ منَ الماءِ ما يكون عذابًا وبلاءً.

بلاغةُ عطفِ الإنباتِ على ما سبق:

مَنْ أنكرَ توحيدَ اللهِ، تجاهلَ نِعمَهُ عليه وأنكر عطاياه

جاء عطفُ الإنْباتِ، في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ على ما تقدَّمه؛ لإثباتِ أنَّ الخالقَ والمُنبِتَ والرّازقَ هو اللّه، وهو مشوبٌ بتوبيخٍ، إذْ كيف ينصرفونَ عن عبادتِه وتوحيدِه، لعبادةِ أصنامٍ جامدةٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ؟! وكيف يتجاهلونَ نعمَه عليهم ومنها إنباتُ الزُّروعِ والأشجارِ والثِّمار، وفيها غذاؤهم وقوامُ معاشِهم وحياتِهم[6]؟!

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 272، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

دلالةُ مرجعِ ضميرِ فعلِ الإنباتِ على ما سبق:

الإنْباتُ: تكوينُ النَّبات، ونموُّه ونُضْجُه، وكلُّ ذلك من فعلِ اللّهِ تعالى وحدَه لا شريكَ له، وكيف لا يكون ذلك كذلك، واللّهُ تعالى قالَ في صدرِ الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؟!، فمَن أَنْبتَ الأرضَ بالزُّروعِ والثّمار، هو الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرض، وأنزلَ الماءَ لإحياءِ الأرضِ بذلك الإنبات، وليس الماءُ هو المُنبِتُ الحقيقيّ؛ بلِ المُنبِتُ الحقيقيُّ هو اللّهُ ﷻ الَّذي خلقَ الأسبابَ والمسبّبات والمسبَّبات، ورجوعُ الضَّميرِ إليه أَلْيَقُ بمقامِ التَّوبيخِ على عدمِ رعايتِهم نِعَمَه[1].

المُنبتُ للزّروعِ، هو صاحبُ الخلقِ المتفرّدِ البديعِ

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ الكريمة:

في قوله تعالى ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ التفاتٌ منَ الغيبة إلى الحضور، إذ كانت الآيات فيما سبق على وجه الغيبة: ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ﴾، ثم التفت إلى الحضور ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾، ومن لطائفه هنا التّنصيصُ على أنَّ المقصود إسنادُ الإنبات إليه لئلّا ينصرف ضميرُ الغائب إلى الماء؛ لأنَّ التّذكير بالمنبت الحقيقيّ الذي خلق الأسباب أليقُ بمقام التّوبيخ على عدم رعايتهم نعمَه[2].

الإنسانُ في الإنباتِ يتّخذُ الأسباب، والله هو المنبتُ على الحقيقة

سرُّ ورودِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

جاءَ بيانُ النَّظم الكريم باسْتعمالِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾، بعد قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فقولُه: ﴿بِهِۦ﴾ أي: فأنْبتْنا بالماء، فالماءُ سببٌ للإنبات، واللّهُ ﷻ هو خالقُ السَّببِ والمُسبَّب، فالماءُ والإنباتُ كلاهما بخلقِ اللّهِ ﷻ، وفي ذلك تعريضٌ بالمشركين، بأنّكم لا تستطيعون إبرازَ شيءٍ منَ العدمِ إلى الوجود، كإنباتِ الزُّروعِ والثِّمار، فهذا ليس بمقدورٍ إلّا للّهِ تعالى[3].

اللهُ ﷻ خالقُ السَّببِ والمسبَّب، وخالقُ كلِّ شيء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257 - 258.

دلالةُ لفظِ ﴿حَدَآئِقَ﴾ في الآية:

الـبـسـاتـينُ المـحـاطـةُ مع تنوُّعِها أنبتَها اللهُ بالمطرِ الَّذي أنزلَه

الحديقةُ: البُستانُ عليه حائطٌ، منَ الإحْداق، وهو الإحاطة[1]، وحدائقُ: جمعُ حديقة، وهي بساتين مُحدّقة، أي: محيطةٌ بها أشجارُها وجُدرانها[2]. ولفظُ ﴿حَدَآئِقَ﴾ في الآيةِ يدلُّ على التَّنوُّع، أي: الحدائقَ المختلفةَ الأصنافِ والألوانِ والطُّعومِ والرَّوائح، وهذه كلُّها تنبتُ بماءٍ واحدٍ أنزلَه اللّهُ وأنبتَها به[3].

المقصودُ بالوصفِ ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾:

إبـراز بـهـجـةِ الحدائق، تنويهٌ بجمال الصّنع وإتقانه

البَهْجَةُ: حُسْنُ المنظر؛ لأنَّ النّاظرَ يَبْتهِجُ به[4]. وقولُه تعالى: ﴿ذَاتَ﴾؛ لأنَّ المعنَى: جماعةُ حدائقَ ذاتِ بهجة، كما يقال: النِّساءُ ذهبتْ، فقولُه تعالى: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ أي: صاحبةَ حُسْنٍ ونُضْرةٍ وجَمال؛ لأنَّ النّاظرَ يبتهج، أي: يُسَرُّ ويَفْرح[5]. وسوَّغَ إفرادُ لفظِ ﴿بَهۡجَةٍ﴾؛ لأنَّ المنعوتَ وهو ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمعُ كثرةٍ لِما لا يَعقل[6].

موقعُ جملةِ ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾ إعرابيًّا:

لا يـقـدرُ على هـذا الإبـداع إلّا بديعُ السّماوات والأرض سبحانه

جملةُ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾ نعتٌ ثانٍ لقولِه: ﴿حَدَآئِقَ﴾ أو حالٌ منه، لتخصُّصِها بالصِّفة[7]، فاللّه سبحانه لمّا أثبت الإنباتَ له، نفاه عن غيره على وجه التّأكيد تنبيهًا على تأكُّد اختصاصه بفعله، وعلى أنّه إن أسند إلى غيره فهو مجاز عنِ التّسبّب وأنَّ الحقيقة ليست إلّا له فقال: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾ أي ما صحَّ وما تُصوِّرَ بوجه منَ الوجوه ﴿لَكُمۡ﴾ وأنتم أحياء فضلًا عن شركائكم الذين هم أموات بل موات ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾[8].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 256، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 187.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 256، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 238.
(7) درويش، إعراب القرآن: 7/ 239.
(8) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 188.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في جملة ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾:

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۚ﴾ للنَّفي، وهو نَفْيٌ للكَيْنونة، ومثلُ هذا النَّفي قد يكونُ لاسْتحالةِ وقوعِه كهذا، أو لامْتناعِ وقوعِه شرعًا، أو لنَفْي الأَوْلويَّة، والمعنَى هنا: ذلك منكم مُحال؛ لأنَّه إبرازُ شيءٍ منَ العدمِ إلى الوجود، وهذا ليس بمقدورٍ إلّا للّهِ تعالى[1].

محالٌ على العبادِ إيجادُ شيءٍ منَ العَدَم

سرُّ ورودِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ هنا:

ورودُ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ هنا بمعنَى: صحَّ أوِ اسْتقام، أي: ما صحَّ منكم ذلك، وما اسْتقامَ وما تُصوِّرَ بوجهٍ منَ الوجوه، أو ما تمَّ لكم ما تريدون منَ الإنبات؛ لأنَّ ذلك موكولٌ إلى مشيئةِ اللّهِ وقدرتِه، وفي ذلك تأكيدُ اخْتصاصِ الأمرِ في سببِه ومُسبَّبِه إلى اللّهِ وحدَه[2].

وقوعُ السَّببِ والمسبَّبِ عنه، كلاهما بخلْقِ اللهِ وقدرتِه

معنَى اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾ ونكتةُ تقديمِه:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ هي لامُ الملك، وتدلُّ هنا على تأكيد مِنَّتِه تعالى عليهم واخْتصاصِهم بهذه النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي تفضَّلَ بها عليهم، ولولا فضلُه سبحانه ما كان في قدرتهم أن ينفعوا أنفسهم بمثل هذه النِّعم العظيمة، ولولا رحمةُ اللّهِ بهم لما أنزَلَ عليهم منَ السَّماء ماءً، ولَما أنبتتِ الأرضُ زروعَها وشجرَها وثمارَها، وفي ذلك كلِّه تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم مع ما يشاهدونَه من تلك النِّعم الَّتي لا قدرةَ لهم باسْتجلابها هم غيرُ شاكرين لنعم اللّه؛ بل هم جاحدونَ بمن خلَقَها وخصَّهم بها[3]، وقُدِّم الجارُّ والمجرور للمبالغة في نفي مِلْكِ ذلك لهم[4]، أو إمكانِ قدرتهم عليه.

تأكيدُ اخْتصاصِهم بالنِّعَم، وكفرِهم بها وبمَن أسْبَغها عليهم

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 188.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

معنى الحرفِ ﴿أَن﴾ في ﴿أَن تُنۢبِتُواْ﴾:

المبالغةُ في نفيِ قدرةِ المشركينَ على الإنباتِ، تأكيدٌ لتفرّد الله بذلك

الحرفُ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن تُنۢبِتُواْ﴾، حرفٌ ناصبٌ مؤكّدٌ للنَّفْيِ الَّذي سبقَه، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾، وهو حرفٌ مصدريٌّ، ينسبِكُ مع الفعلِ بعده بمصدرٍ مؤوَّلٍ، تقديرُه: (الإنبات، أي: ما كان لكم إنباتُ شجرِها)(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُنۢبِتُواْ﴾:

بيانُ منَّةِ اللهِ على عبادِه بالنِّعمِ، وذمُّ من جَحدَها منهم

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تُنۢبِتُواْ﴾، على أنَّ الَّذي يُنبِتُ الحدائقَ وشجرَها، هو اللهُ وحدَه، وأنَّ ذلك منكم مُحالٌ؛ لأنَّه إبرازُ شيءٍ منَ العدَمِ إلى الوجود، وهذا ليس بمقدور أحدٍ إلّا الله تعالى، وجمعَ هذا التَّعبيرُ بين ذِكْرِ منَّته عليهم ﷻ، وذِكْرِ ذمِّهم لَمّا جحدوا نِعَمَه، بعد أن كفروا بألوهيَّته(2).

إيثارُ لفظِ الشَّجرِ هنا دون غيره:

تأكيدُ قدرةِ اللهِ في إنباتِ الشَّجرِ بأصنافِه المتنوّعةِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذكرَ لفظِ الشَّجرِ هنا؛ لأنَّ أكثرَ ما يكون في الحدائق، وينبتُ فيها بصنوفٍ متنوِّعةٍ وبثمارٍ مختلفةِ الشَّكلِ واللَّونِ والمذاقِ هو الشَّجرُ، وهو أكثرُ ما يتفاخرُ به الزّارعون وأصحابُ الحدائقِ فيما بينهم، فهذا كلُّه من إنباتِ اللهِ وخَلْقِ اللهِ، وليس للبشرِ فيه يدٌ إلّا إلقاءُ البذرِ، ودَفْنُه تحت التُّراب(3).

سرُّ الفصلِ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

إثباتُ الخلقِ والإنعامِ للهِ وحدَه دون سواه

قولُه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ استئنافٌ؛ إذ هو كالنَّتيجةِ للجملةِ الَّتي قبله؛ لأنَّ إثباتَ الخَلْقِ والرِّزقِ والإنعامِ للهِ تعالى بدليلٍ لا يَسعُهم إلّا الإقرارُ به، ينتجُ أنَّه لا إلهَ معه(4)، أي: (أإله آخرُ كائنٌ مع الله تعالى هو الّذي خلق السّمواتِ والأرضَ وأنزل منَ السّماء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 187.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

ماء.. كلّا، لا شريك مع اللّه تعالى في خلقه وقدرته، وإيجاده لهذه الكائنات)[1].

دلالةُ الاسْتفهامِ في قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ توبيخيٌّ، أي: أَإلهٌ آخَرُ كائنٌ مع اللهِ الَّذي ذكرَ بعضَ أفعالِه الَّتي لا يقدرُ عليها غيرُه، حتَّى يُتوهَّمَ جعلُه شريكًا له تعالى في العبادة؟!، وهذا تبكيتٌ لهم بنفيِ الألوهيَّةِ عمّا يُشركونه به تعالى في ضمنِ النَّفيِ الكلّيّ على الطريقةِ البرهانيَّةِ بعد تبكيتِهم بنفيِ الخيريَّةِ عنه، فمَن لا يقدرُ على إنكارِ انْتفاءِ الخيريَّة عنه بالمرَّة، لا يكادُ يقدرُ على إنكارِ انْتفاءِ الألوهيَّة عنه رأسًا، لا سيَّما بعد ملاحظةِ انْتفاءِ أحكامِها عمّا سواه تعالى[2].

تأكيدُ إنكارِ إلهٍ آخرَ مع الله، وتقريرُ عدمِ وجودِ هذا الإله

ويحملُ الاستفهام مع كونِه إنكاريًّا في ظاهره، اسْتفهامًا تقريريّا في داخله، فهو يقرّرُ أنَّه لا إلهَ كائنٌ مع اللّه، لا في ذاته ولا في أفعالِه ﷻ الملكِ الأعلى الَّذي لا مِثْلَ له[3]. ثمّ إنّ هذه الآياتِ سيقت مساقَ الكشف عن بعض مظاهر ألوهيّة اللّه ﷻ، وقد جاءت بأسلوب الاستفهام، ليكون فيها معنى الاحتجاج والمناقشة، والدّفعِ إلى التّأمّل وإعمال الفكر[4].

معنَى المعيَّة في الآية:

المعيَّةُ الواردةُ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ هي معيَّةُ إشراك معبودٍ آخَرَ مع اللّه، أي: هل معبودٌ مع اللهِ تعبدونَه، وقد تقدَّمَ ذكرُ بعضِ أفعالِه من الخَلْقِ وإنْزالِ المطر، وإنبات الحدائقِ والشَّجر، فكيف مع ذلك كلِّه يُقرَنُ به غيرُه منَ المخلوقات، وهي ضعيفةٌ في ذاتِها وأفعالِها؛ بل بعضُها لا أفعالَ لها كالأصنام، ويُجعلُ شريكًا له في العبادةِ مع تفرُّدِه تعالى بالخَلْقِ والتَّكوين[5]؟!!

مشاركةُ معبوداتٍ مع اللهِ في العبادة، ضربٌ منَ التَّخبُّطِ والسَّفاهة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11 - 12.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273 - 273.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188.

(4) محمّد سعيد البوطيّ، من روائع القرآن، ص: 280.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.

دلالةُ ذكرِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِۚ﴾:

اللهُ ذو الجلالِ والعُلوِّ الكبير، لا مِثْلَ له ولا نَظير

ذكرُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ فيه منَ المهابةِ والإجلالِ ما فيه، فذِكْرُه إيحاءٌ بأنَّ اللّهَ هو الملِكُ الأَعْلى الَّذي لا مِثْلَ له ولا نِدّ، فهو ذو العزَّةِ والجَبَروتِ الَّذي كلُّ شيءٍ مهما علا فهو دونَه؛ لأنَّه مخلوقٌ للّهِ مقهورٌ له، فكيفَ يُشرَكُ معه غيرُه في العبادة، أو يمكنُ أن يتسلَّلَ التَّفكيرُ لذي عقلٍ أنَّه يمكنُ أن يكونَ للّهِ نِدٌّ أو نَظيرٌ أو شريك، واللّهُ تعالى يقولُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: 11] ويقولُ ﷻ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 22][1].

دلالةُ ﴿بَلۡ﴾:

المشركونَ مكابِرونَ في إعراضِهم عن توحيدِ الله ﷻ

تفيدُ ﴿بَلۡ﴾ في قولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ معنَى (لكن)، باعْتبارِ ما تضمَّنه الإنكارُ من انْتفاءِ أن يكونَ مع اللّهِ إلهٌ آخر، فكان حقُّ النّاسِ أن لا يُشركوا معه في الإلهيَّة غيرَه، فجيءَ بالاسْتدراك؛ لأنَّ المخاطَبين بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾، لم ينتفعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ مكشوفٌ، فهم مكابرونَ في إعراضِهم عنِ الاهْتداءِ بهذا الدَّليل[2].

سرُّ مجيءِ ضميرِ الفصلِ ﴿هُمۡ﴾:

تسفيهُ المشركين، وما هم عليه من سوءِ المعتقدِ والحال

جيءَ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾، لتخصيصِهم بسوءِ الحالِ الشَّنيع الَّذي وصلوا إليه، فبعد أنْ أَوْرَدَ تبكيتَهم بطريقِ الخطاب، أَظْهرَ سوءَ حالِهم وحكايتَه لغيرِهم فكأنَّهم لا شَأْنَ ولا قيمةَ لهم ولا لِشرْكِهم، فهو تخصيصٌ بالازْدراء، وتسفيهٌ لما هم عليه من عقيدةِ الضَّلالِ والبُطْلان[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ القومِ هنا:

كفّارُ قريشٍ همُ المخاطَبون في الآية

دلَّ التَّعبيرُ بلفظِ القوم على الجماعةِ الَّذين أقاموا في المكان، والمرادُ به هنا مكَّةُ المكرَّمةُ، والمقيمون فيها هم كفّار قُريش، فقولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: كفّارُ مكَّةَ الَّذين أشركوا بالله، وعبدوا الأصنام، فعدَلوا بعبادتِها عنِ الحقّ، وهو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له[1]. وفي ذلك كلّه إيماءٌ إلى تمكُّنِ صفةِ العدولِ عنِ الحقّ منهم، حتّى كأنَّها من مقوِّماتِ قوميّتِهم[2].

إيثارُ مجيءِ الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ دون سواه:

العدولُ إشراكُ غيرِ اللهِ في العبادة، وهو لا محالةَ كفرٌ وضلالة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، لأنَّه هنا يقتضي معنيَيْنِ، وكلاهما صائبٌ يَستسيغُه السّياق، **الأوَّل:** يجعلون له عديلًا، أي: شريكًا، كقولِه تعالى: ﴿هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النّحل: 100][3]. **والثّاني:** يَعْدِلونَ بأفعالِه عنه، وينسبونَها إلى غيرِه، أو يَعدِلونَ بعبادتِه عنه تعالى، وهو من: عَدَلَ عنِ القصدِ والحقّ، إذا جارَ عُدولًا، وهو بمعنًى: يكفرون[4].

مرجعُ ضميرِ الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

بيانُ أنّ المشركين هم مَنْ عدَلوا عنِ الحقِّ إلى الباطل

يرجعُ ضميرُ الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ إلى المشركين، الَّذين وردَ الخطابُ لهم، بقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، والسّياقُ في الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ و﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾.

حذفُ مُتعلَّقِ الفعل، ودلالتُه:

المشركون يعدِلون باللهِ غيرَه، فيضلّون ضلالًا مبينًا

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلونَ باللهِ غيرَه، أي: يجعلون له عديلًا مثيلًا له في الإلهيَّة، مع أنَّ غيرَه عاجزٌ عن

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(3) الرّاغب، المفردات: (عدل)، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155.
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 4/ 128، والرّاغب، المفردات: (عدل)، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155.

ذلك، أو يعدِلون عنِ الحقّ، وأيًّا ما كانَ، فالمقصودُ توبيخُهم على الإشراكِ مع وضوحِ الدَّلالاتِ المحسوسةِ الدّالّةِ على انْفرادِ اللّهِ تعالى بخلْقِ السَّماواتِ والأرضِ، وإنزالِ الماءِ منَ السَّماء، وإنباتِ الزُّروعِ والأشجار[1].

نكتةُ الإخبارِ بالفعلِ المضارع ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

استمرارُ القومِ على شِركِهم يناسبُ المضارعيّة

أوردَ النَّظمُ الكريمُ الإخبارَ عنِ المشركينَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ لإفادةِ أنَّهم مستمرّونَ على شركِهم، لم يستنيروا بدليلِ العقل، ولا أقلَعوا بعد التَّذكيرِ بالدَّلائل، قال أبو زهرة في معرض التّعليق على قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾: "أي يَعدلون عن حكم العقل، وحكم المنطق، والطّريقِ المستقيم، وكان التّعبير بالمضارع لتصوير عدولهم عنِ الحقّ إلى الباطل، ومنَ العقل إلى الهوى، ألا ساء ما يقولون، وما يفعلون"[2].

دلالةُ (أَمۡ) المكرَّرةِ في السّياق:

زيادةُ التَّقرير والإنكار بزيادة الأدلَّة والحجج

(أَمۡ) في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾، للإضرابِ الانْتقاليِّ، مِثْل أُخْتِها السّابقة، وهذا انْتقالٌ منَ الاسْتدلالِ المَشوبِ بالامْتنانِ، إلى الاسْتدلالِ المجرَّدِ بدلائلِ قُدرتِه وعلمِه، بأن خلقَ المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتدبيرِه نظامَها حتَّى لا يَطْغَى بعضُها على بعض، فيختلَّ نظامُ الجميع[3].

وبالتّالي فإنَّ (أَمۡ) دالَّةٌ على الاسْتفهامِ المتضمِّنِ معنَى المعادلةِ والموازنةِ، بين اللّهِ تعالى خالقِ الكونِ وما فيه ومَنْ فيه، وأوثانِهم الَّتي يعبدونَها، وإنَّ الإضرابَ الانْتقاليَّ مؤدّاه أنَّه انْتقالٌ من لَوْمٍ وتوبيخٍ إلى لونٍ آخرَ فيه، أشدَّ تأنيبًا، وأبعدَ اسْتنكارًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 471.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12 - 13.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5471 - 5472.

دلالةُ الفعل ﴿جَعَلَ﴾ في الآية:

تمهيدُ الأرضِ لصلاحيَّةِ الإقامةِ عليها، من حِكم الله الجليلة

الجَعْلُ يقتضي التَّهيئةَ والإعداد، ومعناه في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أنَّه ﷻ خلقَ الأرض، ومهَّدَها تمهيدًا، بحيثُ جعلَها ذاتَ قرارٍ وإقامة، واسْتمكانًا للأحياء، يُمكَّنونَ فيها ويتّخذون مساكنَ منَ البناءِ أوِ الأَخْبية، ولذلك قالَ تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾[1].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

الأرضُ المعهودةُ للبشر، مذلَّلةٌ للاستقرار والعَمار

تعريفُ الأرضِ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ بها الأرضُ المعهودةُ الَّتي جعلَها اللّهُ مكانَ إقامةٍ للعباد، يمشون عليها بسهولةٍ ويُسْرٍ دون اضطرابٍ وعُسر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15].

نكتةُ وصف ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بكونها ﴿قَرَارًا﴾:

تخصيصُ الأرضِ بوصفِها مكانَ اسْتقرارٍ للعباد، عطاءٌ ما له من نفاد

لَمّا ذكرَ تعالى أنَّه مُنشِئُ السَّماواتِ والأرض، وذكرَ شيئًا مُشتركًا بين السَّماءِ والأرض، وهو إنزالُ الماءِ منَ السَّماء وإنباتُ الحدائقِ بالأرض، ذكرَ شيئًا مختصًّا بالأرض، وصفَها به وصفًا لازمًا لها للمبالغة، أي: ذاتُ قرار، أي: مستقرًّا لكم، بحيث يمكنُكم الإقامةُ بها والاسْتقرارُ عليها[2]. وهذا يدلُّ على أنَّ اللّهَ ﷻ خلقَ الأرضَ على هذه الحالِ المستقرّةِ تحقيقًا لمصالح العبادِ عليها والقيام بعمارتِها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

دَلالةُ تَكرار فعلِ الجَعْلِ في الآية:

عدمُ اضْطرابِ الأرضِ يجعلُ الأنهارَ تجري فيها بانْتظام

تكرّرَ ذكرُ فعلِ الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، وقد سبق ذكره في قوله ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ لكمال الامْتنانِ على العباد بجعل الأنهار؛ لأنَّه لَمّا ذكرَ قرارَ الأرضِ، وعَدَمَ اضطرابِها

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5372.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.

بأهلِها، أَتْبعهُ بدليلٍ على تحقُّقِ هذا القرار، وهو أن جعلَ خلالَها في الأماكنِ المنفردةِ بين جبالِها أنهارًا جاريةً على حالةٍ واحدة، فلوِ اضْطربتِ الأرضُ أَدْنَى اضْطراب، لتغيَّرتْ مجاري المياهِ بلا ارْتياب[1]، ومن تمام منّته سبحانه كذلك أنّه بعد أن جعل الأرض مستقرّةً سهّل فيها منافع الناس منَ الماء والمرعى وغيرها.

دلالةُ اخْتيارِ لفظِ ﴿خِلَٰلَهَآ﴾:

الأنهارُ تجري وسطَ الأخاديد، في مجارٍ مرسومةٍ بحكمة ودقّة

خلالُ الشَّيء: مُنفَرَجُ ما بين أجزائه، والأنهارُ تشُقُّ الأرضَ في أخاديدَ، فتجري خلالَ الأرض، أي: فيما بين تلك الشُّقوقِ والأخاديد، كقولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33][2]، ويكون ذلك الجريانُ للأنهارِ في وسطِ الأماكنِ المنفرجة[3]، وخلالها بمعنى أنّها قد "تخلّلتها في ترابها، وفي رمالها، وفي جبالها، أنهارٌ عذبة للشّرب، ولمنفعة الإنسان والطّير والحيوان، ولا يستطيع الإنسان أن يحيا بدون ماء، ولا يأتي بالماء إلّا اللّه، ولو أصبح هذا الماء غائرًا في الأرض، فمنِ الّذي سيأتي به غيرُ اللّه تعالى القادر على كلّ شيء؟!"[4].

موقعُ قولِه: ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ من الإعراب:

خلقَ اللهُ الأرضَ وصيَّرَ خلالَها أنهارًا، كمالًا في نعمه

قولُه تعالى: ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ يجوزُ أن يكونَ ظرفًا لـ ﴿وَجَعَلَ﴾، بمعنَى (خلقَ)[5] المتعدّية لواحد، ويجوزُ أن يكونَ في محلِّ المفعولِ الثّاني، على أنَّ ﴿وَجَعَلَ﴾ بمعنَى صيَّر[6].

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾:

كثرةُ الأنهارِ وتنوُّعُ فوائدِها، عطاءٌ منَ الله وغدقٌ مبهجٌ

جاءَ تنكيرُ لفظِ ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾ لتعدُّدِ تلك الأنهارِ، وتنوُّعِ فوائدها،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188 - 189.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.
(4) محمّد المنتصر الكتّانيّ، تفسير القرآن الكريم: 9/ 137.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(6) درويش، إعراب القرآن: 7/ 239.

فمنها أنهارٌ عذبةٌ، تكون ذاتَ مناظرَ بهيجة، يشربُ منها الإنسانُ والحيوان، ومن مياهِها يكونُ إنباتُ الزَّرعِ وفَلْقُ الحَبِّ والنَّوَى، الَّذي يتغذّى به الإنسان، ويكونُ منها إنباتُ الكلَأ الَّذي يأكلُ منه الحيوانُ، حين يُريحونَ، وحين يَسْرَحون(1).

بلاغةُ مجيءِ فعلِ الجعلِ، مع سَبْقِ ذكرِه:

صيَّرَ اللهُ الجبالَ أوتادًا، تثبِّتُ الأرضَ فلا تميدُ بأهلها

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾، يعودُ على الأرض، أي: صيَّرَ اللّهُ ﷻ الجبالَ، وهيَّأها لتكونَ رواسيَ ثابتةً، تثبِّتُ الأرض، وهي لها كالأوتاد، تمنعُها - بقدرةِ اللّهِ ورحمتهِ بعبادِه - منَ الاضْطرابِ والمَيَدان، فاعتدلَتْ جميعُ جوانبِها، وإلّا لاسْتحالَتْ عليها حياةُ الإنسان(2).

وتَكرارُ الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ هنا مع الجبال وقد سبق ذكره يدلُّ على أهمّية الجبال، وعظيمِ خلقها، لذلك استقلّت جملتُها بتَكرار فعل الجعل، ولا يخفى ما للجبال من عظيم الشّأن، إذ هي أوتاد الأرض تحفظُها وتثبّتُها منَ الاضطراب كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ هنا:

الجبالُ لأجلِ فائدةِ الأرض، ولِمَنْ يعيش في الأرض

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ لمزيدِ الاهتمام بالأرض، فاللّامُ في ﴿لَهَا﴾ لامُ العلَّة، أي: الرَّواسي لأَجْلِها، أي: لفائدتِها، فإنَّ في تكوينِ الجبالِ حكمةً، لدفعِ الملاسةِ عنِ الأرض، ليكونَ سَيْرُها في الكُرةِ الهوائيَّة، مُعدَّلًا غيرَ شديدِ السُّرعة، وبذلك دوامُ سَيْرِها(3).

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

الجبالُ ثابتاتٌ في أنفُسِها، مُثبِّتاتٌ للأرض برسوخ

الرَّواسي: الجبال، جمعُ راسٍ، وهو الثّابت، فقولُه تعالى: ﴿رَوَٰسِيَ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.

أي: كمراسي السُّفُن، الَّتي تكونُ أسبابًا في ثباتِها على ميزانٍ دبَّرَه سبحانه، في مواضعَ من أرجائها، بحيث اعْتدلَتْ جميعُ جوانبِها، فامْتنعتْ منَ الاضْطراب(1).

بلاغةُ عطفِ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ على سابقه:

جعلَ اللهُ بين البحرَيْنِ حاجزًا بقدرتِه، كما جعلَ الرَّواسيَ والأنهار

لَمّا أثبتَ النَّظمُ الكريمُ القرارَ وسببَه، وكان قد جعلَ سبحانه للأنهارِ طُرُقًا، تتصرَّف فيها، ولو حبسَها عنِ الجَرْيِ شيءٌ لَأَوْشك أن تسْتبحر، فيصيرُ أكثرُ الأرضِ لا يُنتفَعُ به في سَيْرٍ ولا نبات، وكان ذلك كلُّه بأسلوبِ الاسْتفهامِ التَّقريريِّ، مع التَّعجيبِ من عدمِ إيمانِهم؛ عطفَ عليه ما كان على شاكلتِه، فسألهم عنِ المُمسِكِ لعدوانِ أحدِ البحريْنِ على الآخَرِ، دون أن يختلطا، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾، تنبيهًا على عظيمِ القدرةِ الإلهيَّة، فكما أنَّ قدرتَه تعالى ظاهرةٌ للعَيان فيما سبق، فهي ظاهرةٌ كذلك هنا بكلِّ وضوح(2).

سرُّ ورودِ الكنايةِ في سياقِ الآية:

خلقَ اللهُ البحرَيْن، والملوحةُ والعذوبةُ فيهما، متجاورتان دون طغيان

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ كنايةٌ عن خَلْقِ البحرَيْن أيضًا؛ لأنَّ الحجزَ بينَهما يقتضي خَلْقَهما وخَلْقَ المُلوحةِ والعُذوبةِ فيهما(3)، والإعجازُ الّذي تلفتُ إليه الآيةُ، أنّه جعل بين البحرِ العذب، والبحرِ المالحِ الأجاجِ حاجزًا، بحيث لا يختلط ماؤهما، رغم أنّه يظهر للعيان أنّه يختلط(4)، وهذه حكمة اللّه في جعل الماء يتجاورُ ولا يمتزج، رغم أنّ كليهما ماء، ولكنّ اختلاف الخصائص يمنع غلبةَ أحدهما على الآخر، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠﴾ [الرّحمن: 19 - 20].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 6/ 20.

دلالةُ لفظِ ﴿بَيۡنَ﴾ في السّياق:

لفظُ ﴿بَيۡنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، يدُلُّ على الظَّرفِ المكانيّ، أي: الفاصل بينهما، وإن كان فاصلًا غيرَ حسّيٍّ، لكنَّه قائمٌ على ما بينَهما لئلّا يخرقاه فيتَّصلا[1]، والمعنى أنّه جعل البينيّة حاجِزًا، بين البحرين المذكورين، يمنع من اختلاطهما، فيحصل من ذلك مقاصدُهما ومصالحُهما، منفصلٌ بعضهما عن بعض ولو كان المصبّ واحدًا، فإنّ ما أثبته العلم الحديث، أنّ الجزيئاتِ المكوّنةَ لكلّ منهما، لا يختلط بعضُها ببعض[2].

حقيقةُ وجودِ الفاصلِ بين البحرَيْن، دالٌّ على عظمة الخالق

التّنصيصُ على لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾:

التَّنصيصُ على لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾، لبيانِ وجودِ بحرَيۡنِ مائيَّيۡن: أحدُهما العَذْبُ الفُرات، والآخرُ المِلْحُ الأُجاج[3].

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ للعهد، أي: البحرَيۡن المعروفَيۡن عند النّاس، وهما بحرُ فارس، وبحرُ الرّوم، أو أنَّهما بحرانِ أحدُهما عَذْبٌ والثّاني مالح[4].

البحرانِ المعهودانِ العَذْبُ والمالح، ينبئان على بديع الصّنع

وسمّي بحر فارس بذلك لسيطرة الامبراطوريَّة الفارسيَّة عليه، ويُسمّى بحرَ العراق، وبحرُ الرّوم سمّي بذلك لسيطرة الامبراطوريّة الرّومانيَّة عليه قبل ظهور الإسلام، ويسمَّى بحرَ الشّام[5].

دلالةُ اخْتيارِ لفظِ ﴿حَاجِزًاۗ﴾ دون غيره:

الحَجْزُ: المنعُ، والحاجزُ: المانعُ، وهو حاجزٌ معنويٌّ حاصلٌ من

الحاجزُ غيرُ مرئيٍّ بالعين المجرّدة، وهو قائمٌ بأمر اللهِ وقدرته

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 607.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 127، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(5) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص: 44 - 46، وهو قول الحسن البصري في تفسير ابن أبي حاتم: 9/ 2809، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 189.

دفعِ كلا الماءَيْن أحدِهما الآخَرَ عنِ الاخْتلاطِ به، بسببِ تفاوتِ الثِّقلِ النِّسبيِّ لاخْتلافِ الأجزاءِ المركَّبِ منها، الماء المِلْح والماء العَذْب، فالحاجزُ حاجزٌ من طبعِهما، وليس جسمًا آخَرَ فاصلًا بينهما، وليس عند عاقلٍ شكٌّ أنَّ ذلك لا يكونُ إلّا للّهِ وحده(1).

بلاغةُ الاسْتفهامِ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

تأكيدُ إنكارِ الإشراكِ باللهِ، وتوبيخ المشركين

لَمّا كانَ من المعلوم لكلِّ عاقلٍ أنَّ اللّهَ تعالى وحدَه، هو الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، وأنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فأنبتَ به حدائقَ ذاتَ بهجة، وجعلَ الأرضَ قرارًا فثبَّتَها بالجبال، وجعلَ خلالَها أنهارًا، وجعلَ بين البحرَيْن العذبِ والمالحِ حاجزًا، لا يبغي أحدُهما على الآخَر؛ ذُيِّلَ ذلك كلُّه بالاسْتفهام الإنكاريِّ مكرَّرًا، تأكيدًا بأنَّه لا يمكنُ لأيِّ إلهٍ أن يشاركَ في كلِّ ما سبقَ أو في شيءٍ منه، فلا إلَهَ أصلًا غيرُ اللّهِ يملكُ القدرةَ على خلْقِ ذلك كلِّه، فيُقرَنُ به ويُجعلُ شريكًا له ﷻ(2). وفي ذلك توبيخٌ شديدٌ لأولئك الَّذين عبدوا مع اللّهِ غيرَه منَ المخلوقات(3).

ورودُ لفظِ المعيَّة في قوله ﴿مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

الإشراكُ مع اللهِ غيرَه في العبادةِ، إهدارٌ لكرامةِ العقل

جاءَ لفظُ المعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، دليلًا على وجودِ من يُشرِكُ مع اللّهِ غيرَه، وأنَّ هؤلاء المشركينَ لا يملكون مِسكةَ عَقْلٍ، في مقابلِ كلِّ الأدلَّةِ والبراهينِ المشاهَدةِ الَّتي تؤكِّدُ وحدانيَّةَ اللّه، وأنَّه لا يُشرَكُ معه غيرُهُ في ألوهيَّتِه وربوبيَّتِه وأسمائه وصفاتِه(4).

اختيارُ لفظِ الألوهيَّة دون غيره:

قريشٌ أشركتْ مع اللهِ غيرَه في العبادة، فضلّت عن سواء السّبيل

أَلَهَ فلانٌ يأْلُهُ: عَبَدَ، فالإلهُ على هذا هو المعبود(5)، فعِلَّةُ اخْتيارِ النَّظمِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 14.
(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(5) الرّاغب، المفردات: (أله).

الكريمِ لفظَ الأُلوهيَّة في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أنَّ مشركي مكَّةَ والعربَ كانوا يُشركونَ مع اللهِ غيرَه في العبادة، بينما يُقرّون له بالخلق والملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمر: 38]. فهذا الاخْتيارُ تصويرٌ لواقعِ ما عليه المشركون، أي: يشركونَ مع اللهِ غيرَه في العبادة، مع اعترافهم بأنّه وحده الخالقُ المالك، قال تعالى عنِ المشركين في حُجَّتِهم المتهافتة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3].

دلالةُ الإضرابِ بالأداة ﴿بَلۡ﴾:

الاسْتـدراكُ في بيانِ مكابرتِهم مع توبيخِهم لعدمِ علمِهم

الإضرابُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، يفيد معنَى (لكنَّ) باعْتبارِ ما تضمَّنَه الإنكارُ مِن انْتفاءِ أن يكون مع اللهِ إلَهٌ، فكان حقُّ اللّه على النّاس أن لا يُشركوا معه في الإلهيَّة غيره، فجيءَ بالاسْتدراك؛ لأنَّ المخاطَبين بقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾، لم ينتفعوا بالدَّليلِ مع أنّه دليلٌ ظاهرٌ جليٌّ، فهم مُكابرونَ في إعراضِهم عنِ الاهْتداءِ بهذا الدَّليل، فكان هذا الإنكارُ المكرَّرُ تأكيدًا لقُبحِ ما هم عليه منَ الإشراك، وتمهيدًا للتَّوبيخِ الشَّديدِ، بقوله تعالى في ذَيْلِ الآية: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾:

أكثرُ المشركين لا يتفكَّرونَ في بدائعِ خَلْقِ الله، فلا يهتدون سبيلا

أوثِرَ هنا نفيُ صفةِ العلم عن أكثرِ المشركين، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، لقلَّةِ مَنْ ينظرُ في دقائقِ هذه المصنوعاتِ وخصائصِها منهم، فإنَّ اعْتيادَ مشاهدتِها من أوَّلِ نشأةِ النّاظرِ يُذهِلُه عمّا فيها من دلائلِ بديعِ الصُّنع، فأكثرُ المشركين يجهلُ ذلك، ولا يهتدي بما فيه[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12، 13 - 14.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 14.

أكثرُ المشركين جاهلون بالله تعالى وحقِّه

عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

يعودُ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على المشركين الَّذين وردَ ذكرُهم في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾.

والنَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم نوعٌ منَ العلم؛ بل هم كالبهائمِ لإعراضِهم عن هذه الأدلَّةِ الواضحة[1].

بيانُ اسْتمراريَّة جهلِهم، وتجدُّدِ أفعالِهمُ القبيحة

دلالةُ مجيءِ فعلِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا:

جيءَ بالفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ جهلِهم بتجدُّدِ أفعالِهم، ولذلك كان التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعة دقيقًا في تصويرِ ما هم عليه من اسْتمراريَّةِ إنكارِهم مع استمراريَّة جهلِهم[2].

كيف يجهلُ المشركونَ توحيدَ ربِّهم، مع ظهورِه بالأدلَّةِ المشاهَدةِ لهم

حذفُ متعلّق فعلِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمونَ توحيدَ ربِّهم، وسُلطانَه وقدرتَه العظيمة[3]، أو أنَّهم لا يعلمون شيئًا منَ الأشياء، ولذلك لا يفهمون ما هم عليه منَ الشِّركِ مع كمالِ ظهورِه في تلك الأدلَّةِ الَّتي ساقَها النَّظمُ الكريم، وغيرها كثير[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّلامُ والأمانُ كلاهما يشتركانِ في الطُّمأنينةِ والسَّلامةِ منَ الآفاتِ والبلاءات

السلام والأمان:

السَّلْمُ والسَّلامةُ: التَّعرّي منَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنة، قال تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشُّعراء: 89]. وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سلامةً وسلامًا، وسلَّمَهُ الله، قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274.

سلامة. والسَّلامةُ الحقيقيَّةُ ليست إلّا في الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127]. والسَّلامُ اسْمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: 23][1]. والأمانُ والأَمْنُ والأمانةُ مصادرٌ للفعل (أَمِنَ). وأصلُ معناها: طُمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخَوْف، ويُجعَلُ الأمانُ تارةً اسْمًا لما يُؤَمَّنُ عليه الإنسانُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 97][2].

الاصطفاء والاجتباء:

يشتركانِ بتخصيصِ اللهِ بعضَ عبادِه بما يريد، والأوَّلُ قد يكونُ بسَعْي العبد، والثّاني دون سَعْيه

الاصْطفاءُ: أَخْذُ ما يصفو منَ الشَّيء، واصْطفاءُ اللّهِ بعضَ عبادِه قد يكونُ بإيجادِه تعالى إيّاهُ صافيًا عنِ الشَّوْبِ الموجودِ في غيرِه، وقد يكونُ باخْتيارِه وبحُكمِه وإن لم يتعرَّ ذلك منَ الأوَّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75][3]. وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْض، جمعتُه، قال تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: 57] منَ الجِباية، أي: يُجبَى ويُجمَع. والاجْتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصْطفاء، قال ﷻ: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]. واجْتباءُ اللّهِ العَبْدَ: تخصيصُه إيّاه بِفَيْضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعَم بلا سَعْيٍ منَ العبد، وذلكَ للأنبياءِ وبعضِ مَنْ يُقاربُهم منَ الصِّدّيقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: 50]، وقال سبحانه: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [الأنعام: 87][4].

الحدائقُ والجنّات:

الحديقةُ: أرضٌ ذاتُ شَجَرٍ مُثْمِر، والحديقةُ منَ الرّياض: كلُّ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 119، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 29، والرّاغب، المفردات: (صفو).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جبى).

اشْتراكُهما في وجودِ الشَّجَرِ فيهما، واخْتلافُهما بوجودِ حائطٍ في الأولى، وشجرٍ فقط في الثّانية

رَوْضةٍ قد أَحْدَقَ بها حاجز، أو أرضٌ مرتفعة، وكلُّ شيءٍ اسْتدارَ بشيءٍ فقد أَحْدَقَ به[1]. والحدائقُ: جِنانٌ من جنانِ الدُّنيا، واحدتُها: حديقة[2]. وإنَّما يقالُ حديقةٌ لكلِّ بستانٍ عليه حائطٌ، وما لم يكن عليه حائطٌ لا يقالُ له: حديقة[3]. والجنَّةُ: كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يسترُ بأشجارِه الأرضَ، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: 39]، وقد تُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ جَنَّةً. وسُمّيت الجنَّةُ إمّا تشبيهًا بالجنَّةِ في الأرض - وإنْ كان بينَهما بَوْنٌ - وإمّا لسترِه نعمَها عنّا المشارِ إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة: 17].

الحاجز والمانع:

يشتركان في المنع عنِ الشَّيء، والثّاني أَعَمُّ، فهو يُستعمَلُ في الأشياءِ المادّيّة والمعنويّة

الحاجزُ: الحائلُ بين الشَّيئين، يقال: حَجَزْتُ بين الرَّجُلَيْن، وذلك أن يُمنَعَ كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه، قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقّة: 47][4]. والمَنْعُ يقال في ضدِّ العَطيَّة، يقال: رجلٌ مانعٌ ومَنّاعٌ ومَنوعٌ، أي: بخيل، قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: 25]، ويُقالُ في الحماية، ومنه: مكانٌ منيعٌ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 114]، ومانعٌ ومنيعٌ ومَنّاعٌ: أسماء، والامْتناعُ: الكفُّ عنِ الشَّيء، ومانَعهُ الشيءَ وتمنَّعَ عنه[5].

---

(1) الخليل، العين: (حدق)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/ 34.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 297، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات: (حجز).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (منع).

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النّمل: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبطُ بين معرفة الله في السّرّاء بالاختيار؛ وفي البلاء والكرب بالاضطرار

لَمّا ذكّر ﷻ عبادَه بآياتِ الآفاقِ في السَّرّاء؛ نبّههم لِما يقع لهم في حالة الاضطرار، وأنّه تعالى يُجيبُ المضطَّرَ عند الجأر إليه بالدّعاء، ويكشفُ السّوء عمّن أحاط به البلاء، ويجعلُ عباده المؤمنين خُلفاءَ الأرضِ؛ لأنّه المُنجي عند اشْتدادِ الكروب، والمسارعُ لإجابة الدّاعين بالمطلوب.

مبيّنًا كيف أنّه يهدي المستجيرَ به في ظلماتِ البحر، وعواصف البرّ، ويرسل الرّياح لتسوق السّحابَ بالمطر، علاماتٍ قبل تفضّله بمنّته، وبشائرَ بين يدي عطائه ورحمته، وعند انكشاف الآياتِ، وانقشاع الظّلمات، يكرِّرُ سبحانه سؤالَ الإنكار لتحصيل الإقرار بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾، مذكّرًا بكمال قدرته وسعةِ رحمته، وأنّه تعالى عمّا يُشرِكون، وكلُّ من سواه عاجزٌ إزاءَ عظمته وهيمنته، وشتّانَ بين رُتبة العَجْزِ والقصور، ورُتبةِ القدرة والإحاطة بكلّ شيء(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾: اضْطُرَّ إلى الشَّيءِ يَضْطرُّ اضطرارًا، أي: أُلْجِئَ إليه، والاضْطرارُ: حمْلُ الإنسانِ على ما يضرُّه، وهو في التَّعاريف: حَمْلُه على أمرٍ يكرهُه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 190 - 193، 198 - 199.

﴿٢٤﴾ [لقمان: 24]، وقال سبحانَه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: 173][1]، والاضطِرارُ: الاحْتياجُ إلى الشَّيْءِ، وقد اضطَرَّهُ إليه أَمْرٌ: أَحْوَجه وأَلْجَأَه، فاضطُرَّ، بضَمّ الطّاءِ، بناؤُه افتعلَ، جُعِلَتِ التّاء طاءً؛ لأَنّ التّاءَ لم يَحْسُن لَفْظُه مَعَ الضّاد[2]، والمُضطرُّ: المحوَجُ الملجَأ إلى الشَّيءِ[3]. وقولُه تعالى: ﴿يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ أي: المكروبُ المجهودُ[4] الَّذي لا حولَ له ولا قوَّة[5]، فالمضطرُّ: اسْمُ مفعولٍ منَ الاضْطرار، الَّذي هو افْتعالٌ منَ الضّرورة[6].

2) ﴿خُلَفَآءَ﴾: (خلف) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها أَنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثّاني خِلافُ قُدّام، والثّالِثُ التَّغَيُّرُ[7]، والأوّل هو المراد هنا، يقال: خَلَفَ يخلُفُ خَلَفًا وخِلافةً، والاسْمُ خُلَفاء. وخَلَفَ ضدُّ تقدَّمَ وسَلَفَ[8]، والخلفاءُ: جمع خليفة، وهو مَنْ يُستخلف بعدَ مَنْ كان قبلَه. قال بعضُ العلماءِ: إنّما قيل لهم (خلفاءَ)، لأنّهم صاروا خَلَفًا من قومِ نوحٍ، حيث أَهْلَكَ اللّهُ أولئك وأسكن هؤلاء في الأرض بعدَهم، فكانوا خَلَفًا من بعدهم، وخلفاءَ مِنْ بعدِهم[9]، وقولُه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ أي: خُلَفاءَ مَنْ قبلَكم من الأُمم، ويخلُفُ كلُّ قَرْنٍ منكمُ القَرْنَ الَّذي قبلَه، أي: يُهلِكُ قَرْنًا ويُنشِئُ آخَرين، فأولادُكم خلفاءُ منكم[10].

3) ﴿يَهۡدِيكُمۡ﴾: هَداهُ يَهْديه هُدًى، والهِدايةُ: دَلالةٌ بلُطف، ومنه الهديَّةُ، وهَوادي الوَحْش، أي: مُتقدّماتُها الهاديةُ لغيرِها، وخُصَّ ما كانَ دَلالةً بهدَيْت، وما كانَ إعطاءً بأَهْديت، نحو أَهْديتُ هديَّةً، وهَدَيْتُ إلى البَيْت. والهُدَى: الرَّشادُ والدَّلالة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: 52]، وهدَيْتُه الطَّريقَ والبيتَ هدايةً: عرَّفْتُه، وهذه لغةُ أهلِ الحجاز، وغيرُهم يقول: هديتُه إلى الطَّريق وإلى الدّار. وهدَى واهْتدَى

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (ضرر).
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (ضرر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرر).
(4) البغويّ، معالم التَّنزيل: 6/ 173.
(5) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 85.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(8) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (خلف).
(9) الشّنقيطيّ، العذب النّمير من مجالس الشّنقيطيّ في التّفسير: 3/ 485.
(10) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 9/ 2810، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 194.

بمعنًى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمّد: 17][1]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ﴾ أي: يُرشِدُكم[2].

4) ﴿بُشۡرَۢا﴾: (بشر) أَصلٌ واحِدٌ: ظُهورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ[3]، وأَبْشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرْتُهُ: أَخْبرته بسارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وجْهه، وذلك أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّتْ انْتشَرَ الدَّمُ فيها انْتشارَ الماءِ في الشَّجَر، وبين هذه الألفاظِ فروقٌ، فإنَّ بَشَّرته عامٌّ، وأَبْشرته نحو: أَحْمدتُه، وبشَّرتُه على التَّكثير، وأَبْشرَ يكون لازمًا ومتعدّيًا، يقالُ: بَشَرْتُهُ فأَبْشَرَ، أي: اسْتبشَرَ، وأَبْشَرْتُهُ، قال اللّهُ ﷻ: ﴿لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣﴾ [الحِجْر: 53]. واستبْشَرَ: إذا وجدَ ما يُبشِّرُه منَ الفرَح، قال تعالى: ﴿۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران: 171]. ويُقال للخَبَرِ السّارّ: البِشارة والبُشْرَى، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [العنكبوت: 31]، والبشيرُ: المبَشِّر: قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الرّوم: 46]، ومنه قولُه تعالى: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾، أي: تُبشِّرُ بالمطر[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ يجيب المضطرّين الحائرين، ويُغيثُ السّائلين، مستحقٌّ للعبادة دون المعبودين

اللّه ﷻ هو المدعوّ وحده عند الشَّدائد، المَرْجوُّ عند النَّوازل، الَّذي لا يلجأ المضطرُّ إلّا إليه، ولا يكشفُ الضُّرَّ سواه، وقدِ اقْتضتْ حكمتُه أن يخلق البشرَ من نَفْسٍ واحدة، ويجعلَهم خلفاءَ في الأرض، ويهديهم في ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ، بما خلقَ من علاماتٍ ونجوم، بها يهتدون، ويُرسِلُ الرّياحَ بُشْرا، بين يديْ رحمته، فيُغيثُ المُجدبينَ، ويسقي القانِطين، فهو المتفرِّدُ بفعلِ ذلك بحكمته، وهو المُعطي من كرمه برحمته، فلا إله معه يكون، تعالى عمّا يشركون.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هدى).
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 194.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بشر).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الفصلِ في قولِه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ﴾:

اللهُ تعالى ذو الآياتِ الباهرة، يُجيبُ المضطرَّ مع مخالفاته الظّاهرة

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾، اسْتئنافٌ منَ النَّظم الكريم بطريقِ الاسْتفهامِ التَّقريريّ في معرض الاسترسال في تعداد الأدلّة على توحيده سبحانه، فبعد بيانِ عظيمِ خَلْقِ اللّهِ وقدرته، وآياته الدّالَّةِ على توحيدِه، فيما هو منظورٌ محسوس، مع ذلك يُشرِكُ بعضُ عبادِه به غيرَه، ومع ذلك يجيبُ المضطرَّ منهم، في حالِ الضّرورةِ والشِّدّةِ الَّتي تُلجئهم إلى مَنْ خَلَقَهم، فيتجرَّدون فيها من علائق أنفُسِهم وضَعفِهم، ويُخلِصونَ الاسْتغاثةَ بمن لا يُنجيهم إلّا هو ﷻ.

بلاغةُ الاسْتفهامِ في الآية:

لا يُجيبُ المضطرّين إلّا ربُّ العالمين

الاسْتفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ تقريريٌّ؛ أي: لا أحدَ يجيبُ دعاءَ المضطرِّ إذا دعاه إلّا اللّهُ ﷻ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ المشركين به ﷻ، لا يَلتجئونَ إلّا إليه عند الشَّدائدِ والبلاءِ الواقعِ بهم، ولذلك جاء هذا الاسْتفهامُ مصحوبًا بـ (أَمْ) الَّتي تفيدُ الإضرابَ الانتقاليّ[1].

دلالةُ مجيءِ فعلِ ﴿يُجِيبُ﴾ مضارعًا:

تجدُّدُ التجاءِ المشركينَ إلى اللهِ حالَ الاضْطرار

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ المضارع، في قولِه تعالى: ﴿يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾؛ لأنَّه ممّا يتجدَّدُ منَ اللّه تعالى؛ إذ يجيبُهم كلّما دَعَوه في اضطرارهم، وهم في حالِ اسْتمرارٍ وتجدُّدٍ في إقبالِهم على اللّهِ كلَّما اشْتدَّ بهم الضّيقُ وادْلهمَّت بهم الخُطوب؛ داعينَ اللّهَ مُنيبينَ إليه، راجينَ عفوَه عنهم، وكشفَ الضُّرِّ الواقع بهم[2].

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ وأهمّيَّتُه في السّياق:

آثرَ السّياقُ القرآنيُّ اسْتعمالَ لفظِ ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾؛ لأنَّه افْتعالٌ منَ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5473.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.

الضَّرورة، وتعبيرٌ عنِ الشّدَّةِ الملجئة، والحاجة المُلِحَّة، لِما يقعُ فيه العبدُ من ضيقٍ لا يُحتَمل، وكَرْبٍ لا مناصَ منَ الوقوعِ في حبائلِه المُهلكة، ولا أحدَ قادرٌ على إزالةِ الضُّرِّ وتفريجِ الهُمومِ إلّا اللّهُ المعبودُ بحقّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه[1].

الاضْطرارُ أعلى حالاتِ الضَّرورة المُلْجئة للضّراعة

مجيءُ لفظِ ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ معرَّفًا:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ليتناولَ الجنسَ مُطلقًا، أي: لتعريفِ الجِنْس المسمَّى بلامِ العَهْدِ الذِّهني، أي: يجيبُ فردًا معهودًا في الذِّهنِ بحالةِ الاضْطرار[2]، فالألف واللّام في ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ للجنس لا للاستغراق، فقد لا يُجابُ دعاءُ بعض المضطرّين، لمانعٍ يحول بين العبد وبين إجابة دعائه، وإلّا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابةَ دعاء المضطرّ إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، شريطةَ أن يُناطَ الاضطرار بالإخلاص، وقطْعِ النّظر عمّا سوى اللّه، تطلّبًا للخلاص[3].

إجابةُ المضطرِّ المعهودِ في الذِّهنِ، بحالةِ الاضْطرار

دلالةُ ﴿إِذَا﴾ في السّياق:

﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، ظرفٌ تقيَّد به الفعلُ ﴿يُجِيبُ﴾، وهو يقتضي إجابةَ اللّه عبدَه في حال الاضطرار خاصّةً حيث لا يقدرُ أحدٌ على نفعه وإجابته، والواقعُ أنَّ الإجابةَ منوطةٌ بإرادةِ اللّهِ تعالى، بحَسْبِ ما يقتضيه حالُ الدّاعي، وما يقتضيه مُعارِضُه من أصولٍ أُخْرَى[4].

بيانُ أنّ إجابةَ المضطرّ، وعدٌ منَ الله لمن لجأ إليه في الخطر

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دَعَاهُ﴾ في الآية:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ الدَّعاء باسْتعمالِ الفعل ﴿دَعَاهُ﴾؛ لأنَّ الدُّعاءَ فيه معنى السُّؤالِ مع الاسْتغاثة[5]، واللَّجَأ والضَّراعةِ من

الاضْطرارُ يُلجِئُ إلى الدّعاءِ، مع الاسْتغاثةِ والضَّراعة والرّجاء

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 14.
(3) صديق حسن خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 61.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15.
(5) الرّاغب، المفردات: (دعا).

العبدِ المخلوقِ الضَّعيفِ إلى اللّهِ الخالقِ القويِّ ﷻ، وخاصَّةً إذا كان المقامُ مقامَ مَن أَحْوَجَتْه شدَّةٌ منَ الشَّدائد، وأَلْجَأَتْه مِحْنَةٌ منَ المِحَن[1].

مجيءُ الفعلِ ﴿دَعَاهُ﴾ ماضيًا:

تحقُّق وقوع الدُّعاءِ للجبّار، ممّن أَلْجأهُ إليه الاضْطرار

جيءَ بفعلِ الدُّعاء ماضيًا، في قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، لتحقُّقِ وقوعِ الدُّعاءِ منَ المضطرّ، الَّذي أنساهُ الضُّرُّ شركاءه، وأَلْجأه إلى مَنْ خَلَقه، وأَذْهلَه عن مذهبِه الباطل، وأَغْفلَه عمّا مضى من سوءِ أدبِه، فأقْبَلَ على قضاءِ أَرَبه، ونجاتِه ممّا حلَّ به، من بالغِ الشّدَّةِ وهَوْلِ المصيبة[2].

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾:

السّوءُ غشاءٌ يصيبُ المضرورَ، لا يرفعُه عنه إلّا الله الغفور

جاء عَطْفُ ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ على قوله تعالى: ﴿يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، لبيانِ أنَّ المضطرَّ يلجأ إلى إلهِه بالدُّعاءِ، عندما يصيبُه السّوء؛ ليكشفَه عنه، والكشفُ أصلُه رفعُ الغشاء، فشُبِّه السّوءُ الَّذي يعتري الإنسانَ المضرورَ بغشاءٍ يحولُ دون المرءِ ودونَ الاهْتداء إلى الخلاصِ، تشبيه معقولٍ بمحسوس، ورُمِزَ إلى المشَبَّهِ به بالكشفِ الَّذي هو من روادفِ الغشاء، وهو أيضًا مستعارٌ للإزالةِ بقرينةِ تعْديتِه إلى السّوء، والمعنَى: أَمَّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، ومَنْ يزيلُ السّوء؟[3].

ورودُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ دون سواه:

السّوءُ كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ ويحزنُه، من أمورِ دينِه ودنياه

وردَ التَّعبيرُ بلفظِ السّوءِ، في قوله تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ دون غيره منَ الكلماتِ المقاربة؛ لأنَّ لفظَ السّوءِ عامٌّ شاملٌ لكلِّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمور الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، ومنَ الأحوالِ النَّفسيَّة، والبدنيَّة، ومن كلِّ الآفاتِ الَّتي تسبِّبُ الأمراضَ والآلامَ في ذاتِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 191.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15.

الإنسانِ، وفي غيرِه منَ الأهلِ والأرحامِ والأصحاب[1]، سواءٌ أكان ذلك في الضَّروريّات - كالدّين، والنَّفْس، والعقل، والمال، والعِرْض - أم في الحاجيّاتِ الَّتي هي دون ذلك في الأهميَّة، المتعلِّقةِ خاصَّةً بالأمور المعيشيَّة الَّتي يحتاجُها الإنسانُ في حياتِه، كالطَّعامِ والشَّرابِ وما بها قِوام دُنياه[2].

دلالةُ التعريف في ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ للجِنْس، وهو كلُّ ما يعتري الإنسانَ ممّا يسوؤه من غيرِ تعيين[3]، وذلك مثلُ المرض والفقر والقحط أوِ العذاب، والسّوء ما يسوء إلى النّفس[4]، فكلُّ ذلك ممّا لا يقدر على كشفه ودفعه إلّا اللّه تعالى.

السّوءُ الَّذي يسوءُ العبدَ من غيرِ تعيين، هو المقصودُ في السّياق

بلاغةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، على ما تقدَّمَه من قولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، لبيانِ إنعامِ اللّهِ عليكم بنعمتَيْن: أولاهما كشفُ الضُّرِّ، والثّانيةُ بجعْلِكم الورثةَ لهذه الأرض، ترثونَ سكّانَها، وزرعَها وثمارَها، وسُلطانَها، فتكونون المحكَّمين المسَلَّطينَ فيها، تعمرونَ الأرضَ وتَجْنونَ منافعَها[5]، وفي هذا العطفِ انتقالٌ من حالِ المضطرِّ إلى رتْبةٍ مُغايرةٍ لحالةِ الاضْطرار، وهي الخلافةُ، فهما ظرفان، وكم حدَثٍ في الدُّنيا، ممَّن بلغَ حالَ الاضْطرار، ثمَّ صارَ مَلِكًا متسلِّطًا[6].

نعمتا كشفِ الضُّرِّ، ووراثةِ الأرضِ، تقتضيان عبادةَ المُنعِم

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجَعْلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ

الخلافةُ في الأرض تمرُّ بمراحلَ تهيئةٍ وإعداد

(1) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 194.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 7/ 20.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5473.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 259.

﴿خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، لِما تقتضيه الخلافةُ من تجدُّدِ الأبناءِ عَقِبَ الآباء، والأجيالِ بعدَ الأجيال، وما اقْتضتهُ الاسْتجابةُ وكشفُ السّوء، من كثرةِ الدّاعينَ والمُستائين، وهذا كلّهُ يمرُّ بمراحلَ تهيئةٍ وإعدادٍ يقتضيه فعلُ الجَعْل[1].

يجعلُ اللهُ عبادَه مُستخلَفين في الأرضِ؛ لإعمارِها دينيًّا ودُنيويًّا

مرجعُ ضميرِ ودلالة المضارعِ في ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾:

مرجعُ ضميرِ الفعلِ ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾ لجميعِ العبادِ الَّذين يخلُفُ بعضُهم بعضًا، أُمَّةً بعدَ أُمَّة، وجيلًا بعد جيل، وهذا كقوله تعالى حكايةً لقولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]، ويدخلُ في الضَّميرِ مَنْ ألجأهم الاضْطرارُ والسّوءُ إلى اللّهِ، داعينَ إيّاه أن يكشفَ عنهم ما أصابَهم من شدَّةٍ ولَأْواء، واسْتعمالُ الفعلِ المضارعِ ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾، دالٌّ على التَّجدُّدِ والاسْتمرارِ لهذا الجَعْل[2].

اخْتيارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿خُلَفَآءَ﴾ في الآية:

الخلافةُ تَستلزِمُ الوِراثةَ، وهي ذاتُ بُعدٍ معنويّ سامٍ

لفظُ الخلافةِ يقتضي بطريقِ الالتزام معنَى الوراثةِ لِما سبق، فكلُّ حيٍّ هو خَلَفٌ عن سَلَفِه، والأُمَّةُ خَلَفٌ عن أمَّةٍ كانت قبلَها جيلًا بعدَ جيل[3]، والمعنى "يجعلكم يخلفُ بعضُكم بعضًا، قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل"[4]، حيث يجعلُكم الورثةَ لهذه الأرض المبسوطة، الملأى بالخيرات والأنعُم، ترثون سكّانها وزرعها وثمارها، وسلطانَها، فتكونون منَ المُحكَّمين فيها، وهذه نعمة عليكم إن شكرتموها، وهي نقمةُ اللّه تعالى إن ظلمتم، وأفسدتم وأقمتم الباطل بدلَ الحقّ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15 - 16.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15.
(4) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 10/ 347.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 473.

سرُّ إضافةِ لفظِ ﴿خُلَفَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

اللّه تعالى أنشأ خلقه من الأرض ثمَّ استعمرهم فيها

إضافةُ لفظِ ﴿خُلَفَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الخلافةَ المقصودُ منها إعمارُ الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: يجعلُكم تعمُرونَ الأرضَ وتَجْتَنون منافعَها، فضمَّنَ الخلفاءَ معنَى المالكين، فأُضيفَ إلى الأرضِ على تقدير: (مالكينَ لها)، والمِلْكُ يستلزمُ الانْتفاعَ بما يُنتفَعُ به منها[1].

بلاغةُ الاسْتفهامِ في السّياقِ المُحكَم:

إنكارُ إشراكِهم باللّهِ مع كثرةِ الأدلَّةِ ووضوحِها على وحدانيَّةِ اللّه

قولُه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ استئنافٌ باسْتفهامٍ إنكاريٍّ عقِبَ الأدلَّةِ من أنَّه لا أحدَ قادرٌ على إجابةِ المضطرِّ، وكشفِ السّوءِ وإقامةِ الخلافةِ في الأرضِ إلّا اللّه، زيادةً في تعدادِ خَطَئِهمُ الفادحِ في إشراكِهم إلهًا آخَرَ مع اللّه[2]؛ إذ كيف يُقرّون بأنّه لا يقدرُ على كلِّ ذلك إلّا اللّه سبحانه ثمّ يُشركون معه غيرَه!

مفهومُ المعيَّة في قوله: ﴿مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

مشاركةُ اللّهِ غيرَه في الوجودِ والإبداع، زعمٌ باطلٌ مُستنكَرٌ

المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ تعني إشْراكَهم في اتّخاذِ أندادٍ للّهِ زعموا مشارَكتَهم إيّاه في الوجود، أو في إبداعِ هذه البدائع، وتَوليتِهم هذه النِّعمَ الجِسام[3]، والمعنى أنّه بعد ذكر قدرة اللّه على الخلق والإنبات وإنجاء المكروبين، وتمكين المؤمنين، و"أنّه لا يقدر على ذلك إلّا اللّه، فهل إلهٌ في الوجود يصنع صُنعَه، ويخلق خلْقَه؟ فكيف يشركون به، ما لا يضرّ ولا ينفع؟"[4].

دلالة مجيءِ لفظِ القِلَّة في: ﴿قَلِيلٗا﴾:

التَّعجُّبُ من قلَّةِ تذكُّرِهم وإشراكِهم، مع جلاء الحقِّ وظهور الأدلّة

لفظُ ﴿قَلِيلٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، انْتصبَ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 295، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 194.
(4) صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 60.

على الحالِ من ضميرِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: فعلَ ذلكَ لكم وأنتُم في حالِ قلَّةِ تذكُّرِكم، فتفيدُ الحالُ في ﴿قَلِيلٗا﴾ معنَى التَّعجّبِ من حالِهم[1]، وتفيدُ كذلك معنَى العدَم، يعني: أنَّ القليلَ مُكنًّى به عنِ المعدوم؛ لأنَّ التَّذكُّرَ المقصودَ معدومٌ منهم، أو ما يجري مجراه في الحقارةِ وعَدَمِ الجَدْوى[2]. والكنايةُ بالقليل عنِ المعدوم مُستعمَلَةٌ في كلامهم، وهذه الكنايةُ تلميحٌ وتعريضٌ، أي: إنْ كنتُم تذكرون، فإنَّ تذكُّرَكم قليل[3].

معنَى ﴿مَّا﴾ في جملة ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

تأكيدُ القِلَّةِ بعدَمِها، أو عدمِ فائدتِها مفيدٌ في البيان

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مزيدةٌ، لتأكيدِ معنَى القِلَّةِ الَّتي أُريدَ بها العدَمُ، أو ما يجري مجراهُ في الحقارةِ وعدم الجَدْوى[4]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً، والمصدرُ هو فاعلُ ﴿قَلِيلٗا﴾[5]، وعلى كلِّ الاحتمالات فالمشركون مذمومون بقلّة تدبّرِهم وانتفاعِهم بآيات اللّه الكونيّة منها والشّرعيّةِ، على كثرتها وتنوُّعِها وظهورِ الحقِّ فيها.

إيثارُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دون غيره:

استحضارُ المعلومِ المفيدِ استدلالًا، معدومٌ عند المشركين

التَّذكُّرُ منَ الذُّكر، بضمِّ الذّال، وهو ضدُّ النِّسيان، فهو استحضارُ المعلوم، وأوثرَ التَّعبيرُ بفعلِ التَّذكُّر؛ لأنَّ المقصودَ منه هنا التَّذكُّرُ المفيدُ اسْتدلالًا، وهو الَّذي يجبُ أن يكونَ، ولكنَّه غيرُ كائن[6]. وفي إيرادِ فعلِ التَّذكُّرِ إيذانٌ بأنَّ المتذكَّرَ في غاية الوضوح، بحيث لا يُتوقَّفُ إلّا على التَّوجُّهِ إليه[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 218، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 218.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 218.

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

اتّخاذ شريك لله دليلُ قلّة العقل والتّدبُّر

في قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ متواترة:

الأولى: قراءةُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخطاب، وفيها نكتةُ توجيهِ الخطابِ إلى المشركينَ مكافحَةً لهم. والثّانية: قراءةُ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيْبة، وفيها نكتةُ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم اسْتأْهلوا الإعراضَ بعد تذكُّرِهم. والثّالثةُ: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخطابِ مع الذّالِ المشدَّدة، وفيها خطابٌ - أيضًا - إلى المشركينَ مع الزّيادةِ في المبالغة، وزيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، وأصلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، و﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: تَتذكَّرونَ في الأوليَيْن، ويَتذكَّرونَ في الثّالثة[1].

والقراءة الأولى: هي قراءةُ حفص، وحمزةَ، والكسائيّ، وخلف، **والثّانية**: قراءةُ أبي عمرو وهشام ورَوْحٍ، **والثّالثة**: قراءةُ الباقين منَ العشرة[2].

سرُّ فصْلِ جملة ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ﴾ عما قبلها:

الانْتقالُ من رعايةِ النّاسِ في أحوالِهمُ العامَّةِ، إلى أحوالِهم الخاصّة

فُصل قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ﴾ عمّا قبْله؛ لأنّ السّياق ما زال في معرض تعداد الأدلّة على وحدانيّة اللّه تعالى، حيث انتقل من نوعِ دلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ عامَّةِ النّاسِ إلى دلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ المسافرين منهم في البَرِّ والبحرِ، فإنَّهم أَدْرَى بهذه الأحوال، وأَقْدَرُ لِما في خلالِه منَ النِّعمةِ والامْتنان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَهۡدِيكُمۡ﴾:

خلقَ اللهُ لعبادِه أسبابًا، تهديهم في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر

وردَ لفظُ الهدايةِ في قوله ﴿يَهۡدِيكُمۡ﴾ بمعنى الرِّعاية الرَّبّانيَّة في تلك الظّروفِ القاسيةِ في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر، وذلك بتيسيرِ الأسبابِ الَّتي تهدي أولئكم في تلكمُ الظُّلُمات، كما في سَيْرِ النُّجوم،

(1) مكّي، الكشف: 2/ 164، وابن زنجلة، الحُجّة، ص: 534، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 16.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 339.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 17.

نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: 97]، فاللّهُ الهادي للسَّيرِ في تلك الظُّلمات؛ بأن خلقَ النّجومَ على نظامٍ صالحٍ للهدايةِ في ذلك، وبأن ركَّبَ في النّاسِ مداركَ للمعرفةِ بإرصادِ سَيْرِها وصُعودِها وهُبوطِها، وهداهم أيضًا بمهابِّ الرّياح، وخوَّلهم معرفةَ اخْتلافِها بإحساسِ جفافِها ورُطوبتِها، وحرارتِها وبَرْدِها، وبهذه المناسبةِ أُدمِجَ الامْتنانُ بفوائدِ الرّياحِ في إثارةِ السَّحابِ الَّذي به المطر، وهو المعنيُّ برحمةِ اللّه، وإرسالُه الرّياحَ هو خَلْقُ أسبابِ تكوُّنِها(1).

مجيءُ فعلِ ﴿يَهۡدِيكُمۡ﴾ مضارعًا:

تجدّدُ إمدادِ اللهِ عبادَه بهدايتِه لهم، في الأحوالِ الشَّديدة

جاءَ فعلُ الهدايةِ بصيغةِ المضارع ﴿يَهۡدِيكُمۡ﴾، للدَّلالةِ على تجدُّدِ تلك الهدايةِ واستمرارها منَ اللّهِ لعبادِه ورعايتِه وحفظِه لهم في أهوالٍ يتعرَّضونَ لها في البَرِّ والبحر، ومعنى الهداية هنا،" أي يرشدكم في اللّيالي المظلمة، إذا سافرتم في البرّ والبحر إلى مقاصدكم، وقيل: المراد مفاوزُ البرّ التّي لا أعلام لها، ولُجَجُ البحار، وشبّهها بالظّلمات لعدم ما يهتدون به فيها، وقيل: يهديكم بالنّجوم ليلًا، وبعلامات الأرض نهارًا"(2).

مفهومُ الظَّرفيَّةِ بالحرف ﴿فِى﴾:

بيانُ الهداية الرَّبّانيَّة حال اسْتغراق الظُّلُماتِ

ذِكْرُ الهدايةِ في ظُلُماتِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحر، وإضافةُ الظُّلماتِ إلى البَرِّ والبحر بحرف الجرِّ ﴿فِى﴾ ومعناها الظَّرفيَّةُ يفيدُ اسْتغراقَ هذه الظُّلُماتِ لِما أُسْنِدَتْ إليه، مع ما يُفيدُه معنَى الهدايةِ في هذه الحالِ الصَّعبةِ من مِنَّةِ الهدايةِ الرَّبّانيَّة؛ لإخراجِهم من مَعْمعةِ تلك الظُّلُماتِ(3).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 17.

(2) صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 62.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 17.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ظُلُمَٰتِ﴾ مجموعةً:

علاقةُ ظُلُماتِ اللَّيالي، بمفاوزِ البَرِّ، ولُجَجِ البحرِ

آثرَ النَّظْمُ التَّعبيرَ بلفظِ الجمعِ في ﴿ظُلُمَٰتِ﴾؛ لأنَّ المرادَ ظُلُماتُ اللّيالي في أسفارِهم في البَرِّ والبَحْر، أو هي مفاوزُ البَرِّ الّتي لا أعلامَ لها، ولُجَجُ البحار[1]. ويجوز أن يُرادَ بالظُّلُماتِ عمومُ ظُلمةِ اللَّيل - الَّتي هي الحقيقةُ في اللّغة - وظُلمةِ الجهلِ والضَّلالِ والخَوْفِ الَّتي هي مجازاتٌ وتَشْبيهات[2].

بلاغةُ الإضافةِ في قوله: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾:

بيانُ أحوالِ الظُّلُماتِ وملابساتِها في البَرِّ والبَحْر

إضافةُ الظُّلُماتِ إلى البَرِّ والبَحْرِ، في قولهِ تعالى: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، للمُلابسةِ وكونِها فيهما، فهي حالَّةٌ فيهما، أي: في ظُلُماتِ اللَّيالي فيهما[3].

نكتةُ ورودِ كلٍّ من ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ معرَّفَيْن:

اللهُ تعالى يهدي عبادَه في ظُلُماتِ أيِّ بَرٍّ وأيِّ بحْر، مهما عظُم

التَّعريفُ في ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يفيد جِنْسَ البَرِّ والبَحْرِ على العموم في أيِّ بَرٍّ وبَحر، وهذا يدلُّ على عظيمِ نعمةِ اللّهِ على عبادِه ومنَّته عليهم أنَّه ﷻ يهديهم في ظُلُماتِ أيِّ بَرٍّ وبَحْر، بما سخّره لهم من عِلْمٍ وعلاماتٍ.

سرُّ العطفِ في جملة ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

بيانُ الامْتنانِ بفوائدِ الرّياحِ على العالمين

في عطْفِ النَّظمِ الكريمِ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، على قولِه: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أُدْمِجَ الامْتنانُ بفوائدِ الرّياحِ، في إثارةِ السَّحابِ الَّذي به المطر، فاللّه تعالى هو الهادي للسَّيْرِ في تلكَ الظُّلُمات، بأنْ خلقَ النُّجومَ على نظامٍ صالحٍ للهدايةِ في ذلك، وعرَّفهم به، وهداهم أيضًا بمهابِّ الرّياح، وخوَّلهم معرفة

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 194.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 4/ 267.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 218.

اخْتلافِها بإحساسِ جفافِها ورُطوبتِها وحرارتِها وبَرْدِها[1]، وجعلها تأتي بالسّحاب الذي يَنزل منه الماءُ فيكون رحمةً لهم ولمعاشهم.

دلالةُ مجيءِ فعلِ ﴿يُرۡسِلُ﴾ مضارعًا:

استمرارُ رحمةِ اللهِ بعبادِه، بتجدُّدِ إرسالِ الرّياحِ

قولُه تعالى: ﴿يُرۡسِلُ﴾ فعلٌ مضارعٌ، يفيدُ تجدُّدَ واسْتمرارَ إرسالِ الرّياح، فهو نعمةٌ ومِنَّةٌ منَ اللهِ على عبادِه لا تنقطعُ عنهم، وفوائدُ الرّياح المتجدّدة غزيرةٌ، منها " أنّ الإنسان إذا كان في غاية الحرّ، فإنّ الله يرسل رياحًا، ترطّب ما هو فيه، وإذا به في الشّتاء ينتظر المطرَ ولا مطرَ، وفجأة تهبّ الرّياح، فينتظر البشارة منَ الله؛ لأنّ الرّياح ما دامت شديدة فستسوق السّحاب، وتُنزل ماءً على النّاس، إذًا: فالله ﷻ يرسل الرّياح بشارةً للخلق، بهطول المطر"[2].

بلاغةُ الاستعارة، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلُ﴾:

إرسالُ الرّياحِ كالعاقلِ المرسَلِ إلى جهةٍ ما، منَ البيان البليغ

أُطْلِقَ الإرسالُ، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ على الانْتقالِ على وجهِ الاسْتعارةِ، فإرسالُ الرّياحِ: هُبوبُها منَ المكانِ الَّذي تهُبُّ فيه ووصولُها، وحسَّنَ هذه الاسْتعارةَ أنَّ الرّياح مُسخَّرةٌ إلى المكانِ الَّذي يُريدُ اللهُ هُبوبَها فيه، فَشُبِّهتْ بالعاقلِ المرسَلِ إلى جهةٍ ما، فتصريفُ الرّياح من جهةٍ إلى جهةٍ، أشْبهُ بالإرسالِ منه بالإيجاد[3].

اخْتيارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ دون غيرِها:

الرّياحُ مُبشِّرةٌ مقترنةٌ بالرَّحمةِ الإلهيّةِ المُرسلةِ للعبادِ

التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لأنَّها تُبشِّرُ بالماءِ الطّاهرِ الَّذي يكون من المطر، الَّذي يُخرجُ الخَبْءَ، ويَنبُتُ به النَّباتُ بإذنِ اللهِ تعالى[4]، ولأنَّ الرّياحَ حيثُما وقعتْ في القرآن، فهي مقترنةٌ بالرَّحمة، كقولِه تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحِجْر: 22][5]، والتَّعبيرُ بـ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 17.
(2) حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 6/ 155.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 178.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5474.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/ 412.

كذلك هي صيغةُ جمعٍ قد يُراد به تعدُّد المهابِّ، أو حصولُ الفتراتِ في الهُبوب[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾:

بيانُ وصفِ الرّياحِ المعهودةِ بجلبِ الخَيْر، ودَفْعِ القَحْطِ والضُّرّ

ولفظُ ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ جاء معرَّفًا للدَّلالةِ على الرّياحِ المعهودةِ الَّتي يكون إرسالُها مُبشِّرًا بالرَّحمة، وهي المطرُ الَّذي يكون سببَ إنباتِ النَّبات، وإحياءِ الأرضِ بالزُّروعِ والثّمار، ويكون بها طعامُ الإنسانِ والحيوان.

إيثارُ لفظِ ﴿بُشۡرَۢا﴾ دون سواه:

الرّياحُ مُهيئةٌ لرحمتِه تعالى، غَيْثًا للمؤمنين، ونِذارةً للمشركين

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿بُشۡرَۢا﴾، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾؛ لأنَّ اللّهَ تعالى يجعلُ تبشيرَ الرّياحِ بالماءِ، مقدِّمةً لرحمتِه مهيِّئةً لها، كما يُهيّىء من بين يَديْه الرَّحمةَ المتمكِّنَ منها والَّتي في قبضتِه ﷻ، وهو القابضُ الباسطُ، الرّازقُ ذو القوَّةِ المتين[2]. وفي لفظ ﴿بُشۡرَۢا﴾ - كذلك - تعريضٌ ببشارةِ المؤمنينَ، بإغداقِ الغَيْثِ عليهم، ونِذارةِ المشركين بالقَحْطِ والجوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجنّ: 16]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [الدُّخان: 10][3].

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في قوله: ﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾:

الرّياحُ بالجمعِ، طيِّبةٌ منتشرةٌ، مُبشِّرةٌ بالمطرِ والرَّحمة

قرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائيّ وخلف: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ على التَّوحيد، أي: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع. وقرأ عاصم ﴿بُشۡرَۢا﴾ بضمِّ الباءِ وسكونِ الشّين، وقرأ ابنُ عامر: ﴿نُشۡرًا﴾ بضمِّ النّونِ وسكونِ الشّين، كما يقال: كُتْبٌ ورُسْلٌ، وقرأ حمزةُ والكسائي: ﴿نَشۡرًا﴾ بضمِّ النّونِ والشّين[4]. فمَنْ قرأ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع حَسُنَ وصفُها بقوله: ﴿نُشُرًا﴾؛ لأنَّه وصفَ الجمعَ بالجمع. ومَن قرأ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 179.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5474.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 178.

(4) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 283، وأبو عمرو، التَّيسير، ص: 110، وابن الجزري، النَّشر: 2/ 269 - 270.

﴿ٱلرِّيحَ﴾ واحدة، قرأ ﴿نُشُرًا﴾ جمعًا، كقراءة ابن كثير - المتقدِّمة -؛ فإنَّه أرادَ بالرّيح الكَثْرَةَ، كقولِهم: كُثُرُ الدِّرهمِ والدّينار، والشّاء والبعير، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 2]، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: 3]، فلمّا كانَ المرادُ بالرّيحِ الجمعَ وصفَها بالجمع، كقولِ عنترة:

فيها اثْنتانِ وأَرْبعونَ حَلوبةً *** سودًا كخافيَةِ الغُرابِ الأَسْحَمِ[1]

وقراءةُ ﴿نَشْرًا﴾ مصدرُ نَشَرْتُ الشَّيءَ ضدُّ طوَيْتُه، ويُرادُ بالمصدرِ ههنا المفعول، والرّياحُ كأنَّها كانت بانْقطاعِها كالمطويَّة، فأرسلَها اللّهُ تعالى مَنْشورةً بعد انْطوائها، فقولُه: ﴿نَشْرًا﴾ هنا مصدرُ حالٍ منَ الرّياح. ويجوزُ أن يكونَ النَّشْرُ ههنا الَّذي هو الحياةُ من قولهم: أَنْشَرَ اللّهُ الميِّتَ فَنُشِر، قال الأَعْشى: يا عجبًا للميِّتِ النّاشِرِ[2]. وإذا حُمِلَ على ذلك - وهو الوَجْه - كان المصدرُ يُرادُ به الفاعلُ، كما يقال: أتاني رَكْضًا، أي: راكضًا. ويجوزُ أن يكونَ انْتصابُ قولِه: ﴿نَشْرًا﴾ انْتصابَ المصادرِ لا الحالِ، من بابِ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 88]؛ لأنَّه إذ قال: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، دلَّ هذا الكلامُ على نَشْرِ الرّيح نَشْرًا، وقراءة ﴿بُشْرًا﴾، جُمِعَ فيها (بشيرًا) على (بُشْر)، من قوله تعالى: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الرّوم: 46]، أي: تبشِّرُ بالمطرِ والرَّحمة. والنُّشْرُ منَ الرّياحِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ الَّتي تُنشئُ السَّحاب، واحدُها نُشورًا، وأَصْلُ هذا من النَّشْر: وهو الرّائحةُ الطَّيِّبة ومنه قولُ امرئ القَيس: ونَشْرَ القُطُرْ[3]. و﴿نُشُرًا﴾ أي: متفرِّقةً من كلِّ جانب[4]، وبمعنَى: المنتشرةُ الهُبوب[5]. وقراءةُ ﴿نَشْرًا﴾ يجوزُ أن تكونَ من بابِ حذفِ المضافِ على معنَى: ذوات نَشر، أي: ريح طيِّبة[6].

دلالةُ عبارة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾:

﴿بَيْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، تفيدُ الظَّرفيَّةَ المكانيَّةَ المجازيَّة، أي: أمامَ

---

(1) عنترة، ديوانه، ص: 17.
(2) الأعشى، ديوانه، ص: 93، وهو في عند: ابن دريد، جمهرة اللُّغة، ص: 242، وصدره: حتَّى يقولَ النّاسُ ممّا رأَوْا.
والنّاشرُ: الَّذي بُعث من قبره، ينظر: الجوهري، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (نشر).
(3) امرؤ القيس، ديوانه، ص: 69، وهو عند: عبد القادر البغداديّ، خزانة الأدب: 9/ 231، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (نشر).
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 217، واليزيديّ، غريب القرآن، ص: 146.
(5) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 301، والنَّحّاس، معاني القرآن: 3/ 44.
(6) ينظر في توجيه القراءات: أبو عليّ الفارسيّ، الحُجَّة: 4/ 32 - 39، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 409، وابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 186، والحُجَّة، ص: 157، وابن زنجلة، الحجَّة، ص: 285.

رحمتِه وقُدّامَها، فهي تعبيرٌ عنِ الكَوْنِ بين اليدَيْن[1]. وأصلُ معنَى قولهم: (بين يديْ فلان)، أنَّه يكونُ أمامَهُ بقربٍ منه، ولذلك قوبِلَ بالخَلْفِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، فَقَصْدُ قائلِه الكنايةُ عنِ الأمام، وليس صريحًا، حيث إنَّ الأمامَ القريبَ أَوْسعُ منَ الكَوْنِ بين اليَدَين، ثمَّ لشُهرةِ هذه الكنايةِ وأغلبيَّةِ موافقتِها للمعنَى الصَّريح جُعِلَتْ كالصَّريح، وساغَ أن تُستعمَلَ مجازًا في التَّقدُّمِ والسَّبْقِ القريب، كقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: 46]، وفي تقدُّمِ شيءٍ على شيءٍ، مع قُربِه منه من غيرِ أن يكونَ أمامَه، ومن غيرِ أن يكونَ للمتقدّمِ عليه يَدان، وهكذا اسْتعمالُه ودَلالتُه في هذه الآية، أي: يُرسِلُ الرّياحَ سابقةً رحمتَه[2].

يُرسلُ اللهُ الرّياحَ سابقةً رحمتَه، وذلك من ألطافه ونعمته

دلالةُ الاسْتفهامِ، في قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ اسْتفهامٌ إنكاريٌّ، ينفي أن يكونَ مع اللهِ إلهٌ آخر، إذْ كيف يمكنُ أنْ يُعبَدَ غيرُه تعالى، مع وضوحِ الأدلَّةِ وتضافُرِ الآياتِ على وحدانيَّتِه في خَلْقِه وبديعِ صُنعِه، ونِعَمِه الجليلةِ النّاطقةِ بعَظَمةِ مَنْ أَنْعَمَ بها.

غايةُ الأسلوب تأكيدُ نفي وجودِ إلهٍ آخرَ مع الله

سرُّ التَّعبيرِ بصفةِ العُلوِّ ﴿تَعَٰلَى﴾:

في اخْتيارِ صفةِ العُلوِّ ﴿تَعَٰلَى﴾، تقريرٌ وتحقيقٌ بأنَّ كلَّ المخلوقاتِ مقهورةٌ تحتَ قدرتِه، لا تخرُجُ عن سلطانِه ومُلكِه وحُكْمِه، وفي ذلك كنايةٌ عن كونِه الكبيرَ المتعال، عُلوَّ عظمةٍ وتنزُّهٍ عن مشابهةِ خلْقِه، في ذاتِه وأفعالِه وأسمائه وصفاته[3].

تقريرُ عَظَمةِ اللهِ وتنزُّهِه عن كلِّ ما يتَّصفُ به الخَلْق

نكتةُ مجيءِ لفظِ الجلالةِ هنا مُظْهَرًا:

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في

بيانُ تنزُّهِ اللهِ بألوهيَّتِه، وتفرّدِه بجمالِه وكمالِه وعزّتِه

---

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/ 413، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 180.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - ب/ 180.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 295.

موضعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكْم؛ أي: تعالى اللّهُ وتنزَّه بذاتِه المنفردةِ بالأُلوهيَّةِ المُسْتَتْبِعَةِ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، ونُعوتِ الجمالِ والجلالِ، المقتضيةِ لكَونِ كلِّ المخلوقاتِ مقهورًا تحت قدرتِه ﷻ[1].

دلالةُ شبْهِ الجملة ﴿عَمَّا﴾:

تنزَّهَ اللهُ عن إشراكِهم معه آلهةً أخرى

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشْراكِهم معه آلهةً، فقولُه: ﴿عَمَّا﴾ أي: (عن ما) و(ما) هنا مصدريَّة، ينسبِكُ منها مع الفعل ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مصدرٌ، أي: تعالى اللّهُ عن إشراكِهم، وذلك يفيدُ المبالغةَ في تماديهم في إشراكِهم باللّه، أو موصولة؛ أي: تعالى اللّه عنِ الذي يشركونه به[2]، وعلى كلا المعنيين فالذَّمُّ واقع على الشّرك والمشركين والمشرَك بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

استمرارُ المشركين على شركِهم، يناسبُ زمنَ الفعل ومؤدّاه

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المضارعةِ، يفيدُ تجدُّدَ شِرْكهم واسْتمرارَه، ممّا يؤكِّدُ انْغماسَهم فيه، وملازمتَهم له، وعدمَ تجافيهم عنه، فمع وضوح الأدلّة، وتحقّقِها أمامهم عيانًا، ورؤيتهم لها ليلًا ونهارًا؛ يتكرّر منهم الإشراك بالعظيم سبحانه، فبئس الفعلُ فعلُهم، وبئس العقلُ عقلُهم.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ فعل ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

تعالى اللهُ عن إشراكهم وعن أيِّ شركةٍ أو مقارنة

حُذِفَ متعلَّقُ فعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ للتَّصريح بما أشارتْ إليه الآياتُ السّابقةُ في تَذْييلاتها، فقولُه: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلها وشريكا له تعالى، أو تعالى اللّه عن شركة أو مقارنة ما يشركونه به سبحانه، أو عن إشراكهم[3]، فاللّه سبحانه متعالٍ عن كلِّ ذلك.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 295.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 218.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 218.

❁ الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإجابة والعطاء:

الإجابةُ قد تكونُ بموافقةِ الدّاعي أو بمخالفته، والإعطاءُ الإنالةُ، دون خروجِ ما يملكُه منه

الإجابةُ: موافقةُ الدّاعي إلى الفعلِ من أجلِ أنَّه دعا به، يقال: أجابَ اللّهُ فُلانًا، والجوابُ يقالُ في مقابلةِ السُّؤال، كما يقول السّائل: أَتوافقُ في هذا المذهبِ أمْ تخالفُ؟ فيقول المجيب: أخالفُ، قال تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، ولا تكونُ إجابةً إلّا بأن تُفعَلَ لموافقةِ الدُّعاءِ بالأمرِ ومن أجله، فالإجابةُ تكونُ للأَدْعية، يقال: أجابَ دعاءه، وقولُك: أجاب، معناه: فعلَ الإجابة، أي: أوقع الإجابة بفعلها، قال تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: 89](1). والإعطاءُ: الإنالةُ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، واخْتصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ [ص: 39]. والإعطاءُ دليلُ التَّملُّك، ولا يقتضي إخراجَ المعطي منَ الملك، وذلك أنَّك تُعطي زيدًا المالَ ليشتريَ لك الشَّيء، وتُعطيه الثَّوبَ ليُخيطَه لك، ولا يخرجُ عن ملكِكَ بذلك، فالَّذي يعطي يملكُ ما يعطيه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّه كان له منعُ من شاءَ منه كالمالكِ للملك(2).

الاضطرار والقهر:

المضطرُّ لا يقدِرُ على الامْتناعِ منَ الفعلِ بسببٍ داخليٍّ أو خارجيّ، والمقهورُ يفعلُ بغَلَبةٍ

الاضْطرارُ: حملُ الإنسانِ على ما يضرُّه، وهو في التَّعارفِ حملُه على أمرٍ يكرهُه، ولا يقدرُ على الامْتناع فيه بسببٍ موجبٍ لذلك، وإن كان بحسبِ ذلك قادرًا على الامْتناع، وذلك على ضربَيْن: **أحدهما:** اضطرارٌ بسببٍ خارجٍ كمن يُضرَب، أو يُهدَّد، حتَّى يفعلَ منقادًا، ويؤخَّر قهرًا، فيُحملُ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة: 126]. **والثّاني:** بسببٍ داخلٍ وذلك إمّا بقهرِ قوّةٍ له لا

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 45، 335، 419، والرّاغب، المفردات: (جوب)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 145، والكفويّ، الكلِّيّات: 1/ 60.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 83، 86 - 87، والرّاغب، المفردات: (عطا)، والكفويّ، الكلِّيّات: 1/ 360.

ينالُه بدفعِها هلاك، كمن غَلَبَ عليه شهوةُ خمرٍ أو قِمار، وإمّا بقهرِ قوّةٍ ينالُه بدفعِها الهلاك، كمنِ اشْتدَّ به الجوعُ فاضطرَّ إلى أكل مَيتةٍ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: 173]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النّمل: 62] فهو عامٌّ في كلِّ ذلك[1]. والقَهْرُ: الغَلَبةُ والتَّذليلُ معًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [الضّحى: 9]، أي: لا تُذلل، وأقْهَرَه: سلَّط عليه مَنْ يَقهرُه[2].

الكشف والإزالة:

كلاهما يفيدُ إزالـةَ شيءٍ لشيءٍ ومفارقتَه حِسّيًّا ومعنويًا، والثّاني يفيدُ ثباتَ الشّيءِ من قبلُ

الكَشْفُ: سَرْوُ الشَّيءِ عنِ الشَّيءِ، كالثَّوْبِ يُسْرَى عنِ البَدَن، يقال: كَشفْتُ الثَّوْبَ عنِ الوجهِ وغيرِه، ويقالُ: كشفَ غمَّه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: 17]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: 22][3]. وزالَ الشَّيءُ يزولُ زَوالًا: فارقَ طريقتَه جانحًا عنه، وقيل: أَزَلْتُه، وزوَّلْتُه، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41]. والزَّوالُ يقالُ في شيءٍ قد كان ثابتًا قبل، وقيل: زالَه يُزيلُه زَيْلًا، قال الشّاعر: زالَ زوالُها[4]، أي: أَذْهبَ اللّهُ حركتَها[5].

الخليفة والوليّ:

اللّفظان يشتركانِ في جعلِ الثّاني بعد الأوّل، وأولياءُ أوسعُ دِلالةً من خُلفاء

الخليفةُ مِن اسْتُخلِفَ في الأمرِ مكانَ مَنْ كانَ قبْلَه، فهو مأخوذٌ من أنَّه خَلَفَ غيرَه، وقامَ مقامَه؛ لأنَّ خَلَفَ ضدُّ تقدَّمَ وسَلَف، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: 169]، وقال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ

(1) الرّاغب، المفردات: (ضر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 66، والكفويّ، الكلّيّات: 1/ 214.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (كشف).
(4) البيت: هذا النَّهارُ بَدالها من همِّها ما بالُها باللَّيلِ زال زوالُها، وهو للأعشى في ديوانه، ص: 150.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (زال)، والسّرقسطيّ، الأفعال: 3/ 479.

﴿خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النَّمل: 62][1]. والوَلايةُ: تولّي الأمر، والوِلاية: النُّصرة، وقيل: الوِلاية والوَلاية نحو: الدِّلالة والدَّلالة، وحقيقتُه تولّي الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]، وقال سبحانه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ [النِّساء: 76]، وكلُّ من ولي شيئًا من عملِ السُّلطانِ فهو والٍ، فالقاضي والٍ، والأميرُ والٍ، والعاملُ والٍ. وأصلُ الوَلْي جعلُ الثّاني بعد الأوَّل من غير فَصْلٍ، من قولِهم: هذا يلي ذاك وليًا، وولّاهُ اللّهُ كأنَّه يلي أمرَه ولم يَكِلْه إلى غيرِه، وولّاه أمرَه: وكلَه إليه، كأنَّه جعلَه بيدِه، وتولَّى أمرَ نَفْسِه قامَ به من غيرِ وسيطة[2].

الهداية والعون:

العَوْنُ معنًى من معاني الهدايةِ، للوصولِ إلى الشَّيء

الهدايةُ: دَلالةٌ بلُطْفٍ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52]. والهدايةُ تفيدُ التَّمكُّنَ منَ الوصولِ إلى الشَّيء، فالهدايةُ تكونُ إلى الشَّيء، وهذه الهدايةُ تكونُ بالتَّعريف، يقال: هَدَيتُه الطَّريقَ والبيتَ هدايةً: أي عرَّفتُه، وهذه لغةُ أهلِ الحجاز، وغيرُهم يقول: هَدَيتُه إلى الطَّريقِ وإلى الدّار، وهَدَى واهْتدى، بمعنًى واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمَّد: 17]. والهدايةُ تكون بمعنَى التَّوفيق، وهي خاصَّةٌ باللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القَصص: 56]. والهدايةُ الَّتي أَسْنَدها اللّهُ لرسوله ﷺ هي هدايةُ الدَّلالةِ والبيان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشّورى: 52][3]. والعَوْنُ: المعاونةُ والمظاهرة، يقالُ: فلانٌ عَوْني، أي: مُعيني، وقد أَعَنتُه، قال تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف:

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 222، والرّاغب، المفردات: (خلف)، والكفويّ، الكُلّيّات: 2/ 299.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 577 - 578.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 532، والرّاغب، المفردات: (هدى).

95]، وقال تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ [الفرقان: 4]. واستعانَ به فأعانَه وعاونَه، وتعاونَ القومُ أعانَ بعضُهم بعضًا[1].

البشرى والسرور:

البُشْرَى لا تكون إلّا سارّة، وهي توطئةٌ لحدوث السُّرور

البُشْرَى والبِشارةُ: الخَبَرُ السّارُّ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [العنكبوت: 31]، والَّذي يزُفُّ الخبرَ السّارَّ يقال له: البشيرُ والمبَشِّر، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الرّوم: 46]. والاسْتبشارُ: هو السُّرورُ بالبِشارة، والاسْتفعالُ للطَّلب، والمُستبشِرُ بمنزلةِ مَنْ طلبَ السُّرورَ في البِشارةِ فوجدَه، وأصلُ البُشْرَى: البَشَرَة؛ لظُهورِ السُّرورِ بها في بَشَرَةِ الوجه[2]. والسُّرورُ: اسْمٌ وُضِعَ مَوْضعَ المصدرِ في قولك: سُرَّ سُرورًا، فهو مَسْرور، قال تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾ [الانشقاق: 9]. والسُّرورُ لا يكونُ إلّا بالفوائد، وما يجري مجراها منَ الملاذّ، ونقيضُه الحُزْن، وهو لا يكونُ إلّا بالمرازي. والسُّرورُ: ما يَنْكتِمُ منَ الفَرح، قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: 11][3].

(تعالى) و(تعاظم) و(ارتفع):

الكلماتُ الثلاثُ مشتركةٌ، في مَدْلولِها الحسّيِّ والمعنويّ

العُلُوُّ: ضدُّ السُّفلِ، والعُلْويُّ والسُّفْليُّ المنسوبُ إليهما. والعُلُوُّ: الارْتفاع، فـ(علا) بالفتحِ في الأمكنةِ والأجسامِ أكثر، قال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان: 21]. وقيل: إنَّ (عَلا) يقالُ في المحمودِ والمذموم، و(عَليَ) لا يقالُ إلّا في المحمود، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، والعَليُّ: الرَّفيعُ القَدْر، من عَليَ، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النِّساء: 34]، فمعناه: يَعْلو أن يُحيطَ به وصفُ الواصفين؛ بل علمُ العارفين، وعلى ذلك

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عون).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 44، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 277، والرّاغب، المفردات: (سرر).

يُقالُ: (تَعالَى)، كما في قولِه تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وتخصيصُ لفظِ التَّفاعلِ لمبالغةِ ذلك منه، لا على سبيلِ التَّكلُّفِ كما يكونُ منَ البَشَر، وقال ﷻ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ [الإسراء: 43][1].

وعَظُمَ الشَّيءُ أصلُه: كَبُرَ عَظْمُه، ثمَّ اسْتُعيرَ لكلِّ كبيرٍ، فأُجْرِيَ مَجْراهُ محسوسًا كان أو معقولًا، عَيْنًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزُّمَر: 13]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]. والعظيمُ إذا اسْتعمِلَ في الأعيانِ فأصلُه: أن يُقالَ في الأجزاءِ المتَّصلة، وقد يقالُ في الأجزاءِ المنفصلة، نحو: جَيْشٌ عظيم، ومالٌ عظيم. وأعْظمَ الأمرَ وعظَّمَه تعظيمًا، أي: فخَّمَه، والتَّعظيمُ: التَّبْجيل، وتعظَّمَ: تكبَّرَ، والاسْمُ: العُظْمُ، وتعاظمَهُ أمرُ كذا، وتقولُ: أصابَنا مَطَرٌ لا يَتعاظَمُهُ شيءٌ، أي: لا يَعْظُمُ عندَه شيء[2]. والرَّفْعُ يقال تارةً في الأجسامِ الموضوعة، إذا أَعْلَيْتَها عن مقرِّها، نحو قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 93]. وتارةً في البناءِ إذا طوَّلْتَه، نحو قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: 127]. وتارةً في المنزلةِ إذا شرَّفتَها، نحو قولِه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: 15]، وقولِه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ [النّور: 36]، أي: تُشَرَّف. والعُلُوُّ والارْتفاعُ يكونانِ في المكانِ وفي غيرِه[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (علا)، والسّرقسطيّ، الأفعال: 1/ 204، 252.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عظم).
(3) الرّاغب، المفردات: (رفع)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 314.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النّمل: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعدَ التّذكيرِ بنعمةِ الهداية، يأتي تقريرُ انفرادِه سبحانه بالخَلْق والبعث والرّزق

لَمّا رَتَّبَ سُبْحانَهُ الأدِلَّةَ السّابقةَ تَرَقّيًا مِن أَعَمَّ إلى أَخَصَّ، ومِن أَرْضٍ إلى سَماءٍ، خَتَمَها بِما يَعُمُّها وغَيْرَها؛ إرْشادًا إلى قياسِ ما غابَ مِنها عَلى ما شوهِدَ، فَلَزِمَ مِن ذَلِك قَطْعًا القُدْرَةُ عَلى الإعادَةِ، فَساقَها لِذَلِك سياقَ المُشاهَدِ المُسَلَّم ببيان صوَرها، من إعادة الخَلْق والإمطار والإنبات، بوصفها براهينَ على التّوحيد المُسْتَلْزِم لِلْقُدْرَةِ عَلى البَعْثِ وغَيْرِهِ مِن كُلِّ مُمْكِنٍ[1]. فالآيةُ: انتقالٌ مِنَ السّؤال عن أصل خَلْق الكون وما اشتمل عليه، وما توالى من نِعَم الماء والإنبات وتصريف الرّياح؛ لتكونَ مبشّرةً بين يدَيْ رحمته، إلى السّؤال عن أصل خَلْقهم ابتداءً، وعن مآلهم، وكيف جعل لهم أجلًا مسمّى، وتكفّل برزقهم في الدّنيا، وهو أمرٌ متعلّقٌ أشدَّ التّعلّق[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾: (بدأ) مِن افْتِتاحِ الشَّيْءِ، ومَبْدَأُ الشّيء: هو الذي منه يتركَّبُ، أو منه يكون[3]. واللّهُ هو المُبْدِئُ المُعيد، أي: هو السّببُ في المبدأ والنّهاية، وشيءٌ بَديءٌ: لم يُعهد من قبلُ، كالبَديع في كونه غيرَ معمولٍ قبلُ[4]. والمعنى المِحوريّ: ظهورُ الشّيء أو تكوُّنه لأوّل مَرّة[5].

2) ﴿يُعِيدُهُۥ﴾: (عود) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 199.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5474.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).

(4) الرّاغب، المفردات: (بدأ).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدأ).

تَثْنِيَةٍ في الأَمْرِ، ومنه: العَوْدُ، وهوَ تَثْنِيَةُ الأَمْرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ. والمَعادُ: كُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ المَصيرُ. والآخِرَةُ مَعادٌ لِلنّاسِ[1]. واللّه تَعالَى المُبْدِئُ المُعيدُ، وذَلِكَ أَنَّهُ أَبْدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُمْ. فقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: 13] أي: يخترع من غير مثالٍ، ثمّ يُعيد ذلك الذي بَدَأه من غير إخلالٍ[2]. والمعنى المِحوريّ: استمرارُ الشّيء امتدادًا أو تكرُّرًا وتجَدُّدًا[3].

3) ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾: البُرهان: وهو فُعْلان، بزنة الرُّجْحان. ومعناه: بيانُ الحُجّة. وأَبْرَهَ الرَّجلُ: غلب النّاسَ وأتى بالعجائب، والبرهان أَوكَدُ الأَدلَّة. وهو الَّذي يقتضي الصّدقَ أبدًا لا محالةَ. وجاءَ البُرهان في القرآن على ثلاثة أَوجهٍ: بمعنى المعجزة والوِلاية، وبمعنى القرآن والنّبوّة، وبمعنى الدَّليلِ والحُجّة. والمراد بقوله: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أي: الدّليل الذي يوقع اليقينَ، ولم يأت في القرآن منَ التركيب إلّا (البرهان)، بمعنى الحُجة التي توقِعُ اليقين[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

انفرادُه سبحانه بابتداء الخَلْق وإعادتِه وبأمر الرّزق، دليلٌ باهرٌ على وحدانيّته

تضمَّنتِ الآيةُ الكريمة عددًا منَ المعاني الجوهريّة التي ترتبط بتوحيد اللّه وقُدرته على الخَلْق والبعث، وتَفَرّدِه سبحانه بأمر الرّزق؛ إذِ انتقلتِ السّورةُ الكريمة للمَرّة الخامسة إلى لفْتِ أنظارهم إلى نعمة أُخْرَويَّة، بعد أن ساقت ما ساقت منَ النِّعم الدُّنيويَّة، فقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: قولوا لنا أيّها المُشْركون: مَنِ الذي في قُدرته أن يوجِد الخَلْقَ في الأرحام من نطفة، ثمّ يُحَوِّلُها إلى عَلَقة، ثمّ إلى مضغة، ثمّ يعيدُ هذه المخلوقاتِ جميعَها بعدَ موتِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عود).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عود).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عود).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برهن).

إلى الحياة مَرّةً أُخرى؟ لا شَكّ أنّه لا يَقْدِر على ذلك أحدٌ سوى اللّهِ تعالى، ثمَّ قولوا لنا ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بالمطر والنّبات والأموال، وبغير ذلك من ألوان النِّعم التي لا تُحصَى؟ ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ هو الذي فعل ذلك؟ كَلّا، لم يفعل ذلك سِوى اللّهِ تعالى وحدَه. ثمّ لقَّنَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ الجوابَ الذي يُخْرِس ألسنتَهم عند المعارضة أوِ المجادلة، فقال: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي: قل لهم أيّها الرَّسول الكريم عند معارضتهم لكَ، أحضروا حُجّتكم وهاتوا بُرهانًا عقليًّا أو نقليًّا، على أنّ للّه تعالى شريكًا في مُلكه، إن كنتُم صادقين فيما انغمستُم فيه، من جهلٍ وشركٍ وكُفرٍ به ﷻ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصلِ الآية عن سابقها:

الآيةُ دليلٌ مستقلٌّ يَنهضُ بإقامة الحُجّة

جاء النّظمُ الحكيم بالفصل بين هذه الآية والآية السّابقة عليها؛ لشِبه كمالِ الاتّصال بينهما، وذلك لأنّ كلّ آية منَ الآيات الخمسِ التي بدأت بقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ﴾ تَنهضُ لإقامة حُجّةٍ قائمةٍ بذاتها، فكان تَعدُّد الحُجَجِ الباهرة والآياتِ السّاطعةِ داعيًا للفصل بينها. فوقعتِ الآيةُ استئنافًا بيانيًّا؛ إذِ انتقل الذّكر الحكيمُ إلى بيان برهانٍ آخرَ من براهين التّوحيد وإثباتِ الأُلوهيّة، وفي هذا الأسلوبِ منَ اللّطف والدّقّة ما يستثير عقولَ المُتلقّين لتأمُّلِ كلِّ حُجّة بذاتها مَرّةً، ولتأمُّل الحُجَجِ كلِّها مجتمعةً مرّاتٍ أُخرى، لِما فيها منَ البراهين السّاطعةِ على وحدانيّة اللّه سبحانه.

غرضُ الاستفهامِ ودلالتُه في الآية:

عبادةُ مَن بيده الخَلْقُ والبعثُ مِن بدائِهِ العقولِ المُؤْمنة

جاء الاستفهامُ في صدر هذه الآية: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ للتّقرير، وذلك على غرار الآياتِ الأربع السّابقة، فالمُراد منَ الاستفهام

(1) طنطاويّ، الوسيط في تفسير القرآن: 10/ 348.

حملُهم على الإقرار بالحقّ برغم إنكارهم، وذلك بذِكْر إحدى البَديهيّات المُسَلَّمة، وهي تَفَرُّدُه سبحانه بأمر الخَلْق والبعث. والتّقديرُ: (أَعِبادَةُ أوثانِكم خيرٌ أم عبادةُ مَن يَبْدأُ الخَلْق من غير أصل، ثمّ يُفنيه، ثُمّ يُعيدُه إذا شاء كهيئته؟). وفي ذلك دلالةٌ على تقريعهم، وعلى سُخفهم وضيق عقولهم وتعنُّتهم في أمر الإيمانِ باللّه سبحانه.

دلالةُ التّرقّي في المعاني في ختام الخُطبةِ القرآنيّةِ:

التّدرُّجُ في البراهين في الآيات القرآنيَّة من دواعي الإيمان

شكّلتِ الآياتُ السّتُّ من أوّل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: 59] إلى قوله جلَّ اسمُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ خُطبةً قرآنيّةً بليغةً متكاملةً، بدأتْ بتحميد اللّه سبحانه، ثمّ تَدَرَّجتْ في عرض الأدلّة على إثبات وحدانيّته سُبحانه منَ الخاصّ إلى العامّ، ومنَ المُجَمَل إلى المُفَصّل. فكان جماعُ ما تَقَدَّمَ في هَذِهِ الآياتِ أنَّها أجْمَلَتِ الاِسْتِدْلالَ عَلى أحَقِّيَّةِ اللّه تَعالى بِالإلَهِيَّةِ وحْدَهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ ذَلِكَ بِآياتٍ؛ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [النمل: 60] إلى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، فابْتَدَأتْ بِدَليلٍ قَريبٍ من بُرْهانِ المُشاهِدَةِ، وهو خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ، وما يَأْتي مِنهُما من خَيْرٍ لِلنّاسِ، ودَليل كَيْفيَّةِ خَلْقِ الكُرَةِ الأرْضيَّةِ وما عَلى وجْهِها مِنها، وهَذا مُلْحَقٌ بِالمُشاهَداتِ. وانْتَقَلَتْ إلى اسْتِدْلالٍ مِن قَبيلِ الأُصولِ المَوْضوعَةِ، وهو ما تَمالَأَ عَلَيْهِ النّاسُ مِنَ اللَّجَأ إلى اللّه تَعالى عِنْدَ الاِضْطِرارِ. وانْتَقَلَتْ إلى الاِسْتِدْلالِ عَلَيْهِمْ بِما مَكَّنَهم مِنَ التَّصَرُّفِ في الأرْضِ؛ إذْ جَعَلَ البَشَرَ خُلَفاءَ في الأرْضِ، وسَخَّرَ لَهُمُ التَّصَرُّفَ بِوُجوهِ التَّصاريفِ المُعينَةِ عَلى هَذِهِ الخِلافَةِ، وهي تَكْوينُ هِدايَتِهِمْ في البَرِّ والبَحْرِ. وذَلِكَ جامِعٌ لِأُصولِ تَصَرُّفاتِ الخِلافَةِ المَذْكورَةِ في

الارْتِحالِ والتِّجارَةِ والغَزْوِ، وتَمَّ ذَلكَ بِكَلِمَةٍ جامِعَةٍ لِنِعْمَتَي الإيجادِ والإمْدادِ، وفي مَطاويها جَوامِعُ التَّمَكُّنِ في الأرْضِ[1].

دلالةُ الاستفهامِ بـ ﴿أَمَّن﴾ في الآية الكريمة:

تقريرُ انفرادِ الله سبحانه بأمر الخَلْق والإعادة، وتوبيخُ المُشركين المُعانِدين

جاءت (أمْ) في الآية الكريمة مُنْقَطِعَةً بِمَعْنى (بَلْ)؛ لِلْإضْرابِ الانْتِقاليِّ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مَعَ مُراعاةِ وُجودِ مَعْنى الاسْتِفْهام؛ لِأنَّ (أمْ) لا تُفارِقُ مَعْنى الاسْتِفْهام، فانْتَقَلَ بِهَذا الإضْرابِ مِنَ الاسْتِفْهامِ الحَقيقيِّ التَّهَكُّميِّ إلى الاسْتِفْهامِ التَّقْريريِّ، إلى الغَرَضِ المَقْصودِ وهو الاسْتِدْلالُ "بتَصَرّف اللّه تعالى بالحياة الأولى والثّانية، وبإعطاء المَدد لدوام الحياةِ الأولى مُدّةً مقدّرةً، وفيه تذكيرٌ بنعمة الإيجاد ونعمةِ الإمداد"[2]. فَفَصَّلَتِ الآية انفرادَه سُبحانه بأمر الخَلْق والإعادة. فهو اسْتِدْلالٌ مَشوبٌ بامْتِنانٍ؛ كَما عَدَّدَها في مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الرّوم: 40]. و(مَن) لِلاسْتِفْهام، وهي مُبْتَدَأٌ، والخَبَرُ جُمْلَةُ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وهو اسْتِفْهامٌ تَقْريريٌّ، عَلى أنَّ اللّه إلَهٌ واحِدٌ لا شَريكَ لَهُ، فالاسْتِفْهامُ تَقْريرٌ لانفراده سبحانه بأمر بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته بعد إهلاكه، وهو مَشوبٌ بِتَوْبيخٍ، فَلِذَلِكَ ذَيَّلَ بِقَوْلِه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالفعل ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ مضارعًا:

استمراريَّةُ الخَلْق وتَجدُّدُه من أَدلّة قدرة الله ووحدانيّته

جاء النّظْمُ الحكيم باستعمال الفعل ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ في صيغة المضارعة، وعدَلَ عن صيغة المُضي (بدأ)، أو اسم الفاعل (المُبْدِئ)؛ وذلك لأنّ استعمالَ الفعلِ المضارع يدلّ على الاستمراريَّة والتّجدّد،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 18.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 17 - 18.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 10 - 11، (بتصرف)، و17 - 18.

ما يعني: تصويرَ البَدءِ واستمراره، فليس الخَلْق حَدَثًا واحدًا انتهى في الماضي، بل هو عمليّةٌ مستمرَّةٌ ودائمة في الحاضر والقابل، كما كان في الماضي، تدلُّ على قدرة اللّه المطلقةِ والمُتَجَدِّدَة في خَلْق الكائنات وإعادتِها. وقد ناسبت صيغةُ المضارع هنا سياقَ تَحدّي المشركين ودعوتِهم للتّفكُّر في عَظَمة اللّه وقدرتِه الباهرة الدّائِمَة المُتَجَدّدة. كما ناسب ذِكْرُ البَدْء في هذا المقام بإنذارهم، وتذكيرهم بأنَّ الحياة عابثةٌ إن لم يكن بها تذكيرٌ باليوم الآخر، واللّهُ تعالى يُذَكّرهم دائمًا إنذارًا، وتبشيرًا؛ لكي لا ينسَوه[1].

دلالةُ (أل) في كلمة ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ وفائدتُها:

كلُّ الخلائق بيد اللـه سبحانه يُصَرِّفها كيف يشاء

عبّرت الآيةُ الكريمة بكلمة ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ مقرونةً بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، والظّاهرُ أنّ اللّام هنا للعهد الذّهنيّ، ولَيْسَتْ لِلِاسْتِغْراقِ؛ لِأنَّ مِنَ الخَلْقِ ما لا يُعادُ بِالإجْماعِ، ومِنهُ ما في إعادَتِهِ خِلافٌ بَيْنَ المُسلِمينَ، فالظّاهِرُ أنَّ الخَلْقَ هو المَخْلوقُ، ويَظْهَرُ أنَّ المَقْصودَ هو مَن يُعيدُهُ اللّه في الآخِرَةِ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ والمَلَك، لا عُمومَ المَخْلوقِ، والمَقْصودُ بَنو آدَمَ مِن حَيْثُ ذِكْرُ الإعادَةِ، والإعادَةُ البَعْثُ مِنَ القُبورِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يُريدَ بِالخَلْقِ مَصْدَرَ (خَلَقَ)، ويَكونُ ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾ اسْتِعارَةً لِلْإتْقانِ والإحْسانِ، كَما تَقولُ: فُلانٌ يُبْدِئُ ويُعيدُ في أمْرِ كَذا، إذا كانَ يُتْقِنُهُ[2].

عِلّةُ إيثارِ كلمة ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ على غيرِها مِنَ المفردات:

كلمةُ الخَلْق أدَلُّ على كمال قُدرة الله تعالى وعَجْز ما يُشركونَه

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بكلمة ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ على نظائرها، كالإنشاء والجَعْل والصّنع والتّدبير؛ لأنّها أدَلُّ على كمال قدرة اللّه تعالى، وأقوى في التّدليل على عجْزِ ما يشركون به في عبادة اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5474.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 267، وأبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 469، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 31.

سبحانَه منَ الأنداد والأصنام؛ إذِ الخَلْقُ في كَلام العَرَبِ: ابتِداعُ الشَّيْءِ عَلَى مِثال لَمْ يُسبَق إليه، وكُلُّ شَيْءٍ خلقه اللّه فَهوَ مُبْتَدِئه عَلَى غَيْرِ مِثالٍ سُبِق إليه(1).

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بينَ بَدءِ الخَلْق وإعادتِه حياةُ النّاس على امتداد زمانِه

عبّر الذّكرُ الحكيم بالحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يُفيد التّراخيَ، وهو إمّا للتّراخي الزّمنيّ؛ لوجود فاصلٍ زَمنيٍّ اقتضته حِكمةُ اللّه سبحانَه بين خَلْق المخلوقات ونُموّها، ثمّ موتِها وإعادتِها بالبعث والنّشور للحساب، أي: بينَ الإعادة والبَدءِ أعمارُ النّاس، وليس ذلك زمنًا قصيرًا(2). وإمّا للتّراخي الرُّتبي؛ لأنّ الإعادة متراخيةٌ عن بَدْء الخَلْق رُتبةً؛ لأنّ الإعادة أهونُ منَ البَدْء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الرّوم: 27].

سِرُّ التّلازم بينَ البَدءِ والإعادة:

عنادُ المشركين وإصرارُهم لن يغنيَ عنهم شيئًا بعد أن بلغتهمُ الحُجَجُ الباهِرة

قرنتِ الآيةُ الكريمة في خطابها للمشركين بين تقرير أمرِ الخَلْق، وهو واضحٌ مشاهَدٌ، وأمرِ الإعادة بالبَعث، وهو أمرٌ غائبٌ يُنكرونه ويُكذّبونه، ولذلك فقدِ اسْتَشْكَلَ بعضُهمُ التّلازمَ هنا؛ إذ كَيْفَ يُحْمَلُ الكَلامُ عَلَيْهِ ويُخاطَبونَ بِهِ خِطابَ المُعْتَرِفِ؟ وأُجيبُ: بأنَّ تِلْكَ الإعادَةَ لِوُضوحِ بَراهينِها جُعِلوا كَأنَّهم مُعْتَرِفونَ بها، لِتَمَكُّنِهِمْ مِن مَعْرِفَتِها، فَلَمْ يَبْقَ لَهم عُذْرٌ في الإنْكارِ(3). وإنّما قدَّم البدء لى الإعادة وإن كانتِ الإعادةُ أسهلَ؛ تنبيهًا إلى أنّ الصّانع قد يَعْدِل عن صنعتِه الأولى، فلا يعيد المصنوعَ على هيئته الأولى.

فائدةُ الطّباق بين ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

جاء الطّباقُ في الآية الكريمة بين ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾؛ لتعزيز

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5474.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 31.

بلاغةُ الطّباق تُشير إلى طلاقةِ القُدْرة الإلَهيّةِ في الخَلْق والإعادة

المعنى وتقويةِ دلالة الحُجَجِ التي ساقها النّص الكريم وتوكيدِها؛ للتّدليل على قدرة اللّه المطلقةِ على الخَلْق والإعادة، وهو إظهارٌ لقوّة اللّه في خلق الأشياء منَ العَدَم، ثمّ إعادتِها بعد فنائها، وقد جاء الطّباق بينَ الفِعْلَين في صيغة المضارعة للتّعبير عنِ استمرار القدرة الإلَهيّة وتَجَدُّدِها، وفي ذلك حَثٌّ لأذهان الكفّار المُعاندين على التّدبّر والتّأمّل في هذه القدرة البالغة.

غرضُ الاستفهام في ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم﴾:

انفرادُه سبحانه بأمر الرّزقِ منَ الأدلّة المشاهَدةِ على وحدانيَّتِه وطلاقةِ قُدرته

جاء الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم﴾ دالًّا على التّقرير، وقد حمل في طيّاتِه بعضَ الأغراض الأُخرى، كتوبيخ المشركين وإنكارِ إشراكهم باللّه في أمر الرّزق، فالآيةُ تسألهم سؤالًا استنكاريًّا عن مَن يرزقُهم منَ السّماء والأرض غيرِ اللّه، وهي تعلم أنّهم لا يستطيعون أن يذكروا أحدًا غيرَه. كما دلّ هذا الاستفهامُ على تقرير حقيقة انفرادِه سبحانَه بأمر الرّزق وتوكيدِها؛ حثًّا لهم على الإقرار بهذه الحقيقة الدّامغة، التي لا ينكرُها إلّا جاحدٌ أو مُكذّب.

توجيهُ معنى ﴿مِّنَ﴾ في الآية:

اتّساعُ دلالةِ (مِنَ) بينَ الابتدائيّة والتّبعيضيّة والبيانيّة، دليلٌ على بلاغة الإيجاز

يحمل حرفُ الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ثلاثةَ معانٍ؛ **الأوّل:** ابتداءُ الغاية؛ أي: بدأ سبحانَه بما فيه قَوامُ حياتِهم، فمِنَ السّماء بالمطر، ومِنَ الأرض بالنّبات. **الثّاني:** التّبعيضيّة؛ أي: يرزقكم من بعض ما في السّماء والأرض من أرزاق. **الثّالث:** بيانيّة؛ أي: ﴿مِّنَ﴾ لبيان ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ على حذف المضاف، أي: مَن يرزقكم مِن أهل السّماء والأرض، والمُراد بأهل السّماء والأرض غيرُ اللّه؛ لأنّه لإنكار رازقٍ سواه[1].

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/ 451.

فائدةُ الطّباق بينَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإفرادها:

توبيخُ الكفّار على إنكارهم قدرةَ الله على تسخير الأضداد لخدمة الإنسان

جاء الطّباقُ بينَ لفظَي ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مُبْرِزًا طلاقةَ القُدرة الإلَهيّة على إحداث الرّزق من أيّ مكانٍ شاء، فضلًا عن الإشارة إلى تفضّل اللّه سبحانَه بتسخير السّماء والأرض معًا لرزق الإنسان وتهيئةِ الدّنيا له، ثمّ هو بعدَ ذلك يكفرُ باللّه الذي أعدّ له كلَّ ذلك، ففي هذا الطّباق تفضُّلٌ بالإنعام والرّزق، وفيه كذلك توبيخٌ لمنكرِ خالقِ السّماء والأرض. وقد جاء لفظُ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في الآية الكريمة مفردًا؛ لأنّ المخاطَبين المُحْتَجَّ عليهم بهذه الآية إنّما كانوا مُقرّينَ بنزول الرّزق من قِبلَ السّماء التي يشاهدونها بالحِسّ، ولم يكونوا مُقرّينَ ولا عالمينَ بنزول الرّزق من سماء إلى سماء، فأُفرِدَ لفظُ السّماء؛ لأنّه لا يمكنهم إنكارُ مجيءِ الرّزقِ منها، أي: المطر.

فائدةُ تقديمِ السّماء على الأرض:

اقتضت عَظَمةُ السّماء وكونُها مصدرَ الرّزق وأسبقيّتُها في الخَلْق تقديمَها في الذّكر

قدَّمَ النّظمُ الحكيم لفظَ السّماء على الأرض؛ مراعاةً لعدد منَ الفوائد الدّقيقةِ، **منها**: الإشارةُ لعَظَمة خَلْق السّماء وما فيها من آيات تدلُّ على قدرة اللّه؛ إذ إنّ السّماءَ وما تحتويه من كواكبَ ونجوم تُعَدّ أكثرَ اتّساعًا، وأعظمَ خلقًا، مقارنةً بالأرض. **ومنها**: أنّ السّماء مصدرُ الرّزق، فمنها الأمطارُ التي تُنبِتُ الزَّرع وتُحيي الأرض بعد موتِها، كما أنّ في تقديمها مراعاةً لترتيب الخلْقِ، فقد خلقَ اللّه السّماء أوّلًا ثمّ الأرضَ.

فائدةُ تَكرارِ قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

في التَّكرارِ تأكيدٌ للوحدانيّة، وجذبٌ للانتباه، وانتظامٌ للإيقاع

تكرّر قولُه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ في هذه الخُطبة القرآنيّة خمسَ مرّات، وهو استفهامٌ استنكاريٌّ؛ لتعنيف هؤلاء المشركين المعاندين وتوبيخِهم، وقد حمل هذا التَّكرارُ في طيّاته عددًا منَ الفوائد؛ **منها**: تأكيدُ وحدانيّة اللّهِ وتفَرُّدِه بالأُلوهيّة عَقِبَ كلّ دليلٍ منَ الأدلّة التي ساقها النّظمُ الحكيم. **ومنها**: جذبُ انتباه المُتلَقّي وحَثُّه على التّأمُّل

والتَّفكّر في مدى ضلالِ هؤلاء المشركين، الذين أشركوا باللّه ما لم يُنزّل به سُلطانًا، فأفاد التَّكرارُ تنبيهَ الأذهانِ لِمحوريَّة هذه القضيّةِ في التّصوّر الإيمانيّ. **ومنها:** توكيدُ ما يجول في نفس المُتلقّي من تَعجُّب واستنكارٍ، ممّا أسهمَ في ترسيخ الفكرةِ في الأذهان، كما أضفى هذا النّسقُ التَّكراريّ إيقاعًا صوتيًّا من خلال النّظم الكريم، فتنجذِبُ النّفس إلى توقُّعه عقبَ كلّ آية، بما يدعو إلى مزيد منَ التّدبُّر والتّفكّر. وعملَ التَّكرارُ كذلك على تلاحم أجزاء الخُطبةِ القرآنيةِ بما يدعو لمزيد منَ اليقين في وحدانيّته سبحانَه.

عِلّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ عمّا قبله:

فَصَلَ النّظمُ الحكيم بين قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ وذلك لشِبه كمالِ الاتّصال بينَ الجُملتين؛ إذ تضمّنتِ الجملةُ الأولى استفهامًا استنكاريًّا حولَ مدى سُخْفِ شِرْكهم وإنكارِهم لوَحدانيّة اللّه ﷻ، واستحقاقِه سبحانَه التَّفرُّدَ بالعبادة والقصد، ثمّ جاءتِ الجملة الثّانية مشتملةً على الجواب، والجوابُ لا يُعطَف على السُّؤال؛ لِما بينهما من ترابط وثيق وصلةٍ قويّة، فكانت الجملةُ الثّانية استئنافًا بيانيًّا؛ لتقرير شِدّة كذبِ هؤلاء المُعاندين، وبُطلانِ دعواهم وإفكِهم[1].

الاستئنافُ البيانيّ مُقرّرٌ لشِدّة كذِبِ هؤلاء المعاندين وبُطلانِ دعواهم

دلالة الفعل ﴿هَاتُواْ﴾:

عبّر النّظمُ الحكيم بفعل الأمر ﴿هَاتُواْ﴾ مُسندًا إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ لِما فيه مِن أمرِ لَهُ ﷺ بتَبْكيتِهِمْ إثْرَ تَبْكيتٍ، أيْ: هاتوا بُرْهانًا عَقْليًّا أوْ نَقْليًّا، يَدُلُّ عَلى أنَّ مَعَهُ ﷻ إلَهًا، أوِ المعنى: هاتوا بُرْهانًا عَلى أنَّ غَيْرَهُ تَعالى يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ مِمّا ذُكِرَ مِن أفْعالِه ﷻ، وتُعُقِّبَ بِأنَّ المُشْرِكينَ لا يَدَّعونَ ذَلِكَ صَريحًا، ولا يَلْتَزِمونَ كَوْنَهُ مِن لَوازِمِ الألُوهيَّةِ، وإنْ كانَ مِنها في الحَقيقَةِ،

لا يستطيعُ الكفّارُ فرادَى أو مُجتمعين أن يأتوا بدليل على صِحّة مزاعِمِهم

(1) بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 462.

فَمُطالَبَتُهم بِالبُرْهانِ عَلَيْهِ لا عَلى صَريحِ دَعْواهم مِمّا لا وجْهَ لَهُ[1].

وفي إسناد الفعل لضمير الجمع مزيدٌ منَ التّحدّي والتّوبيخ والتّقريع، وذلك لأنّهم ليس في مقدورهم فُرادى أو مجتمِعين أن يأتوا بدليل أو شِبه دليل، عقليٍّ أو نقليٍّ، على أنّ معه سبحانَه إلهًا آخَرَ، وفي ذلك توكيدٌ لسُخْف دعواهم، وضعفِ عقولِهم.

سِرُّ إيثارِ الفعل ﴿هَاتُواْ﴾ دونَ غيره:

من مظاهر الإعجاز والتّحدّي القرآنيّ المطالبةُ بالبُرهان على صِدق الدَّعوى

استعمل النّظمُ الحكيم فعلَ ﴿هَاتُواْ﴾ لِما فيه من معاني الجزم والإلزام والشِّدّة في الطّلب، فهو طلبٌ يحملُ في طيّاته معنى الإلحاح، كما أنّ استعمال هذا الفعل في هذا السّياق يوحي بالتّحدّي والتّوبيخ لادّعاءاتِهم الباطلة. ولم يستعمل غيرَه منَ الأفعال التي تدلّ على الطّلب، مثل: (أعطوا) أو (قدّموا)؛ لِما في صيغة ﴿هَاتُواْ﴾ من قوّة وإلحاح. فالفعل (أعطوا) أقلُّ إلحاحًا وأكثرُ لطفًا، كما أنّ الفعل (قدِّموا) أقلُّ مباشرةً وأقلُّ طلبًا للإلحاح الفوريّ. ومن هنا فإنّ استخدام ﴿هَاتُواْ﴾ في سياق التّحدّي وطلبِ البرهان يُعطيه ثِقلًا ومعنًى عميقًا؛ لأنّه يتطلّبُ منَ المخاطَب إثباتَ صدقِه وصدقِ دعواه على الفور، وهذه القوّة في التّعبير تُؤَثِّر أثرًا بالغًا في نفوس المُتلقّين.

فائدةُ إضافةِ البُرهان إلى ضمير المخاطَبين:

من أساليب القرآنِ مجاراةُ الخَصْم في دعواه تمهيدًا لنقضها

عدلَ النّظمُ الكريم في قوله: ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ عنِ استعمال صيغة التّنكير (برهانًا)، إلى إضافَةِ البُرْهانِ إلى ضَميرِ الكافرين، والغرضُ من هذه الإضافة: أنّها تَهَكُّمٌ بِهِمْ؛ لِما فيها مِن إيهام أنَّ لَهم بُرْهانًا، وأنّى لَهم ذَلِكَ؟. وذهب بعضُهم: إلى أنّ الإضافَةَ لِزيادَةِ التَّبْكيت، كَأنَّهُ قيلَ: نَحْنُ نَقْنَعُ منكم بِما تَعُدّونَهُ أنْتُمْ أيُّها الخُصومُ بُرْهانًا يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ، وإنْ لَمْ نَعُدَّهُ نَحْنُ ولا أحَدٌ من ذَوي العُقولِ كَذَلِكَ، ومَعَ هَذا أنْتُمْ عاجِزونَ عَنِ الإتْيانِ بِهِ، وإنَّما المُرادُ الإتْيانُ بِهِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 31.

كُلُّ ذَلِكَ تَهَكُّمًا بِهِمْ، وتَنْبيهًا عَلى أنَّهم أبْعَدوا في الضَّلالِ، وأَعْرَقوا في المُحالِ؛ إذ رَضوا لِأنْفُسِهِمْ بِتَدَيُّنٍ لا يَصيرُ إِلَيْهِ عاقِلٌ، إلّا بَعْدَ تَحَقُّقِ القَطْعِ بِصِحَّتِهِ، ولا شُبْهَةَ في أنَّهُ لا شُبْهَةَ لَهم عَلى شَيْءٍ مِنْهُ(1).

فائدةُ العُدولِ عن (إذا) إلى ﴿إِنْ﴾:

التّشكيكُ في قُدرة الكفّارِ على الإتيان بالبراهين على صِدق دعواهم

في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ عدلتِ الآيةُ الكريمة عنِ استعمال الظّرف (إذا) إلى استعمال أداة الشّرط ﴿إِنْ﴾؛ لأنّها تُستعمل في المعاني المُحتَمِلة الوقوعِ، والمَشكوكِ في حصولها، والموهومةِ والنّادرةِ والمَستحيلة، وسائرِ الافتراضات الأُخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا. وهو ما يفيد معنى الشّكِّ وعدمِ التّأكيد، فأسهمَ استعمالُ هذه الأداةِ في التّشكيك في قدرتهم على الإتيان بدليلٍ أو شِبه دليلٍ على دعاواهم المُتهافتة، وأمّا (إذا) فإنّها موضوعةٌ في الأصل للمقطوع بحصوله، وللكثير الواقع، وعلى هذا سار النّظمُ القرآنيّ(2). والسّياقُ هنا يشير إلى كَذِب هؤلاء وافترائِهم، وعدمِ مَقدرتِهم على الإتيان بدليل على صدق مزاعمِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿كُنتُمْ﴾ مُسندًا إلى الجمع:

عجزُ الكفّارِ عنِ الإتيان ببرهان واحدٍ، برَغْمِ المطالبة والتّحدّي

بعد المَجيء بأداة الشّرط ﴿إِنْ﴾ المفيدةِ للتّشكيك، أورد النّظمُ الحكيم فعلَ الشّرطِ ﴿كُنتُمْ﴾ في زمن الماضي، فنقل زمنَه منَ المُضيّ إلى الحال؛ للإلهاب والتّهييج، بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وفيه تعريضٌ بكَذِبهم وإفْكِهم، وأضاف الفعلُ حرفَ الميم الدّالِّ الدّالَّ على الجمع؛ ليوافقَ حالتَهم الجمعيّةَ، وخَتَمَ بخبر كان، والتّقدير: (إن كنتم صادقين فهاتوا برهانَكم)، فكأنّه قَدّم جوابَ الشّرط على فعله اهتمامًا به؛ لأنّ تقديمَ البُرهان هو مدارُ المُحاجَجَة ولُبِّها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 32، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 200 - 201.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69 - 71.

ولبُّها[1]. والتّعبيرُ بـ (كان) سؤالٌ عن كينونَتهم، أي: هل الصّدقُ خِلّةٌ فيهم؛ فهو تعريضٌ بحالهم؛ إذ لم يكونوا كذلك.

عِلّةُ التّعبيرِ بصفة الصّدق مسندةً إلى الجَمْع:

تأكيدُ كَذِب الكفّار وإثباتُ عَجْزِهم

عبّرتِ الآيةُ الكريمة عن خبر ﴿كُنتُمۡ﴾ بقوله تعالى: ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ وذلك لأنّ منَ البديهةِ العقليّةِ أنّ مَن أتى بدليل مُطابقٍ لدعواه، مُؤكِّدٍ لها، يُعدُّ مِن زُمرة الصّادقين، ولمّا عَجَز الكفّارُ عنِ الإتيان بدليلٍ على نفي البعثِ، أو وجودِ رازقٍ غيرِ اللّه سبحانَه، آثَرَ النّظمُ الحكيم في هذا التّعبيرَ في هذا المقام بـ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ تقريعًا لهم على كَذِبهم، وتأكيدًا لتهافُت دعواهم وإثباتًا لعجزهم.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإبداء والخَلْق والجَعْل والصُّنْع:

الخَلْقُ إنشاءٌ على غير مثال سبقَ، والجَعْلُ تصييرٌ وتطويرٌ، والإبداءُ إبرازٌ

الخَلْق: يدور معناه حولَ الإيجاد والتّكوين منَ العدم، كما أنَّ فيه معنى الإبداع والإتقانِ في التّكوين. أمّا الإبداء: فيُراد بهِ الإظهارُ أوِ الإبرازُ لِما كان خَفيًّا أو غيرَ ظاهر.

فالخَلْقُ والإيجاد منَ العدم مقابِلُ الإظهار، ويتضمّن معنى التّقدير والتّنظيم، والاستمراريّةِ والدّيمومَة. أمّا الإبداءُ فهو إظهارُ شيءٍ كان موجودًا بالفعل، أو كان خفيًّا، فهو يتضمّن مفهومَ الكَشْف والإبراز دونَ الخَلْق، ويحملُ دلالةَ اللّحظيّة والتّأقيت[2].

أمّا الجَعْلُ: فيكون عَنْ سَبَبٍ وتَصْيير بالتَّطْوير في أطْوارِ الخَلْق، بما يُقيمُهُ مِنَ الأَسْبابِ، إذ إنّ (جعل) لفظٌ عامٌّ في الأفعال، وهو أعمُّ من (فَعَل) و(صَنَع). وهو فعل عامٌّ يحمل معانيَ كثيرةً، منها: الصُّنع، وإيجادُ الشَّيء مِنَ الشَّيء، والتّبديلُ، والاعتقاد، والظّنُّ، والشُّروعُ في الشَّيء، والحُكمُ بالشّيء على الشَّيء، والنِّسبةُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 31.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلق) و(بدأ).

والتّشريفُ أيضًا، والغالبُ على النّظم القرآنيّ أنّه إذا اجتمع (الخلق) و(الجعل) تقدّم الخلقُ على الجعل؛ لأنّ الخَلْقَ إيجادٌ، والجَعْلُ والجَعْلَ شيءٌ من شَيء، فهو منَ الخَلْق[1].

الرِّزق والإعطاء والهِبَة:

الرِّزقُ انتفاعٌ، والإعطاءُ اتّصالٌ إلى الآخذ، والهبةُ تقتضي التّمليكَ

الرِّزقُ: اسْم لِما يَمْلِكُ صاحبُه الاِنْتِفاعَ بِهِ، فَلا يجوز منازعتُه فيهِ لكَونه حَلالًا لَهُ، ويجوز أن يكون ما يغتذيه الإنْسان حَلالًا وحرامًا، إذْ لَيْسَ كلُّ ما يغتذيه الإنْسان رزقًا لَهُ.

وأمّا الإعْطاءُ: فهوَ اتّصال الشَّيْء إلَى الآخِذ لَهُ. والهِبَة: تَقْتَضي التَّمْليكَ، فَإذا وهبتَه لَهُ فقد مَلَّكْتَهُ إيَّاه. ثمَّ كَثُر اسْتِعْمالُ الإعْطاء حَتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمْليك، فَيُقال: أعطاهُ مالًا، إذا مَلَّكَهُ إيّاه[2].

ولمّا كان المُرادُ بالرّزق في الآية ما يَهَبُهُ اللّهُ تعالى منَ المَطر والنّبات والأموال، وبغير ذلك من ألوان النّعم التي لا تُحْصَى، التي فيها نفعُ الإنسان، ناسبَ لفظُ الرّزق دونَ الإعطاء والهِبَة.

الإعادة والبَعث:

البَعثُ تحفيزٌ وإيقاظ، والإعادَةُ خَلْقٌ بعدَ الموت

يدور معنى البعثِ حولَ الإرسال والتّحفيز واليَقظةِ، يقال: بَعَثَ الشّيءَ، أي: أحياه وأقامَه وأثارَه، وغالبًا ما يُستعمل البعثُ في السّياق القرآنيّ لإحياء الموتى وإخراجِهم من قبورهم يومَ القيامة.

أمّا الإعادةُ: فيُقْصَد بها الرّجوعُ إلى الشّيء مَرّة أُخْرَى بعد تركه، أو تَكرارِ فِعْلِه، وعادةً ما يُعَبِّر القرآنُ بالإعادة عنِ الإشارة إلى إعادة خَلْقِ الإنسان بعد الموت بهيئته الأولى نفسِها؛ لتأكيد قدرة اللّه على إعادة خَلْق الإنسان بعد موته.

ويُفرِّقُ الكَفويُّ بينَ البَعثِ والإعادة؛ بأنَّ البعثَ يتعلّق بالقيامة

(1) السّامرائيّ، برنامج لمسات بيانيّة، وحسام النّعيميّ، برنامج من بيان القرآن.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 167.

والإحياء بعدَ المَوت، في حين تشمل الإعادةُ نطاقًا أوسعَ يمكن أن يعني إعادةَ شيءٍ إلى حالته السّابقة، سواء في الحياة الدّنيا أوِ الآخِرة[1].

البُرهان والدّليل:

التّعبيرُ بالبُرهان أقوى وأظهرُ منَ التّعبير بالدّليل

البُرهان: هو الشّيء الواجبُ تقديمُهُ لإثبات الصّدق، ولا يكون إلّا قولًا يشهدُ بصِحّةِ الشّيء. أمّا الدّليل: فكأنْ تقولُ: دلالتي على صِحّة مَذهبي كذا، فتأتي بقول تحتجُّ به.

ومنَ الفروق بينهما: أنّ الدّليل يكون وضعيًّا قد يمكن أن يُجعل على خِلاف ما جُعل عليه دلالةُ الاسم على المُسمّى، وأمّا دلالةُ البُرهان فلا يمكنُ أن توضَع دلالةً على خِلاف ما هي دلالةٌ عليه، ومن ذلك يتبيّنُ أنَّ التّعبير بالبُرهان أقوى وأظهرُ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث) و(عود).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 72.

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النّمل: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أدلَّة الألوهيّة والتّوحيد اختصاصُه سبحانه بعِلْم الغيب

بعد أن فَصَّلَتِ الآيةُ السّابقة البراهينَ السّاطعةَ على قدرة اللّه سبحانه وأنّه وحدَه سبحانه المُختصّ بأمر الخَلْق والبعث والرّزق، شرعتْ هذه الآية في بيان أنَّهُ سبحانه كما هو المُخْتَصُّ بالقُدْرَةِ المطلقة، فَكَذَلِكَ هو وحده المُخْتَصُّ بِعِلْمِ الغَيْبِ، فلَمّا أَبْطَلَتِ الآياتُ السّابِقَةُ إلَهيَّةَ أَصْنامِ المُشْرِكينَ بالأَدِلَّةِ المُتَظاهِرَة، فانْقَطَعَ دابِرُ عَقيدَةِ الإِشْراكِ؛ ثُنِيَ عِنانُ الإِبْطالِ إلى أَثَرٍ من آثارِ الشِّرْكِ، وهو ادِّعاءُ عِلْمِ الغَيْبِ بِالكَهانَةِ وإِخْبارِ الجِنِّ، كَما كانَ يَزْعُمُهُ الكُهّانُ والعَرّافونَ وسَدَنَةُ الأَصْنام، ويُؤْمِنُ بِذَلِكَ المُشْرِكون، أو أنّ الكُفّار سألوا الرَّسول ﷺ عَنْ وقْتِ القيامَةِ الَّتي وُعِدوها وأَلَحّوا عَلَيْهِ في ذلك، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ﴾ الآيَةَ، فَمُناسَبَتُها عَلى هَذا لِما قَبْلَها مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أَتَمُّ مُناسِبَةٍ[(1)]؛ إذ "بعدَما حقّق تفرّدَهُ تعالى بالأُلوهيّةِ ببيان اختصاصه بالقُدْرة الكاملة التّامة، والرّحمةِ الشّاملة العامّة، عقّبه بذِكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصُه بعِلْمِ الغيبِ؛ تكميلًا لما قبلَه وتمهيدًا لما بعدَه من أمرِ البعثِ"[(2)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: (غيب) أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 448، وأبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 469، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 19.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 296.

العُيونِ، مِنْ ذَلِكَ الغَيْبُ: ما غابَ، مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه[1]. ويُقال للشّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ[2]. والمعنى المِحوريُّ: الاختفاءُ استتارًا بكثيف في أثناء أو عُمْق[3]. والغيبُ في الآية: ما استأثر اللّهُ بعلمه، وحجبَ عنه خَلْقَه، والسّاعةُ من ذلك[4].

2) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: (شعر) أَصْلانِ مَعْروفانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى ثَباتٍ، والآخَرُ عَلَى عِلْمٍ وعَلَمٍ. ومِنَ الثّاني: الشِّعارُ: الَّذي يَتَنادَى بِهِ القَوْمُ في الحَرْبِ لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والأَصْلُ قَوْلُهُمْ: شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إذا عَلِمْتَهُ وفَطِنْتَ لَهُ. ولَيْتَ شِعْري، أَيْ: لَيْتَني عَلِمْتُ[5]. والمعنى المِحوريّ: دقاقٌ كثيرة تنفذُ مِنَ البدن أوِ الأرض بامتداد، ومنه: (الشّعور) جنسٌ مِنَ العِلْم لطيفٌ دقيق، أخذًا من نفاذ الشَّعْر الدّقيق. والشِّعر والشُّعور: العِلْمُ الدّقيق أوِ الفطنة[6]، ويُطلَق الشُّعورُ على الإدراك بالحواسّ الخمس، وعلى مبادئ الإدراك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ما يَدْرون وما يعلمون[7].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

يأمر اللّهُ ﷻ نبيَّه ﷺ أن يقول للمشركين المعاندين ولجميع الخَلْق: لا يعلم أحدٌ من أهل السَّموات والأرض الغيبَ إلّا اللّه، فإنّه المُنفرِد بذلك وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 34]. وعن عائشة ﵂ قالت: "وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رسول اللّه ﷺ يُخْبِرُ بما يَكونُ فِي غَدٍ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللّه الفِرْيَةَ. واللّه يَقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾"[8]. ولمّا نفى عنهم علمَ الغيب على العموم، نفى عنهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(2) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غيب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شعر).
(7) الرّاغب، المفردات: (شعر).
(8) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (457).

علمَ الغيبِ المَخصوصَ بوقت السّاعة، فصار منتفيًا مَرَّتين، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يدري أهلُ السَّمَوات والأرض بوقت السّاعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187]، أي: ثقل علمُها على أهل السّموات والأرض، فلا يشعُر الكفّار وغيرُهم في أيّ وقتٍ يكون البعث للحساب والجزاء، وإنّما تأتيهم السّاعةُ فجأة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الجملة:

انفرادُه سبحانه بعلم الغيب برهانٌ عظيمٌ من براهين الألُوهيّة

فُصِلَتِ الآية: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ عن سابقتها؛ لشبه كمالِ الاتصال بينهما، فوقعتِ الآيةُ التّالية استئنافًا بيانيًّا؛ إذِ انتقل الذِّكْر الحكيم إلى بيان برهانٍ آخرَ من براهين التّوحيد وإثباتِ الألُوهيَّة، وهو اختصاصُه سبحانَه بعِلْم الغيب، دون سائرِ مَنْ في السّماوات والأرض، وفي هذا الأسلوب منَ اللُّطف والدِّقّة ما يَستثير عقولَ المُتلقّين لتأمُّل هذه الحقيقة الدّامغة، التي تُفضي إلى تثبيت الإيمان في نفوس المؤمنين، وتَحُثّ عقولَ الكفّار المُعانِدين على تأمّلها والتّفكّرِ فيها.

دلالةُ التّعبير بالأمر، والمرادُ بالمخاطَب به:

التّفرُّد بعِلْم الغيب، يقتضي التّفرّدَ بالأمر والنّهي

ابتدأ النّظمُ الحكيم الآيةَ بفعل الأمر ﴿قُل﴾؛ لما فيه من إعلانِ امتثال النّبيِّ ﷺ في الصّدع بما بيَّنه اللّهُ ﷻ منَ الحُجَجِ الباهرة، والأدلّةِ السّاطعة التي لا يَرُدُّها إلّا مكابرٌ جاحدٌ.

دلالةُ التّعبير بالعِلْم في الآية:

استمراريّةُ علم الله سبحانه بالغيب أبدًا دونَ انقطاعٍ أوِ انفصال

عبّر النّظمُ الحكيم بفعل العِلْم دونَ غيرِه منَ الأفعال المفيدة للعِلْم مثل عرف، فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾؛ وذلك لبيان إحاطةِ العِلْم الإلهيّ بكلّ ما في السّماوات والأرض، فالفرقُ بَينَ العِلْم والمَعْرفة، أَنَّ المَعْرفَة إدْراكُ الجُزئيّات، وهي تُستعمل في العِلْم القاصر المُتوصَّلِ

إليه بتَفكُّرٍ وتَدَبُّر، أمّا العِلْم فهو إدْراكُ الكلّيّات، وهو أَكثرُ وأَوسع إطلاقًا، ولِهَذا لا يجوز أَنْ يُقال: اللّهُ عارِف، كَما يُقال: عالم[1]. وقد جاء الفعل بصيغة المضارعة؛ للدّلالة على استمراريّة العِلْم الإلهيّ بالغيب أبدًا، دونَ انقطاع، والمقصودُ مِن تضافُر التّعبير بفعل العِلْم في صيغة المضارعة إبطالُ أثَرٍ مِن آثارِ الشِّرْك، وهو ادِّعاءُ عِلْم الغَيْب بِالكَهانَة وإخْبارِ الجِنِّ، كَما كانَ يَزْعُمُهُ الكُهّانُ والعَرّافونَ وسَدَنَةُ الأَصْنام[2]. كما أنَّ نفيَ العِلْم هنا تأكيدٌ لانحصار علم الغَيب في العِلْم الإلَهيّ وحْدَه دونَ غيره، ردًّا على المشركين الذين بالغوا في طلب معرفة العِلْم بموعد الآخِر، ظنًّا منهم أنّهم بذلك يُبْطِلون نبوّة الرَّسول ﷺ، فجاءتِ الآيةُ ردًّا على مزاعمهم وإفْكِهم؛ لحصر العِلْم بها عند اللّه وحدَه.

فائدةُ العُدول عن (ما) إلى ﴿مَن﴾:

علـمُ الغيبِ محجوبٌ عن جميع مَنْ في السّماوات والأرض

عَبَّرَ النّظمُ الحكيم بأداةِ العُقَلاءِ ﴿مَن﴾ فقال تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يُعبّر بأداةِ غيرِ العقلاء (ما)؛ وذلك لِئَلّا يَخُصَّها مُتَعَنِّتٌ بما لا يَعْقِلُ[3]. كما أنّ في استعمال ﴿مَن﴾ بدلًا عن (ما) تنزيلًا لِما لا يعقل منزلةَ مَنْ يعقلُ، وذلك بسبب وضوحِ الأدلّة القاهرة، ولِما تسوق إليه الفطرةُ السّليمة منَ الإقرار بوحدانيّته سبحانَه.

و﴿مَن﴾ هنا للعاقل، وإذا انتفى الغيبُ عنِ العُقَلاء، فهو عن غيرهم أنفَى، وتشملُ العقلاءَ جميعًا، مَن يكونون في السّماوات والأرض، فيدخلُ في العموم الملائكةُ، والجنّ والإنْس[4].

بلاغةُ القَصْر في الآية:

قَصرَ عِلْمِ الغيب على الله سبحانَه دونَ سِواه

نفتِ الآيةُ الكريمة علمَ الغيب عن جميع من في السّماوات

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 47.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 19.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 201.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5475 - 5476.

والأرض، وقَصَرته على اللّه سبحانه وحدَه دونَ شريكٍ له فيه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، وذلك باستعمال أسلوبِ القَصْر بـ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ و﴿إِلَّا﴾. وللعلماء آراءٌ في ﴿إِلَّا﴾ في الآية، فمنهم من ذهب إلى أنّها أداةُ استثناء، وأنَّ الاستثناءَ متّصلٌ، أو أنَّها بمعنى (لكن) والاستثناء منقطع، أو أنّها بمعنى (غير) وهي مع لفظ الجلالة صفةٌ لـ﴿مَن﴾. ومنهم مَن ذهب إلى أنّ ﴿إِلَّا﴾ أداةُ حَصْر، والاستثناء مُفَرّغ[1]. وعلى جميع هذه الآراء فقد أجمعت كلمتُهم على أنّ المراد بالاستثناء في الآية الكريمة هو حَصْرُ عِلْم الغيب وقَصْرُه على اللّه وحْده دونَ سواه.

سِرُّ الإطنابِ في الآية:

مـن أسـرار أساليبِ القرآن الإطـنـابُ في عـرض القضايا الكبرى في علم العقيدة

المُتبادِرُ للأذهان من علم العربيّة أنّ نظم الآيةِ الكريمة لو جاء: (قل لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلّا اللّه) لكان وافيًا بالمعنى المُراد، ولكنّ النّظم الحكيم عدَلَ عن هذا الإيجاز في العبارة إلى نوع منَ الإطناب لسرٍّ من أسرار الأساليب القرآنيّة، بأن ذَكَر ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بدلًا من (أحد)، برغم أنَّ المَخْلوقاتِ لا يَعْدونَ أنْ يَكونوا إمّا من أَهْلِ السَّماواتِ أَوْ من أَهْلِ الأَرْضِ؛ وذلك لِانْحِصارِ عَوالمِ المَوْجوداتِ في ذَلِكَ كما هو معلوم عقلًا ونقلًا؛ ولكانَ قَوْلُهُ: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ في قوَّةِ (لا يَعْلَمُ أحَدٌ الغَيْبَ)، ولَكِنّ النّظمَ المُعجز أَطْنَبَ الكلامَ؛ لِقَصْدِ التَّنْصيص عَلى تَعْميم المَخْلوقاتِ، بحيثُ لا يغيب منها مخلوقٌ من المخلوقات كُلِّها، وذلك لِسرٍّ بديع وهو أنَّ مَقامَ عِلْم العَقيدَةِ مَقامُ بيانٍ يُناسِبُهُ الإِطْنابُ[2]، حتّى تمتلئَ النّفسُ يقينًا بانحصار علمِ الغيب عند اللّه وحدَه دونَ سواه.

---

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 22 - 23.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 19.

عمومُ علم الله سبحانه بالغيب في جميع مُلْكه

فائدةُ الطّباقِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جاء الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُبْرزًا لعموم عِلْمه سبحانَه بالغيب وحدَه، وأنّه لا أحدَ في السّماوات باتّساعها، والأرضِ بتنوّع مخلوقاتِها، داخلٌ في قضية عِلْم الغيب، بل هي محصورةٌ في عِلْم الله ﷻ.

تأكيدُ مفارقةِ عِلْمِ الله سبحانه لعِلْم غيرِه مِنَ المخلوقات

فائدةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

جاءت كلمةُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في الآية الكريمة جمعًا، على خلاف الآيةِ السّابقة؛ لأنّ الحديث فيها عن عِلْم الله سبحانه، ومن مُسَلّمات عِلْمه الذي تعبَّدَنا به أنّ السّماواتِ متعدّدةٌ وليست سماءً واحدةً، كما يتبادر إلى حواسّ الإنسان عامّةً، وكما يتذرّع المشركون خاصّةً، فجاء النّظمُ هنا بالجمع لتأكيد المفارقةِ بين عِلْمه ﷻ وعِلْم غيره منَ المخلوقات.

نفيُ عِلْم الغيبِ بينَ العموم والجنس والاستغراق

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾:

تعدّدتِ الآراءُ في نوع اللّام في كلمة ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾، فمنهم من قال: هي للعموم، ومنهم من قال: هي للجنس، ومنهم من قال: هي للاستغراق، كما تعدّدت أقوالُ المفسّرين في بيان المُراد بالغيب، والظّاهرُ أنّه عُمومُ الغَيْبِ، وقيلَ: المُرادُ بِهِ السّاعَةُ، وقيلَ: ما يُضْمِرُهُ أهْلُ السَّماواتِ والأرْضِ في قُلوبِهِمْ، وقيلَ: المُرادُ جِنْسُ الغَيْبِ، ويَلْزَمُ من نَفْيِ عِلْمِ جِنْسِهِ عَنْ غَيْرِهِ ﷻ، نَفْيُ عِلْمِ كُلِّ فَرْدٍ مِن أفْرادِهِ عَنْ ذَلِكَ الغَيْرِ، ولا يَضُرُّ في ذَلِكَ أنَّ الآيَةَ لا تَدُلُّ حينَئِذٍ عَلى ثُبوتِ عِلْمِ كُلِّ غَيْبٍ لَهُ ﷻ بَلْ قُصارى ما تَدُلُّ عَلَيْهِ ثُبوتُ عِلْمِ جِنْسِ الغَيْبِ لَهُ سُبْحانَهُ؛ لِأنَّهُ المَنفيُّ صَريحًا عَنِ المُسْتَثْنى منهُ، ولا يَلْزَمُ من ثُبوتِ عِلْمِ هَذا الجِنْسِ ثُبوتُ عِلْمِ كُلِّ فَرْدٍ من أفْرادِهِ؛ لِأنَّها لَمْ تُسَقْ لِلاسْتِدْلالِ بِها عَلى ذَلِكَ، وكَمْ وكَمْ مِن دَليلٍ عَقْليٍّ ونَقْليٍّ يَدُلُّ عَلَيْهِ. واخْتارَ بَعْضُهُمُ الاسْتِغْراقَ، أيْ: لا يَعْلَمُ مَن في السَّماواتِ والأرْضِ

كُلَّ غَيْبٍ إلّا اللّه، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ لِأَنَّهُ الأَوْفَقُ بِالمَقام، واعْتُرِضَ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكونَ مِن أَهْلِ السَّماواتِ والأَرْضِ مَن يَعْلَمُ بَعْضَ الغُيوبِ، وظاهِرُ كَلامِ كَثيرٍ مِنَ الأَجِلَّةِ يَأْبى ذَلِكَ[1].

إيثارُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ في ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

القضايا العقديّةُ الكبرى تحتاجُ إلى ذِكْرِ الاسم الجامع (الله)

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في قوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، ولم يعبّر بأيّ اسمٍ آخرَ من أسمائه الجليلة؛ وذلك لأنّ منَ الأساليب القرآنيّة الحرصَ على التّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في القضايا العقديّة الكلّيّةِ الكُبرى، تأكيدًا لخصائص هذا الاسم العظيم، الذي هو عَلَمٌ على الذّات الواجبِ الوجودِ، المُستجْمِعِ لجميع صفاتِ الكمال الإلَهيّة، المَنعوتِ بنعوت الرّبوبيّة، المُنفردِ بالوجود الحقيقيّ، فهو اسمٌ للمَوجود الحَقّ، الواجبِ الوجودِ، المُستَحِقِّ للعبادة، وقد صرح جمعٌ مِنَ العلماء بأنّه اسمُ اللّه الأعظم، ولم يتّسمَّ به غيرُه، ولذلك لم يُثَنَّ ولم يُجمع، وهو أحدُ تأويلَيْ قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، أي: هل تعلمُ مَن تسمّى باسمه الذي هو (اللّه). ولأنّ اسم ﴿ٱللَّهُۚ﴾ عَلَمٌ دالٌّ على الإله الحقّ دلالةً جامعةً لجميع الأسماء الحسنى، فهو يوصف بجميع الصّفات ولا يوصَف به غيرُه؛ لأنّه الغايةُ لجميع الأسماء، فكلُّ اسمٍ بعدَه لا يتعرّفُ إلّا به[2].

دلالةُ النّفي بـ (ما) في ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾:

تأكيدُ نفيِ عِلْمِ الغيبِ عن غير اللهِ عمومًا وخصوصًا

بعد أن نفتِ الآيةُ عِلْمَ الغيب عن غير اللّه على وجه العموم، جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ لنَفيِ عِلْم الغيب المخصوص بوقت السّاعة، فصار منتفيًا مرّتين، مَرّةً في النّفي العامّ، ومَرّةً أُخرى في النّفي الخاصّ، وما ذاكَ إلّا لأنّ قضية عِلْم الغيب من

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 73.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أله).

القضايا التي ضلّت فيها الأفهامُ، وكثُرت فيها الأباطيلُ والأوهام، فجاء النّظمُ الحكيم ليَقطعَ القولَ في هذه القضية الحاسمة، ويَفْصلَ فيها النزاع.

دلالةُ الفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

نفيُ خاصّيّةِ الشّعور عن الكافرين المعاندين بسبب ضعفِ عقولهم وسوءِ إدراكِهم

جاء النّظمُ الحكيم بنفي عِلْم هؤلاء المشركين بالغيب، الذي يطالبون به رسولَ الله ﷺ على وجه العموم، ثمّ أَرْدَفَ هَذا الخَبَرَ ببلاغة الإدْماج، وهو تضمين كلام سيق لمعنًى معنًى آخرَ[1]، فأدْمَج في انْتفاءِ عِلْمِ هَؤُلَاءِ الزّاعمينَ عِلْمَ الغَيْبِ أنَّهم لا يَشْعُرونَ بوَقْتِ بَعْثِهِمْ بَلْ جَحَدوا وُقوعَهُ؛ إثارَةً للتَّذْكير بالبَعْث لِشدَّة عِنايَةِ القُرْآن بإثْباته، وتَسْفيه الَّذينَ أنْكَروهُ. فَذَلكَ مَوْقِعُ قَوْلِه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، أيْ: إنَّ الَّذينَ يَزْعُمونَ عِلْمَ الغَيْب ما يَشْعُرونَ بوَقْتِ بَعْثِهِمْ[2]. وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ الفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنّ الشّعورَ لغةً إنّما يتركّز في الأساس على الإدراك العقليّ، فنفَى عنهم القرآنُ هذا الشّعورَ بموعد البعث حتّى وقتِ قيامِه؛ تبكيتًا لهم على ضعف عقولِهم وسوءِ إدراكِهم. وأمّا ورودُ الفعل في صيغة المضارعة فلتَأكيدِ نفْيِ شعورِهم بالبعث باستمرارٍ بسبب تبلُّدِهم؛ لأنّهم في عَماية منَ الشَّكّ والضَّلال كما ستُفَصّل الآيةُ التّالية. وضَميرُ الجَمْعِ لِلْكَفَرَةِ وإنْ كانَ عَدَمُ الشُّعورِ بما ذُكِرَ عامًّا؛ لِئَلّا يَلْزَمَ التَّفْكيكُ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يُذْكَرُ بَعْدُ مِنَ الضَّمائِرِ الخاصَّةِ بِهِمْ قَطْعًا، وقيلَ: الكُلُّ لِـ ﴿مَن﴾، وإسْنادُ خَواصِّ الكَفَرَةِ إلى الجَميعِ مِن قَبيلِ: بَنو فُلانٍ فَعَلوا كَذا، والفاعِلُ بَعْضٌ مِنهُمْ[3].

بلاغةُ إيثارِ اسمِ الاستفهام ﴿أَيَّانَ﴾ دون (أين):

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ اسمُ الاستفهام

(1) بسيوني فيود، علم البديع، ص: 259.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 20.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 296، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 41.

نفيُ الشّعور بزمن البعثِ مناسبٌ لسؤالهم عن وقت قيامِ السّاعة

﴿أَيَّانَ﴾ يأتي في اللّغة بمعنى (متى)، وهو موضوعٌ للسّؤال عنِ الزّمن، وهو اسمُ استفهام مبنيٌّ لتضمُّنه معنى الوقت، جامدٌ غيرُ متصرّفٍ، مركّبٌ من: (أيّ) الاستفهاميّة، و(آن) وهو الوقت، ثمّ خفِّفت (أي)، وقُلِبت همزة (آن) ياءً ليتأتّى الإدغامُ، فصارت ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى: أيُّ زمن[1]، وهي مَعْمولَةٌ لِـ﴿يُبْعَثُونَ﴾، والجُمْلَةُ في مَوْضِعِ النَّصْبِ بِـ﴿يَشْعُرُونَ﴾، وعُلِّقَتْ ﴿يَشْعُرُونَ﴾ لِمَكانِ الاسْتِفْهامِ. وقد عدلَ النّظمُ الحكيم عنِ اسم الاستفهام (أين) إلى اسم الاستفهام ﴿أَيَّانَ﴾؛ لأنَّ سؤالَهم كان عن أوان وقوعِ السّاعة تحديدًا، فناسبَ المقامَ.

دلالةُ الفعلِ ﴿يُبْعَثُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

التّذكيرُ بالبعث تورّكٌ على المشركين المُنكرين له وتعييرٌ لهم

لمّا كان يومُ البعث هو اليومُ الَّذي يقوم فيها الخَلْقَ إلى الحساب، أشارتِ الآيةُ الكريمة إلى كذب هؤلاء المُعاندين وجَهْلِهم بوقت البعث أو بغيره، ممّا حجَبَه اللّهُ عنهم. والضّميرُ في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للكفرة كما هو في ﴿يَشْعُرُونَ﴾، وإن كان غيرُهم داخلًا فيهم، والتّعبيرُ بهذا الفعل دونَ غيره تَوَرُّكٌ وتَعْيِيرٌ لِلْمُشْرِكِينَ؛ فَإنَّهم لا يُؤْمِنونَ بِالبَعْثِ، بَلْهَ شُعورُهم بِوَقْتِهِ[2]. وقد جاء الفعل مبنيًّا للمفعول، وكان الظّاهر أن يُبْنَى للفاعل، فيكون النّظمُ: (وما يشعرون أيان نبعثهم)؛ لأنّ الخطاب منَ اللّه ﷻ للمشركين، ولكنّ النّظمَ الحكيم عدلَ إلى صيغة المبنيّ للمفعول؛ لتوجيه النّظر إلى حَدَثِ بَعْثِ الخَلْق يومَ القيامة؛ إشعارًا بعَظَمة يوم البعث وهَوْلِه.

الفروقُ المُعجَميّةُ:

الغيب والآخِرة:

عمومُ الغيب وخصوصُ الآخِرة

الغيبُ: هو كلُّ ما استأثر اللّهُ بعلمه، وحجبَ عنه خَلْقَه من أحوال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 201.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 21.

الدّنيا والآخرة، كالقدر، والجنّة والنّار، والبعث بعد الموت، وأحوالِ يوم القيامة، وملائكتِه وكتبِه ورسلِه.

وأمّا الآخرة: فهي مؤنّثُ الآخر، وهو اسم يُقابَل به الأوّل، موضوعٌ للنّهاية؛ كما أنَّ مقابِلَه للبداية، مشتقّ من أَخَرَ يَأْخِرُ، والأخير والأَخيرة بمعنى الآخِر، والآخِرة. ويُعبّر بالدّار الآخرة عنِ النّشأة الثّانية؛ كما يُعَبّر بالدّار الدّنيا عنِ النّشأة الأولى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: 64]، وربّما تُرك ذكرُ الدّار؛ كقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: 16][1]. ولمّا كانتِ الآخرةُ من أمور الغيب الخاصّةِ التي استأثر اللّٰهُ بعلمها، فقد جيءَ بها هنا؛ لأنّها منَ الخاصّ، والغيبُ منَ العامّ.

الشّعور والإحساس:

الشّعورُ متعلّقٌ بالأمور العقليّة والعاطفيّة، أمّا الإحساسُ فمتعلّقٌ بالحواسّ غالبًا

الشّعورُ: جنسٌ منَ العِلْم لطيفٌ دقيقٌ، أخذًا من نفاذ الشَّعْر الدّقيق. والشِّعْرُ والشُّعور: هو العِلْمُ الدّقيق أوِ الفِطْنة، ويُطلَق الشُّعور على الإدراك بالحواسّ الخَمس، وعلى مبادئ الإدراك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يدرون وما يعلمون، ويغلب أن يكون في الأمور العقليّة والعاطفيّة.

وأمّا الإحساسُ: فمتعلّقٌ بالحواسّ الظّاهرة في الأغلب، ويجوز أَن يدْرِكَ الإنْسانُ الشَّيْءَ وإن لم يحسَّ بِه، كالشّيء يُدْرِكهُ ببصره ويغفلُ عَنهُ، فَلا يعرفهُ. وقال أهلُ اللُّغَة: كلُّ ما شَعرت بِهِ فقد أحسَسْتَه، ومَعْناهُ: أَدْرَكْتَهُ بحسِّك، وفي القُرْآن: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وفيه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] أي: بإحساسكم[2]. ولمّا كان البعثُ مخفيًّا لا يعلمه إلّا اللّٰه، عَبَّر عن نفي إدراكه بالشُّعور؛ ليَنفيَ العِلْمَ به بالحَواسّ الخَمْس مُطلقًا.

---

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (آخر) و(غيب).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 90.

البَعث والنّشور:

البعثُ سابقٌ على النّشور

بعثُ الخَلْق: اسمٌ لإخراجهم من قُبورهم إلَى الموقف، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، والنّشور اسْمٌ لظُهور المبعوثين وظُهورِ أعمارِهم لِلْخَلائِق، ومِنْه قَوْلك: نشرت اسْمَكَ، ونشرت فَضيلَة فلانٍ، إلّا أنّه قيل: أنشر اللّهُ المَوْتَى بِالألف، ونَشرتُ الفَضيلَةَ والثَّوْبَ للْفَرْق بَينَ المَعْنَيين[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]. وعبّر بـ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ لأنهم يَنفون البعثَ ابتداءً، وهو الإخراجُ منَ القُبور، وهي مرحلةٌ سابقة للنّشر بظُهور المبعوثين وأعمارِهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 289.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ [النّمل: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيلُ القولِ في ضلال المشركين، وتخبُّطِهم في أمر البعث خاصّةً والآخرة عامّةً

بعد أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقة مدى ضلالِ هؤلاء المُكذِّبين الذين يَدّعون عِلْمَ الغيبِ وموعدَ قيام السّاعة، أوِ الذين يسألون تعنُّتًا ومكابرةً - شرعتِ الآيةُ في تفصيل ضلالهم وإبطالِ مزاعمِهم، كما جاء في الخبر عن عبد اللّه بن عبّاس قال: قال جَبَل بن أبي قُشَيْرٍ وسَمَوَّلُ بنُ زيد لرسول اللّه ﷺ: أخبِرنا متى السّاعة إن كنتَ نبيًّا كما تقول، فإنّا نعلمُ ما هي؟ فأنزَل اللّه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ [الأعراف: 187] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء لا عِلْمَ لهم بها، وأنّهم لا يشعرون بها حتّى وقتِ البعثِ، ثمّ شرعتْ هذه الآيةُ في تفصيل مدى اضطرابهم وشكِّهم وضلالهم في أمر الآخرة ضلالًا بعيدًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: (درك) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ لُحوقُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ ووُصولُهُ إلَيْه. يُقالُ: أَدْرَكْتُ الشَّيْءَ أُدْرِكُهُ إدْراكًا، وتَدارَكَ القَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ. والمعنى المِحوريّ لمادة (درك): لحاقٌ أو تعلّقٌ بطرَفِ الشّيء أو أقصاه[2]. و﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بِهَمْزَة وصْلٍ في أَوَّلِه وتَشْديد الدّالِ، عَلى أنَّ أَصْلَهُ (تَدارَكَ)، فَأُدْغِمَتْ تاءُ التَّفاعُلِ في الدّالِ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِما بَعْدَ أنْ سَكَنَتْ واجْتُلِبَ هَمْزُ الوَصْلِ لِلنُّطْقِ بِالسّاكِنِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 292، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 449، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 202.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (درك).

والأصلُ في معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾، استحكم وتكامَل[1]. فالمعنى في الآية: أنّه تتابع عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ وتواطأَ حينَ حَقَّتِ القيامَةُ[2].

2) ﴿شَكٍّ﴾: (شكك) أَصْلٌ واحِدٌ مُشْتَقٌّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وهوَ يَدُلُّ عَلَى التَّداخُلِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: شَكَكْتُهُ بِالرُّمْحِ، وذَلِكَ إذا طَعَنْتَهُ فَداخَلَ السِّنانُ جِسْمَهُ[3]. ومِنْ هَذا البابِ الشَّكُّ، الَّذي هوَ خِلافُ اليَقينِ، وهو اعتدالُ النّقيضين عند الإنسانِ وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتَين متساويتين عندَ النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشّيء، هل هو موجود أو غيرُ موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغَرض الذي لأجله أوْجد، والشَّكُّ: ضربٌ منَ الجَهْل، وهو أخصّ منه؛ لأنّ الجَهْل قد يكون عدمَ العِلْم بالنّقيضين رأسًا، فكلُّ شَكٍّ جهلٌ، وليس كلّ جهل شكّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾ [هود: 110]، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدّخان: 9][4].

3) ﴿عَمُونَ﴾: (عمي) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ. مِنْ ذَلِكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِما[5]. والفِعْلُ مِنْهُ عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ورَجُلٌ عَمٍ، إذا كانَ أَعْمَى القَلْبِ؛ وقومٌ عمون، جَمْعُ (عَمٍ)، وهو على زنة (فَعِل) مِنَ العَمى، وصاغوا لَهُ مِثالَ المُبالَغَةِ لِلدّلالَةِ على شِدَّةِ العَمى، وهو تَشْبيهُ عَدَمِ العِلْمِ بِالعَمى، وعادِمُ العِلْمِ بِالأعْمى[6]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي: بل هم منَ العِلْم بقيامها عَمون[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللهُ سبحانه في هذه الآية حقيقةَ موقفِ الكفّار الذين يدَّعي بعضُهم عِلْمَ الغيب، ويسأل بعضُهم عن موعد وقوع السّاعة، ويُشَكّكُ بعضُهم في قضية البعث.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درك).
(2) الرّاغب، المفردات: (درك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكك).
(4) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(6) الرّاغب، المفردات: (عمي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمي).

تفصيلُ القولِ في ضلالِ المُكذّبين المُعاندين بشأن الآخرة

وتبيّن الآية أنّه قد اضمحَلّ علمُ المُشركين بالآخرة؛ لكفرهم بها في الدُّنيا، فإذا ما بُعِثوا يومَ القيامة وشاهدوا العذابَ، أيقنوا بحقيقتها، وتكاملَ علمُهم واستحكم بأنّ ما كانوا ينكرونه في الدّنيا قد صار حقيقةً لا شَكّ فيها، ولا مَفَرّ لهم من عذابها، أي: علمكَ بما كنتَ تُنكرُه في الدّنيا قد صار في نهاية القوّة والوضوح[1].

وعلى الرّغم من كثرة الأدلّة المُؤدّيَة إلى الإيمان واليقين بقضية البعث، فإنّ هؤلاء الكفّارَ ما زالوا في شكٍّ وتكذيبٍ، بعد أن حَجَبَتْهم الغَفْلَةُ، ومنعَهُم الجَهْلُ منَ الإيمان، حتّى صاروا كأنّهم عميان، يسيرون على غير هدًى.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الحرفِ ﴿بَلِ﴾ وفصْلِه عمّا قبلَه:

من أساليب القرآن المُعجزة التّرقّي في التّعبير من درجة إلى درجة

في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ افتُتِحت الآيةُ بحرف ﴿بَلِ﴾، فَفُصِلت عنِ الآية السّابقة عليها؛ وذلك لشِبه كمالِ الاتّصال بينهما، فإنّ البعثَ أحدُ أحوالِ الآخرة، وقد أفادتِ الإضْرابَ الانْتقاليَّ مِنَ الإخْبارِ عَنْهم بـ ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، وهو ارْتِقاءٌ إلى ما هو أغْرَبُ وأشَدُّ ارْتِقاءً من تَعْييرِهِمْ بِعَدَمِ شُعورِهِمْ بِوَقْتِ بَعْثِهِمْ إلى وصْفِ عِلْمِهِمْ بِالآخِرَةِ، الَّتي يكون البَعْثُ مِن أوَّلِ أحْوالِها، وهو الواسِطَةُ بَيْنَها وبَيْنَ الدُّنْيا بِأنَّهُ عِلْمٌ مُتَدارَكٌ أوْ مُدْرَكٌ[2]. وفائدةُ الإضرابِ بـ ﴿بَلِ﴾ أيضًا أنّه "لمّا نفَى عنهم عِلْمَ الغيبِ وأكَّد ذلكَ بنفي شعورِهم بوقت ما هو مصيرُهم لا محالةَ، بولغَ في تأكيدِه وتقريرِه بأنْ أضربَ عنْهُ وبيَّن أنَّهم في جهلٍ أفحشَ من جهلِهم بوقت بعثِهم، حيثُ لا يعلمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقًا معَ تعاضدِ أسبابِ معرفتِها"[3].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 455.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 296.

عِلّةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تعدُّدُ المعاني التي يشملُها الفعلُ تأكيدٌ بالغٌ لاضطراب المشركين في أمر البعث

جاء النّظمُ الحكيم باستعمال الفعل ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾، وذلك لِما يشتمل عليه من معانٍ متعدّدةٍ كما مرّ في المعنى الإجماليّ للآية، وقد اختلف اللّغويّون والمفسّرون في كيفيّة توجيهِ هذه المعاني المتعدّدة، لتسيرَ على نسقٍ واحد معَ الإضرابات الثّلاثة الواردةِ في الآية. والخلاصةُ: أنّ "مَعْنى التَّدارُكِ هو أنَّ عِلْمَ بَعْضِهِمْ لَحِقَ عِلْمَ بَعْضٍ آخَرَ في أمْرِ الآخِرَةِ؛ لِأنَّ العِلْمَ - وهو جِنْسٌ - لَمّا أُضيفَ إلى ضَميرِ الجَماعَةِ حَصَلَ من مَعْناهُ عُلومٌ عَديدَةٌ بِعَدَدِ أصْنافِ الجَماعاتِ الَّتي هي مَدْلولُ الضَّميرِ، فَصارَ المَعْنى: تدارَكَتْ عُلومُهم بَعْضُها بَعْضًا"[1]، وتكاملَت واستحكَمت، أو تمَّ أسبابُ علمِهم بأنّ القيامة كائنةٌ لا محالةَ منَ الآيات القاطعةِ والحُجج السّاطعةِ، وتمكّنوا منَ المعرفة فضلَ تمكّنٍ، وهم جاهِلون في ذلكَ[2].

التّوجيهُ البلاغيّ للقراءات في ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾:

تضافرت القراءاتُ ذاتُ الأسلوبِ الخبريّ على تأكيد ضلال المُكذّبين بالبعث والآخرة

قرأ نافعٌ، وابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخَلَف ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾، وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾[3]، وعلى قِراءَة مَن قَرَأ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾، فالمَعْنى: بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهم ما جَهِلوهُ في الدُّنْيا، أيْ عَلِموهُ في الآخِرَة، بِمَعْنى: تَكامَلَ عِلْمُهم في الآخِرَةِ بِأنَّ كُلَّ ما وُعِدوا بِهِ حَقٌّ، وهَذا حَقيقَةُ إثْباتِ العِلْمِ لَهم، لِمُشاهَدَتِهِمْ عِيانًا في الآخِرَةِ ما وُعِدوا بِهِ غَيْبًا في الدُّنْيا، وكَوْنُهُ بِمَعْنى المُضيِّ، ومَعْناهُ الِاسْتِقْبالُ؛ لِأنَّ الإخْبارَ بِهِ صِدْقٌ، فَكَأنَّهُ قَدْ وقَعَ[4]. وأمّا على قراءة من قرأ ﴿أَدْرَكَ﴾ بمعنى: بلغ ولحق، فالمعنى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 21 - 22.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 339.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 471 - 478، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 21 - 22، والخطيب، معجم القراءات: 6/ 545.

أنّهم لم يُدركوا علمَ الآخرة، أي: لم يعلموا حدوثَها وكونَها، ولم ينظروا في حقيقتها فيدركوها، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، والعَميُّ عن عِلْم الشّيء أبعدُ منه منَ الشّاكّ فيه؛ لأنّ الشّكّ قد يَعرِضُ عن ضرب منَ النّظر، والعَميّ عنِ الشّيء الذي لم يدرك منه شيئًا[1].

بلاغةُ المجازِ في نسبة التّدارك إلى العِلْم:

مبلغُ الاضطرابِ والضّلالِ الذي وقع فيه الكافرون بسبب جهلِهم بأمر الآخرة

من خلال تأمُّلِ معنى التَّدارُك يمكن القولُ: إنه صالحٌ لتحقيق معنَيَين مجازيّين؛ **الأوّل:** التَّلاحُقُ، وهو اسْتِعْمالٌ مَجازيٌّ يُساوي الحَقيقَةَ، أيْ: تَدارَكَتْ عُلومُ الحاضِرينَ مَعَ عُلوم أسْلافِهِمْ، أيْ: تَلاحَقَتْ وتَتابَعَتْ، فَتَلَقّى الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ عِلْمَهم في الآخِرَةِ وتَقَلَّدوها عَنْ غَيْرِ بَصيرَةٍ ولا نَظَرٍ، وذَلِكَ أنَّهم أنْكَروا البَعْثَ، ويُشْعِرُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى عَقِبَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقَريبٌ مِن هَذا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١﴾ [المؤمنون: 81]. **والوَجْهُ الثّاني**: أنْ يَكونَ التَّدارُكُ مُسْتَعْمَلًا مَجازًا مُرْسَلًا في الاخْتِلاطِ والاضْطِرابِ؛ لِأنَّ التَّدارُكَ والتَّلاحُقَ يَلْزَمُهُ التَّداخُلُ، كَما إذا لَحِقَتْ جَماعَةٌ مِنَ النّاسِ جَماعَةٌ أُخْرى، أيْ: لَمْ يَرْسوا عَلى أمْرٍ، واخْتَلَفَتْ أقْوالُهُمُ اخْتِلافًا يُؤْذِنُ بِتَناقُضِها، فَهم يَنْفونَ البَعْثَ ثُمَّ يَزْعُمونَ أنَّ الأصْنامَ شُفَعاؤُهم عِنْدَ اللّه مِنَ العَذابِ، وهَذا يَقْتَضي إثْباتَ البَعْثِ ولَكِنَّهم لا يُعَذَّبونَ، ثُمَّ يَتَزَوَّدونَ تارَةً لِلْآخِرَةِ بِبَعْضِ أعْمالِهِمُ الَّتي مِنها: أنَّهم كانوا يَحْبِسونَ الرّاحِلَةَ عَلى قَبْرِ صاحِبِها ويَتْرُكونَها لا تَأْكُلُ ولا تَشْرَبُ حَتّى تَموتَ؛ فَيَزْعُمونَ أنَّ صاحِبَها يَرْكَبُها يومَ الحشر، ويُسَمّونَها البَلِيَّةَ، فَذَلِكَ

(1) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/ 400.

مِن اضْطِرابِ أَمْرِهِمْ في الآخِرَةِ. وفِعْلُ المُضيِّ عَلى هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ عَلى أَصْلِهِ[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

حَرْفُ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في السَّبَبِيَّةِ، أيْ: بِسَبَبِ الآخِرَةِ، ويَجوزُ فيه وجْهٌ آخَرُ وهو أنْ يَكونَ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ مُبالَغَةً في (أَدْرَكَ)، ومَفْعولُهُ مَحْذوفًا تَقْديرُهُ: إِدْراكُهم، أيْ: حَصَلَ لَهم عِلْمُهم بِوَقْتِ بَعْثِهِمْ في اليَوْمِ الَّذي يُبْعَثونَ فيه، أيْ: يَوْمَئِذٍ يوقِنونَ بِالبَعْثِ، فَيَكونُ فِعْلُ المُضيِّ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنى التَّحَقُّقِ، ويَكونُ حَرْفُ ﴿فِي﴾ عَلى أَصْلِهِ مِنَ الظَّرْفيَّةِ[2].

الكفّارُ ضالّون في أمر البعث والآخرة

فائدةُ تكرارِ حرف ﴿بَلۡ﴾:

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيم حرفَ الإضراب ﴿بَلۡ﴾، فبعد أن أثبت في الجملة السّابقة اضطرابَهم وضلالَهم بقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، جاءت جُمْلَةُ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ لتفيدَ الإضرابَ الانتقاليّ، لِلارْتِقاءِ مِن كَوْنِهِمُ اضْطَرَبَ عِلْمُهم في الآخِرَةِ، أَوْ تَقَلَّدَ خَلَفُهم ما لَقَّنَهُ سَلَفُهم، أَوْ مِن أَنَّهُمُ انْتَفى عِلْمُهم في الآخِرَةِ، إلى أَنَّ ذَلِكَ الاضْطِرابَ في العِلْمِ قَدْ أَثارَ فيهِمْ شَكًّا مِن وُقوعِ الآخِرَةِ، وفي ذلك بيانٌ بالغٌ لمدى ضلالهم وجهلهم وإفكهم[3]. فالإضرابُ انتقل في الجملة من بيانِ عدم علمهم بالآخرة، إلى بيانِ ما هو أَسوأُ منه وهو حيرتُهم وشَكُّهمُ المُريبُ منها، ومن تحقّقها، كَمن تحيَّر في أمرٍ لا يجدُ عليه دليلًا، فضلًا عنِ الأمورِ التي ستقعُ فيها[4].

أسلوبُ الارتقاء القرآنيّ يُبيّنُ مدى ضلالِ الكفّار في أمر الآخرة

عِلّةُ ذِكْرِ المسنَد إليه ضميرًا غائبًا في ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾، جاء المسندُ إليه ضميرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.

في عدم التّصريح بالصّفة قصدٌ لعموم المُكذّبين وتوبيخٌ للمشركين

غائبًا؛ قصدًا للإيهام والتّعميم، حتّى يشملَ كلَّ مَن ينطبق عليه من المُشَكّكين في أمر البعث. كما أنّ التّعبير بضمير الغائب في سياق الآية الكريمة يحمل نوعًا منَ التّوبيخ والإنكار على المُشَكّكين. وهو في الوقت نفسِه يُحَقّق إيجازًا واختصارًا في العبارة دونَ أن يُخِلّ بالمعنى. وضَمائِرُ جَمْعِ الغائِبينَ في هذه الآية والآية السّابقة عائِدَةٌ إلى ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، و﴿مَن﴾ هَذِهِ وإنْ كانَتْ من صيَغِ العُموم، فالضَّمائِرُ المَذْكورَةُ عائِدَةٌ إلَيْها بتَخْصيصِ عُمومِها ببَعْضِ مَن في الأرْضِ، وهُمُ الَّذينَ يَزْعُمونَ أنّهم يَعْلَمونَ الغَيْبَ مِنَ الكُهّانِ والعَرّافينَ وسَدَنَةِ الأصْنام، الَّذينَ يَسْتَقْسِمونَ لِلنّاسِ بالأزْلام، وهو تَخْصيصٌ لَفظيٌّ مِن دَلالَةِ السّياقِ، وهو من قِسْمِ المُخَصَّصِ المُنْفَصِلِ اللَّفْظِيِّ(1).

فائدةُ تَكرارِ كلمة ﴿مِّنۡهَاۖ﴾:

إحاطةُ الشّكِّ والضّلال بالمشركين وفسادُ عقولِهم وقلوبِهم

كَرَّرَ النَّظمُ الحكيم كلمةَ ﴿مِّنۡهَاۖ﴾ في الآية في موضعين؛ لتأكيد شَكّهم وضلالِهم وجهلِهم، وقد جاءت في الموضعين لِلابْتِداءِ المَجازيِّ، والمرادُ بها في الموضع الأوّل: أنّهم في شَكٍّ ناشِئٍ عَنْ أمْرِ الآخِرَةِ. ومعنى (مِن) في الموضع الثّاني: جَعْلُ عَماهم وضَلالِهم في إثْباتِ الآخِرَةِ كَأنَّهُ ناشِئٌ لَهم مِنَ الآخِرَةِ؛ إذْ هي سَبَبُ عَماهم، أيْ: إنْكارُها سَبَبُ ضَلالِهِمْ. وفي الكَلام مُضافٌ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: (من إنْكارِ وجودِها عَمونِ). والظَّرْفيَّةُ لِلدّلالَةِ عَلى إحاطَةِ الشَّكِّ بِهِم من كلّ جانب(2).

دلالةُ الإضرابِ الثّالث بـ ﴿بَلۡ﴾:

اختلالُ البصائر كلّيًّا يُعمي عن كلّ سبيلِ رُشْدٍ

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ انتقل الاضرابُ الإضرابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 23 - 24.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.

عنِ الشّكِّ في الآخرة إلى بيانِ أنَّ ما هُم فيه أشدُّ وأفظعُ منَ الشّكِّ؛ إذ لا يكادونَ يُدركون دلائلَها لاختلالِ بصائرهم بالكلّيّة[1].

دلالةُ الجملة الاسميّة في الموضعين:

الشّكُّ ثابتٌ مترسّخٌ في نفوس الكافرين متمكّنٌ من عقولهم

جيءَ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّة في قَوْلِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾؛ لِلدّلالَة عَلى ثَباتِ الخَبَرِ ودَوامِه، فنفوسُ الكافرين المُكذّبين للبعث قد تمكّنَ منها الشّكُّ، وتَردّت في مهاوي الضّلال، فلم يَعُد في مقدورها الوصولُ إلى الصّراط المستقيم في أمر البعث والآخرة، فكان التّعبيرُ بالجملة الاسميّة أنسبَ للمَقام.

عِلّة تقديمِ الجارّ والمجرور في ﴿مِّنۡهَا﴾:

الاهتمامُ بالمُتقدّم ورعايةُ الفاصلة من أساليب النّظم القرآنيّ

قَدّمَ النّظمُ الحكيم الجارَّ والمجرور ﴿مِّنۡهَا﴾ على مُتَعَلِّقه ﴿عَمُونَ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾؛ لِلاهْتِمام بِالمُتَعَلِّقِ، وهو قضيّةُ البعث في الآخرة؛ إذ هي مِحور الآية ومقصدُها، كما أفاد هذا التّقديم رعايةَ الفاصلة القرآنيّة، حتّى يستمرَ الأثرُ الإيقاعيّ المنسجمُ.

اختُصّ عماهم بالآخرة، وتطلّعت نفوسُهم الى ملذّات الدّنيا

ويفيد تقديمُ شِبهِ الجملة ﴿مِّنۡهَا﴾ أيضًا معنى الاختصاص، أي: أنّهم عَمون عنِ الحياة الآخرة، وليسوا عَمين عن غيرها، وهي أعراضُ الدّنيا وما فيها من لهو ولعبٍ وملاذّ وشهواتٍ[2].

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿عَمُونَ﴾ دون غيره:

ما زال المشركون يخوضون في ضلالتهم حتّى أصاب العمى عقولَهم وقلوبَهم

جاءت كلمةُ ﴿عَمُونَ﴾ جَمْعُ (عَمٍ) على زنة (فَعِل) مِنَ العَمى، صاغوا لَهُ مِثالَ المُبالَغَةِ لِلدّلالَةِ عَلى شِدَّةِ العَمى، وهو تَشْبيهُ عَدَمِ العِلْم بِالعَمى، وعادِمُ العِلْم بِالأعْمى[3]، وفي ذلك بيانٌ لمَبْلَغ حالِهم في الجهل والضّلال. وذهب بعضهم إلى القول بأنّها استعارة؛ لأنّ العَمى هنا لا يُراد به فَقْدُ الجارحةِ المخصوصة، وإنّما يُراد به

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5477.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.

التّعامي عنِ الحَقّ، والذّهابُ صفحًا عنِ النّظر والفكر، إمّا قصدًا وتعمّدًا، أو جهلًا وعمًى. وإنّما أُجريَ الجهلُ مُجرى العمى في هذا المعنى؛ لأنّ كلَّ واحد منهما يمنع وجودُه إدراكَ الشّيءِ على ما هو به؛ إذِ الجهلُ مضادٌّ للعِلْم والمعرفة، والعمى مُنافٍ للنّظر والرّؤية[1].

وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ العدولَ عن (عُمْيٍ) و(عُمْيان) إلى صيغة المبالغة؛ للدّلالة على شِدّة جَهْلِهم.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿مِّنۡهَا﴾ دونَ (عنها):

تأكيدُ شَكّ المشركين في قضية البعثِ والآخِرة

عبّر النَّظمُ الحكيم بحرف الجَرّ ﴿مِّنۡهَا﴾، ولم يقُلْ (عنها)؛ لأنّ المُراد أنّهم يشكّون فيها، ويمترون في صحّتها، فهم في عمًى منها؛ ولا يصِحُّ أنْ يكون في هذا الموضع (عنها)؛ لأنّه ليس المُرادُ ذِكْرَ عماهم عنِ النّظر إليها، وإنّما القَصْدُ ذِكْرُ عماهم بالشّكّ فيها، وهذا من لطائف المعاني[2].

فائدةُ ترتيبِ هذه الإضرابات الثّلاثة:

التّدرُّج في بيان ضلال الكفّار في أمر الآخرة، يُؤكِّدُ جهلَهم وافتراءَهم على الله

الإضراباتُ الثَّلاثَةُ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ رُتِّبت بحسب تَنْزيلِ أحْوالِهِمْ؛ فوُصِفوا أوّلًا بأنَّهم لا يَشْعُرونَ بوَقْتِ البَعْثِ، ثُمَّ بأنَّهم تَلَقَّفوا في شَأْنِ الآخِرَةِ الّتي البَعْثُ من شؤونِها عِلْمًا مُضْطَرِبًا أوْ جَهْلًا، فَخَبَطوا في شَكٍّ ومِرْيَةٍ، فَأعْقَبَهم عَمًى وضَلالَةٌ بحَيْثُ إنَّ هَذِهِ الانْتِقالاتِ مُتَدَرِّجَةٌ مُتَصاعِدَةٌ، حتّى لَوْ قيلَ: (بَلِ ادّارَك عِلْمُهم في الآخِرَةِ فَهم في شَكٍّ منها فَهم منها عمونَ) لَحَصَلَ المُرادُ، ولَكِنْ جاءَتْ طَريقَةُ التَّدَرُّجِ بالإضْرابِ الانْتِقاليِّ أجْزَلَ وأبْهَجَ وأرْوَعَ، وأدَلَّ عَلى أنَّ كُلًّا من هَذِهِ الأحْوالِ المُرَتَّبَةِ جَديرٌ بأنْ يُعْتَبَرَ فيه المُعْتَبِرُ باسْتِقْلالِه، لا بِكَوْنِه مُتَفَرِّعًا عَلى ما قَبْلَهُ، وهَذا البَيانُ هو ما أُشيرَ إلَيْه آنِفًا عِنْدَ

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 261 - 262.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 261 - 262.

الكَلام عَلى قِراءَةِ الجُمْهورِ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ مِن خَفاءِ تَوْجيهِ الإضْرابَيْنِ اللَّذَيْنِ بَعْدَ الإضْرابِ الأوَّلِ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّكّ والرَّيب:

الرَّيْبُ اتّهامٌ وظَنٌّ سوء، والشَّكُّ حيرةٌ واضطراب

الرَّيب: حالةٌ فكريّةٌ تميل نحوَ الاتّهام وظَنِّ السّوءِ، وهو حالةٌ مَرَضيَّة تُؤدّي إلى تَوَهُّم الحقيقة، وتُرَجِّحِ التُّهَمَة بغير دليل.

والشّكُّ: حالةٌ مِنَ الحَيْرَة والاضطراب، يجعل اليقينَ يَتذَبْذَب ويتَأَرْجَحُ بينَ الأمرين، من غير مرجِّح لأحدهما، وهو حالةٌ فطريَّةٌ تنشأ عند غياب الأمارة المُرجِّحَة، وعند الجهل بالحقيقة.

وفي إطار هذه الدّلالات جاء كلٌّ مِنَ اللّفظين يُعبِّر عن معناه الذي يُؤكّد أنّ هذا اللّفظَ في موضعه له معنى لا يُؤدّيه مُرادِفُه[2]. ولمّا كان المشركون في هذه الآية يعانون من حالةٍ مِنَ التَّشَتُّت ويَغْلِب عليهم الجهلُ بأمر البعثِ خاصّةً، وسائرِ أمورِ الآخرة عامّةً، فقد جاء النّظمُ بما يُفيد هذا المعنى، وهو (الشّكُّ) دونَ (الرّيب)[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22 - 23.

(2) سامي هلال، التّرادف في القرآن بينَ المثبتين والنّافين، ص: 54.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 568، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ
وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾

[النّمل: 67 - 68]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

جِدالُ الكفّارِ والمشركين بالباطل في أمر البعث وتهكُّمُهم وسُخْريتُهم

لَمّا تَكَلَّمَ سُبْحانَهُ في حالِ المَبْدَأ، تَكَلَّمَ بَعْدَهُ في حالِ المَعادِ، وذَلِكَ لِأنَّ الشَّكَّ في المَعادِ لا يَنْشَأُ إلّا مِنَ الشَّكِّ في كَمالِ القُدْرَةِ، أوْ في كَمالِ العِلْمِ، فَإذا ثَبَتَ كَوْنُهُ تَعالى قادِرًا عَلى كُلِّ المُمْكِناتِ، وعالِمًا بِكُلِّ المَعْلوماتِ، ثَبَتَ أنَّهُ تَعالى يُمْكِنُهُ تَمْييزُ أجْزاءِ بَدَنِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ المُكَلَّفينَ عَنْ أجْزاءِ بَدَنِ غَيْرِهِ، وثَبَتَ أنَّهُ قادِرٌ عَلى أنْ يُعيدَ التَّرْكيبَ والحَياةَ إلَيْها، وإذا ثَبَتَ إمْكانُ ذَلِكَ، ثَبَتَ صِحَّةُ القَوْلِ بِالحَشْرِ، فَلَمّا بَيَّنَ اللّه تَعالى هَذَيْنِ الأصْلَيْنِ فيما قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ، حَكى عَنْهم أنَّهم تَعَجَّبوا مِن إخْراجِهِمْ أحْياءً، وقَدْ صاروا تُرابًا. وطَعَنوا فيهِ من وجوه منها: أنّ الوعد بالبعث والنّشور كَلامٌ كَما قيلَ لَهم فَقَدْ قيلَ لِمَن قَبْلَهم، ولَمْ يَظْهَرْ لَهُ أثَرٌ، فَهو عندهم من أساطيرِ الأوّلينَ التي لا تصِحُّ في عقولهم الكاسدة التي أنكرتِ البعثَ والآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمُخۡرَجُونَ﴾: (خرج) أَصْلانِ؛ أحدهما: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ. ومنه الخُروج: نَقيضُ الدُّخولِ، وقَدْ يَكونُ المَخْرَجُ موضعَ الخُروج. يُقالُ: خَرَجَ مَخْرَجًا حَسَنًا، وهَذا مَخْرَجُه. وأَمّا المُخْرَجُ فَقَدْ يَكونُ مصدرَ قَوْلِكَ أَخْرَجَه، والمفعولَ بِهِ، واسمَ المَكانِ، والوَقْتِ[2]. والمعنى المِحوريّ: نفاذٌ مِنَ الحَيّز أوِ الأثناء بتجمّع. وأصلُ الخروج: البُروز

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

منَ المَقَرّ، سواء أكان دارًا أم بلدًا أم ثوبًا، وسواء كان بنفسه، أو بأسبابه الخارجة عنه[1]. وأكثرُ ما يكون الإخراجُ في الأعيان، ويقال في التّكوين الذي هو من فعل الباري تعالى نحو: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: 53]. والمُراد بالإخْراجِ هاهنا: الإخْراجُ مِنَ القُبورِ، وجوِّزَ أنْ يَكونَ الإخْراجُ مِن حالِ الفَناءِ إلى الحَياةِ، والأوَّلُ هو الظّاهِرُ[2].

2) ﴿وُعِدۡنَا﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ. يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ[3]، وممّا يتضمّن الأَمْرَين قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يونس: 55]، فهذا وعْدٌ بالقيامة، وجزاءُ العبادِ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ، والمَوْعِدُ والميعادُ يكونان مَصْدَرًا واسمًا، فَأَمّا الوَعيدُ فَلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ. يَقولونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذا. وكذلك الإيعادُ يكونُ في الشَّرِّ وحْدَه[4]. والمراد بالوعد هاهنا: الإخراجُ منَ القبور للحساب[5].

3) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: (سطر) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على اصْطِفافِ الشَّيْءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ، وكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ. فَأَمّا الأَساطيرُ فهي جَمْعُ إِسْطارٍ وأُسْطورَةٍ، نحو: أُرْجوحةٍ وأراجيح[6]. فَكَأَنَّها أَشْياءُ كُتِبَتْ مِنَ الباطِلِ، فَصارَ ذَلِكَ اسْمًا لَها مَخْصوصًا بِها[7]. والمعنى: الكتابة المَسطورةُ، هذا هو الأصل، ثمّ لمّا كانت أخبارًا عنِ الأَقْدَمين، غابت شواهدُها الواقعة، فخفيت حقائقُها على الحاضرين، وتَشَكّكوا فيها، فلَصِقَ بمعنى اللّفظ معنى الارتياب[8]. والمُراد في الآية: ما هَذا إلّا كَلامٌ مُعادٌ، قالَهُ الأَوّلونَ وسَطَروهُ، وتَلَقَّفَهُ مَن جاءَ بَعْدَهم، ولَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِنهُ[9].

4) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: (أول) أَصْلانِ: ابْتِداءُ الأَمْرِ وانْتِهاؤُهُ. أَمّا الأَوَّلُ: فالأَوَّلُ، وهوَ مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، والمُؤَنَّثَةُ الأُولَى، مِثْلُ أَفْعَل وفُعْلَى، وجَمْعُ الأولَى أولَياتٌ مِثْلُ الأُخْرَى. فَأَمّا الأَوائِلُ:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وعد).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 47.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سطر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سطر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 47.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ: تَأْسيسُ بناءِ (أَوَّل) مِنْ هَمْزَةٍ وواوٍ ولام، وهوَ القَوْلُ. ومِنْهُمْ مَنْ يَقولُ: تَأْسيسُهُ مِنْ واوَيْنِ بَعْدَهُما لامٌ[1]. والأوّل: نقيضُ الآخِر، وهو أفعلُ التّفضيل، ويكون بمعنى أسبق. والأوّلُ: هو الذي يترتّب عليه غيرُه. ويَتَرتّب على أوجهٍ؛ أحدها: أن يكون تَقَدُّمُه بالزّمان، نحو: أبو بكرٍ أوّلُ ثُمّ عمر. أو بالرّياسَة واقتداءِ غيرِه به، نحو: المَلِكُ أوّلُ ثُمّ الوزير[2]. والمُراد بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الآية: مَن سبقَهم منَ الأقوام الذين بلغَتْهم بعضُ مقالاتِهم بشأن البعث وأحوالِ الآخِرة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حُجَجُ الكفّار في إنكار البعثِ كغُثاء السّيل، لا تَثْبُت أمامَ حقائقِ الإيمان

ذَكَرتِ الآيةُ الكريمة طَرفًا من حِجاج الكفّار وجَدَلِهم الباطلِ في إنكار أمر البعث، فبيّنت أنّهم يذكرون في تفكير الحِسّيّ الذي يُؤمِن بالمادّةِ وحْدَها، مانِعَين حِسّيَّين في زعمهم الباطل، **الأوّلُ:** الموتُ، وهو في زعمهم مانعٌ حِسّيٌّ؛ إذ كيف يعود المَيّتُ حيًّا، وهم لم يَألَفوا هذا الأمرَ، ولم يَرَوْهُ، فهو وحْدَه كافٍ للمَنْع. ثُمّ زادوا **المانعَ الثّاني**: وهو أنّهم يصيرون تُرابًا، فَصَعُبَ على عقولهم أن يَتَصوّروا كيف يخرجون منَ القُبور، بعد أن دُفِنوا فيها، وصاروا جُزءًا من تراب الأرض، فهذا أمرٌ لا يتصوّرونه واقعًا؛ لاستغراقِهم في عالَم المادّة والحِسّ. ثمّ ازدادت نبرةُ الجَدَلِ والإنكار والعِناد، فاستدلّوا على نفي البعثِ والحسابِ في الآخرة، بِسَبْقِ الوعدِ بالبعث، والإخراجِ لأسلافهم في أجيال سابقة، جاءهم منَ الأنبياء مَن وعدوهم بهذا الوعد نفسِه، ولكنّ نفوسَهم مَرِنت على الإنكار، واستمرأتِ الجُحودَ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أول).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (أول).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5479.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تلوينُ الخِطابِ وحُسْنُ الابتداءِ في صَدْرِ الآيَة:

الانتقالُ من ضميرِ الغائبِ إلى ضميرِ المُتكلّم، مِن شأنه لَفْتُ انتباهِ المُتَلَقّي

يُلحَظ أنّ الحديث في الآية الكريمة هاهنا أنَّه قد عُدِلَ إلى تغيير جهة الخطاب، وعدلت عن مقتضى الظّاهر، وهو ما يُسمّى بتلوين الخطاب، فالتفتَ الخطابُ إلى حكاية أقوال الذين كفروا، بعد أن كانت الآياتُ السّابقة تُشير إليهم بضمير الغائب، فعَدَلَتْ عن ذلك وحَكَت أقوالَهم بضمير المُتكلّم، وبسبب هذا العدول عُطِفَت هذه الجُمْلَةَ على الجملة السّابقة عليها بواو العطف؛ لِأنَّها غايَرَتِ الَّتي قَبْلَها بِأنَّها أعَمُّ[1]. وفي ذلك إثارةٌ لذِهن المُتلقّي، ولفتٌ لانتباهه.

إيثارُ التّعبير بالقول دونَ غيره:

دلالةُ القول على العموم، والتّصريحِ بالمُجاهرة والإنكار والجَدَل

عَبَّر النّظمُ الحكيم في صدر الآية بالفعل ﴿وَقَالَ﴾ دونَ غيره منَ الأفعال التي تدلّ على معنى القول؛ وذلك لأنّ مادّة القولِ تشمل كلَّ أنواعِ التّعبير اللّفظيّ، سواء ما كان منها مباشِرًا أو غيرَ مباشر، ففيه إيجازُ اختصارٍ يُناسبُ بلاغةَ القرآن، ولِما فيه منَ الدّلالة على التّصريح والمُجاهرة بكُفرهم وجُحودهم عن إصرار وتَعمُّد. وكذلك فقد أشار التّعبير بمادّة القول في هذا السّياق، إلى ما امتلأت به قلوبُ الكفّار منَ الإنكار والحِجاج، والرّغبةِ في سَوق حُجَجِهم كأنّها أمرٌ صحيح تقبلُه العقولُ السّليمة، وهو كذلك، بل هو من تخرّصاتهم وكَذِبهم وإفْكِهم.

فائدةُ التّعبيرِ عنهم بالاسم الموصول:

المُراد بإظهار الفاعل في الجملة توبيخُ هؤلاء الكفّار المُعانِدين

كان مقتضى الظّاهر أن يأتيَ النّظمُ بفاعلِ القول ضميرًا للجمع (وقالوا)، أو بالاسم الظّاهر (الكافرون)، ولكنّه عَدلَ عن هذا الظّاهر، فذكر الفاعلَ اسمًا موصولًا، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ تَعْليقًا لِلْحُكْمِ بِالوَصْفِ، وذلك قصدٌ لِذَمِّهِمْ بما في حَيِّزِ صِلَتِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 24.

والإشْعارِ بِعِلَّةِ حُكْمِهِمُ الباطِلِ الَّذي تَضَمَّنَهُ مَقولُ القَوْلِ، وبيانًا لِجَهْلِهِمْ بِالآخِرَةِ، وعَمَهِهِمْ مِنها بِحِكايَةِ إنْكارِهِمْ لِلْبَعْثِ[1]. ودلَّت الصِّلةُ هاهنا أيضًا على استغراق المادّةِ لهم، حتّى إنّهم لا يفكّرون قَطّ في أمرٍ معنويٍّ، ولا أمرٍ غيبيٍّ، فقدِ استغرقَتْهم المادّةُ حتّى صاروا لا يؤمنون إلّا بها[2].

عِلّةُ التّعبير بالكفر مادّةً وصيغةً:

الكُفرُ هو العِلّةُ الأولى التي دفعت المشركين إلى إنكار البعث والآخِرة

عبّر النّظمُ الحكيم عن هؤلاء المُعانِدين بالفعل الماضي، مُسنَدًا إلى ضمير الجمع، وآثَرَ التّعبيرَ بمادّة الكُفر، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: (وقال الذين أشركوا)؛ إشارةً إلى أنّهم سَتَروا دَلائِلَ التَّوْحيدِ والآخِرَةِ الَّتي هي أكْثَرُ من أنْ تُحْصى، وأوْضَحُ مِنَ الضّياءِ، فأفادتِ الصِّلَةُ أنّ الذي دفعَهم إلى إنكار البعث والآخرة هو كَوْنُهمْ كافِرينَ، فَكَأنَّهُ قيلَ: وقالوا بِكُفْرِهِمْ[3]، أي: بسبب كفرهم.

التّوجيهُ البلاغيّ للاستفهام في الآية:

شِدّةُ ضلال المشركين في قضيّة البعثِ هي التي دفعتْهم للسّؤال عنها واستنكارِها

في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ حَكَتِ الآيةُ قولَ هؤلاء الكُفّار واستنكارَهم لقضية البعث، فاستعملتِ الهمزةَ التي تُفيد الاستفهام الاستنكاريَّ، و(إذا) المُتمحِّضَة للظّرفيّة، التي تضَمَّنت معنى الشّرْطِ، وهي متعلِّقة بمحذوف يدلُّ عليه ﴿لَمُخۡرَجُونَ﴾، وتقديرُه: (نُبْعَث ونُخْرَج)، فأتَوْا بالإنْكارِ في صورَةِ الاِسْتِفْهامِ؛ لِتَجْهيلِ مُعْتَقِدِ ذَلِكَ وتَعْجيزِهِ عَنِ الجَوابِ بِزَعْمِهِمْ، وهو ما يدلّ على تمكُّن الشّكّ في قضية البعث من نفوسهم وعقولهم، حتّى إنّهم لا يستنكرون مُجَرّد القولِ بها[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 203، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 277، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 47.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5479.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 203، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 47، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 24.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 24، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 26.

التّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات الواردة في موضع الاستفهام:

قَرَأ نافِعٌ وأبو جَعْفَر: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا﴾ بِهَمْزَةٍ واحِدَةٍ في ﴿إِذَا﴾، عَلى تَقْديرِ هَمْزَةِ اسْتِفْهام مَحْذوفَةٍ لِلتَّخْفيفِ مِن اجْتماع هَمْزَتَيْن، أَوْ بِجَعْلِ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفًا مُقَدَّمًا عَلى عامِلِه، والمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ هو ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. وقَرَأ ابنُ كثير وأبو عَمْرٍو وعاصِمٌ وحَمْزَةُ ويعقوب وخَلَفٌ بِهَمْزَتَيْن ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا﴾ عَلى اعْتِبارِ تَكْريرِ هَمْزَةِ الاسْتِفْهام في الثّانِيَةِ لِتَأْكيدِ الأولى، إلّا أنَّ أبا عَمْرٍو خَفَّفَ الثّانيَةَ مِنَ الهَمْزَتَيْن في المَوْضِعَيْن وعاصِمًا وحَمْزَةَ حَقَّقاهُما. وهَؤُلاءِ كُلُّهم حَذَفوا نونَ المُتَكَلِّم بَعْدَ نونِ (إنَّ). وقَرَأ ابْنُ عامِرٍ والكِسائيُّ ﴿أَءِذَا﴾ بِهَمْزَتَيْن و﴿إِنَّنَا﴾ بِهَمْزَةٍ واحِدَةٍ وبِنونَيْنِ اكْتِفاءً بِالهَمْزَةِ الأولى لِلاسْتِفْهام، وكُلُّها اسْتِعْمالٌ فَصيحٌ. وفي تَكرارِ الاسْتِفْهامِ إشارَةٌ إلى تَناهي الاسْتِبْعادِ والجُحودِ، وعَدِّ ما اسْتَبْعَدوهُ مُحالًا[1].

في تكرار الاستفهام إشارةٌ إلى تناهي استبعاد وقوع البعثِ عندَ المشركين

عِلّةُ التّعبير بالتّراب والآباء دونَ العِظام:

عَبَّر النَّظمُ الحكيم عنِ استبعاد الكفار لقضية البعث وظَنِّهم باستحالتها بطُرق مختلفة، فنراهم في القرآن يقولون تارةً إنّهم ينكرون أن يُبعثوا بعد أن يصيروا ترابًا وعظامًا، وتارةً أُخرى يَكْتفي بذِكْر التّراب فقط، وقد وردَ إنكارُهم للبعث بعد أن يصيروا ترابًا وعظامًا في خمسة مواضعَ، ووردَ التّعبيرُ بالتّراب في ثلاثة مواضعَ.

تَدَرُّجُ الكفّار في سَوق حُجَجِهم في إنكار البعث بينَ التّفصيل والإيجاز

ويمكن القولُ: إنّ ذِكْر (العِظام) و(التّراب) معًا يُشير إلى حالَتَين مختلفتَين منَ الانحلال؛ تَحَلُّلُ اللّحم وبقاءُ العظام، ثمّ تَحَوّلُ العظامِ إلى تراب، وفيه تفصيلٌ بعد إجمال، وفي ذلك ما يُؤَكِّد معنى الاستحالةِ عند الكفّار، ويُشير إلى مَدى استبعادِهم لفكرة البعث. وفي التّفصيل بذِكْر (العظام) نوعٌ منَ التّدرّج في التّفكير بحالة الاستبعاد. وفي الاكتفاء بذِكْر (التراب) إيجازٌ يُعَبّر عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 203، وابن الجزري، النّشر: 2/ 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 24.

الحالة النّهائية للجِسم بعدَ الموتِ والتّحلّلِ الكاملِ، ممّا يجعلُ الإنكارَ مُستنِدًا إلى استحالة الرّجوع من حالة الفناء التّامّ. وقد عطفَ النّظمُ الحكيم على ضمير الجمع في ﴿كُنَّا﴾ بكلمة ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾؛ لاهتمام السّياق بذِكْر أَثَرِ هؤلاء الآباء في إنكار هؤلاء المشركين للبعث ولأُمور الآخِرة. وتَقْديمُ التُّرابِ في المواضع كلِّها لِعَراقَتِهِ في الاِسْتِبْعادِ وانْقِلابِهِ مِنَ الأَجْزاءِ البادِيَةِ[1].

فائدةُ التوكيد وتَكرارِ الهمزة:

شِــدّةُ تـوكـيـدِ الـنّـظـمِ لإنـكـار الـكـفّـارِ لأمـر الـبـعـث وسـائـرِ أُمور الآخرة

تكريرُ الهمزةِ في ﴿أَئِنَّا﴾ وقبلَها في ﴿أَءِذَا﴾ للمبالغةِ والتَّشديدِ في الإنكارِ؛ لتَكَرُّر الإنكار والجُحود والكُفر بتَكَرُّر أداته[2]. وجيءَ بعدَ حرفِ الاستفهام بـ(إنَّ) المُؤكّدة؛ لتأكيد إنكارهم للبعث وسائرِ أُمور الآخرة، وهي لتأكيد الإنكارِ، لا لإنكار التّأكيد، كما يوهِم ظاهرُ النّظم[3]. وفي ذلك دلالةٌ على تأصّل الإنكارِ في نفوسهم، وشَغْلِها مساحةً واسعةً من تفكيرهم.

سِرُّ التّعبيرِ بمادّة الإخراج وصيغتها:

التّعبيرُ بالإخراج مــنَ الـقـبـور مناسبٌ لغَلبةِ الحُجَجِ المادّيّة على كلام الكُفّار

يُعبّر القرآنُ الكريم عن إحياء الموتى وسَوقِهم للحساب في الآخرة تارةً بالبَعث، وتارةً بالإخراج، وينوّعُ بينَ صيغة اسم الفاعل تارةً، والفعلِ المضارع تارةً أُخرى، وذلك لسِرٍّ دقيق، وهو أنَّ المُراد بالبعث الإحياءُ وإعادةُ الأرواحِ إلى أجسادها بعدَ الموت، فهي مرحلةٌ أولى من مراحل الآخِرة، وأمّا الإخراجُ منَ القبور فهو خروج الموتى بعد إحيائهم في قبورهم إلى مكان الحشر من مكان إلى آخَر، ولمّا كانت الحُجَجُ التي ساقها الكفّار في إنكار البعث حُجَجًا مادّيّةً في المقام الأوّل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 47.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 437.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 47.

وهي كونُهم يصيرون ترابًا، استعملَ النّظمُ الحكيم الإخراجَ هاهنا؛ لأنّه يَنْصَبُّ في المقام الأوّل على إنكار الكفّار لفِكْرة إخراجِ الأجساد منَ القبور؛ لأنّ البعثَ يُركّز على إنكار الكفّار لإعادة الحياة للأجساد الباليَة، وأمّا الإخراجُ فيُرَكّز على الجانب المادّيّ لنقل الأجساد منَ القبور[1]. ودَلّ استعمالُ اسمِ الفاعل ﴿لَمُخۡرَجُونَ﴾ على تأكيد شَكّهم في ثبوت الإخراج منَ القبور؛ لرُسوخ المادّيَّةِ في عقولهم ونفوسهم.

سِرُّ فصلِ صَدرِ الآية:

سَوقُ الكفّارِ لحُجَجِهم المُدّعاةِ لتأكيد نفيِ البعث

فَصَل النّظمُ الحكيم بين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ والآية التّالية عليها، ولم يَربط بينهما بأداة من أدوات العطف، فقال: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فالجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ مَسوقٌ لِتَقْريرِ الإنْكارِ، وفُصل بينهما لكمال الاتّصال، فالآيةُ الثّانية وإن كانت تحمل معنًى جديدًا، ولكنّها تُؤكّد المعنى الذي ساقته الآيةُ الأولى وتُقَرِّرُه بمزيدٍ منَ الحُجَج على نفي البعث في زعمهم[2].

فائدةُ التّعبير باللّام و(قد):

إقرارُ الكفّار بمعرفتهم بخبر البعث، وتأكيدُ ضلالِهم وكَذِبهم

صُدّرتِ الآيةُ الكريمة بأداتَي التّوكيد: اللّام وقد، في قوله تعالى حكايةً لأقوال المُكَذّبين ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا﴾، وهو إقرارٌ منهم بسَبق مَجيء الوَعدِ لهم بالبعث والإخراج، وتأكيدٌ لعنادهم وإصرارهم على التّكذيب والضّلال الذي تمادَوا فيه، فلم يُصدّقوا ما جاءَهم به النّبيُّ ﷺ، ولا ما أُخْبِروا به من أخبار الأوّلين.

عِلّةُ التّعبيرِ بالوعد دونَ الوعيد:

حكى النّظمُ الحكيم كلامَ الكفّار في إنكار البعث بصيغة الوعد دونَ الوعيد؛ لأنّ الثّابت في دعوة الأنبياء الوعدُ بالثّواب الجزيل؛

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعث) و(خرج).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 297، وبسيونيّ فيود، علم المعاني، ص: 449.

الوَعْدُ مُقدّمٌ على الوعيد؛ ترغيبًا في حصول الثّواب الجزيل

ترغيبًا لأقوامهم في تحصيل هذا الأجر العظيم، ولكنّ هؤلاء المشركين - لانطماس بصائرهم - لم يؤمنوا بالوعد الصّادق، فاستهزؤوا بالرّسل وما وعدوهم به، حتّى جاءَهم الوعيدُ الذي استأصل شَأْفَتَهم وجعلَهم أحاديث، إذِ الوعدُ هو الإخبارُ عن حصول أمرٍ محبوبٍ أو جلبِ نفعٍ في المستقبل، وهو مرتبطٌ عادةً بالرّضا والقَبول، وهو يولّد الأملَ والسُّرورَ في النّفس، يُقال: وعَدَه خيرًا. وأمّا الوعيدُ فهو الإخبار عن حصول أمرٍ مكروهٍ أو مُهْلِكٍ في المستقبل، بفعل شَرٍّ أو جَلْبِ شَرٍّ، أي: هو تهديدٌ بالعقوبة، ويكون مقرونًا بالخَوف والرَّهبة، وهو ما يولِّدُ الخوفَ والقلقَ في النّفس، يقال: أوعدتُّه شَرًّا. وقدِ اشْتهر أَنّ الثّلاثيّ منَ الوَعْد يُسْتَعْمل في الخَيْر، والمزيدَ فيه في الشَّرّ. ولَيْسَ الأمر كذلك، فَيجب أَن يعلم أن ذَلِك فيما إذا أُسقطَ الخَيْرُ والشَّرُّ بترك المَفْعول رَأْسًا، كَما في قَوْل الشّاعر[1]:

وإنّي وإنْ أَوْعَدْتُه أَوْ وعَدْتُه***لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وَقالَ بَعضهم: أَوْعَد إذا أُطلق فَهوَ في الشَّرّ. وأما وعد فَيُقال: وعده الأمر ووعده بِهِ خيرًا وشَرًّا، فَإذا أُطْلِقا قيل في الخَيْر: وعد، وفي الشَّرّ: أوعد[2].

سِرُّ إضافةِ الوعد إلى الضمير، والإسناد للمفعول:

اجتماعُ العددِ الكبير على التّكْذيب والإضلال، أدعى لاختلال العقول واضطرابها

أُسنِد الوعدُ في الآية إلى ضمير المُتكلّمين ﴿وُعِدۡنَا﴾؛ للدّلالة على أنّ هؤلاء الكفّارَ كانوا يجتمعون على التّكذيب والإضلال، فلا تُتاح لأحدهم فرصةُ التّأمُّل والتّفكّر في بُطلان ما يذهبُ إليه من إنكار البعث، فتزدادُ عقولُهم اضطرابًا، ويُمعِنون في الضّلال والعصيان، ومن شأن الإيمان الصّادق أن يأتيَ من نفسٍ مُطمئنّةٍ هادِئَة، تنشُد الحقّ وتُريده، كما في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن

(1) البيت لعامر بن الطّفيل، وهو في ديوانه، ص: 58.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وعد)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 939.

تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: 46]. وقد أُسند الفعلُ إلى المفعول للدّلالة على أنّهم لا يؤمنون بالله تعالى، وتأكيدًا لإنكارهم البعثَ، لفقدهم الإيمانَ بقُدْرة الله على البعث والإخراج.

سِرُّ تقديمِ اسمِ الإشارةِ في هذا الموضع:

تقديمُ اسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البعث للاهتمام به في هذا السّياق

جاء النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ بتقديم المفعول الثّاني اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ على ضمير التّوكيد والمعطوف عليه المرفوع ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾، وذلك على خِلاف ما جاء في الآيَةِ الأُخْرى: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ [المؤمنون: 83]؛ وذلك لأنّ التَّقْديمَ دَليلٌ عَلى أنَّ المُقَدَّمَ هو المَقْصودُ الأصْليُّ، وأنَّ الكَلامَ سيقَ لِأجْلِه، ولَمّا كانَتِ العِنايَةُ في هَذِهِ السّورة بالإيقانِ بِالآخِرَة، قَدَّمَ قَوْلَهُ: ﴿هَٰذَا﴾ أيْ: الإخْراجُ مِنَ القُبورِ عَلى قَوْلِه: ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾، بِخِلافِ ما سَبَقَ في سورَةِ المُؤْمِنونَ. وقد بَيَّنَ السَّكّاكيُّ أنَّ ما وقَعَ في سورَةِ (المؤمنون) كانَ بِوَضْعِ المَنصوبِ بَعْدَ المَرْفوعِ، وذَلك مَوْضِعُهُ. وأمّا ما في سورَةِ النَّمْلِ فَقُدِّمَ المَنصوبُ عَلى المَرْفوعِ لِكَوْنِه فيها أهَمَّ، يَدُلُّك عَلى ذَلِكَ أنَّ الّذي قَبْلَهُ ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ﴾، والّذي قَبْلَ آيَةِ سورَةِ المُؤْمِنينَ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: 82]، فالجِهَةُ المَنظورُ فيها هُناكَ في سورَةِ المُؤْمِنينَ هي كَوْنُ أنْفُسِهِمْ تُرابًا وعِظامًا، والجِهَةُ المَنظورُ فيها هُنا في سورَةِ النَّمْلِ هي كَوْنُ أنْفُسِهِمْ وكَوْنُ آبائِهِمْ تُرابًا لا جُزْءَ هُناكَ مِن بِناهُم - أيْ: باقيًا - عَلى صورَةِ نَفْسِه، أيْ: عَلى صورَتِه الّتي كانَ عَلَيْها وهو حَيٌّ. ولا شُبْهَةَ أنَّها أدْخَلُ عِنْدَهم في تَبْعيدِ البَعْث؛ فاسْتَلْزَمَ زيادَةَ الاعْتِناءِ بِالقَصْدِ إلى ذِكْرِه، فَصَيَّرَهُ هَذا العارِضُ أهَمَّ. وحاصِلُ الكَلامِ: أنَّ كُلَّ آيَةٍ حَكَتْ أُسْلوبًا مِن مَقالِهِمْ، فَحَصَلَ في الاخْتِلافِ بَيْنَ أُسْلوبِ الآيَتَيْنِ تَفَنُّنٌ[1].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 239، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 206، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 25.

يُزاد على ذلك أنّ في آية سورة (المؤمنون) ذكرَ أحوالِ الكفّار؛ لأنّ قبلَها: ﴿۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: 75]، ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77]، أمّا الآية هاهنا فقد تقدّم فيها أوصافُ البعث، لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾، ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[1].

في آية سورة المؤمنون ذِكْرٌ لأحوال الكفّار، والآية هنا ذِكْرٌ لأوصاف البعث

فائدةُ عطفِ الآباء على ضمير المُتكلِّمين:

عطفَ النّظمُ الآباءَ على ضمير الرّفع ﴿نَحۡنُ﴾، وإنّما اختَصّ الآباءَ بالذّكر؛ لأنّ ضلالَ هؤلاءِ الكفّار إنّما كان أثرًا من آثار اتّباعِهم لآبائهم، وتقليدِهم والسّير على مِنوالهم، دونَ تَفَكّرٍ فيما بيَّنَه اللّهُ لهم عن طريق أنبيائهم مِنَ الدّلائل البيّنات، القاطعةِ بصِدق البعثِ، وقدرتِه تعالى على الإحياء والإخراج[2]. وفي تصريح الكفّار بذِكر آبائهم مزيدُ احتجاجٍ ومماراةٍ في تأكيد إنكارهم للبعث.

تقليدُ الآباء والسّيرُ على مِنوالهم دونَ تفكّر من أسباب ضلال المشركين

سِرُّ إضافةِ الآباء إلى ضمير المُتكلّمين:

في حكاية النّظم الكريم لأقوال الكفّار، أُضيفَ لفظُ (الآباء) إلى ضمير الجمع، في قوله: ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾؛ وذلك للدّلالة على الاختصاص، وشِدّة التصاق هؤلاء الكفّار بآبائهم، واستمرارِهم في تقليدهم الأعمى، حتّى في أمر عظيم الخَطَر كأمر الاعتقاد، وهو ما كان له أثرٌ سيءٌ في ضلالهم.

تقليدُ الآباء دون وعي أو تَدَبُّرٍ له أثرُه الخطيرُ في ضلال الكفّار في أمور الاعتقاد

فائدةُ الجارِّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ حكايةً لأقوال الكفّار؛ للتّعبير عن رغبتهم الأكيدةِ في زيادةِ اسْتِبْعادِ قضية البعث والخروجِ منَ القُبور من أذهانهم، فكأنّهم قالوا: قَدْ مَرَّتِ الدُّهورُ عَلى هَذا الوَعْدِ، ولَمْ

ظَنُّ الكفّار أنّ إضافة البُعْدِ الزّمنيّ وإطالتَه يدعمُ حُجَجَهُم في إنكار البعث

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 260.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 206.

يَقَعَ مِنهُ شَيْءٌ، وفي ذلك دَليلٌ - في زعمهم - عَلى أنَّ البعث لا حَقيقَةَ لَهُ[1].

العدولُ عن النّفي بـ (ما) إلى النّفي بـ ﴿إِنْ﴾:

كــثرةُ حُـجَـجِ الكفّار اقتضت شِـدّةَ النّـفي؛ لـتُـنـاسِـبَ ضـلالاتِـهـم وإفكَهُم

أوثرَ التّوكيدُ بـ﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، على خِلاف بعض المواضع الأُخرى في القرآن الكريم؛ لأنّ الكفّار قد بالغوا في إبراز حُجَجِهم في إنكار البعث بأشَدّ العبارات وأقواها، ومِن ثَمّ فقدِ اقتضى السّياقُ الإتيانَ بما يُكافِئُ هذه الحُجَجَ الكاذبة، والضّلالاتِ والمَزاعمَ، فَعَدلَ النّظمُ الحكيم عنِ النّفي بـ (ما) إلى النّفي بـ ﴿إِنْ﴾؛ لأنَّ النّفيَ بـ﴿إِنْ﴾ آكَدُ منَ النّفي بـ (ما)، ويدلُّ على ذلك اقترانُها الكثيرُ بـ ﴿إِلَّآ﴾، وهو ما يعطيها قوّةً وتأكيدًا، فإنّ في القَصْر قوّةً[2].

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارة:

تَـهَـكّـمُ الـكـفّارِ واسـتـهـزاؤهـم بقضية البَعْث

استُخدِم اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ في هذا السّياق؛ ليدلَّ على مبالغة الكفّار في تقليلهم من شأن البعث، وعَدِّهم إيّاهُ مُجَرّدَ خرافاتٍ وأساطيرَ، وفي ذلك تأكيدٌ لإنكارهم البعثَ والنّشورَ الذي أُخبروا به، كما أنّ في استعمال اسم الإشارة على هذا النّحو إشارةً إلى تهكُّمِهم واستهزائهم بقضية البعث، فلم يقولوا: (لقد وُعدنا بالبعث والإخراج منَ القُبور)، بل آثَرَوا اسمَ الإشارة تجنُّبًا لذِكْر القضيّة المِحوريّة موضع النّقاش.

دلالة القَصْرِ في الآية:

استعمالُ القَصْر يُؤكّد عِنادَ الكفّار وكِبْرَهم في إنكار قضيّة البعثِ

جاء القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالنّفي والاستثناء؛ لتأكيد نفْيِهم للبعث، ولإثبات عنادِهم واستمرارِهم في غَيِّهم وضلالِهم، وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ القَصْر بـ﴿إِنْ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 206.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 200.

النّافية، مع ﴿إِلَّآ﴾ التي تفيد تقويةَ التّوكيد وترسيخَه، وهو ما يُبيّن مدى عنادهم وكِبرِهم في قضية البعث.

سِرُّ التّعبيرِ بكلمة ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مادّةً وصيغةً:

مبالغةُ الكفّار في إنكار البعث، جعلتْهم يَصفونه بأنّه حكاياتٌ مختلَقةٌ لا أصلَ لها

في حكايته لأقوال الكفّار في إنكار البعث، عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ وهو الوصفُ الذي أطلقَهُ المُكذّبون على ما وصلَهم من أخبار البعث وأمور الآخرة، ومُرادُهم: ما سَطَّرُه الأوَّلون كَذِبًا لِأَمْرٍ لا يعرِفون مُرادَهم مِنهُ، ولا حَقيقَةَ لِمَعْناهُ. والتّعبير بهذه المُفردة يدلّ على استهزائهم وتهكّمِهم، وإنكارِهم لقضية البعث، وهي حُجّة داحضةٌ، عادةً ما يَلْجَأ إليها المشركون لتبرير كُفْرهم وإنكارِهم، ومادّيَّتِهم وحِسّيَّتِهم التي لا تؤمنُ بما وراءَ المادّةِ والحِسّ.

الغرضُ من إضافة ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

تمادي الكفّار في إنكار البعث، بإسناده إلى مراحلَ زمنيّةٍ سحيقةٍ لا يمكن التّحقّق منها

أضاف النّظمُ الحكيم ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ليُؤكّد مدى ضلالِ هؤلاء الكفّار وافتراءاتِهم؛ إذ لم يَكتفِ هؤلاء بإنكار قضيّة البعثِ، بل زادوا على ذلك بوصفهم لها بأنّها محضُ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، أي: حكاياتٌ خُرافيّةٌ مكذوبةٌ لا سبيلَ إلى التّحقُّق منها، ترتابُ نفوسُهم في تصديقها والإقرارِ بها، ثُمّ أضافوا الأساطير إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ليُبيّنوا مدى إيغالِ هذه الأساطير في القِدَم؛ تأكيدًا لزعمهم أنّهم لا يمكنُهم الجزمُ بصِحّتِها أوِ الإيقانُ بها، فسَوّلت لهم عقولُهم أنّ تقادُمَ الزّمان من شأنه أن يُلْغيَ حقائقَ القُدْرةِ الإلَهيّة المطلقة، وركائزَ الإيمانِ الثّابتة.

نكتة التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دونَ (الأقدمين):

تعبيرُهم بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دون كلمة (الأقدمين)؛ ليبينوا - حسب زعمهم - أنّ إنكار قضيّة البعث من القضايا التي أثارتها كلُّ الأجيال السّابقة عليهم، وأنّها تعود إلى أزمنة سحيقة، بل ترجع - حسب زعمهم - إلى الأُمم الأولى من تاريخ الوجود الإنسانيّ على

الأرض، ومن ثَمّ لا يمكن - حسب عقولهم الكاسدة - التّأكّدُ من صِحّة القضيّة، فوصفوها بأنّها حكايات مسطورةٌ مُزَوّرةٌ. وفي ذلك الإسناد بيانٌ لِمَدى لَجَجِهم وعِنادِهم وضلالِهم في أمر البعث، وأمّا التّعبيرُ بالأقدمين في قوله تعالى، على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشّعراء: 75 - 77] فكان وصْفُ الآباءِ بالأقْدَميَّة إيغالًا في قِلَّةِ الاكْتِراثِ بتَقْليدِهِمْ؛ لِأنَّ عُرْفَ الأُمَمِ أنَّ الآباءَ كُلَّما تَقادَمَ عَهْدُهم كانَ تَقْليدُهم آكَدَ[1]. فالفرقُ بينَ الكلمتين: أنّ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تُشير إلى مبدأ الوجود الإنسانيّ، وأنّ ﴿ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ [الشعراء: 76] تُشير إلى الآباء القَريبين منهم بمقدار عدّة أجيال، ولمّا كانت قضيّةُ البعث مِنَ القضايا الجوهريّة التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالوجود الإنسانيّ على الأرض، كان التّعبيرُ بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنسبَ للمقام.

البـعـث في زعـم الكافرين أسطورة تناقلها الآخـرون عن الأوّلين

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإخراج والبعث:

البَعْثُ: الإحياءُ وإعادةُ الأرواح إلى أجسادها بعدَ الموت، فهي مرحلة أولى من مراحل الآخرة. وأمّا الإخراج مِنَ القُبور: فهو خروجُ الموتى بعدَ إحيائهم في قبورهم إلى مكان الحشر من مكان إلى آخرَ.

البـعـثُ أوّلُ مـرحـلـةٍ مـن مراحل الآخرة، والإخراجُ مرحلةٌ تاليةٌ لها

وقدِ استعملَ النّظمُ الحكيمُ الإخراجَ هاهنا لأنّه يَنصَبُّ في المقام الأوّل على إنكار الكفّار لفِكرة إخراج الأجساد مِنَ القُبور؛ لأنّ البعث يُركِّز على إنكار الكفّار لإعادة الحياة للأجساد الباليَة، وأمّا الإخراجُ فيُرَكّز على الجانب المادّيّ لنقل الأجساد مِنَ القبور[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 141.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعث) و(خرج).

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾

[النمل: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ التّمادي في العِناد والتّكذيب، جاء الإرشادُ متضمِّنًا معنى التّهديد والوعيد

لَمّا لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذا الَّذي أقامَهُ تعالى مِن دَلائِلِ القُدْرَةِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ عُمومًا، وعَلى البَعْثِ خُصوصًا، مَقالٌ يَرُدُّ عَنِ الغَيِّ إلّا التَّهْديدُ بِالنَّكالِ، وكانَ كَلامُهم هَذا موجِبًا لِلنَّبيِّ ﷺ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ تَعالى، قالَ سُبْحانَهُ مُلَقِّنًا لَهُ، ومُرْشِدًا لَهم في صورَةِ التَّهْديدِ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ: أيُّها المُعانِدونَ أوِ العُمْيُ الجاهِلونَ. ولَمّا كانَ المُرادُ الاسْتِرْشادَ لِلاعْتِقادِ، والرُّجوعَ عَنِ الغَيِّ والعِنادِ، لِكَوْنِ السّياقِ لَهُ، لا مُجَرَّدُ التَّهْديدِ - أمرهم بالسّير للتّذكير بالعذاب الذي نزل بإخوانهم، وقريبٍ منهم، آثارِ عادٍ وثمودَ وأصحابِ الأيْكَة، وقومِ لوطٍ، وغيرِهم مِنَ المُجرمين المُكذّبين المُعانِدين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيرُواْ﴾: (سير) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُضيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ: سارَ يَسيرُ سَيْرًا، وذَلِكَ يَكونُ لَيْلًا ونَهارًا. والسّيرَةُ: الطَّريقَةُ في الشَّيْءِ والسُّنَّةُ؛ لِأَنَّها تَسيرُ وتَجْري. والسَّيْرُ: الجِلْدُ، مَعْروفٌ، وهوَ مِنْ هَذا سُمّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[2]. وأمّا قوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقد قيل: حَثٌّ على السّياحة في الأرض بالجِسْم، وقيل: حَثٌّ على إجالة الفِكْر، ومراعاةِ أحواله[3].

2) ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: (نظر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ فُروعُهُ إِلَى مَعْنًى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 207، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5479.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(3) الرّاغب، المفردات: (سار).

واحِدٍ، وهوَ تَأَمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتَّسَعُ فيه. فَيُقالُ: نَظَرْتُ إلَى الشَّيْءِ أَنْظُرُ إلَيْه، إذا عايَنْتَهُ[1]. والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ[2]. وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101] أي: تَأَمَّلوا. واستعمالُ النَّظَرِ في البَصَرِ أكثرُ عند العامَّةِ، وفي البصيرةِ أكثرُ عند الخاصَّةِ. والمراد بالنّظر هاهنا التّأمّل والتّفكّر والتّدبّر[3].

3) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه. وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فَهوَ عَقيبُهُ، بِمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ إذا مَضَى أَحَدُهُما عَقَبَ الآخَرِ[4]. والعَقِبُ: مُؤَخَّر الرِّجل، وقيل: عَقْبٌ، وجمعُه: أعقاب، واستعير العَقِبُ للولد ووَلدِ الوَلد، وجاء في عَقِبِه: إذا بقيت منه بقيّة، ورجع على عَقِبه: إذا انثنى راجعًا. والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّان بالثّواب، نحو: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، والعاقِبةُ إطلاقُها يَختصّ بالثّواب نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الروم: 10]. والعُقوبَةُ والمعاقبة والعِقاب يختصّ بالعذاب، قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14][5].

4) ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: (جرم) أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ الفُروعُ. فالجَرْمُ: القَطْعُ. ويُقالُ لِصَرّام النَّخْلِ: الجَرّام. وجَرَمْتُ صوفَ الشّاةِ وأَخَذْتُه، والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ؛ لأَنَّهُ كَسْبٌ، والكَسْبُ اقْتِطاعٌ. ولا جَرَمَ: مِنْ قَوْلِهِمْ جَرَمْتُ، أَيْ: كَسَبْتُ، والجارِمُ: الكاسِبُ. وأَجْرَمَ: صار ذا جِرْمٍ، واستُعير ذلك لكلّ اكتسابٍ مكروه، ولا يكاد يقال في عامّة كلامهم للكيّس المَحْمود. والمُراد بالمُجرمين: القاطعونَ لما أمَرَ اللّه بِهِ أنْ يوصَلَ مِنَ الصّلاة، والزَّكاةِ، لِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ الَّذينَ هُمُ الهُداةُ إلى ما لا تَسْتَقِلُّ بِهِ العُقولُ، فَكَذَّبوا بالآخِرَةِ الَّتي يُنْتِجُ التَّصْديقُ بِها كُلَّ هُدًى، ويورِثُ التَّكْذيبُ بِها كُلَّ عَمًى[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نظر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نظر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 207.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَلْفِت القرآنُ أنظارَ هؤلاء الكفّار المُعانِدين إلى مصارع المُكذّبين مِن قبلهم، ويأمر النّبيَّ ﷺ أن يُحَذِّرَهم من سوء مصير هذا الإنكار والاستهزاء، أي: قل - أيّها الرَّسولُ الكريم - لهؤلاء الجاحدين: سيروا في الأرض لِتَروا بأعينكم مصارعَ المُكذّبين بما جاءهم بهِ الرّسلُ من قبْلِكم، ولِتَعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم، وإنكارِهم للبَعْث والحساب يومَ القيامة. فالآيةُ الكريمةُ توجِّهُهُم إلى ما من شأنه أن يفتحَ مغاليقَ قلوبِهم المُتحَجِّرة، وأن يزيلَ عن نفوسهم قَسْوَتَها وعِنادَها(1).

الـدّعـوةُ إلى مشاهَدةِ مصائر المُجرمين حَثٌّ على الاعتبار بجزائِهم المُهين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

تلوينُ الخطابِ في صَدرِ الآية:

عَدَلتِ الآيةُ الكريمة عن خطاب المشركين في قضية إنكار البعث، إلى الأمر بالسّير في جَنباتِ الأرض التماسًا لمصائر السّابقين؛ للاتّعاظ بما حلّ بهم، كما عدلَ النّظمُ القرآنيّ عنِ الأسلوب الخَبريّ في إخبار الكفّار عن إنكارهم للبعث، إلى الأسلوبِ الإنشائيّ الآمِر بالسّير في ربوع الأرض، وفي ذلك لفتٌ للانتباه، وإثارةٌ للأذهان.

في العُدول عنِ الخبر إلى الإنشاء إثارةٌ لذِهن المُتلقّي كي ينتبهَ لحال المُكذّبين

سِرُّ فصلِ الآية عمّا قبلها:

فَصَلَ النّظمُ الكريم فِعْلَ ﴿قُلۡ﴾ عن سابقه؛ لشِبه كمالِ الانقطاع، فقد أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأَنْ يَقولَ لَهم هَذِهِ الكَلِمَةَ، للمَوْعِظَة بِحالِ المُكَذِّبينَ؛ لِأَنَّ إِنْكارَهُمُ البَعْثَ تَكْذيبٌ لِلرَّسولِ وإِجْرامٌ، ولِلوَعيدُ بأَنْ يُصيبَهم ما أصابَهم(2).

الأمـرُ بالسّير إرشادٌ للاعتبار بمصائر السّابقين

إيثارُ التّعبيرِ بالقول دونَ غيره:

عبّر النّظمُ الحكيم في صدر الآية بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ دون غيره

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 26.

مِنَ الأفعال التي تدلّ على معنى القول؛ وذلك لأنّ مادّة القولِ تشمل كلَّ أنواع التّعبير اللّفظيّ، سواء ما كان منها مباشرًا أو غيرَ مباشر، ففيه إيجازُ اختصارٍ يناسبُ بلاغةَ القرآن، ولِما فيه مِنَ الدّلالة على التّصريح بالأمر؛ إظهارًا لعُلوّ الأُلوهيّة، واختصاصه سبحانه بالأمر والنّهي، ووجوبِ الطّاعة المُطلقة.

دلالةُ القولِ على العموم والتّصريحِ بالأمر

فائدةُ الفعل ﴿سِيرُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

تأمُّلُ مصائرِ السّابقين مِنَ الأُمور الجوهريّة في تبيُّنِ الحَقّ وإدراكِه

اشتملتِ الآيةُ الكريمة على الحَضّ للاعتبار بعاقبة المجرمين الذين بالغوا في العُتوّ والإنكار، فاستعمل النّظمُ الحكيم لذلك فعلَ الأمر ﴿سِيرُواْ﴾، والظّاهرُ أنّ السّيرَ المأمورَ به هاهنا هو الانتقالُ من مكان إلى مكان، والمُرادُ العِظَةُ والاعتبار بما يرون من مصائر هؤلاء المجرمين، وهو أمرٌ للسّير في رُبوع ما حولَهم مِنَ الأرض؛ للتّذكير بالعذاب الذي نزل بمَن سبقوهم مِنَ المُكذّبين، الذين كانت ديارُهم قريبةً منهم، مثلِ قوم عادٍ وثمودَ وأصحابِ الأيكة، وقوم لوطٍ وغيرِهم[1]. وأُسنِد الفعل لضمير الجمع ليَشملَ كلَّ مَن كَذّب بالبعث.

دلالةُ الأسلوبِ الإنشائيّ الطّلبيّ في الآية:

الأسلوبُ الإنشائيّ أنسبُ لنَهْج الحوار وطرائقِه

الأسلوبُ الإنشائيّ الطّلبيّ أسلوبٌ حواريٌّ لا تلقينيّ، يقتضي تفاعلًا معَ الفعل المأمور به، وهو الأنسبُ مع نهج الحوار وطرائقِه، وقد تكرّرت صيغةُ الأمر في الآية الكريمة ثلاثَ مَرّات، وهي ﴿قُلۡ﴾ ﴿سِيرُواْ﴾ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وتنوّعت أغراضُ الأمر في الأفعال الثّلاثة، فجاء الفعل الأوّل ﴿قُلۡ﴾ على سبيل الحقيقة، فهو أمرٌ بالتّبليغ، وخرج الفعل الثّاني مِنَ الأمر إلى الإباحة، وعاد الأمرُ الثّالث إلى الحقيقة؛ وذلك لأنّ النّظر للتّدبّر والاعتبار واجبٌ على كلّ العقلاء، كي يَتَمكّنوا من تحقيق مناط الإيمان.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5479.

فائدةُ التّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

حَثُّ القرآنُ على عمقِ التّأمّل ودِقّةِ الاعتبار

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استُعمل حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ الذي يدلُّ على الظّرفيّة المكانيّة، فكانتِ الأرضُ كلُّها ظرفًا للسّير والاعتبار؛ وذلك للدّلالة على كثرة تكذيبِ الأقوام لأنبيائهم، فاستَحَقّوا العذابَ وخرابَ البُنيان، وغدت آثارُهم مثالًا للعِظَة، والظّاهرُ أن تكون ﴿فِي﴾ هاهنا بمعنى (على)، فغالبُ السّير إنّما يكون (على) وجه الأرض لا في عمقها، فعَدَلَتِ الآيةُ عن هذا الظّاهر إلى حرف الجَرّ ﴿فِي﴾، الذي يُفيد الظّرفيّةَ المكانيّة؛ ليُنَبّه على ضرورة الضّرب في أصقاع الأرض جميعِها ضربًا عميقًا، فكأنّما النّاظرُ المُتأمّل إنّما يسير في جوف الأرض، لا على سطحها؛ استجلابًا للعِظَة والاعتبار.

العُدولُ عن (ثم) إلى الفاء:

من فوائد التّأمّل والتّدبّر في أحوال السّابقين أن يقود سريعًا إلى الإيمان واليقين

في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ استعمل النّظمُ الحكيم الفاء المُقْتَضيَةَ للتّرتيب والتّعقيب والسّرعة، وهو الغالبُ على النّظم القرآنيّ في مثل هذا المعنى، فقدِ ارتبط فعلُ (انظروا) و(ينظروا) بالفاء في أغلب المواضع التي جاء فيها الأمر بالسّير في الأرض في القرآن الكريم، وذلك في أحدَ عشرَ موضعًا، وذلك لإفادة التّرتيبِ والتّعقيبِ والسّرعة المُترتّبةِ على السّير المُتأمّل المُتدبّر، أي: أنّ نتيجة السّير أنْ تنظر نظراتِ اعتبارٍ إلى عاقبة المجرمين، وما آلَ إليه أمرُهم بعد أن طَغَوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد[1]. في حين جاءت (ثُمّ) في موضع واحد في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: 11]، وذلك لمناسبة السّياق فيها للتّراخي، إذِ اتّسمت سورةُ الأنعام بالتّفصيل الشّديد في أمور الاعتقاد، واستعراضِ حُجَجِ الكفّار مَرّة تِلو أُخرى،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5480.

ومِن ثَمّ كان الأنسبُ هناك استعمالَ ﴿ثُمَّ﴾ [الأنعام: 11] دونَ الفاء هنا، التي حملت معنى السّببيّة كذلك. ثمَّ إنّ إيراد (الفاء) هو بالنّظر إلَى أوّل السَّير، وإيرادَ (ثُمَّ) بالنّظر إلَى تمام السَّير، فإن لوحِظَ حصولُ النّظر عقيبَ السّير اخْتير حرفُ (الفاء) كما في هذه الآية، وإلّا اختيرَ (ثمّ)[1].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في جملة السّير في الأرض:

الأمرُ بالسّير في الأرض مجازٌ عن التّفكّر، لتقريب الصّورة للأذهان

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مجازٌ مرسلٌ باعتبار ما يَؤول إليه أمرُ السّير، فإنّ السّير هاهنا وسيلةٌ للتّدبّر والتّأمّل والتّفكّر، ومِن ثمّ فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد ساعد المجازُ هنا على تقريب الصّورة للأذهان، فإنّ الانتقالَ منَ المحسوس للمعقول، ومنَ المعقول للمحسوس، يلفتُ الانتباهَ لأغراض الكلام.

سِرُّ التّعبير بالنّظر:

النّظرُ هو الإقبالُ على الآثار للاعتبار، لا لتضييع الوقت بالاغترار

أوثِرَ التّعبيرُ بالنّظر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ ليَدُلّ على التّفكّر بمصائر الأقوام الغابرة التي كَذّبت بالبعث، وخَصّ النّظرَ بالذِّكر دونَ الاعتبار أوِ الاتّعاظ؛ لأنّ ما بقي من آثار القوم لا يُعْرَفُ إلّا بالنّظر، فتُرصَدُ مشاهدُ كثيفةٌ، وتُستَحْدَثُ في الخيال حركةُ حياتهم في مساكنهم وأسواقهم، قبلَ أن يصيبَهم ما أصابهم منَ العذاب، قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58].

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالنّظر:

التّعبيرُ بالنّظر يشملُ التّفكّرَ الذّهنيَّ والتّبصّرَ الواعيَ فيما ورد عنِ السّابقين

يمكنُ أن يكون النَّظرُ في الآية مجازيًّا، فيكون في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ استعارةُ محسوسٍ لمعقول، فاستعار النّظرَ بالعين الباصرة للتّفكّر الذّهنيّ، وهو عقليٌّ، إذ يمكنُ حصولُ النّظرِ بالتّدبّر

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 439.

فيما جاء من أخبارهم في القرآن والسّنّة وأخبارِ الأُمم السّابقة في كتب التّاريخ، ونُكْتَتُهُ البلاغيّةُ الإشارةُ إلى أنّ المطلوب هو التّفكّرُ العميقُ، الذي تتولّد عنه حقائقُ الإيمان؛ حتّى كأنّها تُرَى بالعين[1]. ومِن ثمّ فإنّ التّعبير بـ(النّظر) يشملُ النّظرَ الحقيقيَّ في الآثار، ويشملُ التّفكّرَ والتّدبّرَ في أخبار الأُمم السّابقة.

الإعجازُ البيانيُّ في الاستفهام في الآية:

من شأن التّدبُّر في عواقب السّابقين حصولُ الخوفِ والرَّهبةِ من مُلاقاة المَصير نفسِه

خرج الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ منَ الاستفهام الحقيقيّ الطّلبيّ، إلى الاستفهام الصّوريّ؛ لخُلوّهِ منَ الاستفهام الاصطلاحيّ، والمعنى: فَكِّروا، وتأمَّلوا كيفيَّةَ عقابِ اللّه للمُجرمين من قبْلِكم[2]. فالمقصودُ به التّخويفُ والإنذارُ والتّهديد بحصول العاقبة نفسِها لِمَن يسير على المِنوال نفسِه، الذي سار عليه المجرمون السّابقون، في العناد والاستكبار وإنكار البعث، وفيه إلماعٌ لهلاكِ المُكذّبين منَ المشركين المعاصرين للنّبيّ ﷺ، كما هلك السّابقون، وفيه كذلك تخويفٌ وإنذارٌ للّاحقين مِن بعدِهم.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالكيفيّة:

التّفكّرُ بأحوالِ الأُممِ الغابرة، من خلال آثار الشّعوب الهالكة

عبّر النّظمُ الحكيم عنِ الاستفسار عن عاقبة المجرمين من الأمم السابقة باسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾، وهي للسّؤال عنِ الحال، وهي هنا خبر كان النّاسخة، وفي استعمال ﴿كَيۡفَ﴾ دعوةٌ للتّفكّر فيما جرى لهؤلاء المُكَذّبين المُجرمين من سوء العاقبة، من خلال آثارهم الباقية وأخبارِهم المُسَطّرة، للاعتبار والاتّعاظ بأحوالهم.

فائدةُ الفعل ﴿كَانَ﴾ وتذكيرِه:

دلّ ذِكرُ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ على الحصول المُطلق، وخبرُه يدلُّ على الكون المخصوص، و﴿كَيۡفَ﴾

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/ 283.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 180.

سوء العاقبة سُنّةٌ مُتحقّقةٌ في جميع المُجرمين منَ السّابقين واللّاحقين

خبرها، وهو لا يفيدُ استفهامًا حقيقيًّا، بل هو تنبيهٌ إلى حقيقة الكيفيّةِ المُؤلمةِ، أي: العاقبةِ العجيبةِ التي كانت، فخبرُ ﴿كَانَ﴾ هي (كيفية العاقبة وعجيبةُ حصولِها، أو هولُ حصولِها)، فَجيء بلفظٍ دالٍّ على حصولٍ ما، ثمّ عيَّن بالخبر ذلك الحاصلَ، فكأنّك قلت: حصل شيءٌ، ثمّ قلت: حصلت العاقبةُ. فالفائدةُ في إيراد مطلق الحصول أوّلًا، ثمّ تخصيصه، مع فائدة أخرى، هي دلالتُه على تعيين زمان ذلك الحصول المُقيَّد. لكنّ دلالةَ ﴿كَانَ﴾ على الحَدَث المُطلق، أي: (الكون) وضعيّةٌ، ودلالةَ الخبرِ على الزّمان عقليّة[1]، ففائدةُ ذِكْر ﴿كَانَ﴾ التّنبيهُ على أنّ تلك العاقبة كانت في الجميع، وهي حاصلةٌ فيهم باعتبار سُنَن اللّهِ التي لا تتخلّف في القوم المجرمين. ولم تلحق علامةُ التّأنيث بفعل العاقبة؛ لِأَنَّ تَأْنيثَها غَيْرُ حَقيقيٍّ، ولِأَنَّ المَعْنى: كَيْفَ كانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالعاقبة دون العُقبَى:

التّحذيرُ من مَغبّة السّير على منهاج المجرمين المُكذّبين

تُطلَق العاقبةُ على مُؤخّر الشّيء وما يؤولُ إليه، وحَسُنَ ذِكْر (العاقبة) في قوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لبيان ما آلَ إليه حالُ الأُمم السّابقة من تكذيبِ البعث وأمرِ الآخرة، وفيه إيماءٌ تحذيريٌّ أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بمَن سبقهم. أمّا العُقْبَى: فهي الجزاء الذي يكون في النّهاية، والحديث هنا بشأن ما سَيَرَوْنَه من آثار المجرمين السّابقين، وما حلّ بهم في الدّنيا من عقوبات رادعة، أدّت إلى خراب ديارهم بعد عمرانها، وليس عن عقبى جزائِهم في الآخرة.

سِرُّ إضافةِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

عبّر النّظمُ الحكيم عنِ الكافرين منكري البعث بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾،

(1) الشريف الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 221، والدّمامينيّ، تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد: 3/ 171، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 209.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 469، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 450.

لطفُ الإشارة في تحذير المؤمنين منَ الإجرام

وقد تنوّع إسنادُ العاقبة في القرآن الكريم للمشركين، فشَمِلت عددًا من أهمّ صفاتهم، ومنها: (المُفسدين، والظّالمين، والمُنْذَرين، والمُكَذّبين ...)، وفي كلّ واحدة تفنّنٌ بما يُلائِم المقام. ففي التّعبير عَنِ المُكَذّبينَ بِالمُجْرِمينَ لُطْفٌ بِالمُؤْمنينَ في تَرْكِ الجَرائِم وتخوُّفِ عاقبتها؛ لِما فيهِ مِن إرْشادِهِمْ إلى أنَّ الجُرْمَ مُطْلَقًا مَبْغوضٌ للّه ﷻ، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ [الشّمس: 14]، وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: 25](1).

لا يجتمعُ الإيمانُ والإجرامُ في قلبِ مؤمنٍ

وفي التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بيانٌ لآثار إجرامهم في الأرض ونهايتِه، ولبيانِ أنّ المؤمنين مهما يكونون كانوا ضعفاء لا يمكن أن يكونوا مجرمين(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّير والمَشي:

يقال: سار القومُ إذا امتدّ بهم السّيرُ من جهة إلى جهة معيّنة في الخصوص، والسّيرُ في القرآن الكريم قد يكون لغرض وفي جهة، وهو إمّا للعِظَة والاعتبار أو للتّجارة، أو غيرِ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: 29]، فالسّير هنا ممتدٌّ من مَدْيَن إلى مصر، وليس مشيًا. وقد يكون معنى السّيرِ هو السَّير لفترة طويلة للعِبْرة والاتّعاظ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وقد ورد هذا المعنى للسّير في أحدَ عشرَ موضعًا؛ للتّعبير عنِ السّير لمسافة طويلة إمّا بغرض التّجارة وإمّا لغرض العبرة والاتّعاظ.

وأمّا المشيُ، فهو مُجرّد الانتقال، وليس بالضّرورة أن يكون

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 469، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 450، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 27.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5480.

توجّهًا إلى هدف مُحَدّد، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]. ويقال: إنّ السّير هو المشي بتُؤَدَة[1]. ومن هنا يتبيّن سرُّ اصطفاء لفظ السّير في الآية؛ لمناسبته مغزى العِظة والاعتبار من مصائر المجرمين.

النّظر والاستدلال:

الإِسْتِدْلالُ أخصُّ مِنَ النّظر

الِاسْتِدْلالُ طلبُ معرفَةِ الشَّيْء من جِهَة غَيره. والنَّظَرُ: طلبُ مَعْرِفَة الشّيءِ من جِهَته ومن جِهَة غَيره، ولِهَذا كانَ النّظر في معرفَة القادِر بوصفه قادِرًا من جِهَة فعله اسْتِدْلالًا، والنَّظَرُ في حُدوث الحَرَكَة لَيْسَ باستدلال. وحَدُّ النّظرِ طَلبُ إدْراك الشَّيْء من جِهَة البَصَر أَوِ الفِكر، ويحْتَاج في إدْراك المَعْنى إلَى الأَمريْن جَميعًا، كالتّأمّل لِلْخَطّ الدَّقيق بالبَصر أَوّلًا، ثمَّ بالفِكر؛ لِأَنّ إدْراك الخَطّ الدَّقيق الَّذي بِهِ يقْرَأُ طَريقٌ إلَى إدْراك المَعْنى، وكَذَلِكَ طَريقُ الدّلالَة المُؤَدّيَة إلَى العِلم بِالمَعْنَى، وأَصلُ النّظر المُقابلَةُ، فالنّظر بالبصر: الإقبالُ نَحْوَه، والنَّظَر بالقَلْب: الإقبالُ بالفِكْر نَحْو المُفَكّر فيهِ[2]. ولمّا كانت مصائرُ المجرمين محلَّ التّعرّفِ بالعين والفكر، ناسبَ لفظُ النّظرِ بوصفه طلبًا لإدْراك الشَّيْء من جِهَة البَصَر أَوِ الفِكر.

---

(1) السّامرائيّ، برنامج لمسات بيانيّة، وموسوعة التّفسير الموضوعيّ: (السّير) و(المشي).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 74.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾ [النّمل: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رعايةُ الله تعالى لنبيّه ﷺ، وتسليتُه عن سوء أخلاق المشركين وجلافتِهم

لَمّا دَهَمَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الأسَفِ عَلى جَلافَتِهِمْ في عَماهم عَنِ السَّبيلِ الَّذي هَدى إلَيْهِ الدَّليلُ، ما لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه، وغلب عليه الإشفاقُ عليهم من مَغبّة تكذيبِهم؛ نهاه تعالى عنِ الحُزْن على عدم إيمانهم، وإصرارِهم على ما هم فيه منَ الشّرك. وكانَ مِن رَحْمَتِهِ ﷺ حِرْصُهُ عَلى إقْلاعِهِمْ عَمّا هم عَلَيْهِ مِن تَكْذيبِهِ والمَكْرِ بِهِ، فَألْقى اللّه في روعِهِ رباطَةَ جاشٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾، فَجَمَعَ بَيْنَ إزالَةِ الغَمِّ عَنْهُ بِكُفْرِهِمْ، وبَيْنَ إزالَةِ الخَوْفِ مِن جانِبِهِمْ، وصارَ ذَلِكَ كالتَّكَفُّلِ بِنُصْرَتِهِ عَلَيْهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحۡزَنۡ﴾: (حزن) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ خُشونَةُ الشَّيْءِ وشِدَّةٌ فيهِ. فَمِنْ ذَلِكَ الحَزْنُ، وهوَ ما غَلُظَ مِنَ الأَرْضِ[2]. والحُزْنُ والحَزَنُ: خشونةٌ في النّفس لِما يحصل فيه منَ الغمّ، وقيل: هو ألمٌ ومشاعرُ شاقّةٌ يجدها الإنسانُ في قلبه لفقد شيء أو نحوه. ويُضادُّه الفرحُ، ولاعتبار الخشونة بالغمّ قيل: خشّنَت بصدره: إذا حزَّنته[3]. قال ﷻ: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [آل عمران: 153]، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ [الحجر: 88] و[النّمل: 70]، فليس ذلك بنهي عن تحصيل الحُزن، فالحُزْن ليس يحصل بالاختيار، ولكنّ النّهيَ في الحقيقة إنّما هو عن تعاطي ما يورِثُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 451، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 26.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حزن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حزن).

الحُزْنَ ويُكْسِبُه، وحَثٌّ للإنسان أن يتصوّر ما عليه جُبِلَت الدّنيا، حتى إذا ما بَغَتَتْهُ نائبةٌ لم يكترث بها؛ لمعرفته إيّاها، ويجب عليه أن يروّض نفسَه على تحمُّل صغارِ النّوَب حتّى يتوصَّلَ بها إلى تحمّل كبارها[1].

2) ﴿ضَيْقٍ﴾: (ضيق) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ السَّعَةِ، وذَلِكَ هوَ الضّيقُ، والضّيقَةُ بالفتح والكسر: الفَقْرُ. يُقالُ: أَضاقَ الرَّجُلُ: ذَهَبَ مالُهُ. وضاقَ، إذا بَخِلَ. والضّيْقَةُ يستعمل في الفقر والبُخل والغَمّ، ونحوِ ذلك[2]. والمعنى المِحوريّ: نقصُ فراغِ الحَيّز من تضامّ جوانبِ محيطِه، أي: تقاربها بعضِها إلى بعض، كما في ضيق الدّار والثّوب والمكان على ما فيهما[3]. قال تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [التّوبة: 118]، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النّحل: 127]، كلّ ذلك عبارة عنِ الحُزن، وقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ [الطّلاق: 6]، ينطوي على تَضْييقِ النّفقة وتَضْييقِ الصّدر[4].

3) ﴿يَمۡكُرُونَ﴾: المَكْرُ: الاحْتيالُ والخِداعُ[5]، وهو: صرفُ الغَير عمّا يقصدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مَكْرٌ محمود، وذلك أن يتحرّى بذلك فعلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. فالمَكْرُ مِنَ اللّه تَعالَى جَزاءٌ سُمّي بِاسْمِ المَكْرِ مجازًا، وقال بعضهم: مَكْرُ اللّه إيقاعُ بَلائِهِ بأَعدائه دونَ أَوليائه[6]. والمَكْر المَذموم: هو أن يتحرّى به فعلَ قبيحٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النّمل: 50]، وقال بعضهم: مِن مَكْرِ اللّه إمهالُ العبد وتمكينُه من أعراض الدُّنيا[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد التّوجيه الحكيم بالسّير في جنبات الأرض لالتماس العبرة في عواقب الأُمم السّابقة، أخذتِ السّورةُ الكريمة في تسليَة الرَّسول ﷺ عمّا أصابه من حزنٍ بسبب

(1) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضيق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضيق).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضيق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مكر).
(7) الرّاغب، المفردات: (مكر).

من معاني تأييدِ الله تعالى لنَبيِّه ﷺ ونصرتِه تبصيرُه بعواقب الكفّار والمشركين

كُفْرِهم، أي: ولا تحزن - أيّها الرَّسول الكريم - على هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والجُحود، ولا يَضِقْ صدرُكَ، ويَمْتلِئْ همًّا وغمًّا بسبب مكرِهم، فإنّ اللّه تعالى عاصِمُكَ منهم، وناصِرُكَ عليهم، ومُنْجيكَ من احتيالهم، ومُظهرٌ دينَكَ على مَن خالفَه في المشارق والمغارب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

تلوينُ الخطاب في صدر الآية وفائدةُ الواو:

بعد أخذِ العِظَة والاعتبار، يَحسُنُ الصّبرُ والاطمئنان والثّقة بمَوعود الله

وصل النّظمُ الحكيمُ بينَ الآيتين بالواو العاطفة لتوسّط الكمالَين، كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع؛ وذلك لاتّفاق الجُملَتين في أسلوبهما الإنشائيّ، وإن كانت الأوْلى أمرًا والثّانية نهيًا، إلّا أنّ النّهيَ بمثابة أمرٍ في حقيقة معناه. وحَسُنَ موضِعُ الواو بينَ الجُملَتين؛ لتناسُب المعنى الجامع لهما، فالآيةُ الثّانية لِفْقٌ لمعنى الأولى وتتمّةٌ لها في حقيقة الأمر؛ إذِ انتقلتِ الآيةُ الكريمة منَ الأمر بالسّير في جنبات الأرض التماسًا لمصائر السّابقين للاتّعاظ بما حلّ بهم، إلى إرشاد النّبيِّ ﷺ ونُصْحِه بألّا يحزن، وتوجيهِه إلى الثّقة في موعود اللّه[2].

سِرُّ التّعبيرِ بنفي الحُزن دونَ غيره:

حُزْنُ النّبيِّ ﷺ وأَلَمُهُ لعدم هداية قومه، وإشفاقُه عليهم رغمَ مكرِهم به

آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ بلفظ الحُزن دونَ سواه لمناسبة مفردة الحُزن، واشتمالِها على معانٍ دقيقة، وذلك لأنّ الحُزن خشونةٌ في النّفس لِما يحصل فيها منَ الغَمّ، وألمٌ ومشاعرُ شاقّةٌ يجدها الإنسانُ في قلبه لفقد شيء أو نحوه، وقد كان النّبيُّ ﷺ حريصًا على هداية قومه، وكانَتِ الرَّحْمَةُ غالِبَةً عليه، والشَّفَقَةُ عَلى الأُمَّةِ مِن خِلالِه، فَلَمّا أُنْذِرَ المُكَذِّبونَ بِهَذا الوَعيدِ تَحَرَّكَتِ الشَّفَقَةُ في نَفْسِ الرَّسول[3]،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 353، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 15.
(2) بسيونيّ فيّود، علم المعاني، ص: 475 - 477.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 26.

فعَبّر النّظمُ بهذا اللّفظ دونَ غيره من ألفاظٍ، كالخوف أوِ الشّفقة، لهذه المعاني كلّها.

دلالةُ النّهي عنِ الحُزن في الآية:

رعايةُ اللهِ ﷻ لنبيّه ﷺ لا تتركُهُ في حُزن، ولا تدعُهُ في ألم

جاء أسلوبُ النّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ للحَثّ والإرشاد والتّوجيه؛ لأنّهم إذا كانوا يسيرون في الأرض ليريَهم عاقبةَ المجرمين؛ فذلك إعلامٌ لهم بأنّهم مثلُهم وسينزل بهم مثلُ ما نزل بغيرهم؛ ولأنّهم ضالّون مثلُهم، ولا شكّ أنّ ذلك يُحزِن النّبيَّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: 3]؛ إذ هم قومُه وعُشَراؤه، كما أشار قولُه جلّ اسمُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: 128][1]. فأرشدَه ﷻ ألّا يحزنَ عَلى الكافِرينَ لعدم إيمانهم به وعدم مُتابَعَتِهِمْ لَه. وقيلَ: عَلى المُؤْمِنينَ وما قد يحيقُ بهم مِنَ مكر الكافرين، وما قد يتعرّضون له من أذاهم[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

نَهيُ اللهِ جَلّ اسمُه لنبيّه ﷺ أن يستوليَ الحُزنُ على قلبه إشفاقًا على قومه

يأتي حرفُ الجرِ (عَلَى) في العربيّة ليُفيدَ الاستعلاءَ، سواءٌ أكان هذا الاستعلاءُ حقيقيًّا أم مجازيًّا، ولفظُها يدلّ على ذلك، فهي مأخوذة منَ العُلوِّ، وهذا هو الأصل في معانيها، كما أنّ من معانيها المصاحبةَ والمجاوزةَ والتّعليلَ والظّرفيّةَ والغاية[3]. وقد دلّ استعمالُ النّظمِ الحكيم ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ على نهي اللّهِ تباركت أسماؤه وعظمت آلاؤه لنَبيّه ﷺ أن يستوليَ الحُزن على قلبه؛ إشفاقًا على هؤلاء الكفّار المعاندين من قومه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: 8].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5480.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 26.

(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 478، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 47.

جاء إثباتُ النّون مناسبًا لسياق المُحاجَجَةِ، وتنبيهًا على عدم تمكّن الضّيق من نفسه

دلالةُ إثباتِ النّون في ﴿تَكُن﴾ وحذفِها:

يجوز في العربيّة حذفُ نون (كان) تخفيفًا لكثرة الاستعمال، بشرط أن يكون الفعل مجزومًا بالسّكون، وألّا يليَهُ حرفٌ ساكنٌ، غيرَ أنّ حذفَها في القرآن لا يأتي لمجَرّد التّخفيف، وإنّما لغرضٍ بلاغيٍّ يقتضيه المقام، وقد حُذِفتِ النّون من (كان) المَجزومة سبعَ عشْرةَ مَرّة في القرآن الكريم، ولم تُحْذَف مع إمكان الحذف في سبعة وخمسين موطنًا، وما ذلك إلّا لسبب بلاغيّ يقتضيه المقامُ، فقد تكون للإسراع، ولعدم قدرةِ المُتكلّم على إتمام الكلام[1]، وقد تُحْذَف النّون تنبيهًا على صغر مبدأ الشّيء وحقارته، وأنّ منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غيرُ اللّه، ومن أمثلة ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]، فقد حُذِفَتِ النّون تنبيهًا على مبتدأ الإنسان وصِغَرِ قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه، ثُمّ يترقَّى في أطوار التّكوين ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس: 77]، وكذلك في قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النّساء: 40]، فقد حُذِفتِ النّون تنبيهًا على أنّ الحسنةَ حتّى وإن كانت صغيرةَ المِقدار، حقيرةً في الاعتبار؛ فإنّ إلى اللّه ﷻ تربيتَها وتضعيفَها[2].

وقد تُحذَف لإفادة النّهي بقوّة، كعِلَّة حذفِ النّون في سورة النّحل، وإثباتِها في سورة النّمل، وهذه العِلّة إنّما تُفْهَم من سياق الحديث في الموضعين منَ السّورتين، فقد قال تعالى في سورة النّحل: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: 126 - 127]، وقال في سورة النّمل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 230 - 231.

(2) الزّركشيّ، البرهان: 1/ 404 - 407.

﴿وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾. فقال في الأولى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ [النحل: 127]، وفي الثّانية: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾؛ وذلك لأنّ السّياق مختلفٌ في السّورتين، فالآياتُ الأولى نزلت حين مثّل المشركون بالمسلمين يومَ أحد، وقَدْ كانَ رَسولُ اللّه ﷺ حينَ رَأى حَمْزَةَ قَدْ مُثِّلَ بِهِ قالَ: "لَئِنْ ظَفِرْتُ بِقُرَيْشٍ لَأُمَثِّلَنَّ بِثَلاثينَ مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126] الآيَةَ. وأوصاه بالصّبر ثمّ نهاه أن يكون في ضَيِّق من مكرهم، فقال له: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: 127]، أي: لا يكن في صدرك ضيقٌ مهما قلّ، وهو تطمينٌ منَ اللّه لرسوله، وتطييبٌ له مناسبٌ لضخامة الأمر وبالغ الحُزن، أو هو من باب تخفيف الأمر وتهوينه على المخاطَب، فَخُفِّفَ الفعل بالحَذف إشارةً إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النّفس، أمّا الآيات الثّانية فهي في سياق المُحاجَجَة في المَعاد، وهو ممّا لا يحتاج إلى مثل هذا التّصبير[1].

ويمكن القولُ: إنّ في إثبات النّون في سورة النّمل إلماحًا إلى أنّ قومه ﷺ سيدخلون في حظيرة الإيمان بعد أن يشرحَ اللّه صدورَهم للإيمان، فلا ينبغي أن يَضيقَ صدرُه ضيقًا شديدًا، فإنّما هي فترة وجيزة وسيدخلون في الإسلام، كما حدث بعد ذلك[2].

وذهب البقاعيُّ إلى أنّ إثبات النّون في ﴿وَلَا تَكُن﴾ جاء في سياقِ الإخْبارِ عَنْ عِنادِهِمْ واسْتِهْزائِهِمْ، مَعَ كِفايَتِهِ ﷻ لِمَكْرِهِمْ؛ بما أعَدَّ لَهم من سوءِ العَذابِ في الدّارَيْنِ، فَلا مُقْتَضى لِلتّناهي في الإيجازِ والإبْلاغِ في نَفْيِ الضّيق، فَيُفْهِمُ إثْباتُ النّونِ الرُّسوخَ، فَلا يَكونُ مَنهيًّا عَمّا لا يَنْفَكُّ عَنْهُ العُسْرُ ممّا أشارَ إلَيْه قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحجر: 97]، وإنّما يُنْهَى عَنِ التّمادي مَعَهُ في الذِّكْرِ، بِخِلافِ ما مَضى في النَّحْلِ، فَإنَّ السّياقَ هُناكَ لِلْعَدْلِ في العُقوبَةِ لِما وقَعَ مِنَ المُصيبَةِ في غَزْوَةِ أُحُدٍ، المُقْتَضي لِتَعْظيمِ التَّسْلِيَةِ بِالحَمْلِ عَلى الصَّبْرِ[3].

---

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 232 - 233.
(2) امحمّد صافي المستغانميّ، برنامج في رحاب سورة.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 208.

إضافةُ فعلِ (الكون) تقتضي توكيدَ ما جاء بعدَه، وهو حصولُ الضّيق له ﷺ

العُدولُ عن (ولا تضق) إلى ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾:

عدلَ النّظمُ الحكيم عنِ التّعبير بـ(ولا تضق) إلى التّعبير بـ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾؛ وذلك لأنّ ذِكْر فعلِ (الكون) في الآية الكريمة يدلّ على الحصول المُطلَق، وخَبرُه يدلُّ على الكون المخصوص، و﴿فِي ضَيْقٍ﴾ متعلّقٌ بالخبر المحذوف، فجيءَ بلفظٍ دالٍّ على حصولِ ما، ثمّ عَيَّن بالخبر ذلك الحاصلَ، فكأنّك قلت: حصلَ ضيقٌ، أو ضاق صدرُ رسولِ اللّه ﷺ. فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصول أوّلًا، ثمّ تخصيصه، مع فائدة أخرى، هي دلالتُه على تعيين زمان ذلك الحصول المُقيَّد[1]. وناسبَ فعلُ الكونِ شِدّة حُزنِ رسولِ اللّه ﷺ، حتّى أضحى عنده كأنّه خِلّةٌ، ونفيهُ إرشادٌ إلى عدم المبالغة في ذلك.

انشغالُ قلبِ النّبيّ ﷺ وحزنه بسبب تكذيب قومِه

دلالةُ الظّرفيّة في ﴿ضَيْقٍ﴾ وأثرُها البيانيُّ:

حقيقةُ الضَّيْقُ - بِفَتْحِ الضّادِ وكَسْرِها - عَدَمُ كِفايَةِ المَكانِ أوِ الوِعاءِ لِما يُرادُ حُلولُهُ فيه، وهو هُنا مَجازٌ في الحالَةِ الحَرِجَةِ الَّتي تَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ كَراهِيَةِ شَيْءٍ فَيُحِسُّ المَرْءُ في مَجاري نَفَسِهِ بِمِثْلِ ضَيْقٍ عَرَضَ لَها، وإنَّما هو انْضِغاطٌ في أعْصابِ صَدْرِهِ. وقد دلَّ التّعبيرُ بقول اللّه تعالى: ﴿ضَيْقٍ﴾ على مبلَغ ما اعتراه ﷺ من تعبٍ وهَمّ، حتّى لازَمَه حُزنٌ شديد ملأ صدرَه، بسبب تكذيب قومِه من ناحية، ولإشفاقه عليهم أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب الأُمم السّابقة من ناحية أخرى. والظَّرْفيَّةُ مَجازيَّةٌ، أيْ: لا تَكُنْ مُلْتَبِسًا ومَحوطًا بِشَيْءٍ مِنَ الضَّيْقِ بِسَبَبِ مَكْرِهِمْ[2].

من تمام رعايتِه سبحانه لنبيّه ﷺ أن يزيلَ من صدره كلَّ ضيق مهما صَغُر

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿ضَيْقٍ﴾:

جاء تنكيرُ كلمة ﴿ضَيْقٍ﴾ لنَفْيِ جَميع الضّيقِ مهما صَغُر، وليَكونَ

---

(1) الشّريف الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 221، والدّمامينيّ، تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد: 3/ 171، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 209.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 26.

ذَلِكَ وازِعًا عَنْ مُجاوَزَةِ الحَدِّ، بَلْ حامِلًا عَلى العَفْوِ عنهم[1] وإن أساؤوا؛ طمعًا في إسلامهم، وهو ما مَنَّ اللّهُ سبحانه به على نبيّه ﷺ بعد حين، عندما هدى قومَه للإسلام، وأخرجهم منَ الظّلمات إلى النّور.

التّوجيهُ البلاغيّ في قراءة ﴿ضَيْقٍ﴾:

بينَ الضّيق الحقيقيّ والمعنويّ صلةٌ تُشير إلى مبلَغ حرصِ النّبيّ على قومه

قرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ بِفَتْحِ الضّادِ، وقَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ بِكَسْرِها، وهُما لُغَتانِ كالقَوْلِ والقيلِ، أيْ: لا تَكُنْ في ضيقِ صَدْرٍ وحَرَجٍ، وفيهِ اسْتِعارَةٌ لا تَخفى، ولا داعيَ إلى ارْتِكابِ القَلْبِ. وقال ابنُ السِّكّيت: الضّيق والضَّيق بمعنًى واحدٍ. وعنِ الفرّاء: المفتوحُ ما ضاق عنه صدرُكَ، والمَكْسورُ الذي يتّسِع ويضيق كالدّار والثّوب. وعلى حسب ما ذهب إليه الفرّاء فلا استعارةَ في قراءة الفتح، وفيها استعارةٌ على قراءة الكسر. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الضَّيْقُ بالفَتْحِ مُخَفَّفُ ضَيِّقٍ كَهَيِّنٍ، أيْ: لا تَكُن في أمْرٍ ضَيِّقٍ. ورَدَّهُ أبو عَليٍّ - كما في البَحْرِ - بأنَّ الصِّفَةَ غَيْرُ خاصَّةٍ بِالمَوْصوفِ، فَلا يَجوزُ ادِّعاءُ الحَذْفِ، وتُعقِّبَ بالمَنعِ لِأنَّهُ إذا كانَتِ الصِّفَةُ عامَّةً وقُدِّرَ مَوْصوفٌ عامٌّ فَلا مانِعَ مِنهُ[2].

الإعجازُ البيانيُّ في الجمع بينَ الحُزن والضّيق في الآية:

شموليَّةُ العنايةِ الإلَهيّة وتكاملُها في إزاحة الحُزن والضّيق عن قلب النّبيّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٍ﴾ جمعتِ الآيةُ الكريمة بينَ (الحُزن) و(الضّيق)؛ للإشارة إلى شموليّةِ النّهي الإلَهيّ وتكاملِه في إزاحة الحُزْن والضّيق عن صدر النّبيّ ﷺ، وكلِّ ما من شأنه أن يوغِرَه ويُؤَرِّقَه، سواء أكان حزنًا داخليًّا أم ضيقًا نفسيًّا. كما أنّ التَّعبير بالكلمتين يُعَزّز المعنى ويُعَمِّقُه، إذِ الحُزنُ يتعلّق غالبًا بالشُّعور الدّاخليّ لفُقْدان شيءٍ، والضّيق يتعلّق بالشّعور

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 208.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ضيق)، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 49.

الذي قد ينشأ من خارج الإنسان، نتيجةَ الظّروف المحيطة به، أوِ المؤامراتِ التي تُحاكُ ضِدّه، وبذلك يتَّضِح التّكامُلُ بينَ الكلمتين؛ لشمول جميع ما قد ينتابُ النّبيَّ ﷺ. وكذلك فإنّ بينَ الكلمتَين عمومًا وخصوصًا، فالحُزْن شعورٌ عامٌّ، والضّيقُ شعورٌ أكثرُ تحديدًا وتعمُّقًا، فتدرَّجَتِ الآيةُ منَ العامِّ إلى الخاصّ.

دلالةُ حرفِ الجرّ (مِنْ):

طمأنةُ اللهِ سبحانَه قلبَ النّبيِّ ﷺ برغم كثرةِ مَكرِ الكفّار واحتيالِهم

أفاد حرفُ الجَرّ (من) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ تكثيرَ المعنى، فقد دلّ حرفُ الجَرّ على التّعليل، أي: لا تكن في ضَيق بسبب مَكرهم الذي يمكرونه؛ ابتغاءَ النّيلِ منك ومِن دعوتك ومن أتباعِك. وهو في الوقت نفسِه قد أفاد دلالةَ الابتداءِ التي هي معنًى أصليٌّ لا يكادُ يفارقُه[1]، أي: منَ السّاعة التي ابتدؤوا فيها مكرَهم وتآمرَهم عليك وعلى دعوتك.

دلالةُ التّعبير بـ(ما) بينَ المَصدريّة والموصوليّة:

مهما بلغ الكفّارُ من مكرهم واحتيالهم فإنّ الله حافظٌ نبيّه، وعاصِمٌ له منهم

تحتمل (ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ المصدريّةَ، أي: من مكرهم، والموصوليّةَ، أي: الذي يمكرونه، والعائدُ محذوفٌ، وهي في محلّ جَرٍّ بحرف الجَرّ[2]. فالمُراد على المصدريّة: ولا تكن في ضَيق من مكرهم واحتيالِهم لك ولدعوتك ولأتباعك، فإنّ اللّه يعصمُك منَ النّاس بفضله ومَنِّه وقوّته. وأمّا على الموصوليّة فالمُراد: فلا تكن في ضَيق بسبب مَكْرِهم الذي يمكرونَه.

دلالةُ التّعبير بالمكر:

شِدّةُ احتيالِ الكفّار لأذى النّبيّ ﷺ، ومَكرُهم بأصحابه ودعوتِه

المَكْرُ فِعْلٌ يُقْصَدُ بِهِ ضُرُّ أحَدٍ في هَيْئَةٍ تَخْفى عَلَيْهِ، أوْ تَلْبِيسُ فِعْلِ الإضْرارِ بِصورَةِ النَّفْعِ، والمُرادُ هُنا: تَدْبيرُ المشركين لصَدّ النّاس عن دعوة النّبيّ ﷺ، وسَعْيُهم في أذى مَن أسلم منهم، وعنادُهم

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 77.
(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 29.

وجِدالُهم بالباطل في شأن البعث وسائرِ أمور الآخرة. وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ بمادّة المَكْر لِما فيها من سَعيٍ في الضُّرِّ مع دِقّة الحيلة وخفائها، وفيه إشارةٌ إلى شِدّة ما لاقاه النّبيُّ ﷺ في سبيل تبليغ دعوته، وإشارةٌ كذلك إلى مدى عنادِ قومِه برَغْم فقدِهم الأَدِلّةَ البَيِّنةَ على صِحّة موقفِهم؛ فَلَجؤوا للمَكْر والخَديعة.

سِرُّ العدولِ عنِ المَصدر الصّريح:

في تـجـدّد مَـكْـرِ الـكـافـريـن واسـتـمـرارِه واسـتـحـضـارِ صورتِه ما يَحُثّ عـلـى الـحَـذَر منهم

عدلَ النّظمُ الحكيم عن: (ولا تكن في ضَيقٍ من مَكْرِهم) إلى صيغة المَصدر المُؤوّل: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾؛ وذلك لأنّ المصدر الصّريح يشمل الحَدَث، ولكنّه لا يشملُ الزَّمن، بخلاف المَصدرِ المُؤوّل الذي يشمل الزّمن إلى جوار الحَدَث، ومن هنا فقد أفاد المصدرُ المُؤوّل في صيغة المضارعة استمرارَ مَكْرهم وتَجَدُّدَه، فكأنّ هؤلاء الكفّار المعاندين المنكرين للبعث لا يتوقّفون ليلَ نهار عنِ الكَيْد للنّبيّ ﷺ ودعوته وأصحابه، ويجوز أن يكون ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ بمَعْنى: مَكَروا، وإنّما عَبَّرَ بالمُضارِعِ اسْتِحْضارًا لِلصّورَةِ الماضيَةِ[1]، وذلك أدْعَى للحَذَر منَ الكافرين ومِن مَكْرِهم وخِداعهم وكَيْدِهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْن والهَمّ:

الهَمُّ ما يشغلُ النّفْسَ ويُقلِقُ الـبـالَ، أمّـا الـحُـزنُ فهو ما يصيب النّفْسَ منَ الكآبة

الهمّ ما يُقْلِق النّفْسَ ويَشْغَلُ البالَ منَ الأمور التي لم تحدُث بَعْدُ، ويُعرف بأنّه التّفكيرُ والانشغال بأمرٍ ما قبلَ وقوعِه، وقد يكون الهَمُّ إيجابيًّا أو سلبيًّا، بناءً على طبيعة الأمر، فهو نوعٌ منَ الانشغال النّفسيّ والعقليّ.

أمّا الحُزْنُ: فهو ما يصيب النّفْسَ من كآبةٍ وألمٍ بسبب فقدان شيءٍ أو وقوعِ مكروه قد حدث بالفعل.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 49.

والخلاصةُ: أنّ الهَمّ انشغالُ النّفْسِ بأمرٍ لم يقع بعد. وأمّا الحُزْنُ: فهو شعورٌ بالألم وضيقِ الصّدر لأمر وقع بالفعل[1]. ولذلك اختيرَ في الآية؛ لكون حُزنِ النّبيِّ ﷺ كان على أمر واقعٍ، هو كفرُ قومِه.

الضّيْق والحَرَج:

الحَرَجُ ضيقٌ بلا مَخرج، والضّيْقُ قـد يكـون فيه مـخـرجٌ وقـد لا يكون

الحَرج: ضيقٌ لا منفذ فيه، مَأْخوذٌ منَ الحَرَجَة، وهي الشّجَرُ المُلْتَفّ، حَتَّى لا يُمكنَ الدُّخولُ فيه ولا الخُروجُ منه، ولِهَذا جاءَ بِمَعْنَى الشَّكّ في قَوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النّساء: 65] أَي: شَكًّا، لِأَنّ الشّاكّ في الأَمر لا ينفذُ فيه، ومثلُه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: 2]. وقالَ بعضُ المُفَسّرين في قَوْله تَعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحجّ: 78] إنَّه أَرادَ ضيقًا لا مَخْرَج مِنْهُ، وذلك أَنّه يتَخَلَّصُ منَ الذَّنب بالتَّوْبَة، فالتّوبة مخرجٌ، و[كذلك] ترك ما يَصْعُب فعلُه على الإنْسان بالرُّخَص، و[ما] يُحتجّ بِهِ فيما اخْتُلِفَ فيهِ منَ الحَوادِث إن ما أدّى إلَى الضّيق، فَهوَ وما أوجب فَهوَ أولى[2]. وقد ورد لفظُ (الحَرَج) في القرآن على ثلاثة معانٍ؛ هي: الضّيقُ، والشّكّ، والإثم. وغالبًا ما يأتي لفظُ (الحَرَج) إذا لم يكن لفظُ (الضّيق) وافيًا في بيان المقصود؛ لأنّ في (الحرج) من معنى شِدّة الضّيق، ما ليس في الضّيق.

فالفرقُ بين لفظَي الضّيقِ والحَرَج: أنّ الحَرَج ضيقٌ لا منفذَ فيه، أمّا الضّيق: فهو المكان الضّيقُ، وليس بالضّرورة أن يكون بلا منفذ. ولذا فقد آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ بالضّيق؛ إذ في الأمر مُتّسَعٌ، وليس الأمرُ في هذه القضيّة بالغَ الضّيق.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (همم) و(حزن)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 267.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 307.

المكْر والخِداع والكَيْد:

يُقال: خادَع إذا لم يبلغ مُرادَه، وخَدَع: إذا بلغ مُرادَه، ولا بُدّ للمُشْتَرك فيهِ من اثْنَيْنِ مغايرين بِالذّاتِ، بِخِلاف الخَدْعِ، فَإنَّهُ يَكْفي فيهِ المُغايرَةُ بَين الفاعِل والمَفْعول بِالاعْتِبارِ. والخَدْعُ: أَن يستر عَنهُ وجهَ الصَّواب، فيوقِعَه في مَكْروه، وأَصلُه من قَوْلهم: خَدَع الضَّبُّ، إذا توارى في جُحْره، وخَدعَهُ في الشِّراء أَوِ البيع[1].

وأمّا المَكْر: فمثلُ الكَيْدِ في أَنّه لا يكون إلَّا مَعَ تدبُّرٍ وفِكْر، إلا أَنّ الكَيْدَ أقوى منَ المَكْر، والشَّاهِدُ أَنه يتَعَدَّى بِنَفسِه، والمَكْرُ يتَعَدَّى بحرف، فَيُقال: كاده يكيده، ومكر بِه، ولا يُقال: مكره، والَّذي يتَعَدَّى بِنَفسِهِ أقوى. والمَكْر أَيْضًا: تَقْديرُ ضَرَرِ الغَيْر من أَن يفعل بِهِ، أَلا ترى أَنه لَو قالَ لَهُ: أَقْدِرُ أَن أفعل بِكَ كَذا، لم يكن ذَلِك مَكْرًا، وإِنَّما يكونُ مكرًا إذا لم يُعلِمْهُ بِهِ. والكَيدُ اسْمٌ لإيقاع المَكْروه بِالغَيْر قهرًا سَواء عَلِمَ أَو لا، والشَّاهِد قَوْلُكَ: فلانٌ يَكايدُني، فَسمّى فِعْلَه كيدًا وإن عَلِمَ بِهِ، وأَصل الكَيْد: المَشَقَّة، ومِنْه يُقال: فلان يَكيدُ لنَفسِهِ، أَي: يُقاسي المَشَقَّة، ومِنْه الكيدُ لإيقاع ما فيهِ منَ المَشَقَّة[2]. ولمّا كان المَكْرُ مصحوبًا بالتّدبير والفِكْر، وكان الظّاهِرُ عليه إيقاعَ المَكْروه في الخَفاء، ناسبَ اختيارُه صنيعَ الكافرين الذين كانوا يُضْمِرون للنّبيّ ﷺ الخُطَطَ للنّيل منه.

الكَيْدُ أقوى منَ المكْر، والخِداعُ سَتْرُ وجهِ الصّواب

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 431.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ [النّمل: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استمرارُ الكفّار في جدلهم بالباطل لدَحْض الحقّ برغم ظهورِه وبيانِه

لَمّا أشارَ القرآنُ الكريم إلى أنّهم لَمْ يُبْقوا في المُبالَغَةِ في التَّكْذيبِ بِالسّاعَةِ وجْهًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أشارَ إلى أنَّهم بِالوَعيدِ بِالسّاعَةِ وغَيْرِها مِن عَذابِ اللّه أشَدُّ مُبالَغَةً، فأورد هذا السّؤالَ من أسئلتهم التي أرادوا بها المبالغةَ في إنكار العذاب الدّنيويّ والأُخرويّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمّيَ بذلك لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولأَنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ. وأَصْلُ هَذا مِنْ قَوْلِهِمْ: شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ: صُلْبٌ، ورُمْحٌ صَدْقٌ[2]. فالمعنى المِحوريّ: صلابةٌ أو قوّةٌ في باطن الشّيء، مع شِدّة تماسُكِ جِرمِه[3]. والصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدًا كان أو غيرَه، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلّا في القول، ولا يكونان في القول إلّا في الخبر دونَ غيره من أصناف الكلام، وقد يكونان بالعرض في غيره من أنواع الكلام، كالاستفهام والأمر والدّعاء. والصِّدْقُ: مطابقةُ القولِ الضّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا، ومتى انخرم شرطٌ من ذلك لم يكن صِدْقًا تامًّا[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 209.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

استبعادُ الكفّار للعذاب الدّنيويّ دليلٌ على ضيق أُفقِهم وانغلاقِ عقولِهم

حكى اللّهُ تعالى إنكارًا آخَر ممّا أنكرَه الكفّارُ غيرَ إنكارِ البعثِ والسّاعة، وهو إنكارُ عذابِ اللّه في الدّنيا، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وكَأنَّهم فَهِموا وعْدَهم بِالعَذابِ مِنَ الأمْرِ بِالسَّيْرِ والنَّظَرِ في عاقِبَةِ أمْثالِهِمُ المُكَذِّبينَ. أي: يقول هؤلاء المشركون في مكّة وغيرُهم في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادِهم وقوعَ ذلك: متى وقتُ هذا العذاب الذي تَعِدُنا به، إن كنتُم أيُّها الرَّسولُ والمؤمنون به صادقين في ادِّعائكم وقولِكم؟ يقولون ذلك على سبيل السّخرية والاستهزاء والإنكار(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو:

شعورُ الكفّار بصِدق البعث بعد السّير في الأرض، رغمَ إصرارِهم على إنكاره جحودًا وكُفرًا

عطفَ النَّظمُ الحكيم قولَه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾، وذلك أنّه لمّا أخبر اللّهُ ﷻ عن إنكار المشركين البعث والحساب، وذلك من أحوال الآخرة؛ أخبر هنا عن عنادهم واستكبارهم بإنكارهم عذاب الدُّنيا الذي تُوُعِّدوا به حالَ عدم إيمانهم.

دلالةُ التّعبير بالقول:

جُرأةُ الكفّار وشِدّةُ عنادِهم، وتصريحُهم بكفرهم وشَكِّهم

عبّر النّظمُ الحكيم في صدر الآية بفعل القول ﴿وَيَقُولُونَ﴾ دونَ غيرِه مِنَ الأفعال التي تدلُّ على معنى القول، وذلك لأنّ مادّة القولِ تشمل كلَّ أنواعِ التّعبير اللّفظيّ، سواء ما كان منها مباشِرًا أو غيرَ مباشِر، ففيه إيجازٌ واختصار يُناسِب بلاغةَ القرآن، ولِما فيه مِنَ الدّلالة على جُرأة الكفّار وشِدّة عنادِهم، وتصريحِهم بكفرهم دونَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 50.

مواربةٍ أو لُجوءٍ للتّلميح والإلماع، وهو ما يُشير إلى أنّ عنادَهم قد قادَهم إلى السَّفه وعدمِ الرَّويَّة، فجزموا حيثُ لا ينبغي الجَزْمُ.

نُكْتَةُ العُدول عنِ التّعبير بالماضي إلى المضارع:

عنـادُ المُكذّبين بـالـبـعـث ومـمـاراتُـهـم مستمرّةٌ حاضرةٌ باديَةٌ للعَيان

جاء الفعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بِالمُضارِعِ المُؤْذِنِ بِالتَّجَدُّدِ؛ لِلدّلالَةِ عَلى تَجَدُّدِ ذَلِكَ القَوْلِ مِنهم كُلَّ حينٍ لِلاستِمْرارِ، أيْ: لَمْ يَزالوا يَقولونَ، وفيه إشارةٌ إلى شِدّة عنادهم الذي استحَقّوا به مصيرَ المُجرمين السّابقين[1]. وكان مقتضى الظّاهر أن يَرُدّ النّظمُ القرآنيُّ على نحو: (وقال الذين كفروا متى هذا الوعد) أو (وقالوا متى هذا الوعد)، ولكنّ النَّظمَ الحكيم عدلَ عنِ التّعبير بالماضي إلى المضارع؛ إيماءً إلى استحضار الحالِ الماضيَة منهم؛ لكون ذلك دالًّا على تَكرار صدوره منهم، وأنّ العناد شأنُهم ودَأْبُهم، وأنّهم مستمرّون فيه دونَ مَسْكَة من رَويّة أو عقلٍ.

التّوجيهُ البلاغيُّ للاستفهام في الآية:

سخريةُ الكفّار وتَـهَـكُّـمُـهـم بقضية البعث، دلـيـلٌ على سَفَهِهِم وعدمِ إدراكِهم

جاء الاستفهامُ عن موعد حلول العذاب كما حلّ بالأُمم السّابقة من منكري البعث في القرآن الكريم بالصّيغة نفسِها، في سبعة ستّة مواضعَ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 48، والأنبياء: 38، والنّمل: 71، وسبأ: 29، ويس: 48، والملك: 25]، وصَدَر كذلك في صورٍ قوليَّةٍ مختلفة، فمَرّة يقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: 51]، ومَرّة بالسّؤال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ [النّازعات: 42]، أو ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ [القيامة: 6]. فالعباراتُ مختلفةٌ، والمعنى واحد، وهذا الاستفهام استفهامٌ مجازيٌّ، وقد أجمع الأئمّةُ على أنّ المُراد به الاستبعادُ والإنكارُ، أي: إنكارُ وقوعه، وأنّه لن يكون[2]. فالاستفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ هاهنا لا يجري على حقيقته

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 27.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 183.

في طلب تعيين الوقت؛ إذ لا يخلو مِن استنكار وتَهَكُّم على الوعد، دليلًا على تعنُّتِهم، وإعناتهم لأنفسهم، وتحدّيهم للّه ورسولِه أن يَنْزِل بهم ما وُعِدوا من عذاب[1].

بلاغةُ الكناية في الاستفهام:

المبالغةُ في تكذيب البعث واستبعادِه وإنكارِه دليلٌ على فساد عقولهم

جاء الاستفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دالًّا على التّهكُّم والاستهزاء والسُّخريَة، فهو كناية عن عدم اكتراثهم به، وأنّهم لا يأبَهون به، لينتقلَ من ذلك للتّدليل على أنّهم مُكذّبون بحصوله، وذلك بطريق الإيماء، فهو اسْتِفْهامُ تَهَكُّم وسخرية، بِقَرِينَةِ قَوْلِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]، أي: إن كنتم صادقين في أنّ حلول العذاب أمرٌ واقعٌ لا شكَّ فيه، فَعَيِّنوا لنا وقتَه وموعدَه. والمرادُ الحقيقيُّ من سؤالهم هذا المبالغةُ في تكذيب البعث، فكأنّهم قالوا: لن نُصَدّقَ بحلول العقاب بنا حتّى نرى ما وعدتنا به رأيَ العين، كنايةً عنِ اعتقادهم عدمَ حلولِه، وأنّهم لا يصدّقون به، أو كنايةً عنِ انعدام وقتٍ تقوم فيه السّاعة؛ لأنّ انعدام الوقتِ يستلزم انعدامَ وقوعِ حَدَثٍ فيه؛ لأنّ كلّ حَدَث لا بدّ له من زمان يقع فيه، فنَفْيُ الزّمان كنايةٌ عن نفي حلول العذاب بهم، وعن نفي البعث[3].

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة:

تَهكُّمُ المشركين بأمر البعث دليلٌ على سَفَهِهم وفسادِ عقولِهم

عبّر النَّظمُ الحكيم في حكايةٍ لأقوال المشركين باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، الّذي يرجع إلى حلول العذاب بهم كما كانت عاقبةُ المجرمين السّابقين، واستعمالُه على هذا النّحو يُفيد المبالغةَ في تَهكُّم المشركين بوقوعه، واستبعادِ حدوثِه، واستبطاءِ حصولِه؛ تحقيرًا من قضية البعث وأمور الآخرة.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5481.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 27.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 183.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾:

مــن سُــنن اللـه الماضيـة استـئـصـالُ المـكـذّبـين في الدّنيا وتعذيبُهم في الآخرة

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ للعهد العلميّ، والمعنى: ويقولون متى هذا الوعد الذي تتهَدَّدُنا به كلّ وقتٍ وحين، وهو إمّا الاستئصالُ في الدّنيا، وإمّا العذابُ الأُخرويّ، وقد أيقنوا بذلك لِما رأوا مصائرَ المُكذبين من قبلهم، ولكنّهم أَبَوا إلّا الإنكارَ والاستكبار.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمصدر ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾:

مبالغةُ الكفّار في إنكار العذاب الدّنيـويّ والأُخرويّ

أُطلِقَ الوعدُ في قول الله جلّ اسمُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، وهو في الأصل مصدرٌ مِنَ الفعل: وعد يعدُ؛ على الأمر الموعود به، فالسّؤال عنه باسم الزّمان مُؤوّل بتقديرٍ يدلّ عليه المقام، أي: متى ظهورُه؟ والتّعبير به من قبيل المجاز المُرسل، بعلاقة التّعلّق الاشتقاقيّ، والنُّكتَةُ في ذلك: المبالغةُ في نفي الأمر الموعود به؛ بإبطال أصله، وهو أن يكون الوعد بالعذاب في الدّنيا والآخرة صحيحًا.

عِلّةُ تعليقِ الشّرط بالحرف ﴿إِن﴾ دون (إذا):

استـبـعـادُ الكافرين لِصدق النّبيّ ﷺ فيما أخـبـر بـه من توعُّدِ اللهِ لهم بالعذاب

علَّقَ النّظمُ الحكيم الشّرطَ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بحرف الشّرط ﴿إِن﴾، دون (إذا)؛ وذلك لأنّ حرفَ الشّرط ﴿إِن﴾ يُستعمل في الأصل للأمر المشكوكِ فيه، الذي لا يُقطَع بتحقّقه، كالأمور الموهومة، والنّادرة، والمستحيلة، وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهو لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا[1]، بخلاف (إذا) التي تفيدُ التّحقّقَ؛ ولذا كان مِنَ المناسب أن يأتي بهذا الحرف - في حكايته لأقوالهم - ليلائِمَ تَهَكُّمَهم وإنكارَهم لحصول العذاب الذي توعَّدهمُ اللّهُ به.

بلاغةُ حَذْفِ جوابِ الشّرط:

حُذِفَ جوابُ الشّرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ لدلالة

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

المَقام عليه؛ إذِ المُراد: إن كنتم صادقين في أنّ الله توعَّدنا بالعذاب، كما فعل بالأُمم السّابقة؛ فلْيأتنا بهذا العذاب، أو يكون الجواب: فمتى هذا الوعد؟ فَحُذِف إيجازًا؛ ليكون ذلك أنسبَ للدّلالة على مبالغتهم في الإنكار والاستكبار.

من سَفَهِ الكافرين استعجالُهم بالعذاب على وجه الاستهانة

سِرُّ التّعبيرِ بالفعل ﴿كُنتُمۡ﴾:

مبالغةُ الكفّار في تأكيد تكذيبهم الرَّسولَ ﷺ والمؤمنين

عدلَ النَّظمُ الحكيم عنِ التّعبير بـ(إن صدقتم) إلى التّعبير بـ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ وذلك لأنّ ذِكْرَ فعلِ (الكون) في الآية الكريمة يدلُّ على الحصول المطلق، وخبرُه يدلُّ على الكون المخصوص، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ أيْ: أنْتَ ومَن تابَعَك، كَوْنًا هو في غايَةِ الرُّسوخِ، كَما تَزْعُمونَ ﴿صَٰدِقِينَ﴾[1].

دلالةُ التّعبير بالصّدق مادّةً وصيغةً:

تمادي الكفّارِ في نفْيِ الصّدقِ عنِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين

جاء التّعبيرُ بمادّة الصّدق في الآية مناسبًا غايةَ التّناسبِ لادّعاء الكافرين المُعانِدين تكذيبَ النّبيّ ﷺ والمؤمنين؛ وذلك أنّهم بعد أن تيقّنوا من هلاك المُكَذّبين منَ الأُمم السّابقة، زادوا ذلك عِنادًا واستكبارًا، فرَمَوا المؤمنين بما في ذات نفوسهم من تكذيب، فادَّعَوا عليهمُ الكذبَ، وعبّروا باسم الفاعل، الذي يدلّ على الثّبات والدّوام، للمبالغة في نفي الصّدق عنِ المؤمنين، والمعنى: إن كان الصِّدق لكم عادةً متأصِّلةً في نفوسكم فأخبرونا بموعد ظهورِ هذا الوعيد.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بضمير الجَمْع:

أهلُ الإيمان تابعون للنّبيّ ﷺ فيما بَلَّغَهُم عن ربِّه ﷻ

عبّر النَّظمُ الحكيم في حكايته لأقوال المشركين باسم الفاعل المُسنَدِ إلى الجمع ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ وذلك للدّلالة على تكذيبهم للرّسول ﷺ ولأتباعه منَ المؤمنين، برغم أنَّ تكذيبَهم إنّما هو في المقام الأوّل تكذيبٌ للنّبيّ ﷺ وحدَه، ولكنّهم عَبّروا بذلك لإيقانهم أنّ المؤمنين تابعون للرّسول ﷺ فيما بَلَّغَهُم عن ربِّه، فصدر ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 209.

منهم على هذا التّعبير على سبيل التّهكُّم والسّخريَة، رغبةً منهم في تشكيك المسلمين في صِدق نبيّهم، وإدخالِ الرّيبة في قلوبهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّدق والإيمان:

الصّدقُ مطابقةُ القولِ الضّميرَ والمُخْبَرَ عنه، والإيمانُ نقيضُ الكفر

الصِّدْقُ هو مطابقةُ القولِ الضّميرَ والمُخْبَر عنه معًا، ومتى انخرمَ شرطٌ من ذلك لم يكن صِدْقًا تامًّا. وأمّا الإيمان: فهو الثِّقَةُ، وإظْهارُ الخضوع، وقبولُ الشَّريعَة. والإيمان بالله: مَعْنَاهُ التَّصْديقُ الَّذي هوَ نقيض الكفْر، وهوَ الإقْرارُ بِاللّسانِ والتّصديقُ بِالقَلْبِ. والتّصديقُ بِالقَلْبِ هوَ الرُّكْن الأَعْظَم، والإقْرارُ كالدّليل عليه(1). فالإيمانُ يشمل الصّدقَ وزيادةً، فكلُّ إيمانٍ صدقٌ، ولا يدخل كلُّ صدقٍ في باب الإيمان. ولمّا كان سؤالُهم عن خبر يشكّون به، وهو البعثُ، ناسبَ التّعبيرُ بلفظ الصّدق.

(1) الرّاغب، المفردات: (صدق)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212 - 213.

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾

[النّمل: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قُربُ العذابِ الدّنيويّ منَ الكفّار نذيرٌ على سوء عاقبتِهم

لمّا استعجلت قريشٌ بأمر السّاعة، أو بالعذاب الموعود به، وسألوا عن وقته على سبيل الاستهزاء، قيل للنّبيّ أن يقول لهم: قل عسى أن يكون العذابُ الذي تتوقّعونه رَدِفكم بعضُه، أي: تبعكم عن قُرْبٍ وصار في الالتصاق بكم كالرّديف التّابعِ لكم بعضُ ما استعجلتُم به، وهو في آثاركم، ولاحقٌ بكم، وهو ما كان من عذاب يوم بدر. وقيل: عذاب القبر(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَدِفَ﴾: (ردف) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على اتِّباعِ الشَّيْءِ. فالتَّرادُفُ: التَّتابُعُ. والرَّديفُ: الَّذي يُرادِفُكَ. ويُقالُ: نَزَلَ بِهِمْ أَمْرٌ فَرَدِفَ لَهُمْ أَعْظَمُ مِنْهُ، أَيْ: تَبِعَ الأَوَّلَ ما كانَ أَعْظَمَ مِنْهُ. وأَرْدافُ النُّجوم: تَواليها. والرِّدْفانِ: اللَّيْلُ والنَّهارُ. وهَذا أَمْرٌ لَيْسَ لَهُ رِدْفٌ، أَيْ لَيْسَتْ لَهُ تَبِعَةٌ(2). والمراد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقْتَرب لكم، ودنا منكم، ولَحِق بكم ما استعجلتموه مِنَ العذاب(3).

2) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى الإِسْراعِ، والعَجَلَةُ في الأَمْرِ، يُقالُ: هوَ عَجِلٌ وعَجُلٌ، لُغَتانِ. واسْتَعْجَلْتُ فُلانًا: حَثَثْتُهُ. وعَجِلْتُهُ: سَبَقْتُهُ. والعُجالَةُ: ما تُعُجِّلُ

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/ 261، وأبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 480، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 209 - 210.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردف).
(3) الرّاغب، المفردات: (ردف).

مِنْ شَيْءٍ[1]. والمعنى المِحوريّ: سَبْقٌ بتحصيل الشَّيء قبلَ وقته[2]. والعَجَلَةُ: طلبُ الشَّيء وتحرّيه قبلَ أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومةً في عامّة القرآن، حتّى قيل: العَجَلَةُ من الشّيطان[3]. والمُراد بـ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: تتعجّلون العذابَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

في إمهال الكفّار مِنّةٌ عظيمةٌ من الله عليهم برغم استحقاقِهم للعذاب

أجابَهم اللّهُ تعالى على سؤالهم عن موعد حلول العذاب بهم، فقال: قل لهم - أيّها الرّسول الكريم - لا تتعجّلوا العذابَ، فعسى ما تستعجلونه من عذابٍ أن يكون رَدِفَ لكم، أي: دنا منكم، وصار رِدْفًا لكم، بعضُه قد لحَقِكم ونزلَ بكم، وبعضُه في طريقه إليكم، وأنتُم لا تشعرون بذلك، لشِدّة غفلتكم، وتبلّد مشاعرِكم. وقد لحقهم شيءٌ من هذا العذاب الذي تعجّلوه في مكّة، عندما أُصيبوا بالقَحْط والجَدب، ولحِقَهم شيءٌ منه بعد ذلك في بدر، عندما قَتَل المسلمون أكثرَ زعمائهم، كأبي جهل، وغيره. والتّعبيرُ بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾، و(لعل) هو يقينٌ واقعٌ، لا رجاءٌ متوقَّعٌ، فما يَعِدُ اللّهُ ﷻ به فهو واقعٌ لا شَكّ فيه، على أيّة صورة جاء عليها الوعد[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصلِ الآية عمّا قبلها:

جاء الجوابُ من الله على سؤالهم بتهديد المشركين بقُرْب حلولِ العذاب

فَصَلَ النّظمُ الكريم بفِعْل الأمر ﴿قُلۡ﴾ بينَ الآيتين، وذلك لشِبه كمالِ الاتّصال؛ لأنّ الآية الأولى تضمّنت سؤالًا، ووقعتِ الجملة الثّانية جوابًا له، وهو ما يُسَمّى بالاستئناف البيانيّ[5]، فقد أُمِرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5481، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 279، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 354.
(5) بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 462.

الرَّسولُ ﷺ بأنْ يَقولَ لَهم هذا القولَ كي يرتدِعوا بهذا التّهديد، الذي سُرعان ما تحقّقت بشائرُه في غزوة بدر وغيرها منَ الغزوات.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿عَسَىٰٓ﴾:

تتجلّى عَظَمةُ الألوهيّة وعُلوُّها حتّى في التّهديد والوعيد

عبّر النّظمُ الحكيم بـ﴿عَسَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾، و﴿عَسَىٰٓ﴾ منَ اللّه: إيجابٌ، وفسَّر كثيرٌ منَ المفسّرين (لعلّ) و(عَسَى) في القرآن باللّازم، وقالوا: إنّ الطّمع والرّجاء لا يَصِحُّ منَ اللّه، وفي هذا نظر كما يرى الرّاغبُ؛ وذلك أنّ اللّه تعالى إذا ذكر ذلك فإنّما يذكره ليكون الإنسانُ منه راجيًا، لا لأن يكون هو تعالى مَن يرجو، فقولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ [الأعراف: 129]، أي: كونوا راجين في ذلك[1]، وهو أشبه بالاختلاف اللّفظيّ لا الحقيقيّ. و(عسى) و(لعلّ) و(سوف) في وعد المُلوك ووعيدِهم - يدلّ على صدق الأمر وجِدِّه، وما لا مجالَ للشَّكّ بعدَه، وإنّما يعنون بذلك: إظهارَ وقارهم، وأنّهم لا يعجلون بالانتقام، لإدلالِهم بقهرهم وغلبتهم، ووثوقِهم أنّ عدوَّهم لا يفوتُهم، وأن الرّمزةَ إلى الأغراض كافيةٌ من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعدُ اللّه ووعيدُه[2]. فيكون من قبيل الاسْتعارَة التّمثيليّة، حيثُ شَبَّه الهيئةَ الحاصلة من وعيد الملوك بكلمة (عسى)، بالهيئة الحاصلة منَ الوعيد جزمًا في عدم التّخلّف، وكذا وعدهم[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾:

إضافةُ فعلِ (الكون) تقتضي توكيدَ ما جاء بعدَه منَ الوعيد بالعذاب

آثر النَّظم الكريم التّعبير بـ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾؛ وذلك لأنّ ذِكْر فعلِ (الكون) يدلُّ على الحصول المُطلَق، وخبرُه يدلّ على الكون المخصوص، فجيءَ بلفظٍ دالٍّ على حصولٍ ما، ثمّ عيَّن

(1) الرّاغب، المفردات: (عسى).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 470.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 442.

بالخبر ذلك الحاصلَ، فكأنّه قال: رَدِفَ لكم بعضُ العذاب الذي تستعجلون، ثمّ عبّر بالكون لمزيدٍ منَ التّأكيد. فالفائدة في إيراد مطلقِ الحصول أوّلًا، ثمّ تخصيصِه، مع فائدة أخرى، هي دلالتُه على تعيين زمان ذلك الحصول المُقيَّد[1]، وفي ذلك توكيدٌ على أنّ العذاب سيحيق بهم عاجلًا، ومبالغةٌ في استحقاقهم له، بسبب تكذيبهم وكفرهم وعنادِهم.

تأكيدُ حلولِ العذاب بالمُكذّبين المُعانِدين المتهكّمين

فائدةُ التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾:

ذكرَ المُعربون في اللّام من ﴿لَكُم﴾ أربعةَ أقوال؛ **الأوّل**: أنها حرفٌ على بابها، وهي مع مجرورها الكافِ متعلّقان بـ﴿رَدِفَ﴾، ويكون ﴿رَدِفَ﴾ متضمّنًا معنى فعلٍ يتعدّى باللّام، نحو: (قَرُب) و(أَزِفَ). **والثّاني**: أن تكون مزيدةً للتّأكيد، والكافُ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به لـ﴿رَدِفَ﴾ التي تتضمّن معنى (تبع) أو (لحق) على هذا الوجه. **والثّالث**: أنّها للعِلّة، والكافُ في محلّ جَرٍّ بها، وهما متعلقان بـ﴿رَدِفَ﴾، والمفعول به محذوف؛ أي: رَدِفَ الخَلْقَ لأجلكم. **والرّابع**: أنّها متعلّقة مع مجرورها بمحذوف خبر مُقَدّم، و(بعضُ) مبتدأ مُؤَخّر. والوجهُ الأوّل أحكمُ، والثّاني غيرُ بعيد، أمّا الثّالث والرّابع فالضّعفُ ظاهرٌ فيهما[2].

وعلى الوجهين الأوّل والثّاني فإنّ في ﴿لَكُم﴾ تأكيدًا للمعنى المُراد في الآية، وهو حلولُ العذاب بهم بما يُشبِهُ الاختصاصَ، فقد عدلَ النّظم عن مثل: (قل عسى أن يكون رَدِفَ بعضُ الذي تستعجلون) إلى التّعبير بـ﴿لَكُم﴾ لما فيها من معنى التّوكيد والمبالغة والاختصاص.

دلالةُ تقديمِ خبر ﴿يَكُونَ﴾ على اسمها:

لا مَفَرَّ لهؤلاء المُكذّبين من عذاب الله

قَدَّمَ النّظمُ الحكيم خبرَ ﴿يَكُونَ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، على اسمها، وهو قوله تعالى: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِى تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾،

---

(1) الشّريف الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 221، والدّمامينيّ، تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد: 3/ 171، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 209.

(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 30.

والأصل بحسب مقتضى الظّاهر أن يكون النّظمُ: (قل عسى أن يكون بعضُ الذي تستعجلون رَدِفَ لكم)، وقد دلَّ هذا التّقديمُ على الاهتمام بالمُتقدِّم، وهو تأكيدُ حلولِ العذاب بهؤلاء المُكذِّبين المُعانِدين، فلا مَفَرّ لهم من عذاب اللّه ما داموا على شِرْكهم وكُفْرِهم.

فائدةُ إضافةِ ﴿بَعۡضُ﴾ إلى ﴿ٱلَّذِى﴾:

ما أعدّهُ اللهُ للمشركين المُعانِدين منَ العذاب عظيمٌ

عبّر النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِى تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ بإضافة كلمة ﴿بَعۡضُ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وفي استعمال هذه الكلمة دلالةٌ على التّخويف والتّهديد، فإنّ كلّ ما سيَحِلُّ بهم منَ العذاب في القريب العاجل إنّما هو جزءٌ ممّا ينتظرُهم منَ العذاب العظيم، وطائفةٌ منَ العذاب الأليم، ويمكن القولُ كذلك: إنّ ذِكر ﴿بَعۡضُ﴾ الذي يستعجلونَه دونَ العذاب السّاحِق الماحِق، كما كان لعادٍ وثمودَ وأصحابِ الأيكة؛ لأنّ اللّه تعالى يتولّى تأديبَهم في الحياة الدّنيا، بالغزوات المُؤدِّبة لهم كغزوة بدر، والخندق، والحُدَيبية، وفتحِ مكّة؛ لأنه سبحانه يريد أن يجعلَ من ذُرّيتِهم من يَعبُد اللّه ويجاهدُ في سبيله، كما كان خالدُ بنُ الوليد، وعكرمةُ بنُ أبي جهل، وغيرُهما[1]. وعبّر بإضافتها إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ إشارةً إلى ما في حيّز الصِّلةِ منَ الاستعجال، وهو ما يُنبِئ بأنّ العذاب الدّنيويَّ واقعٌ بهم لا محالةَ، سواء أستعجلوه أم لا، ما داموا على كفرهم وعنادهم.

عِلّةُ التّعبيرِ بالاستعجال مادّةً وصيغةً:

سَفَهُ الكفّار وعنادُهم دفعَهم إلى تجديد استهزائهم وتَهَكُّمِهم بأمر العذاب والبعث

العَجَلَةُ: طَلبُ الشَّيءِ وتَحَرّيه قبلَ أوانه، وهو مِن مقتضى الشّهوة، ولذلك فقد غلبَ استعمالُها في القرآن الكريم على مواطنِ الذّمِّ، وقد بالغ الكفّارُ في التّهكُّم بيوم البعث وإنكارِ العذاب الدّنيوي والأُخرَويّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5480.

في الآية السّابقة، حتّى فُهِمَ منَ السّياق أنّهم يقولون: إن كان هذا العذابُ الذي تتوعَّدُنا به واقعًا حقًا؛ فَعَجِّل به، فنَسبَ النّظمُ الحكيم الاسْتِعْجالَ إلَيْهِمْ بناءً عَلى ما يَقْتَضيهِ ما هم عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذيبِ والاِسْتِهْزاءِ، وإلّا فَلا اسْتِعْجالَ مِنهم حَقيقَةً[1]. وعَبَّر بالفعل المضارع الذي يُفيدُ التّجدُّدَ والاستمرارَ مُسنَدًا إلى ضمير الجمع؛ للإشارة إلى كثرة عنادِهم واستكبارِهم المَرَّةَ تِلْوَ المَرّة، وليوحيَ بتألُّبِهم على الجَهْر بالعِناد والتّهكُّم والسُّخْرية من وعيد اللّه.

دلالةُ حذفِ المفعول في ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾:

في حذف الضّمير العائد على العذاب تفخيمٌ وإبهامٌ للتّخويف والإنذار

كان مقتضى الظّاهر أن يأتيَ النّظمُ بذِكْر المفعول به، فيقول: (تستعجلونه)، ولكنّه عَدَل عن هذا الظّاهر، إلى حذف المفعول في ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؛ لتفخيم شأنِ العذاب وتضخيمه في نفوس المُكذِّبين المُعانِدين، ولأنّ إبهامَ هذا العذابِ من شأنه أن تذهب نفوسُهم في تقديره كلَّ مذهبٍ، فتمتلئَ نفوسُهم رُعبًا ممّا ينتظرُهم منَ العذاب الأليم في الدّنيا، ومنَ الوعيد الشّديد في الآخرة.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيلية في الآية:

في النّزعة البيانيّة تأكيدٌ لحلول العذاب بالكافرين

في نظم الآية كلِّها اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، لا يَخْفى حُسْنُها، فقد شُبِّه العذابُ براكبٍ يَرتَدِفُ وراءَ آخَر، يتعجَّلُ الوصولَ إليه، وذلك لإيثار ما عَلَيْهِ النَّظْمُ الكَريمُ عَلى أنْ يُقالَ: (عَسى أنْ يَرْدِفَكم ... إلَخْ)؛ لِكَوْنِهِ أدَلَّ عَلى تَحَقُّقِ الوَعْدِ[2].

بلاغةُ أسلوبِ الحكيم في الآية:

تَهَكُّمُ الكفّار دليلٌ على سَفَهِهم وقِلّةِ عقولِهم

عبّرتِ الآيةُ السّابقة عن إنكار الكفّار واستبعادِهم لأمر العذاب الدّنيويّ والأُخْرويّ، وبدا ذلك واضحًا في الاستفهام التّهكُّميّ السّاخِر، ولكن جاء الجَوابُ في هذه الآية جاريًا عَلى الأُسْلوبِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 50.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 50.

الحَكيمِ، بِحَمْلِ اسْتِفْهامهم عَلى حَقيقَةِ الِاسْتِفْهام؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ حَقَّهم أنْ يَسْألوا عَنْ وقْتِ الوعيدِ ليَتَقَدَّموهُ بِالإيمانِ(1). ومن شأن هذا الأسلوب أن يَلْفِت انتباهَ المُتلقّي ويَشْحَذ ذِهنَه في تَلقّيه لأقوال الكفّار، ليَتبيّن ما فيها من تهافتٍ وسَفَهٍ وغُرور.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 27.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾

[النّمل: 73 - 75]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

من دلائل الألوهيّةِ سعةُ علْمِه سبحانه وعميمُ فضلِه وإحاطتُه وحده بالغيب

بعد التّخويف والتّهديد بحلول العذاب الدّنيويّ، وما يُلقيه ذلك في نفوس الكافرين منَ الرّعب وانقطاعِ الأمل؛ جاءتِ الآيات التّالية لتوضِّح أنّ اللّه ﷻ لا يَعْجَلُ عَلى أهْلِ المَعاصي بِالِانْتِقام، مَعَ القَطْعِ بِتَمامِ قُدْرَتِه، وأنّ ذلك منه سبحانه مَحْضُ تَفَضُّلٍ وإنْعام. ولَمّا كانَ الإمْهالُ قَدْ يَكونُ مِنَ الجَهْلِ بِذُنوبِ الأعْداءِ، قالَ نافِيًا لِذَلِكَ: إنّ ذلك الحِلمَ والتّفضّل والإنعام منه سبحانه مع تمام العِلْم بما تحويه صدورُ الكافرين وما يعلنونه، وأنّه تبارك اسمُه لا يَخْفى عليه شَيْءٌ في الأرض ولا في السّماء، بل أحصى أفعالَهم وأقوالَهم في كتاب مبين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلٍ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ. والإفْضالُ: الإحْسانُ[2]. فالمعنى المِحوريّ: زيادةٌ من مادّة الشّيء متميّزةٌ عنه[3]. والفَضْلُ: الزّيادة عنِ الاقتصاد، وذلك ضربان؛ محمود: كفضل العِلْم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفَضْلُ في المحمود أكثرُ استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210 - 211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاق المؤصّل: (فضل).

لزيادة أحدِ الشّيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرُبٍ: من حيثُ الجنسُ، والنّوعُ والذّاتُ، وكلّ عطيَّةٍ لا تَلْزَمُ من يُعطي يقال لها: فَضْلٌ. نحو قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 54][1]. ومعنى ﴿فَضۡلٍ﴾ في الآية: التّفضُّل منَ اللّه من غير إلزام، وفيه معنى الإحسانِ والمَنِّ والعَفوِ والتّجاوزِ والإنعام.

2) ﴿يَشۡكُرُونَ﴾: (شكر) أُصولٌ أَرْبَعَةٌ مُتَبايِنَةٌ بَعيدَةُ القياسِ، منها: الشُّكْرُ: الثَّناءُ عَلَى الإِنْسانِ بِمَعْروفٍ يولِيْكَهُ. وحَقيقَتُهُ الرِّضا بِاليَسيرِ[2]. والشُّكْرُ: تصوُّر النِّعمة وإظهارُها، وهو الامتلاءُ من ذِكْر المُنْعِم عليه. وهو ثلاثةُ أضربٍ: شُكْرُ القلبِ، وهو تَصوُّر النّعمةِ، وشُكْرُ اللّسانِ، وهو الثّناءُ على المُنعِم، وشُكْرُ سائر الجوارح، وهو مكافأةُ النّعمة بقدر استحقاقه. والشُّكْر: عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه وإظهارُه؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاء النّفس ورضاها بما قُدّم لها من خير، ونُجوعُ هذا الخيرِ فيها. وشُكْرُ اللّه للعبد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التّغابن: 17] إثابَتُه إيّاهُ على الطّاعة، وقيل: رضاه عنه؛ إذِ الرّضا كالشّكر في أصل معناه، ولكنّ الشّكرَ يزيد عنِ الرّضا في معنى الظّهور، والإثابةُ تاليَةٌ للرِّضا[3].

3) ﴿تُكِنُّ﴾: (كنن) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ. يُقالُ: كَنَنْتُ الشَّيْءَ في كِنِّه، إذا جَعَلْتَهُ فيهِ وصُنْتَهُ. وأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ[4]. والكِنُّ: ما يُحفَظُ فيه الشَّيءُ. يقال: كَنَنْتُ الشَّيءَ: جعلتُه في كِنٍّ، وخُصَّ (كَنَنْتُ) بما يُسْتَر ببيت أو ثوب، وغير ذلك منَ الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ [الصّافات: 49]، و(أَكْنَنْتُ): بما يُسْتَر في النّفس[5]. والمعنى المِحوريّ السَّتْرُ في تجوُّف متينٍ يستُر أو يَحْمى. قال تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 235]، وجمْعُ الكنّ أَكْنانٌ[6]. والكِنانُ: الغطاءُ الذي يُكَنّ فيه الشَّيء، والجمع أَكِنَّةٌ. قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25]، وقال:

(1) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كنن).
(5) الرّاغب، المفردات: (كنن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كنن).

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: 5]. قيل: معناه في غطاء عن تفهُّم ما تورِدُه علينا[1]. ومعنى ﴿تُكِنُّ﴾: تُخْفي وتَسْتُر.

4) ﴿صُدُورُهُمْ﴾: (صدر) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: صَدْرُ الإِنْسانِ وغَيْرُهُ، والجَمْعُ: صُدورٌ[2]. والمعنى المِحوريّ: مُقدّم جسم الشّيء أو أعلاه الذي يَبْدأ منه أَضْخَمُه[3]. قال بعضُهم: حيثما ذَكَر اللّهُ تعالى القلبَ فإشارةٌ إلى العقل والعِلْم، نحو: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذَكَر الصَّدْرُ الصَّدْرَ فإشارةٌ إلى ذلك، وإلى سائر القِوَى مِنَ الشّهوة والهَوَى والغضب ونحوِها، كقوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ [طه: 25]، فسؤالٌ لإصلاح قواه، وكذلك قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التّوبة: 14] إشارةٌ إلى اشتفائهم، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: 46]، أي: العقولُ التي هي مندرسةٌ فيما بين سائر القِوى، وليست بمهتدية[4].

5) ﴿يُعْلِنُونَ﴾: (علن) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِظْهارِ الشَّيْءِ والإِشارَةِ إِلَيْهِ وظُهورِه. والعَلانيَةُ: ضِدُّ السّرّ، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دونَ الأعيان[5]. والمعنى المِحوريّ: ظهورُ ما كان خفيًّا في الباطن، أي: خروجُه منه مع انكشافٍ وإشهارٍ، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]. وكلّ ما في القرآن مِنَ التّركيب قُرِن فيه ذِكْرُ العلانية بذِكْر ضِدّها الخفاءِ أوِ الإسرارِ[6]. قال تعالى: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: 9]، أي: سِرًّا وعلانية[7]. ومعنى: ﴿يُعْلِنُونَ﴾ يُظْهِرون.

6) ﴿غَآئِبَةٍ﴾: (غيب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ العُيونِ[8]. والمعنى المِحوريّ: الاختفاء استتارًا بكثيف في أثناءٍ أو عُمْقٍ[9]. ويقال للشّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرّةٍ في السّموات

(1) الرّاغب، المفردات: (كنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علن).
(7) الرّاغب، المفردات: (علن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).

السّماوات ولا في الأرض. وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والغَيْبُ في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3] ما لا يقع تحتَ الحواسّ، ولا تقتضيه بداية العقولِ، وإنّما يُعْلَم بخبر الأنبياء عليهم السلام[1]. والغائبة هاهنا: كلُّ سِرٍّ مكتوم وأمرٍ خَفيّ يغيب عن أبصار النّاظرين[2].

7) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ. وبانَ الشَّيْءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[3]. والمعنى المِحوريّ: امتدادٌ بين طرفين أو جانبين، مع فصل كبير أوِ اتّساع. ومن ذلك: الفصلُ والتّمييزُ، جاء بمعنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المُتميّز من غيره يَلْفتُ النّظرَ، وهو المعنى الذي جاءت به كلُّ مفردات التّركيب القرآنيّة، عدا الظّرف (بين)[4]. والبَيانُ: ما بُيِّن به الشَّيءُ منَ الدّلالة وغيرها، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 118][5]. و﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾: يَبينُ لِمَن نظرَ إليه، وقرأ ما فيه، ممّا أثبتَ فيه ربُّنا جَلّ ثناؤُه[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عِظَمُ شأنِ الألوهيّة لا يَقْدُرُه حقَّ قَدْرِه إلّا قِلّةٌ منَ المؤمنين الشّاكرين

بعد أنْ ساقتِ الآيةُ السّابقةُ الإنذارَ بالعذاب العاجل القريب للمُكذّبين، بيّنت هذه الآياتُ الكريماتُ أنّ الله هو المُنعِم المُتفضِّلُ على النّاس جميعًا، مؤمنِهم وكافرِهم، حيثُ يُسْبِغ إنعامَه عليهم في الدّنيا، مع ظُلْمهم لأنفسِهم، وأنّه سبحانه يترك معاجلتَهم بالعقوبة على كفرهم ومعاصيهم، ولكنّهم مع ذلك كلِّه فإنّ أكثرَهم لا يشكر

(1) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 116.

اللّهَ على فضله، ولا يشكرُه إلّا القليلُ منهم. ثمّ ساقتِ الدّلائلَ البيّناتِ على قُدرته سبحانه وإحاطةِ عِلْمه بما في الضّمائر والسّرائر، كما يعلم الظّواهرَ، والمرادُ: أنّه تعالى عالمٌ بمكائدِ المشركين للرّسول، وسيُجازيهم على ذلك. ثمّ أبان اللّهُ تعالى حقيقةً شاخصةً عامَّةً، وهي أنّ كلّ ما في الكون محفوظٌ في اللّوح المحفوظ، فما من شيء غائبٍ مَخفيٍّ في السّموات والأَرَضين إلّا وهو موجودٌ معلومٌ في اللّوح المحفوظ، الذي أثبتَ فيه اللّهُ تعالى كلَّ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فهو سبحانه عالمُ الغيب والشّهادة، وهو ما غاب عنِ العباد وما شاهدوه، وعالمُ غيبِ السّموات والأرض من أمر الخلائقِ قاطبةً.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تلوينُ الخِطابِ في صدر الآية:

عَظَمةُ الرّبوبيّةِ في تأخير الوعيدِ بالعذاب القريبِ إلى الإمهال والفضل

انتقل النّظمُ الحكيم من وعيد الكفّار بالعذاب الدّنيويّ العاجلِ، إلى بيان فضل اللّه تعالى وإنعامِه على النّاس عامّة، وعلى الكفّار خاصّة بإمهالهم، فعطفَ بالواو بين ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾؛ وذلك للتّوسُّطِ بين الكمالَين، كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع بينَهما؛ إذ كلتاهما جملتان خبريّتان. وقد وقعتِ الآيةُ الثّانية مَوْقِعَ الاسْتِدْراك عَلى قَوْلِه تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، أَيْ: إنَّ تَأْخيرَ العَذاب عَنْهم هو مِن فَضْلِ اللّه عَلَيْهِمْ. وهَذا خَبَرٌ خاصٌّ بِالنَّبي ﷺ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ تَأْخيرَ الوَعيدِ أَثَرٌ مِن آثارِ رَحْمَةِ اللّه؛ لِأنَّ أزْمِنَةَ التَّأْخيرِ أَزْمِنَةُ إمْهالٍ، فَهُم فيها بِنِعْمَةٍ؛ لِأنَّ اللّه ذو فَضْلٍ عَلى النّاسِ كُلِّهِمْ[1]. فتَفضَّل اللّهُ عليهم بالإمهال، ولم يستأصلْهُم بعذابٍ قريب برغم استحقاقِهم لذلك.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

دلالاتُ التّوكيدِ بمُؤكّدات ثلاثةٍ:

فضلُ الله عميمٌ، وإنعامُه جزيلٌ، لا يُحْرَمُ منهما إلّا كلُّ معاندٍ أثيم

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمُؤكِّدات ثلاثةٍ، هي التّأكيد بالجملة الاسميّة، وحرفِ التّوكيد (إنَّ)، ولامِ التّوكيد المُزحلقة الواقعةِ في خبر (إنّ)، ومنها كذلك: التّعبيرُ بالاسم الدّالّ على المصاحبة (ذو)، وقد أفاد حشدُ هذه المُؤكِّداتِ إزالةَ كلّ شَكٍّ أو لَبْسٍ عند الكافرين المُكذِّبين بالبعث والعذاب الدُّنيويّ؛ لحَثِّهم على الدّخول في حظيرة الإيمان. والتَّأْكيدُ بـ (إنَّ) واللّام في ﴿لَذُو﴾ مَنظورٌ فيهِ إلى حالِ النّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ ﷺ، فالتَّأْكيدُ واقِعٌ مَوْقِعَ التَّعْويضِ بِهِمْ، بِقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ الرّبّ دونَ الإله:

الإنعامُ والتّفضُّل من مقتضيات الرّبوبيّة

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ وذلك لأنّ التّفضُّل بالإمهال برغم المعصية والتّكذيب في هذا السّياق أليقُ بمقتضيات الرّبوبيّة، وفي هذا إشارةٌ ضمنيّةٌ إلى الإنذار والتّخويف بهذا المقام المُنيف، ويفتحُ بابَ التّوبةِ والأَوبةِ لهؤلاء المُكذّبين المُعانِدين. ويمكن القولُ: إنّ نسبةَ الفضل للرّبوبيّة مَرّةً، وللأُلوهيّة مَرّات في سور البقرةِ ويونس وغافر من باب التّفنُّن في الخطاب.

دلالةُ إضافةِ الرّبّ إلى النّبيّ ﷺ:

تسليةُ اللهِ تعالى لنَبيِّه وتشريفُه، بإضافة ضميره إلى اسمه جل جلاله

جاءتِ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾ لتُضيفَ ضميرَ المخاطبِ إلى لفظ الرّبوبيّة، والمُراد بالمخاطب هاهنا النّبيُّ ﷺ أصالةً، وإن دخل فيه كلُّ مؤمنٍ مُصَدّقٍ يدعو إلى الله بالتّبعيَّة، وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيم التّعبيرَ بهذا الضّمير تسليَةً للنّبيِّ ﷺ بعد أن كَذّبَه قومُه، وعانَدوه، وتَهَكّموا بوعيد الله وعذابه الدّنيويّ والأُخرويّ، برغم حرصِ النّبيِّ ﷺ على إيمانهم وهدايتهم؛ استنقاذًا لهم منَ العذاب، فجاء لفظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

(الرّبّ) مشتملًا على معاني المَعيّةِ والرّعايَة والحِفظِ والعنايةِ، وذلك إشارةٌ إلى ظِلال الأُنس والمُلاطفة. ففي هذه الإضافة دلائلُ التّشريف والرِّفعة، وفي الرُّبوبيّة معاني الرّحمة والتّدبير، حتّى لا يَحْزَنَ النّبيُّ ﷺ أو يَضيقَ صَدرُهُ بصدودِهم وإعراضِهم.

توجيهُ التّعبيرِ بـ ﴿لَذُو﴾:

اللهُ سبحانه مُختصٌّ بالفضل وحْدَه

أفادتِ اللّامُ في قوله: ﴿لَذُو﴾ زيادةَ تأكيدِ مضمونِ الخبر وثباتَه، فالفضلُ ثابتٌ للّه لا شَكّ في ذلك، وقد أُضيفَ لفظ ﴿لَذُو﴾ إلى كلمة ﴿فَضۡلٍ﴾ لاختصاصه وحْدَه سبحانه بالفضل الكامل، فهو شأنٌ من شؤونِه سبحانَه[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفَضْل مادّةً وصيغةً:

لولا فضلُ اللهِ وإنعامُه لعُجِّلَ العذابُ للمُكذِّبين

في قوله تعالى: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ عُبّر بالمصدر (الفضل)؛ لتأكيد معنى الفعل المُجَرَّد عنِ الزّمن؛ للدّلالة على الدَّيمومة والاستمراريَّة في فضل اللّه سبحانه، كما أفاد تنكيرُ كلمة ﴿فَضۡلٍ﴾ في سياق الامتنان بعد إقامه البيان والحُجّة، معنى التّعظيم والتَكثيرِ والتّفخيم لهذا الفضلِ العظيم، الذي لا يُكْتَنَه كُنْهُهُ، فأشارت كلُّ هذه العواملِ مجتمعةً إلى تأكيد فضلِ اللّه وعظيم إنعامِه على تأخير العذاب عن هؤلاء المُكذّبين المُعانِدين.

فائدةُ التّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

عظمةُ فضلِ اللهِ سبحانه واستيلاؤُه على جميع الخَلْق

عبّر النّظمُ الحكيم بحرف الجَرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ التي تُفيد الاستعلاء، وعدلَ عنِ اللّام التي تُفيد الاختصاص، فلم يقل: (للنّاس)؛ ليُفيدَ عَظَمةَ صاحبِ الفضل سبحانه، وتَمكُّنَ فضلِه في النّاس واستيعابَه وشمولَه، فاستولى فضلُه ﷻ واستعلى على النّاس أجمعين.

دلالةُ التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جِنسيّةً استغراقيّةً، تُفيدُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 28.

العموم، أي: على النّاس جميعًا؛ إذ أنعم عليهم بالعقل المُمَيِّز بينَ الحَقّ والباطل، والحُسْنِ والقُبْحِ، ورَحِمَهم بإنزال الكُتب، وإرسالِ الرُّسل، وبيّنَ لهمُ الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ بإدراكها، وأرشدَهم إلى ما يَهُمُّهم من أمر المَعاش والمَعاد، وبما ساق إلى النّاس كلِّهم منَ الرِّزق، كافرِهم ومؤمنِهم، وبما أَخَّر عن كافريهم منَ العذاب، برغم علمه سبحانه بكفرهم وعنادهم. ومن ثَمّ فقد عبّر النّظمُ الحكيم بهذه الكلمة في كلّ المواضع التي جاء فيها هذا التّركيبُ لإفادة الاستغراق.

كمالُ الفضل أن يكون عامًّا للخَلْق أجمعين مؤمنِهم وكافرِهم

فائدةُ التّعبيرِ بالواو وحرفِ الاستدراك:

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ جاءتِ الواو عاطفةً تبيّنُ مغايرةَ ما بعدَها لما قبلها، وجاءت (لَكِنَّ) للاستدارك، وهو حرفٌ ناسخٌ مُشَبَّهٌ بالفعل، والاسْتِدْراكُ ناشِئٌ عَنْ عُموم الفَضْلِ مِنهُ تَعالى، فَإنَّ عُمومَهُ وتَكَرُّرَهُ يَسْتَحِقُّ بِأنْ يَعْلَمَهُ النّاسُ فَيَشْكُروهُ. والتّقدير: (إنّ اللّه لذو فضلٍ كثير على النّاس، بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، فيَجب عليهم أن يشكروا تفضُّلَه عليهم، وإحسانَه إليهم، ولكنّ أكثرَهم لا يشكرون فضلَه كما ينبغي، فقد جادلَ الكفّارُ وعاندوا، فلم يشكروه أصلًا، بل كفروا وتَهَكَّموا). فالاستدراكُ بـ(لَكِنَّ) بيّنَ قِلّة الشّاكرين الذين قَدَروا نِعَمَ ربِّهم حَقّ قَدْرِها.

برغم النّعمِ العديدة والفضلِ الجَزيل تَنكَّر المشركون لخالقهم فلم يَشْكُروه

غرضُ التّعبيرِ بالأكثريّة في الآية:

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الأكثريّةِ في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وعدلَ عن القول: (ولكنّهم لا يشكرون)؛ إنصافًا للقِلّة الشّاكرة من خَلْقِه سبحانه، ومَدْحًا لهم على استقامتهم على طريق الحَقّ، فجاء التّعبيرُ بالأكثريّة ذَمًّا للجاحدين، وإعلاءً مِن شأن الشّاكرين، وإن كانوا قِلّةً عدديّةً، ولكنّها قِلّةٌ لها قَدْرُها عند اللّه تعالى، فاستَحَقّوا التّعبيرَ بما يُلائِم قَدْرَهم عند اللّه الذي لا تضيعُ عندَه الأعمالُ الصّالحات.

طَلاقةُ العدلِ الإلهيّ تقتضي إنصافَ الشّاكرين، ولو كانوا قِلّةً عدديّة

قضيةُ الإظهارِ والإضمارِ تتناسبُ مع السّياق الذي وردت فيه

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

عبّر النّظمُ الحكيم بالضّمير (هم) في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ الذي يعود على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]. للمشاكلة بين سياق السّورة، فوردتْ على ما هو الأصلُ منَ الإتيان بالضّمير؛ ليحصلَ به رَبطُ الكلام. وأظهرَهُ في سورتَي البقرة وغافر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]، وذلك لأنّ المقصود منَ السّياق في هذَين الموضعين تحريكُ الخَلْق للاعتبار والتّذكير بما نَصَبَ سبحانه منَ الدّلائل والآيات، فاقتضى ذلك تَكرارَ الاسمِ الظّاهر، وللمشاكلةِ في الألفاظ في السّورتين(1).

على الرّغم من كثرة الفضل وعمومِه، فإنّ الشّاكرين قِلّةٌ معدودةٌ

نُكْتَةُ التّعبيرِ بعدم الشّكر مادّةً وصيغةً:

ختم النّظمُ الحكيم الآيةَ الكريمة بقول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، فاختصَّ ختامَ الآيةِ بعدم الشُّكر؛ للمناسبة بين إثبات الفضل للّه تعالى، ونقيضِه وهو عدمُ الشّكر. وقد قُرِنَ في القرآن بين فضل اللّه والتّعريض بعدم الشّكر أربعَ مَرّات، في المواضع الآتية: [البقرة: 243]، و[يونس: 60]، و[النّمل: 73]، و[غافر: 61]، وعبَّر النّظمُ في هذا الموضع وغيرِه بالفعل المضارع، المُسنَد إلى ضمير الجمع، إشارةً إلى تَجدُّد النّعم، فمقتضى تَجدُّدِها تَجَدُّدُ شكرِها، لكن لمّا كان الصّادرُ عنهم نقيضَ مقتضى الشُّكرِ، وهو الجُحود والكُفْر، فُهِمَ أنّ كفر النِّعَم هو المُتَجَدِّدُ، فعبّر بنفي الشّكر تنبيهًا على وجود المُنعِم؛ فاكتسى النّظمُ اختزالًا بديعًا.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 337، والغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 371 - 372.

دلالةُ حذفِ المفعول به:

إنّما يَستَحِقُّ الشُّكْرَ سبحانَه لكونه صاحبَ كلِّ فضل ونِعْمَةٍ ومِنَّةٍ

حَذَفَ النّظمُ الكريم المفعولَ به من قوله تعالى: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، ويحتمل أن يكون المفعولُ المحذوف (نِعَمَه)، أي: لا يشكرون نعمَه، أو أن يكون ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ بمعنى (يعترفون)، أي: لا يعترفون بنعمه، وعبّر بذلك عن نفي معرفتهم بالنِّعمة بنفي ما يترتَّب على هذه المعرفة من شُكر[1]. وقد أفاد هذا الحذفُ أغراضًا ثلاثة؛ **الأوّل:** إفادةُ العموم، أي: لا يشكرون كلَّ ما يجب أن يشكروا اللّهَ تعالى عليه، وهذا أبلغُ من ذِكْر المفعول؛ لأنّ ذِكْره يُؤدّي إلى تخصيص نِعْمَةٍ بعينها من نِعَم اللّهِ الكثيرة الجليلة. **والثّاني:** مراعاةُ الفاصلة القرآنيّة بما يُحَقّق إحكامَ اللّفظ وكمالَ المعنى. **والثّالث:** الإيجازُ بما يلائم الإعجازَ القُرآنيَّ، إذ هو سبحانه صاحبُ كلّ فضلٍ ونِعْمَة ومِنَّة، فهم لا يشكرون نِعَمَه عندَهم، بل كثيرٌ منهم يُشْرِكون معه في العبادة ما لا يَضُرُّهم ولا ينفعُهم، ولا فضلَ له عندَهم ولا إحسان[2].

فائدةُ العطفِ في صدر الآية:

حالُ الكافرين لا يَخْفَى على عِلْم الله سبحانه

وقعتِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ استئنافيَّةً، ووقعتِ الجملة كلُّها مَوْقِعَ الاِسْتِئْنافِ البَيانيِّ؛ لِأنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ المُؤْمِنينَ أنْ يَقولوا: إنَّ هَؤُلاءِ المُكَذِّبينَ قَدْ أضْمَروا المَكْرَ وأعْلَنوا الاِسْتِهْزاءَ، فَحالُهم لا يَقْتَضي إمْهالَهم؟ فَيُجابُ بِأنَّ الَّذي أمْهَلَهم مُطَّلِعٌ عَلى ما في صُدورِهِمْ وما أعْلَنوهُ، وأنَّهُ أمْهَلَهم مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُها، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم يُكِنّونَ أشْياءَ لِلنَّبيِ ﷺ ولِلْمُؤْمِنينَ، مِنها: أنَّهم يَتَرَبَّصونَ بِهِمُ الدَّوائِرَ، وأنَّهم تُخامِرُ نُفوسَهم خَواطِرُ إخْراجِهِ وإخْراجِ المُؤْمِنينَ. وهَذا الاِسْتِئْنافُ لَمّا كانَ ذا جِهَةٍ مِن مَعْنى وصْفِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 20/ 31.
(2) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5462.

اللّه بِإحاطَةِ العِلْم، عَطَفَ جُمْلَتَهُ عَلى جُمْلَةِ وصْفِ اللّه بِالفَضْل، فَحَصَلَ بِالعَطْفِ غَرَضٌ ثانٍ مُهِمٌّ، وحَصَلَ مَعْنى الاِسْتِئْنافِ البَيانيِّ مِن مَضْمونِ الجُمْلَة[1].

دلالةُ إعادةِ التّوكيد في الآية الثّانية بمُؤكّداتٍ ثلاثةٍ:

توكيدُ عِلْمِ اللّه سبحانه بما يُخْفيه الكافرون، وبما يجولُ في خواطر المؤمنين

أكّد النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ﴾ بمُؤكّداتٍ ثلاثةٍ؛ هي التّأكيد بالجملة الاسميّة، وحرفِ التّوكيد (إنَّ)، ولام التّوكيد المُزَحْلَقَةِ الواقعةِ في خبر (إنّ) في لفظ ﴿لَيَعۡلَمُ﴾، وقد أفاد حَشْدُ هذه المُؤكّداتِ بيانَ شمولِ عِلْم اللّه وإحاطته بكلِّ ما تحتويه صدورُ الكافرين، من مَكْرٍ وخُبْثٍ واحتيال، وكلِّ ما يُعلنونه من كُفرٍ واستهزاءٍ وسُخريةٍ. ويمكنُ القولُ كذلك: إنّ هذه المُؤكّداتِ تتضافَرُ لِتَنْزيلِ السّائِلِ الذي خطر بباله الاستفهامُ عن سبب الإمهال مَنزلَةَ المُتَرَدِّد، وذَلِكَ تَلْويحٌ بِالعِتابِ، لعدم إداركهم لحكمةِ الإمهال[2].

سِرُّ تَكرارِ كلمةِ ﴿رَبَّكَ﴾:

تَكرُّرُ ذِكْرِ الرُّبوبيّة إشعارٌ بكمال التّفضُّل والعِلْم، وللمُشاكلةِ اللّفظيّة

عبّر النّظمُ الحكيمُ بلفظ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، وذلك عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ لتأكيد المعاني نفسِها التي أدّاها لفظُ الرّبوبيّة في الآية الأولى، من أنّ التّفضُّل بالإمهال برغم المعصيةِ والتّكذيبِ في هذا السّياق أليقُ بمقتضيات الرّبوبيّة، والحالُ أنَّهُ أشارَ بِصِفَةِ الرُّبوبِيَّةِ إلى إمْهالِهِمْ؛ إحْسانًا إلَيْهِ وتَشْرِيفًا لَهُ[3]. وكما يمكن القولُ: إنّ تَكرارَ كلمة (الرّبّ) في الآيتين كلتيهما من باب المُشاكَلةِ اللّفظيّة، فضلًا عن فائدة التّوكيد.

فائدةُ ذِكْرِ العِلْم في الآية:

عبّر النّظمُ الحكيم عن عِلْم اللّه سبحانه بما في صدور العالَمين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

عِلْمُ الله سبحانه محيطٌ بالجُزئيّات كما هو محيطٌ بالكلّيّات

وما يُعلنونَهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ﴾، إشارةً إلى عِلْم الله المُطْلَق، فهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ويعلم كلَّ شيءٍ على حقيقته التي هو عليها بعِلْم سابقٍ غيرِ حادث، أيْ: أنه سبحانه يعلمُ عِلْمًا لا يُشْبِهُ عِلْمَكم، بَلْ هو في غايَةِ الكَشْفِ لَدَيْه، دَقيقُه وجليلُه[1]. وأفاد التّعبيرُ بالمضارع أنّ أفعالَهم في موضع التّرصُّد المُستمرّ، فكلّما أعلنوا قولًا أو فعلًا، أو أَسرّوا هاجسًا أو خادعوا في فعل، فإنّ كلّ فعلٍ منهم يقابِلُه عِلْمٌ منَ الله بهذا الفعل خاصّةً، فأفعالُهم كلُّها معلومةٌ بتفاصيلها وجزئيّاتِها وآحادِها للّه سبحانه، فالتّعبيرُ بالمضارع يُشير إلى تمام عِلْم الله بالجُزئيّات كما يعلمُ الكلّيّاتِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿تُكِنُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

مهما بالغ الكفّارُ في إخفاء ما في صدورهم فإنّه لا يَخفَى على علّام الغيوب

عبَّر النّظمُ الحكيم عمّا يستترُ في قلوب النّاس عامّةً والمشركين خاصّةً، بالفعل المضارع ﴿تُكِنُّ﴾، أي: تُخْفي، وهو من (أكَنَّ) إذا جَعَلَ شَيْئًا كانًّا، أيْ: حاصِلًا في كِنٍّ. واكتننتُ الشَّيْءَ في نَفسي إذا صُنتُه عنِ الأداء، وهو مبالغةٌ في السّتر والإخفاء والتّحوّط لِما في نفوس النّاس عامّةً، وفي صدور الكفّار خاصّةً منَ المَكر والخَديعة، فأفاد التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بإحاطة علم الله بأشَدِّ الأشياء خفاءً في نفوس العالَمين. كما أشار التّعبير بالفعل المضارع إلى تَجدُّد ما يحتاجُ إلى الإخفاء في الصّدور عند النّاس عامّةً، وعند الكافرين خاصّةً، لمكرهم الدّائم، وخِداعهم المُستمرِّ للدّعوة الإسلاميّة، وإنكارِهم لثوابت الاعتقادِ الصّحيح، كالبَعْث والعذاب الدّنيوي والأُخرويّ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في إسناد الكَنّ إلى الصُّدور:

حتّى وإنِ امتلأتِ القلوبُ بالأسرار والخفايا وفاضت، فلا يخفَى على الله علمُها

أَخْبَرَ اللّهُ تَعالى بِسَعَةِ عِلْمِه، فَبَدَأ بِما يَخُصُّ الإنْسانَ، وعَبَّرَ بِالصُّدورِ، وهي مَحَلُّ القُلوبِ الَّتي لَها الفِكْرُ والتَّعَقُّلُ، كَما قالَ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]، عَنِ الحالِّ فيها، وهي القُلوبُ، فإسْنادُ ﴿تُكِنُّ﴾ إلى الصُّدورِ مَجازٌ عَقْليٌّ بِاعْتِبارِ أنَّ الصُّدورَ مَكانُهُ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المحلّيّة؛ إذ أُطلِقَ المَحلُّ، وهو الصّدرُ، وأُريدَ الحالُّ فيه وهو القلبُ، حتّى كأنّ القلوبَ لم تستوعب كلَّ ما تحويه من أسرار وخفايا؛ ففاضت حتّى ملأتِ الصّدور، ومع ذلك فإنّ علم ما فيها لا يخفَى عليه سبحانه. وجاءتِ الصّدور جمعًا للمشاكلة بين ضمائر الجمع في سياق السّورة، ولإفادة شمولِ علْمِه سبحانه بما تفرّق في صدور النّاس أجمعين.

سِرُّ إضافةِ الصّدور إلى ضمير الغائبين (هم):

الجمعُ بينَ العموم والإيجاز من أهمّ سِماتِ النّظم القرآنيّ

أضاف النّظمُ الحكيم كلمةَ (الصّدور) إلى ضمير الغائبين (هم)؛ للدّلالة على العموم، ليشملَ صدورَ النّاس عامّةً، وصدورَ الكافرين خاصّةً، وكذلك فقد عدل النّظمُ عنِ القول: (ليَعْلمُ ما تكنّ صدورُ النّاس وما يعلنون)، أو (لَيَعْلَمَ ما تُكِنُّ صدورُ الكافرين وما يُعلنون)؛ لتوخّي الإيجاز البلاغيّ للنّظم القرآنيّ، الذي هو أحدُ معالمِ الإعجاز، في حين أسْنَدَ الإعْلانَ إلى ذَواتِهِمْ؛ لِأنَّ الإعْلانَ مِن أفْعالِ الجَوارِحِ[1].

فائدةُ تقديمِ الكَنّ على الإعلان:

ما يظهرُ على الجوارح منبعُه المُضمَرُ في الصّدور

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم الإكنان على الإعلان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ وذلك لأنّ المُضْمَرُ في الصَّدْرِ لمّا كان هو الدّاعي لِما يَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ والسَّبَبُ في إظْهارِهِ؛ قُدَّمُ الإكْنانِ عَلى الإعْلانِ. وقيل: إنَّما قُدِّمَ الإسرارُ على الإعلانِ؛ للإيذانِ بافْتِضاحِهِم، ووُقوعِ ما يَحْذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ[2].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

بلاغةُ الطّباق في الإعلان والكنّ:

للكفّار قبائحُ لا تُحصَى وآفاتٌ لا تُعَدّ

جاء الطّباقُ بينَ الإكنان والإعلان في قوله تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه تعالى، المُحيطِ بجميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَه بما يُسِرّونه أقْدَمُ منه بما يُعْلِنونه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ لَهم قَبائِحَ غَيْرَ ما يُظْهِرونَه، وأنَّهُ تَعالى يُجازيهِمْ عَلى الكُلِّ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالإعلان مادّةً وصيغةً:

سَعةُ علمِ الله تعالى وإطلاقُه، وإحاطتُه بالسّرّ والإعلان

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ عما يُظهره النّاسُ عامّةً، والكافرون خاصّةً من أمورهم بـ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، والمقصود: ما يظهرونه مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ الَّتي مِن جُمْلَتِها ما حُكيَ عَنِ الكافرين مِن اسْتِعْجالِ العَذابِ، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ لَهم قَبائِحَ غَيْرَ ما يُظْهِرونَهُ وأنَّهُ تَعالى يُجازيهِمْ عَلى الكُلِّ[2]، وقد آثَرَ النَّظمُ الحكيم استعمالَ صيغة الفعلِ المضارع على الماضي؛ فعدلَ عن: (وإنّ ربّكَ يعلمُ ما أَكَنَّتْ صدورُهم وما أعلنوا)، فورد الفعلان بصيغة المضارع، التي تفيد تَجَدُّدَ الحدوثِ والاستمرار، على معنى أنّ كلَّ ما يُحدثونه من إظهارٍ أو إكنان إنّما يُقابلُه عِلْمُ اللّه الأزليُّ، وفي هذا التّعبير ما فيه من إظهار سَعةِ علم اللّه تعالى. فإذا كانت سعةُ علمِ اللّه محيطةً بكلّ السّرائر، فهي - من باب أولى - محيطةٌ بكلّ ما يظهر ويُعلَنُ من الأقوال والأفعال. وأُسنِد الفعلُ ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لضمير الجمع لبيان أنّه سبحانه مُطّلعٌ عليهم فَرْدًا فَرْدًا، فلا يُعجِزُه إكنانُ واحد منهم أو إسرارُه، وقد أسهم هذا الإسنادُ في الحفاظ على هيمنة الفاصلة القرآنيّة، فجاء النّظمُ منسابًا رقراقًا يأسِرُ الأذنَ، ويمتّع القلبَ والعقل.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 210.

سِرُّ عطفِ جملة ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ﴾، وبلاغةُ التّذييل فيها:

تَرقّي البيانِ من عِلم الصّدورِ إلى عِلم السّماء والأرض، برهانٌ على إحاطة علم الله

عطفتِ الواو قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ عَلى جُمْلَةِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، وهو في مَعْنى التَّذْييلِ لِلْجُمْلَةِ المَذْكورَةِ؛ لِأنَّها ذُكِرَ منها عِلْمُ اللّه بِضَمائِرِهِمْ، فَذَيَّلَ ذَلكَ بِأنَّ اللّه يَعْلَمُ كُلَّ غائِبَةٍ في السّماء والأرْضِ. وإنَّما جاءَ مَعْطوفًا؛ لِأنَّهُ جَديرٌ بِالِاسْتِقْلالِ بِذاتِهِ مِن حَيْثُ إنَّهُ تَعْليمٌ لِصِفَةِ عِلْمِ اللّه تَعالى، وتَنْبيهٌ لَهم مِن غَفْلَتِهِمْ عَنْ إحاطَةِ عِلْمِ اللّه لِما تُكِنُّ صُدورُهم وما يُعْلِنونَ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بـ (ما) النّافية:

لا يخرجُ شيءٌ عن عِلم الله، فكلُّ ما يقع في ملكه مسطَّرٌ منذ الأزل في كتاب مبين

عبّر النَّظْمُ الحكيم بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ﴾؛ للدّلالة على النّفي والعموم؛ إذ مِن خصائص (ما) نفيُ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، وهي آكَدُ في النّفي مِن (ليس)، وهي أوسعُ استعمالًا منها أيضًا؛ لأنّ (ليس) مختصّةٌ بنفي الجُمَل الاسميّة حسب[2]. وقد جاءت (ما) مناسِبةً تمامَ المناسبةِ لنفي خروجِ أيّ شيءٍ خفيٍّ عن عِلم اللّه تعالى، بل كلُّ ما يقع في هذا الوجود مُسَطّرٌ منذ الأزل في كتاب مبين. وكذلك فقد كان استعمالُ (ما) ضروريًّا لاستعمال ﴿مِنۡ﴾ الزّائدةِ بعدَها؛ لتأكيد معنى نفيِ خروجِ أيّ شيءٍ عن إحاطته سبحانَه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنۡ﴾:

استغراقُ النّفي وتوكيدُه دلالةٌ ظاهرةٌ على هيمنة عِلم الله تعالى وشمولِه

جاءت ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ﴾ زائدةً؛ للدّلالة على الاستغراق والتّوكيد، ولنفي جنس ما يقع بعدَها، ومعنى الزّيادة عندهم دخولُها على مجرور يطلبه العاملُ بدونها. وقدِ استوفت شروطَ الزّيادةِ، فقد تقدّمتها (ما) النّافيةُ، وجاء مجرورُها نكرةً،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

وهي كلمةُ ﴿غَآئِبَةٖ﴾، وهي في موقع الفاعليّةِ[1]، فأفادت بهذه الشّروطِ استغراقَ نفي وجودِ أيّ شيء خفيٍّ شديدِ الخفاء في السّماء أو في الأرض، خارجٍ عن علْمِ اللّه المحيطِ في كتابه المبين.

سِرُّ تنكيرِ كلمةِ ﴿غَآئِبَةٖ﴾:

جاءت كلمةُ ﴿غَآئِبَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ﴾ نكرةً في سياق النّفي، فأفادت عمومَ النّفي وتأكيدَه، والمرادُ من تأكيد النّفي بيانُ أنّه ما مِن شَيْءٍ في غايَةِ الغَيْبوبَةِ والخَفاءِ إلّا في كِتابٍ عِنْدَ اللّه ومَكْنونِ عِلْمِه، وما غابَ عَنْهم من عَذابِ السّماء والأرْضِ، أو هو يَوْمُ القيامَةِ وأهْوالُها، أو أيُّ حادِثَةٍ غائِبَةٍ، أوْ نازِلَةٍ واقِعَةٍ. "وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ: أيْ: ما مِن شَيْءٍ سِرٍّ في السَّماواتِ والأرْضِ وعَلانيَةٍ، فاكْتَفى بِذِكْرِ السِّرِّ عَنْ مُقابِلِه"[2].

التّنكيرُ في سياق النّفي يُؤكِّدُ استحالَةَ خروجِ شيءٍ عن عِلْمِ الله تعالى

دلالةُ التّاء في ﴿غَآئِبَةٖ﴾:

ذكرَ العلماءُ في تاء كلمة ﴿غَآئِبَةٖ﴾ قولين؛ **الأوّل**: أنّها تاءٌ مزيدةٌ للمبالغة في الصّفات، نحو: راويَة وعلّامة. **والآخرُ**: أنّها للنّقل منَ الوصفيّة إلى الاسميّة، فسُمّيَ الشَّيْءُ الَّذي يَغيبُ ويَخْفى غائِبَةً وخافيَةً، فَكانَتِ التّاءُ فيهما بِمَنزِلَتِها، ونَظيرُهُما: النَّطيحَةُ والذَّبيحَةُ والرَّميَّةُ في أنَّها أسْماءٌ غَيْرُ صِفاتٍ، أو في المصادر مثل: العاقِبَة والعافيَة. فكَأنَّهُ قالَ: وما مِن شَيْءٍ شَديدِ الغَيْبوبَةِ والخَفاءِ، إلّا وقَدْ عَلِمَهُ اللّه وأحاطَ بِهِ وأثْبَتَهُ في اللَّوْحِ المُبينِ الظّاهِرِ لِمَن يَنْظُرُ فيهِ مِنَ المَلائِكَةِ[3]، فإنّه لا يخفى على اللّه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. وقيل في دخول الهاء في الغائبة: إنّها إشارةٌ إلى الجماعة الغائبة، فهي تتضمّن الإحاطةَ بجميع الغائبات، لا ببعضها دونَ بعض[4].

ما مِن شَيْءٍ شَديدِ الغَيْبوبَةِ إلّا وقَدْ عَلِمَهُ الله وأحاطَ بِهِ وأثْبَتَهُ في كتاب مُبين

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 83.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 471، وأبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 481.
(4) الواحديّ، البسيط في التّفسير: 17/ 294.

علّةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إفرادُ السّماء يُناسِبُ خطابَ المُنكِرين لتَعدُّدِها

جاءت كلمةُ السّماء في الآية الكريمة مفردةً؛ لأنّ المُخاطَبين المُحْتَجَّ عليهم بهذه الآية - والغالبُ عليهم التّكذيبُ والإنكار - إنّما كانوا مُقرّين بهذه السّماء التي يشاهدونها بالحِسّ، ولم يكونوا مُقرّين ولا عالِمين بتعَدُّد السّماوات، فأُفْرِد لفظُ السّماء. أوِ المُراد: في أيِّ مَوْضِعٍ كانَ مِنهُما، وأَفْرَدَهُما دَلالَةً عَلى إرادَةِ الجِنْسِ الشّامِلِ لِكُلِّ فَرْدٍ[1].

فائدةُ الطّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

شمولُ العِلْم الإلَهيّ الأزليّ واتّساعُه ليشملَ كلَّ ما في الوجود

جاء الطّباقُ بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُبرزًا شمولَ العِلْم الإلَهيّ الأزليّ، فسواءٌ أكان ذلك الشّيءُ الشّديدُ الخفاءِ في السّماء أم في الأرض، فإنَّ حقيقةَ خَبَرِه لا تَعْزُب عن عِلْم اللّه تعالى. ففي هذا الطّباق بيانٌ لاختصاصه وحْدَه سبحانه بعِلْم كلّ شيء، وفيه كذلك تذكيرٌ للمُكذِّبين المُعانِدين بأنّهم لن يخرجوا عنِ الوجود في أحد هَذَين المكانين، فسواءٌ أكانوا في السّماء أم في الأرض فعند اللّهِ عِلْمُهم وخَبَرُهم.

فائدةُ تقديم السّماء على الأرض:

اقتضت عَظَمةُ السّماءِ وأسبقيّتُها في الخَلْق تقديمَها في الذِّكر

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم السّماء على الأرض مُراعاةً لعَدد مِنَ الفوائد الدّقيقة؛ منها: الإشارةُ لعَظَمة خَلْق السّماء وما فيها من آيات تدلُّ على قُدْرة اللّه؛ إذ إنّ السّماء وما تحتويه من كواكبَ ونجوم تُعدّ أكثرَ اتّساعًا وأعظمَ خَلْقًا موازنةً بالأرض. كما أنّ في تقديمها مراعاةً لترتيب الخَلْق، فقد خلق اللّهُ السّماء أوّلًا، ثمّ الأرضَ، ومِن ثَمّ بدأ النّظمُ بها في ترتيب العِلْم بالغائبات والخفايا.

سِرُّ استعمالِ أسلوبِ القَصْر بالنّفي والاستثناء:

جاء أسلوبُ القَصْر بالنّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

تأكيدُ شمولِ عِلمِ الله لكلّ غيبٍ في السّماء والأرض

أسلوبُ القَصْر الحقيقيّ الذي يُفيد الشّمولَ والعمومَ، ويأتي فيه المقصورُ عليه بعد ﴿إِلَّا﴾، وما تقدَّمَها هو المقصورُ، وفي هذا توجيهُ العنايةِ الخاصّة والمَقصد الأوّل فيما وراء ﴿إِلَّا﴾؛ لأنّه هو المُعَوّلُ عليه من قصد السّياق كلِّه[1]، ولذلك تكون ﴿إِلَّا﴾ في مثل هذا الأسلوبِ أداةَ حصْرٍ، فقَصَرت معنى عِلْم الغيب والخفايا على الكتاب المبين، الذي هو اللّوح المحفوظُ، أو هو عِلْم الله تعالى، وقد أفاد القَصْرُ هنا شمولَ عِلْم الله وحْدَه للغيب.

لفظُ (الكتاب) بين بلاغةِ الاستعارة والكناية:

علمُ الله تعالى بالغيب مُحَقّقٌ ثابتٌ لا يتغيّر

تعدّدت أقوالُ العلماء في المراد بـ(الكتاب) في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾، فذهب أكثرُهم إلى أنّ المُراد اللّوحُ المحفوظ، وقيلَ: المُرادُ بِالكِتاب المُبين عِلْمُهُ تَعالى الأزَليُّ، الَّذي هو مَبْدَأٌ لإظْهارِ الأشْياءِ بِالإرادَةِ والقُدْرَة. وقيلَ: حُكْمُهُ سُبْحانَهُ الأزَليُّ. وقيلَ: المُرادُ بِهِ القُرْآنُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مَخْلوقًا غَيْبيًّا يُسَجَّلُ فيهِ ما سَيَحْدُثُ[2]. وإذا كان المرادُ بـ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ علمَ اللّهِ تعالى، فهو إمّا كنايةٌ أو استعارةٌ؛ كنايةٌ عن عِلْم اللّه المُحَقّقِ وشمولِه وضبطِه وحِفظِه وثباته واستقرارِه، والمعنى: أنّ كلّ غيبٍ خَفيٍّ في السّماء أو في الأرض مهما خَفيَ على البشر والمخلوقات أجمعين؛ فإنّه ثابتٌ لا يتغيّر في عِلْم اللّه ولا يَتبدَّل، فهو سبحانه عالمٌ بكلّ خفيٍّ وظاهِرٍ عِلْمًا ثابتًا، كالمَكتوب البَيّن المُسَجّلِ في كتاب واضح لا يخفى منه خافيَةٌ. وذهب آخَرون إلى أنّ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ استعارةٌ، فالكتابُ عِلْم اللّهِ، استُعير له الكتابُ؛ لأنّه ثابتٌ لا يخالِفُ الحَقّ بزيادةٍ ولا نقصان[3]. ولعلّ الكنايةَ أقربُ للسّياق، ولتَنزيه اللّهِ ﷻ.

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 176 - 187.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

الغرضُ من تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تفخيمُ الكتاب وتعظيمُه؛ لاختصاصه وحْدَه بعِلْم الغَيْب

جاءت كلمةُ ﴿كِتَٰبٍ﴾ في الآية الكريمة نَكرةً في سياق النّفي، فأفاد التّنكيرُ هاهنا تعظيمَ شأنِ الكتاب وتفخيمَه؛ لاختصاصه بعِلْم الغيب في السّماء والأرض، ممّا يدلُّ على أنّ هذا الكتابَ قد حوى جميعَ الغيبيّاتِ والأسرار، فهو كتابٌ عظيمُ الشّأنِ عند اللّه، ويُعَبّر عن شُموليّة عِلْم اللّه وإحاطتِه بكلّ شيء في الكَون.

سِرُّ المَجازِ العقليّ في وصف الكتاب بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

الكتابُ يُبينُ كلَّ خفايا الغيب والأسرارِ في السّماء والأرض

وَصَفَ النّظمُ الكريم (الكتابَ) بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾؛ لإفادة أنّه مُبينٌ بنفسه، وفيه مجازٌ عقليٌّ في الإسناد؛ للدّلالة على معنى المبالغة في بيانه ووضوحِه، لاستلزام العِلْم الإبانةَ، والصِّفةُ هنا ليست صفةَ تقييد، بل هي للإيضاح والبيان؛ لأنّ الكتابَ الذي عند اللّه، وهو اللّوحُ المحفوظ - على رأي بعضهم - لا يكون إلّا مُبينًا، فهو كتابٌ يُبيّنُ لمَنْ قرَأَهُ أنّه ما من أمرٍ خَفيٍّ في السّماء والأرض إلّا وقد اشتمل عليه وأبانَه[1]. والمَعْنى: أنَّ اللَّه لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِه حَقيقَةُ شَيْءٍ مِمّا خَفيَ عَلى العالَمينَ. وذَلِكَ يَقْتَضي أنَّ كُلَّ ما يَتَلَقّاهُ الرُّسُلُ من جانِبِ اللّه تَعالى، فَهو حَقٌّ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الأمْرُ بِخِلافِه. ومِن ذَلِكَ ما كانَ الحَديثُ فيه مِن أمْرِ البَعْثِ الَّذي أنْكَروهُ وكَذَّبوا بِما جاءَ فيه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَضْل والإحسان والإنعام:

الإنعامُ في مقام الهِبَة، والفَضْلُ نفعٌ زائدٌ غيرُ واجبٍ

الإنعامُ لا يكونُ إلّا مِنَ المُنعِم على غيره؛ لأنَّه مُتضمِّنٌ بالشُّكر الذي يجبُ وجوبَ الدَّين، ويجوزُ إحسانُ الإنسانِ إلى نفسِه؛ تقولُ لِمَن يتعلَّمُ العِلْمَ: إنَّه محسنٌ إلى نفسِه، ولا تقولُ: مُنعِمٌ على نفسِه. والإفضالَ والإفضالُ: النَّفعُ الزّائدُ على أقَلِّ المِقدار، وقد خُصَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 29.

الإحسانُ بالفَضلِ، ولم يجِبْ مِثلُ ذلك في الزّيادةِ؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفةِ الغالبة؛ لأنَّ الإحسانَ قد يكونُ واجِبًا وغيرَ واجِبٍ، والفضلُ لا يكونُ واجِبًا على أحَدٍ، وإنَّما هو ما يُتَفَضَّلُ به من غيرِ سَبَبٍ يوجِبُه[1]. ولذلك اختير في الآية ليُناسبَ إنعامَ اللّه تعالى على عباده، الذي يتفضّل به على عباده بحِكمته ويزيد.

الإكنان والإخفاء:

الإكنانُ تغطيةٌ، والإخفاءُ كِتمانٌ

الإكنان لغةً: السَّترُ والتّغطيَةُ والإخفاء، ووِقاءُ كلِّ شيءٍ وسَتْرُه، والكِنُّ: البيتُ أيضًا، والجمعُ أكنانٌ وأَكِنَّةٌ، وأَكَنَّ الشَّيءَ: سَتَرَهُ، واكتنّتِ المَرأةُ: غَطّت وجْهَها وسَتَرتْهُ حياءً منَ النّاس.

والإخفاء لغةً: السّترُ والكِتمانُ، يقال: خَفَيْتُ الشَّيءَ أَخْفيه: كَتَمْتُه، وأَخْفَيْتُ الشَّيءَ: سَترتُهُ وكَتَمْتُه، ويقابله الإبداءُ والإعلانُ، والإخفاء: تغييبُ الشّيء، وأن لا يُجْعَل عليه علامةٌ يُهتَدى إليه من جهتها، وهو منَ الأضداد[2].

ولعلَّ في الإكنان مبالغةً في التّحوّط والسَّتر من مُجرّد الإخفاء، ففيه معنى الإخفاءِ وزيادةُ الحِفظِ والتّحوّطِ؛ ولذلك اختيرَ في الآية ليُفيدَ إحاطةَ عِلْم اللّهِ بأَشَدِّ الأشياء خفاءً في نفوس العالَمين عامَّةً، وعند الكافرين خاصّةً؛ لِمَكرهم الدّائم، وخِداعِهِمُ المُستمرِّ للدّعوة الإسلاميّة، وإنكارِهم ثوابتَ الاعتقادِ الصّحيح؛ كالبعث والعَذاب الدّنيوي والأُخرويّ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 23، و24، و193.

(2) الرّاغب، المفردات: (خفي) و(كنن).

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ [النّمل: 76]

إبطالُ مزاعمِ اليهود والكفّار في الشّكّ في الكتاب الكريم وتصحيحُ ما وقعوا فيه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لّمّا ذَكَر سبحانه ما يَتَعَلَّقُ بِالمَبْدَأِ والمَعادِ، ذَكَرَ تَعالى ما يَتَعَلَّقُ بالنُّبوَّةِ، فَإِنَّ القُرْآنَ أَعْظَمُ ما تَثْبُتُ بِهِ نُبوَّةُ نَبِيِّنا ﷺ، فَذَكَرَ ﷻ أَنَّهُ يَقُصُّ عَلى بَني إِسْرائيلَ - والمُرادُ بِهِم اليَهودُ والنَّصارى - أَكْثَرَ ما تَجَدَّدَ واسْتَمَرَّ اخْتِلافُهم فيهِ عَلى وجْهِهِ، ويُبَيِّنُ لَهم حَقيقَةَ الأَمْرِ فيهِ، وذَلِكَ مِمّا يَقْتَضي إِسْلامَهم لَوْ تَأَمَّلوا وأَنْصَفوا، لَكِنَّهم لَمْ يَفْعَلوا، وكابَروا مِثْلَكم أَيُّها المُشْرِكونَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُصُّ﴾: (قَصص) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ[2]، وقصّ أَثَرَه قَصًّا وقَصَصًا، واقتصّه وتقصَّصه: تتبَّعَه، والقَصُّ: تتبّعُ الأثرِ، والقَصَصُ: الأَثَرُ[3]. والمعنى المِحوريّ: تتبُّعٌ أو تتابُعٌ باطّراد مع تسوية[4]. قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، أي: رَجعا منَ الطَّريقِ الذي سَلَكاهُ يَقُصّانِ الأَثَرَ. و﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]: نُبَيِّنُ لك أَحسَنَ البَيانِ، والقَصَصُ: الأخبارُ المُتَتَبَّعَةُ، والقِصاصُ: تتبُّعُ الدَّمِ بالقَوَدِ، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: 179][5]. والمُراد بـ﴿يَقُصُّ﴾ أيْ: يُتابِعُ الإِخْبارَ، ويَتْلو شَيْئًا فَشَيْئًا عَلى سَبيلِ القَطْعِ الَّذي لا تَرَدُّدَ فيهِ، من غَيْرِ زيادَةٍ ولا نَقْصٍ[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 16/ 482، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 53.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصص).
(3) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (قصص).
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

المَعنى الإجْماليُّ:

معنى قولِه تعالى ذِكْرُه: إنّ هذا القرآنَ الذي أنزلتُه إليك - أيّها الرّسولُ الكريم - يقصّ على بني إسرائيلَ الحقَّ في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالتِ اليهودُ فيه ما قالت، وقالتِ النّصارى فيه ما قالت، وتبرَّأَ لاختلافهم فيه هؤلاءِ من هؤلاء، وهؤلاءِ من هؤلاء، وغيرِ ذلك منَ الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إنّ هذا القرآن يقصّ عليكم الحَقّ فيما اختلفتم فيه فاتّبعوه، وأَقِرّوا لما فيه، فإنّه يَقُصّ عليكم بالحَقّ، ويهديكم إلى سبيل الرّشاد[1]. فالمُراد: نَفْيُ أنْ يَكونَ القرآن أساطيرَ الأوَّلينَ، بِإثْباتِ أنَّهُ تَعْليمٌ لِلْمُؤْمنينَ، وتَعْليمٌ لِأهْلِ الكِتاب. وإنَّما قَصَّ عَلَيْهِمْ أكْثَرَ ما اخْتَلَفوا، وهو ما في بَيانِ الحَقِّ مِنهُ نَفْعٌ لِلْمُسْلِمينَ، وأعْرَضَ عَمّا دونَ ذَلِكَ[2].

من دلائل صِدق القُرآن وحُجّيّته؛ هيمنتُه وحاكِميّتُه على ما اختلف فيه بنو إسرائيل

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصلِ الآية عمّا قبلها:

فَصَلَ النّظمُ الحكيم بين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ لكمال الانقطاع بينَ الآيتين؛ إذِ المناسبةُ الخاصّة ضعيفةٌ، وأمّا المناسبةُ العامّةُ فمتوافِرةٌ واضحةٌ[3]؛ إذ إنّ هذه الآيةَ مرتبطةٌ إمّا بافتراء الكافرين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وإمّا بقوله تعالى في صدر السّورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النّمل: 6]، ومن هنا فقد فَصَلَ

الحديثُ عن حاكميّةِ القُرآن انتقالٌ منَ المناسبة الخاصّة إلى المناسبة العامّة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 116 - 117.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 30 - 31.
(3) بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 461 - 462.

النّظمُ الآيةَ عن سابقتها؛ حَثًّا للتّدبُّر والتّأمّل في وجوه ترابط قضايا السّورةِ وموضوعاتِها.

تلوينُ الخِطاب في الآية:

لَفْتُ الانتباه إلى حاكميّة القرآن على المُتنازَع فيه بين بني إسرائيلَ

انتقل النّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من خطاب الكافرين خاصّةً، والنّاسِ عامّةً، في قضايا البعثِ والآخرة وسعةِ فضلِ اللّهِ وشمولِ عِلْمِه وإحاطتِه، إلى خطابٍ آخرَ، هو بيانُ حاكميّةِ القرآنِ الكريمِ على الأُمور التي تنازَعَ فيها بنو إسرائيلَ واختلفوا، ومن شأن هذا الانتقالِ أن يَلْفِتَ الانتباهَ ويَشْحَذَ الأذهانَ للقضيّة الجديدةِ بما يُتيحُ تأمُّلَها وتَدَبُّرَها على خير وجه.

دلالة التأكيدِ في الآية:

تأكيدُ هيمنةِ القرآن، وأنّه ليس بأساطيرَ مختلَقَةٍ، بل هو الحَقّ المُبين

آثَرَ النّظمُ الحكيم توكيدَ الآية بمُؤَكِّدَين اثنين؛ الأوّلُ: التّأْكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾، والآخرُ: التّعبيرُ بالجملة الاسميّة دونَ الجملة الفعليّة؛ وذلك لتوكيد حاكميّةِ القرآن وهيمنتِه فيما اختلفت فيه بنو إسرائيلَ خاصّةً، والمشركون عامّةً، عندما افتَرَوا على اللّه الكذبَ، فَزعموا أنّ أخبارَ البعثِ والآخرةِ أساطيرُ الأوّلين، فجاء النّظمُ الحكيمُ ليُؤَكّدَ حاكميّةَ القرآنِ، وأنّ ما جاء فيه من قضايا إنّما هو علَى سَبيلِ القَطْعِ الّذي لا تَرَدُّدَ فيه، من غَيْرِ زيادَةٍ ولا نَقْصٍ[1]، فإلى القرآنِ المَرجعُ وإليه المآلُ.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الإشارةِ للقريب:

أمرُ القرآن فخمٌ معظّمٌ، قريبٌ إلى القلوب السّليمة والعقولِ النّيّرة

عبّر النّظمُ الكريم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، وهو اسمُ إشارةٍ للقريب؛ للتّدليل على تعظيم أمرِ القرآن، وتفخيم أَثَرِه في العقول النَّيّرة والقلوبِ السّليمة، وإلى قُرْبِه منَ النّفوس الصّالحة التي تتشَوّفُ إلى الهداية، وتنزِعُ إلى الخروج منَ الاختلاف إلى الهَديِ السّليم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

دلالةُ إيثارِ كلمة ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ على (الكتاب):

اختصاصُ النّبيّ ﷺ بالقرآن ذي الحُجّة الواضحة والمَنطق الفَصْل

عدلَ النّظمُ الحكيم عنِ اختيار كلمة (الكتاب) إلى كلمة ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في هذا السّياق على وجه التّحديد، الذي ذُكِرَ فيه بنو إسرائيل - الذين هم (أهل الكتاب) -؛ لتأكيد اختصاص النّبيِّ ﷺ بالقُرآن، فالمُراد: القرآنُ الذي أتى به هَذا النَّبيُّ الأُمّيُّ الَّذي لَمْ يَعْرِفْ قَبْلَهُ عِلْمًا، ولا خالَطَ عالمًا[1]، وذلك بخلاف لفظ الكتاب، فهو وإن كان يُطْلَق على القرآن، إلّا أنّه يُطْلَق كذلك على غيره منَ الكُتبِ السّماويّة، مثل: التّوراة والإنجيل. وفي استعمال كلمة ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ إشارةٌ إلى أنّه مَقروءٌ مسموعٌ، واضحُ الحُجّة والبيان، فكان استعمالُ هذا اللّفظ متناسبًا مع لفظ (القصّ)، وما يُراد للقرآن من قطعِ لِحُجَجِ اليهود والنّصارى، والفَصْلِ في مواطنِ الاختلاف والتّنازعِ.

سِرُّ اختيارِ الفعل ﴿يَقُصُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

منهجُ القرآن في تَتَبُّعِ الحَقّ وتقصّيه منهجٌ مُتجدّدٌ بتَجدُّد الزّمان

آثَرَ النّظمُ القرآنيُّ في هذا السّياق استعمالَ الفعلِ ﴿يَقُصُّ﴾؛ وذلك لأنّه يدلّ على أنّ القرآنَ الكريم يتتبّع باطّرادٍ وتسويةٍ أكثرَ مواضعِ النّزاعِ والاختلافِ التي وقع فيها بنو إسرائيلَ، ويَتْلو أخبارَها شَيْئًا فَشَيْئًا عَلى سَبيلِ القَطْعِ الّذي لا تَرَدُّدَ فيهِ، مِن غَيْرِ زيادَةٍ ولا نَقْصٍ. وقد جاء الفعل ﴿يَقُصُّ﴾ في صيغة المضارعة للدّلالة على التّجدُّدِ والاستمرار بلا انقطاع، فجميعُ أحكام القرآن في مواضع الاختلافِ تسير معَ الحَقّ في ركابٍ واحدٍ؛ لأنّه من لَدُنِ اللّهِ الإلهِ الحَقّ المُتعال.

دلالةُ الجارّ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

استعلاءُ القرآنِ وهيمنتُه على ما تنازَعَ فيه بنو إسرائيل

دلَّ استعمالُ حرفِ الجَرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على استعلاءِ القُرآن وهيمنته على ما اختلف فيه بنو إسرائيلَ وتنازعوا في حُكْمِه؛ وذلك لتَمَكُّنِ القرآن منَ الإجابة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

عن كثير ممّا ضلّتْ فيه عقولُهم، وقد جاء استعمالُ ﴿عَلَىٰ﴾ في هذا السّياق مناسبًا تمامَ المناسبةِ؛ لأنّ من خصائص ﴿عَلَىٰ﴾ أنّها تُفيد الاستعلاءَ، سواء أكان حقيقيًّا أم مجازيًّا، فأفادَ خضوعَ بني إسرائيلَ لبيان القرآن وحُجّته.

عِلّةُ تخصيصِ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بالذِّكر:

كثرةُ اختلافِ بني إسرائيلَ ونزاعِهم جعلتْهُم مثلًا للفُرقة واتّباع الأهواء

خَصَّ النّظمُ الحكيم بني إسرائيلَ بالذّكر في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لكثرة اختلافِهم ونزاعِهم، حتّى أصبحوا مثلًا للفُرقة واتّباع الهَوى، فلا يكادون يجتمعون على رأي، بل ديدَنُهم الجَدَلُ، ورائدُهم الحِجاجُ، حتّى صاروا مِلَلًا شَتّى وفرقًا متباينةً، ووَقَعَ بَيْنَهُمُ التَّناكُرُ في أشْياءَ كَثيرَةٍ، حَتّى لَعَنَ بَعْضُهم بَعْضًا، وقَدْ نَزَلَ القُرْآنُ بِبَيانِ ما اخْتَلَفوا فيهِ، لَوْ أنْصَفوا وأخَذوا بِهِ وأسْلَموا[1]. وفي ذلك تعريضٌ بهم وبخصالهم السَّيّئة في الوَلَع بالاختلاف، وتحذيرٌ مِنَ السَّير على الطّريق نفسِه الذي ساروا فيه بالاختلاف على أنبيائهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالأكثريّة في الآية:

القرآنُ حُجّةٌ قاهِرةٌ على أحبار بني إسرائيلَ خاصّةً، وعلى عوامّهم عامّةً

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الأكثريّة في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، فخصَّ القَصّ والتَّتبّعَ بالأكثريّة دونَ الكُلّ، والمُراد: أنّ هذا الكتابَ العزيزَ يَقُصّ عليهم أخْبارَهم التي هي مَضْبوطَةٌ في كُتُبِهِمْ، لا يَعْرِفُ بَعْضَها إلّا قَليلٌ مِن حُذّاقِ أحبارِهِمْ خاصَّةً؛ لِكَوْنِهِ مِن خاصِّ أخْبارِهِمُ الَّتي لا عِلْمَ لِغَيْرِهِمْ بِها[2]، فعَبّر بالأكثريَّةِ لخصوصيّة تلك المَواضِع التي يختلفون فيها، وأمّا ما هو معلومُ الأسبابِ لدى الكافّةِ مِن اختلافهم، فلم يَتعرّض له القرآن. ويحتمل أيضًا أن يَتكفّلَ القرآنُ ببيان بعضِ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 620.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 211.

اختلافاتِهم، وتتكفّل السُّنَّةُ النّبويّة ببيان بعضها، كَقِصَّةِ الزّاني المُحَصَنِ في إخْفائِهِمْ أنَّ حَدَّهُ الرَّجْمُ، وإِخْراجُ النَّبيِّ ﷺ ذَلِكَ مِن تَوْراتِهِمْ. وأشار بعضُهم إلى أنّه إنَّما قَصَّ عَلَيْهِمْ أكْثَرَ ما اخْتَلَفوا، وهو ما في بَيانِ الحَقِّ مِنْهُ نَفْعٌ لِلْمُسْلِمينَ، وأعْرَضَ عَمّا دونَ ذَلِكَ. فَمَوْقِعُ هَذِهِ الآيَةِ اسْتِكْمالُ نَواحي هَدْيِ القُرْآنِ لِلْأُمَمِ، فَإِنَّ السّورة افْتُتِحَتْ بِأَنَّهُ هُدًى وبُشْرى لِلْمُؤْمِنينَ، وأَنَّ المُشْرِكينَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ يَعْمَهونَ في ضَلالِهِمْ، فَلَمْ يَنْتَفِعوا بِهَدْيِهِ؛ فاسْتَكْمَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ما جاءَ بِهِ مِن هَدْيِ بَني إسْرائيلَ لِما يُهِمُّ مِمّا اخْتَلَفوا فيهِ. فأَكْثَرُ الَّذي يَخْتَلِفونَ فيهِ هو ما جاءَ في القُرْآنِ مِن إبْطالِ قَوْلِهِمْ فيما يَقْتَضي إرْشادَهم إلى الحَقِّ أنْ يُبَيَّنَ لَهم، وغَيْرُ الأكْثَرِ ما لا مَصْلَحَةَ في بَيانِهِ لَهم[1].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول مضافًا إلى الأكثريّة:

اختلافُ بني إسرائيلَ ممّا عَمَّ به الخَبرُ وسارت به الرُّكبانُ

عبّر النّظمُ الحكيم عن أكثريّة الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيلَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ اختلافَ بني إسرائيلّ ممّا عَمّ به الخبرُ، وسارت به الرُّكبان، حتّى غَدَوا معروفين بكثرة اختلافِهم، إذ مِن خصائص النّعت بالاسم الموصول أنّه يُجْتَلَبُ لِيُتَوصَّلَ به إلى وصف المعارف بالجُمل؛ لأنّه إنّما جيءَ به لِيَفْصِلَ بين أن يُرادَ ذِكْرُ الشَّيءِ بجُملة قد عَرَفها السّامِعُ، وبين ألّا يكونَ الأمرُ كذلك[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسْنَد إليه ﴿هُمۡ﴾:

اختلافُ اليهودِ والنّصارى في أمورِ الاعتقادِ والأحكامِ شديدٌ

جاء النّظمُ الحكيم بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، وعدلَ عنِ التّعبير بـ (الذي اختلفوا فيه)؛ لِيُؤَكِّد شِدّة اختلافِ بني إسرائيلَ فيما بينَهم في أمور الأحكام والاعتقاد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 31.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 154 - 156، والسّامرائي، معاني النّحو: 1/ 124 - 125.

وغيرها منَ القضايا؛ إذِ التّعبيرُ بالجُملة الاسميّة من وسائل التّوكيد في المواضع التي تستدعي شِدّةَ التّوكيد، وجاءَ المبتدأُ في هذه الجملة الاسميّة ضميرًا لمزيدٍ من توكيد اختلافِهم.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمَجرور ﴿فِيهِ﴾ على الفعل:

التّشنيعُ على بني إسرائيلَ بسبب شِدّة اختلافِهم على أنبيائهم

قدّم البيانُ القرآنيّ الجارَّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على الجملة الفعليّة الواقعة خبرًا ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، وعدل عنِ التّعبير بـ (الذي هم يختلفون فيه) جوازًا؛ إشارةً إلى أهمّيَّته؛ إذ إنّ الآيةَ مسوقةٌ في المقام الأوّل لبيان حاكِميَّةِ القرآن الحكيم وهَيْمَنته على أكثر ما اختلَفَ فيه بنو إسرائيلَ؛ إذ هو العنصرُ الأَشَدُّ بُروزًا في سياق الآية الكريمة، وهو بابُ القَصْر الادّعائيّ الذي يُفيدُ المبالغةَ، وفيه تشنيعٌ لاختلافِهم، وتقبيحٌ لمواقفهم من أنبيائهم.

دلالةُ الفعلِ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

بنو إسرائيلَ مولَعونَ بالخِلاف دائمًا أبدًا، مستمرّونَ في تأجيجه وتجديده

عبّر النّظمُ الحكيم بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ المُتَضمِّنِ معنى الحالِ والاستقبال؛ للدّلالة على التّجدُّد والاستمرار؛ إذ لا حَدّ لاختلافهم، بل هم في شِقاق مُتَجَدِّدٍ مُستَمِرٍّ؛ لاتّباعهم أهواءَهم ومخالفتِهم لأنبيائهم، وتحريفِهم لكُتُبهم، وعدم تَوَرُّعِهم عنِ الكَذِب والخِداع. فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالمضارع من شأنه أن يَستَحْضِرَ صورةَ الخِلافِ والنّزاعِ، فكأنّ المُتَلَقّيَ يشاهدُ بعينه اختلافَهم ونزاعَهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَصُّ والرِّوايَة:

في القَصّ تفصيلٌ، وفي الرّواية نقلٌ وتمحيصٌ

غالبًا ما يُعبَّر بالفعل (قَصَّ) للإشارة إلى السَّرد التّفصيليّ للأحداث وتتبّعِها بدِقّة، ويمكن أن يُفهم ضمنيًّا أنّ هذا السَّردَ قد يكون طويلًا، ويشملُ جوانبَ متعدِّدةً كقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، أي: تتبَّعا أثرَهما بالتّفصيل، وقولِه

تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، أي: نحن نحكي لكَ أحسنَ القَصَص بتفصيلاتها. ولذلك ناسبَ اصطفاؤُه سياقَ الآية باعتبار السَّرد المُفصّل المُستوعِبِ لأخبار بني إسرائيل.

أمّا الفعلُ (روى): فهو يَعني نقلَ الحديثِ أوِ الخبرِ أوِ القِصّة من مصدرٍ لآخَر، وعادةً ما يُستخدم في سياق نقل الأحاديث النّبويّة أوِ الأخبارِ، وهو يُشير إلى نقل الأخبار بصِفةٍ عامّةٍ، وقد لا يتضمّنُ بالضّرورة سَردًا تفصيليًّا، ويتميّزُ بالتّركيز على صِحّة النّقل والمَصدر في مقابِل تركيزِ القِصّة على الشُّمولِ والاستيعابِ[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ومجموعة من المؤلّفين، المعجم الوسيط: (قصص) و(روى).

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [النّمل: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استيعابُ جِهاتِ هَـدْيِ الـقُـرْآنِ الكَريمِ

لَمّا ذكر اللّه تعالى أنَّ القرآن يقصُّ أحسنَ القصصِ وأصدقَها، فبانَ بهذا دليلُ عِلْمِه؛ أتبعه بدليل فضله وحلمه[1]، وبيانِ وجه هداية القرآنِ ورحمته؛ استيعابًا لجهات هدي القرآن الكريم[2]، وهي محض تنزُّل كريم من عطاء اللّه العظيم، فآثرَ اللّهُ تعالى به عبادَهُ المؤمنين، فكان لهم هدايةً لكلِّ خير، ورحمةً واسعةً منه تَعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَهُدَى﴾: (هدي) أصلان أحدهما: التَّقدُّم للإرشاد، والآخر بَعْثَةُ لطف[3]. والهدى: هو بيان الوجهة والدِّلالةِ إلى السَّبيل، وهو ضدُّ الضَّلال، والهداية: نورٌ في الظُّلمات، وتمييز عند الاشتباه، وأخْذٌ إلى السَّلامة[4]، وتَرِدُ الهدايةُ في نصوص القرآن الكريم بمعنى الدِّلالة والإرشاد[5]، كالذي في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشّورى: 52]، وتردُ مرادًا بها الإلهامُ والتوفيقُ، كالوارد في قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: 56].

ومعنى ﴿لَهُدَى﴾ في الآية: أنَّه يرشد إلى ما فيهِ خيرُ الدُّنيا والآخرة وصلاحُهما، فهو هدًى من الضَّلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن به[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 31.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10846.
(6) أبو بكر الحدّاد، تفسير الحدّاد: 5/ 39.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

فضلُ الله العظيم بإنزال كتابه الكريم

إنَّ هذا القرآن الذي أنزله اللّهُ سُبْحانَهُ هدايةٌ من الانحرافِ والضَّلال، ورحمةٌ من العذابِ، وإنَّما ينتفعُ بهذه الآثارِ الحميدةِ مَن صدَّقَ به واهتدى بهُداهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُمْلَةِ بِما قَبْلَها:

استيعابُ جِهاتِ الخَيْريَّةِ في القُرْآنِ الكَريمِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بما قبلَهُ؛ لِما بينَ الجُملتين مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ إنَّ هذه الآيةَ خبريَّةٌ، وما عُطفت عليها - وهي قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ [النمل: 76] - خبريَّةٌ أيضًا، وبينهما مناسبة في اللَّفظ والمعنى، أمّا المناسبة اللَّفظيَّة؛ فإنَّ كلتا الجُملتين اسميَّة، وقد اشتركتا في المُسند إليه، وهو ﴿هَٰذَا﴾ [النمل: 76] في الآية الأولى والضَّمير المُتَّصل في (إنَّهُ) في الآية الثّانية، وكلاهما يَرْجِعُ إلى القرآن الكريم، وأمّا المُناسبة المعنويَّة؛ فهي أَنَّ كِلْتا الآيتين في بيان أوصافِ القرآنِ الكريم، فهو يَفْصِلُ بينَ المُختَلِفين بالحقِّ، ويهدي للَّتي هي أقوم، ويورثُ رحمةً لِمَن اهتدى بهُداه، وآمنَ به، فكان حاصلُ الآيتين في استيعابِ جوانبِ الخيريَّةِ في هذا الكتابِ الكريم[2].

دلالةُ التَّأكيدِ بـ (إنَّ) واللّامِ:

الرَّدُّ على مَن يُنْكِرُ هِدايَةَ القُرْآنِ الكَريمِ أَوْ يَرْتابُ في شَأْنِها

جاء قول اللّه سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ مؤكَّدًا بـ (إنَّ) واللّام، وذلك لدفع رَيْبِ مَن ارتابَ في هداية القرآن الكريم وكونِهِ وحيًا ورحمةً، وإزالةً للإنكارِ الذي في نفوسهم، فكان التَّأكيدُ ملائمًا لدرجة الارتياب والاعتراضِ الحاصل عِنْدَهُمْ[3]، وفي الآية إثبات أنَّ القرآن

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 31.

الكريم هو الهدى نفسُهُ، أو أنَّه مصدرُ الهدايةِ، أي: الهدى الموصل إلى سعادة الدُّنيا والآخرة، وذلك برضوان اللّه تعالى وجنَّة الخلد[1].

بيانُ عَظَمَةِ هِدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ

دِلالَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿لَهُدَى﴾:

جاء وصف القرآن بالهداية في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلفظٍ منكَّرٍ، وهذا التَّنكير دالٌّ على التَّعظيم؛ إذ الهدى الذي يحصله مَن يتَّخذ القرآن دليلًا هدًى عظيمٌ لا يُقدَّر قَدْرُه، وقد ثبت باستقراء النُّصوص أنَّ هداية القرآنِ الكريم هي الشَّريعة الَّتي اشتملت أحكامُها على مصالح النّاس، وكانت هُدًى ورَحْمَةً لِلمُؤْمنينَ.

اخْتِصاصُ أَهْلِ الإيمانِ بِتَمامِ الرَّحْمَةِ وعُمومِها

دِلالَةُ تَنْكيرِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وتَقْييدِها بِالمُؤْمِنينَ:

جاء الوصفُ الآخرُ للقرآنِ الكريم بكونه رحمةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لفظًا منكَّرًا كذلكَ، وهو دالٌّ على التَّعظيمِ والتَّفخيم.

وفي تقييد رحمةِ القرآنِ بأهل الإيمان وإن كانت رحمتُه عامَّةً للعالمين جميعًا؛ فلأنَّ أهل الإيمان هم الذين ظفروا بالرَّحمةِ كُلِّها والخير أَجْمَعَ، فقد نالوا الفوزَ في الدُّنيا بصلاح نفوسهم واستقامة أعمالهم واجتماع كلمتهم، وفي الآخرة بالفوز بالجنَّة[2].

بِهدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ تُنالُ الرَّحَماتُ

دِلالَةُ الجَمْعِ بَيْنَ ﴿لَهُدَى﴾ و﴿وَرَحْمَةٌ﴾:

جمعَتِ الآيةُ الكريمة بين وصفينِ للقرآن الكريم، وهما: الهُدى والرَّحمة، وذلك في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذا الجمعِ قَرْنٌ بين الانتفاع المعرفيِّ والوجدانيِّ - وهما: الوعي والإيمان - وذلك في وصفِ الهداية، وبين الانتفاع العمليِّ السُّلوكيِّ، وهو المتعلِّق بالأعمال الصّالحة وصلاح الحياة[3]، ولمّا جمعت الآية

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 20/ 22.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 31.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 210.

بين الوصفين؛ أظهرت المنتفِع بذلك على وجهِ التَّمام والكمالِ، فالهداية - بمعنى البيان - حاصلةٌ للمؤمن والكافر، فإن انتفع بها العبدُ، وصارَ مؤمنًا؛ ظهرت آثارُ ذلك في حياتهِ رحماتٍ تترى[1].

دلالات التعريف بـ(أل) والجمع واسم الفاعل في ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

حُصولُ الرَّحْمَةِ لِعُمومِ أَهْلِ الإيمانِ بِحَسَبِ دَرَجاتِهِمْ فيهِ

ورد لفظ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ معرَّفًا بـ(أل)، وهي دالَّة على الجنس، فتعمُّ كلَّ مؤمنٍ[2]، كما جاء اللَّفظ بصيغة الجمعِ؛ للإيماءِ إلى هذا الاستغراق والعموم[3]، فيُقصَد به مؤمنو بني إسرائيل؛ لأنَّ السّياق يتناولهم ابتداءً، كما يعمُّ كلَّ مؤمن بالقرآن الكريم، واتَّبع النَّبيَّ ﷺ[4].

وفي صياغة الوصفِ بصيغة اسم الفاعلِ دلالةٌ على رُسوخ هذا الوصف فيهم[5]، وهذا يقتضي أنَّ وصفَ الإيمان كُلَّما زادَ، وثبتَ؛ زاد الاهتداءُ، وزادت الرَّحمةُ بحسبِ ذلكَ.

دلالةُ لفظِ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

بَيانُ العاقِبَةِ الحَميدَةِ لِمُتَّبِعِ القُرْآنِ الكَريمِ

لفظُ المؤمنين في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا أن يُرادَ به المؤمنونَ حقيقةً، وذلك باعتبار ترقّيهم في مراتبِ الإيمانِ مِن مقامٍ إلى مقامٍ أَعلى مِنْهُ.

أو يجوز أن يكونَ المرادُ بالمؤمنين: الصائرين إلى الإيمان[6]، على طريقة المجاز المُرْسَل، والعلاقة فيه: اعتبارُ ما يكونُ، وفي التَّعبير به إيماء إلى العاقبَةِ الحسَنَةِ لاتِّباع القرآنِ الكريم، وأنَّه يُصَيِّر مُتَّبِعَهُ إلى أعلى مراتِبِ الإيمانِ وأَكْمَلِها.

(1) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/ 10846.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 20/ 18.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 445.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 173.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 261.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾ [النّمل: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ دليلِ عَدْلِ اللهِ سُبْحانَهُ بعدَ ذِكْرِ دليلِ عِلْمِهِ وفَضْلِهِ وحِلْمِهِ

لمّا ذكر اللّه تعالى دليلَ علمِه، وأعقَبَهُ بدليلِ فَضْلِه وحِلْمِه؛ أتبعَهُ ببيانِ دليلِ عَدْلِه، فقال سُبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾(1). ثُمَّ إنَّ اللّه سبحانه لمّا ذكر أنَّ القرآن الكريم جاء ليَقُصَّ على بني إسرائيلَ أكثرَ ما اختلفوا فيه - وذلك بإزالَةِ الرَّيْبِ عنهُم فيها، وكَشْفِ الحَيرة التي هُم فيها يَعْمَهون، فمن اتَّبع البيانَ القرآنيَّ؛ كان له هدًى ورحمة، وإلّا كان له من ضدِّها بقدر انْحرافِه عن اتِّباع القرآنِ الكريم - بيَّن أنَّ اللّه سبحانه يقضي بينَهُم بالحقِّ ويحكُم فيهم بالعَدل، فيجِدُ كلٌّ جزاءَهُ اللّائقَ بِهِ، إمّا رحمةً بالجنَّة، وإمّا عذابًا بالنّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡضِي﴾: (قضي) أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته. كما قال اللّهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصّلت: 12]، أي: أَحْكَم خلقهنَّ(2)، والقضاء: الفصلُ في الحُكم بين المتنازِعَيْنِ أو المتنازِعينَ، ولا يكون ذلك إلّا عَن إحكام وإتقانٍ، قال اللّه سبحانَهُ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: 14]، أي: لفُصِلَ في الحُكم بينَهُم، ومنه قولُ العرب: قَضى الحاكِمُ، أي: فَصَلَ في الحكم، ويُقال: قَضى دينَهُ، أَيْ: قطَع ما لغريمه عليه بالأداء، وكلُّ ما أُحْكِمَ؛ فَقد قُضيَ(3)، فالقضاءُ: فَصْلٌ وإنفاذُ أمرٍ وإتْمامُه(4). ومعنى ﴿يَقۡضِي﴾ في قول اللّه تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(3) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (قضى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قضى).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾: يَفْصِلُ يوم القيامةِ بين المختلِفين في الدُّنيا[1].

2) ﴿بِحُكۡمِهِۦۚ﴾: (حكم) تدلُّ تصريفاتُها على المنع[2]، وليس مُطْلقَ المَنْعِ، وإنَّما هو منعٌ لإرادةِ الإصلاح، ومِنْهُ سُمّي لجام الدّابَّة: حَكَمَةً[3]، وتقولُ: حكمتُ السَّفيهَ، وأحكمتُهُ؛ إذا أخذتَ على يديه، ومَنَعْتَهُ[4]، والحُكم بالشَّيء: أن تقضيَ به، سواءٌ أألْزَمت به غيرَكَ أم لم تلزمه بِهِ[5]، ومِنْهُ الحُكْمُ، وهو القضاء[6]، وسُمّي القضاءُ حُكمًا؛ لأنَّ فيه منْعَ الظّالم من الظُّلْم[7]. وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾، أي: بعَدْله وحِكْمَتِه[8].

بيانُ قدرة اللهِ تعالى في القضاءِ بينَ العبادِ بالعَدْلِ والحِكْمَةِ

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ ربَّك يحكُم بين المختلفين بقضائهِ العادل، فينتقم مِن المُبْطِل منهم، ويُجازي المحسِنَ على إحسانِه، وهو سُبحانهُ العزيزُ القويُّ الذي لا يُقْهَرُ، ولا يُغْلب، فلا يُرَدُّ قضاؤه، وهو ﷻ العليم، فلا يلتبس عليه حَقٌّ بباطلٍ[9].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجُمْلة عَمّا قَبلها:

بيانُ قضاءِ الله تَعالى بالعَدْلِ والحِكْمَةِ بينَ المُخْتَلِفين

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا؛ إذ إنَّ هذه الآيةَ واردةٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفهم

(1) مجير الدين العُليمي، فتح الرحمن: 5/ 160.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(6) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (حكم).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 32.
(9) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 18، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.

مِنَ الجملةِ قبلَها، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمّا بيَّن هُدى القرآنِ الكريم ورحمتَهُ للمؤمنين، وكان فحوى الكلام دالًّا على أنَّ هذين الوَصْفَيْن لا ينالُهما أهلُ الكفر والضَّلال؛ أورثَ ذلك سُؤالًا وهو: ما مَدى هذا التَّدافع والتَّخالف بينَ الفَريقَيْن؟ ومتى يَنْكَشِفُ الحقُّ؟ فجاء الجوابُ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾[1].

دِلالَةُ التَّأكيد في الآيةِ:

قــوَّةُ التَّـأكـيـدِ ملائمَةٌ لشِدَّةِ إنْكارِ الكُفّار

افتُتِحَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾ بالتَّأكيد، فقد أُكِّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة، وبإيراد المسندِ فعلًا، وذلك يقتضي التَّأكيد، ووجهُهُ: أنَّ فيه تكرارَ النِّسبة مرَّتين، إحداهما في إسناد الفعل: ﴿يَقۡضِي﴾ إلى الاسم الظّاهر ﴿رَبَّكَ﴾، والأخرى: في إسناد الفعل ﴿يَقۡضِي﴾ إلى الضَّمير المستتر فيه، وتَكْرارُ النِّسبة مِن مقوّيات الجملة ومُؤَكِّداتها.

وهذا التَّأكيد يُقابلُ درجةَ الإنكار التي في قلوبِ الكفّار لِلجزاء على الأعمالِ في الدّار الآخرةِ؛ إذْ هُم في نعيم الدُّنيا مُنْغَمِسون، ويستبعدون تغيُّرَ حالهم هذهِ وزوالَ النَّعيم عنهم، بَل إنَّهم يُحيلون ذلك ويمنعونه، فجاءَ التَّأكيدُ؛ ردًّا على هذا الإنكارِ، وترسيخًا لتحقُّق القضاء الرَّبّاني[2].

نُكْتَةُ التَّعبير باسْمِ اللهِ (الرَّبِّ):

الـحُـكـم بـيـنَ الـمُـخـتـلِـفـين بالعَدْلِ مِن آثارِ إحْـسـانِ الـلـهِ تعالى

أُسْنِد فعلُ القَضاء إلى اسم اللّه تعالى (الرّبِّ)، في قولِه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾، وذلك للإيماءِ إلى أنَّ القضاءَ بينَ المُخْتَلِفين بالعدلِ والحكمة مِن مُقْتَضياتِ إحسانه سبحانه إلى عباده[3]، وأَنَّ الذي أحسَنَ إليهم فيما مَضى يُحسِنُ إليهم فيما يَأْتي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 32.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.

دِلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّكَ﴾:

أُضيف اسمُ اللّهِ تعالى (الرَّبُّ) إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ، في قول اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾؛ تسليةً مِنَ اللّهِ ﷻ لنبيِّه ﷺ وإيناسًا له[1]، وإيماءً إلى أنَّ القضاء سيكونُ مَرْضيًّا له ﷺ وللمؤمنين[2].

من إحسانِ اللهِ تَعالى إلى نَبيِّه ﷺ إيناسُهُ لَهُ

سِرُّ اخْتيارِ لَفْظِ القَضاءِ مادَّةً وصيغةً:

آثَرتِ الآيةُ مادَّةَ القَضاء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾، وقد جاء الفعل ﴿يَقۡضِي﴾ بصيغةِ الفعل المضارعِ.

يومَ القيامَةِ يُعَزُّ أَهْلُ الإيمانِ ويُذَلُّ أَهْلُ الكُفْرانِ

فأمّا عن مادَّته؛ فالقضاء حُكْمٌ يُلْزَمُ به المتنازعونَ، ففي القضاءِ بيانٌ للحقِّ، ومن له الحقُّ، مع الإلزام به، وذلك بإعادةِ الحقِّ إلى أهلِهِ، وهذا مُلائم لسياقِ الآية الدّالِّ على إعْزازِ أهل الإيمان وإثابَتِهم، وإذلالِ أهلِ الكُفْر ومُعاقَبَتِهم.

وأمّا صيغةُ اللَّفْظِ؛ فجيء بها على صيغَةِ الفعل المضارع ﴿يَقۡضِي﴾، وهو دالٌّ على تصوير القضاء الذي يكون يوم القيامة بالحاصلِ وقتَ الخطابِ؛ ليكون أبلغَ في رَدْعِ الكافرينَ، وأقوى في تسلية المُؤْمنين.

دِلالةُ التَّعْبيرِ بالبَيْنيَّة في ﴿بَيۡنَهُم﴾:

جاء التَّعبير بلفظ البَيْنيَّة (بين) في قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾، وهو لفظٌ يقتضي أن يُذْكَر معَهُ مُتَعَدِّد، فيكون التَّعبير بها دالًّا على وُجود مختَلِفَيْن أو أكثرَ يُفصل بينَهم في الحُكم، والمقصودُ بالمُخْتَلِفَيْن ههنا: مَن آمَن بالقرآنِ، وصدَّق به، واتَّبعه، ومَن كفَر به، وكذَّب، وطعَنَ فيه[3]، فيَظْهر المُحِقُّ مِنَ المبطل ظهورًا بيِّنًا لا لَبْسَ فيه ولا خفاء، ويتَرتَّب على ذلكَ الثَّوابُ والعِقابُ.

إظْهارُ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ وتَرْتيبُ الجَزاءِ عَلى ذَلِكَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 32.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 32.

وفي هذا أيضًا تسليةٌ لفريقِ المُؤمنين - وهُم النَّبيُّ ﷺ ومَن معَهُ - عنِ اسْتِبْطائهِم النَّصر[1]، وفيه بِشارة لَهُم بالفَوْزِ المُبين، وتهديد للظّالمين بأنَّ رجوعَهُم يكونُ إلى اللهِ العَدْلِ سُبْحانه، الذي يعلم السِّرَّ وأخفى، وسَيُجازي كلًّا بِعَمَلِه.

نُكْتَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾:

حُكْمُ اللهِ تَعالى لائِقٌ بِكَمالِ عَدْلِهِ وسَعَةِ عِلْمِهِ

أُضيف الحكمُ إلى اللّه ﷻ، في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦ﴾، وهذه الإضافةُ دالَّةٌ على العهدِ؛ إذِ الإضافَةُ تَنْقَسِمُ إلى ما تَنْقَسِمُ إليهِ (أل)، فكما أَنَّ (أل) تَرِدُ للعَهْدِ، فكذلكَ الإضافةُ، والمَعْنى على إرادَةِ العَهْدِ هَهُنا: أنَّ اللّه سُبْحانَه يَقْضي بينَهُم بِحُكْمِه المعروفِ المشهورِ اللّائق بسَعَةِ عِلْمِه وإحاطتِه واطِّراد عَدْلِه وكَمالِه[2].

وفي الإضافةِ أيضًا معنى الاخْتِصاصِ، فاللّهُ ﷻ يَقْضي بينَهُم بِحُكْمِه لا بِحُكْمِ غَيْرِه، ولا بنائِبٍ يَسْتَنيبُه[3]، وهذا أدخَلُ في وعيدِ الكافِرين، وأَرْقى في عِدَةِ المؤمنينَ.

دِلالَةُ وُرودِ ﴿بِحُكۡمِهِۦ﴾ مَعَ ﴿يَقۡضِي﴾:

قَضاءُ اللهِ تَعالى لا يَكونُ إلّا بِالحَقِّ والعَدْلِ والحِكْمَةِ

قد يتوهَّمُ القارئُ بادئَ الرأيِ أنَّ في قول اللّه تعالى: ﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦ﴾ تكرارًا، وأنَّ المعنى: يَقْضي بينَهُم بقَضائِه، أو يَحْكم بينَهُم بِحُكْمِه، ولكنَّ هذا الوهم يَزولُ بالتَّأمل، والمعنى: إنَّ اللّهَ تَعالى يَقْضي بينَهُم بما يَحْكُم به، وهوَ العَدْلُ؛ لأنَّه سُبْحانَهُ لا يَقْضي إلّا بالحَقِّ والعَدْلِ[4].

وأيضًا؛ فإنَّ الحُكْمَ يُطلق مُرادًا به الحكمةُ، فتكونُ مُبايِنَةً لِمَعْنى القَضاء، ويكون المَعْنى: (إنَّ ربَّك يَقْضي بينَهُم بِحِكْمَتِه)، وتَمامُ العلمِ والعدلِ حِكْمَةٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 32.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 571.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 32.

دِلالَةُ الخَبَرِ في الآيَةِ:

وَعْدُ أَهْلِ الإيمانِ ووَعيدُ أهْلِ الكُفْرانِ

الجُمْلة في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ جملة خبريَّة، والمقصودُ بها إعلامُ المُخاطَبين بما تضمَّنَتْهُ من حُكم - على ما هوَ الأصلُ في الخبَرِ - وينضمُّ إلى ذلك دلالةُ الخبرِ على الوعدِ والوعيد، وعدِ أهل الإيمان المُتَمَسِّكين بالقرآنِ العاملين به، ووعيدِ أهلِ الكُفْرِ المُعْرِضينَ عَنِ القُرآنِ الطّاعنينَ فيهِ، فيكونُ الخَبَرُ مستعملًا في حقيقته ومجازِه معًا.

دلالةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾:

كَمالُ عِزَّةِ اللهِ تَعالى وعِلْمِهِ ودَوامُ اتِّصافِ اللهِ سُبْحانَهُ بِهِما

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: (إنَّ ربَّك يقضي بينَهُم بِعَدْلِه وحِكْمَتِه، والحالُ أنَّه سُبحانه عزيزٌ عليمٌ)[1]، وهذه الحالِ لازمةٌ غيرُ مُتَنَقِّلة، على خلافِ ما هو الغالب في الحالِ؛ وذلك لأنَّ عزَّة اللّه تعالى وعلمَهُ غيرُ مختصَّين بوَقْتِ قضائِه، بل هما صفتان لازِمَتان لذاتِه العليَّة ﷻ، ولذا جاءَ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوت والدَّوام، وعُرِّف الاسمانِ الكَريمان للدَّلالة على الكَمال، ولا كمالَ مَع انْقِطاع هذهِ الأوصاف، بل إنَّ الكمالَ في دَوامِهما.

دِلالَةُ القَصْرِ في الآيَةِ:

لا نِسْبَةَ لِعِزَّةِ المَخْلوقِ وعِلْمِهِ إلى عِزَّةِ اللهِ تَعالى وعِلْمِهِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أُسْلوبُ قصرٍ، وهو من قَصرِ الصِّفَةِ علَى الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأي الإسْنادِ: (هوَ) و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ففيهِ قصرُ صفتي العزَّة والعِلْم على اللّهِ سُبْحانه؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هوَ المُعرَّفُ باللّام، سواءٌ أكان مقدَّمًا أَمْ مؤخَّرًا، فلا عِزَّةَ أكمل من عِزَّة اللّه، ولا علم أكمل من علمه سبحانه، وإن كان قد أثبت العزَّة لغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، كما أثبت العلم لغيره تعالى،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213.

كالذي في قول اللّه سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: 68]، ولكنْ لا نسبة لعزَّة اللّه تعالى وعلمه مع عِزَّة المَخلوقينَ وعِلمِهم.

نُكتةُ الجَمْعِ بينَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

العِزَّةُ والعِلْمُ مِنْ مُقْتَضَياتِ القَضاءِ

خُتِمت هذهِ الآيةُ الكريمَةُ باسْمَيْنِ من أسماءِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، وفي الجمعِ بينَهُما مناسبَةٌ بَديعةٌ معَ القَضاءِ المَذْكورِ قَبْلَهُما في قولِهِ سُبْحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ﴾؛ وذلك لأنَّ العزيزَ لا يُصانِعُ، والعليمَ لا يفوتُهُ الحقُّ، ثُمَّ إنَّ القضاءَ لمّا كان يَقْتَضي تنفيذَ ما يُقْضى به، والعلمَ بما يحكمُ به؛ جاءت هاتانِ الصِّفتانِ عقبَ ذِكْرِ القضاءِ، فاللّه سُبْحانَه عزيزٌ في انْتِقامِه مِنَ المُبْطِلين، عليمٌ بالمُحِقِّ مِنَ المُخْتَلِفين[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَضاء والحُكْم:

القَضاءُ أخَصُّ مِنَ الحُكْمِ

القضاءُ يَقْتَضي فصلَ الأمرِ عَلى وجهِ التَّمامِ والكمالِ، وذلك مُشْتَقٌّ مِن قولك: قَضى فلانٌ الأمرَ؛ إذا أتَمَّه وقطعَ عِلْمَهُ، بخِلافِ الحُكْمِ؛ فإنَّه يَقْتَضي المنعَ عنِ الخُصومةِ، وهو مأخوذٌ مِن قولكَ: أحكمتُ الشَّيءَ؛ إذا منعتَهُ[2].

ويُفرَّق بينَهما مِن وجهٍ آخرَ، وذلك أنَّ القضاءَ فيه إلزامٌ بالحُكْم، بخلافِ مُطْلَق الحُكم فَلا يَقْتَضي الإلزامَ بِهِ، فيكون - بهذا التفريق - القضاءُ أخَصَّ مِن الحُكمِ.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 296، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 267، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 33.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190، وخضر، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 489 - 490.

﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النّمل: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّوَكُّل عَلى اللهِ تَعالى موجِبٌ للاطْمِئْنانِ وراحَة البالِ

لَمّا ذكرَ اللّهُ سُبْحانه أنَّه يَقْضي بينَ المُخْتَلِفين في أمرِ القرآنِ الكريم؛ فرَّع عليه أمرَهُ النَّبيَّ ﷺ بأَنْ يَطْمَئِنَّ بالًا، ويتوكَّل على ربِّه فيما يَقْضي، ويَحْكُم به؛ إذْ هو سُبْحانَهُ يَقْضي له بحقِّه، وعلى مُخالِفِه ومُعارِضِه بِما يَسْتَحِقُّه[1].

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في المُناسبَةِ بينَ الآيتَيْنِ، وذلك أنَّ اللّهَ تَعالى لَمّا ذكَر ما يَدُلُّ عَلى عِلْمِهِ وحِكْمَتِه وعظَمَتِه وقُدْرَتِه؛ فرَّع عن ذلك الأمرَ بالتَّوكُّل عليه[2]؛ تنبيهًا على انْفِرادِه بالتَّوكُّل عليهِ لِكَوْنِه مُنْفَرِدًا بكَمالِ الأوصافِ المُتَقَدِّمة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾: (وكل) تدلُّ تصريفاتُها عَلى اعْتِمادِ المَرْءِ على غيرِهِ في أَمْرِه[3]، والوكيلُ: الموكول، فعيل بمعنى مفعولٍ، والوكيلُ هو الحفيظ[4]، وهو الَّذي يقوم بأمرِ الإنسان، ويُقال: وكَل إليه الأمرَ؛ إذا سلَّمه إليه[5]، والتَّوكُّل: إظْهارُكَ العَجْزَ واعْتِمادُكَ عَلَى غيرك، هَذا في عُرْف اللُّغَة، أمّا التَّوكُّل على اللّهِ؛ فهو الثِّقَةُ بما عِنْدَهُ، واليَأْسُ مِما في أَيْدي النَّاسِ، ويُقالُ: المُتَوَكِّلُ عَلَى اللّهِ الذي يَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ كافِلٌ رِزْقَهُ وأَمْرَهُ، فَيَرْكَنُ إِلَيْهِ وحْدَهُ، ولا يعتمِدُ عَلَى غَيْرِهِ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 33.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(4) الرّاغب، المفردات: (وكل).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (وكل).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (وكل).

والمقصودُ بالتَّوكُّل في الآيةِ هو التَّوكُّل الشَّرْعيُّ على اللّهِ سُبْحانَهُ، وحَقيقتُه: صِدْقُ اعتمادِ القَلْبِ عَلى اللّهِ ﷻ في اسْتِجلاب المصالحِ ودفعِ المضارِّ مِن أمور الدُّنيا والآخرة كُلِّها، وكِلَةُ الأمور كلِّها إليه، وتحقيق الإيمانِ بأنَّه لا يُعطي، ولا يمنعُ، ولا يَضرُّ، ولا ينفع سواهُ[1].

2) ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: (بين) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على الظُّهور والتَّميُّز والاتِّضاح[2]، ومنه: المبين، وهو المُظْهِر المَوَضِّح الأشياءَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣﴾ [التّكوير: 23]، أي: بالأفق المُظْهِرِ المَوَضِّحِ الأشياءَ، وهو اتِّجاه طلوع الشَّمس[3].

ولفظُ (البَيْن) دالٌّ على البُعْدِ، ويُخرَّج الفعل (بانَ) - بمعنى الظهور - وذلك لتُميَّزَ الأمور حتّى تَفْتَرِق، ويَبِينَ كلُّ واحدٍ منها عن الآخر[4]، والفعل (بان): فعل لازم، ويتعدّى بألف التَّعدية، فيقال: أبان، أي: أظهر، والمُبين هو البيِّنُ في ذاتِه والمُبين لغَيْرِه[5].

و﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾، أي: الظّاهرِ الواضِحِ، المتميِّز عنِ الباطلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأَمْـرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى في الأُمورِ كُلِّها

فاعْتَمِد - أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ - في كُلِّ أُمورِك عَلى اللّهِ سُبْحانَهُ في اسْتِجْلابِ المَصالِحِ ودَفْعِ المَضارِّ مِن أمورِ الدُّنيا والآخِرَةِ، وثِقْ به، فإنَّه تَعالى كافيكَ، إنَّك على الحقِّ الواضح البيِّنِ الذي لا شَكَّ فيه ولا رَيْبَ[6].

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 3/ 1266.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (بين).
(3) مصطفى العدويّ، كتاب سلسلة التّفسير: 24/ 4.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(5) الراغب، المفردات: (بين).
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾ ودِلالَتُها:

لا يُتَوَكَّلُ إلّا عَلى كامِلِ الأَوْصافِ

الفاء في ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على السَّببيَّة والتَّفريع، والمقصودُ: ترتيبُ الأمر على ما تقدَّم ذِكْرُه من شؤونِه سُبحانَهُ؛ لأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ توجِبُ على كُلِّ أحدٍ تفويضَ الأمورِ كُلِّها إليهِ سُبْحانَه[1].

دِلالَةُ الأَمْرِ في ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾:

وُجوبُ الاعْتِمادِ عَلى اللهِ تَعالى في تَبْليغِ الدّين وإحْقاقِ الحَقِّ

الفعلُ ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ فعل أمرٍ، وهو دالٌّ على وُجوب التَّوكُّل، على ما هو الأَصْلُ في دِلالَةِ فِعْلِ الأمر، فالآيةُ دالَّة على لُزوم التَّوكُّل على اللّهِ سُبْحانَه وذلك بالاعتمادِ عليهِ في الأمورِ كُلِّها، ومِنْها: الاعتمادُ عليهِ في تَبْليغ الدّينِ وإحْقاقِ الحقِّ وإرْشادِ الخَلق[2]؛ إذِ التَّوكُّل على اللّهِ سُبْحانَهُ يورِثُ التَّوفيقَ والنُّصرةَ.

ودلَّ الأمرُ أيضًا على المُضيِّ في الدَّعوة، وعدم الحُزْنِ لحالِ هؤلاءِ المُعْرِضين[3]، وترقُّب نَصْرِ اللّهِ ﷻ، فقد صارَ القضاءُ بينَهُ وبينَهُم إلى العزيزِ العَليم[4].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ التَّفَعُّل:

قُوَّةُ التَّوَكُّلِ دَليلٌ عَلى جَلالَةِ المُتَوَكَّلِ عَلَيْهِ

الفعلُ ﴿فَتَوَكَّلۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ على زِنَةِ التَّفعُّل، وهيَ صيغَةٌ دالَّة هَهنا على المُبالغَة[5]، والأمرُ بقوَّةِ التَّوكُّل أمارَةٌ على أهمّيَّة الأمرِ المُتَوَكَّل لأجله، وجَلالةِ المُتَوَكَّل عليهِ سُبحانَهُ وعَظَمَته.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 261، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 213، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 299، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 33.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 356.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 495.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 581.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 33.

بلاغَةُ الكنايَةِ في الأَمْرِ بِالتَّوَكُّلِ:

أداءُ النَّبيِّ ﷺ أمانَةَ البَلاغِ

الأمرُ بالتَّوكُّل في قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مستعملٌ في حَقيقَتِه وكِنايَتِه، فأمّا حقيقتُه؛ فَلزومُ التَّوكُّلِ على اللهِ سُبْحانه في الأمور كلِّها، وأمّا كِنايتُه؛ فَدِلالتُه على لازِمِ المَعْنى، ولازِمُ أَمْرِ النَّبيِّ ﷺ بالتَّوكُّل على اللهِ تَعالى: أنَّه ﷺ قد أدّى رسالةَ ربِّه سُبحانَه، وأنَّ إعراضَ مَن أعرضَ عَن أمرِ اللهِ تَعالى ليسَ بسبَبِ تَقْصيرٍ من النَّبيِّ ﷺ(1).

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

كَمالُ العَدْلِ في القَضاءِ ونُصْرَةِ الحَقِّ مِنْ أَعْظَمِ أَوْصافِ المُتَوَكَّلِ عَلَيْهِ

اختار النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسْم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قولِه سُبْحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّه الاسمُ الجامع لأوصافِ الجَلال والجمالِ والكَمال، ومِن تلك الأوصافِ الجليلةِ عدلُ اللهِ تعالى في قضائِه، ونُصرَتُه الحقَّ وأهلَهُ، وذلك ممّا يُغْري المخاطَبَ بقوَّة التَّوكُّل عليه سُبحانه، ويَحُضُّه على ذلك(2).

علَّةُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ﴾ عَمّا قَبْلَها:

مَن كانَ عَلى الحَقِّ؛ كانَ حَقيقًا بِالنُّصْرَةِ والظُّهورِ

فُصِل قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه تعليلًا للأمر بالتَّوكُّل الواردِ في قوله سُبْحانَه قبلُ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فكَوْنُ النَّبيِّ ﷺ على الحقِّ الظّاهر البيِّن علَّةٌ وسببٌ للتَّوكُّل على اللهِ ﷻ؛ إذ مَن كان على الحقِّ؛ فإنَّهُ لا يخشى عقابًا ولا تضييعًا، فاللهُ سبحانه يَكْفُلُه، ويرعاهُ، وينصره، ويكفيهِ ما أَهَمَّه(3).

مَعْنى (إنَّ) ودِلالَتُها:

صاحِبُ الحَقِّ حَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلى اللهِ تَعالى

صُدِّرت جملةُ التَّذييل في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ بالحرف (إنَّ)، وهي تفيد معنى الفاءِ؛ إذا كان المقامُ مقامَ تعليلٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 34.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 269، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 299.

كما في هذه الآيةِ، ولا تفيد تأكيدًا، والحرفُ (إنَّ) ههنا مستعمَلٌ لإرادة الاهتمامِ بمَضْمونِ الجُملة بعده[1].

مَعْنى ﴿عَلَى﴾ ودِلالَتُها في قَوْلِهِ: ﴿عَلَى ٱلۡحَقِّ﴾:

عُلوُّ مَنْزِلَةِ النَّبيِّ ﷺ بِاتِّباعِهِ الحَقَّ

جاء التَّعبيرُ بحَرْفِ الجَرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ للدِّلالة عَلى التَّمكُّن مِنَ الحَقِّ، وذلك لأنَّ ﴿عَلَى﴾ تُفيد في أصلِ دِلالَتِها على مَعْنى الاستعلاءِ، فالنَّبيُّ ﷺ مُتَمَكِّنٌ مِنَ الحقِّ ظاهرٌ بِهِ، فتكون في الآية اسْتِعارَة، حيثُ شُبِّهت حالُ النَّبيِّ ﷺ في تَمَسُّكه بالحقِّ واسْتِقْرارِه عليهِ وتَمَكُّنه منهُ بحالِ مَن اعْتَلى شيئًا، بجامعِ مُطْلَق التَّصرُّف، وذلك لأنَّ أفعالَهُ ﷺ لمّا كانت على وفْقِ الحقِّ ومُقْتَضاه؛ كان تصرُّفه في الحَقِّ كتَصَرُّف الرّاكب بما يَرْكَبُ عليه.

وفيه أيضًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ حصلَ لَهُ الاستعلاءُ؛ لِكَوْنِ منزلَتِه علَتْ، وارْتَفَعَتْ باتِّباعِهِ الحقَّ.

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

تَزْكِيَةُ اللهِ تَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ

عُرِّفت كلمة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ باللّامِ، وهي دالَّة على العَهْدِ، فالنَّبيُّ ﷺ على الحَقِّ مِن أمرِ الدّيانَة، وهي مفيدَةٌ أيضًا معنى الكمالِ؛ إذْ هو ﷺ على الحقِّ الكامل، والدِّلالَتانِ مُتَكامِلَتان؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّة تتوارَدُ، ولا تتزاحَمُ.

وفي الآيةِ شهادَةٌ عظيمَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى لرَسولِه ﷺ بالعَظَمَة؛ لِما دلَّ عليهِ لفظُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مِن معنًى جامعٍ لحقائقِ الأشياء[2].

دِلالَةُ وصْفِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

الخَلَلُ في العِلْمِ والقَصْدِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبابِ تَرْكِ الحَقِّ

وُصِف الحقُّ بكونِه مُبينًا في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ للدِّلالة على أَنَّ صاحبَهُ المُتَمَسِّك به ثابتٌ راسخُ الإيمان؛ لأنَّه مُسْتَمْسِكٌ بالحقِّ لا يعتريهِ شَكٌّ بوجهٍ من الوجوه[3]، وفيه دلالةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 34.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 33.
(3) القنوجي، فتح البيان: 10/ 69.

على أنَّ تَرْكَ المُعْرضين للحَقِّ ليس بسببِ خللٍ في الدّاعي إلى الحقِّ، ولَكِنْ لِخَلَلٍ في مَدارِكِهم ومَقاصِدِهم، وإلّا فإنَّ مَن تأمَّل الحقَّ قاصدًا الوصولَ إليه؛ فلا بُدَّ أن يَتَبَيَّن له سبيلُ الهُدى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُبين والظّاهِر:

بَيْنَ المُبينِ والظّاهِرِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

يجتمع المبين والظّاهر في أصلِ معنى البيانِ، وهوَ الجلاءُ والوضوحُ، ويفترقُ المُبين في دلالتِهِ على التَّعديّ، وذلك أنَّ الظّاهر بيِّنٌ في ذاته، والمُبينَ مُظْهِرٌ لغَيْرِه.

ويدلُّ لفظُ الظّاهرِ على مَعْنى العلوِّ والرِّفعة، بخلافِ المبينِ، فإنَّه يدلُّ على التَّميُّز والجلاءِ، فيكونُ بينَ اللَّفظين عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وجْهٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 214.

﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النّمل: 80 - 81]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تَرْكُ إعْمالِ آلاتِ العِلْمِ وتَصْحيحِ المَقاصِدِ مِنْ أعْظَمِ أسْبابِ الضَّلالِ

لَمّا ذكَر اللّهُ تَعالى أنَّ نبيَّه الكريمَ مُحَمَّدًا ﷺ على الحقِّ البَيِّنِ الواضِحِ الذي لا لَبْسَ فيه؛ بيَّن أنَّ انْحِرافَ مَنِ انْحَرَفَ عَن هذا القرآنِ الكريمِ لا يُنافي ظُهورَ الحَقِّ واتِّضاحَهُ؛ لأنَّ انْحِرافَ هَؤُلاءِ إنَّما لِخَلَلٍ في مَدارِكِهِم، فلم يُعْمِلوها، ولِخَلَلٍ في مَقاصِدِهِم، فَلَم يُصَحِّحوها، فقال سُبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: (صمم/ صمّ) تدلُّ تصريفاتُهما على تَضامِّ الشَّيءِ، وزوالِ الخرْق والمنافذ فيه، ومن ذلك الصَّمَمُ في الأُذن، وهو فقدان حاسَّة السَّمع[2]، ويُطلَق الصَّمم أيضًا على السَّدِّ، تقولُ: صممتُ القارورةَ، أي: سددتُها[3]، ويوصف بالصَّمم من لا يصغي إلى الحقِّ ولا يقبلُه، كما في قول اللّه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171][4]، كأنَّه فاقد لحاسة السَّمع، فيكون الأصمُّ مَن لا يهتدي إلى الحقِّ، وإطلاق الصَّمَم عليه مِن باب التَّجوُّزِ، فيكون مِن صَمَمِ العَقْلِ لا الأذن[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 300.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (صم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صمم).
(4) الرّاغب، المفردات: (صمم).
(5) جمال الدّين الفتني، مجمع بحار الأنوار: (صمم).

و﴿ٱلصُّمَّ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ مَن لا سَمْعَ لَهُ ولا إصْغاءَ.

2) ﴿مُدۡبِرِينَ﴾: (دبر) تدور اشتقاقاتُها على آخِر الشَّيء وخَلْفِه، وهوَ ضِدُّ قُبُلِه[1]، ودُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُه ومُؤَخَّرُه، والجمعُ: أَدْبارٌ، ومِنْهُ دُبُرُ الشَّهْرِ، وهوَ آخِرُهُ، يُقالُ: جِئْتُكَ دُبُرَ الشَّهْرِ، ومِنْهُ أيضًا: دابِرُ الشَّيءِ، وهو آخِرُه، وفي القرآن الكريم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: 45]، أي: اسْتُؤْصِلَ آخِرُهم[2]، ويُقال: قطَعَ اللهُ دابِرَهم، أي: آخِرَ مَن بَقِيَ منهم، ويقال: أدبر؛ إذا أَعْرَض، وولَّى دُبُرَه، قال الله سُبْحانه: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ [المدثر: 23][3]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [المدثر: 33]، أي: ولَّى؛ ليذهَبَ[4].

ومعنى ﴿وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾: ولَّوا إليك ظُهورَهُم، وانصرفوا عنكَ، ولم يبقَ أملٌ في رجوعهم[5].

3) ﴿ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾: (ضلّ) تدلُّ تصريفاتُهما على مَعنى الضَّياع والعدول عن القصد[6]، والضَّلال: هو العدول عن الطَّريق المستقيم، وهو ضدُّ الهدايَة، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15]، فيُطْلَقُ الضَّلال على كلِّ عدول عن الحقِّ، عمدًا كان أو سَهْوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[7]، ويُطلق الضَّلال على الانفلاتِ والذَّهاب، يقال: ضلَّ هو عَنّي ضلالًا وضلالةً، أي: ذهب، وأضلَّ فلانٌ فرسَهُ: ذهب عنهُ، وانفلت[8]، ويطلقُ الضَّلال على الهلاك[9].

والضَّلالةُ في قولِ الله تَعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ مستعارةٌ لعدمِ إدراك الحقِّ[10].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (دبر).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (دبر).
(3) الرّاغب، المفردات: (دبر).
(4) الخليل، العين: (دبر).
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 76.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(7) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 37.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّك - أيُّها الرَّسول الكريمُ - لا تَقْدِرُ أن تُسْمِع الحَقَّ مَن طبعَ اللّهُ تعالى عَلى قَلْبِه، فأماتَهُ؛ لأنَّ اللّهَ قد ختمَ عليهِ ألّا يفهمَهُ، ولا تُسمِع دعوتَك مَن أصمَّ اللّهُ سُبحانَهُ سمعَه عَن سماعِ الحَقِّ عندَ إعْراضِهِم عنكَ، فإنَّ الأصَمَّ لا يَسْمَعُ الدُّعاءَ؛ إذا كان مُقْبِلًا، فكيفَ إذا كان مُعْرِضًا عنهُ مولّيًا مُدْبِرًا؟.

الإعْـــراضُ عَـنِ الحَقِّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْـبـابِ عَـدَمِ الاهْتِداءِ

وما أنتَ - أيُّها الرَّسول الكريمُ - بهادٍ عنِ الضَّلالة مَن أعماهُ اللّهُ ﷻ عنِ الهُدى والرَّشاد، ولا يُمَكِنُك أن تُسمع إلّا مَن يصدِّق بآياتنا، فهم مُسْلِمون مُطيعون، فإنَّ هؤلاءِ الذينَ يَسْمَعونَ مِنْكَ ما تَقولُهُ، ويَتَدَبَّرونه، ويُفَكِّرون فيه، ويعملونَ بمقتضاهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا[2]، فإنَّ هذه الجملةَ واردةٌ جوابًا عن سُؤال يُفهم مِنَ الجملةِ التي تقدَّمتها، وذلك لأنَّ اللّهَ تعالى لمّا أمر نبيَّه الكريمَ ﷺ بالتَّوكُّل عليه، وبيَّن له أنَّه على الحقِّ الواضح البيِّن الذي لا خفاءَ فيه بوجْهٍ مِنَ الوجوهِ؛ أَوْرَثَ ذلك في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وحاصلُهُ: إذا كان الحقُّ بهذه المنزلةِ مِنَ الوضوحِ والظُّهور، فَلِم أعرَضَ مَن أعرض عن هذا الحَقِّ؟ فجاء الجواب في قولِه سُبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لبيان أنَّ إعراضَهم كان بسببٍ منهم لا بسبب تقصيرٍ من الدّاعي إلى الحقِّ.

الإعْـــراضُ عَـنِ الـحَـقِّ حـاصِـلٌ بِـسَـبَـبِ تَـقْـصيرِ المُعْرِضِ لا بِسَبَبِ خَفاءِ الحَقِّ

دلالة (إنَّ) في الآية:

وصُدِّر قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ بـ (إنَّ)؛ للدَّلالة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 495 - 496، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 34.

رسول الرَّسول ﷺ سيِّد المتوكِّلين

على التَّعليل لما تضمَّنَهُ الأمر بالتَّوكُّل، فهو تعليلٌ آخرُ بعد التعليلِ المتقدِّم في قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾[1]، "وجهُهُ: أنَّ الأمر بالتَّوكُّل جُعِل مسبَّبًا عمّا كان يغيظ رسولَ اللّهِ ﷺ مِن جهةِ المشركين وأهلِ الكتابِ، مِن تركِ اتِّباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة، فلاءَم ذلك أن يُعَلَّل توكُّل متوكِّل مثله، بأنَّ اتِّباعهم أمرٌ قد يُئِسَ منه، فلم يبقَ إلّا الاستنصارُ عليهم لعداوَتِهم واستكفاءِ شُرورِهم وأذاهُم"[2].

سِرُّ اخْتيارِ لَفْظِ الإسْماعِ مادَّةً وصيغَةً:

شِدَّةُ حِرْصِ النَّبيِّ ﷺ عَلى هِدايَةِ الخَلْقِ

آثر النَّظمُ القرآنيُّ لفظ الإسماع في قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لعلَّةٍ تتعلَّق بمادَّتها وصيغَتِها؛ فأمّا مادَّتُها؛ فهي تدلُّ على إبلاغ الكلام إلى السّامع[3]، وتشير بالتَّتبع في هذا السّياقِ إلى ما بذله النَّبيُّ ﷺ لإبلاغ هؤلاء ما أوحي إليه، حتّى يصلَ المقصودُ إلى وعيهم، فيهتدوا به.

وأمّا صيغتُها؛ فقد ورَدَت بصيغةِ الفِعْلِ المُضارع المنفيِّ: ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾، وذلك دالٌّ على الاستمرارِ، والمقصودُ اسْتِمْرارُ النَّفي لا نفيُ الاسْتِمْرار، وفيهِ إيماءٌ إلى شدَّة حِرْصِ النَّبيِّ ﷺ على إسماع الحقِّ كلَّ مَن قَدِرَ على إسماعِه، حتّى أعلمَهُ اللّه سُبْحانه بأنَّه لا يَقْدِرُ على إسْماعِ أصنافٍ مِنَ النّاس.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

عَدَمُ انْتِفاعِ المُعْرِضينَ بِفُهومِهِم ومَشاعِرِهِم

في التَّعبير عَنِ المُعْرِضين بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ استعارةٌ بديعة، فقد شُبِّهوا بالموتى مِن جهة فَقْدِ الإحساسِ والوعي، والحالُ أنَّ الحقَّ يطرق آذانَهم، ولم يتأثَّروا به[4]، ولم يَنْتَفعوا بمَشاعِرِهم الَّتي هيَ في غاية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 34.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 383.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 20/ 34.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 300.

الصِّحَّة، فصاروا كالأَمْواتِ[1]، ولَم يَفْقَهوا ما في الآياتِ مِنَ الحقِّ، فصاروا بلا قُلوبٍ تَعْقِل[2].

والاستعارةُ في الآية تصريحيَّة تبعيَّة، وفيها تصويرٌ بديع لِعظَم إعْراضِهم بسبَبِ تَعْطيلِهم آلاتِ الانتفاعِ، وسدِّهم طُرُقَ الاهتداءِ.

نُكْتَةُ إطْلاقِ فِعْلِ ﴿تُسۡمِعُ﴾ عَنِ المفْعولِ الثّاني:

عَدَمُ انْتِفاعِ المُعْرِضِ بِشَيْءٍ مِنَ الحَقِّ

حُذِفَ مفعولُ فِعْلِ ﴿تُسۡمِعُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ فلم يُقيَّد بمفعولٍ ثانٍ خاصٍّ، وذلك للإيماء إلى العموم؛ لأنَّ حذفَ المعمولِ مُؤْذِنٌ بذلك، والمَعْنى: لا تُسمِعُ هَؤلاء الذين هُم بمنزلة المَوْتى أيَّ شيءٍ؛ لعدَمِ انْتفاعِهم بِشَيْءٍ من حواسِّهم ومشاعرِهم، كما أَنَّ الميِّتَ حقيقةً لا يُمَكِنُه أن يَسْمَع شيئًا، ولا يَفْقَهه[3]، فلم يُذكر مفعولٌ به خاصٌّ؛ لئلّا يوهِم التَّقييد به، وأنَّهم يُسمَعون ما عداهُ.

عِلَّةُ وصْلِ جُمْلَةِ ﴿وَلَا تُسۡمِعُ﴾ بما قَبْلَها:

بَيانُ دَرَجاتِ الإعْراضِ عَنِ الحَقِّ

وُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بما قبله؛ لِما بينَ الجُمْلَتَيْنِ من التَّوسُّط بين الكمالَيْن، وذلكَ لأنَّ قولَه سُبحانَهُ: ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ جملة خبريَّةٌ، وقولَهُ تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ كذلك، وبينهما مناسبَةٌ؛ وذلك أنَّ كِلتا الجُمْلَتَيْن يُصوِّر حالَ المُعْرِضين في عدَمِ انْتِفاعِهِم بِشَيْءٍ مِنَ الحقِّ، وبين الجُمْلَتَيْن مناسباتٌ لفظيَّة، وهيَ: أَنَّ كِلتا الجُملتين فِعْليَّة مَنْفيَّة، فِعْلُها مضارعٌ، واتحدتا في المُسْنَد إليه، فهذه المناسباتُ تُقَوّي الوصلَ، وتُرَشِّحُه.

وجملةُ ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ واردةٌ في مَعْرِض تَعداد درجاتِ الإعراضِ عَنِ الحقِّ، فجعلهم في حُكْم الأموات؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بما يَطْرُق أسماعَهم بالعشيِّ والإبكار من آيات العزيز الجبّار، وعلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 214.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 35.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 300.

فرض عدِّهم من جملة الأحياء، فهم كالصُّمِّ الذين لا يسمعون ما يقال له، فعبَّر عن هذه الحال بقوله: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، أي: ولا تُسْمِعُ مَن بِه صَمَمٌ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في لَفْظِ ﴿ٱلصُّمَّ﴾:

مَن لَمْ يَسْمَعْ آياتِ القُرآنِ سَماعَ انْتِفاعٍ؛ يَتَعَذَّرُ مِنْهُ الانْقيادُ لَها

في قولِ اللّٰه سُبْحانه: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، فقد شُبِّه المُعْرِضونَ بالصُّمِّ في انْتِفاءِ أثَرِ البَلاغَةِ القُرآنيَّة لألفاظِهِ عَن نُفوسِهِم[1]، والأصمُّ لا يسمع النِّداء أصالةً، ولا يستجيبُ لِمن يُخاطبه تبعًا، وكذلك هؤلاء المعرضون لا يتأثَّرون لبلاغة القرآنِ الكريم، وما تضمَّنته آياتُه مِنَ المَواعظ الزَّواجر، ولا ينقادون للحقِّ الذي دلَّ عليهِ القرآنُ الكريم.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ ابنُ كثير: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾[2]، ووجه ذلك أنَّه إخبارٌ عن هؤلاء بأنَّهُ لا سماعَ لهم، فجُعِلوا فاعِلين، فكما أنَّ الأصَمَّ لا يَسْمَعُ ما يُقال لهم، فكذلك هؤلاء لا يَنْتَفعون بما يُقال لهم ممّا يبلِّغهم به الرَّسول ﷺ مِنَ الوَحْي.

وقرأ باقي العشرَة: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[3] على أنَّهُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه لا يقدر على إسماعهم؛ لأنَّهم صُمٌّ[4].

وفي اختلافِ القراءتين تكامُلٌ في الدِّلالة، فَهُم صُمٌّ لا يَسْمَعونَ، ولا يتأتَّى منكَ إسماعُهُم.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ﴿إِذَا﴾:

الإعْراضُ عَنِ الحَقِّ حالٌ غالِبَةٌ لَهُمْ

عُلِّقت جملةُ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بشرط التَّولّي على وجه الإدبار، وذلك بأداة الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾، فقال سُبحانه: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 34 - 35.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339.
(4) مكّي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 166 - 167.

﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾، وذلك لأنَّ (إذا) تدلُّ على الجزم بوقوع مدخولها، بخلاف (إنْ)؛ فإنَّها تدلُّ على الشَّكِّ في وقوع مدخولها، ولذلك تدلُّ على ما كان قليلًا نادرًا، وفي تعليق الشَّرط المذكور في الآية بـ ﴿إِذَا﴾ دلالةٌ على أنَّ إعراضهم هو المقطوع به، وهو الغالب على حالِهم، فالتَّولّي عن سماع الحقِّ ليس مِمّا صدرَ مِنْهُم مرَّة أو مرَّتين، بل كُلَّما قوبلوا بالحقِّ أَعْرَضوا، وتَوَلَّوا، وهذا مِنْهُم في غايةِ الانْحِرافِ والعِناد.

دِلالَةُ التَّقْييدِ بِـ ﴿وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾:

شِدَّةُ نُفورِ أَهْلِ الباطِلِ مِنْ سَماعِ الحَقِّ

قُيِّدَ عدَمُ إسماعِ الصُّمِّ بقولِه: ﴿وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾، وهو إتمامٌ لصورةِ التَّشبيهِ وتأكيدٌ لحال الصَّمَم، وهذه الحالُ المذكورةُ - وهي حال تولّيهم مُدْبِرين - أوغَلُ في انْتِفاءِ إسْماعِهم، وذلك لأنَّ مَن به صممٌ إذا كان مواجِهًا للمتكلِّم قد يَسْمَعُ بعضَ الكلام بالصُّراخ ورفع الصَّوت، ويستفيدُ بَقيَّتَهُ بحركةِ الشَّفتين، فأمّا إذا تَولّى؛ فإنَّه يكون قد ابتعدَ عن الصَّوت، وإذا كان تولّيه على وجهِ الإدْبار لا على وجهِ القَهْقَرى لَم يَلْحَظ حركةَ الشَّفتين، فكانَ مَن هذا حاله ممّا يتعذَّر إبلاغُهُ[1].

عِلَّةُ وصلِ جُمْلَةِ ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ بما قَبْلَها:

بَيانُ دَرَجَةٍ أُخْرى مِنْ دَرَجاتِ الإعْراضِ عَنْ هَدْيِ الإسْلامِ

وُصِلَ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ بالجملة قبله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين، وذلك لأنَّ الجملتين خبريَّتان، وبينهما مناسبة معنويَّة ولفظيَّة، فأمّا المعنويَّةُ؛ فهي أنَّ قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ واردٌ لبيان درجةٍ أخرى من درجات الإعراض عن الحقِّ، فهو مواصلة لما تقدَّم تقريرُهُ، وأمّا المناسبة اللفظيَّةُ؛ فكلتا الجملتينِ اسميَّة منفيَّةٌ، وقد اشتركتا في المسند إليه، فكانت هذه محسِّنةً للوصلِ ومقويَّةً لَهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.

فالآيةُ الكريمة شَبَّهت حالَ هؤلاء المُعْرضينَ بالعُمْي في انتفاءِ التَّمييز بينَ طريق الهُدى وطرُق الضَّلالة؛ لعدم اتِّباعهم هديَ الإسلامِ(1).

دِلالَةُ النَّفْيِ بِـ (ما):

عِظَمُ حِرْصِ النَّبيِّ ﷺ عَلى هِدايَةِ النّاسِ

جاء النَّفي في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ بـ (ما)؛ تقويةً وترشيحًا لهذا النَّفي، وذلك لأنَّ (ما) في النَّفي آكدُ من (لَم)؛ وذلك لأنَّها تقع جوابًا للقسم، بخلاف (لم)، ومناسبة التَّأكيد هَهُنا: هو أنَّ المقام مشعِرٌ ببقيَّة حرص النَّبيِّ ﷺ على هداية هؤلاء مع ما تقدَّم منْهم من شدَّة الإعراض - لعظم شفقتهِ ﷺ - فناسبه هذا التَّأكيدُ لقطعِ هذه البقيَّة من الحرص، والحُكمِ على هؤلاء بأنَّهم لا يهتدون(2).

مَعْنى الباءِ في ﴿بِهَٰدِى﴾ ودِلالَتُها:

بَيانُ بَلاغِ النَّبيِّ ﷺ وضَلالِ المُنْحَرِفينَ عَنِ الحَقِّ

الباء في ﴿بِهَٰدِى﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ يُراد بها توكيدُ النَّفي وتقويتُهُ، فيكون تأكيدًا بعد تأكيدٍ؛ إذ النَّفي بـ (ما) فيه ضرب من التَّقوية، ورُشِّح هذا التَّأكيد بالباء، تثبيتًا للمعنى الذي تضمَّنته الجملةُ مِن عدم هدايةِ العُمْي وردِّهم عن ضلالتهم؛ قطعًا لبقيَّة ذلك الحِرص الذي كانَ عندَ النَّبيِّ ﷺ من هدايةِ هَؤلاءِ، وتسليةً له ﷺ من أنَّ انحراف هؤلاء وضَلالهم إنَّما كان بسببٍ منهم لا بسببِ تقصيرٍ منهُ ﷺ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ حمزة ﴿تَهْدِى﴾ بالتّاء المفتوحة، وإسكان الهاء من غير ألف، على أنَّه فعل مضارع، و﴿ٱلْعُمْىَ﴾ بالنَّصب، وقرأها الباقون ﴿بِهَٰدِى﴾ بالباء المكسورة، وبهاء مفتوحة وبعدها ألف، و﴿ٱلْعُمْىِ﴾ بالجرِّ(3).

فأمّا قراءة الجمهور ﴿بِهَٰدِى﴾؛ فعلى أنَّ (هاديًا) اسمُ فاعل،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 37.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.

و﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾ مضاف إليه، من باب إضافة اسم الفاعل لمفعوله[1]، وفي التَّعبير بنفي الاسم مزيدُ تأكيدٍ وعنايةٍ بمضمون ما نُفيَ في الجملةِ، ومُبالغة في النَّفي[2]، ووجه المبالغة أنَّ هذا النَّفي يدلُّ على امتناعِ جِنْسِ هدايةِ هؤلاء عن النَّبيِّ ﷺ، فهداية هؤلاءِ ممتنعَةٌ غايةَ الامتناع، والمعنى: ليسَ في وسعك إدخالُ الهدى في قلب مَن عَميَ عن الحقِّ، وأعرضَ عنه، ولم يتأمَّلْهُ حقَّ التَّأمُّلِ[3].

وأمّا قراءة حمزة بالفعل المضارع ﴿تَهۡدِى﴾؛ فعلى أنَّه فعلٌ مضارعٌ، وهو دالٌّ على الاستمرار بالقرينة - كما في هذا السّياق - والمقصود: استمرار النَّفي لا نفي الاستمرار، وذلك لأنَّ مَن ذُكر بعدُ لا تَتَأتّى هدايتُهم أبدًا ما داموا مُقيمين على عَمى الصَّدِّ والإعراضِ، والقِراءَتان مُتواتِرتانِ، مُتقارِبَتان في المَعْنى، مُتكامِلَتان في الدِّلالة[4].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾:

لا طَريقَ إلى الهِدايَةِ إلّا بِنَظَرِ القَلْبِ إلى الحَقِّ

عُبِّرَ عن المعرضين في الآية بـ ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾، في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ﴾، وفي ذلك استعارةٌ بديعةٌ، وهي استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذْ إنَّ الأعمى لا يُبْصِر، فإذا سلك طريقًا؛ فإنَّه لا يهتدي لسبيله، فيضلُّ، ويضيع، وكذلك حالُ هؤلاء المعرضين عن الحقِّ؛ فإنَّهم لا يميِّزون بين هُدًى وضلالٍ؛ لتعطيلهم النَّظرَ بالقلوبِ إلى الحقِّ، فلن يهتدوا سبيلًا، ولا تتأتّى الهدايةُ إلّا بالإبْصار[5]، ولمّا كانوا لا يهتدونَ إلى سَبيلِهم؛ فإنَّ مآلَهم الضّياع، كحالِ الأعمى في سَيْرِهِ؛ إذا بقي بلا دليلٍ يُرشدُهُ.

---

(1) محمّد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/ 112 - 113.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 268.

(4) ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 18/ 118.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 167.

تشنيعُ حالِ المُعْرضينَ عَنِ الحَقِّ

بَلاغَةُ تَكْرِيرِ التَّشْبيهِ:

اشتملتِ الآيتان الكريمتان تشبيهًا متكرِّرًا، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾، فشُبِّهَ المعرضون بالمَوْتى والصُّمِّ والعُمْي، فأمّا تشبيهُهم بالموتى؛ فلمَوْتِ قلوبهم عن النَّظر إلى الحقِّ وعدم إعمالِ مَشاعِرهم، وأمّا تشبيهُهم بالصُّمِّ؛ فلِعَدَم انتفاعِهم بما تُؤَثِّر فيه آياتُ القرآنِ - وما اشتملت عليه من بلاغةٍ - في الأسماع والقلوبِ، وأمّا تشبيهُهم بالعُمْي؛ فلعَدَمِ إبْصارِ قُلوبِهم الحقَّ وترك تأمُّلهم فيه.

وفي تَكرار هذا التَّشبيه - مع أنَّ المقصودَ واحدٌ، وهو عدم انتفاعهم بالهُدى والحقِّ - مبالغَةٌ في تشنيع حالهم بإيراد الصّورة تِلوَ الصّورة تقبيحًا لشأنِهم[1]، فلم تكن حالُهم حالَ الميّت؛ إذ هم في الحقيقةِ أحياءٌ، ولم تَكن حالُهم حال الصُّمِّ؛ إذ لديهم آذانٌ تُدرِكُ الأصواتَ، ولا حال العميِ؛ فإنَّ لهم أعينًا، لكنَّهم لم ينتفعوا بشيء من ذلك، فاجتمع فيهم من تَبَلُّد الحسِّ، وفقدان الوعي، وعطب الحواسِّ، ما يأَّس من اهتدائهم[2]، ولتَكْرارِ هذهِ المعاني نَظائِرُ، كالوارد في قول اللّه ﷻ: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: 179]، فقد اجتمع فيهم عدمُ فقهِ القلوب، وعدمُ سَمْعِ الآذان، وعدَمُ إبْصارِ الأَعين، فأنّى لهم أن يهتدوا؟.

وَظيفَةُ النَّبيِّ ﷺ الهِدايَةُ إلى الحَقِّ، والرَّدُّ عَنِ الضَّلالَةِ

مَعْنى ﴿عَن﴾ ودِلالَتُها:

عُدّي فعلُ الهداية في الآية الكريمةِ بحرف الجرِّ ﴿عَن﴾، في قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ فعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 36.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 19.

الهِدايَةِ ضُمِّن معنى الصَّرف والرَّدِّ، والمَعْنى: وما أنتَ بِهادي العُمْيِ ولا رادِّهم أو صارِفِهم عَن ضَلالَتِهم، وهذا التَّضمينُ مُلائِمٌ للسّياق، والمعنى: ما أنتَ بهادٍ هدايةَ التَّوفيقِ، وإنَّما أنتَ مُبَلِّغ، وما أنتَ برادٍّ العُمْيِ عَن ضَلالَتِهم إلى ما تَقْتَضيهِ الفِطَرُ، وإنَّما أنتَ نَذيرٌ"[1].

واخْتيرَ لفظُ الهِدايَةِ؛ ليُجمَع له ﷺ بين وظيفَتَيْن؛ إحْداهُما: هدايَةُ الخَلْقِ إلى الحقِّ؛ لأنَّ نفيَ هدايتِه مَنْ عَمي عنِ الحَقِّ بسبَبِ إعراضِه، يَقْتَضي بالفَحْوى ثبوتَ هدايتِه لغَيْرِ هؤلاء، والأخرى: الرَّدُّ عن الضَّلالة والإرجاعُ إلى أصلِ الفِطْرَة[2].

عِلَّةُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ عَمّا قَبْلَها:

أَهْـلُ الإيمـانِ سامِعونَ الحَقَّ مُنْقادونَ لَهُ

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ هذه الجملةَ واردَةٌ جوابًا عَن سؤالٍ يُفهمُ مِنَ الجُمْلَةِ المُتَقَدِّمة، وذلك لأنَّ اللّٰه تعالى لمّا بيّن أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَهْدي العُمْيَ، ولا يَرُدُّهم عن ضَلالَتِهم إلى ما تَقْتَضيهِ الفِطرةُ السَّليمة؛ أورثَ ذلكَ سُؤالًا في نَفْسِ المُتَلَقّي، وحاصله: فمَنِ الذي يهتدي بهُدى القرآنِ الكريم؟[3] فجاء الجوابُ في قول اللّٰه سُبْحانَه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تُسۡمِعُ﴾:

الـثَّـنـاءُ عَـلى الـدّاعـي إلى الحَقِّ والمُنْتَفِعِ بِهِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارع، في قولِ اللّٰه سُبحانه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ عَلى التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فَفيهِ إيماءٌ إلى دوامِ النَّبيِّ ﷺ على الدَّعوة إلى الحقِّ، وفيه مدحٌ لِمَن يسمَعُ إبلاغَ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه مداومٌ على هذا الانتفاعِ بالحقِّ الذي يسمعُهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ ومُسْتَمِرٌّ عليه، فكانَ في التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿تُسۡمِعُ﴾ مدحٌ للدّاعي والمدعوِّ معًا.

(1) محمد نديم فاضل، التضمين النحوي في القرآن: 2/ 278.
(2) محمد نديم فاضل، التضمين النحوي في القرآن: 2/ 278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 37.

سَماعُ الآياتِ القُرْآنيَّةِ طَريقٌ لِلاهْتِداءِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالإسْماعِ دونَ الهِدايَةِ:

جاء التَّعبيرُ في الآيةِ بالإسْماعِ دونَ الهدايَةِ، فقالَ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولَم يَرِدِ في النَّظْمِ القُرآنيِّ: (إنْ تَهْدي إلّا مَن يُؤْمِن)، ونُكْتَةُ ذَلكَ: الإشارَة إلى الهداية بذِكْرِ سَبَبِها الأعظَم، وهو الإسْماع[1]، فإسْماعُ الآياتِ التَّنزيليَّة هوَ طريقُ الهِداية[2]، فإذا أَلْقى المُؤْمِنُ سَمْعَهُ للآياتِ؛ انْتَفَعَ بها، واهتدى بسَبَبِها، ولذا قال رَبُّنا سُبْحانَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37]، وفي ذِكْرِ الإسْماعِ أيضًا تأكيدٌ على أداءِ النَّبيِّ ﷺ ما وُكِل إليهِ من تبليغ الشَّريعة.

الحَثُّ عَلى التَّجَرُّدِ مِنَ الصِّفاتِ المانِعَةِ مِنْ قَبولِ الهُدى

بَلاغَةُ القَصْرِ بِـ ﴿إِن﴾ و﴿إِلَّا﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أسلوبُ قصرٍ، والغرضُ منه إظهارُ مزيدِ التقابلِ بين الصِّنفين: أحدهما المذكور في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾، والمعنى: ما أنت بمسمع هؤلاء، والصِّنف الآخَرُ: هو المذكورُ هَهنا في قولهِ سُبْحانَه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والمعنى: الذين من شَأْنِهم الإيمانُ بالآياتِ، وهُم الَّذين ليسوا مَوْتى ولا صُمًّا ولا عُمْيًا، دون هَؤلاءِ المُكذِّبين[3].

وجاء القصرُ بأسلوبِ النَّفْي والاستثناء، وهو أَعْلى طُرُقِ القصر وأقواها؛ وذلك للتنبيه على الحقيقةِ المذكورةِ في جملة القصرِ، والحثِّ على اكْتِسابِ صفةِ الإيمانِ والتَّجرُّد من العِناد والإعراضِ؛ ليَحْصُلَ الانتفاعُ بالآياتِ والاهتداءُ بها.

كُلَّما تَرَقّى العَبْدُ في مَنازِلِ الإيمانِ؛ عَظُمَ انْتِفاعُهُ بِالقُرْآنِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ في قول اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 37.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 231.

ﷻ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للدَّلالة على أنَّ المنتفعَ بالآياتِ تمامَ الانتفاعِ هو مَن تجدَّد له الإيمانُ، وتَرَقّى في مراتبِه ومنازلِه، واسۡتَمَرَّ عليه، وداوَم.

والتَّعبير بالفعلِ المضارعِ أيضًا يُعمِّم الدَّلالةَ، ويوَسِّعها؛ فيدخُلُ فيهِ مَن آمَنَ في الحالِ، ومَن يُؤۡمِنُ في المُسۡتَقۡبَلِ[1]؛ لأنَّ الفعلَ المُضارِعَ صالِحٌ للدِّلالَتَيۡنِ معًا.

دِلالَةُ جَمۡعِ الآياتِ في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

عَظَمَةُ آياتِ اللهِ تَعالى وكَثۡرَتُها وتَنَوُّعُها

جاءَ ذِكۡرُ الآياتِ جَمۡعًا في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ للدَّلالة على كثرةِ الآيات وتنوُّعِها، وجَمۡعُها دالٌّ أيضًا على عَظَمَتِها، ولذا أُضيفَت إلى ضَميرِ العَظَمَة (نا) العائدِ على اللهِ سُبۡحانَه.

وفي هذا الجمع تعريضٌ بالمُكَذِّبين؛ حيثُ كَذَّبوا بِما تكاثرَت أدِلَّتُه، وتنوَّعت أضربُهُ، وعَظُم قَدۡرُه.

والمقصودُ بالآياتِ مواعِظُ اللهِ سُبحانَهُ الَّتي لا تُسمع إلَّا للمؤمنين الَّذين يُصغون إلى أدلَّة التَّوحيدِ، ويتشرَّبون الهداية والنّورَ، وينتفعون بها[2].

مَعۡنى الفاءِ في ﴿فَهُم﴾ ودِلالَتُها:

الانۡقيادُ للحَقِّ أثَـرٌ مِـنۡ آثارِ الإيمانِ

الفاءُ في ﴿فَهُم﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ سببيَّةٌ[3]، سبَّبت الإسلام عن استماعهم للآيات، والمعنى: أنَّ هؤلاء يحصل لهم الإسلام بسبب استماعهم لآيات اللّه وانتفاعهم بها.

ويُحتمل أن تكون الفاءُ فصيحةً[4]، وهي التي تُفصِحُ عن محذوفٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 231.
(2) مأمون حمّوش، التّفسير المأمون: 6/ 63.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 215.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 255.

مقدَّرٍ، والمعنى: فإذا استمعوا إلى هذه الآيات؛ فهم مسلمون، أي: وقع انتفاعهم بالآيات عقب سماعها.

وفي الفاء أيضًا معنى التَّفريع؛ وذلك لأنَّ اللّهَ ذكر أنَّ النّاسَ قسمان: مَن طبع اللّه تعالى على قلبه، وعلم منه أنَّه لا يُؤْمِنُ حتّى يهلك على الكفرِ، والآخر: مَن عَلِمَ اللّهُ سبحانه منه الإيمانَ، ولَو قبلَ مَوتِه؛ فُرِّع على الصِّنفِ الثّاني قولَه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ المفيد للدَّوام والثَّبات؛ لأنَّهم إذا آمنوا؛ فقد رسَخ الإسلامُ فيهم، وتمكَّن منهم، وكذلك الإيمانُ حين تخالِطُ بشاشَتُه القلوبَ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ:

بَيانُ دَرَجاتِ اسْتِجابَةِ المُؤْمِنينَ وانْقيادِهِمْ

آثر النَّظْمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجُمْلة الاسميَّةِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ دونَ الجملةِ الفعليَّة؛ لدلالة الجملةِ الاسميَّة على الثُّبوتِ، فكان قولُهُ تعالى: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مفيدًا دوامَ إسلامِهم وثباتَهُ في قُلوبِهم[2]، فمَن آمَن بآياتِ ربِّه؛ زادَهُ ذلك انقيادًا لربِّه سُبحانه في كلِّ حينٍ، ورسوخًا وتمكُّنًا، وتدرُّجًا في درجاتِ الإسلامِ للّه تَعالى.

نُكْتَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾:

مُقابَلَةُ حالِ المُسْتَسْلِمينَ بِحالِ المُعْرِضينَ

اختار البيانُ القُرآنيُّ لفظَ الإسلام، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ دون لفظ (مُؤْمِنونَ) أو (مُهْتَدونَ)، وذلك لِدلالَة لفظ الإسلامِ عَلى الاسْتِسْلامِ لأمْرِ اللّهِ ﷻ والانقياد لَهُ، وهذا أَنْسَبُ في تحقيقِ المُقابلة بينَهُم وبينَ المُعْرِضين عن الحقِّ المُعانِدين له؛ فهَؤلاءِ اسْتَسْلَموا للحقِّ، فاسْتَجابوا، وآمَنوا؛ ممّا زادَهُم هُدًى إلى هُداهُم، وأولئكَ عانَدوا، فأَعْرَضوا، وكذَّبوا؛ ممّا زادَهُم ضَلالًا إلى ضَلالِهِم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 38.

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلال والغَيّ:

الـغَـيُّ أَخَــصُّ مِـنَ الـضَّـلالِ؛ لِاخْـتِـصـاصِـهِ بِتَعَمُّدِ الانْحِرافِ وشِدَّتِهِ

الضَّلالُ والغيُّ كلاهُما عدولٌ عَنِ السَّبيل، إلّا أنَّ بينَهُما فروقًا، فالضَّلالُ: ضياع الشَّيء وذهابه في غيرِ حقِّه[1]، والغيُّ: ضلالٌ وجهلٌ عنِ اعتقادٍ[2]، فالغَيُّ أقبحُ مِنَ الضَّلال وأشنَعُ؛ لِما فيه من تعمُّد سلوك غير السَّبيل القَويم، بخلافِ الضَّلال؛ فهو أعمُّ.

ثُمَّ إنَّ الغَيَّ أخَصُّ من الضَّلال مِن وجه آخر، وهو أَنَّ الغيَّ يُطلق على الانحرافِ الشَّديد البعيدِ، بخِلاف الضَّلال؛ فإنَّه يُستعمل في مطلقِ الانحراف قريبًا كانَ أو بعيدًا[3].

ولذلك كان الضَّلالُ ضدَّ الاهتداءِ، وكان الغيُّ ضدَّ الرُّشد، فالرُّشْدُ يدعو إلى الحكمةِ والخير والصَّلاح، بينما الغَيُّ يدعو إلى السَّفاهة والشَّرِّ والفساد، قال الله ﷻ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ضل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غوي).
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 328 - 332.

﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النّمل: 82]

إخلالُ اللهِ تعالى عذابَهُ بالمُستهزئينَ بدينِهِ ووعيدِهِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكَر اللّهُ تَعالى مِن عظيم زَجْرِهم ما فيهِ تسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ وربْطٌ على قلبه؛ أعقبَهُ ببيانِ ما توعَّدَهُم اللّه تعالى به ممّا استعجلوهُ على سبيلِ الاستهزاءِ بهِ والاستبعادِ لَهُ، وبدأ بذِكْرِ الدّابَّةِ التي تميِّز المسلمَ مِن غيره(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةً﴾: (دبّ) تدلُّ تصريفاتُهما على حركةٍ على الأرض أخفَّ من المشْي، تقول: دَبَّ دبيبًا، أي: مشى مَشْيًا خفيفًا، وكلُّ ما مَشى على الأرض؛ فهو دابَّة(2)، وفي السّياق القرآنيِّ، قد يُرادُ بالدّابَّةِ كلُّ ما دبَّ على الأرض، ويندرجُ في ذلك: الإنسان، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: 61]، وقد يُرادُ كلُّ ما دبَّ على الأرض من غير الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، فالدّابة هنا غير الإنسان، بقرينة: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38](3)، وغلب إطلاقُهُ على الحيوانِ وعلى الحَشرات خاصَّةً؛ ممّا لا تُدْرِك الحاسَّةُ حركتَه(4).

والمقصود بـ﴿دَآبَّةً﴾ في قول اللّه سبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ دابَّةٌ تخرج في آخر الزَّمان(5).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (دب).
(3) سامي القدّوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النَّحل من دقائق المعاني، ص: 99.
(4) محمّد عبدالخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 6/ 343.
(5) مجموعة من المؤلّفين، موسوعة محاسن الإسلام وردّ شبهات اللّئام: 6/ 247.

2) ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: (يقن) تدلُّ تصريفاتها على زوال الشَّكِّ[1]، فهو أعلى من الظَّنِّ، قال الله ﷻ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية: 32]، وحدُّ اليقين: سكون الفهم مع ثباتِ الحكم[2]، أي: إنَّ اليقينَ خلاف الشَّكِّ والتَّردُّد، وهو الاطمئنان والتَّحقُّق[3] خلاف الرّيبة[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مِـنْ عَـلامـاتِ السّاعةِ الكُبْرى خُروجُ الدّابَّةِ

وإذا حقَّ عليهِم العذابُ بِسَبَبِ تماديهِم في العِصْيانِ والطُّغيان، وإعراضِهِم عَن شَرْعِ اللّه سُبْحانه وحُكْمِه، حتّى صاروا مِن شِرارِ خَلْقِه؛ أَخْرَجْنا لَهُم مِنَ الأرضِ في آخِرِ الزَّمان علامةً مِن علاماتِ السّاعة الكُبْرى، وهيَ الدّابَّة، وكان مِن شَأْنِها أنَّها تُحَدِّثُهم أنَّ النّاس المُكَذِّبين بالبَعْثِ والجزاءِ كانوا لا يُصَدِّقون القُرآنَ والنَّبيَّ ﷺ والدّينَ الذي جاءَ به مِن عند اللّه تعالى[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

بَـيـانُ مـا أُعِـدَّ لِلمُعانِدينَ مِنَ العَذابِ

وُصِلَت الآيةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ بما قبلها بواو العطف من باب عطف القصَّة على القصَّة، فإنَّ اللّهَ تعالى لمّا ذكر أنَّ موقف المعاندينَ من الدَّعوة والنَّبيِّ ﷺ ومن الإنذارِ بالعذاب كان كموقف الأموات والصُّمِّ والعُمْي؛ انتقل إلى التَّذكير بالقيامة، وما أُعِدّ لهم فيها منَ الوعيد[6]، وقد عجَّلوا بإنزاله استهزاءً وتعجيزاً[7].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (يقن).
(2) الراغب، المفردات: (يقن).
(3) الخليل، العين: (يقن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 136.
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 215.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ(إذا):

تَحقُّقُ حلولِ العذابِ على المُعادينَ للدّينِ الحَقِّ

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ (إذا) دون (إن)، في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ (إذا) تدلُّ على القَطْعِ بِوُقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إنْ)؛ فإنَّها تدلُّ على الشَّكِّ في وُقوعه، فأفادَ دُخول (إذا) الجزمَ بحُلولِ العذابِ عليهم[1]؛ وذلك لاسْتِحْقاقِهم إيّاه بسببِ إعْراضِهم عن القرآنِ ومُعاداتِهم نَبيَّ الإسلام ﷺ، وهذا القَطْعُ والجَزم أبلغُ في الزَّجر وأدخلُ في الوعيدِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَقَعَ﴾:

تَهديدُ المُعرضينَ بِدُنوِّ حُلولِ العَذابِ عَلَيْهِمْ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالفعل الماضي ﴿وَقَعَ﴾، من قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾، ودلَّ ذلك على تقريب حُصوله وتحقُّقه، ودنوِّ وقوعِه واقترابه[2]، أي: إنَّه قد أَشْرَفَ وقوعُه؛ إذْ إنَّ مجيءَ الفعلِ الماضي مع (إذا) يُحوِّل المُضيَّ إلى الاستقبال[3]، ويُشْعِرُ بدنوِّ وقوعِ الأمر عليهم، على وجْهِ التَّهديد والتَّهويل.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿وَقَعَ﴾:

تَحقُّقُ وُقوعِ أَشْراطِ السّاعَةِ وكُلِّ ما أَخْبَرَ اللهُ تَعالى بِهِ

جاء التَّعبير في الآية الكريمة بالوقوع، في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾، وفي ذلك استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، حيث شُبِّهَ حلولُ وقت الأمر بوقوعه؛ للدِّلالة على تأكُّد حصوله وتحقُّقه، وذلك أبلغُ في التَّهويلِ؛ لأنَّ المقدِّماتِ والأماراتِ، إذا كانت بهذه المنزلة؛ فكيف بالشَّيءِ نفسِه إذا حلَّ.

وفي الآية إشارة إلى شيءٍ من أشراط حلول السّاعةِ، وهو خروج الدّابَّةِ، وذلك من خوارق العاداتِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.

بَيانُ هَوْلِ ما كانوا يَستَعْجِلونَ وُقوعَهُ

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

جاءَ لفظ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ معرَّفًا باللّام في قول اللّهِ تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، واللّام فيها دالَّةٌ على العَهْدِ، وهو عهدٌ يُفَسِّره المقامُ، ويُبَيِّنه، والمراد به: الوعيد الَّذي توعَّدهم به النَّبيُّ ﷺ، واستعجله الكفّارُ استهزاءً بِهِ وتكذيبًا، فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٧١﴾ [النّمل: 71][(1)].

وتدلُّ اللّام أيضًا على الكَمال، فهو القول الكامِلُ، حتّى إنَّه لِعظَمِه وكمالِهِ لا قولَ غيرُه[(2)].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الوَعيدِ بِالقَوْلِ:

عُمومُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في إحْلالِ العَذابِ عَلى المُعانِدينَ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ عن الوعيدِ الذي يُتَوعَّدون بِهِ، في قول اللّه سبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وهو على حذف مضافٍ، والتَّقدير: (وقع عليه مضمونُ القول، فيكون إيجازًا بالحذف).

ويجوز أن يكون من بابِ إطلاق القولِ على المَقول؛ لكونِه سببَهُ[(3)]، فيكون من باب المجاز المرسل، وعلاقتُه السَّببيَّة، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ هذا الأمرَ العظيم الذي يقع، يحلُّ بهم بقولِ اللّه تعالى له: كُنْ، فيكون، فإحلالُهُ بهم أمرٌ هيِّنٌ على اللّهِ سُبْحانَهُ.

بَلاغَةُ الاكْتِفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾:

أَشْراطُ السّاعَةِ تَعُمُّ النّاسَ كُلَّهُمْ

إذا حُمِلَ القول في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على ما وُعِدوا بِهِ من أَشْراط السّاعة، ومِن ذلك خُروجُ الدّابَّة؛ فيكون في الآية اكتفاءٌ، وذلك لأنَّ أشراطَ السّاعة تعمُّ النّاس جميعًا، وفيهم المؤمِنُ والكافر، فيكون القولُ واقعًا لَهُم وعَلَيْهِم، ولكن اكتُفيَ بـ ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ مراعاةً لمقام التَّخويف والإنذارِ[(4)].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 38.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 268.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 262.

أهوال السّاعة أمرٌ عظيمٌ

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَخۡرَجۡنَا﴾ وإسْنادِهِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

جاء التَّعبير عن الإخراج بالفعل الماضي ﴿أَخۡرَجۡنَا﴾، في قول اللّه سبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا الإخراج، وهذا أليَقُ بمقامِ التَّهديد وأنسَبُ، وأَنَّ ما ذُكِرَ منهُ واقِعٌ لا محالةَ.

وزيدَ في تأكيدِ هذا الوعيد وتهويلهِ بإسنادِ فعل الإخراج إلى ضميرِ العظمة الرّاجع إلى اللّه سبحانه[1]، فهو إخراج عظيمٌ مِنَ اللّه العظيم، وإذا كان كذلك؛ فلا بُدَّ أن يكون المُخرَجُ المتوعَّدُ به عظيمًا أيضًا.

بَيانُ خُروجِ أوْصافِ الدّابَّةِ عَنِ المألوفِ

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿دَآبَّةٗ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿دَآبَّةٗ﴾ مِن قول اللّه سُبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾؛ لإرادة التَّهويل والتَّعظيم، فهي دابَّةٌ وأيُّ دابَّةٍ؟[2].

وفي التَّعبير عنها باسم الجِنْسِ من الدَّلالة على غَرابة شأنِها وخروج صِفاتها عن حدِّ البيانِ ما لا يخفى[3].

إخراجُ الدّابَّةِ مِنَ الأرْضِ فيهِ إيماءٌ إلى بَعْثِ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ

دِلالَةُ التَّقْييدِ بالجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ متعلِّقانِ بفعل الإخراج، وليسا متعلِّقَين بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿دَآبَّةٗ﴾ على أنَّ المعنى: أخرجنا لهم دابَّةً كائنةً من الأرض[4]، وفي هذا التَّقييد بالجارِّ والمجرور إيماءٌ إلى أنَّ إخراجها إخراجٌ خاصٌّ خارق، فالدّابة ليست ممّا ينزل من السَّماء أو بتحوُّل من خَلْقٍ إلى آخَرَ، وإنَّما يُخْرِجُها اللّهُ سُبحانَهُ بقدرته مِنَ الأرض.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 216.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 234.

وفي إخراج الدابَّة من الأرض إيماءٌ إلى ما يكون في السّاعة التي أُخْرجت هذه الدّابَّة بين يَدَيْها من تشقُّق الأرض وخروج النّاس مِن جَوْفِها أحياءً كاملةً خِلْقَتُهم[1].

دِلالَةُ وصْفِ الدّابَّةِ بِـ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

مُبايَنَةُ الدّابَّةِ لِلحَيواناتِ العُجْمِ

وُصفتِ الدّابَّة بالتَّكليم في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ لإرادة الاحتراسِ، وذلك لأنَّ لفظ الدّابَّة قد يُشْعِرُ بأنَّها كالحيوانات العُجْم التي لا كلام لها، فبيَّن وصفُها بـ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ إلى أنَّها دابَّة خاصَّة تكلِّم النّاس بكلامٍ يَفْهَمونه[2]، وهذا أدخلُ في التَّهويل والتَّعظيم.

وأفاد وصفُها بالتَّكليم معنى التَّحقير أيضًا، ولا تنافي بينَ هذا والذي قبله؛ لأنَّ التَّعظيم راجعٌ إلى ذاتِ الدّابَّة، وأمّا التَّحقير؛ فهو باعتبار المُعْرِضينَ، وذلك لأنَّهم لم يكونوا يُصغون للآيات التَّنزيليَّة؛ فكان مِن المناسب أن يُخاطِبَهُم حيوانٌ بهيم، وليكون لهم ذلك تَنْديمًا لإعراضِهم عَن قبولِ أبلَغِ كَلامٍ، وأَوْقَعِه من أشرفِ إنسانٍ وأَفْصَحِه[3].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

التَّهْديدُ المُوَجَّهُ لِلكُفّارِ هوَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعِنادِهِمْ

الضَّمير في ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ مِن قول اللّه سُبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ راجعٌ إلى الكفرة المُنْكِرين للبَعْثِ مُطْلَقًا لا خصوص الكفرةِ المتحدَّث عنهم في الآياتِ، وذلك لأنَّهم عند خروجِ الدّابَّة يكونونَ في عِداد المَوْتى[4]، وفي تهديد الكفرة الذين يكونون في آخر الزَّمان تهديد للمَوْجودين عندَ نزول الخِطاب؛ لأنَّ التَّهديدَ كان بسبَب الكُفْر لا بسببِ ذَواتِهم، والعِلَّة موجودة في الكُفّار الموجودين وقتَ الخِطاب.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 234، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 216.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 235.

أَثَرُ اخْتِلافِ مَعْنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ في إثْراءِ المَعْنى:

غَرابَةُ شَأْنِ الدّابَّةِ في تَكْليمِها النّاسَ

وُصِفت الدابَّة بوصف التَّكليم، في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وأصل هذا اللَّفظ يدلُّ على معنيين: **أحدُهما:** الكلامُ، أي: إنَّ الدّابَّة تتكلَّم معَ النّاس حديثًا يَفْهَمونه، **والآخرُ:** الكَلِمُ، أي: إنَّ الدّابَّة تَكْلُمُ النّاسَ، أي: تجرَحهم، والتَّشديد في لفظ (تُكَلِّم) للتَّكثير[1].

وبين الكلام والكَلْم معنًى يجمعهما، وهو التَّأثير[2]، ولا يمتنِعُ الجمعُ بين المعنيين، بأن تكون هذه الدّابَّةُ ممّا تُكلِّمُ الناسَ كلامًا يفهمونَهُ، وتَجْرَحُهُم، بمعنى: تَسِمُهُم، فتَسِمُ المُؤْمِنَ بعلامةٍ، وتجلو وجهه حتّى يُنير، وتَسِمُ الكافر بخَطْم أنفِه[3].

وهذا وإنْ كان مقبولًا مِن جهَةِ المَعْنى، وتدلُّ عليه الآثارُ، إلّا أَنَّ اللَّفظ القرآنيَّ يَنْبَغي حملُهُ على المَشْهورِ الشّائع مِن كلام العرب، وهو أن يكونَ لفظُ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ منَ الكلام بمعنى الحديثِ لا بمعنى الكَلْمِ، وهو الجرحُ؛ ولذا استبعدَ هذا المعنى أبو السُّعودِ[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾:

تَصْويرُ حالِ تَكْليمِ الدّابَّةِ النّاسَ

جاء التَّعبير عن التَّكليم في الآية بالفعلِ المضارع ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، فقال سبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وهو دالٌّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، وذلك مُشْعِرٌ بكثرة تَكْليمِها الناسَ، كما أنَّ في الفعل المضارع تصويرًا لحالِ التَّكليم، كأنَّه حاصلٌ وقتَ الخطابِ، وذلك أَدْعى لاسْتِحْضاره في الذِّهْن وتَعَقُّله أتَمَّ التَّعقُّل.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 269.
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 56، وعبد الله الغفيلي، أشراط الساعة، ص: 156.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 302.

دِلالَةُ الجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ في الآيَةِ:

تَثْبيتُ المُؤْمِنينَ ورَدْعُ الكافِرينَ

الجملةُ في قول اللّه سبحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ خبريَّة؛ لأنَّ التَّحقيق في جُمْلة الشَّرط أنَّهُ يُنظر إليها باعْتِبار جوابِها، فإنْ كانَ خبرًا - كما في هذه الآيةِ - كانت جملةُ الشَّرط خبريَّةً، وهذا الإخبارُ يُراد به إعلامُ المُخاطَبين بما تضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ - على ما هو الأصل في الإخبارِ - وتنضمُّ إلى ذلكَ دِلالَتُهُ على التَّنفير عمّا كانوا عليهِ مِنَ الإنْكار؛ ليَثْبُتَ بذلكَ أهلُ الإيمان، ويَرْتَدِعَ أهلُ الكفران[1]، فيكون الخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا في حقيقتهِ ومَجازِه، وذلك جائِزٌ في قولِ جَماعَةٍ مِن أهل العلم.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ وخلف العاشر ومعهم يعقوب: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّ﴾، وذلك بتقدير باء محذوفةٍ، هي باء السَّببيَّة[2]، وهذا مفيدٌ التَّعليلَ، أي: إنَّ الدابة تُكلِّم النّاس؛ بسبب أنَّ النّاس كانوا لا يؤمنون بالآيات، ويجوز أن تكون الباء المقدَّرة باء التعدية، فتكون جملة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ من مقولِ الدابَّة.

وقرأ بقيَّة العشرة: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالكسر، على تقدير قول محذوفٍ، أي: تكلِّم النّاس قائلةً: إنَّ النّاس لا يُؤمنون[3]، أو على إجراء الكلام مجرى القول؛ لأنَّهُ بمعناهُ[4].

وقراءة الكسرِ تَحتمل أيضًا أن تكونَ الجملةُ مُسْتَأنفةً، ولا يكون من كلام الدّابَّة، بل من كلام اللّه تعالى[5]، وهذا أظهرُ لقوله:

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 235.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 338، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.

(3) مكّي بن أبي طالب، الكشف، ص: 771.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.

(5) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 8/ 643.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، إلّا إذا حُمِلَ على حذف مضافٍ، والتَّقدير: (بآياتِ ربِّنا)، وهو خلافُ الظّاهِرِ.

فكان اختلافُ القراءتين جامعًا لمَعْنَيَيْنِ هما: ذِكرُ قولِ الدّابَّة، وذِكر سببِ تكليم الدّابَّة النّاسَ، وما في ذلك من إبراز لمعجزة الدّابة الَّتي تظهر بأمر الله تعالى في آخر الزَّمان بينَ يدي السّاعَةِ.

بَلاغَةُ وضعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

عَـدَمُ الإيـقـانِ بالآياتِ كَثيرٌ في النّاسِ

في قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وضعُ المظهر موضعَ المُضْمَرِ[1]، وذلك لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يردَ في النَّظم القرآنيِّ: (أنَّهم كانوا بآياتنا لا يوقنونَ)، وفي هذا الإظهار إيماءٌ إلى أنَّ عدمَ الإيقان بالآيات ليس مخصوصًا بالمذكورين قبلُ، وهذا المعنى لا يُعطيه الإضمارُ، فكان في الإظهارِ تعميمٌ للدَّلالة.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

عَراقَةُ أَهلِ الكُفْرِ في الـتَّـكْـذيـبِ بآياتِ اللهِ تَعالى

جاءَ التَّعبيرُ بفعل ﴿كَانُواْ﴾، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، وفي ذلك دِلالَةٌ على أنَّ عدمَ اليَقينِ بالآياتِ صارَ عريقًا في نُفوسِهم مُتَجَذِّرًا فيهم حتّى صار بمنزلَةِ الطَّبيعَةِ والجِبِلَّة[2]، وعندما تصل الحالُ إلى هذا في آخِرِ الزمان، يُخرِجُ اللّهُ تعالى للنّاس دابَّة تُكَلِّمهم بما يَفْهَمونَه، وتُمَيِّزُ المسلمَ مِنَ الكافرِ، وتُخْبِر عن أكثَرِ النّاس بأنَّهم كانوا لا يوقِنون بالآيات، فإيمانُهُم عارٍ عنِ الجَزْمِ واليَقين، وعارٍ عنِ الصِّدق والإخلاصِ.

نُكْتَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

ما يَـصْـدُرُ مِـنَ العَظيمِ عَظيمٌ

أُضيفت الآياتُ إلى الضَّمير (نا) في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ للدِّلالةِ عَلى عَظَمَتِها؛ إذْ هيَ آياتُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 235.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 218.

العظيم ﷻ، وما يَصدُر مِنَ العظيم عظيمٌ، وأيضًا للإيماء إلى اخْتِصاصِها بِهِ سُبْحانه وأَثَرَتِها عندَهُ ﷻ[1].

وعلى كلا المعنيين يكون في الكلام زيادة تشنيع على الكافرين والمعرضين؛ إذ كيف يعرضون عن آيات عظيمة واضحة دالَّة أتمَّ الدلالة على صدق وعد اللّه تعالى.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُوقِنُونَ﴾:

عُـدولُـهُـمْ عَـنِ اليَقينِ مَعَ تَجَدُّدِ الآيـاتِ في غـايَةِ الشَّناعَةِ

عبَّر النَّظْمُ القرآنيُّ عن عدَم يقين النّاس بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾، فقال سُبْحانَه: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، وذلك يدلُّ على تجدُّد عدائهم للآيات ومُعارَضَتِها كلَّما تجدَّد عليهم ذِكْرُها، فصار عدَمُ اليقينِ طبعًا لَهُم وسجيَّةً، فالفعلُ المُضارع المنفيُّ دالٌّ على الاستمرار بقرينَةِ ذَمِّهم وتوبيخِهم، والمقصودُ: استمرارُ عدمِ إيقانِهم لا عدَمُ استمرارِ الإيقانِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِلْم واليَقين:

العِـلْـمُ إدْراكٌ، واليَقينُ اطْمِئْنانٌ

بَيْنَ العلم واليَقينِ فُروقٌ، فالعلمُ: إدراك الشَّيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا[2]، وهو ضدُّ الجهل، بخلاف اليقينِ فإنَّهُ اطمئنانٌ إلى مَعْرِفة، وهو ضدُّ التَّردُّد، فصار اليقين لدرجات التحقُّق، وصار العلم لدرجات المعرفة.

ثمَّ إنَّ العلمَ يورِثُ اليَقين، ولكنْ ليسَ كلُّ يقينٍ يَنْتُجُ عَنِ العلم، فقد يتحقَّق اليقينُ بمعايشة وتجريبٍ، وقد يقع بثِقَةٍ في صاحبِ العِلْمِ وتقليدٍ، وقد تجتمع جميعُ الأدِلَّة ولا تورِثُ اليقين، لمانعٍ مِن إعراض أو اتِّباع هَوًى.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 301.

(2) ابن عثيمين، الأصول من علم الأصول، ص: 15.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ
يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا
عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [النّمل: 83 - 84]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانْتِقالُ مِنْ ذِكْرِ أَشْراطِ السّاعَةِ إلى ذِكْرِ ما يَكونُ يَوْمَ القيامَةِ

لمّا ذَكَر اللّهُ سُبْحانَه ما يكونُ مِن إخراجِ الدّابَّة، ومِنْ شَأْنِها: أنَّها تَسِم المؤمنَ والكافِرَ بما لا يَقْدِرون على مُدافَعَتِه؛ أعقبَهُ اللّهُ تعالى بتَمْييز كُلِّ فريقٍ مِنْهُما عَن صاحبه وجَمْعِهِم يوم القيامة وسَوْقِهم على وجهٍ لا يختلط أحدُ الفَريقَيْن بالآخر، فقالَ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَحۡشُرُ﴾: (حشر) تدلُّ اشتقاقاتُها على جمعٍ وبَعْثٍ وسَوْق[2]، والحَشْرُ: هو إجلاءُ النّاس وإخراجُهم من مقرِّهم، ومنه قولهم: حَشَرَتْهُمُ السَّنةُ؛ إذا ضمَّتهم من النَّواحي إلى الأمصار[3]، ويقال: حَشَرْتُ النّاس حَشْرًا، أي: جمعتُهُم، ومنهُ: يومُ الحشر[4].

ومعنى: ﴿نَحۡشُرُ﴾ في الآيةِ: نَسوق، ونَجْمَعُ، وهو حَشْرٌ خاصٌّ بعد حَشْرِ الخَلْقِ عامَّة[5].

2) ﴿فَوۡجٗا﴾: (فوج) أصل يدلُّ على تجمُّع[6]، فالفَوجُ: القطيع من النّاس[7]، و"الفائجَةُ: متَّسعٌ ما بين كلِّ مرتفعين من غِلَظ أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 218.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حشر).
(3) الخليل، العين: (حشر).
(4) الجوهريّ، الصحاح: (حشر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 40.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (فوج).
(7) الخليل، العين: (فوج).

رمل"، و"الإفاجة: الإسراع والعدْو"، فحُمِلَ الفوجُ على الإسراع[1]، والفوج: الجماعة المارَّة المُسْرِعة[2].

ومعنى قولِه تَعالى: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: جماعةً وصِنْفًا مِنَ المكذِّبين.

3) ﴿يُوزَعُونَ﴾ (وزع) أصلٌ يدلُّ على كفٍّ وزجرٍ، يقال: وزَعْته عن الأمر، أي: كفَفْته[3]، والوزعُ: الردُّ عن الانتشار والمفارقة[4]، وقالَ الحَسَنُ: لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وازِعٍ، أَيْ: مِنْ سُلْطانٍ يَكُفُّهُمْ، وتقولُ: وزَعْتُ الجَيْشَ؛ إذا حَبَسْتَ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، وسُمّيَ الكلبُ وازِعًا؛ لأنَّه يكفُّ الذِّئب عن الغَنَم[5].

ومعنى قولِه تَعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أيْ: يُجمَعُ أوَّلُهم على آخِرِهم، ويُردّونَ إلى الصَّفِّ على كثرةٍ وتفاوت[6].

4) ﴿تُحِيطُواْ﴾: (حوط) تدلُّ تصريفاتُها عَلى حِفظٍ وصيانة ورِعايَةٍ، وذبٍّ وتوفُّرٍ على مصالح الشَّيء وتعهُّده[7]، وسُمّيَ الحائِطُ؛ لأنَّه يَحوط ما فيه[8]، ويُستعمَلُ في الحِفْظِ نحو قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظٌ له، عليمٌ به من جميع جهاته، كما يُستعمل في المنع، كقول اللّه تَعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلّا أن تُمنعوا[9]، واحتاطَ الرَّجلُ لنفسه؛ إذا أخَذَ بالثِّقة، وأَحاطَ به، بمعنى: عَلِمه[10]، أي: عَلِمَ جِنْسَهُ ومقدارَهُ وغرضَهُ[11].

ومَعْنى قول اللّهِ تَعالى: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾: أكذَّبتم بها بادِئَ الرَّأي من غيرِ نظرٍ مِنْكُم فيها نظرًا يُحيطُ عِلْمُكم بأنَّها جديرةٌ بالتَّصديق أو التَّكذيب[12].

(1) الجوهري، الصّحاح: (فوج).
(2) الراغب، المفردات: (فوج).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وزع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وزع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (وزع).
(6) الرّاغب، المفردات: (وزع).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(8) الخليل، العين: (حوط).
(9) الرّاغب، المفردات: (حيط).
(10) الجوهريّ، الصحاح: (حوط).
(11) الرّاغب، المفردات: (حيط).
(12) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 168.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخُ المُكذِّبينَ بالآياتِ الشَّرعيَّةِ والكَوْنيَّةِ

وَيَوم نَجْمَعُ يوم القيامَةِ مِن كُلِّ أُمَّة جماعَةً مِمَّن يُكذِّب بأدِلَّتنا وحُجَجِنا، يُحْبَس أوَّلُهم على آخِرِهم؛ ليَجْتَمِعوا جميعًا، ثُمَّ يُساقون إلى الحِساب.

حتّى إذا جاءَ مِن كُلِّ أمَّةٍ فوجٌ مِمَّن يُكَذِّب بآياتِنا، فاجْتَمَعوا؛ قال اللّهُ سُبحانَهُ موبِّخًا: أكذَّبْتم بآياتي التي أَنْزَلْتُها على رُسُلي، وبالآياتِ التي أقَمْتُها دِلالَةً على اسْتِحْقاقي وحْدي للعِبادة، ولَم تُحيطوا عِلْمًا بها، أَم أَيَّ شيءٍ كُنْتُم تَعْمَلونَ؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بما قَبْلَها:

بَيانُ حالٍ مِنْ أحْوالِ السّاعَةِ بَعْدَ ذِكْرِ شَرْطٍ مِنْ أشْراطِها

وُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾، بالآية قَبْلَها: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لِما بَيْنَهُما من التَّوسُّط بين الكَمالَيْن؛ إذْ كُلٌّ مِنَ الجُمْلَتَيْن خبريَّةٌ، فقولُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ خبريَّة، وقولُهُ ﷻ: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ خبريَّة أيضًا؛ لأنَّ التَّحقيق في الجُمَلِ الشَّرطيَّة أنَّه يُنْظَرُ فيها باعْتِبار جَوابِها، وجوابُ هذه الجُملة خبرٌ، فتكونُ جملَةُ الشَّرط خبريَّةً، ثُمَّ إنَّ بين الجملتينِ مناسبةً في المعنى؛ إذْ كلتاهما تتعلَّقُ بذِكْرِ أحوالِ ما سَيأتي، فالأولى تتعلَّق بِشرَطٍ مِن أشراط السّاعة، والأُخرى تتعلَّق بحالٍ من أحوالِ السّاعة نفسِها، وهو الحَشْرُ.

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

تَصْويرُ مَشْهَدِ أحْوالِ القيامَةِ

وُرود لَفْظِ (يَوْمَ) من قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ منصوبًا يُشعرُ بحذفٍ، فـ (يَوْم) مفعول به، والتَّقدير: (اذْكُرْ يومَ نحشُرُ)، ويدلُّ ذلك على الاعتبار بما سيحدث يوم الحشر، مِنَ التَّوبيخ والتَّقريع للمُعْرِضين عن الحَقِّ[2].

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 302.

ويُمكن أن يكون (يومَ) ظرفًا متعلِّقًا بالفعلِ ﴿قَالَ﴾، مِن قولهِ: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾، وقد جاء مُقَدَّمًا للاهتمام به، فاللّهُ سُبحانَهُ يقولُ ذلك للمُكَذِّبين على وجْهِ التَّوبيخ يوم القيامة، لا أنَّه متعلِّقٌ بالفعل: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾؛ لأنَّه يقتضي أنَّ التَّكذيب يحصل يومَ الحَشْر، وهو غيرُ مرادٍ ولا واقعٍ.

وفي تقديم الظَّرف على هذا الوجهِ أسلوبٌ بديعٌ مِنْ أساليب القرآنِ الكريم، بذِكْرِ الزَّمان والمكانِ ليتصوَّر القارئُ مشهدَ الحَشْرِ وما ذُكر معهُ في الآية[1].

دِلالَةُ إسْنادِ فِعْلِ الحَشْرِ إلى ضَميرِ الجَمْعِ:

بَيانُ عَظَمَةِ الحَشْرِ وهَوْلِهِ

أُسنِدَ فعلُ الحَشْرِ ﴿نَحۡشُرُ﴾ من قول اللّه سُبحانه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ إلى ضَمير الجمع، وهو الضَّمير المستتر وجوبًا، والتَّقدير: (ويوم نَحْشُر نحنُ)، وهو مفيدٌ العظَمَةَ، وذلك لقصد إظهار المهابة في فعل الحَشْر وبيانِ هول ما يكون في ذلك اليوم، فاللّهُ سُبْحانه عظيمٌ، وجميعُ ما يصدُرُ مِنْهُ سُبْحانه مِن أفعالٍ هيَ أفعالٌ عظيمةٌ تليق بجلالهِ وعَظمَته[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿نَحۡشُرُ﴾:

الحَشْرُ جَمْعٌ مَعَ تَعْنيفٍ وإكْراهٍ

جاء التَّعبير بلفظ الحَشر، في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾، وذلك لأنَّ الحَشر يدُلُّ على الجمع على وجْهِ الإكراهِ والتَّعنيف[3]، وليس على مطلقِ الجَمْع، وهذا أبلغُ في الزَّجر والتَّخويف من فعل هؤلاء في تَكْذيبِهم بآياتِ اللّهِ سُبْحانَه.

دِلالَةُ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 39.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 218.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 218 - 219.

﴿كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ دالٌّ على التَّبْعيض[1]، على أَنَّ المَعْنى: إخراجُ فوج مِنَ المُكَذِّبين من كُلِّ أُمَّة، وجَمْعُ المُكَذِّبينَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فيه تَشْهيرٌ بِجُرْمِهِمْ، وتشنيع بباطلهم.

دِلالَةُ تَنْكيرِ ﴿فَوْجًا﴾:

كَثْرَةُ المُبْطِلينَ في الأُمَمِ

نُكِّر لفظُ ﴿فَوْجًا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ للدِّلالَةِ عَلى التَّكْثير، أي: ويوم نحشر من كل أُمَّةٍ فوجًا: جماعةً كثيرةً[2]، وفيه إيماءٌ إلى كثرةِ المُكَذِّبين بالحقِّ في الأُمَمِ مع كثرةِ هذه الآياتِ وظهور دِلالَتِها على الحقِّ.

مَعْنى (مِنْ) في ﴿مِّمَّن﴾ ودِلالَتُها:

تَقْديمُ زُعَماءِ الكُفْرِ في العَذابِ، كَما كانوا مُتَقَدِّمينَ في الإِضْلالِ

حرفُ الجَرِّ (مِن) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانيَّةٌ، وذلك أن لفظ ﴿فَوْجًا﴾ - من قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ - مبهمٌ لا يُدرى كُنْهُه، فجاء قوله: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانًا لحقيقة هذا الفوج، وأنَّ المرادَ بهم المكذِّبون بالآيات[3]، ويجوز أن تكونَ (مِن) تبعيضيَّة، والمرادُ: زُعماء المُكَذِّبين وأئِمَّتهم في الضَّلال[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُكَذِّبُ﴾:

كُلَّما تَجَدَّدَتِ الآياتُ؛ جَدَّدوا بِها تَكْذيبًا

جاء التَّعبيرُ عن تكذيبِ المُكَذِّبين بالفعل المُضارع ﴿يُكَذِّبُ﴾، مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ للدِّلالة على استِمْرار تَكْذيبهم بالآياتِ وتَجَدُّده منهم؛ كُلَّما تجدَّدت أفرادُها، فقد كان التَّكذيبُ والاستهانَةُ بالآياتِ دأبَهم وعادَتَهُم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 270.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 219.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 270.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 40.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الآياتِ بِالجَمْعِ:

شَناعَةُ التَّكْذيبِ بِالآياتِ مَعَ تَعَدُّدِ أَنْواعِها وأَفْرادِها

ورَدَت الآياتُ بِصيغَةِ الجَمْعِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾؛ للدَّلالَةِ على تَنوُّعِ الآياتِ وكَثْرَتِها، وهذا يَلْزَمُ منهُ شِدَّةُ تكذيبِ هَؤلاء وقوَّةُ عِنادِهم، حيثُ لم ينتَفِعوا بالآياتِ على كَثْرَةِ عددِها واخْتِلافِ أَجْناسِها، وهذا غايَةٌ في الانحِرافِ والضَّلالِ.

نُكْتَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

مِنْ أَعْظَمِ الجُرْمِ التَّكْذيبُ بِآياتِ العَظيمِ سُبْحانَهُ

أُضيفت الآياتُ إلى ضميرِ العظَمَةِ الرّاجعِ إلى اللّهِ سُبْحانَه، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾؛ للدّلالة على عَظَمَتِها؛ إذْ هي آياتُ العظيمِ ﷻ، وما يكونُ مِنَ العَظيمِ؛ فهو عظيمٌ.

ولازمُ تَعظيمِ الآياتِ: المُبالَغَةُ في التَّشنيعِ عَلى المُكَذِّبين؛ حيث كذَّبوا بآياتِ العظيمِ سُبْحانَهُ.

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَهُمْ﴾ ودِلالَتُها:

اسْتِحْضارُ مَشْهَدِ حَشْرِ المُكَذِّبينَ

دلَّت الفاءُ في ﴿فَهُمْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ على التَّفريع[1]، حيث فرَّعت الوزع على الحشر، فإنَّهم يوزعون لأجل حشرهم، وفي ذلك مزيد توصيفٍ للحشر، واستحضار لمشهد الذُّلِّ الَّذي يَغْشى هؤلاءِ المُكذِّبين.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾:

ذُلُّ المُكَذِّبينَ حالَ حَشْرِهِمِ

آثرت الآية الكريمةُ التَّعبيرَ عن وزع المكذِّبين بالجُمْلَةِ الاسميَّة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وذلك دالٌّ على تأكيدِ اتِّصافِهم بالوزع[2]، كأنَّ الوَزع وصفٌ راسخ فيهم، لا يُحشرون إلّا بهِ، وذلك يقتضي مزيدَ إهانَتِهم وإظهارَ مذلَّتهم، فليس حَشْرُهم حشرَ كرامةٍ ورأفَةٍ، بل حشر وزعٍ ودفعٍ وشدَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 240.

(2) القونويّ، حاشية البيضاويّ: 14/ 451.

بَيانُ شِدَّةِ الرَّدِّ والسَّوْقِ

سِرُّ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿يُوزَعُونَ﴾:

اختارت الآية التَّعبيرَ بلفظ ﴿يُوزَعُونَ﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لدلالةٍ تتعلَّق بمادَّة اللَّفظ وصيغته.

فأمّا مادَّتُه؛ فالوزع: منعٌ عمّا لا يصحُّ، ويكون بالأمر والنَّهي، ويكون بالقول والفعل، وأمّا صيغتُه؛ فقد جيءَ بها بالفِعْلِ المضارع ﴿يُوزَعُونَ﴾، وذلك دالٌّ على تجدُّد فعل الوزع الواقع عليهم.

فاجتمع مِن اصطفاء مادَّة (وزع) وصيغتِها أَنْ صوِّر حالُ المكذِّبين، وهم في انفلاتٍ فيُردّون، وعدمِ انضباط فيُضبطون، وافتراقٍ فيُجمعون، وفيه دلالةٌ على كَثْرَةِ عدَدِهم وتباعُدِ أطرافهم[1].

اسْتِحْقاقُ المُكَذِّبينَ لِلإذْلالِ والإهانَةِ

نُكْتَةُ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُوزَعُونَ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ:

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُوزَعُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ وذلك لقصدِ الاهتمام بمَن يقَعُ عليهِ فِعْلُ الوزع بقطع النَّظرِ عَنْ فاعِله، والعناية بوصف الذُّلِّ والمَهانة الواقِعَيْن على المكذِّبين حَشْدًا وضبطًا ولكزًا ودفعًا.

والوَزْعُ المذكور سواءٌ أكان بمعنى: يُجمعون، أَمْ يُدْفَعون، أَمْ يُساقون، أَمْ يُرَدُّ أوَّلُهم على آخرهم[2]، فإنَّ الفعلَ في ذاته مُلْفِتٌ للنَّظَر، آخذٌ بالبصرِ من هولِ ما يقَعُ للمكذِّبين، ناهيك عن انتظار العباد لِما بِهِم يُفْعَلُ، ويُراد، وهُم قد سبقت جَرائِرُهم، وتلاحَقَت جَرائِمُهم، وهم ينتظرون الجزاءَ الوفاق من اللّه سبحانَهُ.

مَعْنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودِلالَتُها:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 302.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 228.

ابتدائيَّةٌ، ومعنى الغايَة ملازمٌ لها كذلك[1]، وهي تدلُّ على الحدِّ الَّذي ينتهي إليه جرُّ المكذِّبين ووزعهم، فهُم يوزعون، ويُدْفعون مع طول السَّير وعظم الفوج، إلى أن يَبْلغوا ذلك المكان، فيبدأ سؤالُ التَّقريع والتَّوبيخ ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾.

الانْتِقالُ مِنَ الإهانَةِ والإذْلالِ إلى التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ

مَعْنى ﴿إِذَا﴾ ودِلالَتُها:

﴿إِذَا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ ظرفُ زمانٍ، بمعنى: حين، وهو يَقْتَضي فِعْلَيْن بعدَهُ مُشابِهَين لِفِعْلَي الشَّرط وجوابِه، وذلك لأنَّ ﴿إِذَا﴾ مُضَمَّنَةٌ معنى الشَّرط، و﴿إِذَا﴾ معمولٌ لِجَوابِه، وفِعْلُ الشَّرط جملةٌ مُضافٌ إليها ﴿إِذَا﴾، والتَّقدير: (حتّى قال أَكَذَّبْتُم بآياتي حينَ جاؤوا)[2].

مُعاجَلَةُ المُكَذِّبينَ بِالتَّوْبيخِ والتَّعْنيفِ

فأفاد هَذا أنَّه بِمُجَرَّدِ مَجيئِهم يُعَنَّفون، ويوَبَّخون، ويُنْكَر عَلَيْهِم بسبَبِ تَكْذيبِهم بآياتِ اللّه سُبْحانَهُ قبلَ تَحَقُّقهم مِن كُنْهِها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿جَآءُو﴾:

جاء التَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿جَآءُو﴾، في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾؛ للدِّلالة على تَحَقُّق مَجيئِهم للحِساب والجزاءِ، وتحقُّق ما يُقال لَهُم عَلى وجْهِ التَّوبيخ مِمّا ذُكِرَ في الآيةِ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾.

تَحَقُّقُ جَزاءِ المُكَذِّبينَ

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ فِعْلِ المَجيءِ:

حُذِفَ متعلِّق فعلُ المجيء، في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾، وهو مِنَ الإيجازِ الَّذي يُنْبِئُ عنهُ السّياق، والمعنى: حَتّى إذا جاؤوا إلى مَوْقف السُّؤال والمناقشة والحساب وعرصاتِ القيامَةِ[3]، ولمّا كان المتعلِّق بيِّنًا؛ حَسُن حذفُه؛ إذ وزْعُهم وحَشْرُهم

لا يُحْشَرُ المُكَذِّبونَ إلّا لِلتَّوْبيخِ والعَذابِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 40، 19/ 240.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 240.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 306، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 302.

وسَوقهم ليس إلّا للحساب، فلِقَبيح تَكْذيبِهم لا يُساقون إلّا إلى العقاب، ولعظيم جُرْمِهم لا يُبعثون إلّا للمُساءلَة والتَّوبيخ.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إلى الغَيْبَةِ:

تَـرْبِـيَـةُ المَـهـابَـةِ لِعَظَمَةِ المَوْقِفِ والخِطابِ

في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ التفاتٌ من التكلُّم في ﴿نَحْشُرُ﴾ و﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿قَالَ﴾، وفي هذا الالتفاتِ تربيةٌ للمهابة؛ إذِ الموقِفُ جللٌ، والمخاطَب بالسُّؤال هم المكذِّبون، والمخاطِب هو ربُّ العالمينَ، والمقام مقامُ حسابٍ ومساءلة ممّا يقتضي معَهُ هذه المهابة[1].

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾:

تَوْبيخُ المُكَذِّبينَ وإلْجاؤُهُمْ إلى الإقْرارِ

الهمزة في ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ للاستفهام، وهذا الاستفهامُ لا يُرادُ به حقيقَتُه؛ إذ إنَّ حقيقة الاستفهام: طلبُ العلم بِشَيْءٍ لم يكُن معلومًا من قبل، وهذا لا يكونُ في حقِّ اللّه سُبْحانَه؛ لأنَّه ﷻ عليمٌ بكُلِّ شيءٍ، وإنّما المراد بالاستفهام التَّوبيخ، ثُمَّ يَنْضَمُّ إلى ذلك لازِمُهُ، وهو الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأَنَّ المستفهمَ عَنْهُ واقعٌ مِنْهُم، وذلك على جِهَة التَّبكيت والتَّقريع[2]، فصار للاستفهام مستوياتٌ مِنَ الدِّلالة؛ فتضمَّن التَّقريرَ - وهوَ الإلجاءُ إلى الإقرار - والتَّوبيخَ والتَّبكيتَ والتَّقريع، ولا تنافيَ بينَ هذه الدِّلالات؛ لِما تقرَّر من أَنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ تتوارَدُ، ولا تتزاحَمُ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الآياتِ بِالجَمْعِ:

تَقْريعُ المُكَذِّبينَ وتَوْبيخُهُمْ

ورَدَت الآياتُ بِصيغَةِ الجَمْعِ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾؛ للدِّلالَةِ على تَنوُّعِ الآياتِ وكَثْرتِها، وهذا يَلْزَمُ منهُ شِدَّةُ تكذيبِ هَؤلاء ومبالغتِهم في العِنادِ، حيثُ كذَّبوا بالآيات مع كَثْرَة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 302.

(2) الواحديّ، الوسيط: 17/ 306، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 219، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 40.

عدَدِها واخْتِلاف أَجْناسِها، وهذا يقتضي شِدَّة توبيخِهم وتَقْريعهم على هذا الجُرْم العظيمِ الذي قارَفوهُ.

دِلالَةُ إضافَةِ الآياتِ:

مواجَهَةُ المُكذِّبينَ بِالحَقِّ الذي أَنْكَروهُ

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تعالى ﴿بِـَٔايَـٰتِي﴾، مِن قولِهِ سُبْحانَه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِي﴾؛ لإرادة التَّعظيم، فهي آياتُ اللّه ﷻ، وهو العظيمُ الذي لا مُنْتهى لعَظَمته، وما يُضاف إليه يعظُمُ بهذه الإضافة، وهذا يَقْتَضي مزيدَ توبيخ لهؤلاء المُكَذِّبين وتَقْريعِهم، فهم "يُسْألون ممّن كانوا يُنْكِرونه، أو يُشْرِكون به، ويكذِّبون بآياتِه، ويمكرون بِرُسله، وهذا السُّؤال مِنَ اللّه سُبْحانَه هو مواجهةٌ لَهُم بالحقِّ الَّذي أَنْكَروه، وعَموا عنهُ، وفي هذا بلاءٌ عظيمٌ لهم، حيثُ يُسْقَطُ في أيديهم، ولا يَجِدون قولًا يقولونَهُ"(1).

نُكْتَةُ حَذْفِ المُعادِلِ في الاسْتِفْهامِ:

إلْجاءُ المُكَذِّبينَ إلى الإقْرارِ بالتَّكْذيبِ

جاء الاستفهامُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِي﴾ بالهمزة، وهي مِمّا يغلِب أن يُذكر معها معادِلٌ بعد (أم)، وهي - أي: (أم) - هنا محذوفَةٌ معَ المُعادِل، وقرينَةُ هذا الحذفِ قولُه تعالى بعدُ: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والتَّقدير: (أكذَّبْتُم بآياتي أم لَم تكذِّبوا أم ماذا كنتُم تَعْملون؛ إن لم تُكَذِّبوا؟ فإنَّكم لم توقِنوا، ولَم تُذْعِنوا، فما الذي عَمِلْتُموه مدَّة تكرار دعوةِ المُرْسَلين لَكُم إلى الإسلام؟ ومن هُنا حصل إلْجاؤُهُم إلى الإقرارِ بتَكْذيبِهم)(2).

ونُصَّ على المُعادِل الأوَّل - وهو (كَذَّبْتُمْ) - لأنَّه محقَّقٌ وقوعُه منهم، بخلافِ المُعادل الآخَر - (لَمْ تُكَذِّبوا) - فقد حُذِف مع (أم)؛ للتَّنبيه على انتفائهِ، كأنَّ المعنى: أهو ما عُرف مِنْكُم من التَّكذيب أم حدَثَ أمرٌ آخرُ؟(3).

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 273.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 41.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 41.

أَسْوَأُ التَّكذيبِ هوَ الصّادِرُ بِغَيْرِ عِلْمٍ مُحيطٍ

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ﴾:

الواوُ في ﴿وَلَمۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ واو الحال، والمعنى: أكذَّبْتُم بآياتي مِن غير فِكْرٍ ورويَّةٍ ونظرٍ يوصِلُكم إلى العلم بحقيقَتِها وكُنْهِها(1).

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ عاطفةً، والمعنى: أَجَمَعْتُم بينَ التَّكذيبِ بالآياتِ وعدَمِ تدبُّرِها وتأمُّلِ معانيها(2).

وكِلا المَعْنَيَيْنِ فيه إظهارُ شناعَةِ تَكْذيبِهم، وغايةِ قُبْحِ صنيعِهِم، وفيهِ تأكيدُ الإنكارِ عليهم وتوبيخهم.

تَرْكُ تَأَمُّلِ الآياتِ دَيْدَنُ المُعْرِضينَ المُتَكَبِّرينَ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالفِعْلِ المضارعِ ﴿تُحِيطُواْ﴾، مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ تَرْكِ اعْتِبارِهم ونَظَرِهم في الآياتِ واسْتِمْرارِهم على هذهِ الحالِ، فالاسْتِمْرارُ المُسْتفادُ مِنَ الفعلِ المضارعِ هو استِمْرارُ النَّفي لا نفيُ الاستمرار؛ لأنَّ إحاطتَهُم علمًا بالآياتِ لم تَحْصُلْ منهُم البتَّة، بَل كان الإعراضُ طريقتَهم، والمبادرةُ إلى التَّكذيبِ دَيْدَنَهم.

البَيانُ بَعْدَ الإبْهامِ أَوْقَعُ في النَّفْسِ وأَمْكَنُ

نُكْتَةُ العُدولِ عَنْ إسْنادِ الإحاطَةِ إلى العِلْمِ:

﴿عِلۡمًا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ منصوبٌ على التَّمْييزِ، وهو تمييزٌ محوَّل من فاعلٍ، والأصلُ: ولم يُحِطْ علمُكم بها، ولكنَّ النَّظم القرآنيَّ عدَل عن إسنادِ الإحاطةِ إلى العِلْمِ، وأسندَها إلى ذواتِ المُخاطَبين؛ ليكونَ في الكلامِ إجمالٌ في الإسنادِ، ثُمَّ يَرِدُ التَّمييزُ مبيِّنًا الإجمالَ المُتَقَدِّم، فيكون ذلك أوقعَ في القلبِ وأَثْبَتَ في الذِّهْنِ وأبلغَ في الزَّجر(3).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 385، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 219، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 41.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 302.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 41.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِإحاطَةِ العِلْمِ بِالآياتِ:

لُزومُ الإحاطَةِ بِالأُمورِ عِلْمًا قَبْلَ الحُكْمِ عَلَيْها

عَبَّر القرآنُ الكريم بإحاطة العلم بالآياتِ، في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾، وهو تعبيرٌ رشيقٌ يُرادُ به تمكُّنُ العلمِ، ويُشير لفظُ الإحاطةِ إلى ظَرْفٍ مُحيط بالشَّيء، والمظروف هنا هو الآيات، والذي يحيط بها هو العلم، فاكتملت الصّورةُ في لزوم الاطِّلاع الجيِّد على الآياتِ وتمكُّن العلم بأبعادها ودِلالَتها.

وفي هذا التَّعبيرِ تعييرٌ لهم وتوبيخ بأنَّهم كذَّبوا بالآيات[1]، ولم يكلِّفوا أنفسَهُم النَّظر فيها أو التَّحقُّق مِنها، ففاتهم الانتفاعُ بِها.

دِلالَةُ (أَمْ) في قَوْلِهِ: ﴿أَمَّاذَا﴾:

الانْتِقالُ مِنْ تَوْبيخٍ إلى آخَرَ

(أَم) في ﴿أَمَّاذَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ منقطعة بمعنى (بل)[2]، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ لا الإبطاليِّ؛ إذ انتقَلَ الكلامُ مِنَ الاستفهامِ الَّذي يَقْتَضي التَّوبيخَ على التَّكذيب دونَ عِلْمٍ محيطٍ؛ إلى الاستفهامِ عَن عَملهم أيضًا على جهة التَّوبيخ[3]، أي: أكذَّبتم بآياتي؟ بل ماذا كنتُم تعملونَهُ مُدَّة دعوةِ الرُّسُلِ لَكُم إلى الحَقِّ؟.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

لَيسَ لِلمُكَذِّبينَ أَيُّ عَمَلٍ سِوى التَّكْذيبِ

الهمزَةُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للاستفهام، وهذا الاستفهامُ لا يُراد به حقيقتُه مِن طلبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ معلومًا مِن قَبْلُ؛ لأنَّ اللّه سُبْحانَه بكُلِّ شيء عليمٌ، وإنَّما المُراد به التَّوبيخ والتَّبكيت[4]، فإنَّهم لمّا لم يشتغلوا بالتَّصديق بالآيات، والعملِ بِمُقْتَضى هذا التَّصديق، فأيُّ شيءٍ كانوا يَعْمَلونَهُ بَعْدَ ذلك؟ كأنَّ كُلَّ عَمَلٍ سِوى ذلك؛ فلَيْسَ بِعَمَلٍ[5]، وإذ لم يفعلوا غيرَ التَّكذيب، فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 41.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 270.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 386.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 573.

يَقْدِرون أن يَقولوا: فَعَلْنا غيرَ ذلك[1]، وهذا مُنْتَهى التَّقريعِ وغاية التَّبكيت لِمَنْ كان له عقلٌ، وفَهِمَ المرادَ بهذا المعنى المستفادِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

لا عَمَلَ لِلكافِرينَ إلّا التَّكْذيبُ مَعَ تَجَدُّدِ الآياتِ وكَثْرَتِها

جاء التَّعْبيرُ بالفِعْلِ المُضارِع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، في قول اللّهِ تَعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وذلك دالٌّ على التَّجدُّد والاسْتِمْرار، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّهم عُمِّروا في الأرضِ ما يتذَكَّر فيهِ مَن تذَكَّر، ولكنَّهم لم يَعْمَلوا طيلَةَ عُمْرِهِم بِما يَصْلُح أَن يُسَمّى عمَلًا يكون نافعًا لصاحبه، وهذا ممّا يزيد في تَبْكيتِهِم.

وذلك أنَّ الآياتِ متجدِّدةٌ، وكان الواجبُ عليهم أنَّه كلَّما تجدَّد عليهم ذِكْرُ آيةٍ مِن آيات اللّه سُبْحانَه أن يُجَدِّدوا مقابلَ ذلك عملًا صالحًا، فإنْ لَم يكُنْ لَهُم عمَلٌ إلّا التَّكذيب، فماذا كان عملهم غير ذلكَ؟.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 168.

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ [النّمل: 85]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إحلالُ العذابِ على الكفّارِ بِسَبَبِ الظُّلْمِ والتَّكْذيبِ

لَمّا ذكَر اللهُ سُبْحانه أنَّه يوقِف المُكَذِّبين، ويسألُهم على وجهِ التَّقريع والتَّوبيخ: ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وكان التَّقدير الذي دلَّ عليه سياقُ الكلام أنَّهم أجابوا بما يتبيَّن أنَّهم ظالمون؛ عطفَ عليه بما يدُلُّ على حُلول العذابِ علَيْهم بقوله سُبْحانَه: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾: (قو) تدلُّ تَصريفاتُها على النُّطق[2]، وخُصَّ باللَّفظ الموضوعِ لمعنًى، وللكلام على التَّرتيب[3]، ويطلق القولُ على الألفاظ، كما يُطلق على المعنى المتصوَّر في النَّفس بشرطِ تقييدِه بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8]، وإلّا فالقول عِنْدَ الإطلاق ينصرِفُ إلى النُّطْقِ، ومنه إطلاقُ القول على الاعتقاد في القلب، ومن القولِ الوعدُ والاعتناء الصّادق، كقولك: فلانٌ يقول بكذا، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾ [يس: 7][4]. ومعنى: ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في آية النَّمْلِ: مضمونُ الوعيدِ، وهو العذابُ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عَجْزُ الظّالمينَ عَنِ النُّطْقِ بَعْدَ تَبَيُّنِ الحَقائقِ

وحقَّ عليهم مضمونُ الوعيدِ، وهو العذابُ بسبَبِ ظُلْمِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قول).
(4) الراغب، المفردات: (قول).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 17/ 308، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 221.

وتكذيبِهم، فهُم لا يَقْدِرون على النُّطقِ بِحُجَّةٍ يَدْفَعون بها عن أَنْفُسِهم ما حلَّ بهم مِن سوءِ العذابِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ﴾:

تَوْبيخُهُمْ حالَ إيقاعِ العَذابِ عَلَيهِمْ زيادَةٌ في التَّهْويلِ

يجوزُ أن تكونَ الواوُ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ واوَ الحالِ، والمعنى: يُقالُ لهم أكذَّبتم بآياتي، وقَد وقَعَ القولُ عَلَيْهِم[2]، فيكون في هذا المعنى زيادَةُ تهويلٍ وتخويفٍ مِن ذلك المَوْقِف؛ إذ يُقرَّرون، ويوبَّخون حالَ وقوعِ الأهوالِ عليهم، فيكون التَّوبيخُ هولًا عليهم فوق ما هُم فيهِ مِنْ أهوالٍ.

ويجوز أن تكون الواوُ عاطفةً، فَعُطِفَتِ الجملةُ على الجُمْلة قبلها، وهي قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾؛ ليُبنى عليها سببُ وقوعِ العذابِ، وهو أنَّه واقعٌ عليهم بسببِ ظُلْمِهم، وليُفَرَّعَ عليهِ قولُهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَوَقَعَ﴾:

تَأْكيدُ حُلولِ العَذابِ عَلَيْهِمْ على وجْهِ الجَزْمِ والقَطْعِ

على القولِ بأنَّ الواو في قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ حاليَّة، يكون التَّعبير بالماضي ﴿وَوَقَعَ﴾ هنا على حَقيقَتِه؛ إذْ قد سبق ذِكْرُهُ في قولِه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وأعيد ذِكْرُهُ تعظيمًا لِهَوْلِه[4].

وعلى القولِ بأنَّ الواوَ للعطفِ، يكون التَّعبير عنِ الوُقوع بالفِعْلِ الماضي: ﴿وَوَقَعَ﴾؛ لتأكُّد حلولِ العذابِ عَلَيْهِم ووقوعه، كأنَّه لِلُزوم تحقُّقه صارَ ماضيًا[5]، وهو ما يُشير إلى أنَّهُم حَقيقونَ بِهذا العذابِ.

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 42.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 42.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 42.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 42.

نُكْتَةُ تَكْرارِ فِعْلِ الوُقوعِ:

تكرَّرَ فعلُ الوقوعِ (وَقَعَ) في هذه الآيةِ، مع أنَّهُ قد ذُكِر في الآيةِ قبلُ: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ القولَ أمر مهولٌ؛ إذ قد اشْتَمل على حوادثَ كثيرةٍ، كلَّما تحقَّق شيءٌ منها؛ فقد وقع القولُ، ابتداءً من الحشر، فالسُّؤال إلى آخرِ حوادث الآخرة.

ويجوز أن يكونَ المراد بالوقوعِ غير الوقوعِ المُتَقدِّم، وذلك أنَّ الوقوعَ الأوَّل ورَدَ مَقْرونًا بذِكْرِ الدّابَّة، فيكون القولُ إنذارًا بقُرْبِ وقوعِ العذاب ودُنوِّ حلولِه، بخلاف الوقوعِ الآخر، فقد ذُكِر مقرونًا بِمواجهَةِ المُكَذِّبين بجُرْمِهم وجَريرَتِهم، فكان الوقوعُ دالًّا على حلولِ العذابِ بِهِم لا دُنوِّه.

تَجَدُّدُ الشَّدائِدُ بِوُقوعِ الأَهْوالِ هَوْلًا بَعْدَ هَوْلٍ

دِلالَةُ (أل) في ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ معرَّفًا باللّام، وهيَ تدلُّ على العَهْدِ، وهو عهدٌ خارجيٌّ صريحيٌّ؛ لتقدُّم ذِكْرِه قبلُ في قول اللّه سُبْحانه: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، فهذه إحالةٌ إلى قولٍ معلوم، هو التَّوعُّد بالعذابِ للمُكذِّبين، وسيتذكَّر المكذِّبون حينَها ما كانوا يوعَدون، فيكون أدخلَ في تَحَسُّرِهم لعدَمِ الإيمانِ به.

بَيانُ حَسْرَةِ المُكَذِّبينَ بِرُؤْيَةِ تَحَقُّقِ ما وُعِدوا بِهِ

ويجوز أن تكونَ اللّام لِلكمال؛ إذْ هو القولُ حقًّا ولا قولَ بعده[1]، ولا تنافيَ بينَ القَوْلَيْن؛ لأنَّه لا مانِعَ مِن إرادة العهدِ الخارجيِّ الصَّريحيِّ مع إرادةِ الكمالِ.

مَعْنى (عَلى) ودِلالَتُها:

آثَر البيانُ القرآنيُّ استعمالَ حرفِ الجرِّ (على) في ﴿عَلَيْهِم﴾، من قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾، ولم يَرِد في

بَيانُ شِدَّةِ العَذابِ ونُفوذِهِ فيهِمْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 221.

النَّظمِ القرآنيِّ: (وقع القولُ بهم)، وذلك لِما في الحرفِ (على) من مَعنى الاستعلاء[1]، وذلك مفيدٌ أنَّ القولَ نزلَ عليهم مِن فَوْقِهِم، كأنَّه شيء محسوسٌ يسقط على رُؤوسِهم[2]، وأشارَ حرفُ الاستعلاءِ أيضًا إلى معنى نُفوذِ القضاءِ فيهم، وأنَّه لا مردَّ لهم منه.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ ودِلالَتُها:

الانْحِرافُ في الأَقْوالِ والأَعْمالِ والاعْتِقاداتِ ظُلْمٌ يَسْتَحِقُّ صاحِبُهُ عَلَيْهِ العُقوبَةَ

الباءُ في ﴿بِمَا﴾ مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ دالَّة على السَّببيَّة، أي: إنَّ مضمون العذاب الذي وقع عليهم إنَّما كان بسبَبِ الظُّلْم الصّادر مِنْهُم، مِن تكذيبٍ بالحَقِّ الذي تكاثرتِ الأدلَّة على صِدْقِه، وما ترتَّب على ذلك مِنَ الضَّلال في الأقوال والأفعال والاعتقادات[3]، وحقيقة الظُّلْم: وضعُ الشَّيء في غيرِ مَوْضِعِه؛ إذ كان الواجبُ عليهم التَّصديق، فاعتاضوا عَن ذلك بالتَّكذيب، وكان المُتَعَيَّنُ عليهم إصلاحَ الأقوال والأعمال والاعتقاداتِ، ولكنَّهم جعلوا بدلَ ذلك ضلالًا وإضلالًا.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسْميَّة:

تَصْويرُ كَمالِ وُجومِهِمْ عَنِ الاعْتِذارِ والإنْكارِ

صُدِّرت جملة: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ بالفاءِ، وهو حرفٌ دالٌّ على التَّفريع، والمَعْنى: أَنَّ القول وقع عليهم وقوعًا يَمْنَعُهم من كلام الاعتذارِ أو كلام الإنْكارِ، فبُهِتوا بسبَبِ هَوْلِ العَذاب الذي وقَع عَلَيْهم وشِدَّته[4].

واختيرَ التَّعبيرُ بالجُمْلَةِ الاسميَّة: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ تأكيدًا على عدَم نُطْقِهم بالاعتذار أو الإنكارِ، وللإيماءِ إلى استمرارِ حالتِهم[5]، وهو تَصْويرٌ بديعٌ لكمالِ وُجومِهم وحَيْرَتِهم عَن الرَّدِّ والجواب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 221.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/ 10853.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 168.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 42.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 453.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَنطِقُونَ﴾:

انْقِطاعُ الاعْتِذارِ يَوْمَ القِيامَةِ عَنِ الظّالِمينَ

آثر النَّظْمُ القرآنيُّ التَّعْبير بالفعلِ المُضارع المَنْفيِّ ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾؛ للدِّلالةِ عَلى الدَّوام والاسْتِمْرارِ، والمقصودُ دوامُ النَّفْيِ لا نَفْيُ الدَّوام؛ إذِ المُرادُ أَنَّهم لا يَنْطِقونَ في هذا المَقام البتَّة، فقَد خَرِسَتْ ألسِنَتُهم مِن هَوْلِ ما رَأَوا، فلا يَجِدون كلامًا يَنْطِقون به[1]، ولا عذرًا يَسْتَتِرونَ مِن ورائه.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾:

انْقِطاعُ الحُجَجِ والأَعْذارِ، وبَقاءُ الإشْفاقِ مِنَ الآثارِ

عَبَّرَ النَّظم القرآنيُّ بنفي النُّطق عَنْهُم وقتها، بقول اللّه تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ وذلك مفيدٌ بالمنطوق انحباسَهم عن النُّطق وُجومًا وخوفًا وإشفاقًا على أنفُسِهم ممّا سَيَحُلُّ بهم، ويُفْهَمُ منه معنًى كنائيٌّ، وهو لازمٌ عنِ المنطوق، وهذا المعنى هو فَقْدُهُم لأيِّ عُذْرٍ وحُجَّةٍ، فَهُم لا ينطقون بحجَّة؛ لانعدامها عندهم[2]، ولا بعذر لأنَّه لا يُقْبَل منهم الاعتذار، قال أبو السُّعود: "﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لانقطاعهم عن الجوابِ بالكُلّيَّةِ وابتلائِهم بشُغلٍ شاغلٍ مِنَ العذابِ الأليم"[3].

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10853.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 271.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 302.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾ [النّمل: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اليَقَظَةُ بَعْدَ النَّوْمِ مِنْ أَدِلَّةِ البَعْثِ بَعْدَ الموْتِ

لمّا ذكر اللهُ سُبْحانه الحشرَ في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾، ثُمَّ ذكَر ما يترَتَّب عليهِ مِن عقابِ المُكَذِّبين؛ استدلَّ على الحشْرِ الأكبرِ في الآخرةِ بحَشْرِ العبادِ كلَّ ليلةٍ إلى المبيت، والختم على مشاعِرِهم، ثُمَّ بَعْثِهم مِنَ النَّوم، واستدلَّ عليه أيضًا بالظَّلام - الذي هو كالموت - يعقبُهُ نورٌ، فإنَّه - أي: النّور - بُعث مرَّة أخرى بعد إفناءِ الظَّلام له، فقال اللّه سُبْحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَسۡكُنُواْ﴾: (سكن) تدلُّ اشتقاقاتُها على ثبوتٍ بعد تحرُّك[2]، فأَصل السُّكون: الاستقرارُ والثَّبات[3]، والسُّكون ضدُّ الحركَة والاضطراب[4]، قال اللّه سبحانه: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ [الشّورى: 33]، أي: إنَّها كانت متحرِّكة، فأَسْكَنها، وكلُّ ما يؤدّي إلى السُّكون؛ سُمّي به، كالهدوء والاطمئنان والنّوم، والسَّكَنُ: كُلُّ ما يُسْكَنُ إليه، ويُطْمَأَنُّ به من أهلٍ وغيره[5]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾: ليَهْدَؤوا، ويناموا فيه، ويَسْتَريحوا مِنَ النَّصَب[6].

2) ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: (بصر) تدور تصريفاتُها على اتِّضاحِ الشَّيء[7]،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 221.
(2) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سكن).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (سكن).
(6) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 610.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).

ويُطلق البَصَرُ على العينِ، وهي حاسَّة الرُّؤية[1]، ويطلق على نورِ النَّظر، ويتعلَّق بالنّور والإضاءة، خلاف الظُّلمة والعَتَمة، ويُطلق البَصَرُ على نفاذٍ في القلب[2]، أي: اتِّضاح الأمور، وإزالة الغموض عَنها، ولأجل ذلك أُطلق البَصَر على العلم، بالنَّظر إلى مآلِه، يُقال: بَصُرْتُ بالشَّيء: علمتُه، كما قال تعالى: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96]، والبَصيرُ: العالِمُ، والتَّبصُّر هو التَّأمُّل والتَّعرُّف[3]، ومَعْنَى: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، أي: مُضيئًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذْكيرُ بِنِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ

ألَم يَرَ هَؤُلاء المُكَذِّبون بآياتنا أنّا جعلنا اللَّيل يستقرّون فيه، ويَنامونَ؛ ليَسْتَريحوا من نَصَب العَمَل، وجعلنا النَّهار يُبْصِرون فيه للسَّعي في مَعاشِهم؟ إنَّ في تَصريفهما لَدِلالَةً لقوم يُؤْمنون بكمالِ قُدْرَة اللّه سُبحانَهُ ووحدانيَّته وعظيم نِعَمِهِ وفضلِه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

تَنْويعُ طُرُقِ الدَّعْوَةِ إلى الحَقِّ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ﴾؛ لكونه واقعًا اعتراضًا بينَ قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، والغرَضُ من هذا الاعتراضِ إرادةُ أن يَتخَلَّل آياتِ الوعيد شيءٌ منَ الاستدلالِ، فتكون الدَّعوةُ إلى الحقِّ بالتَّهديد تارَةً واستدعاءِ النَّظر في الأدلَّة تارةً أخرى[5].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (بصر).
(2) الخليل، العين: (بصر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بصر).
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 43.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في الآيَةِ:

التَّعْجيبُ مِنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الآياتِ مَعَ تَنَوُّعِها وظُهورِها

افْتُتِحت الآيةُ بهمزةِ الاستفهامِ في ﴿أَلَمۡ﴾، مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، وهو استفهامٌ لا يُراد به حقيقتُهُ مِن طلَبِ العِلْمِ بشَيْءٍ لَم يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ، وإنَّما يُراد به التَّعجيبُ، فالكُفّار لَمّا كذَّبوا بالحَقِّ مع كثرةِ أدِلَّته وتنوُّعِها وظُهورِها؛ كانت هذه الحالُ مِنْهُم في غاية العجَب، فاستدعَت سُؤالًا: أتقدَّمت منهم رُؤْيَةٌ لهذه الآياتِ أم كانوا عُميًا عَنْها؟[1].

دِلالَةُ الرُّؤْيَةِ في ﴿يَرَوۡاْ﴾:

التَّشْنيعُ عَلى المُكَذِّبينَ في عَدَمِ إعْمالِ الأَبْصارِ والبَصائِرِ

الرُّؤية في ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، تحتمل أن تكون رؤيةً قلبيَّةً، بمعنى العلم، أي: ألم يعلموا أنّا جعلنا اللَّيل؛ ليسكنوا فيه، وجعلنا النَّهار للمعاش[2]، ويجوز أن تكون الرُّؤية بصريَّةً، فيكون المعنى: ألم يروا رأيَ العين بأبصارهم اللَّيل والنَّهار كيف اختلفا؟ وكيف جُعِل اللَّيل سكنًا، وجُعِل النَّهار مبصرًا[3].

وهما مَعْنيانِ مُتَكامِلان؛ لأنَّ هؤلاء لم يُعملوا أبصارَهُم بالنَّظرِ ولا بصائرَهم بالعِلْمِ واليقينِ، وحَمْلُ الرُّؤية على البَصَريَّة أبلغُ في التَّشنيع عَلَيْهِم، حيثُ يُصوَّرون بمنزلَةِ العُمْيانِ الذي لا يُبْصِرونَ بأَعْيُنِهم.

دِلالَةُ إسْنادِ ﴿جَعَلۡنَا﴾ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

عَظَمَةُ المِنَّةِ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ

أُسنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظمةِ، في قولِه تَعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ تعظيمًا لشأن هذا الجَعْلِ[4]، فاللَّيل والنَّهار مِن أجَلِّ النِّعم وأَعْظَمِها؛ لِما فيهما مِنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 43.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 303، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 43.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 221.

المَصالح المُتكاثِرَةِ العَظيمة، ثُمَّ إنَّ هذا الجَعْلَ عظيمٌ لصُدورِه مِنَ العظيمِ ﷻ.

نُكْتَةُ العُدولِ عَن لَفْظِ (ساكِنًا):

التَّصْريحُ بِمَحَلِّ المِنَّةِ ومَوْضِعِ العِلَّةِ

عدل البيانُ القرآنيُّ ههنا عنِ التَّعبير بـ (جَعَلْنا اللَّيلَ ساكِنًا) إلى ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، والنُّكتة في ذلك أنَّ اللَّيل يوصَفُ بالسُّكون حقيقةً، فيقال: ليلٌ ساكِن، فلو جاءَ البيانُ القرآنيُّ ههنا: (جعلنا اللَّيل ساكِنًا)؛ لَم يتميَّزِ المراد بالنَّظر إلى الإطلاق، وإن كان مُتَمَيِّزًا بالنَّظر إلى قرينَةِ التَّقابل[1].

وفي التَّعبير بـ ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ تصريحٌ بالعلَّة مِن جعل الليل سَكنًا[2]، فالمنَّة ليست في سُكونه، ولا في لباسِ الظُّلْمَةِ عليه[3]، وإنَّما بِسُكونِ النّاس وراحَتِهم فيه.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في الآية:

كَمالُ صِفَةِ الإضاءَةِ في النَّهارِ مِنْ تَمامِ المِنَّةِ الإلَهِيَّةِ

إسنادُ الإبصارِ إلى النَّهار في قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ إسناد مجازيٌّ؛ إذِ النَّهار سببٌ للإبصار؛ لكونه يضيء للمُبْصِرين، فالجملةُ المتقدِّمة مجازٌ عقليٌّ، إمّا بعلاقة السَّببيَّة، أو بعلاقة الزَّمانيَّة، فيكونُ من باب قولِهم: نهارُه صائمٌ وليله قائم[4]، إذِ النّاس هُم الذين يُبْصِرون طرقَ المعاش.

وإنَّما أُسْنِد الإبصارُ إلى النَّهار على وجه المبالغة، بحيثُ جُعِلَ الإبصارُ حالًا للنَّهار، ووصفًا من أوصافه[5].

ويجوز أن يكون لفظ ﴿مُبْصِرًاۚ﴾ مِنَ الفِعلِ (أَبْصَرَ)، وهمزتُه للتَّعدية، من قولهم: أَبْصَرَه؛ إذا جعله باصِرًا[6]، فالنَّهار يجعلُ مَن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 334 - 335.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 536.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 239.
(4) الواحديّ، البسيط: 17/ 309.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 239.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 44.

فيه يُبْصِرُ الأشياءَ إبصارًا بيِّنًا، وفي كلا الوجهين تنبيهٌ على كمال صفة الإضاءة في النَّهار(1).

نُكْتَةُ العُدولِ عَن (لِيُبْصِروا) إلى ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾:

كَمالُ الامْتِنانِ بنورِ النَّهارِ

عَدَلَ النَّظم القرآنيُّ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ عن (والنَّهارَ ليُبْصِروا فيه)، كما قال في مقابِلِهِ قبلُ: ﴿جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، والنُّكتة في ذلك هي التَّنبيه على كمال كون النَّهار سببًا للإبصار، وأنَّ الإضاءة ليست المقصودة كالسُّكون في اللَّيل، وإنَّما هي وسيلة للمقصود، وهو جلبُ المنافع، من طلب المعاشِ ونحوِهِ من مصالحِ العبادِ(2).

بَراعَةُ الاحْتِباكِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

جَمَعَتِ الآيَةُ بَيْنَ الإيجازِ في العِبارَةِ وتَعَدُّدِ الدِّلالَةِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ احتباكٌ(3)، وهو المسمّى حذفَ التَّقابُلِ أو الحذفَ المقابَليَّ؛ وذلك لأنَّه حُذِف من أوَّل الكلام ما دَلَّ عليه آخِرُه، وحُذِفَ من آخرِهِ ما دَلَّ عليهِ أوَّله، وبيانُ ذلك: أنَّ الجملةَ الأولى: ﴿جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ حُذِفَ منها لفظُ (مُظلمًا)؛ لدِلالَةِ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ عليه، وحُذِف مِنَ الجُملة الثّانية: (ليتَصَرَّفوا فيه)؛ لدلالة ﴿لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ عليه، "فالسُّكون علَّةٌ لجعل اللَّيل مظلمًا، والتَّصرُّف علَّةٌ لجعل النَّهار مبصرًا"(4)، فأوجز النَّظْمُ القرآنيُّ العبارةَ وعدَّدَ الدِّلالة؛ ووقع مَعَ الدِّلالة الامتنانُ بالسُّكون والحركة، وبالنّور والظُّلمة، وباللَّيل والنَّهارِ.

دِلالَةُ تَقْديمِ المِنَّةِ بِاللَّيْلِ عَلى المِنَّةِ بِالنَّهارِ:

عَظَمَةُ الامْتِنانِ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ

قال اللّه سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فقدَّمَ المِنَّة باللَّيل على المِنَّة بالنَّهار؛ لأنَّ اللَّيلَ هو الأصلُ؛ إذ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 573.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 222.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 271.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 271، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 10/ 76.

النَّهار يحتاجُ إلى ما يُضيئُه وهو الشَّمس، وليس في هذا التَّقديم ما يُشْعِر بأنَّ المِنَّة باللَّيل أعظمُ مِن المِنَّة بالنَّهار، بل النِّعمتانِ كَفَرَسَيْ رِهانٍ، إذِ اللَّيل اعتُني به تقديمًا، والنَّهار اعتني به بالمُبالغَةِ في وصْفه ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، فتعادَلا[1].

انْتِفاعُ أَهْلِ الإيمانِ بِالآياتِ الكَوْنيَّةِ

عِلَّةُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ عمّا قَبْلَها:

فُصِلَت جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها استئنافًا بيانيًّا؛ حيث إنَّ ذِكْرَ تلك الآياتِ يبعَثُ في نفس السّامع سُؤالًا، حاصلُه: أكانَ عدمُ الانتفاع بدلالة اللَّيل والنَّهار عامًّا في البشر؟ فجاء الجواب: إنَّ المؤمنينَ يَسْتَفيدون منها دلالاتٍ كثيرةً[2]، فتلك علاماتٌ بيِّنات وآيات واضحاتٌ لمن آمنوا باللّه تَعالى واحدًا، وبمحمَّد نبيًّا وعبدًا صلّى اللّه عليهِ وعلى آله وسلَّم، أمّا غيرهم؛ فهُم موتى لا يُحِسّون، صُمٌّ لا يسمعون، عُميٌ لا يَرَوْنَ[3].

التَّعليلُ بالتَّعجيبِ مِنْ حالِ المُكَذِّبينَ بالآياتِ

دِلالَةُ التَّأْكيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ واللّامِ:

جاء قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ مُؤَكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾ واللّام، وذلك مفيدٌ الاهتمامَ بمَضْمونِ الخَبَر، وفي ﴿إِنَّ﴾ معنى التَّعليل بعَجيبِ حال الكفّار في عدَمِ رُؤْيَةِ اللَّيل والنَّهار، وما فيهما مِن سكونٍ وضياء، مع تكَرُّر هاتين الآيتين العظيمَتَيْن، إلّا أنَّهم لم يَنْظُروا إليهما نظَرَ تبصُّرٍ وتأمُّل، فلم يَهْتَدوا بالنَّظَر إلى وحدانيَّة اللّه سُبْحانَه، ولا إلى إمكانِ البعث[4].

عَظيمُ مَنْزِلَةِ الامْتِنانِ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ عَن جَعْلِ اللَّيل سكنًا وجَعْلِ النَّهار مُبْصِرًا باسْم الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، مِن قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 334.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 235.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 44.

اسمُ إشارةٍ دالٌّ على البُعْدِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عُلوِّ منزلةِ تلك الآياتِ وشَرف تلك النِّعَم وعظمَة تلك الدِّلالات[1]، فهيَ لِما فيها مِنَ الفَضْلِ العَظيم صارَ مِمّا يُشار إليهِ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الآياتِ مُنَكَّرَةً مَجموعَةً:

تَعَدُّدُ الدِّلالاتِ في الآياتِ مَدْعاةٌ لِلعَجَبِ مِنْ حالِ المُكَذِّبينَ

جاء التَّعبيرُ عَنِ الآياتِ بصيغَةِ الجَمْع المُنَكَّر، في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾، ودلَّ الجمعُ على تنوُّع دِلالتها[2]، ودلَّ التَّنكيرُ عَلى عَظَمتها وكثرةِ أَفْرادِها[3]، فزادَت للجَمْع كثرةً، وللدَّلالات المتنوِّعَةِ شرَفًا، فكان في الآياتِ دلالةٌ على السَّكَن باللَّيل، والإبصار بالنَّهار، وغشيان اللَّيل، وسطوع النَّهار، وكلُّ ظاهرةٍ آيةٌ مستقلَّة، فإذا اجتمعت؛ دلَّت على مجموعِ آيات اللّهِ الباهراتِ في الكون والحياةِ والأوقات.

وفي كلِّ دلالةٍ مِن تلك الدِّلالاتِ استشعارٌ لحكمةِ خَلْقِ اللّهِ تَعالى وتَدْبيره وتفرُّدِه، وتقبُّلٌ للبعث والنُّشورِ بدلالة النَّوم والاستقاظ، ومع تعدُّد الدِّلالات في الآيات تَظهر شدَّة غفلة المكذِّبين؛ إذْ لَم تُثر أيَّةُ واحدةٍ من تلك الدِّلالات، أَوِ الآيات فيهم الإيقانَ بانفراد اللّهِ باسْتِحْقاقِهِ الألوهيَّةَ ولا الإيمانَ بِالبعثِ والنُّشور!

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ (قَوْمٍ):

تَعْظيمُ قَدْرِ المُؤْمِنينَ، والتَّشْنيعُ عَلى المُكَذِّبينَ

جاء التَّعبير بلَفْظِ (قَوْم) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك دالٌّ على أَنَّ الذي يَعْتَبِر بالآياتِ، ويَسْتَفيدُ مِنْها إنَّما هو مَن كانَ شأْنُه الإيمانَ والإقرارَ بالحجَّة.

فكان في لَفْظِ (القَوْم) إشارَةٌ إلى تمكُّن وصفِ الإيمانِ فيهم، حتّى صاروا يُعْرَفونَ بِهِ، كأنَّه مِن مُقوِّمات قَوْميَّتِهم، والمَعْنى: إنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 303.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 44.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 303.

في ذلك لآياتٍ لِمَن كان شِعارُهُم التَّدبُّرَ والإنصافَ، وفيه تَعْريضٌ بالمُكَذِّبين أنَّهم ليسوا كذلك[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

زِيادَةُ الإيمانِ بِالنَّظَرِ في الآياتِ والاعْتِبارِ بِها

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بالفعل المضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ وذلك للدِّلالة على تجدُّدِ إيمانِهم؛ كلَّما طلعَ فَجْرٌ، وحلَّ ليل[2]، ففي كلِّ يومٍ يزيدُ هؤلاءِ درجةً في الإيمان[3].

وفي التَّعبير بالفعل المضارعِ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ أنَّ ذلك مَرْجوٌّ منهم، فصار المعنى: (إنَّ في ذلك لآيات للمُؤْمِنين، ولِمَن يُؤَمَّل منهم الإيمانُ عندَ النَّظر في الأدلَّة)[4].

نُكْتَةُ تَخْصيصِ المُؤمنينَ بِالذِّكْرِ:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ المُؤْمِنينَ والتَّعْريضُ بِحالِ المُكَذِّبينَ

خُصَّت الآياتُ بالمؤمنين في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الآياتِ وإن كانَت عامَّةً للمُؤْمِن والكافر، إلّا أنَّ المؤمنين هُمُ المُنْتَفِعون بِها دون غَيْرِهم، ولذا خُصّوا بها دونَ غَيْرِهم[5]، فمَن دَأَبَ على التَّأمُّل والإقرار بالحقِّ أينَما وجَده؛ صارت تلك الآياتُ دالَّةً له على الحقائِق، بخلاف أهلِ الكُفْر، فإنَّهُم مَطْبوعون على النَّفْرَةِ منَ الحقِّ[6]، وإن أيقنوا به في أَنْفُسِهم.

وفي تخصيصِ الآياتِ بأَهْلِ الإيمانِ أيضًا: تعريضٌ بالمُكَذِّبين؛ لعَدَمِ انْتِفاعِهِم بِها، وعدمِ إعمالِ النَّظرِ والتَّأمُّل في اسْتِكْناهِ حَقيقَتِها[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 84.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 44.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 272.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 454.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بَيْنَ آيَةِ النَّمْلِ (86) وآيَةِ يونُس (67):

تَناسُبُ فَواصِلِ آيِ القُرْآنِ مَعَ مَضامينِها

قال اللّهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال سُبْحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]، حيثُ تَوافَقَتِ الآيتانِ في جُلِّ أَلْفاظِهِما، وأَظْهَرُ اختلافٍ بينَهُما حاصِلٌ في فاصِلَتِهِما، ففي آيةِ يونُسَ: ﴿لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]؛ لِكَوْنِها مسوقَةً مساقَ الاستدلالِ والامْتِنان، ولذلكَ خاطَبَ اللّهُ سُبْحانَهُ بِها جميعَ النّاسِ مِن مُؤمِنِهم وكافِرِهم، فجاءت بصيغَةِ الخِطاب، وجُعِلَت دِلالَتُها لكلِّ مَن يَسْمَعُ أدلَّةَ القرآنِ الكريم، فمنهُم مُهْتَدٍ وضالٌّ، والفعلُ ﴿يَسْمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67] مؤذِنٌ بالإقبالِ على الحقِّ.

وأمّا آيةُ النَّمْل؛ فهي مسوقَةٌ مساقَ التَّعْجيبِ والتَّوبيخ، فجُعِلَ ما فيها آياتٍ لِمَن شأنُه الإيمان، فكانت الآيةُ مفيدةً بمفهومها امتناعَ حصولِ الدِّلالة لمَن أَعْرَضَ، وكابَرَ(1).

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بَيْنَ آيَةِ النَّمْلِ (86) وآيةِ الزُّمر (42):

دِقَّــةُ الـبَـيـانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الفَواصِلِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

اخْتَلَفَتِ الفاصِلتانِ بين الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]؛ لأنَّ سياقَ آيةِ النَّمْلِ كان في سياقِ المُكَذِّبينَ بالحَشْرِ والبَعْث، وكان النَّشر الأصغرُ بعدَ النَّومِ مع آيتي اللَّيْلِ والنَّهار آياتٍ واضحاتٍ دالَّةً على البَعْثِ، وكان مِن مَباني سورَةِ النَّمل تخصيصُ الهِداية بأَهْلِ الإيمان، كما دَلَّ على ذلك قولُ اللّهِ سُبْحانَهُ في طالِعَتِها: ﴿هُدٗى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 45.

﴿٢﴾ [النمل: 2]، وقولُهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فناسبه تَخْصيصُ الانتفاعِ بالآيات بالمؤمنينَ، فقالَ سُبْحانَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

بخلافِ آيَةِ الزُّمَر؛ فقد جاءت في بَيانِ وجْهِ الشَّبه بين النَّوم والموت، وبينَ اليقَظَة والبعث، وكان إدراكُ هَذا التَّشابه مِمّا يَحْتاج إلى تأمُّل وتَفَكُّرٍ، فناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42][1].

(1) سعد محمّد، استدراك ما فات، ص: 578 - 579.

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النّمل: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَعْميمُ الخَلْقِ بِالمَوْتِ والإِحْياءِ كَما عَمَّهُمْ بِالنَّوْمِ والإِيقاظِ

لَمّا ذكر اللّهُ تَعالى آياتِهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ سكنًا وضياءً، ودليلًا عَلى وحْدانيَّتِهِ سُبحانَهُ وإمكانِ البعث بالإشارةِ إلى البَعْثِ مِنَ النَّوم؛ أعقبه ببيانِ الحَشْرِ العامِّ؛ تنبيهًا إلى أنَّه يَعُمُّهم بالموتِ كما عَمَّهم بالنَّوم، ويَعُمُّهم بالإحياء كما عَمَّهم بالإيقاظِ[1]، فقال سُبْحانَه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُبَيِّنًا أوَّل أحوالِ البَعْثِ بالنَّفخ في الصّور.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفَخُ﴾: (نفخ) يدلُّ على مَلْءِ شيءٍ بالهواءِ[2]، فيمتلئَ، ويَعْلو، على ما هو معروفٌ مِنَ النَّفخ، وأُطْلِقَ على مطلق الامتلاء، فيقال: انتَفَخَ النَّهار؛ إذا عَلا، والمَنْفوخُ: الرَّجل السَّمين[3]، والرَّجل المُنْتَفِخ: المتكبِّر، وأُطلِقَ أيضًا على أثَرِ النَّفخ، أي: ما يصدر عنه من صَوْتٍ، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الزّمر: 68].

ومعنى ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: صوِّت فيه، والصّورُ: القَرْنُ الذي وكَّل اللّهُ تعالى بِهِ إسرافيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[4].

2) ﴿ٱلصُّورِ﴾: (صور) تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى المَيْل، يقال: فلانٌ يصورُ عُنُقَه إلى كذا، أي: يُميلُ بعُنُقه ووَجْهِهِ نحوَه، والنَّعت مِنْهُ: أصْوَرُ، والمصدرُ: الصَّوَر، أي: الإمالة[5]، وصَوِرَ: مالَ واعوجَّ، والصّور

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 222.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفخ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفخ).
(4) حافظ حكمي، معارج القبول: 2/ 799.
(5) الخليل، العين: (صور).

القرن يُنْفَخُ فيه[1]؛ لأنَّه معوجٌّ عادة، قال الله سُبحانَهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ [الكهف: 99][2]، وهو البوق بِلُغَة أهل اليمن[3].

ومعنى ﴿ٱلصُّورِ﴾ في الآية: قَرْنٌ مِن نور كهَيْئَةِ البوقِ يَنفُخُ فيهِ إسْرافيلُ[4].

3) ﴿فَفَزِعَ﴾: (فزع) تدور اشْتِقاقاتُها على الفَرَق والخوف، وحقيقتُهُ: انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسانَ من الشَّيء المخيف، قال الله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103][5]، والمفزَع الملجأ، والإفْزاع الإغاثة، وتقول: فزعتُ إليهِ؛ إذا لجأتَ، واستغَثْتَ؛ لأنَّه يزيل الفَزَع، ويَكْشِفُ الخوف[6]، وأُطلِق الفزَعُ على النَّفير؛ لشدَّة الخوف، فيفزع النّائم، فيستيقظ، ويفزع الخائف، فيهرب، ومعنى ﴿فَفَزِعَ﴾ هنا: ذُعِرَ، وتحرَّك خوفًا وهلعًا[7].

4) ﴿دَٰخِرِينَ﴾: (دخر) أصلٌ يدلُّ على الذِّلَّة والصَّغار[8]، وهو أن يَفْعَل المرءُ ما يُؤْمَرُ بِهِ كرهًا على صِغَرٍ ودُخور[9]، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60] أي: أذلَّة[10]، ومعنى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾: جاؤوهُ خاضعينَ صاغِرين[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْرُ الفَزَعِ والصَّغارِ لِنِداءِ اللهِ الجَبّارِ

واذكر - أيُّها النَّبيُّ الكريم - يوم يَنفُخُ إسرافيلُ في القَرْنِ، فيفزَعُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (صور).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صور).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 239.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 239.
(5) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (فزع).
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 241.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (دخر).
(9) الخليل، العين: (دخر).
(10) الرّاغب، المفردات: (دخر).
(11) إبراهيم الحربيّ، كتاب غريب الحديث: 2/ 677.

مَن في السَّماوات ومَن في الأرضِ فَزَعًا شديدًا مِن هَوْلِ هذه النَّفْخَة، إلّا مَنِ استثناهُ اللّهُ سُبْحانَه مِمَّن أكرَمَهُ، وحَفِظَهُ مِنَ الفَزَع، وكلُّ المخلوقات يأتون إلى ربِّهم صاغِرينَ خاضِعين مُطيعينَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُمْلَةِ بما قَبْلَها:

ذِكْـرُ شَيْءٍ مِـنْ أَحْـوالِ الآخِـرَةِ العِظامِ

عُطِفَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على قولِه قبلُ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين، وذلك لاشتراكِ الجُمْلَتَيْن في الخبريَّة، ووجودِ الجامع بينَهما وهو ذِكْرُ حوادثِ الآخرة، مع ما في الجملتين مِن محسِّنٍ لفظي لهذا الوصلِ، وهو اشتراكُهُما في الظَّرف، وهو لفظ (يَوْم).

وفي هذا العطفِ تسجيلٌ على المكذِّبين، بإثباتِ وقوعِ البَعْثِ، وإنذارٌ بما يَعْقُبُ النَّفخ من مجيءِ الجميعِ إلى ربِّهم داخِرين[2].

دِلالَةُ الإيجازِ في قَوْلِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ﴾:

التَّرْهِـيـبُ مِـنْ أَهْـوالِ الآخِـرَةِ؛ لِـلـحَـثِّ عَـلَى الإعْدادِ لَها

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذلك أنَّ ثمَّة فعلًا محذوفًا، والتَّقدير: (واذْكُر يومَ يُنفخ في الصّور، أو ذَكِّرهم يوم يُنفَخُ في الصّور)[3].

والآية مسوقة لقَصْدِ التَّنبيه ممّا سيقعُ في الآخرةِ مِن أهوالٍ؛ تَرْهيبًا من هَوْلِها، وحثًّا على الإعدادِ لها، وتوبيخًا وتقريعًا للمُعْرِضين عنِ الحقِّ.

ويجوز أن يكون لفظُ (يوم) في الآية ظرفًا منصوبًا لعامل محذوفٍ دلَّ عليه ما بعده، أي: يستجيبون للنِّداء يوم يُنْفَخُ في

(1) مجموعة من المؤلِّفين، المنتخب، ص: 573، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 45.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 239.

الصّور، وقُدِّم الظَّرف للاهتمام به، وهو أسلوبٌ بديع في القرآن؛ إذْ يَحْصُل به من التَّشويق إلى وصفِ هذا اليوم لِما فيه من التَّهويل[1].

دِلالَةُ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُنفَخُ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ:

بَيانُ هَوْلِ النَّفْخِ وعَظَمَتِهِ

بُني الفعلُ ﴿يُنفَخُ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لقصد الاهتمام بالنفخ في ذاته، والإشارة إلى عظمته، بقطع النَّظر عن النّافخ، وفي بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله أيضًا الإيماء إلى أنَّ هذا النَّفخ حاصل بأيسر أمر منه سبحانه[2].

هذا وقد اخْتُلِف في معنى النَّفخ في الصّور، فذهب الجماهيرُ إلى أنَّه نفخٌ حقيقيٌّ، وهو الأصحُّ المتعيِّنُ المصيرُ إليه، وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ ذلك استعارَةٌ تمثيليَّةٌ، وقد عقَّب الآلوسيُّ على هذا قائلًا: "وجَعْلُ الكلام من باب الاستعارةِ التَّمثيليَّة، فيه إنكارٌ لِوُجود صور حقيقيٍّ يُنْفَخُ فيه، وذلك مُخالِفٌ لِما نطقَتْ بهِ الأحاديثُ الصِّحاحُ"[3].

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿ٱلصُّورِ﴾:

الإيماءُ إلى شِدَّةِ الفَزَعِ النّاشِئِ عَنِ النَّفْخِ في الصّورِ

جاء لفظ ﴿ٱلصُّورِ﴾ مُعرّفًا باللّام، في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي لامُ العهدِ العِلْميِّ؛ لِما يكونُ قد تقرَّر عند المُخاطَبين من تقدُّم العلم به، فإذا ذُكِر؛ اسْتَحْضَر المتلقّي مشهدَ الصَّوت الشَّديد المؤدّي إلى الفَزَع العامِّ.

ويجوزُ أَن تكونَ اللّام دالَّةً على الكمال، بحيثُ إذا ذُكِر الصّور معَ النَّفخ؛ فلا صورَ إلّا الصّور الكاملُ الذي يكون في الآخرَةِ، ولا نَفْخَ إلّا هذا النَّفْخُ الشَّديد العظيمُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 252.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/ 154.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 30، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 7/ 722.

ولا تَنافيَ بينَ الدِّلالتَيْنِ، بَل إحْداهُما تُؤَيِّد الأخرى، وتُقَوِّيها، فَهو صورٌ كامِلٌ عظيمٌ، وقَد عُهِدَت معرِفَتُه لَدى المُخاطَبينَ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿فَفَزِعَ﴾:

تَحَقُّقُ وُقوعِ الفَزَعِ عِنْدَ النَّفْخِ في الصّورِ

عُبِّرَ عن الفَزَعِ بالفِعْلِ الماضي ﴿فَفَزِعَ﴾، مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، مع أنَّ الفزع يحصلُ في المستقبَلِ؛ وذلك للإشعار بتحقُّق وقوعه، وأنَّه كائنٌ - لا محالة[1] - كأنَّه إخبارٌ بحدثٍ ماضٍ وقَعَ، وانْتَهى، فصيغَةُ الماضي كنايَةٌ عن التَّحقُّق، وقرينة الاستقبال ظاهرةٌ مِنَ المُضارع في قوله: ﴿يُنفَخُ﴾[2]، وممّا تقرَّر من أنَّ النَّفخ إنَّما هو من أحوالِ الآخِرَةِ وأَحْداثِها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفَزَعِ هَهُنا دونَ الصَّعْقِ:

النَّفْخُ فِي الصّورِ مُتَعَدِّدَةٌ آثارُهُ

عبَّر البيان القرآنيُّ عن أثر النَّفخ في الصّور بالفزع، في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بخلاف الوارد في سورة الزُّمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: 68]؛ وذلك للتَّمييز بين النَّفختين، فالمذكور في سورة الزُّمر نفخةٌ يَصْعَقُ الخلق بها، فيَموتونَ للسّاعة، والمذكور في سورة النَّمل نفخَةٌ يَفْزَعُ الخلقُ بها.

نُكْتَةُ تَأْخيرِ ذِكْرِ النَّفْخِ عَنْ ذِكْرِ الحَشْرِ:

تَجْديدُ التَّهْويلِ بِذِكْرِ الوَقائِعِ الجِسامِ

وردَ ذِكْرُ النَّفخ في الصّور وما يقعُ حينها بعد ذِكْرِ حَشْرِ المكذِّبين من كلِّ أمَّة، مع أنَّ النَّفخ يكون قبلَ الحشر، ونكتةُ هذا التَّأخير: هي تثنيةُ التَّهويل بتَكْرير التَّذكير؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدةٍ منْهُما طامَّة كُبْرى، وداهية دَهْياء، حقيقةٌ بالتَّذكير على حيالها، ولو جاء ذِكْرُ الحشْرِ بعد النَّفْخ على ما هو ترتيبُ الوقوع؛ لتُوُهِّمَ أنَّ الجميعَ داهيَةٌ واحِدَة[3].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 272.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 46.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 303 - 304.

مَعْنى ﴿مَن﴾ ودِلالَتُها:

شِدَّةُ الفَزَعِ وعُمومُهُ جميع الخلق

جاء التَّعبير في الآية الكريمة عمَّن يقع مِنْهُ الفزع يوم ينفخ في الصور بـ ﴿مَن﴾، وهو اسمٌ موصول، فقال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالة على العموم؛ لأنَّ الاسم الموصول دالٌّ على ذلك، وهذا يقتضي شدَّة هذا الخوف وقوَّة هذا الفزغ حيث عمَّ كلَّ مَنْ في السماوات ومن في الأرض(1)، ويقوّي دلالة ﴿مَن﴾ على العموم ورودُ الاستثناء بعده؛ إذ إنَّ الاستثناء معيارُ العموم.

دِلالَةُ تَكْرارِ المَوْصولِ (مَنْ):

الإطْنابُ لِزيادَةِ التَّهْويلِ وبَيانِ أَنَّ الحُكْمَ لِلجَميع

تكرَّر الاسمُ الموصولُ (مَنْ)، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فذُكِر مرَّةً أخرى لأهل الأرض بعدَ ذِكْرِه معَ أهل السَّماء، وهذا التَّكرار هو باب الإطناب؛ لأنَّ السّياق يقتضيه، والغرَضُ من هذا الإطنابِ التَّهويل والتَّفظيع(2)، فهو نَفْخٌ يَفْزَعُ معَهُ أهلُ السَّماوات جميعًا، وأهلُ الأرض جميعًا، فلا يُفَوِّتُ أحدًا.

سِرُّ تَقْديمِ أَهْلِ السَّماواتِ عَلى أَهْلِ الأَرْضِ:

فَزَعُ أَهْلِ السَّماواتِ دَليلٌ عَلى فَزَعِ أَهْلِ الأَرْضِ بِطَريقِ الأَوْلَوِيَّةِ

جاء في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقديمُ ذِكْرِ السَّماوات ومَن فيهنَّ، على الأرضِ ومَن فيهنَّ، ويَرْجِعُ سِرُّ ذلكَ إلى شدَّة النَّفخ في الصّور، وهول الفزَعِ به، فإذا كان أهل السَّماوات قد فَزِعوا لهذا الصّوت؛ فأهلُ الأرضِ مِنْ بابٍ أَوْلى وأَحْرى؛ وذلك لِضآلة خلق الأرضِ وأهلها مقارنةً بالسَّماوات وأهلها، فجاء تقديمُ ذِكْرِ مَن في السَّماوات؛ ليتعاظَم الفزَعُ الَّذي سَيُصيبُ مَن في الأرض، وفي ذلك مزيدُ تهويلٍ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10856.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 222.

دِلالَةُ إسْنادِ المَشيئَةِ إلَى الاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

لا عاصِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى إلّا مَنْ شاءَ

أُسنِد فعلُ المَشيئَة في قوله سُبْحانه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُۚ﴾؛ للإيماءِ إلى عظمَةِ هذه المَشيئَة لِكَوْنها صادِرَةً مِمَّن لهُ جميعُ صِفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمال، فاسْتِثْناءُ مَن شاءَ اللّهُ سُبْحانَهُ من هذا الفزَعِ الكبيرِ والخَوف الشَّديد حاصل بنافذِ مَشيئَته وعظيم قُدْرَته وكامل عِلْمِه.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ بَيْنَ آيَةِ سورَةِ النَّمْلِ (87) وآيَةِ سورَةِ الزُّمَرِ (68):

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

تشابَهَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقولُه سُبْحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: 68]، في ذِكْرِ النَّفخ في الصّور، وتأَثُّر كلِّ مَن في السَّماوات ومَن في الأرض بهذه النَّفخة، إلّا أَنَّ آيَةَ النَّمل ذُكِرَ فيها الفزَعُ، وآيَة الزُّمر ذُكِر فيها الصَّعق، وكلٌّ منهما مناسِبٌ لسياقه؛ فآيَةُ النَّمل لَمّا كانت في سياق تخويفِ النّاس مِن أحوال الآخرة؛ ناسبَهُ ذِكْرُ الفزَع، وهو شِدَّةُ الخَوف.

بخلافِ آية الزُّمر؛ فإنَّها وارِدَةٌ في سياق ذِكْرِ نِهاية السَّماوات والأرض، فكان الأنسَبَ ذِكْرُ نهايةِ مَن فيهما بذِكْرِ الصَّعق، فقالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: 68].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ بَيْنَ آيَةِ سورَةِ النَّمْلِ (87) وآيَةِ سورَةِ النَّبَأِ (18):

اخْتِلافُ آثارِ النَّفْخِ في الصّورِ

قال اللّه سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وقال ﷻ: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾ [النبأ: 18]، والفرق بينَهما: أنَّ آية النَّمل وُصلت بما قبلها، بخلاف آيةِ النَّبأ فقد فُصِلت عمّا قبلها، ثُمَّ إنَّ كلًّا من الآيتين ذَكَرَت أثَرًا من آثار النَّفْخِ في الصّور.

ووجهُ هذا التَّفريق: أَنَّ آية النَّمل تَقَدَّمها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، فلَمّا كان

المقصودُ ذِكْرَ مشهَدٍ آخرَ مِن مشاهد الآخرة يُضاف إلى ما تَقَدَّمه مِن مشاهِدَ؛ ناسبَهُ العطفُ، ثُمَّ لمّا كان ما ذُكِرَ مِن أهوالِ يومِ القيامة سببًا لفَزَعِ النّاس خوفًا مِمّا توعَّد اللّهُ تعالى بهِ المُكَذِّبين؛ ناسبَهُ ذِكْرُ الفزَعِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

بخلاف آية النَّبأ، فقد تقدَّمها قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾ [النبأ: 17]، فلمّا كان المراد بيان ذلك بإبدالِ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ﴾ [النبأ: 18] مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [النبأ: 17]؛ ناسبه فصلُ الجُمْلَةِ عمّا قبلها، ثُمَّ لمّا كان السّياق أكثر تعلُّقًا بمَن سألوا عن النَّبأ العظيم سُؤالَ إنْكارٍ وتكذيبٍ، كَما دلَّ عليه صَدْرُ السّورة؛ ناسبَهُ ذِكْرُ ما يتعلَّقُ بِهِمْ في هذا اليوم، فقالَ تَعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾ [النبأ: 18].

عِلَّةُ وصْلِ جُمْلَةِ ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ﴾ بما قَبْلَها:

بَيانُ حالٍ أُخْرى مِنْ أَحْوالِ الآخِرَةِ

وُصِلت جملة: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ بما قبلها، وهي قولُه تَعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان خبريَّتان، وبينَهُما مناسبَةٌ في المَعْنى؛ إذْ كلتاهما واردتان لبَيان حالٍ من أحوالِ الآخرة.

دِلالَةُ لَفْظِ (كلٌّ):

لا يُسْتَثْنى مِنْ حُضورِ الحِسابِ أَحَدٌ

جاء التَّعبير في الآية الكريمةِ بِلَفْظِ (كلٌّ)، فقالَ اللّهُ سُبحانه: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾؛ لتدلَّ على العُموم بعدَ الاستثناء، فإذا كانَ في الفَزَعِ استثناءٌ؛ فإنَّ الإتيانَ للحسابِ لا يُسْتَثنى منه أحَدٌ، فلفظ (كلٌّ) تدلُّ على استغراق جميع مَن خلقَ اللّه ﷻ، مِن برِّهم وفاجِرِهم، فيأتي الأبرارُ؛ ليشهدوا سعادتَهم وفَوْزَهم، ويأتي الفُجّار؛ ليشهدوا شقاوتَهم وخَسارَتهم.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿أَتَوْهُ﴾:

لا يتخلَّف أحدٌ عن الإتيان في ذلك اليوم العظيم

قرأ حفص حمزةُ وخلَفٌ بفَتْحِ التّاء وقَصْرِ الهمزةِ ﴿أَتَوْهُ﴾، وقرأ الباقون بمَدِّ الهمزة وضَمِّ التاء ﴿ءَاتُوهُ﴾[1].

فَقراءة الجمهور ﴿ءَاتُوهُ﴾ بصيغَةِ اسْم فاعلٍ مِن الإتيانِ، ويُشيرُ اسمُ الفاعل هنا إلى رُسوخ وصف الإتيانِ فيهم، فلا يتأخَّر منهم أحَدٌ، ولا يتخلَّف، وعَلى قراءة ﴿أَتَوْهُ﴾؛ فهيَ بِصيغَةِ الفِعْلِ الماضي بمَعْنَى: جاؤوه[2]، ويشير الفعلُ الماضي هنا إلى تحقُّق إتيانِهم، وأنَّه أمرٌ واقع - لا محالة - فكانَتِ القِراءتانِ جامِعَتَيْن بينَ رُسوخِ وصفِ الإتيانِ فيهم وتحقُّقه مِنْهُمْ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿أَتَوْهُ﴾:

حُضورُ الخَليقَةِ إلى مَحَلِّ القَضاءِ الإلَهيِّ

الضَّمير في ﴿أَتَوْهُ﴾ يجوزُ أن يَرْجِعَ إلى قولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، على تقدير: آتونَ فيه، ويجوز أن يكونَ الضَّمير راجعًا إلى اللّه ﷻ، وهو الأظهر؛ لأنَّه أقربُ مذكورٍ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والمرادُ الحضورُ إلى محلِّ القضاءِ[3].

دِلالَةُ اسْمِ الفاعِلِ في ﴿دَٰخِرِينَ﴾:

انْقِيادُ الخَليقَةِ لِأَمْرِ اللهِ تَعالى

جاء لفظُ ﴿دَٰخِرِينَ﴾ في الآية بصيغة اسم الفاعل؛ ليدلَّ على تمكُّن الدُّخور عند إتيانِ الخلق للقضاء، فالجميعُ عنده صاغرٌ لأمره منقادٌ طائع، لا يمتَنِع عنِ الإجابة أحَدٌ.

وفي هذا تعريضٌ بحالِ المكذِّبين في الدُّنيا، كيف صاروا إلى الصِّغار والذُّلِّ بعد أن كانوا مُسْتَكْبِرين طُغاة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَوْف والفَزَع:

اخْتِصاصُ الفَزَعِ بِأَشَدِّ مَواطِنِ الخَوْفِ

الخوفُ في اللُّغة: توقُّع مكروهٍ عن علامة معلومَةٍ أو مَظْنونَةٍ، وأمّا الفزَعُ؛ فهو في اللُّغة: انْقِباضٌ ونِفارٌ واضْطِراب يَعْتَري المرءَ مِن أَمْرٍ مخيفٍ.

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339.

(2) مكّي، الكشف: 2/ 167 - 168.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 46.

وقد وردَ ذِكْرُ الخَوْفِ في القرآنِ الكريمِ مَرّاتٍ متكاثرَةً، فمِنْ ذلكَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 38]، وتكرَّرَتْ جُمْلَة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ اثنَتيْ عَشْرةَ مرَّةً، أولاها في سورةِ البقرةِ (38) وآخِرُها في الأحقافِ (13)، وقدِ ارْتَبط الخوفُ في هذه المَواضِعِ بالحُزْنِ، وذلك لِنَفْيِ كُلِّ ما يُسَبِّب الهَمَّ والقلق، فنَفى عَنْهُمُ الخوف، وهو توقُّع مكروهٍ في المُسْتَقْبَلِ، ونفى عنهم الحُزْنَ، وهو الغَمُّ على أمرٍ فاتَ.

كما ارتبط الخوفُ في القرآنِ الكريم بالطَّمع، كما في قولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: 56]، وكُلٌّ مِن الخوف والطَّمع متعلِّقانِ بالمُسْتَقْبَل، فقَد أَمَرَ اللّهُ تَعالى العبادَ بالحَذَرِ مِن عِقابِهِ، ورَجاء رَحْمَتِه وثَوابِه.

وأمّا الفزَعُ؛ فقَد وردَ في القُرآنِ الكريمِ سِتَّ مرّاتٍ، ارْتَبَطَت خَمْسَةُ مَواضِعَ بِذِكْرِ أَهْوالِ القيامة، ومِنْها آيةُ النَّمْلِ (87)، وهيَ أهوالٌ تَفوقُ ما يُعرف مِن أَهْوالِ الدُّنيا، ولا رَيْبَ أَنَّ الخَوْفَ الذي يَعْتَري النُّفوس في الآخرةِ أَشَدُّ وأَمْكَنُ في القُلوب مِن كُلِّ خَوْفٍ حاصل في الدُّنْيا.

وأمّا الموضِعُ السّادِسُ للفَزَع؛ فورد في قِصَّة داود عليه السلام، في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ﴾ [ص: 21 - 22]، حيثُ رَأى داوُد عليه السلام ما لَم يَكُنْ يَتَوَقَّعُه، وحقيقةُ الفَزَع: انْفِعالٌ يَظْهَرُ منهُ اضْطِرابٌ على صاحبِه؛ لتَوَقُّعِ شِدَّةٍ أو مُفاجأة.

وهذهِ السّياقات القرآنيَّة لِلَفْظِ الفَزَع؛ تدُلُّ على أنَّ الفَزَعَ خاصٌّ بأشَدِّ مواطِن الخَوْفِ، وما فَوْقَ المُعْتاد والمألوف مِنَ الأحداثِ والانْفِعالاتِ المُصاحبَةِ لها[1].

(1) محمد محمَّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 237 - 244.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّمل: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خُضوعُ الخَليقَةِ كُلِّها للهِ تَعالى

لمّا ذكَر اللّهُ تَعالى دُخورَ العِباد حالَ إتْيانِهم اللّهَ تعالى للقَضاء؛ ذَكَر دُخورَ ما هو أعظَمُ مِنْهُم خَلْقًا وأَهْوَل أمرًا، وهي الجبالُ، فقال سُبْحانَهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَامِدَةً﴾: (جمد) تدلُّ اشتقاقاتُها على صلابة وتَيَبُّس[2]، والجامد: ضدُّ الذّائب، والجُمدُ: مكانٌ صلبٌ مرتفعٌ، والجمع: أَجْماد وجِمادٌ، والجَمادُ: الأرض الَّتي لم يصبها مطرٌ، وناقةٌ جَمادٌ: لا لبن لها[3].

ومعنى ﴿جَامِدَةً﴾ في الآية: صلبة ثابتة، والمعنى: تحسبها في رأي العين ساكنة ثابِتَةً في أماكنها، والحال أنَّها تمرُّ مَرَّ السَّحاب[4].

2) ﴿أَتْقَنَ﴾: (تقن) تَرْجِعُ تصريفاتُها إلى مَعْنى الإحْكام[5]، يقالُ: رجل تَقِنٌ، أي: حاذق[6]، والتِّقن: هو رُسابة الماء في الرَّبيع، ويقال: تَقَّنوا أرضهم، أي: أَرْسَلوا فيها الماءَ الخاثِر؛ لِتَجود، والتِّقن: طبيعَةُ الشَّيء[7]، والإتقان: الإحكام والإصلاح، وأتقن الشَّيءَ: أحكمَهُ بما يَصْلُح له، ويُناسِبُ طبعه[8]. ومَعْنى ﴿أَتْقَنَ﴾ في الآيةِ: أَحْكَمَ، وجَوَّدَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 223.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والخليل، العين: (جمد).
(3) الجوهري، الصحاح: (جمد).
(4) حسن الجمل، معجم وتفسير لغويّ لكلمات القرآن: (جمد).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (تقن).
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (تقن).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (تقن).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تقن).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وتَرى الجِبال تَظُنُّها واقفةً مُستَقِرَّة، وهي تسيرُ سَيْرًا حثيثًا كَسَيْر السَّحاب الذي تسيِّره الرّياح، وهذا من صُنْع اللّهِ سُبحانَهُ الذي أحسَنَ كُلَّ شيءٍ خلقَهُ، وأَتْقَنَهُ، وأحكمَهُ، إنَّ اللّهَ خبيرٌ بما تَفْعَلونَ أيُّها النّاس مِن خيرٍ وشرٍّ، وسَيُجازي كُلَّ عاملٍ بعملِهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

خَـلْـقُ الجِـبالِ بَـيْنَ حـالِـها في الدُّنْيا وحالِها في الآخِرَةِ

الواوُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ عاطفة عِنْدَ جمهور العلماء[2]، وجملة: (ترى الجِبالَ) معطوفة على جملة: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، وذلك لبيان حدَثٍ آخرَ مِن أحداث الآخرة.

وجوَّز بعضُ أهلِ العلم أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ معطوفًا على قوله قبلُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، فتكون مِن قَبيلِ تَعْدادِ آياتِ اللّهِ تعالى وقُدْرَته في خَلْقِ الدُّنيا وتَدْبيرِها، والآية حينئذٍ ليسَتْ مِنْ مَشاهِدِ يوم القيامَة، بَل لذِكْرِ حَقيقَةٍ مِن حقائقِ الجِبال في الدُّنيا، وفي ذلك استدعاءٌ لأهل العِلْمِ والحِكْمَةِ؛ لِتَتَوَجَّه أنظارُهُم إلى ما في هذا الكَوْنِ مِن دقيقِ الحِكْمَةِ وبديعِ الصَّنعة[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَتَرَى﴾:

آيـــاتٌ بــاهِــرَةٌ تَـقْـتَـضي تَـجَـدُّدَ الرُّؤْيَةِ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿وَتَرَى﴾، مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾؛ للدِّلالة على تجدُّد فعل الرُّؤية للجبال؛ إذْ يُخيَّل لمَن يَراها أنَّها جامدَة مستقِرَّة؛ كلَّما عاودَ النَّظر إليها، مع أنَّها متجدِّدَةُ المرور كتجدُّد مُرور السَّحاب، وفي

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 384.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 20/ 215.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 48.

ذلك إشارة إلى باهِرِ الآياتِ الإلهيَّة وعظيم قُدْرَتِه وإتْقانِه صَنْعَتَهُ، وهذا على القول بأنَّ الآية في وصف حالٍ من أحوال الدنيا.

أمّا إذا كانت الآيةُ في وصف أحوال القيامة؛ فيكون فيها إيماءٌ إلى شِدَّة أهوالِ الآخرةِ، بحيثُ إنَّ النّاظر إلى الجبالِ مَهْما تكرَّر نظرُه إليها؛ يَظُنُّها مستقرَّة ثابتة في أماكِنها، مع أنَّ حالَها حينَها غيرُ ذلك(1).

أَسْـرارُ الـقُـرْآنِ الكَريمِ لا تَنْقَضي

تَعْيينُ المُخاطَبِ بِـ ﴿وَتَرَى﴾:

جوَّزَ بعضُ أهل العلم أن يَكون الخطابُ في ﴿وَتَرَى﴾ للنَّبيِّ ﷺ تعليمًا له لمعنًى يُدْرِكُ هو حقيقتَه، وادِّخارًا لعلماءِ أُمَّتِه الذين يأتونَ في وقْتِ ظُهور هذهِ الحَقيقَةِ الدَّقيقة، فالنَّبيُّ ﷺ أطلعَهُ اللّهُ سُبحانَهُ على هذا السِّرِّ العجيبِ في نِظام الأرض، وائْتَمَنَهُ على عِلْمِه بهذا السِّرِّ العجيب في قرآنه، ولم يأمره بتبليغه؛ إذْ لا تتعلَّق بعلمه للنّاسِ مَصْلَحَةٌ حنيئذٍ، حتّى إذا كشَفَ العلمُ عنه من نِقابِه؛ وجَد أهلُ القرآن ذلك حقًّا في كتابِه، فاسْتَلّوا سيفَ الحُجَّة به، وكان في قِرابِه(2)، وهذا على القولِ بأنَّ هذه الآية تَصِفُ حالًا مِن أحوال الدُّنْيا، وليسَت مِن أحداثِ يَوْمِ القيامَةِ.

ومَن اختارَ أنَّ هذهِ الآيَةَ مِن أحداثِ يوم القيامَةِ - وهو الأظهَرُ - جعل الخِطاب في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَتَرَى﴾ لغير معيَّن؛ ليعمَّ كلَّ مَن يرى، وجعلوا معنى هذه الآية في معنى قولهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: 47](3).

سِرُّ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿وَتَرَى﴾ دونَ (يَرَوْا):

اخْتِلافُ دَرَجاتِ ظُهـورِ الأدِلَّـةِ والآياتِ

اختلَفَ مجيءُ لفظ الرُّؤْيَةِ المُضاف إلى الجبال في بيان جُمودها

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 610.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 49 - 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 47.

ومُرورِها في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ عن لفظ (يرَوا) المضاف إلى سكون اللَّيل وإبصار النَّهار في قول اللّه سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، ويرجع سرُّ ذلك إلى أنَّ رُؤْية اللَّيل والنَّهار ممّا لا يَحْتاج إلى كبير تأمُّل؛ لتجدُّدها وظهورها لكُلِّ أحد، فصارت الغفلَةُ عَنْها محلَّ استنكارٍ، فجاء التَّعبير عَنْها بـ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، بخلاف رُؤْيَة الجبال؛ فإنَّ مرورَها أمرٌ خاصٌّ قد لا يتفطَّن له مُعْظَمُ الخَلْق، فتوجَّه السُّؤال فيه إلى الخاصَّة ممَّن بصرُهُ حديدٌ، وجاء ذلك بصيغَةِ المُضارِع المفيدة تجديدَ النَّظر، كقوله ﷻ: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ [الملك: 3].

دِلالَةُ الاسْتِعارَةِ في لَفْظِ ﴿جَامِدَةٗ﴾:

بَيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وبَديعِ صُنْعِهِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ شُبِّهَ استقرارُ الجبالِ - في رأي العين - في مكانٍ واحدٍ بالشَّيء الجامدِ بجامعِ الثَّبات في كلٍّ مِنْهُما، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التبعيَّة، وذلك لتأكيدِ ما يَظُنُّهُ الرّائي إليها مِنَ الثَّبات والاستقرارِ، ولكنَّ الواقعَ على خلافِ ما ظنَّه، وحَسِبَهُ؛ لدِقَّة خَلْقِ اللّهِ سُبْحانَهُ وبَديعِ إحْكامِهِ صُنْعَهُ، هذا إذا كانت الآيةُ في ذِكْرِ أحوال الدُّنيا، أو لبيانِ شِدَّة الأهوال التي تَعْتَري العبادَ؛ إذا كانتِ الآية في ذِكْرِ أحوالِ الآخرة، وهذا أَظْهَرُ وأبينُ، وأوفقُ للسّياق.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في قَوْلِهِ: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾:

جميعُ مخلوقاتِ الله تعالى مُتقنة الصُّنْعِ

جاء تشبيهُ الجبالِ بالسَّحابِ في مُرورِها الحثيث، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾، مع أنَّ الرّائيَ يخالُها ثابتَةً في مَكانِها، كما يَخال النّاظِرُ إلى السَّحاب الَّذي يعمُّ الأفق أنَّه مستقرٌّ، والحالُ أنَّهُ ينتقِلُ من صَوْبٍ إلى آخر انتقالًا

يسيرًا، فلا يشعُر النّاظِرُ إلّا وقَد غابَ عَنْهُ[1]، وفي هذا التَّشبيهِ كمال التَّصوير، وتقريبُ المَعْنى.

بَلاغَةُ الإدْماجِ في الآيَةِ:

مَتانَةُ الجِبالِ وضَخامَتُها لا يَمْنَعانِ تَلاشيَها يَوْمَ القيامَةِ

أُدْمِج في تشبيهِ الجبالِ بالسَّحاب ما في السَّحاب مِنَ التَّلاشي والتَّخَلْخُل في أَجْزائِه وانتفاشِها، كالوارد في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾ [القارعة: 5]، والسَّحاب كذلك مِن هذهِ الجِهَةِ كالصّوفِ المَنْفوشِ، فزاد ذلك في وصْفِ الجبال حالَ مرورها أنَّها تتلاشى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أحوال يوم القيامةِ الَّتي تتحوَّل الجبالُ فيها مِنْ حال الثَّباتِ والصَّلابة إلى حالِ التَّلاشي والزَّوالِ[2].

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

التَّأْكيدُ عَلى بَديعِ خَلْقِ اللهِ سُبْحانَهُ

فُصِل قول اللّه تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلهُ؛ لِما بينَهُما من كمالِ الاتِّصال، وذلكَ لأنَّ قولَهُ سُبْحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ جاء مؤكِّدًا لمضمون جملة: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾، بتقدير: صَنَعَ اللّهُ ذلك صنعًا، فقد صُدِّرت هذه الجملةُ بمفعولٍ مطلق ﴿صُنْعَ﴾، وفعلُه محذوفٌ، وفي هذا تمجيدٌ لهذا النِّظام العَجيب[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿صُنْعَ﴾:

إتْقانُ الخَلْقِ وإجادَتُهُ، دليلُ عظمةِ الخالقِ سبحانه

جاء التَّعبير بلَفْظ الصُّنع في قولِ اللّه تَعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، ويدلُّ هذا اللَّفظ على التَّركيب والإيجاد والإجادة[4]، فهو صنع مبنيٌّ على حكمة بديعة، وخلق متقن[5]، وفي التَّعبير بالمفعولِ المُطْلَق إشارَةٌ إلى التَّعجُّب الَّذي لا يَنْقَطِعُ إلّا بالشُّعورِ بأنَّه صُنْعُ واسِعِ العِلْمِ وخَلْقُه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 50.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 304.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 50.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 47.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305.

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾:

ما يُضافُ إلَى العَظيمِ عَظيمٌ

أُضيفَ الصُّنْعُ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾؛ لإرادة التَّعظيم، فيكون فيه زيادةُ وصفٍ للصُّنع ببيانِ كمالِه، فهذا صُنْعُ اللّهِ سُبْحانه، وما كان صُنْعًا للّه تعالى؛ كان على أتمِّ صُنْعٍ وأَحْكَمِه وأنفعِه، فإذا جَعَلَ اللّهُ ﷻ الجبالَ راسياتٍ؛ فلِكَمالِ قُدْرَتِهِ وسَعَةِ علمِه وتمامِ حِكْمَته، وإذا صيَّرَها هباءً؛ فكذلك هذا دالٌّ على القُدْرَةِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ[1].

دِلالَةُ الوَصْفِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

إتْقانُ الخَلْقِ مُؤْذِنٌ بِتَمامِ الحِكْمَةِ

جاء وصفُ اللّه ﷻ بالمَوْصول وصِلَتِه، في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾، وذلك دالٌّ على مَزيدِ الإحْكام في الصُّنْع، فالَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ كيفَ سَيَكونُ صُنْعُهُ للجبال رُسوًّا وتَسْييرًا؟ فما هذا الصُّنْعُ العجيب إلّا مماثلًا لنظائرِهِ مِنَ الصَّنائع الإلهيَّة الدَّقيقةِ الصُّنْع، وهو أدلُّ على الإتقانِ والإحكام.

وفي الوصفِ بالمَوْصولِ وصِلتِه دلالَةٌ على التَّعميم؛ تَذْييلًا لما ذكَرَهُ ﷻ من تَدْبيرِ حياةِ الإنسانِ باللَّيلِ والنَّهار، وبثباتِ الجبالِ وتَحَرُّكِها[2]، وبزوالِ نِظامِ العالَم ليَتَحوَّل إلى عالَمٍ آخَر تامِّ الإحكام، يَظْهَرُ فيه تمامُ الحِكْمَةِ من خَلْقِ الإنسانِ.

عِلَّةُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ﴾:

الإتْقانُ أَثَرٌ مِنْ آثارِ العِلْمِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ عمّا قبله؛ لكونه مُفَرَّعًا عَنْهُ ونتيجةً له، فإتقان اللّه تعالى كلَّ شيء أثَرٌ من آثار سَعَةِ عِلْمِه، فالَّذي بِعِلْمِه أتقَنَ كُلَّ شيءٍ، هو خبيرٌ بما يفعل الخلق، فليَحْذَروا أَنْ يُخالِفوا عَن أَمْرِه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 225.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 51.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 51.

دِلالَةُ تَأْكيدِ الجُمْلَةِ بِـ (إنَّ):

غَفْلَةُ المُكَذِّبينَ عَنِ اطِّلاعِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ

جاء قولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ (إنَّ)، وذلك للإيماءِ إلى غَفْلَة المكذِّبين عن اطِّلاعِ اللّهِ سبحانَهُ على أعمالِهم؛ إذ الخبيرُ هوَ العالمُ ببواطِنِ الأمورِ، أو للإشارةِ إلى عَدَمِ جَرْيِ المُكَذِّبين على وفْقِ ما يعلمونَهُ من اطِّلاعِ اللّهِ سبحانَهُ عليهم.

سِرُّ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿خَبِيرُۢ﴾:

اطِّلاعُ اللهِ تَعالى عَلى بَواطِنِ الأُمورِ كُلِّها

اختارَ النَّظْمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿خَبِيرُۢ﴾ دونَ (عليم) أو (حكيم)؛ وذلك للإشارةِ إلى كمالِ عِلْمِ اللّهِ تَعالى وسَعة اطِّلاعه ومعرفته بخَبايا الأمورِ وبواطنِها، وناسبَ ذِكْر هذا الوصفِ بعدَ ذِكْرِ صُنْعِهِ الدَّقيقِ؛ ليدلَّ على أنَّ خالقَ ذلك والقادرَ عليه هو العالمُ بما دقَّ مِن أفعالِ خَلْقِه، ويَلْزَمُ منهُ جَزاؤُهُم وحِسابُهُم.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾:

تَخْويفُ المُكَذِّبينَ بِمُجازاةِ اللهِ تَعالى لَهُمْ بِكُلِّ ما فَعَلوهُ

عبَّرت الآيةُ الكريمةُ بلفظ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ دون (تَعْمَلونَ)، والنُّكتة في ذلك هي بيانُ شمول عِلْمِهِ ﷻ بتصرُّفات الخَلْقِ، ما كان مِنْها عن قَصْدٍ، وما لَم يكُن كذلك؛ لأنَّه في سياق البيانِ لِعَمى المكذِّبين عن الآياتِ[1]، وإحاطةُ عِلْمِهِ ﷻ بكُلِّ تصرُّفاتهم تهديدٌ لهمُ ووعيدٌ بأنَّه سُبْحانَه سَيُجازيهم بأَعْمالِهِم وأفعالِهم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾:

إحاطَةُ اللهِ تَعالى بِكَيْدِ المُبْطِلينَ في مُقارَعَتِهِمُ الحَقَّ

جاء التَّعبيرُ في الآية بالفعل المضارع ﴿تَفۡعَلُونَ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، ويدلُّ على تجدُّد أفعالِهم وتعدُّدها، واللّه تعالى عالمٌ بكُلِّ ما يَفْعلونَهُ، مَهْما تعدَّد، وتجدَّد، وهي إشارة إلى ما كانوا يفعلونه من مواجهة الحقِّ عن قَصْدٍ منهم إلى مقارعتِهِ.

توجيهُ القراءات في قوله: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ وبلاغتها:

قرأ ابن كثير والبصريّان بالغيب، واختلف عن هشام وابن ذكوان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 225.

انسجام الفواصل وبراعة الالتفات

وشعبة، وقرأ الباقون بالتاء[1]، فحجة من قرأ بالياء، أنه حمله على لفظ الغيبة، في قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[2]. وقرأ الباقون بالتاء، ردّوه على الخطاب الذي قبله، في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾. فهو خطاب للنبيِّ ﷺ، وأمته داخلون معه في الخطاب، فحمل ﴿تَفْعَلُونَ﴾ على الخطاب العام، فالغُيَّب داخلون في الخطاب، لكنْ غَلَب لفظ الخطاب على لفظ الغيبة[3]. فعلى قراءة الغيبة فيه بلاغة تناغم رؤوس الآي بخطاب واحد، وعلى قراءة الخطاب فيه بلاغة الالتفات من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع تنشيطًا للسامع.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ فِي الآيَة:

تَذْكيرُ الغافِلِ وتَحْذيرُ المُكَذِّبِ

قولُ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تذييلٌ، وهو غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لاحْتياجِه إلى ما قبلَهُ في فَهْمِ تَمامِ المُراد منه، والغرَضُ من هذا التَّذييل هو تَذْكيرُ العِباد ووَعْظُهُم وتحذيرُهُم من فِعْلِ ما لا يَرْضاهُ اللّه ﷻ، فالتَّذْكيرُ للغافِلِ عنِ الحِكْمَةِ مِنَ الخَلْقِ، والوعظُ والتَّحذيرُ لِمَن كذَّبَ بالوَعيد، ووَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ مَن كانَ خَبيرًا بأَفْعالِه، سَيُجازيهِ بِها، فَلْيَحْذَروا المُخالفة[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الصُّنْع والعَمَل والفِعْل:

الصُّنْعُ أخَصُّ مِنَ العَمَلِ، والعَمَلُ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ

الصُّنْعُ في اللُّغة: عمَلُ شيءٍ بِمَهارَةٍ وحَذْقٍ وإجادَةٍ، يُقال: صنعَ فلانٌ جاريَتَهُ؛ إذا ربّاها وغَذّاها، ولا يُنسب الصُّنع إلى جمادٍ أو غير عاقلٍ.

وأمّا العمل؛ فهو في اللُّغة: كلُّ فعلٍ مقصودٍ، فهوَ أخَصُّ مِنَ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.

(2) حيث قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب ﴿ءَاتُوهُ﴾، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339.

(3) مكّي، الكشف: 2/ 169.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 51.

الفِعْلِ؛ إذِ الفِعْلُ قَد يقَعُ بغير قصدٍ، فالصُّنع في اللُّغَةِ أَخَصُّ مِنَ العمَل؛ لأَنَّ الصُّنع يكونُ فيه تجويدٌ وحَذْقٌ ومهارَة، وكُلٌّ مِنَ الصُّنع والعملِ أَخَصُّ من الفعلِ.

وقد وردَ ذِكْرُ مادَّة الصّاد والنّون والعين في القرآن الكريم، كقَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: 37]، وقولِه سُبْحانه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: 69].

وجميعُ السّياقات القُرآنيَّة التي وردت فيها هذهِ المادَّةُ تدُلُّ على مَعْنى الدِّقَّة والإحسانِ والإتّقان، وأمّا العمل؛ فقد وردَ كثيرًا جِدًّا في القرآنِ الكريم، ويدُلُّ استقراءُ مواضِعِ وُرودِهِ فيها على أنَّ العملَ يَشْمَلُ الخيرَ والشَّرَّ، وقد لا يَحْتاجُ إلى إتقانٍ ومَهارة، إلّا أنَّه لا يكونُ إلّا عَن قصدٍ مِن فاعلِه[1].

(1) محمد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 319 - 321.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النّمل: 89 - 90]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال مِنَ الإجمال إلى البيان والتّفصيل

لمّا ذَكَر تعالى في الآيات السّابقة علاماتِ السّاعةِ، وذَكَر منها قولَه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النّمل: 87]، فعمَّ بذلك الجميعَ، ثمّ استثنى منهم من أن يَفزع مَن وقع تحت مشيئته ﷻ؛ ناسبَ هنا أن يذكر المُستَثْنَين منَ الفزَع، وهم الذين جاؤوا بالحسنة، ويبيّن آثارَ الفزَع في أصحاب السّيّئات من دخول النّار بسبب أعمالهم. فهو انتقالٌ منَ الإجمال إلى البيان والتّفصيل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَعٖ﴾: (فزع) أصلٌ يدلُّ على الذُّعْر[1]، وهو انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشَّيءِ المُخيفِ[2]، والإفزاعُ: الإخافةُ[3]، وإزالةُ الخوفِ أيضًا، كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: 23][4]. والمرادُ بالفزَعِ هنا: خوفُ يوم القيامةِ[5].

2) ﴿فَكُبَّتۡ﴾: (كبّ) أصل يدلُّ على جمع وتجمُّع[6]، ومِنْ ذلكَ: الكَبُّ، وهو إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه[7]، ككَبِّ الإناءِ[8]، والكَبْكَبَةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فزع).
(2) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فزع).
(4) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبب).
(7) الرّاغب، المفردات: (كبب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (كبب).

تكريرُ الكَبِّ، قالَ تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ [الشّعراء: 94][1]. ومعنى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾: طُرِحَتْ وأُلقيَتْ على الأرضِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُحسِنُ في أمنٍ وحُبورٍ، والمُسيءُ في ويلٍ وثُبورٍ

تُبيِّنُ الآيتان الكريمتان أحوالَ النّاسِ يومَ القيامةِ، وهم ما بين جاءٍ بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ فلهُ عندَ اللهِ الثّوابُ الجزيلُ، وهم الآمنون من فزعِ الأهوالِ والمخاوفِ الّتي تكونُ في ذلكَ اليومِ العصيبِ، وما بين جاءٍ بالكفرِ والمعاصي، وهم أصحاب الفزع؛ فعاقبتُهُ أنَّهُ يُلقَى في النّارِ مُنكَّسًا على وجهِهِ بذُلٍّ واحتقارٍ؛ جزاءَ عملِهِ القبيحِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

النّاسُ يومَ الحَشْرِ آمنٌ ناجٍ، وفازعٌ هالكٌ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ ما في هذهِ الآيةِ والّتي بعدَها جوابٌ لسؤالٍ نشأَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾ [النّمل: 88]؛ كأنَّ سائلًا قالَ: ماذا يكونُ حالُ أهلِ الحَشْرِ عندَ الخبيرِ؟ فقيلَ: مِنْ إتقانِهِ للأشياءِ أنَّهُ رتَّبَ الجزاءَ أحسنَ ترتيبٍ، فقالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾[3]. أو أن يكون وقعَ جوابًا لقولِ مَنْ يسألُ: فماذا يكونُ بعدَ هذهِ القَوارعِ؟ فقيلَ: إنَّ اللّهَ خبيرٌ بعملِ العاملينَ، فيُجازيهم على أعمالِهم، وفصَّلَ المجازاةَ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾[4]، وهذا على قول جمهور المفسِّرين بأنَّ الحديث عن أحوال الجبال يكون يوم القيامة.

أو أن يكون الاستئنافُ بيانًا ناشئًا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كبب).

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 225.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 595.

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: 87]؛ لِأَنَّ الفَزَعَ مُقْتَضٍ الحَشْرَ والحُضورَ لِلْحِسابِ؛ فَكانَ مِنَ التَّخَلُّصِ والعَوْدِ إلى ما يَحْصُلُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصّورِ[1]، وهذا في جعل الحديث عن أحوال الجبال في الدُّنيا.

بلاغةُ استعمالِ اسم الشَّرط وفائدتُه:

الأمانُ في القيامة مشروطٌ بالإحسانِ في الدُّنيا

الظّاهرُ أنَّ ﴿مَن﴾ في قولِ الحقِّ : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ شرطيَّةٌ[2]، فتفيدُ أنَّ المجيءَ بالحسنةِ شرطٌ وسببٌ لنيلِ الثَّوابِ والإكرامِ تفضُّلًا منهُ جلَّ شأنُهُ، والأمنِ مِنْ أهوالِ يوم القيامةِ، وفي ذلكَ حثٌّ للعبادِ على الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، والأخذِ بأسبابِ النَّجاةِ يومَ الدّينِ. ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مَن﴾ موصولةً[3]، والموصولُ فيهِ رائحةُ الشَّرطِ.

سِرُّ اختيارِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

قيامُ الحُجَّةِ على الخَلْقِ بإقامةِ موازينِ العدْلِ

الإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[4]، فتكونُ دلالةُ ﴿جَآءَ﴾ على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[5]، ويكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ؛ لاحتمالِ استعمالِهِ باعتبارِ القَصْدِ وإنْ لم يكنْ حصولٌ، وقد عُبِّرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقامِ الثَّوابِ والعقابِ؛ لأنَّ مجيءَ المُحسنِ بالحسنةِ ومجيءَ المُسيءِ بالسَّيِّئةِ حاصلانِ يقينًا، وليسا أمرينِ عُقِدَ عليهما العَزْمُ والقصدُ فحسب، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ على الخَلْقِ، بإقامةِ موازينِ العَدْلِ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 51 - 52.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 50.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الجزاء العادلُ يستبين بالأعمال الواقعة لا المتوقّعة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷺ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقولِه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ مجيءَ المُحسِنِ بالحسنةِ الَّتي هي سببُ نَيْلِه ما هو خيرٌ منها، ومجيءَ المُسيءِ بالسَّيِّئةِ الَّتي هي سببُ هلاكِه أمرانِ مُحقَّقان ثابتانِ يومَ القيامةِ، لا شكَّ فيهما ولا ارتياب، ولذلكَ أُخبِرَ عنهما كما يُخبَرُ عنِ الأمورِ الَّتي مضَتْ وانقضَتْ؛ لأنَّ المُخبِرَ بهما هو العظيمُ سبحانَهُ، الَّذي لا خُلْفَ في إخبارِه، وليس المقصودُ هنا الإخبار عن وقوع المجيء في المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ [طه: 74]، بل بيانُ الجزاء، وهذا يتحقَّق بصيغة الماضي المُنبِئَة عنِ الوقوع الحتميّ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

كلُّ امرئٍ مقرونٌ باعتقادِه، مجازًى بعملِه

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، وقولِه: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للمصاحبةِ المجازيَّةِ، ومعناها: أنَّهُ ذو الحسنةِ أو ذو السَّيِّئةِ، والمعنى: مَنْ جاءَ يومئذٍ وهو مِنْ أصحاب الاعتقاد الحسن وفاعلي الحسنةِ، ومَنْ جاءَ وهو مِنْ أصحاب الاعتقاد الباطل وأهلِ السَّيِّئةِ، فالمجيءُ ناظرٌ إلى قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النّمل: 87][1]، ففيه تصويرٌ لحالِ المُحسِنِ وقد جاءَ يومَ القيامةِ مُلتبِسًا بالحسنةِ ومصحوبًا بها، كأنّما حملَ دليلَ النَّجاةِ والفلاحِ، ولحال المُسيءِ وقد جاءَ مُلتبِسًا بالسَّيِّئةِ ومصحوبًا بها، كأنَّما حملَ هلاكَهُ وحتفَه معَهُ.

نوعُ تعريفِ لفظ الحسنةِ ودلالتُه:

الحسنةُ يدخلُ فيها الإيمانُ والعملُ الصّالح

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الحسنةِ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ للجنسِ، وهي تشملُ الإيمانَ وغيرَهُ مِنَ الأعمالِ الصّالحاتِ[2]، بل يدخلُ فيها الإيمانُ دخولًا أوّليًّا[3]، فيكونُ مقصودًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.

قبلَ غيرِهِ؛ لأنَّهُ شرطُ قبولِ العملِ الصّالحِ. ولمّا كانتِ النَّجاةُ يومَ القيامةِ ليسَتْ مشروطةً بالمجيءِ بكلِّ الأعمالِ الصّالحاتِ فيُحمَلُ الجنسُ على أكملِ أفرادِهِ في المقامِ الخَطابيِّ، أي: مَنْ تمحَّضَتْ حالتُهُ للحسناتِ، أو كانَتْ غالبَ أحوالِه، كما يقتضيهِ قولُهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[1]. وجوّزَ أنْ يُرادَ بالحسنةِ أكملُ الحسناتِ شأنًا، وأعلاها درجةً، وهو الإيمانُ؛ لأنَّ الحسنةَ هنا لفظةٌ مفردةٌ مُعرَّفةٌ، فيكفي في تحقُّقِها حصولُ فردٍ[2]، وهذا لا دليلَ عليه، إذِ الأصل أن يدخل في لفظ الحسنةِ ما هو حَسَنٌ في خطابِ الشَّرعِ، وهو الإيمانُ والعمل الصّالح، وتخصيصُ الحسنة بالإيمان دونَ العملِ الصّالح أو العكس لا دليلَ عليه، فيكون الجنسُ المرادُ جنسَ الحُسْنِ في خطاب الشّرع.

نُكْتَةُ إفرادِ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

رُبَّ إفرادٍ أوسعُ دلالةً من جمع!.

أُفرِد ذِكْرُ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ دون أن يُقال: (الحسنات) و(السيئات) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: 114]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بالأصالة الإيمانُ والأعمالُ الصّالحة، فلو قال: (الحسنات) أو (السّيّئات)؛ لظُنَّ أنَّ المراد الأعمالُ وحدَها، فكان إفرادُ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ نصًّا في إدخال الإيمان والأعمال الصّالحة، كما أنَّ إفراد ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ نصًّا في إدخال الشّرك والأعمال الباطلة، وهو ما يُؤيِّد أنّ التّعريف للجنس.

وجهُ تأنيث ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

النَّقلُ مِنَ الوصفيَّةِ إلى الاسميَّةِ

الحسنةُ اسمٌ اعتُبِرَ مُؤنَّثًا لتأويلِهِ بالحالةِ والحادثةِ، وكذلك السَّيِّئةُ، فكلٌّ منهما في الأصلِ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، ثمَّ كَثُرَ حذفُ الموصوفِ لقلَّةِ جَدْوَى ذكرِهِ، فصارتِ الصِّفتانِ كالاسمين[3]، والتّاءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 18.

فيهما للنَّقلِ مِنَ الوصفيَّةِ للاسميَّةِ، وهو ما يُؤيِّد القول بأنَّ تعريف الحسنة للجنس؛ فيدخل فيها كلُّ ما هو حسنٌ في خطابِ الشَّرع.

نوعُ الفاءِ وبيانُ فائدتها:

شرطُ تحقيقِ الجزاءِ الأحسنِ المجيءُ بالحسنةِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ فاءُ الجواب، وهي رابطةٌ لجملةِ جوابِ الشَّرطِ بما قبلَها[1]، وفائدتُها تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ خيريَّةِ الثَّوابِ على المجيءِ بالحسنةِ، وإنْ كانَتْ ﴿مَن﴾ موصولةً فالفاءُ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ.

نوعُ اللّامِ وفائدتُها:

اســتــحــقــاقُ المُحسِنِ للثَّوابِ بإرادة الله تعالى وفضلِهِ

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ للاستحقاقِ، وفائدتُها التَّنبيهُ على أنَّ فاعلَ الحسنةِ يستحقُّ بها الخيرَ المُعَدَّ لهُ بإزائِها عندَ اللّهِ ﷻ[2]، وهو محضُ تفضُّلٍ ورحمة مِنَ اللّهِ تعالى، والإتيانُ باللّام لتقويةِ رغبةِ العبدِ في فعلِ الحسناتِ، بإظهارِ خيريَّةِ الثَّوابِ مِنَ اللّهِ تعالى بصورةِ الأمرِ المُستحَقِّ.

نُكتةُ تقديمِ متعلّق الخبر:

المحسنُ متطلِّعٌ إلى نيلِ الأجر، فـتـأخيرُ ذكـره تشويقٌ وعناية

قُدِّم متعلّق الخبر (المسند) ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿خَيۡرٞ﴾؛ للاهتمامِ به والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وذلكَ أنَّ تقديمَ ﴿فَلَهُۥ﴾ يفيدُ أنَّ الجائي بالحسنةِ يستحقُّ ثوابًا ما، وفي هذا تشويقٌ للسّامعِ لمعرفةِ الثَّوابِ، فإذا جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ تمكَّنَ في نفسِهِ غايةَ التَّمكُّنِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّرغيبِ بفعلِ الحسناتِ، مع إفادةِ التَّخصيص، على معنى أنَّ الثَّوابَ الأفضلَ خاصٌّ بمَنْ جاءَ بالحسنةِ، لا يتجاوزُهُ إلى غيرِهِ.

صيغةُ ﴿خَيۡرٞ﴾ بينَ التَّفضيلِ والمبالغة:

يحتملُ لفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أنْ يكونَ

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 266.

(2) التّهانوي، بيانُ القرآن: 2/ 1509.

احتمال الصّيغة لأكثر من معنى، دليلُ الاتّساع في الدّلالة وتكثير المعاني

اسمَ تفضيلٍ، و(مِنْ) هي التَّفضيليَّةُ الدّاخلةُ على المُفضَّلِ عليه، ووجهُ الخيريَّةِ: مضاعفةُ الحسناتِ، وأنَّ العملَ يتقضَّى والثَّوابَ يدومُ[1]، وأنَّ الحسنةَ مِنْ فعلِ العبدِ، والجزاءَ عليها مِنْ عطاءِ اللّهِ، وفعلُ اللّهِ أشرفُ مِنْ فعلِ العبدِ[2]، وفي هذهِ الخيريَّةِ بيانٌ لسَعَةِ فضلِ اللّهِ تعالى وكرمِهِ، حيثُ يُجازي بالكثيرِ على القليلِ، وترغيبٌ للعبدِ في فعلِ الحسناتِ؛ إطماعًا بهذهِ الخيريَّةِ. ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿خَيۡرٞ﴾ ليسَ للتَّفضيلِ، بل هو صفةٌ مُشبَّهةٌ[3].

نوعُ (من) ودلالتُها:

احتمالُ معاني الحروفِ عائدٌ إلى تعيين المراد من معاني الألفاظ

على القولِ بأنَّ ﴿خَيۡرٞ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فإنَّ (من) تكون الدّاخلة على المفضَّلِ عليه، وعلى القول بأنَّ ﴿خَيۡرٞ﴾ صفةٌ مشبَّهة؛ فإنَّ حرف (مِنْ) يحتملُ أن يكونَ لابتداءِ الغايةِ، وليسَتْ هي الدّاخلةَ على المُفضَّلِ عليهِ، أي: فلَهُ خيرٌ حاصلٌ مِنْ جهتِها، مَبْدؤُهُ ونَشْؤُهُ منها، وهذا الخيرُ هو الجنَّةُ[4]، ويحتملُ أنْ تكونَ (مِنْ) للسَّببيَّةِ، أي: هذا الخيرُ الَّذي يكونُ لهُ بسببِ حسنتِهِ[5]، وفي ذلكَ إيناسٌ للعبدِ وشدٌّ لعَضُدِهِ في فعلِ الخيرِ، ببيانِ ما يتسبَّبُ عن حسناتِهِ مِنَ الجزاءِ العظيمِ بفضلِ اللّهِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

طمأنينةُ القلوبِ مهمازُ العملِ ومُرتكزُ الأمل

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الخيريَّةَ الَّتي يستحقُّها الجائي بالحسنةِ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، ولا تبديلَ لهُ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى قد قضَى بهِ وحكمَ في الأزلِ، ولا مُبدِّلَ لكلماتِ اللّهِ، وفي ذلكَ تحريكٌ للعبدِ للإقبالِ على الطّاعاتِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 274.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 273، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 624.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

فضلُ اللهِ يَلْحَقُ المحسنين بالثّوابِ المبين والأمن المكين

الواوُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، ونُكتةُ هذا العطفِ: بيانُ أنَّهُ قد رُتِّبَ على مجيءِ المُكلَّفِ بالحسنةِ شيئانِ؛ أحدُهما: أنَّهُ لهُ خيرٌ منها. والثّاني: الأمنُ مِنَ الفزَعِ يومَ القيامةِ[1]، ولا رِبْحَ فوقَ رِبْحِ مَنْ أَمِنَ مِنَ الخوفِ، ونالَ أفضلَ الثّوابِ، وفي ذلكَ استثارةٌ لرياحِ الإقبالِ على الإيمانِ والعملِ الصّالحِ. وتحتمل أن تكون الواو استئنافيَّةً[2]، أو حاليَّةً[3]، أي: هم يُحصّلون الخيرَ في الآخرة حالَ كونِهم آمنين مِنَ الفزَعِ الذي يَعمُّ الخلائق كلَّها.

توجيهُ الانتقالِ مِنَ المفردِ إلى الجمعِ:

مراعاةُ اللّفظِ والمعنى ميزانُ النَّظمِ بمعيارِ السّياقِ

الضّميرُ في ﴿فَلَهُۥ﴾ يعودُ على ﴿مَن﴾؛ مراعاةً للَّفظِ الإفراديِّ فيها، والضَّميرُ في ﴿وَهُم﴾ يعودُ عليها أيضًا؛ مراعاةً للمعنى الجمعيِّ فيها؛ لأنَّها مِنْ ألفاظِ العمومِ[4]، ولو روعيَ اللَّفظُ دونَ المعنى لقيلَ: (وهو مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنٌ)، ولو روعيَ المعنى دون اللفظ لقيلَ: (فلهُم خَيْرٌ منها)، ولكنْ جرَتْ عادةُ القرآنِ الكريم بمراعاتِهما معًا، وجرَتِ العادةُ أيضًا بمراعاةِ اللَّفظِ أوَّلًا، والمعنى ثانيًا؛ إذِ اللَّفظُ في الخارجِ قبلَ المعنى، وكذا الواحدُ قبلَ الجمعِ، ولو عُكِسَ لجازَ[5]، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ مراعاةَ المعنى ينبني عليها جمعُ ﴿ءَامِنُونَ﴾، وبهِ يكونُ تلاؤمُ الفواصلِ، وذلك إنّما يكون بميزان النَّظم ومعياريَّة المعنى السّياقيّ.

دلالةُ تعديةِ الأمنِ بـ ﴿مِّن﴾:

تضمينُ الأمنِ معنى النَّجاةِ

فعلُ (أَمِنَ) ومشتقّاتِه يُعدَّى بالجارِّ، كما في قولِه تعالى هنا:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 274.
(2) دعّاس، إعراب القرآن: 2/ 418.
(3) صافي، الجدول: 20/ 215.
(4) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 417.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، ويُعدَّى بنفسِه، كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: 99][1]، وتعديتُهُ بالجارِّ لتضمُّنِه معنى النَّجاةِ[2]، أي: وهُم مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنونَ ناجونَ، فأفادَ التَّضمينُ بيانَ اقترانِ أَمْنِهم بالنَّجاةِ، وأسلوبُ التَّضمينِ مِنْ أساليبِ الإيجازِ في القرآنِ الكريمِ، وفيهِ تكثيرٌ للمعاني معَ قلَّةِ الألفاظِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿فَزَعٍ﴾:

نـفـيُ الـفَـزَعِ يستلزم نفيَ ما دونَـه من أنـواعِ الخوف

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الفَزَعِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ شدَّةِ الخوفِ المصحوبِ بالنِّفارِ والانقباضِ، والقلقِ والاضطرابِ الشَّديدين، وهو أنسبُ بمقامِ بيانِ العاقبةِ الحسنةِ للمُحسِنِ؛ إذ يكونُ آمنًا مُطمئنًّا معَ شدَّةِ وقْعِ الأهوالِ على القلوبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ سببُ الأمانِ والنَّجاةِ، وأنَّ عبادَ اللهِ الصّالحينَ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ، فيا لَخسارةَ مَنْ رَغِبَ عن الإيمانِ، ولم يعملْ صالحًا! ووجه بلاغة هذه المفردة في كونها تنفي الفزعَ الأكبر، والخوفَ الأعظم عن قلوب المؤمنين، فدلَّ ذلك على أنَّها تنفي ما دونه من الخوف والقلق والاضطراب، فنفيُ الأعظمِ يستلزم نفيَ الأصغر.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

كلُّ فزعٍ يتصوّره المخاطَبُ فمَنفيٌّ وقـوعُـه عـنِ المؤمنين

قرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ﴾ بتنوين ﴿فَزَعٍ﴾ وفتحِ ميم ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، وقرأَ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿فَزَعِ يَوۡمَئِذٍ﴾ بالإضافةِ وفتحِ ميمِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، وقرأَ الباقونَ: ﴿فَزَعِ يَوۡمِئِذٍ﴾ بالإضافةِ وكسرِ ميم ﴿يَوۡمِئِذٍ﴾[3].

ومِنَ العلماءِ مَنْ فرَّقَ بينَ القراءتينِ في المعنى، فذكرَ أنَّ قراءةَ الإضافةِ تفيدُ الأمنَ مِنْ جميعِ أفزاعِ ذلكَ اليومِ، وقراءةَ التَّنوينِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 340.

تفيدُ الأمنَ مِنْ فَزَعٍ دونَ فَزَعٍ[1]. ومنهم مَنْ جعلَ القراءتينِ بمعنًى، وذلكَ يتأتَّى مِنْ وجوهٍ؛ **منها:** أنْ يُحملَ التَّنوينُ على الكثرةِ؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ صالحٌ للكثرةِ، فتكونُ القراءتانِ بمعنًى[2]. **ومنها:** أنَّ المُرادَ بالفزَعِ على قراءةِ الإضافةِ هو الفَزَعُ المذكورُ في قراءةِ التَّنوينِ - وهو الفَزَعُ الحاصلُ مِنْ مشاهدةِ العذابِ بعدَ تمامِ المحاسبةِ وظهورِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وهو الَّذي ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103] - لا جميعُ الأفزاعِ الحاصلةِ يومئذٍ، ومدارُ الإضافةِ كونُهُ أعظمَ الأفزاعِ وأكبرَها، كأنَّ ما عداهُ ليسَ بفَزَعٍ بالنِّسبةِ إليهِ[3]. **ومنها:** أنَّ المرادَ الفَزَعُ المذكورُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النّمل: 87]، فلمّا كانَ مُعيَّنًا استوى تعريفُهُ وتنكيرُهُ، فاتَّحدتِ القراءتانِ معنًى؛ لأنَّ إضافةَ المصدرِ وتنكيرَهُ سواءٌ في عدمِ إفادةِ العمومِ، فتعيَّنَ أنَّهُ فَزَعٌ واحدٌ[4].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿فَزَعٍ﴾:

أهوالُ القيامةِ على شدَّتها، المؤمنُ آمنٌ من فزعِها الأكبر

التَّنوينُ على قراءةِ مَنْ قرأَ: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ يحتملُ معنيينِ؛ **أحدُهما:** مِنْ فَزَعٍ واحدٍ، وهو خوفُ العقابِ، وأمّا ما يلحقُ الإنسانَ مِنَ الرُّعبِ لِما يَرى مِنْ أهوالِ القيامةِ فلا يخلو منهُ؛ لأنَّ البشريَّةَ تقتضي ذلكَ[5]، والتَّنكيرُ على هذا للوَحْدةِ[6]، أو للتَّقليلِ[7]. **والآخرُ:** مِنْ فَزَعٍ شديدٍ مُفرِطِ الشِّدَّةِ، لا يكتنهُهُ الوصفُ، وهو خوفُ النّارِ[8]، والتَّنكيرُ على هذا للتَّهويلِ والتَّعظيمِ[9].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598.
(7) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.

بلاغةُ التّعريف بالإضافةِ:

كثرةُ التَّقديرات مع الإيجاز مفصحٌ عن سعةِ الدّلالات

في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، لفظُ (يَوْمَ) مُعَرَّفٌ بِالإضافةِ إلَى (إذْ)، و(إذْ) مُضافةٌ إلَى جُمْلَتِها المُعَوِّضِ عَنْها تَنْوينُ العِوَضِ، والتَّقْديرُ: مِنْ فَزَعِ يَوْمَ إذْ يَأْتون رَبَّهُمْ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقديرُ: يومَ إذ تَرَى الجبالَ[2]، أو: يومَ إذ وقعَتْ هذهِ الأهوالُ[3]، أو: يومَ إذ يُنفَخُ في الصّورِ[4]، والأحسنُ أنْ تُقدَّرَ: يومَ إذ جاءَ بالحسنةِ؛ لقُرْبِ ما قُدِّرَ منهُ، وأيًّا ما كانَ التَّقديرُ فالكلامُ مِنْ قبيلِ الإيجازِ بحذفِ جملةٍ، والدّاعي إلى الحذفِ في مِثلِهِ الاختصارُ والتَّخفيفُ؛ لكثرةِ دَوَرانِ مثلِ هذهِ الظُّروفِ على الألسنةِ.

غرضُ تقديمِ ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾:

رجاءُ المؤمن يومَ القيامةِ في حصولِ الأمنِ وتحقيقِ النَّجاة

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بقولِهِ تعالى: ﴿ءَامِنُونَ﴾[5]، أو صفةٌ لـ ﴿فَزَعٖ﴾ بتقديرِ: كائنٍ في ذلكَ الوقتِ[6]، و﴿مِّن فَزَعٖ﴾ يتعلَّقُ بقولِهِ: ﴿ءَامِنُونَ﴾[7]، وتقديمُ ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ على ﴿ءَامِنُونَ﴾ معَ أنَّ أصلَهما التَّأخيرُ عن عاملِهما؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ[8]، وهو كونُ الفَزَعِ الَّذي يأمَنُ منهُ المُحسِنُ حاصلًا يومَ القيامةِ الَّذي يجعلُ الوِلْدانَ شيبًا، وتعجيلِ المَسَرَّةِ بِثمارِ المجيءِ بالحسنةِ، وفي التَّأخيرِ أيضًا؛ مراعاةٌ لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ[9]. وإنَّما لم يُقدَّما على المسندِ إليهِ، فلم يُقَلْ: (ومِنْ فَزَعٍ يومئذٍ هم آمِنونَ)؛ للمسارعةِ إلى بيانِ أنَّ المُحسِنينَ هم الآمِنونَ دون غيرِهم، ففيه اختصاصُهم بنفيِ الفَزَعِ عنهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 646، واطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.

(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.

(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.

(8) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.

(9) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

عَراقةُ المُحسِنينَ في الأمنِ منَ المُدْلَهِمّات

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المُحسِنينَ راسخونَ في الأمنِ يومَ القيامةِ، عَريقونَ فيهِ، وهو بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الثّابتةِ الَّتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، وهؤلاءِ هم المُستَثْنَون من قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النّمل: 87]، وهم الَّذينَ كانوا أهلَ الحسناتِ، أي: تمحَّضوا لها، أو غلبَتْ على سيِّئاتِهم غلَبةً عظيمةً، بحيثُ كانَتْ سيِّئاتُهم مِنَ النَّوعِ المغفورِ بالحسناتِ، أو بالتَّوبةِ وردِّ المظالمِ[1].

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

فزعُ الثَّقلينِ أمنُ المُحسِنينَ

في الجمعِ بينَ لفظَي الفَزَعِ والأمنِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ فنٌّ بديعيٌّ، وهو الطِّباقُ، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وهو هنا يُري القارئَ صورتينِ متقابلتينِ؛ إحداهما تفيضُ بفَزَعٍ عظيمٍ هائلٍ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، قد أخذَ بمجامعِ قلوبِ النّاسِ وتراقي صدورِهم. والأُخرى فيها أمنٌ راسخٌ مُطمئِنٌّ يَغْمُرُ قلوبَ المُحسِنينَ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

أمانُ المُحسِنينَ ثابتٌ ثبوتَ الجبالِ الرَّواسي

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كونَ المُحسِنينَ آمنينَ مِنْ فَزَعِ يومِ القيامةِ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، لا شكَّ في ثبوتِهِ ولا ارتيابَ، ولا تغييرَ لهُ ولا تبديلَ، وذلكَ يزرعُ اليقينَ والطُّمأنينةَ في نفوسِ المُحسِنينَ، ويُهَوِّنُ عليهِم شدائدَ ذلكَ اليومِ العظيمِ، وفي الاسميَّةِ ملاءمةٌ بينَ هذهِ الجملةِ وبينَ نظيرتِها في جوابِ الشَّرطِ، وهي قولُهُ سبحانَهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.

مدحُ المحسنين يستبينُ ببيانِ عاقبة المسيئين

عِلَّةُ الوصلِ وبلاغتُه:

عُطِفَتْ جملةُ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ على جملةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التّوسُّطِ بينَ الكمالين - أي: كمالِ الانقطاعِ وكمالِ الاتِّصالِ - معَ وجودِ جامعٍ بينَهما، أمّا التَّوسُّطُ بينَ الكمالين: فلاتِّفاقِ الجُملتينِ في كونِهما خبريَّتينِ لفظًا ومعنًى، وأمّا الجامعُ: فهو التَّضادُّ بينَ مضمونِ الجملتينِ؛ فإحداهما: بيانٌ لجزاءِ المُحسِنِ، والأخرى: بيانٌ لجزاءِ المُسيءِ، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ بذِكْرِ التَّرهيبِ بعدَ التَّرغيبِ، وعكسِه، والتَّضادُّ عنوانٌ جامعٌ يجمعُ بينَ الشَّيئينِ؛ لأنَّ الضِّدَّ أقربُ خُطورًا بالبالِ معَ الضِّدِّ.

بيانُ سببِ العقابِ عدلٌ وتحذير

فائدةُ استعمال (مَنْ) الشَّرطيّة:

الظّاهرُ أنَّ (مَنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ شرطيَّةٌ، فتفيدُ أنَّ المجيءَ بالسَّيِّئةِ سببٌ لكبِّ وجوهِ المُسيئينَ في النّارِ، وفي ذلكَ زَجْرٌ لهُم، وحثٌّ لهُم على الإقلاعِ عمّا هم عليهِ مِنَ الكفرِ والمعاصي؛ لئلّا يُلاقوا هذا المصيرَ الأليمَ. ويحتملُ أنْ تكونَ (مَنْ) موصولةً[1]، والموصولُ فيهِ رائحةُ الشَّرطِ.

صاحبُ السَّيِّئةِ الكُبرى مشركٌ باللهِ مُسرِفٌ على نفسِهِ

معنى تعريفِ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ السَّيِّئةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للجنسِ الشّاملِ للكفرِ وغيرِهِ مِنَ المعاصي[2]، ويُحمَلُ الجنسُ في المقامِ الخَطابيِّ على مَنْ كانَتْ حالتُهُ مُتمحِّضةً للسَّيِّئاتِ، أو كانتِ السَّيِّئاتُ غالبةً عليه[3]، أو يقالُ: عُصاةُ المؤمنينَ داخلونَ في الشِّقِّ الثّاني بالنَّظرِ إلى أوَّلِ حالِهم، وفي الشِّقِّ الأوَّلِ باعتبارِ الانتهاءِ؛ لأنَّهم جمعوا بينَ المجيءِ بالحسنةِ - وهي الإيمانُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.

- والسَّيِّئةِ - وهي المعاصي -، أو حالُهم مسكوتٌ عنها كما هو في أكثرِ المواضعِ[1].

وجوِّزَ أنْ يُرادَ بالسَّيِّئةِ أقبحُ السَّيِّئاتِ وأشنعُها، وهو الشِّركُ[2]، ووجهُ التَّخصيصِ قولُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، فهذا الجزاءُ لا يكونُ إلّا بمثلِ سيِّئةِ الشِّركِ[3]، ولو أُريدَ العمومُ لكانَ الظّاهرُ التَّنكيرَ[4].

براعةُ التَّعبيرِ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

مآلُ السَّيِّئةِ هَمٌّ في الدُّنيا وغَمٌّ لصاحبِها في الآخرة

السَّيِّئةُ في الأصلِ: الفَعْلَةُ القبيحةُ[5]، وهي صفةٌ مُشبَّهةٌ مِنْ (ساءَهُ يَسوؤهُ)، إذا فعلَ بهِ ما يكرهُهُ، نقيضُ (سرَّهُ)[6]، والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ[7]، وقد عُبِّرَ بالسَّيِّئةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الشِّركَ وغيرَهُ مِنَ المعاصي ممّا يَسوءُ صاحبَهُ، ويُلحِقُ بهِ الأذى والغَمَّ يومَ القيامةِ؛ إذ يجعلُهُ عُرْضةً لغضبِ اللّهِ وسَخَطِهِ، وفي ذلكَ مُلاءَمةٌ لمقامِ الوعيدِ، والحثِّ على هَجْرِ الشِّركِ والآثامِ، وتنبيهٌ على سببِ تسميةِ السّيِّئةِ بواقعِها في الدُّنيا، ومآلِها على صاحبِها في الآخرةِ.

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

عند اختلافِ القلوبِ تتنافرُ الطُّرقُ ويتباين المسير

في الجمعِ بينَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ رِعايةٌ للطِّباقِ بينَهما، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وبلاغتُهُ هنا تكمنُ في أنَّ الكلامَ يرسُمُ أمامَ القارئِ طريقينِ متقابلينِ، أحدُهما يسيرُ فيهِ المُحسِنُ، وعاقبتُهُ الثَّوابُ الجزيلُ والأمنُ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ، والآخرُ يسيرُ فيهِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سوء).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوء).

المُسيءُ، وعاقبتُهُ الكَبُّ في النّارِ معَ الصَّغارِ والذُّلِّ، والعاقلُ الفَطِنُ إذا تأمَّلَ في العاقبتينِ يختارُ لنفسِهِ ما فيهِ نَجاتُهُ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الكَبُّ في النّارِ جزاءُ المجيءِ بالسَّيِّئةِ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فاءُ الجوابِ، وهي رابطةٌ لجملةِ جوابِ الشَّرطِ بما قبلَها، وفائدتُها: تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ الكَبِّ في النّارِ على المجيءِ بالسَّيِّئةِ ترتُّبًا سريعًا لا انفكاكَ فيهِ ولا تَواني. وإنْ كانَتْ (مَنْ) موصولةً فالفاءُ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ. ويحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ عطفًا على جوابٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: لم يُعْذَروا، أو انقطعَتْ حُجَّتُهم[1]، أو (فله عقوبتها)؛ لتصِحَّ المقابلةُ مع الجملةِ السّابقةِ، وتكون جملة ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ عطفًا على إثباتِ العقوبةِ بسببِ السَّيِّئاتِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الكَبِّ:

المكبوبُ على وجهِهِ ذليلٌ صاغرٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بمفردةِ الكَبِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، دونَ الإلقاءِ ونحوِهِ؛ لِما تُشيرُ إليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ أنَّهم قد أُلْقوا بعُنْفٍ وشدَّةٍ[2]، حتَّى صارَتْ وجوهُهم ممّا يَلي النّارَ، فيُباشِرُها الإحراقُ[3]، ولأنَّ هذهِ الكلمةَ تدلُّ على أنَّ جزاءَهم يتلاءمُ معَ جُرْمِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ المكبوبَ منكوسٌ، وهم قد نَكَسوا أعمالَهم في الدُّنيا، وعكَسوها بعبادةِ غيرِ اللّٰهِ، فوضَعوا الشَّيءَ في غيرِ موضعِهِ، فعظَّموا ما حقُّهُ التَّحقيرُ، واستهانوا بأمرِ اللّٰهِ[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

كبُّهم في النّارِ واقعٌ، ما لَهُ مِنْ دافعٍ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي

(1) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 347.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10861.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.

﴿ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ الخبرَ عن أمرٍ غيبيٍّ متعلِّقٍ بمجيء صاحب السَّيِّئة بها، والشَّرط ﴿وَمَن جَآءَ﴾ يتضمّن المستقبل، فهو إخبارٌ عنِ المستقبلِ باعتبارِ ما سيقع فيه، والإخبارُ عن كبِّ الوجوه في النّار مندرجٌ في هذا الخبر، وفائدته تصوير المشهد الغيبيّ كأنَّه وقع؛ ليستقرَّ ترهيبُه في النُّفوس، ويعظُمَ شأنُه في القلوب، والقرآنُ الكريمُ يَعْرِضُ كثيرًا مِنْ مشاهدِ القيامةِ في صوَرِ الماضي، وكأنَّها أحداثٌ قد وقعَتْ، وذلكَ ليُؤَكِّدَ كينونتَها، ولأنَّ زمنَ الدُّنيا في حسابِ الحقِّ كأنَّهُ زمنٌ قدِ انتهَى؛ ليواجِهَ بهذا الأسلوبِ الحاسمِ دواعيَ الانصرافِ عن أمرِ القيامةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول:

الكَبُّ في النّارِ عذابٌ منتَظَرٌ خاطفٌ سريعٌ

جيءَ بصيغةِ البناءِ للمفعولِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ دون بناء الفعل للفاعل؛ فلم يقل: (فكبَّ اللّه وجوهَهم)؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ الحركةِ الخاطفةِ السَّريعةِ الَّتي فَجَأَتْهم، فلم يَدْرُوا مِنْ أينَ أتَتْ، ثمَّ إنَّ المجهولَ في هذا الموقفِ المُخيفِ يُثيرُ خيالاتٍ كثيرةً[2]، واحتمالاتٍ مُتعدِّدةً تزيدُ الموقفَ هَوْلًا ورُعْبًا، فلأجل ذلك لم يُذكر الفاعل؛ لتسليطِ الضّوءِ على كبِّ الوجوه، معَ التَّنبيه على سُرعةِ ذلك؛ فكأنَّ فاعلَ الكبِّ ينتظرُ مجيئَهم بفارغ الصَّبر، فبِمُجرَّد المجيءِ حصلَ الكَبُّ.

توجيهُ تخصيصِ الوجوهِ بالذّكر:

احتمالُ الكلامِ المجازَ العقليَّ واللُّغويَّ والكناية

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ أنْ يكونَ معناهُ: فكُبّوا فيها على وجوهِهم منكوسينَ[3]، وعلى هذا؛ فإسنادُ الكَبِّ إلى الوجوهِ مجازٌ عقليٌّ[4]، وتخصيصُ الوجوهِ مِنْ بينِ سائرِ الأعضاءِ؛ لأنَّهُ إذا كُبَّتِ الوجوهُ فسائرُ البدنِ أدخلُ في النّارِ؛ فالوجوهُ أوَّلُ ما

(1) محمد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 266.
(2) محمد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 266.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

يُقلَبُ إلى الأرضِ عندَ الكَبِّ[1]، ولأنَّ الوجهَ موضعُ الشَّرفِ والحواسِّ[2]، وموضعُ العِزَّةِ والشُّموخِ، واللّهُ ﷻ يريدُ لهُم الذِّلَّةَ والمَهانةَ[3].

ويحتملُ أنْ يُرادَ بالوجوهِ أنفسُهم، عُبِّرَ بالوجهِ عن جُملةِ الإنسانِ، كما يُعبَّرُ عنها بالرَّأسِ والرَّقبةِ[4]، أي: فكُبَّتْ أنفسُهم في النّارِ[5]، وعلى هذا فالوجوهُ مجازٌ لغويٌّ مُرسَلٌ[6]، أُطلِقَ الجُزءُ وأُريدَ الكلُّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ كنايةً عن طَرْحِهم في النّارِ[7]؛ لِما بينَ الكَبِّ على الوجهِ والطَّرْحِ مِنَ اللُّزومِ، واختيارُ الوجوه باعتبارِها أشرف أعضاء البدن، وهي أعزُّ ما يملكه الإنسان، وهي التي أعرض بها عن ذِكْرِ اللّه تعالى، وجادل وخاصم بها، فكان كبُّها مناسبًا لعملها، ويلزم عن كبِّها كَبُّ بقيّتِها.

كـثرةُ المُعـذَّبينَ أمـــارةُ كـثرة الغافلين

سِرُّ التَّعبيرِ بالوجوهِ دونَ الأوجهِ:

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ صيغة جمع الكثرة (الوجوه) في قولِه تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، ولم يُقَلْ: (أوجهُهم) وهو جمعُ قِلَّةٍ، وجمعُ الكثرةِ أنسبُ بما يدلُّ عليهِ المقامُ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ، والخوفِ والهَلَعِ الشَّديدَينِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على كثرةِ المُعذَّبينَ، وأنَّهم معَ كثرتِهم يُلقَوْنَ في النّارِ بيُسْرٍ وسهولةٍ مِنْ ملائكةِ العذابِ، ولا يُغني عنهُم اجتماعُهم وكثرتُهم شيئًا، وهذا دالٌّ على كثرة الغَفلةِ في النّاس، وأنَّهم لا يستجيبون إلى أوامر الشّرع.

المُـجـرِمـونَ مُـنغـمِـسونَ في الـنّـارِ تُحيطهم من كلِّ مكان

معنى حرفِ الظَّرفيَّة:

جيءَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه جلَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10861.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 247.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 275.

شأنُهُ: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ النّارَ قد أحاطَتْ بالمُعذَّبينَ مِنْ كلِّ جانبٍ، وأنَّ لهُم منها مِهادًا، ومِنْ فوقِهم غَواشٍ تغشاهُم وتُغطّيهم، وتشتملُ عليهم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، فلا يبقَى جزءٌ منهُم سالمًا مِنْ حرِّها ولهيبِها وإحراقِها، ولا مَطْمَعَ لهُم في الخلاصِ منها، وفي ذلكَ مِنَ الشِّدَّةِ والهَوْلِ ما تضيقُ عنهُ العبارةُ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

المعنى العهديُّ يكتسب دلالتَه منَ الاستعمال السّياقيّ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ مُعرَّفًا بلامِ العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارُ جهنَّمَ، وهي معروفةٌ معهودةٌ؛ لأنَّ هذهِ السّورَةَ مكّيَّةٌ[1]، وقد سبقَتْها سوَرٌ مكّيَّةٌ كثيرةٌ فيها ذكرُ النّارِ، فلا جَرَمَ أنَّ النّاسَ قد سَمِعوها وعَرَفوها، فكانَ مُقتضَى ذلكَ أنْ تَرِدَ هنا مُعرَّفةً بلامِ العهدِ؛ إشارةً إلى أنَّها النّارُ الَّتي قَرَعَ ذكرُها أسماعَهم في السّوَرِ المُتقدِّمِ نزولُها على نزولِ هذهِ السّورةِ؛ ففيه إضافةُ معنًى دلاليّ في لغةِ العربِ، اكتسب خصوصيَّتَه منَ الوحيِ القرآنيّ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ النّارِ دونَ جهنّم:

النّارُ اسمُ دار العذابِ واسمُ العذابِ

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ اسمُ النّارِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ؛ وهو أشهرُ أسمائِها، وأكثرُها استعمالًا، وذلك لأنَّ الكبَّ على الوجوه سيكون في النّار الحامية، ولو قال: (في جهنم) لأفاد الإخبار عن دخولِها، أمّا هنا فهو إخبار عن دخولِها، وشَيِّ الوجوهِ في نارِها، فالنّار ناران، النّار التي هي اسمُ دارِ العذاب، والنّار المصطلية، وفي التَّعبيرِ بِهِ هنا لطيفةٌ، وهي أنَّهُ قد وقعَ في مقابلةِ النّارِ الَّتي ذُكِرَتْ في أوَّلِ السّورةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 215.

﴿وَمَن حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨﴾ [النّمل: 7 - 8]، وهي نارٌ دنيويَّةٌ كانَ فيها خيرٌ عظيمٌ وتكليفٌ لموسى عليه السلام بالنُّبوَّة، فأفادَ الكلامُ في الموضعينِ إشارةً لطيفةً، وهي أنَّ مَنْ لم ينتفعْ بالهدايةِ الَّتي اقترنَتْ بالنّارِ في فاتحةِ السّورةِ، سيُلقَى في النّارِ التي هي محلُّ الوَيْلِ والثُّبورِ والهلاكِ في آخِرِ السّورة.

بلاغةُ الخطابِ بينَ الحذفِ والالتفاتِ:

المــشــركــون مُــعــذَّبــونَ في الدّنيا خطابًا وفي النّار اكتواءً

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (هل يُجْزَوْنَ إلّا ما كانوا يعملونَ)، لكن عُدِلَ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: إمّا على سبيلِ حكايةِ ما يقالُ لهُم عندَ الكَبِّ في النّارِ بإضمارِ القولِ، أي: يُقالُ لهُم: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾ الآية[1]، وهذا على جهةِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ[2] لأهلِ النّارِ وهم فيها، وما أشَدَّ أن يُقال للمُعَذَّبِ مثلُ هذا الخطاب. وإمّا على سبيلِ الالتفاتِ[3] مِنَ الغَيبةِ إلى خطابِ المشركينَ الَّذينَ يسمعونَ القرآنَ[4]، ونُكْتَةُ الالتفاتِ مزيدُ التَّشديدِ والعتابِ بالخطابِ[5]، وذلك بتنزيلهم منزلةَ مَن دخل النّار، لإشعارِهم بجِديّة الأمر، وأنَّه ليس بالهزل، بل هو أمرٌ جدٌّ لا ريبَ فيه ولا قلق.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

الاستفهامُ دعوةٌ للعقولِ ومهمازٌ للقلوبِ للبحثِ عــن أســبــاب النَّجاة

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في معنى النَّفي، بقرينةِ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾، فيكونُ الاستفهامُ مجازيًّا لا حقيقيًّا، وأصلُ ذلكَ: أنَّهُ استفهامٌ عنِ النَّفي لقصدِ التَّقريرِ بالنَّفيِ، والتَّقديرُ: (لا تُجْزَوْنَ إلّا ما كنتم تعملونَ)، فلمّا اقترنَ بهِ الاستثناءُ حُذِفَ النّافي، وأُشرِبَ حرفُ الاستفهامِ معنى النَّفي؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 510، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 624.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

اعتمادًا على القرينةِ، فصارَ مُفادُ الكلامِ نفيًا، وانسلخَتْ ﴿هَلۡ﴾ عنِ الاستفهامِ، فصارَتْ مُفيدةً للنَّفيِ[1]، ووجهُ بلاغةِ الاستفهامِ أنَّه قَصْرٌ للجزاءِ على سببِ أعمالِهم، وفيه تأنيبٌ وتوبيخٌ شديدَين، واختير الاستفهامُ دون أداة النَّفيِ الصَّريح؛ لإشرابه معنى التّأمّل في المصير، فإنَّ المخاطَبين في الدُّنيا عندما يسمعون هذا الخطاب، تتسارع إلى أذهانهم الإجاباتُ عن هذا السُّؤال، وهو المُراد في زرع الهداية في القلوب، بعد تحريك العقول.

نُكْتَةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

مَناطُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ الجزاءُ لا فاعلُهُ

جيءَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لعدم تعلُّقِ الغرضِ بذكرِ الفاعلِ؛ لأنَّ المُرغِّبَ والمُرهِّبَ هو الجزاءُ نفسُهُ، لا كونُهُ مِنۡ مُعيَّنٍ، وإشارةً إلى أنَّهُ يكونُ بأيسرِ أمرٍ؛ لأنَّ المعلومَ أنَّ المُجازيَ هو اللّهُ لا غيرُهُ[2]، وهو سبحانَهُ سريعُ الحسابِ، وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا ملاءمةٌ للمبنيِّ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، ففيه تسريعُ الأحداث، وتنشيطُ المدارك، لما سيكون في الآخرة.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عذابُ المُجرمينَ دائمٌ لا انقطاعَ لهُ

جيءَ بفعلِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ للتَّنبيهِ على تجدُّدِ الجزاءِ واستمرارِهِ؛ لأنَّ عذابَ النّارِ خالدٌ لا نهايةَ لهُ، وهو مُتجدِّدٌ على الكفّارِ كلَّ حينٍ، لا يُخفَّفُ عنهُم، فالمعنى: هل تُجْزَوْنَ لحظةً فلحظةً إلَّا بما كنتم تعملونَهُ في الدُّنيا، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنَ الخلاصِ، ومزيدُ تخويفٍ وتهويلٍ يقتضيهما مقامُ استنزالِ طائرِ كِبْرِهم وعنادِهم، وتحريكٌ للعصا معَ إزعاجٍ وتغليظٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 54.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.

ذكرُ الألفاظِ لتضمينِ المعاني مقصودةٌ في النَّظم الكريم

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصول:

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ موصولةٌ، وما بعدَها صلتُها، وقد عُبِّرَ بها دونَ المصدرِ، فلم يُقَلْ: (إلّا أعمالَكم)؛ للدّلالةِ على النُّكَتِ البلاغيَّةِ الآتيةِ الّتي تتضمَّنُها الصِّلةُ المشتملةُ على فعلِ الكونِ الماضي الدّاخلِ على المضارعِ، ولِما في التَّعبيرِ بالموصولِ مِنَ الإيماءِ إلى عِلَّةِ الجزاءِ، ومراعاةِ تناسبِ فواصلِ الآياتِ.

الجزاءُ مِنْ جنسِ العمل

نُكْتَةُ الحذفِ ودلالتُه:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (هل تُجْزَوْنَ إلّا بما كنتم تعملونَ) بباءِ السَّببيَّةِ، لكنَّها حُذِفَتْ، فقيلَ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وأُطلِقَ على الجزاءِ المعادِلِ لأعمالِهم نفسُ العملِ؛ للدّلالةِ على كمالِ العدلِ والتَّساوي بينَ ما كانوا يعملونَ، وبينَ الجزاءِ الَّذي يذوقونَ آلامَهُ في النَّارِ، مِنْ دونِ زيادةٍ على قدرِ الأعمالِ، والمعنى: هل تُجْزَوْنَ إلَّا جزاءً مُعادِلًا لِما كنتم تعملونَ[1]، وهل هي إلّا أعمالُكم توفَّى لكم؟!

حبلُ الهدايةِ ممدودٌ لمن أرادَ الحقَّ واتَّبعَه

دلالةُ ذِكْرِ فعلِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

جيءَ بفعلِ الكونِ ماضيًا في قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تمكُّنِ العملِ مِنْ أصحابِهِ، ورُسوخِهِ فيهِم رُسوخًا تامًّا، وأنَّهُ كانَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الّتي لا تنفكُّ عنهُم[2]، وأُدخِلَ الماضي على المستقبلِ؛ للدّلالةِ على استمرارِ العملِ وتجدُّدِهِ وتكرُّرِهِ[3]، وأنَّهُ شأنُهم ودَيْدَنُهم مدَّةَ حياتِهم، ولو رُدّوا إلى الحياةِ بعدَ موتِهم لَعادوا لِما نُهوا عنهُ، ولذلكَ استحقّوا الكَبَّ في النّارِ والخلودَ فيها، فاللّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُحاسب العبادَ على أعمالِهم التي يُداومون عليها، وهذا من رحمة اللّه تعالى، وإرخاء حبل الهداية لمن يُريد الإقبال عليها.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 10/ 81.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارعِ:

جزاء الله تعالى يقابل أعمال العبد التي كانت في الدُّنيا

جيءَ بفعلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ لتصويرِ ما كانوا يعملونه على الدَّوام، ويُرشِّح ذلك استعمال ﴿كُنتُمۡ﴾، فالمعنى: هل تُجۡزَوۡنَ لحظةً فلحظةً إلَّا بما كنتم تعملونَهُ في الدُّنيا باستمرارٍ، وبدون مبالاةٍ لما سيكون عليكم في الآخرةِ منَ العذابِ الشَّديد، وفي ذلكَ مزيدُ تخويفٍ وتهويلٍ وتوبيخ وتأنيب.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعل:

كتابُ الكفَّار يُحصي أعمالَهم ويُسجِّل جرائمَهم

حُذف متعلِّق فعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فلم يقل: (تعملونَهُ) بضميرِ المفعولِ الرّاجعِ إلى الموصولِ إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِهِ اعتمادًا على دلالةِ القرائنِ عليه، وللعموم؛ فيدخل فيه جميعُ أعمالِهم التي كانوا يعملونها في الدُّنيا، وفي هذا الإطلاقِ إشارةٌ إلى أنَّ السَّيِّئاتِ قدِ استغرقَتْ أعمالَهم أو غلبَتْ عليها، حتَّى كأنَّهم ليسَ لهُم عملٌ صالحٌ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم، وتأكيدٌ لاستحقاقِهم هذا العذابَ الشَّديدَ، كما أنَّ في حذفِهِ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

بلاغةُ القَصرِ:

عدالةُ الجزاءِ بأعمال العبادِ

القَصرُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مستفادٌ مِنْ ﴿هَلۡ﴾ الدّالّة على النَّفي و﴿إِلَّا﴾، وهو قصرُ موصوفٍ (الجزاءُ) على صفةٍ، وهي كونُهُ بإزاءِ أعمالِهم الصّادرة منهُم، لا يتجاوزُها إلى ما لم يَصدُرْ منهُم، فالقَصْرُ إضافيٌّ منظورٌ فيهِ إلى أنَّهُ لا يُعذَّبُ أحدٌ بذنبِ غيرِهِ[1]، إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ، وفي ذلكَ إقامةٌ للموازينِ القِسْطِ، فلا تُظلَمُ نَفۡسٌ شيئًا.

بلاغةُ فَنِّ الاحتباكِ:

في الآيتينِ إيجازٌ بديعٌ بالحذفِ يُسمَّى الاحتباكَ، وهو أنْ يُحذفَ

(1) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 347.

المُسيءُ خائفٌ ومَجْزيٌّ بالمِثلِ، والمُحسِنُ مُكرَمٌ

مِنَ الأوَّلِ ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الثّاني، ومِنَ الثّاني ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الأوَّلِ[1]، بيانُ ذلكَ: أنَّ ذكرَ الخيريَّةِ والأمنِ أوَّلًا دليلٌ على حذفِ المِثْلِ والخوفِ ثانيًا، وذكرَ الكَبِّ في النّارِ ثانيًا دليلٌ على إكرامِ المُحسِنينَ عنهُ أوَّلًا[2]، وتقديره: مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وأُدخِلوا الجنَّةَ وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنونَ ومَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فله مثلُها مِنَ الجَزاءِ، فَكُبَّتْ وُجوهُهُمْ في النّارِ وهم خائفون، هَلْ تُجْزَوْنَ إلّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ، ولمّا كان إثباتُ الخيريَّة هو موضعَ التَّرغيب، والكبُّ في النّار هو موضعَ التَّرهيب، آثَرَ ذكرَهما على غيرِهما؛ لقيامِ السّياقِ عليهما.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّعْب والخوف والهَلَع والفَزَعُ:

الرُّعْبُ خوفٌ مسيطرٌ، والخوف توقع المكروه، والهلع أسوأ الجزع، والفزع النّفار منَ المخوف

الرُّعْبُ: هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، فهو أشدُّ الخَوفِ[3]، والخَوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[4]، والهَلَعُ: الجَزَعُ وقلَّةُ الصَّبرِ، أو هو أسوأُ الجَزَعِ[5]، والفَزَعُ: انقباضٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشّيءِ المُخيفِ، ونِفارٌ مِنْ كلِّ شيءٍ مُخيفٍ، أو هو الخوفُ الشّديدُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103][6].

والنّاظرُ في هذهِ المعاني يلحظُ أنَّ بينَها تقاربًا، وأنَّ الرُّعْبَ والهَلَعَ والفَزَعَ مراتبُ عاليةٌ مِنَ الخوفِ، وأنَّ الخوفَ مبنيٌّ على توقُّعِ مكروهٍ، والبواقي مبنيَّةٌ على مفاجأةِ شيءٍ مُخيفٍ؛ كهُجوم غارةٍ وما أشبهَ ذلكَ[7].

---

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/ 243.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (رعب).
(4) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (هلع).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 404.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 404.

وقد عُبِّرَ بالفَزَعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ شدَّةِ الخوفِ المصحوبِ بالنِّفارِ والانقباضِ، والقلقِ والاضطرابِ، وهو أنسبُ بمقامِ بيانِ العاقبةِ الحسنةِ للمُحسِنِ؛ إذ يكونُ آمِنًا مُطمئِنًّا معَ شدَّةِ وقْعِ الأهوالِ على القلوبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ سببُ الأمانِ والنَّجاةِ، وأنَّ عبادَ اللّهِ الصّالحينَ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ، فيا لَخسارةَ مَنْ رَغِبَ عن الإيمانِ، ولم يعملْ صالحًا!

الأمن والطُّمأنينة والسَّكينة:

الأمنُ سكونُ القلبِ، والطُّمأنينةُ سكونٌ بعدَ انزعاجٍ، والسَّكينةُ زوالُ الرُّعْبِ

الأمنُ: سكونُ القلبِ[1]، والطُّمأنينةُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ[2]، والسَّكينةُ: زوالُ الرُّعْبِ[3]، ويُلحَظُ أنَّ كلًّا مِنَ الطُّمأنينةِ والسَّكينةِ مسبوقٌ بانزعاجٍ وخوفٍ، وأمّا الأمنُ فهو سكونُ القلبِ، ولا يُشترَطُ فيهِ أنْ يكونَ مسبوقًا بخوفٍ، ولذلكَ عُبِّرَ بهِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ في هذا المقامِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ أنَّ أمنَ المُحسِنينَ غيرُ مسبوقٍ بخوفٍ معَ شدَّةِ أهوالِ يومِ القيامةِ، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ وحُسْنِ الثَّوابِ.

العمل والفعل:

العملُ يصدرُ بقصدٍ عن عاقلٍ، والفعل أعمُّ منه

العملُ: هو المثابرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بهِ مرَّةً أو بسرعةٍ، ومثالُهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]. وأمّا الفعلُ: فهو الإتيانُ بالشَّيءِ بسُرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ [المؤمنون: 4][4].

والأصلُ في العملِ أنْ يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) النّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 55.

إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ منَ العملِ[1]. وقد اختيرَ لفظُ العملِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لدلالتِهِ على أنَّ المُعذَّبينَ كانوا مُثابرينَ على عملِ السَّيِّئاتِ، وأنَّهم كانوا يعملونَها بقصدٍ منهُم صادرٍ عن حبٍّ لها، ووُلوعٍ بها.

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 10/ 252.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ
شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ
فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النّمل: 91 - 93]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ليس بعد دعوة النّاس وإقامة الحجج إلّا الطّاعة والاستسلام لله تعالى

لمّا بيَّنَتِ الآياتُ السّابقة المبدأَ والمَعادَ والنُّبوَّةَ ومُقدِّماتِ القيامةِ وصفةَ أهلِ القيامةِ مِنَ الثّوابِ والعقابِ، وذلكَ كمالُ ما يتعلَّقُ ببيانِ أصولِ الدّينِ، ناسبَ أن يُختمَ الكلامُ بهذهِ الخاتمةِ اللَّطيفةِ[(1)]؛ إشعارًا بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أدّى واجبَ الدَّعوة، وما عليهِ بعدُ إلّا الاشتغالُ بشأنِهِ، والاستغراقُ في عبادةِ ربِّهِ[(2)]؛ ليَحملَهم ذلكَ على أنْ يهتمّوا بأمورِ أنفُسِهم، ولا يتوهَّموا مِنْ شدَّةِ اعتنائِهِ ﷺ بأمرِ دعوتِهم أنَّهُ يُظهِرُ لهُم ما يُلجِئُهم إلى الإيمانِ[(3)]، ثمّ ختمَ ذلك بالأمر بتلاوة القرآن، وتعليم نبيّه الحمد، إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى سيُظهر دينَه؛ ليُناسبَ مطلعَ السّورة التي ابتدأت بذِكْرِ آياتِ القرآن الكريم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَّمَهَا﴾: (حرم) أصلٌ يدلُّ على المنعِ والتَّشديدِ[(4)]، فالحرامُ: الممنوعُ منهُ[(5)]، وقد سُمّيَتِ الأشهرُ الحُرُمُ بذلكَ؛ لكونِها ممنوعًا فيها القتالُ[(6)]، والبيتُ الحرامُ والمسجدُ الحرامُ؛ لكونِهِ مُنِعَ مِنَ الجبابرةِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(6) الخليل، العين: (حرم).

أو لأنَّهُ حُرِّمَ فيهِ أشياءُ وهي حلالٌ في غيرِهِ، كالاصطيادِ وقطعِ الأشجارِ ونحوِ ذلكَ[1]. ومعنى ﴿حَرَّمَهَا﴾ هنا: جعلَها حَرَمًا آمنًا، يأمنُ فيها اللّاجئُ إليها، ولا يُختلَى خلاها، ولا يُعضَدُ شَوْكُها، ولا يُنفَّرُ صَيْدُها[2].

2) ﴿سَيُرِيكُمْ﴾: (رأى) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ[3]، فالرُّؤيةُ بالعينِ تتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلم تتعدَّى إلى مفعولينِ، كقولِكَ: رأيتُ زيدًا عالمًا[4]، والإراءةُ: حملُ الغيرِ على الرُّؤيةِ. ومعنى ﴿سَيُرِيكُمْ﴾: سيجعلُكم ترونَ.

3) ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: (عرف) مِنَ الأصولِ الَّتي يدلُّ عليها: السُّكونُ والطُّمأنينةُ[5]، ومِنْ ذلكَ: المعرفةُ والعِرْفانُ، أي: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأَثَرِهِ[6]. ومعنى ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: تعرفونَ دلالتَها على ما بلَّغَكم الرَّسولُ مِنَ النِّذارةِ[7].

المَعْنى الإجماليُّ:

العبادةُ وقراءة القرآنِ طريقُ تعريف النّاس بآيات الله تعالى

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمة ما جاء به الأمرُ الرّبّانيُّ لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ فيما يقول للمشركينَ من أنَّ عملَه مقصورٌ على عبادة ربِّ مكَّةَ الَّذي حرَّمَها على خلقِهِ أنْ يَسْفِكوا فيها دمًا حرامًا، أو يَظلِموا فيها أحدًا، أو يعبدوا فيها غيرَه، وأنَّه أُمِرَ أنْ يكون مِنْ جملةِ المسلمينَ، وأنْ يواظبَ على قراءةِ القرآنِ ودعوةِ النّاسِ به، فمَنْ سلكَ سبيلَ الحقِّ والرَّشادِ فإنَّ منفعةَ ذلكَ راجعةٌ إليه، ومَنْ أعرضَ عنهُ فإنَّ وبالَ إعراضِهِ عليهِ، ثمّ أرشده إلى حمد اللّهِ، وأنَّه سيُريهم سبحانه مِنْ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حرم).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 625.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رأى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرف).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 85.

آياتِه ما يعرفونَ بِه صِدْقَه في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ يقولُ سبحانَهُ لنبيِّهِ ﷺ: وما ربُّكَ يا محمَّدُ بغافلٍ عمّا تعملونَ مِنَ الأعمالِ، وسيجزي كلًّا منكم بما عملَهُ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عما قبلها:

احتمالُ الاستئنافِ للنّحويِّ والبيانيِّ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بتقديرِ قولٍ محذوفٍ، جيءَ به بعدَ بيانِ أحوالِ المبدأِ والمَعادِ، وشرحِ أحوالِ القيامةِ؛ إثارةً لهِمَمِهم إلى حصيلِ ما ينفعُهم، والتَّوجُّهِ نحوَ التَّدبُّرِ فيما قَرَعَ أسماعَهم مِنَ الآياتِ الباهرةِ الكافيةِ في إرشادِهم[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ الاستئنافُ فذلكةَ الحسابِ، وختامًا للسّورةِ، أفسدَ به على المشركينَ فرحَهم بما يَحْسَبونَ أنَّهم أفحموا الرَّسولَ ﷺ بما ألقَوْهُ عليهِ مِنَ الشُّبَهِ، ويزيدُ الرَّسولَ تثبيتًا بأنَّهُ أدَّى أمانةَ التَّبليغِ[2]، والاستئنافُ على هَذَينِ الوجهينِ نحويٌّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الاستئنافُ بيانيًّا جاءَ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ يقتضيهِ الكلامُ السّابقُ، بيانُ ذلكَ: أنَّهُ لمّا أتمَّ الدّينَ بذِكْرِ الأصولِ الثَّلاثةِ: المبدأِ، والمَعادِ، والنُّبوَّةِ، وكانَ ذِكْرُهُ لها على وجوهٍ مُرغِّبةٍ ومُرهِّبةٍ، أوجبَ هذا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ لكلِّ سامعٍ أنْ يقولَ: فما الَّذي نعملُ؟ ومَنْ نعبدُ؟ فأُجيبَ بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ الآيةَ[3]، وبناءً على ذلك يكونُ الفصلُ لِما بينَ الجملتينِ مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجبِ للفصلِ.

نُكْتةُ حذفِ لفظِ القولِ:

سُرعةُ الامتثالِ برهانُ النُّبوّةِ وركنُ المديحِ

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ على تقدير

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 54.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.

قولٍ محذوفٍ قبلَهُ، أي: (قلْ يا محمَّدُ لقومِكَ: إنَّما أُمِرْتُ...) إلخ[1]، وقد دلَّ على هذا الحذفِ قولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فإنَّ الأوَّلَ مُفرَّعٌ عليهِ مُتَّصلٌ به، والثّانيَ معطوفٌ على أوَّلِ الكلامِ[2]. وفي هذا الحذفِ إيماءٌ لطيفٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد سارعَ إلى الامتثالِ، فهو يُخبِرُ بما أُمِرَ به، وكأنْ لم يكنْ أمرٌ قبلَ هذا الإخبارِ، كما أنّ في العدولِ عن ذِكْرِ القولِ إلى نُطْقِ المُتكلِّمِ بما قالَهُ المحكيُّ عنهُ ضربًا مِنِ استحضارِ الحالةِ، حتَّى كأنَّ المُتكلِّمَ هو صاحبُ القولِ[3].

بلاغةُ القَصْرِ بأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾:

توكيدُ ما استقرَّ في الأذهانِ طريقُ تثبيتِ المعاني في القلوبِ

جاءَ افتتاحُ الكلامِ بأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ الدّالّةِ على الحصرِ[4]؛ لإفادةِ حصرٍ إضافيٍّ باعتبارِ ما تضمَّنَتْهُ محاوراتُهم السّابقةُ مِنْ طلبِ تعجيلِ الوعيدِ، ومِنْ إنكارِ الحشرِ، والمعنى: ما أُمِرْتُ بشيءٍ ممّا تبتغونَ مِنْ تعيينِ أَجَلِ الوعيدِ، ولا مِنِ اقتلاعِ إحالةِ البعثِ مِنْ نفوسِكم، ولا بما سوى ذلكَ إلّا بأنْ أثبُتَ على عبادةِ ربٍّ واحدٍ، وأنْ أكونَ مُسلمًا، وأنْ أتلوَ القرآنَ عليكُم[5]، وفي ذلكَ بَسْطٌ لعُذْرِهِ ﷺ، ودفعٌ للمَلامِ عن نفسِهِ، والعُهْدَةُ بعدَ ذلكَ عليهِم، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ، وفيهِ أيضًا مبالغةٌ في أهمّيَّةِ الأوامرِ المذكورةِ، وكأنَّهُ ﷺ لم يُؤمَرْ إلّا بها، وقد جاء القصر بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ وهي التي تكون لما يعلمه المخاطَب؛ لأنَّ المخاطَبين يعلمون مضمونَ القَصْر، وأنَّ العبادةَ ليست لأحدٍ إلّا لله تعالى، وعليه فالقصر أفاد التَّوكيد لمضمون الكلام.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 55.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 719.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 55.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأمرِ:

ليس للنّبيِّ منَ الأمرِ شيءٌ ولا منَ الوحيِ إلّا الامتثال

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمال مفردة (الأمر) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، ولم يُقَلْ: (إنَّما أعبدُ)؛ للتَّأكيدِ على أنَّ أصلَ العبادةِ وما عُطِفَ عليها مِنَ المأموراتِ إنَّما هو بأمرِ اللّه تعالى، وليسَتْ مِنْ عندِهِ ﷺ كما يزعمُ المشركونَ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لهذِهِ المأموراتِ ببيانِ أنَّها إلَهيَّةُ المصدرِ، مع الحثِّ على الامتثالِ، ببيانِ أنَّهُ ﷺ أوَّلُ المأمورينَ، وهو قُدوتُهم في العبادةِ والطّاعةِ؛ لأنَّ هذهِ الأوامرَ ليسَتْ خاصَّةً بهِ[1].

نُكْتَةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

الأمرُ للهِ وحدَه والعبدُ مطيعٌ لله وحدَه

بُنِيَ فعلُ ﴿أُمِرۡتُ﴾ للمفعولِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، وقولِهِ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ للعِلمِ بهِ، إذ سياقُ الكلامِ يدلُّ على أنَّ الَّذي أمرَهُ هو اللّهُ تعالى[2]، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ الأمرِ والآمرِ؛ إذِ الآمرُ مُتعيِّنٌ، فلا يُتصوَّرُ سواهُ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِهِ، وفيهِ أيضًا حثٌّ على الامتثالِ والاستجابةِ، فهو أمرُ مَنْ لا يُرَدُّ له أمرٌ[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي:

التّوحيدُ حقُّ اللهِ على العبيدِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، وقولِهِ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ هَذَينِ الأمرَينِ مُتحقِّقانِ مُتيقَّنانِ، لا شكَّ فيهما ولا ارتيابَ، وقد جرَى بهما قلَمُ الإرادةِ منذُ الأزلِ، فعبادةُ اللّهِ تعالى هي حقُّ اللّهِ على العبيدِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والإسلامُ دينُ الأنبياءِ جميعًا، والنَّبيُّ ﷺ يستنُّ بسنَّتِهم، ويقتدي بهَدْيِهم، وفي ذلكَ إظهارٌ لجَلادَتِهِ ﷺ وتصلُّبِهِ في الحقِّ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 78.

نُكْتَةُ حذفِ الجارِّ في المأمورِ بِهِ:

تعظيمُ المأمورِ بِهِ من عبادةِ اللهِ تعالى

حُذف حرف الباء الذي هو لتعدية فعلِ ﴿أُمِرۡتُ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ فلم يقل: (بأنْ أعبدَ)؛ لتعظيم المأمورِ بِهِ من عبادةِ اللّهِ تعالى بجعلِهِ عُمْدةً في الكلام[1]، وإيقاعِ الأمرِ عليهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ دونَ الصَّريحِ:

العبادةُ المعتبرة هي الدّائمةُ المتّصلة

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المُصدَّرِ بـ ﴿أَنۡ﴾ المصدريَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، فـ﴿أَنۡ﴾ مصدريَّةٌ؛ لأنَّ نصبَ الفعلِ المضارعِ بعدَها يُعيِّنُ أنَّها مصدريَّةٌ، ويمنعُ احتمالَ أنَّها تفسيريَّةٌ[2]، دونَ المصدرِ الصَّريح، فلم يُقَلْ: (بعبادةِ ربِّ هذهِ البلدةِ)؛ ليُتوصَّلَ بالمضارعِ إلى إفادةِ أنَّ المطلوبَ هو استمرارُ عبادةِ اللّهِ تعالى وتجدُّدُها، والمقصودُ بذلكَ أنْ يبقَى العبدُ على هذهِ العبادةِ إلى حينِ وفاتِهِ، وفي ذلكَ قطعٌ لأطماعِ المشركينَ برجوعِ النَّبيِّ ﷺ وأتباعِهِ عن إفرادِ اللّهِ تعالى بالعبادةِ، وبيان أنَّ المأمور به هو استمرارُ العبادةِ للّه وحده، دونَ انقطاعٍ أو انفصالٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّةِ دونَ الأُلوهيّةِ:

الامتنان بالحفظ والعناية من آثار الرُّبوبيّة

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ دون الأُلوهيّة، فلم يُقَلْ: (أُمِرْتُ أنْ أعبدَ اللّهَ)؛ لأنَّ الأُلوهيَّةَ تكليفٌ، أمّا الرُّبوبيَّةُ فعطاءٌ وتربيةٌ، فالآيةُ تُبيِّنُ حيثيَّةَ سماعِ العبادِ للحُكمِ مِنَ اللّهِ تعالى، وهي أنَّهُ تعالى يُربّيهم بهذهِ الأوامرِ والنَّواهي، وسوفَ تعودُ عليهم ثمرةُ هذه التَّربيةِ[3]، والرُّبوبيَّةُ المُنبِئةُ عن الإحسانِ والإنعامِ بحسَبِ معناها اللُّغويِّ أنسبُ بتحريمِ البَلْدةِ، الَّذي هو نعمةٌ جليلةٌ على قريشٍ؛ فإنَّ اللّه تعالى جعل مكّة آمنةً ويُتخطّف النّاسُ من حولها، وهذا من آثار ربوبيّته تعالى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 302.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/ 10862.

في حفظ البلاد والعباد، وامتنانٌ على أهلها، ووعدٌ بأن يكون لما حولها ما كان لها إنْ هم أطاعوه، واتّبعوا أمرَ نبيِّهم ﷺ.

توجيهُ تخصيصِ البلدةِ بالذِّكر:

مـكَّـةُ أحـبُّ البقاعِ وأشرفُها وأعظمُها

خصَّ ﷻ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ البلدةَ بالذِّكر دونَ سائرِ البلدانِ، وهو ربُّ البلادِ كلِّها؛ لما فيه مِنَ التَّعريضِ بضلالِ مشركي مكَّةَ؛ إذ عَبَدوا أصنامًا لا تملكُ مِنَ البَلْدةِ شيئًا، ولا أكسبَتْها فضلًا ومزيَّةً، ولم يَجْرِ لها عليهم نعمةٌ، ولا تَقدِرُ لهُم على نفعٍ ولا ضَرٍّ[1]، فأرادَ أنْ يُعلِمَهم بأنّهم لا يملكونَ تلكَ البَلْدَة، فكاشفَهم بما تُكِنُّه صدورُهم مِنْ خواطرِ إخراجِ الرَّسولِ ﷺ والمؤمنينَ مِنْ مكَّةَ، وذلكَ مِنْ جملةِ ما يقتضيهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾ [النّمل: 74][2]، ولأنَّ مكَّةَ هي أحبُّ بلادِهِ إليهِ، وأكرَمُها عليهِ[3]، مع إرادة تشريفها وتعظيم شأنِها[4]، وإظهارِ الاعتناءِ بها[5].

غرضُ الإشارةِ بأداةِ القريبِ:

مكَّةُ قريبةٌ مِنَ القلوب، حاضرةٌ في العـقـولِ، ومَهْبِطُ الأفئدة

أُشيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ إلى البلدةِ المُحرَّمةِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ؛ لأنَّها حاضرةٌ في أذهانِ المخاطَبين قريبةٌ منهُم[6]، والإشارةُ إلى البِقاعِ بهذا الاعتبارِ شائعةٌ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ [العنكبوت: 31][7]، وفي هذهِ الإشارةِ تعظيمٌ لمكَّةَ وتشريفٌ لها وتقريبٌ، وفيها دلالةٌ على أنَّها موطنُ نبيِّه، ومَهْبِطُ وحيِهِ[8]، ولذلكَ جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 511.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 625.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 218.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576.

﴿فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ [القصص: 85]؛ تسليةً لقلبِه، أي: إنَّ الَّذي أوجبَ عليكَ العملَ بأحكام القرآنِ لرادُّكَ إلى مكَّةَ[1]، وما في هذهِ الإشارةِ مِنَ التَّعظيمِ هو سِرُّ العُدولِ عن ذِكْرِ مكَّة باسمِها العلَم[2]، فإنَّ الإشارة إلى المعروفِ إنَّما يكون بما يكتنزه مِنَ الشَّرف والمكانة، وذلك بحسب السّياق الدّالّ عليه، كما أنَّ الإشارة بالقريبِ لإشعارِ المخاطَبين بما يُحيط بهم منَ المننِ النّازلة عليهم بسبب مكانة مكّة عند اللّه تعالى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡبَلۡدَةِ﴾:

تكتسبُ الألفاظ تعريفَها العهديَّ بالقرائن السّياقيَّة

تعريفُ ﴿ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ للعهدِ الخارجيِّ؛ لأنَّها اسمُ علَم لطائفةٍ مِنَ الأرض مُعيَّنةٍ معروفةٍ للمُخاطَبينَ، وهي مكَّةَ[3] وما حولَها إلى نهايةِ حدودِ الحَرَم[4]، فصارَتْ لذلكَ بحيثُ إذا أُطلِقَتِ البلدةُ انصرفَتْ إليها، وعُرِفَ أنَّها مكَّةُ[5]، كالنَّجم الَّذي أصبحَ علَمًا بالغلَبةِ للثُّريّا، وفي ذلكَ تفخيمٌ لمكَّةَ شرَّفَها اللّهُ[6]، مع ما في هذا السّياق مِنَ القرائن اللَّفظيَّة، من مثل اسم الإشارة، وإضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى اسم الإشارة، ووصفها بالاسم الموصول، فكلّها دالَّةٌ على مكَّة المُكرّمة.

بلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمال بالإبدالِ:

زيادةُ أوصاف البيانِ دليلُ العناية وبرهانُ الرِّعاية

جاء لفظُ ﴿ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ بدلًا مِن اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾؛ زيادةً في تعيين اسم الإشارةِ وتشخيصًا له[7]، وذلكَ أنَّ أصلَ أسماءِ الإشارةِ أنْ يُستغنَى بها عن زيادةِ تبيينِ المُشارِ إليه تبيينًا لفظيًّا؛ لأنَّ الإشارةَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 599، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 228.

بيانٌ، وقد يزيدونَ الإشارةَ بيانًا، فيذكرونَ بعدَ اسمِ الإشارةِ اسمًا يُبيِّنُهُ؛ للدّلالةِ على أنَّ المُشارَ إليهِ قُصِدَ استحضارُهُ مِنْ بعضِ أوصافِه(1)، وهنا قُصِدَ استحضارُ البَلْدةِ مِنْ حيثُ كونُها مكانًا يتنعَّمونَ فيهِ بالأمنِ والخيراتِ، وذلكَ أبلغُ في الحُجَّةِ والإلزامِ، وذِكرُ البدلِ بعد اسمِ الإشارةِ يُنزّل منزلةَ التَّفصيل بعد الإجمالِ، لإفادة الاهتمام بالبدلِ، وزيادة تعظيمه وتشريفه، وتقريره في النُّفوسِ؛ لأنَّ النُّفوسَ تتشوَّفُ عندَ ذكرِ المُبدَلِ منهُ - وهو اسمُ الإشارةِ هنا - لمعرفةِ البدلِ، فإذا جاءَ ذكرُهُ تمكَّنَ في النُّفوسِ غايةَ التَّمكُّنِ، خصوصًا أنَّ البَلْدةَ هنا قد وردَتْ بالاسمِ الَّذي صارَ علَمًا عليها، بحيثُ يُميِّزُها عن غيرِها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالبَلْدةِ دونَ البَلَدِ:

بلاغة التَّلاؤم اللَّفظيّ في سور القرآن

البَلَدُ والبَلْدةُ كلاهما علَمٌ بالغلَبةِ على مكَّةَ المكرَّمةَ شرَّفَها اللهُ تعالى، أمّا البَلَدُ فمأخوذٌ مِنْ قولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [البلد: 1]، وأمّا البَلْدةُ فمأخوذةٌ مِنْ قولِه سبحانَهُ هنا: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾(2)، وقد اختيرَ لفظُ البَلْدةِ المُؤنَّثِ دونَ لفظِ البَلَدِ المُذكَّرِ؛ لموافقتِهِ أسماءَ المواضعِ الَّتي وردَتْ في هذهِ السّورةِ، فهي مُؤنَّثةٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ [النّمل: 34]، وقولِه: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ [النّمل: 48]، وقولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [النّمل: 56]، وذلكَ نوعٌ مِنْ أنواعِ التَّلاؤمِ اللَّفظيِّ الَّذي يتجلَّى في سوَرِ القرآنِ الكريمِ، ولما فيه مِنَ المقابلةِ الإيمائيَّة بينَ البلدة وما سواها من البلدان.

فائدةُ النَّعتِ بالموصولِ:

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 714.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلد).

في الصِّلةِ تشريفًا لها بعدَ تشريفٍ، وتعظيمًا إثْرَ تعظيم، وإشعارًا بعِلَّةِ الأمرِ وموجِبِ الامتثالِ له، وهو نعمتُهُ سبحانَهُ عليهِم وتربيتُهُ لهُم؛ فإنَّ في تحريمِها من حيثُ يُتخطَّفُ النّاس من حولهم أعظمَ المِنَن، ففيهِ إيماءٌ إلى غايةِ الشّناعةِ في اقترافِ ما اقترفه المشركون، من تعاطي أشنعِ أفرادِ الإلحادِ، حيثُ تركوا عبادةَ ربِّها، ونَصَبوا فيها الأوثانَ، وعَكَفوا على عبادتِها[1].

الإنعامُ يوجِبُ الامتثالَ ويدفعُ الاختيالَ

علَّةُ وصفِ الفاعل ﴿رَبَّ﴾ دون المفعول ﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾:

جاء الاسمُ الموصولُ المتضمِّن بصلته تحريمَ مكَّةَ المكرمَةِ وصفًا للفظ الرّبوبيَّة لا للبلدة، فلم يقل: (البَلْدةِ الَّتي حرَّمَها اللّهُ)، وإنَّما قال: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ لأنَّ سياقَ الآية في بيانِ عبادته ﷺ لرَبِّ البلدة المحرَّمة، فكان ذِكرُ المُحَرِّم سبحانَه لا المكانِ المحرَّم هو الأولى، وليُؤذِنَ بتعظيمِه لها؛ لأنّا إذا قلنا: (ربَّ هذهِ البَلْدةِ الَّذي حرَّمَ مكَّةَ) أعلَمْنا أنَّ مكَّةَ مِنْ جلالةِ قَدْرِها وعُلوِّ مرتبتِها بحيثُ يصِحُّ أنْ يوصفَ بتحريمِها اللّهُ ﷻ، وأنَّ الوصفَ بِه كالوصفِ بالأسماءِ الحُسْنى، وإذا قلنا: (ربَّ هذهِ البَلْدةِ الَّتي حرَّمَها اللّهُ) لم يُفِدِ الكلامُ ذلكَ، فلم يَحْسُنْ ذلكَ الحُسْنَ[2].

لَحْظُ المعنى السّياقيّ أصلٌ في نظم المباني

توجيهُ تخصيص لفظِ التّحريمِ بالذّكرِ:

خصَّ النَّظمُ الكريم لفظَ التَّحريم بالذِّكر دونَ الأمنِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، ولم يُقَلْ: (آمَنَها)؛ لأنَّ التَّحريمَ هو سببُ الأمنِ، ففي التَّعبيرِ بهِ تنبيهٌ على أنَّ الأمنَ الَّذي تنعُمُ بهِ قريشٌ هو بسبب تحريمِ اللّهِ تعالى لهذهِ البَلْدةِ، وتوعُّدِهِ المُعتديَ بالعقوبةِ، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ وإقامةِ الحُجَّةِ؛ لأنَّ تحريمَها يدخلُ فيهِ منعُ غزوِ أهلِها والاعتداءِ عليهِم وظُلمِهِم وإخافتِهِم[3]، ولذلك لمّا وُصفت

ذِكْرُ الأصولِ العَليَّةِ منبِّهٌ على الآثارِ الفرعيَّةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 248.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 600.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 56.

مكَّة بالأمن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57] كان الوصف للحَرَم؛ لبيانِ أنَّ التَّحريم هو الأصل، وهو الجالبُ للأمن، فالأمنُ ثمرةُ التَّحريم، كما أنَّ الصّفةَ فرعُ الموصوفِ، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: 3 - 4].

نُكْتَةُ المجازِ بالحذفِ وفائدته:

تقليلُ ألفاظٍ من شأنه تفخيمُ معانٍ

معنى التَّحريم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ تحريمُ التَّعرُّضِ لِما فيها مِنَ الحشيشِ سوى الإذْخِر، وتحريمُ الصَّيدِ والقتل فيها، فيكونُ إيقاعُ التَّحريمِ عليها مجازًا[1] بالحذف، على تقدير محذوفات، ونُكْتَةُ هذا المجازِ الإيجازُ؛ إذ يُغني عن سَرْدِ المُحرَّماتِ وتَعْدادِها، والمبالغةُ في اتِّصافِ مكَّةَ بالتَّحريم، حتَّى كأنَّ التَّحريمَ شاملٌ لكلِّ شيءٍ فيها، ولكلِّ جزءٍ مِنْ أجزائِها، وكأنَّها تجسَّدَتْ في صورةِ شيءٍ مُحرَّم، يُمنَعُ التَّعرُّضُ لهُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تحريمُ مكَّةَ قديمٌ، والاعتداءُ عليها ذميم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ لتأكيدِ التَّحريمِ، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ مُتيقَّنٌ، مُتحقِّقٌ عندَهم، لا يشكّونَ فيهِ؛ فهم ينعمونَ بنعمةِ الأمنِ كما نَعِمَ بها آباؤُهم منذُ زمنٍ بعيدٍ، فتحريمُ مكَّةَ منذُ زمنِ إبراهيمَ عليه السلام، كما قال عليه السلام داعيًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37]، وذلكَ أقطعُ لعُذرِهم، وأبلغُ في ذمِّهم وتوبيخِهم على شركِهم.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواو لعطف العامّ على الخاصّ أو الحال

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿حَرَّمَهَا﴾، وهو مِنْ بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ[2]، المُفيدِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 461.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 218.

تعظيمَ الخاصّ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا أخبرَ أنَّهُ مالكُ هذهِ البَلْدةِ أخبرَ أنَّهُ يملكُ كلَّ شيءٍ، فجميعُ الأشياءِ داخلةٌ في ربوبيَّتِه، فشُرِّفتِ البَلْدةُ بذكرِ اندراجِها تحتَ ربوبيَّتِهِ على جهةِ الخصوصِ، وعلى جهةِ العمومِ[1]. ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ[2]، أي: الَّذي حرَّمَها حالَ كونِهِ لهُ كلُّ شيءٍ، فيفيدُ التَّقييدُ بهذهِ الحالِ أنَّ لهُ تعالى أنْ يُحرِّمَ ما يشاءُ مِنَ البُلدانِ والأشياءِ، فلا مالكَ سواهُ، ولا مُتصرِّفَ على الحقيقةِ غيرُهُ.

بلاغةُ الجملةِ بينَ الاحتراسِ والتَّتميمِ:

مكّةُ أصلُ الموجوداتِ في التّوحيدِ والعبادة

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ أنْ يكونَ احتراسًا[3]؛ لئلّا يُتَوَهَّمَ مِنْ إضافةِ ربوبيَّتِهِ إلى البَلْدةِ اقتصارُ مِلْكِهِ عليها، فهو تعالى ليسَ كالملُوكِ الَّذينَ ليسَ لهُم إلّا ما حَمَوْهُ على غيرِهم[4]. ويحتملُ أنْ يكونَ تتميمًا[5]، جعلَ تعالى دخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ ربوبيَّتِهِ وملَكوتِهِ كالتّابعِ لدخولِ البَلْدةِ تحتَهما[6]، حيثُ أضافَ الرَّبَّ إلى البَلْدةِ إضافةَ تمليكٍ، ثمَّ عقَّبَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ على وجهِ التَّتميمِ، ليُؤذِنَ بالفَرقِ بينَ المِلْكينِ، وأنَّ أحدَهما كالتّابعِ، والآخرَ كالمتبوعِ[7]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ مَلِكًا مَلَكَ مِثلَ هذهِ البَلْدةِ ومَلَكَ كلَّ شيءٍ عظيمُ الشَّأنِ[8]، يرفعُ مِنْ مرتبةِ ما أرادَ رِفْعتَهُ ويَحُطُّ مِنْ منزلةِ ما أرادَ حطَّهُ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ[9]، وفي التّتميمِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 276.
(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 267.
(3) ويسمَّى التّكميل أيضًا، وهو: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه". ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح مع مختصر التّفتازانيّ، ص: 469.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.
(5) وقد عرَّفه القزوينيّ في تلخيص المفتاح مع مختصر التّفتازانيّ، ص: 471: "أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلافَ المقصود بفضلة لنُكتة".
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 601، وظاهرٌ أنّ تعريف القزوينيّ للتّتميم لا ينطبق على ما ذكره الطّيبيّ هنا، لأنّ ما في هذه الآية جملة لا فضلة.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 601.

مزيدُ مدحٍ وثناءٍ لمكَّة، إذ جعلَها الأصلَ لكلِّ ما يُملَك، وعطفَ عليها كلَّ ما يُملَك، كما أنَّ الوجودَ إنَّما كان للعبادةِ، ومكّةُ هي مركز الأرض توحيدًا وعبادة.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾:

كلُّ شيءٍ مِلكٌ للهِ تعالى

لامُ الجرِّ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ للمِلْك والاستحقاقِ، وهي تفيدُ أنَّ كلَّ شيءٍ للّهِ سبحانَهُ مِلْكًا واستحقاقًا، وفي التَّعبيرِ بها ملاءمةٌ لمقامِ الحَثِّ على عبادةِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ الإلهَ الَّذي يستحقُّ العبادةَ دونَ سواهُ هو المتَّصفُ بكونِ كلِّ شيءٍ تحتَ ربوبيَّتِه ومِلْكِه وسلطانِه، ويحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ للاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ كلَّ شيءٍ مُختصٌّ باللّهِ تعالى، لا يتجاوزُهُ إلى غيرِه.

غرضُ تقديمِ المُسندِ على المُسنَدِ إليه:

مالكُ المخلوقاتِ هو المُستحِقُّ للعبادةِ دونَ سواه

قُدِّمَ الجارّ والمجرور (لَهُ) على ﴿كُلُّ شَيۡءٖ﴾ للتَّخصيصِ، أي: لهُ وحدَهُ سبحانَهُ كلُّ شيءٍ[1]، ولا شيءَ لسواهُ، وهذا التَّخصيصُ مِنْ مُقتضَياتِ مقامِ الأمرِ بعبادةِ اللّهِ تعالى، ونَبْذِ الشِّركِ والأوثانِ؛ لأنَّ الأصنامَ الَّتي يعبدُها المشركونَ مِنْ دونِ اللّهِ لا تضرُّهم ولا تنفعُهم، ولا تملكُ مِثْقالَ ذرَّةٍ في السَّماواتِ والأرضِ، فيا لَخسارةِ مملوكٍ يعبدُ مملوكًا مِثلَهُ، ويتركُ عبادةَ مالكِ الدُّنيا والآخرةِ!

فائدةُ إضافةِ لفظ العموم إلى لفظٍ مُبْهَم:

كلُّ الموجوداتِ مناديةٌ بوجوبِ عبادةِ الله وحْدَه

آثَرَ النَّظمُ الكريم اختيارَ كلمةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قولِه تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾؛ لإفادةِ شمولِ مِلْكِه تعالى لكلِّ الموجوداتِ[2]، ومنها مكَّةُ الَّتي حرَّمَها؛ لأنَّ هذهِ الكلمةَ مِنْ أسماءِ الأجناسِ العاليةِ العامَّةِ، وهي مُتوغِّلةٌ في العمومِ، وبإضافةِ ﴿كُلُّ﴾ إليها زيادةٌ في العمومِ، وفي هذا التَّعميمِ زيادةُ تنبيهٍ على استحقاقِهِ تعالى الإفرادَ

(1) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 348.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.

بالعبادةِ، وزيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ لحالِ مَنْ يَحيدُ عن عبادتِهِ سبحانَهُ؛ وذلك لأنَّ إثبات عموم مِلْكِه سبحانَه لكلِّ موجودٍ، ممّا يزيد العقلَ قناعةً باستحقاقِه تعالى العبادةَ دونَ سواه، فمن لم يمتثل استحقَّ الوبالَ والثّبور.

معنى العطفِ وفائدتُه:

تعيينُ المعبودِ وتعيينُ طريقةِ الوصول إليه

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، فتفيدُ انتظامَهَا معَها في سِلْكِ المأموراتِ، وفائدته: أنَّ المشركينَ ربَّما قالوا: ونحنُ نعبدُهُ بعبادةِ الأصنامِ الَّتي نرجو أنْ تُقرِّبَنا إليهِ زُلْفَى، فعيَّنَ الدّينَ الَّذي تكونُ بهِ العبادةُ، وهو دينُ الإسلامِ[1]، فاجتمع في العطفِ تعيينُ المعبود، وتعيينُ طريقةِ عبادته ومسلكِ الوصول إليه.

سِرُّ تكرارِ فعلِ ﴿وَأُمِرۡتُ﴾:

وحدةُ العبادة ووحدةُ الرِّسالة محلُّ عنايةٍ وموضعُ رعاية

جاء تكرار فعلِ ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بعدَ ذكرِهِ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ لبيانِ الفرقِ بينَ الأمرينِ؛ فإنَّ الأوَّلَ يختصُّ بتوحيدِ اللّه تعالى بالعبادة، والآخر يقتضي وحدةَ الرّسالة للإسلام والمسلمين، ولهذهِ النُّكتة لم يُكرَّرْ (أُمِرْتُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الإسلامِ والتِّلاوةِ مِنْ شؤونِ الرِّسالة[2]؛ ففيه إظهارُ العنايةِ والاهتمامِ بكلِّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ؛ لأنَّهُ يُشيرُ إلى أنَّ كلَّ جملةٍ مِنَ الجملتينِ المتعلِّقتينِ بعبادتِهِ تعالى مقصودةٌ لذاتِها، وليسَتْ تابعةً للأخرى.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ مضارعًا:

العبادةُ الدّائمةُ لا تثبتُ إلّا بالنَّهجِ السّويّ

جاء التَّعبير بفعلِ الكونِ الدّالِّ على تمكُّنِ خبرِ هذا الفعلِ مِن اسمِهِ، وعُبِّرَ عنهُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ، أي: أنْ أكونَ مِنَ المسلمينَ كونًا هو في غايةِ الرُّسوخِ[1]، وفي ذلكَ حثٌّ للمُسلِمِ على الثَّباتِ على دينِهِ وعقيدتِهِ؛ امتثالًا لهذا الأمرِ، واقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ، ولبيانِ أنَّ العبادة الدّائمة لا تثبت إلّا بالكون المستمرّ على النَّهجِ السَّويّ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

المسلم لبنةٌ في جسدِ الأُمَّة الواحد

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فيفيدُ الأمرَ باللَّحاقِ بركْبِ المُسلمينَ وجماعتِهم، والمعنى: وأُمِرْتُ أنْ أكونَ بعضَ المسلمينَ، وأنتظمَ في سِلْكِهم وزُمْرتِهم، فأفاد هذا الحرف أنَّ المسلمَ هو جزءٌ من البناء العامّ للأُمّة، وأنّه لبنةٌ من لبناتها، والمعنى: أنْ أكونَ مِنْ جملةِ الثّابتِينَ على مِلَّةِ الإسلامِ والتَّوحيدِ[2].

بلاغةُ استعمال مفردة الإسلامِ دونَ الإيمانِ:

وحدةُ الرِّسالة والمُرسَلين تتمثّل في الاسمِ العَلَم

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الإسلامِ دونَ الإيمانِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ لأنَّ الإسلامَ هو الاسم العلَمُ على دين التَّوحيدِ الذي جاء به جميعُ الأنبياءِ الذين أرسلهمُ اللّهُ تعالى، فكان ذِكْرُه تأكيدًا لبيانِ وحدةِ الرِّسالة والمرسَلين؛ فحكاهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السلام بقولِه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: 131]، وعن إسماعيلَ عليه السلام بقولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128]، وعن يعقوبَ وبنيه بقولِهم: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، وعن يوسفَ عليه السلام بقولِه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يوسف: 101]، وعن موسى عليه السلام بقولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]، وعن سليمانَ عليه السلام بقولِه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النّمل: 31]، وعن عيسى والحواريِّينَ بقولِهم: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111][3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 180.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 242.

وفي استعمالِ لفظ الإسلام موافقةٌ لمُعظَم المواطنِ السّابقةِ في السّورةِ، كقولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النّمل: 31]، وقولِه: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النّمل: 38]، وقولِه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢﴾ [النّمل: 42]، وقولِه: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النّمل: 44]، وقولِه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النّمل: 81].

فائدةُ التَّعبير بالجارِّ والمجرور:

وحدةُ الأُمَّةِ بالإسلامِ وشَرفُها بالانضمامِ لعمومِ المسلمينَ

جاء التَّعبير بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، دون أنْ يُقالَ: (أنْ أكونَ مُسلِمًا)؛ وذلك لأنَّ معناهُ: أنْ أكونَ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو الإسلامُ[1]، وفي ذلكَ تنويهٌ بهذهِ الأمَّةِ وتشريفٌ لها؛ إذ جعلَ اللّهُ رسولَهُ مُنخرِطًا في سِلكِها، وفردًا مِنْ أفرادِها[2]. يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ عطفِ التّلاوة على الإسلام:

ثمرةُ الإسلامِ تلاوةُ القرآنِ بغرضِ الدَّعوةِ إلى الإسلام

قولُهُ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ: أنَّهُ بعدَ بيانِ ما أُمِرَ به النَّبيُّ ﷺ في نفسِهِ - وهو أنْ يكونَ مِنَ المسلمينَ - أُتبِعَ ذلكَ ببيانِ ما تَعُمُّ فائدتُهُ غيرَهُ[3]، وهو تلاوةُ القرآنِ على النّاسِ، فمقتضى الإسلامِ تلاوةُ القرآن، الذي هو كنايةٌ عنِ الدَّعوة إلى الإسلام.

فائدةُ استعمالِ مفردةِ التِّلاوة مادّةً وصيغة:

تلاوةُ القرآنِ تشملُ اللّفظَ والسُّلوكَ الدّائمين

جاء استعمالُ مفردة التِّلاوة في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ دون مرادفاتها؛ لبيانِ أنَّ تلاوةَ القرآن فيها معنى الاتّباع والاقتفاء، فهي تلاوةٌ لفظيَّة لتحقيقِ تلاوةٍ سلوكيّة، وآثَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 241 - 242.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 229.

النّظمُ التّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدّلالةِ على طلبِ استمرارِ التِّلاوةِ وتجدُّدِها[1]، وغرضُ ذلك تكريرُ دعوةِ النّاسِ وإرشادِهم، فيكونُ ذلكَ تنبيهًا على كفايتِهِ في الهدايةِ والإرشادِ، مِنْ غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجِزةٍ أُخرى[2]. وقيل: أواظب على قراءته لتنكشفَ لي حقائقُهُ المخزونةُ في تضاعيفِهِ شيئًا فشيئًا[3]، وأظفرَ بما فيهِ مِنَ الخيرِ الكثيرِ، وتُفْتَقَ لي بِهِ أكمامُ الأسرارِ والفُيوضاتِ الإلَهيَّةِ، وفي ذلكَ إيقاظٌ وتنبيهٌ لكلِّ مُسلِمٍ مُفرِّطٍ في تلاوةِ القرآنِ الكريمِ.

بلاغةُ الكناية:

تلاوةُ القرآنِ تلاوةُ دعوةٍ وإرشاد

المقصودُ بالتّلاوةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ تلاوةُ الدَّعوةِ والإرشادِ إلى الحقِّ، فهو كنايةٌ عنِ الدَّعوةِ، وعليه: فمُتعلَّقُ فعلِ التِّلاوةِ محذوفٌ لظُهورِه، والتَّقديرُ: (وأنْ أتلوَهُ على النّاسِ)[4]، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ، وتعميمٌ للتِّلاوةِ، بحيثُ تشملُ المُسلمينَ والمشركينَ.

توجيه تخصيصِ التِّلاوةِ بالذِّكر:

التَّنبيه على عِظَمِ شأنِ تلاوةِ القرآنِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ فعلَ التِّلاوة بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾؛ لما فيه من التَّنبيه على عِظَم شأنِ تلاوةِ القرآنِ، ولذلكَ أُفرِدَتْ بالذِّكرِ مَعَ كونِها مِنْ جملةِ ما يشتملُ عليهِ الإسلامُ، وفي قَرْنِها بالأمرِ بالعبادةِ والإسلامِ مِنَ التَّنويه بشأنِها ما لا يَخفَى، فالتِّلاوةُ هي الفعل الذي لا يَعْجِزُ عنه أحدٌ مِنَ المسلمين، فكانتِ التّلاوة هي الحصنُ لهذه الأُمّة في استمرارِها في العلاقة مع هذا الكتاب الكريم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالقرآنِ دونَ الكتابِ:

المناسبةُ معيارٌ في اختيارِ اللّفظِ دونَ مقارباتِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ دونَ الكتابِ في

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 306.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بالتِّلاوةِ؛ فهي بمعنى القراءةِ، والقرآنُ في الأصلِ مصدرٌ مرادفٌ للقراءةِ، ثمَّ نُقِلَ مِنْ هذا المعنى المصدريِّ، وجُعِلَ اسمُ علَمٍ للكلامِ المُعجزِ المُنزَلِ على النَّبيِّ ﷺ، مِنْ بابِ إطلاقِ المصدرِ على مفعولِه[1]. ولأنَّ القرآنَ علَمٌ على ما أُنزِلَ على النَّبيِّ ﷺ، فهو أرسخُ في التَّعريفِ بِهِ مِنَ الكتابِ؛ لأنَّ العَلَمَ الأصليَّ أدخلُ في تعريفِ المُسمَّى مِنَ العَلَمِ بالغلَبةِ؛ فسواءٌ نُكِّرَ لفظُ القرآنِ أو عُرِّفَ باللّامِ، فهو عَلَمٌ على كتابِ الإسلامِ، فإنْ نُكِّرَ فتنكيرُهُ على أصلِ الأعلامِ، وإنْ عُرِّفَ فتعريفُهُ لِلَمْحِ الأصلِ قبلَ العلَميَّةَ؛ لأنَّ القرآنَ منقولٌ مِنَ المصدرِ المرادفِ للقراءةِ[2].

نوعُ الفاءِ وفائدتُها:

ترغيبُ النّاسِ بالاهتداءِ بالمَتلوِّ وتحذيرُهم مِنَ الإعراضِ

بعدَما ذُكِرَ الأمرُ بتلاوةِ القرآنِ على النّاسِ لدعوتِهم وإرشادِهم إلى الحقِّ كما هو أحدُ وجوهِ التَّفسيرِ، ناسبَ أن يُفرَّعَ عليهِ بفاءِ التَّفريعِ ما يقتضي انقسامَ النّاسِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، أي: مُنتفعٍ بتلاوةِ القرآنِ عليهِ، وغيرِ مُنتفعٍ[3]، والتَّقديرُ: (منهُم مَن اهتدَى، ومنهُم مَنْ ضلَّ)، وفي هذا التَّفريعِ ترغيبٌ في اتِّباعِ الحقِّ الواضحِ، وتحذيرٌ مِنْ سُلوكِ سبيلِ الضَّلالِ والإعراضِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

كلُّ إنسانٍ محاسَبٌ على أعمالِه الاختياريَّة

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ لإفادةِ قوَّةِ الارتباطِ بينَ اهتداءِ الإنسانِ وضلالِه، وبينَ كونِ منفعتِهِ لهُ أو مَضرَّتِهِ عليهِ، وفي ذلكَ قَطْعٌ لدابرِ ظنِّ مَنْ يَظُنُّ خلافَ ذلكَ، وللتَّنبيهِ بالشَّرطِ على عمومِ الحُكمِ؛ فإنَّ عملَ أحدٍ لا يلحقُ نفعُهُ ولا ضَرُّهُ بغيرِهِ، إلّا ما

(1) الزّرقانيّ، مناهل العرفان: 1/ 14.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

خصَّهُ الدَّليلُ؛ فكان الشَّرطُ بيانًا لمآلاتِ الأفعال، وما يُصيب العامل من جزاءٍ، ففيه إشارةٌ إلى العدل الإلهيّ، وأنَّ اللّه تعالى لا يُحاسِب النّاسَ إلّا على أعمالِهم بإرادتِهم واختيارِهم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الحسابُ بعد ثبوتِ العملِ وإنجازه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنْ يَهْتَدِ)، و(ومَنْ يَضِلَّ)؛ لأنَّ الاهتداءَ والضَّلال يكونانِ في المستقبلِ بالنِّسبةِ لزمنِ التِّلاوةِ، لكنْ جاء التَّعبير بصيغةِ الماضي، فقيلَ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾؛ لإفادة أنَّ ترتُّبَهما على التِّلاوةِ أمرٌ مُتحقِّقٌ مُتيقَّنٌ؛ لأنَّ شأنَ النّاسِ عادةً أنْ يَنقسِموا في الحقِّ فريقين، وإخبارُ اللّه تعالى لا إخلافَ فيه، ولبيانِ أنَّ اللّه تعالى لا يُحاسب النّاسَ إلّا بعد تحقُّق أعمالِهم، وإنجازِ إراداتهم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاهتداءِ دونَ الإيمانِ:

الاهتداءُ عنوانٌ عريضٌ شاملٌ للأعمالِ التي تُدخلُ صاحبَها الجنَّة

اختيرَ في النَّظمِ لفظُ الهداية ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ دونَ الإيمان؛ فلم يقل: (فمَنْ آمنَ)؛ لأنَّ المقصودَ هو تحقيقُ الاهتداء، والإيمانُ هو جزءٌ منَ الاهتداء، فيدخل في الاهتداء الإيمانُ والعملُ الصّالح، والقولُ الطّيِّب، والدَّعوةُ إلى دين اللّه تعالى، وسائرُ الأعمال التي تُدخِلُ صاحبَها الجنَّة، فكانَ الاهتداءُ عنوانًا لهذه الأعمال، ولو ذُكِرَ الإيمانُ لأفاد بعضًا من ذلك.

نوعُ الفاءِ ووظيفتُها الارتباطيَّة:

الفاء لتقوية السّببيّة بينهما، وتوكيدِ التّرتّب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾ فاءُ جوابِ الشَّرطِ، وهي رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بجملته، وغرضُها تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ نفعِ المُهتدي على الاهتداءِ.

بلاغةُ الإطنابِ بالقصرِ:

الاهتداء بالغٌ المهتدي، غير ضارٍّ غيرَه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنِ اهتدَى فلنفسِه)، لكنْ أُطنِبَ بأسلوبِ القَصْرِ، فقيلَ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾، وهو منْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قصرَ قلبٍ؛ للرَّدِّ على مَنْ يَمُنُّ على النَّبيِّ

ﷺ بإسلامِه، ويَظنُّ أنَّ نَفْعَ إسلامِهِ راجعٌ إليهِ ﷺ، فكانَ القصرُ مُفيدًا أنَّ اهتداءَهُ مقصورٌ على تعلُّقِ اهتدائِهِ بمعنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: بفائدةِ نفسِه، لا يتجاوزُهُ إلى التَّعلُّقِ بفائدةِ غيرِه، والمعنى: فمَنِ اهتدَى باتِّباعِهِ إيّايَ فيما أنا بصَدَدِهِ مِنْ توحيدِ اللّه، والدُّخولِ في الإسلامِ، وتلاوةِ ما أُنزِلَ عليَّ مِنَ الوَحْيِ، فمنفعةُ اهتدائِهِ راجعةٌ إليهِ لا إلى الدّاعي[1]؛ لأنَّ فائدةَ الدّاعي وأجره ثابتةٌ عنِ التَّبليغِ، سواءٌ اهتدَى مَنِ اهتدَى، أم ضلَّ مَنْ ضلَّ.

بلاغةُ اختلافِ التَّقابلِ في الصّيغ:

لا يأمنُ العاقلُ الفتنَ، ولا يأمن المؤمنُ المِحَن

اختلفت صيغةُ المقابلةِ بين صيغة فعلِ الشَّرط وجوابه في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، ولم تتوافقا، فلم يُقَلْ: (فمَنِ اهتدَى فإنَّما اهتدَى لنفسِه) بحيثُ يتوافقُ فِعْلا الشَّرطِ والجزاءِ في الماضويَّة؛ وذلك للدّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ فيما بقي من زمان المهتدي، فَفِعْلُ الشّرط جاء بالماضي لبيان التّحقُّق، وجوابُه جاء مضارعًا؛ للحَضِّ على العمل؛ أي: فإنَّما يتجدَّدُ نَفْعُ الاهتداءِ ويستمرُّ، وفي ذلكَ إشعارٌ بِعظَمِ غنيمةِ المُهتدي؛ فإنَّ الاهتداءَ يكونُ مرَّةً واحدةً، ثمَّ يَصونُهُ صاحبُهُ مِنَ الارتدادِ والنُّكوسِ على العَقِبِ، ففيه تحذيرٌ منَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ، وأنَّه لا يأمن أحدٌ على نفسِه.

براعةُ فنِّ الجناسِ:

أعظمُ ما يجنيه المُهتدي الاهتداءُ نفسُه

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ جناسٌ ناقصٌ بينَ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿يَهۡتَدِي﴾، وهو مِنَ المُحسِّناتِ اللَّفظيَّة، وفائدتُهُ إظهارُ التَّشاكلِ والتَّلاؤمِ اللَّفظيِّ بينَ الألفاظ المتجانسة، وفائدتُه في الآيةِ بيانُ فضيلةِ الاهتداء، وأنَّ أعظم ما يجنيه المُهتدي هو الاهتداءُ نفسُه، فهو أعظمُ مأمولٍ، وأنفعُ مطلوب.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 389.

الاهتداءُ غِنًى لصاحبِه وكنزٌ دفينٌ لراجيه

نَفعُ الاهتداءِ راجعٌ للمُهتدي حقيقةً

ذِكرُ الشَّقيِّ بعدَ السَّعيدِ ترهيبٌ بعد ترغيب

بلاغةُ اللّامِ ودلالتُها:

اللّامُ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لبيانِ أنَّ غايةَ الاهتداءِ هي نفعُ المُهتدي نفسِه، واللّامُ دالّةٌ على المِلْكِ، ففيه استعارةُ معنى النَّفعِ؛ فإنَّما يُملَكُ الشَّيءُ النّافعُ الَّذي يُدَّخرُ للنَّوائبِ(1)، وفي التَّعبيرِ بها هنا تنبيهٌ على أنَّ الاهتداءَ نِعْمةٌ وغِنًى لصاحبِه، وفي ذلكَ زيادةُ تحريضٍ للسّامعينَ على الاهتداءِ بهَدْيِ القرآنِ؛ رجاءَ النَّفْعِ والخيرِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ النَّفْسِ:

جيءَ بلفظِ (النَّفْسِ) في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ولم يُقَلْ: (فإنَّما يهتدي لَهُ)؛ لبيانِ أنَّ منفعةَ الاهتداءِ راجعةٌ إلى المهتدي نفسِه حقيقةً، ولدفعِ توهُّمِ التَّجوُّزِ في الكلامِ؛ إذ لو قيلَ: (لَهُ) لربَّما ظُنَّ أنَّ المنفعةَ راجعةٌ إلى مَنْ لهُ صِلَةٌ به، كابنِه، أو زوجِه، أو أخيه، أو أحدِ أبويه، أو نحوِ ذلكَ، ولمّا كانت النَّفسُ أهمَّ ما يُرجى له الخيرُ من صاحبِها، ذَكَر النَّظمُ هذا اللَّفظَ لتحفيزِ المهتدي وتطمينه على نيل نفسِه تلك المنافعَ والخيراتِ.

بلاغةُ عطفِ القسيمِ على قسيمه:

الواوُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ونُكْتَةُ العطفِ: استكمالُ ذِكْرِ أفرادِ ما يتفرَّعُ على تلاوةِ القرآنِ مِن انقسامِ النّاسِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ الكريمِ بتعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ، وبالعكسِ، وفيهِ زيادةُ تنويهٍ بشأنِ الاهتداءِ؛ لأنَّ بيانَ قُبْحِ الضَّلالِ وسوءِ عاقبتِه يزيدُ الاهتداءَ بَهاءً وجلالًا في أعيُنِ المُهتدينَ، ويدعوهم إلى التَّمسُّكِ به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 419.

بلاغةُ استعمال مفردةِ الضَّلالة دونَ الكفرِ:

الضَّلالُ أعمُّ منَ الكفرِ، والكفرُ إحدى ثمراتِه وفروعِه

جاء استعمالُ مفردةِ الضَّلالِ دونَ الكفرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقابلةِ الاهتداءِ، فالضَّلال يدخلُ فيه كلُّ أنواعِ الكفرِ والسُّلوكِ المؤدّي إلى الخُسران، ودخولِ النّيران، فكان هذا اللّفظُ أعمَّ من لفظ الكفر، ممّا أفاد التَّنبيهَ والتَّحذيرَ منه، فإنَّ الإنسانَ لا يبدأُ كافرًا، بل يبدأ بطريقِ الضَّلال لينتهيَ إلى أعظمِه وهو الكفر، فكان ذِكْرُ البداية أدلَّ على التَّحذيرِ من ذكر النِّهاية، والأعمّ أقوى من ذِكْر الأخصّ.

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

التَّنبيهُ على طريقَي الخيرِ والشَّرِّ

في الآيةِ طباقٌ بينَ فعلي ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾، وهو منَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وفائدتُهُ بيانُ حالينِ متقابلَين، وهما حالُ مُهتدٍ راسخٍ في اهتدائِه، وحالُ ضالٍّ غارقٍ في غَيِّه وضلالِه، والغرضُ منْ ذلكَ أنْ يتأمَّلَ النّاظرُ مآلَ كلٍّ منَ الحالينِ، ليختارَ ما فيهِ رُشْدُهُ ونَجاتُهُ.

بلاغةُ إيثارِ الإثبات على النَّفي:

ضلالُ الضّالِّ حُكمٌ حتميٌّ

جاء التَّعبيرُ عن إثباتِ الضّالِّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾، دون النَّفي فلم يقلْ: (ومن لم يَهْتَدِ)؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يدلُّ على ضلالِه بدلالةِ المطابقةِ، وقولَ: (ومن لم يَهْتدِ) يدلُّ عليهِ بدلالةِ الالتزام، والأوَّلُ - لِما فيه مِنَ التَّصريحِ بضلالِه - أنسبُ بصُنعةِ التَّضادِّ بينَهُ وبينَ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾، وأبلغُ في الذَّمِّ[1]، وأوجَزُ، كما أنَّ إثباتَ الضَّلال حُكمٌ حتميٌّ، بخلاف (من لم يهتد) فإنَّ الحُكم لم يتمحّض بعد.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

ارتباطُ الفاء بالجوابِ ارتباطُ السَّببِ بنتيجته

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أنْ يكونَ جوابَ الشَّرطِ، بتقديرِ عائدٍ على اسمِ الشَّرطِ، أي: مِنَ المُنذِرينَ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 463.

لهُ[1]، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وفائدتُها زيادةُ رَبْطِ الجزاءِ بالشَّرطِ، وتقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما. ويحتملُ أنْ يكونَ الجوابُ محذوفًا، والتَّقديرُ: فوبالُ ضلالِه عليه[2]، أو: فإنَّما يَضِلُّ عليها، وأُقيمَ ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ مُقامَهُ؛ لكونِه كالعِلَّةِ لهُ، فالفاءُ للتَّعليلِ[3].

نُكْتَةُ ذكرِ فعلِ القولِ:

إنذارُ اللهِ حَريٌّ بتلقِّيه، جديرٌ بتحرّيه

ذُكر فعلُ القولِ ﴿فَقُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، ولم يُقَلْ: (ومَنْ ضلَّ فإنَّما) بحذفِه؛ لتأكيدِ أنَّ حظَّ النَّبيِّ ﷺ مِنْ دعوةِ المُعرِضينَ الضّالّينَ أنْ يُبلِّغَهم الإنذارَ، فلا يطمَعوا بإعراضِهم أن يُلِحَّ عليهم؛ ليَقْبَلوا دعوتَهُ[4]، وافتتاحُ الجملةِ بالأمرِ بالقولِ فيهِ تنبيهٌ على أنَّهُ تبليغٌ عن اللهِ تعالى، فهو جديرٌ بالتَّلقّي بأُذُنٍ واعيةٍ.

نُكْتَةُ حذفِ المَقولِ لهُ:

إطلاقُ الإعلامِ بالإنذارِ خيرٌ منَ التّقييدِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فقلْ لهُ) برعايةِ لفظِ (مَنْ)، أو (فقلْ لهُم) برعايةِ معناها، لكنْ حُذِفَ المَقولُ لهُ في قولِه تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ ليكونَ القولُ مطلقًا عامًّا للضّالِّ وغيرِه، أي: فقلْ للضّالِّ ولغيرِه ممَّن هو على شفا جُرُفٍ: إنَّما أنا مِنَ المُنذِرينَ؛ ليظهرَ للجميعِ براءةُ ساحتِكَ مِنَ التَّقصيرِ في أداءِ واجبِ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى، وليكون قولُك مطلقًا غيرَ مقيّدٍ بضالٍ دون سواه.

نوعُ القَصْرِ وفائدتُه:

وبالُ الضَّلالِ مختصٌّ بصاحبِه، قاصرٌ عن بلوغِ غيرِه

كانَ بعضُ المشركينَ يُظهرُ أنَّهُ يَغيظُ النَّبيَّ ﷺ بالبقاءِ على الكفرِ، فجيءَ بالقصرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وهو مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ قصرَ قلبٍ؛ لإفادةِ أنَّ ضلالَهُ

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 647.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 647.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 463.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

مقصورٌ على التَّعلُّقِ بمَضَرَّةِ نفسِه، لا يتجاوزُهُ إلى التَّعلُّقِ بمَضَرَّةِ النَّبيِّ ﷺ[1]؛ لأنَّهُ ما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ، وقد بلَّغَ ﷺ، وفي ذلك دفعٌ لِما عسى أن يتوهَّمَ بعضُهم مِنْ حرصِهِ ﷺ على هدايتِهم أنَّهُ يرجو بذلكَ دفعَ ضُرٍّ عن نفسِهِ.

نُكْتَةُ تقديمِ المسند إليه:

الأصلَ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ إذا لم يكنْ هناكَ مُقتَضٍ لتأخيرِهِ

قُدِّمَ ﴿أَنَا۠﴾ على ﴿مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّ الأصلَ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ إذا لم يكنْ هناكَ مُقتَضٍ لتأخيرِهِ، ولأنَّ المقصورَ عليهِ هو ﴿مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، وهو يُؤخَّرُ في (إنَّما)[2].

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

النَّبيُّ ﷺ بعضُ المُرسَلينَ المُنذِرينَ

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فيُفيدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعضُ المُرسَلينَ المُنذِرينَ، وفردٌ مِنْ أفرادِهم، وسنَّةُ هؤلاء المُرسلين أن يكونوا مُبَلِّغين ما أمرهم ربُّهم به، والرَّسول كذلك، فهو مبلِّغ عن ربِّه بشيرًا ونذيرًا.

نُكْتَةُ إيثارِ الجمعِ على الإفرادِ:

الإنذارُ شأنُ جميعِ المُرسَلين وسُنَّةُ كلِّ النَّبيِّين

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بالجمعِ دونَ الإفرادِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ فلم يقل: (إنَّما أنا مُنذِرٌ)؛ لبيانِ انخراطِه في الثُّلَّةِ النَّبويّةِ العظيمةِ؛ إذ معناهُ: إنَّما أنا مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو النِّذارةُ، وفي ذلكَ بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ واحدٌ مِنَ الرُّسُلِ، وسُنَّتُهُ سُنَّتُهم، وهي التَّبليغُ[3]، فكما لم يَلْحَقْهم ضُرٌّ بإعراضِ المُكذِّبينَ لهُم فهو كذلكَ، مع ما في ذلك من مراعاةِ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ فنِّ الاحتباكِ:

حَذْفُ البِشارةِ لحضورِ أصلِها، وذِكْرُ النِّذارةِ للتَّنبيهِ على وبالِ مخالفتِه

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 309.
(2) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 57.

﴿أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ إيجازٌ بديعٌ يُسمَّى الاحتباكَ، فقد حُذفَ مِنَ الجملةِ الأولى ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الثّانيةِ، وحُذِفَ مِنَ الثّانيةِ ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الأولى، فذكرُ النِّذارةِ يقتضي إثباتَ البِشارةِ، وذِكْرُ النَّفْعِ يقتضي إثباتَ الضُّرِّ، والتَّقديرُ: (فمَنِ اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسِه، وقلْ: إنَّما أنا مِنَ المُبشِّرينَ، ومَنْ ضلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها، وقلْ: إنَّما أنا مِنَ المُنذِرينَ).

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

نظمُ التّراكيب والمباني تابعٌ لدلالةِ السّياق والمعاني

تشابهَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ معَ قولِه: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس: 108]، وقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [الزمر: 41]. فقد قُصِرَ الاهتداءُ على المهتدي في آيتَيْ يونسَ والنَّملِ، وتُرِكَ في آيةِ الزُّمَرِ؛ لأنَّ آيتَيْ يونسَ والنَّملِ فيهما أمرٌ بمخاطَبةِ المشركينَ، فكانَ المقامُ فيهما مناسبًا لبيانِ أنَّ فائدةَ اهتدائِهم لا تعودُ إلّا لأنفسِهم، وليسَ للنَّبيِّ ﷺ منفعةٌ مِن اهتدائِهم، خلافًا لآيةِ الزُّمَرِ؛ فإنَّها خطابٌ موجَّهٌ مِنَ اللّهِ إلى رسولِه ﷺ، وليسَ فيها حالُ مَنْ يُنزَّلُ منزلةَ مَنْ يَمُنُّ على النَّبيِّ ﷺ باهتدائِه.

أمّا صيغةُ القصرِ في قولِه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [يونس: 108] فهي لتنزيلِ الرَّسولِ ﷺ في أَسَفِه على ضلالِهم المُفضي بهِم إلى العذابِ منزلةَ مَنْ يَعودُ عليه ضرٌّ مِنْ ضلالِهم، فخوطِبَ بصيغةِ القصرِ، وهو قصرُ قلبٍ في الآياتِ الثَّلاثِ؛ فإنَّ قولَهُ هنا: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ في معنى قولِه في الآيتينِ: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [يونس: 108][1]، كما بُيِّنَ في نُكتةِ الاحتباكِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 22.

فائدةُ العطفِ ودلالته:

القيامُ بحقِّ النّذارةِ موجبٌ للحمدِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ: الحثُّ على الحمدِ بعدَ ذكرِ ما وفّقَ اللّهُ نبيَّهُ ﷺ مِنَ القيامِ بأداءِ الرِّسالةِ وبالإنذارِ[1]، فدلَّ على أنَّ القيامَ بحقِّ النّذارةِ موجبٌ للحمد.

نُكْتَةُ تكرارِ فعلِ القولِ:

من فوائدِ التَّكرارِ العنايةُ بالمذكورِ والتَّنبيهِ على أهميّته

آثرَ النَّظمُ الكريم تكرارَ فعلِ الأمر (قل) دون الاكتفاءِ بدلالة العطفِ على الجملة السّابقة: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ وذلك لإظهارِ مزيدِ العنايةِ بمضمونِ هذا المَقولِ، والتّنبيهِ على أنَّهُ خَليقٌ بأنْ يُتلَقّى بالاهتمامِ مِنَ السّامعِ، ولذلكَ جيءَ بِهِ في صورةِ كلامٍ مُستقلٍّ عن سابقِهِ، ولو كانَ مِنْ جملةِ المَقولِ السّابقِ لربَّما ظنَّ السّامعُ أنَّهُ تابعٌ لهُ، ومِنْ تتمَّتِهِ؛ فلم يلتفتْ إليهِ، كما أنَّ في التَّصريحِ بالقولِ تعليمًا للخَلْقِ أنْ يحمدوا اللّهَ تعالى؛ إذ قُدوتُهم في ذلكَ النَّبيُّ ﷺ.

بلاغةُ حذفِ المَقولِ لهُ:

شأنُ الحامدِ إظهارُ المحامدِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ حذفَ المقولِ له، فلم يقل: (فقلْ لهم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ ليكونَ القولُ مطلقًا شاملًا لكلِّ النّاسِ، أي: فقلْ لهؤلاءِ ولغيرِهم: الحمدُ للّهِ، وليكون الاقتداءُ عامًّا لكلِّ مَن يصلح أن يقع منه الحمد، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ مِنْ شأنِ الحامدِ إفشاءَ حمدِ اللّهِ تعالى وإظهارَهُ والإكثارَ منهُ، بحيثُ يتَّصلُ بسمعِ كلِّ مَنْ سمعَ الخطابِ؛ ليكونَ في ذلكَ تحدُّثٌ بنعمةِ اللّهِ مِنْ غيرِ كِبْرٍ ولا بَطَرٍ، وابتهاجٌ بها، وهو أدعَى لطلبِ المزيدِ مِنَ المُنعِم.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

حمدُ اللهِ دائمٌ في لسانِ العالِم

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على دوامِ الحمدِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 576.

وثباتِه[1]، فحمدُ اللّهِ تعالى لا ينقطعُ؛ لأنَّ إحسانَهُ سبحانَهُ لا ينقطعُ، ولو أنَّ العبدَ قضَى عُمُرَهُ كلَّهُ في حمدِ اللّهِ تعالى على نِعَمِهِ ما وفّاهُ حقَّ حمدِهِ ولا أقلَّ مِنْ ذلكَ.

نوعُ التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

جميعُ أفرادِ المحامدِ راسخةٌ في صدرِ الحامد

تعريفُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ للجنسِ، ويلزمُ منهُ معنى الاستغراقِ؛ لأنَّ الحُكمَ باختصاصِ جنسِ الحمدِ بهِ تعالى - لوجودِ لامِ تعريفِ الجنسِ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، ولامِ الاختصاصِ في ﴿لِلَّهِ﴾ - يستلزمُ انحصارَ أفرادِ الحمدِ في التَّعلُّقِ باللّهِ سبحانَهُ؛ لأنَّهُ إذا اختصَّ الجنسُ اختصَّتْ أفرادُهُ[2]، والمعنى: جنسُ الحمدِ للّهِ تعالى، ويلزمُ منهُ أنَّ جميعَ أفرادِ المحامدِ لهُ جلَّ ذكرُهُ.

غرضُ تقديمِ المسندُ إليه:

النِّعَمُ تُتلقَّى منَ العبدِ، ودوامُها يبقى بالحمدِ

قُدِّمَ ذِكرُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ على ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حمدٍ؛ إذ هو تَعْدادٌ لنِعَمٍ جليلةٍ تستوجبُ الحمدَ، وهي التَّوحيدُ، والإسلامُ، وتلاوةُ القرآنِ، ولو أُخِّرَ لفظُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ لأخلَّ بالاهتمامِ، وأهمّيَّةُ الحمدِ عارضةٌ، وأهمّيَّةُ ذكرِ اللّهِ ذاتيَّةٌ، والأهمّيَّةُ العارضةُ تُقدَّمُ على الأهمّيَّةِ الذّاتيَّةِ؛ لأنَّها أمرٌ يقتضيهِ المقامُ والحالُ، ولمّا تعلَّقَ الحمدُ باسمِ اللّهِ تعالى، كانَ في الاهتمامِ بِهِ اهتمامٌ بشؤونِ اللّهِ ﷻ[3].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

الحمدُ استحقاقٌ واجبٌ، واختصاصٌ ثابتٌ للمتعالي سبحانه

الظّاهرُ أنَّ اللّامَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاصِ، فتفيدُ اختصاصَ الحمدِ باللّهِ تعالى، وفيها تنبيهٌ للعبدِ على ضرورةِ نسبةِ النِّعَمِ للمُنعِمِ بها، وصَرْفِ الحمدِ لمُستحِقِّهِ، فذلكَ مِنْ كمالِ الشُّكرِ، فالنِّعَمُ كلّها - ومنها النِّعَمُ المذكورةُ هنا - فَيْضٌ مَحْضٌ مِنْ فُيوضاتِ رحمتِهِ سبحانَهُ وإحسانِهِ، وليسَ لغيرِهِ سبحانَهُ منها قِطْميرٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 159 - 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 163.

فائدةُ استعمالِ لفظِ الجلالةِ:

لفظُ الجلالةِ دالٌّ على جميع الأسماء والصّفات

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسْنى في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لكونِهِ دالًّا على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ، وجامعًا لكلِّ الصّفاتِ والأسماءِ، ولأنَّهُ قد تقدَّمَ ذكرُ العبادةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، ولفظُ الجلالةِ أنسبُ بها؛ إذِ اللّهُ سبحانَهُ هو المعبودُ بحقٍّ.

فائدةُ الاستئنافِ:

تحقُّقُ الوعيدِ مقطوعٌ بهِ، مدفوعٌ خلافه

قولُهُ تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ داخلٌ في مَقولِ القولِ، وقد جيءِ بهِ مستأنفًا؛ للاحتراسِ ممّا يتوهَّمُهُ الكفّارُ حينَ يسمعونَ آياتِ تَبرُّؤِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ معرفةِ الغيبِ، وقصرِ مقامِ الرِّسالةِ على الدَّعوةِ إلى الحقِّ - مِنْ أنَّ الوعيدَ بالعذابِ لا يتحقَّقُ، فخُتِمَ الكلامُ ببيانِ أنَّ اللّهَ لا يُخلِفُ وعدَهُ[1]، وسيريهم آياته التي وعدهم بها.

دلالةُ استعمالِ السّينِ:

مجيءُ المُتوعَّدِ بهِ دانٍ قريبٌ

السّينُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مُؤذِنةٌ بأنَّ هذه الإراءَةَ قريبةٌ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على وقوعِها لا محالةَ، والمعنى: سَيُريكم البتَّةَ في الدُّنيا آياتِه الباهرةَ التي نطقَ بها القرآنُ[3]، وفي السّينِ أيضًا إشارةٌ إلى فتحِ بابِ التَّوبةِ والإمهالِ، وأنَّهُ ما يزالُ أمامَهم فُرصةٌ؛ ليتفكَّروا ويُذعِنوا للحقِّ قبلَ أنْ يَحيقَ بهم ما كانوا بهِ يُكذِّبونَ ويستهزؤونَ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

بيانُ دُنوِّ وقوعِ الإراءةِ والعرفانِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾؛ لأنَّ الإراءَةَ والمعرفةَ أمرانِ حاصلانِ في المستقبلِ، والمضارعُ يدلُّ على المستقبلِ إنْ كانَتْ قرينةٌ، والقرينةُ هنا هي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307.

السّينُ في ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾، فكان التَّعبيرُ بصيغة المضارع الدّالّ على المستقبل؛ للإيماءِ إلى الوعيد المُكتنَز في بداية وقوع الفعل المضارع، فاكتسى بزمن القُرب الشَّديد، كأنَّه قيل: إنّ الإراءة قريبةٌ، وبدايتَها في لحظات الفعل القادمة.

غرضُ الإخبارِ بإراءةِ الآياتِ:

قــزعُ أسماعِ المشركينَ بالوعيدِ، والاستعلاءُ عليهم بالتَّهديد

في قولِه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ تهديدٌ للمعاندِينَ بما سيُريهم اللّهُ مِنْ آياتِه الَّتي تُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللّهِ، وذلكَ حينَ لا تنفعُهم المعرفةُ[1]، وفي هذا التَّهديدِ تحريكٌ لسِلْسِلةِ الطّاعةِ والإنابةِ، وكَسْرٌ لسَوْرَةِ الجامحِ الأَبيِّ منهُم، واستنزالٌ لطائرِ كِبْرِهم وعنادِهم.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الآياتِ:

وقوعُ الآياتِ علامةُ الصِّدقِ وأمارةُ الحقِّ

جاء التَّعبيرُ عنِ المُتوعَّدِ بِه في قولِه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ بالآياتِ؛ إشارةً إلى أنَّه سيحِلُّ بهِم ما يكونُ علامةً على تصديقِ ما أخبرَهم بِه الرَّسولُ ﷺ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ للمشركينَ، وتنديمٌ لهُم حيثُ فوَّتوا النَّجاةَ على أنفسِهم.

فائدةُ جمعِ لفظِ الآياتِ:

الآياتُ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ لزيادةِ التَّهديدِ والوعيدِ

جُمِع لفظُ الآياتِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ الآياتِ وتنوُّعِها وتعدُّدِها؛ فالمرادُ بها - إنْ كانَ الخطابُ للمُكذِّبينَ في عهدِ النُّبوَّة كما هو الظّاهرُ - الدُّخانُ وما حلَّ بهِم مِنْ نِقَمِ اللّهِ تعالى، أو خروجُ الدّابَّةِ وسائرُ أشراطِ السّاعةِ، إنْ كانَ الخطابُ لجنسِ النّاسِ، لا لمَنْ في عهدِ النُّبوَّة[3].

كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ زيادةَ تخويفٍ وتهديدٍ للمعانِدينَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 249.

الجاحدينَ بكثرةِ ما سَيَرَوْنَ، وفَتٌّ مِنْ عَضُدِهم، وفيهِ كذلكَ إشارةٌ إلى تكذيبِهم بآياتٍ كثيرةٍ، وفي ذلكَ توبيخٌ لهُم، وتقبيحٌ لحالِهم؛ إذ يَصدُقُ عليهِم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101].

بلاغةُ إضافةِ لفظِ (آيات) إلى الضّمير:

عَظَمةُ الآياتِ تعظُمُ في القلوبِ وتكبُرُ في الصُّدور

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ وتفخيمِها، ففيه بَثٌّ للرُّعْبِ في قلوبِ المعانِدينَ المُكذِّبينَ؛ لعلَّهم يَرْعَوونَ عمّا هم فيه، وينزجرونَ عن غَيِّهم وضلالِهم، عند معرفةِ أنَّ هذه الآياتِ هي آياتُ العظيمِ جلَّ في علاه، وقد تناغمَتْ هذهِ الإضافةُ الجليلةُ في هذا الموضعِ معَ إضافاتٍ في مواضعَ سابقةٍ في السّورة، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ [النّمل: 83 - 84].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾:

سُرعةُ تحقُّقِ المعرفةِ عَقِبَ وقوعِ الإراءة

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفائدةُ العطفِ بها التَّنبيهُ على ترتُّبِ معرفةِ الآياتِ على إراءتِها، وإيذانٌ بسُرعةِ حصولِ المعرفةِ بعدَ تحقُّقِ الإراءةِ، ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِنَ الغَمْزِ في عُقْدةِ رأيِ المُكذِّبينَ؛ إذ يُنكِرونَ الآياتِ على كثرتِها وتنوُّعِها، وإذا جاءَتْ ساعةُ الحقيقةِ وعاينوها، هُرِعوا إلى ساحةِ التَّصديقِ، وهذا دالٌّ على أنَّ أصلَ التَّصديقِ حاصلٌ عندهم، وما هم إلّا مكذِّبون مُراوِغون.

بلاغةُ جملةِ التَّذييل:

أعمالُ المشركينَ في ميزانِ الحقِّ تستوجِبُ الحسابَ ولو بعدَ حين

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ليسَ داخلًا في جملةِ المَقولِ، بل هو كلامٌ مَسوقٌ مِنْ جهتِهِ تعالى بطريقِ

التَّذييلِ؛ لتقريرِ ما قبلَهُ[1]، ووجهُ التَّقرير: أنَّ كونَهُ تعالى غيرَ غافلٍ عن أيِّ عملٍ، يعني: أنَّهُ يُجازي كلَّ عاملٍ على عملِه، فيُؤكِّدُ كونَ أعمالِ المشركينَ تستوجبُ ما سيرونَهُ مِنَ الآياتِ، ففيها تطمينٌ لقلبِ النّبيّ ﷺ، وقلوبِ المؤمنين، من أنَّ ما سيقع منَ الظّالمين في الدُّنيا ما هو إلّا بإذن اللّه تعالى، وأنّه ليس بغافلٍ ولا تاركٍ أعمالهم تجري كما يحسبون. وجوَّزَ ابنُ عاشور في هذا التَّذييلِ أنْ يكونَ مِنْ تمام ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يقولَهُ للمشركينَ[2]، ويَرِدُ عليهِ أنَّهُ لو كانَ كذلكَ لقيلَ: (وما ربُّكم)، أو (وما ربّي).

بلاغةُ استعمالِ أداة النَّفيِ (ما):

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ نافيةٌ، وقد استُعملت هذه الأداة دون غيرها من أدوات النّفي لإفادة العموم، أي: نفيُ أيّ غفلةٍ قد تُلْمَح في ذِهن أحد.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

وَعْـــدُ المطيع ووعيدُ العاصي مِنْ آثارِ التَّربية الرّبّانيّة

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ لفظَ الرَّبِّ يدلُّ على التَّربية والإحسانِ والرَّحمةِ، ومِنْ وجوهِ الإحسانِ للعبادِ إصلاحُهم بالتَّكاليف، وحثُّهم على الالتزام بها؛ لذَوْدِهم عن حياضِ العذابِ الأليم، فلَفْظُ الرَّبِّ أنسبُ بمقامِ الآيةِ الَّذي امتزجَ فيهِ وعدُ المؤمنينَ بوعيدِ المُكذِّبينَ المعاندينَ، الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئات.

غرضُ إضافةِ لفظ (رب) إلى ضمير الخطاب:

تشريفُ المخاطَب بإثباتِ عبوديّته

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإشعارِه بمعيَّة اللّه تعالى وإحسانِه، وتشريفِه بكونِه مربوبًا للّهِ تعالى، فالعبوديَّةُ للّهِ تعالى شَرَفٌ وعِزَّةٌ للعبدِ، وليسَتْ كعبوديَّةِ العبدِ للعبدِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 59.

عِلَّةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عدمُ غفلتِه تعالى جاريةٌ مَجرى الأمثالِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وما هو بغافلٍ عمّا تعملونَ)؛ لرجوعِ الضَّميرِ إلى لفظِ الجلالةِ المذكورِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لِما في اسم الرَّبِّ مِنَ الدّلالةِ على الاعتناءِ بصلاحِ المربوبينَ كما تقدَّمَ، ولأنَّ الجملةَ تذييلٌ، والإظهارُ يجعلُها مُستقِلَّةً بنفسِها، فتجري مَجْرَى الأمثالِ والحِكَمِ، بخلافِ ما لو قيلَ: (وما هو)؛ فإنَّها لا تكونُ مُستقِلَّةً؛ لارتباطِ الضَّميرِ بمرجعِهِ السّابقِ.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

توكيدُ عدمِ غفلتِهِ سبحانَهُ عن أعمالِ العبادِ

الباءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ واقعةٌ في حيِّزِ خبرِ (ما)، جاءت لتوكيدِ عدمِ غفلتِهِ سبحانَهُ عن أعمالِ العبادِ، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ مُحقَّقٌ، لا امتراءَ فيه.

بلاغةُ استعمالِ (عن):

أعمالُ العبادِ في كتابٍ يُحصي الصّغائرَ والكبائرَ

حرفُ الجرِّ (عن) في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ للمجاوزةِ، وفائدةُ استعماله المبالغةُ في بيانِ عدمِ غفلتِهِ جلَّ ذِكرُهُ عن أعمالِ العبادِ، وإفادةِ أنَّ أعمالَهم لا تَفوتُ علمَهُ سبحانَهُ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ مُتجاوِزًا ما تعملونَهُ دونَ اطِّلاعٍ عليهِ، وإحصاءٍ لهُ، بل هو محصٍ له، جامعُه في كتابٍ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

علمُهُ تعالى مُحيطٌ بجميعِ أعمالِ العبادِ

الظّاهرُ أنَّ (ما) في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ موصولةٌ، والتَّقديرُ: (عن الذي تعملونَهُ)، وقد جيءَ بالموصولِ لإفادةِ العمومِ، وأنَّهُ سبحانَهُ لا يغفلُ عن شيءٍ مِنْ أعمالِ العبادِ، كبيرًا كانَ أو صغيرًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، وفي ذلك زيادةُ تهديدٍ ووعيدٍ، وإيقاظٌ لِمَنْ قد تُحدِّثُهُ نفسُهُ أنَّ اللّهَ لا يَطَّلِعُ على خفيّاتِ أعمالِهِ.

ويحتملُ أنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً، والمعنى: (عن أعمالِكم).

سِرُّ تعليقِ وصفِ الغافلِ بالعملِ:

مـن أحـاط علمُه بالأعمالِ فـإحـاطـتُـه بالذّوات أولى

قولُه جلَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ دالٌّ على أنَّهُ سبحانَهُ يُعطي كلَّ عاملٍ جزاءَ عملِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، ولذلكَ عُلِّقَ وصفُ الغافلِ بالعملِ، ولم يُعلَّقْ بالذَّواتِ، فلم يُقَلْ: (بغافلٍ عنكم)؛ إيماءً إلى أنَّ على العملِ جزاءً[1]، وأنَّ العملَ هو محلُّ الحساب والجزاء، وللتَّنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان لا يغفل عن أعمالكم سبحانه، فكيف يغفل عنكم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ العملِ دونَ الفعلِ:

مـقـامُ الـجـزاءِ تُلائمه أعمالُ القصْدِ

اختيرَ لفظُ العملِ دونَ الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ العملَ يدلُّ على المثابرةِ على الشَّيءِ، ويكونُ بقصدٍ، ففي التَّعبيرِ بِهِ دلالةٌ على أنَّ ما يُجازي اللّهُ تعالى عليهِ عبادَهُ مِنَ الأعمالِ هو ما صدرَ بقصدٍ عنهُم، لا سيَّما إنْ تكرَّرَ منهُم، وأُشرِبوا في قلوبِهم حُبَّهُ والمثابرةَ عليهِ، كما هو شأنُ الكفرةِ معَ الكفرِ والتَّكذيبِ بالآياتِ والاستهزاءِ بها، وأمّا الفعلُ فيكونُ بقصدٍ وغيرِ قصدٍ، فلا يلائمُ المقامَ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ جزاء.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قـراءةُ الخطابِ وعـدٌ ووعـيـدٌ، وقـراءةُ الغَيبةِ وعيدٌ شديد

قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالخطابِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالغَيبةِ[2]، أمّا على قراءةِ الخطابِ فيكونُ في الكلامِ وعدٌ ووعيدٌ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملُ أنتَ مِنَ الحسناتِ، وما تعملونَ أنتم أيُّها الكفرةُ مِنَ السَّيِّئاتِ، فيُجازي كلًّا منكم بعملِه، وتخصيصُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ بهِ ﷺ، وتعميمُهُ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ للكفرةِ تغليبٌ. وأمّا على قراءةِ الغَيبةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ فالكلامُ وعيدٌ مَحْضٌ، والمعنى: وما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 196.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 263.

ربُّكَ بغافلٍ عمّا يعملُ الكفرةُ، فسيُعذِّبُهم البتَّةَ، فلا يظنّوا أنَّ تأخيرَ عذابِهم لغفلتِه عن أعمالِهم[1].

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

كثيرُ العملِ وقليلُهُ سواءٌ في علمِ اللهِ تعالى

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمعنى: وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملونَ من أعمالِكم الصّادرة عنكم باستمرارٍ، فتفيدُ الجملةُ مبالغةً في إحاطةِ علمِه ﷻ بأعمالِهم، وأنَّهم لا يُحْدِثونَ عملًا إلّا وعِلْمُ اللّهِ تعالى محيطٌ به، فلا يَخفَى على اللّهِ منهُم شيءٌ، ولا تشغلُهُ كثرةُ أعمالِهم، بل قليلُ عملِهم وكثيرُهُ سواءٌ في علمِهِ تعالى.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الفعل:

حَذْفُ المُتعلّقِ يدلُّ على العمومِ

حُذف متعلّق فعلِ العمل في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على العمومِ، وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا تعملونَ من جميعِ أعمالِكم فتشمل الخفيَّ والظّاهر.

مناسبةُ الختامِ لفاتحةِ السّورة:

اشتمالُ فاتحةِ السّورةِ وخاتمتِها على التَّنويهِ بشأنِ القرآنِ

قال تعالى في فاتحةِ السّورةِ: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ [النّمل: 1 - 5]، وقالَ في خاتمتِها: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. ويُلحَظُ أنَّ آخِرَ السّورةِ فيهِ تفخيمٌ لشأنِ القرآنِ، وتقسيمٌ للنّاسِ في شأنِهِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ، فعانقَ أوَّلَها المشتملَ على ذلكَ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 307، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 249.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 231.

والتقَى الافتتاحُ والاختتامُ على أمرٍ قد قُدِرَ، فجَلَّ كلامُ علّامِ الغيوبِ وخالقِ القوى والقُدَرِ.

الفروق المعجميَّة:

المعرفةُ والعِلْمُ:

المعرفةُ أخصُّ مِنَ العِلمِ؛ لأنَّها عِلمٌ بعينِ الشَّيءِ مُفصَّلًا عمّا سواهُ، والعِلمَ يكونُ مُجمَلًا ومُفصَّلًا، ويتبيَّنُ الفرقُ بينَهما في الموضعِ الذي ترد فيه، فقولُكَ مثلًا: علمتُ أنَّ لزيدٍ ولدًا، وقولُكَ: عرفتُ أنَّ لزيدٍ ولدًا، بمعنًى واحدٍ[1]، كما أنَّ المعرفةَ يقابلُها الجحودُ، والعلمُ يقابلُهُ الجهلُ، وقد عُبِّرَ بالمعرفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الكافرينَ حينَ يرونَ آياتِ اللّهِ الَّتي كانوا يُكذِّبونَ بها يعلمونَ أعيانَها عِلْمًا مُفصَّلًا، ويُدرِكونَ حقائقَها، ويُقِرّونَ بكونِها آياتٍ للّهِ، ولا يستطيعونَ جحودَها، وهي أنسبُ بما في لفظِ الآياتِ مِنْ معنى الدّلالةِ والعلامةِ[2].

المعرفةُ أخصُّ مِنَ العِلْمِ لاختصاصِها بالتَّفصيلِ والعِلْمُ بالإجمالِ

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّلاوةَ لا تكونُ إلّا لكلمتينِ فصاعدًا، والقراءةَ تكونُ للكلمةِ الواحدةِ، يقالُ: قرأَ فلانٌ اسمَهُ، ولا يقالُ: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ التِّلاوةَ في الأصلِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، فتكونُ في الكلماتِ يُتبَعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ[3]، كما أنَّ التِّلاوةَ تختصُّ بكُتُبِ اللّهِ المُنْزَلةِ، فهي أخصُّ مِنَ القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً[4].

التِّلاوةُ اختصَّت بتلاوة الكتب المُنزلة، بخلاف القراءة فهي أعمّ

وقد اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ لفظُ التِّلاوةِ دونَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 500.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 58.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.
(4) الرّاغب، المفردات: (تلو).

القراءةِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على المواظبةِ وتكشُّفِ الحقائقِ والمعاني للتّالي شيئًا فشيئًا؛ لأنَّهُ موضوعٌ لإتباعِ اللَّفظِ الثاني للأوَّلِ شيئًا فشيئًا، بخلافِ لفظِ القراءةِ؛ فإنَّهُ موضوعٌ لجمعِ الحروفِ والكلماتِ غيرَ ملحوظٍ في وضعِها معنى الإتباعِ[1].

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 462.

سُورَةُ القَصَصِ

سورة القصص

التّعريف العامّ بالسّورة:

السّورة مكيّةٌ، نزلت بعد سورة النّمل وقبلَ الإسراء

سورة القصص مكّيّة كلُّها عند جمهور العلماء(1)، إلّا قولَه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]، فهي الآية الوحيدة في القرآن التي لا توصف بأنَّها مدنيّة أو مكيّة، فقد نزلت بالجُحْفَة(2)، والجُحْفَة من حيثُ المكان تتوسّط مكّة والمدينة، ومن حيثُ الزَّمن فقد نزلت في الهجرة، فنزلت في وسط زمانيّ ومكانيّ.

ونقل ابن عطيّة استثناءَ آياتٍ منها، وذكر أنَّ بعض أهل العلم صرح بأنَّها مدنيّة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [القصص: 52]، إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: 55]؛ لحديثها عن أهل الكتاب(3)، ومضامينُ الآيات وانسجامُها مع سياقها يسوّغ الشَّكَّ في صحّة الرّوايات(4)، وعددُ آياتها ثمان وثمانون بإجماع علماء العدِّ(5).

ترتيب نزول السورة، وترتيبها في المصحف:

من حيثُ التّرتيب: فهي السّورة الثّامنة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتيّ النّمل والعنكبوت، وهي التّاسعة والأَرْبَعونَ في تَرْتيبِ النُّزولِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ النّمل وقَبْلَ سورَةِ الإسراء(6)، قال ابن عاشور: "نَزَلَت بَعدَ سورَةِ النَّملِ وقَبل

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 248، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 39.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/ 488.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 275.

(4) دروزة، التّفسير الحديث: 3/ 308.

(5) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 201.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 61.

سورةِ الإسراءِ، فَكانَت هَذه الطَّواسينُ الثَّلاثُ مُتتابِعَةً في النُّزولِ كما هوَ تَرتيبُها في المُصحف، وهي مُتَماثِلَةٌ في افتِتاحِ ثَلاثَتِها بِذِكر موسى عليه السلام، ولَعَلَّ ذَلِك الَّذي حَملَ كتّاب المُصحَفِ علَى جعلِها متَلاحِقة"[1].

۞ فضائل السورة:

جاء في فضلِ سورة القصص ما جاء في فضل سور الطّواسين التي قال فيها ﷺ فيما رواه عنه مَعْقِل بْنِ يَسارٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «اعْمَلوا بِالقُرْآنِ، وأَحِلّوا حَلالَهُ، وحَرِّموا حَرامَهُ، واقْتَدوا بِهِ، ولا تَكْفُروا بِشَيْءٍ منه، وما تَشابَهَ عَلَيْكُمْ منه فَرَدّوهُ إلى اللّه وإلى أولي الأَمْرِ مِنْ بَعْدي كَيْما يُخْبِروكُمْ، وآمِنوا بِالتَّوْراةِ والإِنْجيلِ والزَّبورِ، وما أوتيَ النَّبيّونَ من رَبِّهم، ولْيَسَعْكُمُ القُرْآنُ وما فيه مِنَ البَيانِ، فَإِنَّهُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ، وماحِلٌ مُصَدِّقٌ، ألا ولِكُلِّ آيَةٍ نورٌ يوم القيامَةِ، وإنّي أُعْطيتُ سورَةَ البَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الأَوَّلِ، وأُعْطيتُ طَهَ، وطَواسينَ، والحَواميمَ، مِنْ أَلْواحِ موسَى، وأُعْطيتُ فاتِحَةَ الكِتابِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ»[2].

۞ أسماء السّورة الكريمة وسببُ التّسميّة:

القَصَصُ الموصِلُ إلى زهقِ الباطل وإحـقـاقِ الحقِّ هـو الـقَـصَـصُ الحقُّ

لهذه السّورة اسم واحد مُشتهر، هو (القصص)، سُمّيت به في جميع المصاحف، وكتبِ التّفسير والسُّنّة، فقد وردت تسميتُها بذلك في صحيح البخاريّ[3]. وسمّيت سورةَ القَصَص؛ لاشتمالها على مشتقّات لفظِ القَصَص في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]، وقوله تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: 25] أي: قصّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 61.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم: (2087)، وقال: "هذا حَديثٌ صَحيحُ الإِسْنادِ، وَلَمْ يُخَرِّجاهُ". قال الذّهبيّ في المختصر: (1/ 485): "قلت: فيه عبيد الله بن أبي حميد. قال أحمد: تركوا حديثه"، وقد وردت بعض الأخبار في فضل سورة القصص تكلم عليها ابن الجوزي في كتابه، الموضوعات: 2/ 232 - 234.

(3) صحيح البخاريّ: 4/ 1788.

موسى على الرّجل الصّالح في مَدين[1]، وسُمّيت بسورة ﴿طسٓمٓ﴾[2] لأنّها بدأت به، وذُكِر أنّها سمّيت بسورة موسى[3].

فاعتلاقُ هذا الاسم المشتهرِ لها (القصص) بمحورها العامّ، هو في كون القَصَص المتعلّقة بموسى عليه السلام مع فرعون قدِ انتصرت لِمحْور السّورة القائم على بيان سُنّة الله تعالى في نصرة المستضعفين، وقَصْم المستكبرين الظّالمين، وأنّ وعدَ الله تعالى حقٌّ لا يتخلّف، فكانت هذه القصص الأنموذجَ الأوفى بما قام عليه محورُ السّورة الكريمة في قهر الطّغيان السياسيّ المتمثّل بطغيان فرعون، والطّغيان المادّيّ المتمثّل بكنوز قارون.

❁ دلالة التوقيت الزمني لنزول السورة:

القصص القرآني كان فيه تقوية للمؤمنين على أذى المشركين

كما هو معلوم أن السورة مكية نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، وقد لاقى رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ألوانًا من العذاب، فقد مات تحت العذاب من مات، وسلم من سلم، في حين نجد تجمع المال والقوة العددية في يد المشركين، والمسلمون لا يملكون سوى قلوبًا عامرة بالإيمان، يصارعون بها كل جبروت قريش، فنرى تشابهًا واضحًا بين الظروف التي أحاطت بالمسلمين، مع الظروف التي مر بها سيدنا موسى عليه السلام مع قومه، حيث تسلط جبروت فرعون والأقباط على سيدنا موسى عليه السلام وبني اسرائيل يذبح أبنائهم ويستحيي نسائهم[4].

❁ المحورُ العامُّ للسّورة والموضوعات المتعلّقة به:

السّورةُ في معانيها ومبانيها تلتفّ حولَ بيانِ أثرِ القرآن المعجز في تقرير سُنّة الله في نصرة المستضعفين وإهلاك المُستكبِرين

يدور محورُ السّورةِ حولَ إثباتِ قُدرةِ الله تعالى ورعايتِه للمؤمنين،

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 353.
(2) مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التّفسير، جمع وتخريج: محمد الطّرهونيّ، وعبد الغفور البلوشيّ، وحكمت بشير ياسين: 3/ 329.
(3) سليمان الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تَفْسِير الجلالين للدقائق الخفية: 3/ 333، ومطني، سورة القصص: (دراسة تحليلية)، ص: 7.
(4) مطني، سورة القصص: (دراسة تحليلية)، ص: 15.

فهو المُتفرّد بالقضاء والتّدبير، كما تجلّى ذلك في جانب رعايته لموسى عليه السلام[1]، وتقرير سُنّة اللّه تعالى في نُصرة المُحتاجين إلى النّصر، ومؤازرةِ المستضعفين والمظلومين؛ فوَعْدُ اللّه محقّقٌ لا محالة، فلا رادّ لقضائه، فحقَّقتْ بذلك البُشرى للمؤمنين، لذا عرضت السّورةُ الكريمة نماذجَ منَ الطّغيانِ السّياسيّ والعنصريّ والاجتماعيّ، وبيّنت نصرةَ اللّه للحقّ على الباطل.

وقدِ اتّصلت أكثرُ من آيةٍ بهذا المِحور اتِّصالًا مباشرًا واضحًا، في امتنان اللّه تعالى على الفئة المؤمنة، وفي وعد اللّه تعالى لأمِّ موسى بِرَدِّ موسى عليه السلام إليها، وفي استجابة موسى عليه السلام لِنداء المستغيثِ، وفي محاولتِه الانتقامَ منَ الظّالم بعدَها، وفي تحذير الرّجل الصّالحِ موسى عليه السلام منَ الملأ.

وظهرَ الاتّصالُ بمحور السّورة في قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]، وفي نصرة اللّه تعالى لموسى على فرعون تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾ [القصص: 40 - 41].

وفي تقرير سنّته تعالى في نُصرة المستضعفين، وقَصْم الظّالمين في قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58]، ويظهر ذلك مباشرةً فيما فعلَهُ بقارون، الذي يُعدّ أُنموذجًا للطّغيان المادّيّ ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾ [القصص: 81].

وقد ذكرتِ السّورةُ أسبابَ الإعراض، ومظاهرَ الصّدود عنِ الحقّ، من مثل الاستكبار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ [القصص: 4]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ [القصص: 39]، ولذا فقد قرّرتِ السّورةُ في أواخر آياتها: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83].

(1) شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها، ص: 281.

كما أنَّ آياتِ السّورة بيَّنت أسبابَ الإعراض والصّدود، وهو البَطرُ وحُبّ الدّنيا، وإيثارُها على الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58].

موضوعات السورة وخصائصها:

حـضُّ المؤمنين على الـصَّبر لإعـلاء كلمة الـحقِّ وتمكين الدّين

تدور الموضوعاتُ الرّئيسةُ للسّورة حولَ الآتي:

أولًا: تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأنّ العاقبة لهم، وأنّ اللّه تعالى سيجعل من ضعفهم قوّةً، ومن قِلّتهم كثرةً، كما نصر قومَ موسى بعد أن كانوا مغلوبين، وتتجلَّى هذه البشارةُ في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 5 - 6].

ثانيًا: تُعطي السّورةُ الكريمة صورةً زاخرةً بالمعاني الكريمةِ والمُؤثّرة عن حياة موسى عليه السلام الشَّخصيَّة، فهي تحكي حالةَ أُمِّه، وأحاسيسَها، وخلجاتِ قلبِها، وخوفِها عند ولادته، وبعد إلقائه في اليمّ، وبعد أن علمت بالتقاط آلِ فرعون له، وبعد ردّ اللّه تعالى إليها ابنَها، فضلًا منه سبحانه ورحمة، وما جُبِل عليه موسى عليه السلام من مروءة عالية، جعلته يأبى أن يرى مظلومًا فلا ينصره، ومحتاجًا فلا يُعينُه.

ثالثًا: تأكيد أنّ هذا القرآنَ من عند اللّه، بدليل أنّ هذا القرآنَ قد قَصّ على النّبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى النّاس، قَصَصًا لا عِلْمَ لهم بحقيقتها قبلَ أن يَقصَّها عليهم.

رابعًا: اعتنتِ السّورةُ الكريمة ببيان مظاهرِ قدرةِ اللّه تعالى في هذا الكون، وهي واضحةٌ في إهلاك الظّالمين، ونصرةِ المظلومين، وتأييدِ أهلِ الحقّ المبين(1).

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 371_372.

الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة للسّورة:

الخصائص الموضوعيّة:

أولًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة باشتمالها على القصص في نحو (51) آيةً من أصل (88) آيةً، فقدِ احتلّت قصّةُ موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِه نحو (51) آية [3 - 46]، حيثُ صوّرت المراحلَ الثّلاثَ الأولى من حياته: منَ الميلاد حتّى الخروجِ من مصر، ثمّ إقامتَه في مدين، ثمّ العودةَ إلى مصر مَرّة أخرى، وتكليفَه بالنّبوّة في أثناء العودة، ودخولَه مصر وما جرى فيها من تحدّياتٍ وأحداث مع فرعون، ثمّ خروجَه منها، وبعضَ التّعقيبات على القصّة، حيثُ انفردت ببعض التّفصيلات التي لم ترد في غيرها منَ السّور التي عرضت قصّته عليه السلام.

ثانيًا: ذكرتِ السّورةُ قصّةَ قارونَ مع قومه، على أنّه كان من قوم موسى عليه السلام في نحو سبع آيات [76_82]، ولم تشاركها سورةٌ أُخرى في ذِكْر قِصّة طغيان قارون.

ثالثًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بإبراز الإعجاز الغيبيّ في ذكرها لتفاصيل في قصّة موسى عليه السلام، ما كان ليعرفَها صلى الله عليه وسلم لولا الوحيُ، فأكثرت من قول: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ [القصص: 44، 45، 46، 86] في خطابِ النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: تشابهت قصّةُ موسى عليه السلام في هذه السّورة مع قصّة يوسف عليه السلام في السّورة التي حملت اسمَه.

الخصائص الأسلوبيّة:

أولًا: تميّزت السّورةُ الكريمة بأنّها ذكرت جانبًا من قصّة موسى عليه السلام، شاركت فيه جارَتَيها سورةَ الشّعراءِ والنّمل، معَ انفراد كلٍّ واحدةٍ منهما بألفاظ وأنساق تعبيريّة خاصَّة.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بتكرار ذِكْر موسى وفرعون، حيثُ ذُكِر فيها موسى عليه السلام (18) مرّةً من أصل (136) مرّةً، وهي تلي في ذلك سورةَ الأعراف التي ذكرتهُ (21) مرّةً، وذكرت السّورةُ الكريمة فرعونَ (8) مرّات من أصل (74) مرّةً، وهي تأتي بعد سورتيّ الأعراف وغافر، حيثُ ذُكِر في كلٍّ منهما (9) مرّات.

ثالثًا: تميّزتِ السّورةُ بأنّ أغلب فواصلها قدِ انتهت بجمع المذكّر السّالم، أو بالفعل

المضارع المرفوع بثبوت النّون؛ لذا فأكثرُ فواصلِ السّورة ينتهي بحرف النّون، والشّواهدُ على ذلك بلغت نحو (76) فاصلةً من أصل (88) فاصلة.

رابعًا: حوتِ السّورةُ الكريمة آيةً عجيبة تضمّنت: خبريْن، وأمريْن، ونَهييْن، وبشارَتيْن، وهي قولُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7].

خامسًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذِكْر بعضِ الأبنية والمشتقّات الصّرفيّة التي لم تَرِد في غيرها منَ السّور، فمن الأفعال: ﴿لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61]، ﴿ٱسۡتَنصَرَهُۥ﴾ [القصص: 18]، ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾ [القصص: 4]، ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ [القصص: 45]، ﴿تَوَجَّهَ﴾ [القصص: 22]، ﴿فَأَوۡقِدۡ﴾ [القصص: 38]، ﴿يُذَبِّحُ﴾ [القصص: 4]، ﴿بَطِرَتۡ﴾ [القصص: 58]، ﴿لَرَآدُّكَ﴾ [القصص: 85]، ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ [القصص: 13]، ومن الأسماء: ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ [القصص: 23]، ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: 12]، ﴿ثَاوِيٗا﴾ [القصص: 45]، ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: 25]، ﴿ٱلرِّعَآءُۖ﴾ [القصص: 23]، ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص: 32]، وغيرها، ولا شكّ أنّ لهذه الأبنية والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بالمشاهد القصصيّة في السّورة التي تشكّل جسمَها الرّئيس الذي قامت عليه.

سادسًا: حظيتِ السّورةُ الكريمة بألفاظ تفرّدت بها عن غيرها منَ السّور من جهة الجَذْر والمادّة؛ من مثل: ﴿ٱلۡبُقۡعَةِ﴾ [القصص: 30]، و﴿جَذۡوَةٖ﴾ [القصص: 29]، و﴿رِدۡءٗا﴾ [القصص: 34]، و﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ۝٤٢﴾ [القصص: 42]، و﴿تَذُودَانِۖ﴾ [القصص: 23]، و﴿لَتَنُوٓأُ﴾ [القصص: 76]، و﴿أَفۡصَحُ﴾ [القصص: 34]، و﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ [القصص: 15]، والجامعُ لهذه الألفاظ التي تفرّدت بها السّورةُ، أنّها ذات اتّصال مباشرٍ بمِحور السّورة، القائمِ على سُنّة الله تعالى في نُصْرة المستضعفين، ورفعِ الظّلم عنِ المظلومين من خلال المشاهد القَصصيّة التي ذَكَرتْها.

بيان المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها:

مناسبة السّورة لسورة النّمل:

أولًا: تفصيل ما جاء في القصص لِما أوجز في السّورةِ قبلَها من قصص موسى عليه السلام، فَشَرحِ تربيةِ فرعونَ لموسى، وذَبْحِ أبناء بني إسرائيل الذي أوجب إلقاءَ موسى حين ولادته في اليمّ؛ خوفًا عليه منَ الذّبح، ثمّ ذِكْرِ قتلِه القُبطيّ، ثمّ فرارِه إلى مدين وما وقع له من زواج ببنت الرّجل الصّالح.

ثانيًا: إجمالُ توبيخِ المشركين بالسّؤال عنِ القيامة في سورة النّمل، وتفصيله في القصص.

ثالثًا: فصَّلَ في النّمل أحوالَ بعضِ المُهْلَكين من قوم صالح وقوم لوط، وأجمَلَه في القصص.

رابعًا: بسطَ في النّمل حالَ من جاء بالحسنة ومن جاء بالسّيِّئة، وأوجزَ ذلك في القصص[1].

وأوجهُ التّناسبِ بينَ سور الطّواسين أكثر من أن تُعَدَّ وأن تُحصى؛ فكلّها بدأت بالحروف المقطعة، ثمّ الحديثِ عن القرآن الكريم، ثمّ في تسلية النّبيّ ﷺ من أجل تثبيته على الدّعوة، واشتركت في بيان مصارعِ الأُمم السّابقة منَ المكذّبين، وبيانِ سُنن اللّه تعالى في نُصْرة الحقّ على الباطل، وفي عرض آيات اللّه تعالى في الأنفس والآفاق؛ لتبيّنَ هذا الاتّساقَ بين كتاب اللّه المسطور وكتابِه المنظور.

مناسبة السّورة لسورة العنكبوت:

أولًا: ذَكرَ في القصص استعلاءَ فرعونَ وجبروته، وجَعْلَه أهلَها شيَعًا، وافتتحَ سورة العنكبوتِ بذِكْر المؤمنين الذين فتنهم المشركون، وعذّبوهم على الإيمان، دونَ ما عذّب به فرعونُ بني إسرائيل، تسليةً لهم بما وقع لَمَن قبلَهم، وحَثًّا لهم على الصّبر، كما قال: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 3].

ثانيًا: ذَكرَ في القصص نجاةَ موسى من فرعون وهربَه منه، ثمّ عودَه إلى مصر رسولًا نبيًّا، ثمّ ظفرَهُ من بعدُ بغرق فرعونَ وقومِه، ونصرَه عليهم نَصْرًا مؤزّرًا، وذَكرَ في العنكبوت نجاةَ نوحٍ عليه السلام وأصحابِ السّفينةِ وإغراقَ مَن كذّبَه من قومه.

ثالثًا: نَعَى في القصص على عبدة الأصنام، وذَكرَ أنّه سيفضحهم يومَ القيامة على رؤوس الأشهاد، وفي العنكبوت نعى عليهم وبيّن أنّهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت.

رابعًا: ذَكرَ في القصص نبأَ قارون وفرعون، وفي العنكبوت ذكرَهما، وبيّنَ عاقبة أعمالهما.

خامسًا: ذَكرَ في القصص في الخاتمة الإشارةَ إلى هجرة النّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ [القصص: 85]، وفي خاتمة العنكبوت أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت: 56][2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 30.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 109.

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣﴾ [القصص: 1 - 3]

المُناسبة بين الآيات وما قبلها:

الجمعُ بين إشاراتِ الإعجازِ البيانيِّ والإعجازِ الغيبيِّ

سبق بيانُ مناسبةِ السّورةِ للسّورةِ السّابقة في المقدِّمة، وبين هذه الآيات مناسبةٌ، وهي أنَّه لمّا ذكر الأحرفَ المُقطَّعة ﴿طسٓمٓ﴾، ناسبتِ الإشارةُ إلى آيات الكتاب المبين، فإنَّ الكتابَ أُلِّف من هذه الأحرف المقطّعة، فدلَّ ذلك على الإعجاز؛ لما أنَّ الكتاب قد نُظم من هذه الأحرف، وقدِ انتقل البيانُ إلى ذكر قصَّة موسى عليه السلام مع فرعون، إشارةً إلى إعجازٍ غيبيٍّ، فبعدَ الإشارة إلى منزلة الآيات ومكانتها، انتقل إلى بعض أوجه هذه المكانة في الإرشاد والاعتبار، فلمّا وصف سبحانه وتعالى الكتابَ بكونِهِ مُبينًا؛ أقامَ الدَّليلَ على إبانتِهِ بما أوردَ هنا في قصَّةِ موسى وفرعونَ مِنَ الدَّقائقِ الَّتي قلَّ مَنْ يعلمُها مِنْ حُذّاقِ بني إسرائيلَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّبَإِ﴾: دلَّ جَذْرُ كلمةِ (نبأ) على الإتيانِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[2]، وعلى ظهورٍ مسبوقٍ بخفاءٍ ما[3]، فيُقالُ للَّذي يأتي مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ: نابئٌ[4]، ويُقال للخبرِ: نبأٌ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[5]، والمرادُ بنبأِ موسى وفرعونَ: خبرُهما[6].

المَعْنى الإجماليُّ:

القصصُ الحقُّ اعتبارُ المؤمنين وعِظَةُ المحسنين

أُشير بالأحرفِ المقطَّعة ﴿طسٓمٓ﴾ إلى نظم القرآنِ وإعجازه؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 234.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نبأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نبأ).
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.

لإظهارِ عَجْزِ المشركينَ عن الإتيانِ بمِثْلِه، مع بيان مكانةِ الآيات النّازلات، وشأنها العظيم، أي: آياتُ السّورةِ هي آياتُ الكتاب المُنَزَّلِ مِنَ اللّهِ تعالى، الواضحِ الجليِّ، الظّاهرِ صِدْقُهُ وإعجازُهُ، نُسمعُك يا محمَّدُ شيئًا مِنْ خبرِ موسى وفرعونَ؛ لينتفعَ بهِ قومٌ يُصدِّقونَ بهذا الكتابِ، ويعلمونَ أنَّهُ لا ينطقُ إلّا بالصِّدقِ؛ ليَعلموا أنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، كما كانَتْ لموسى عليه السلام ومَنْ آمنَ بهِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الابتداءِ بالأحرفِ المُقَطَّعة:

المزاوجةُ بين تحدّي العربِ الفصحاءِ وأهلِ الكتابِ

الظّاهرُ أنَّ المقصودَ بالأحرفِ المُقطَّعةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿طسٓمٓ﴾ تحدّي المشركينَ بالإتيانِ بمِثْلِ القرآنِ في البلاغةِ والفصاحةِ، وإظهارُ عَجْزِهم عن ذلكَ[1]، وقد اقترنَ ذلك بذكرِ خبرٍ غيبيٍّ، لبيانِ أنَّ هذه الأحرفَ نَظمتِ الحقائقَ والدَّقائق، وأتَتْ بما عجزت عنه الأوائلُ والأواخر، فهي تستفتح الحقَّ بأداة الفصاحة، المنبئة عن عجزِ البشر عن معرفةِ مضامين الحقائق بصدقٍ تامّ، وعن الإتيانِ بنظمٍ مثلِ القرآن ببيانٍ كامل.

تعيينُ المُشارِ إليهِ في الآية:

آياتُ السّورةِ هي آياتُ الكتابِ المبين

يحتملُ أنْ تكونَ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى آياتِ السّورةِ[2]، أي: تلك المشار إليها من آيات السّورةِ هي آياتِ الكتابِ المبين، ويحتملُ أنْ تكونَ إلى الحاضرِ في الأذهانِ مِنْ آياتِ القرآنِ الّتي أُنزلَتْ قبلَ نزولِ هذهِ السّورةِ[3]، ويصِحُّ الجمعُ بين الاحتمالين، فيكون المعنى: تلك المشار إليها - وهي آيات السّورة - آياتُ الكتابِ المُبين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 91.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 577.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 63.

بلاغةُ التعبير باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

تجسيدُ المكانةِ المعنويَّةِ بالإشارةِ الحسيَّةِ

جيءَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ(1)، وبيانِ عُلوِّ درجتِها في الكمالِ، وإبعادِها عن ساحةِ النَّقْصِ، فقد جُعِلَتِ الآياتُ - وهي أمرٌ معنويٌّ - بمنزلةِ مُشارٍ إليهِ محسوسٍ بعيدٍ، يُشارُ إليه إشارةَ البعيد، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ مقامَها أعزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنوقِ، وأبعدُ مِنْ مَناطِ العَيّوقِ، فهيهاتَ هيهاتَ لِما يَرومُهُ المعاندونَ مِنْ معارضتِها. وغرضُ الإشارةِ التَّحدّي بأجزاءِ القرآنِ تفصيلًا، كما وقعَ التَّحدّي بجميعِهِ إجمالًا، والمعنى: تلكَ آياتُ القرآنِ تُقرأُ عليكم، وهي بلُغَتِكم وحروفِ هجائِها، فأتوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِها.

نُكْتَةُ إطلاقِ الخطابِ:

التَّحدّي شاملٌ لكلِّ من يبلُغُه الخطابُ

لمّا كانَ الابتداءُ بالحروفِ المُقطَّعةِ وتعقيبُها بالإشارةِ إلى الآياتِ مشتملَين على تحدّي مَنْ يُكذِّبونَ بالقرآنِ، ومطالبتِهم بأنْ يأتوا بمِثْلِ سورةٍ مِنْ سوَرِه؛ عُمِّمَ الخطابُ بالكافِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ فهو خطابٌ لغيرِ مُعيَّنٍ مِنْ كلِّ مُتأهِّلٍ لهذا التَّحدّي مِنْ بُلَغائِهم(2).

دلالةُ ذكرِ لفظِ الآياتِ:

مِن اعتبر بالآياتِ اعتبر بسائرِ الكتابِ

الآيةُ في الأصلِ العلامةُ على المَنزِلِ أو على الطَّريقِ، ثمَّ أُطلِقَتْ على الحُجَّةِ؛ لأنَّ الحُجَّةَ علامةٌ على الحقِّ، وأُطلِقَتْ أيضًا على الجملةِ التّامَّةِ مِنَ القرآنِ، وهو المعنى المرادُ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وقد جاء ذكرُ هذهِ اللَّفظةِ في هذا السّياقِ؛ للدّلالةِ على أنَّ آياتِ القرآنِ دلائلُ واضحةٌ على أحقّيَّتِها وصِدْقِها وصِدْقِ الآتي، لا ينبغي أنْ يمتريَ فيها أحدٌ، لا سيَّما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 234، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 63.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 92.

وقد أخرسَتْ شقاشقَ البُلَغاءِ والفُصَحاءِ، ولكنَّ المشركينَ يُكذِّبونَ بها كِبْرًا وعِنادًا، وما ذاكَ إلّا لسَفَهِ رأيهم، وقصورِ نظرِهم، ولم يقل: (ذلك الكتاب المبين) لأنَّ ذِكر الآياتِ توطئةٌ لآيات مقصودة بالاعتبار، واستحضار المطلوب منها.

معنى إضافة ﴿ءَايَٰتُ﴾ للكتاب:

ما أُضيف للعظيمِ فلَهُ حُكمُه

إضافةُ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ بمعنى (مِنْ)[1]، فتكونُ مِنْ إضافةِ الجزءِ إلى الكلِّ، أي: تلكَ آياتٌ مِنَ الكتابِ، أي: بعضٌ منهُ، والكتابُ عظيمُ الشَّأنِ، فما هو بعضُهُ كذلكَ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ونُكْتَتُه:

القرآنُ بالغٌ مُنتهَى الكمالِ، ومشتملٌ على غاياتِ الجمالِ

الكتابُ علَمٌ بالغلَبةِ على القرآنِ الكريم، وسُمّيَ كتابًا؛ لأنَّ المسلمينَ مأمورونَ بكتابةِ ما ينزلُ منهُ لحفظِهِ ومراجعتِهِ، فسُمّيَ القرآنُ كتابًا قبلَ أنْ يُكتبَ ويُجمَعَ؛ لأنَّهُ بصَدَدِ أنْ يكونَ كتابًا، والتَّعريفُ باللّامِ في العلَمِ بالغلَبةِ للدّلالةِ على كمالِ الجنسِ في المُعرَّفِ، وأنَّهُ فائقٌ في جنسِهِ، فاقتضَى قولُهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أنَّ تلكَ الآياتِ هي آياتُ كتابٍ بالغٍ مُنتهَى كمالِ جنسِهِ مِنْ كُتُبِ الشَّرائعِ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

الإيماءُ إلى إعجازٍ غيبيٍّ في كتابةِ الآياتِ

الكَتْبُ في الأصلِ يدلُّ على الجمعِ والضَّمِّ، ففي التَّعبيرِ بالكتابِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ هذا الكتابَ سيُكتب ويبقى ثابتًا إلى يومِ الدّينِ، بحقائقه وأوامره وأخباره الصّادقة، وهذا إخبارٌ غيبيٌّ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أمرِ المؤمنين بكتابته عند نزوله.

---

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلَهيّة: 6/ 3.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 8.

الكتابُ بيِّنٌ في نفسِه مبيِّنٌ لما فيه

نُكْتَةُ وصفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ مِنْ (أبانَ) وهو مرادفُ (بانَ) اللّازم، ووصفُ الكتابِ بهِ؛ لظهورِ كونِهِ مِنْ عندِ اللهِ لعِظَمِ معانيه، وإعجازِ نظمِه، كأنَّه قيل: الكتاب البيِّن في نفسِه، ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ (أبانَ) المُتعدّي[1]، ووصفُ الكتاب بهِ؛ لأنَّهُ يُبيِّنُ الحلالَ والحرامَ، وصدّقَ نُبوَّةِ نبيِّنا ﷺ، وخبرَ الأوَّلينَ والآخرينَ، ويُبيِّنُ كيفيَّةَ التَّخلُّصِ عن شُبُهاتِ أهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ[2]، والوصف يصحُّ فيه المعنيان، فهو بيِّنٌ في نفسِه، مبيِّنٌ للحقائق.

بيانُ الكتابِ مطلقًا، فهو مبيِّنٌ لكلِّ ما ورد فيه

نُكْتَةُ حذفِ متعلِّق لفظ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

لم تُقيِّد الآيةُ أيّ شيءٍ يُبيِّنُه الكتابُ، فحُذف مُتعلَّق ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فلم يُقَلْ: (المُبين كذا)، أو (عن كذا)؛ وذلك ليكون مُطلقًا في دلالته، فهو مبينٌ لكلِّ ما ورد فيه، لا يغيبُ عن أحدٍ.

تشويقُ المخاطَب تحفيزٌ لذهنِه وتحريكٌ لنفسِه

بلاغةُ الاستئنافِ:

جملةُ ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ مستأنَفَةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وغرضُ الاستئنافِ التَّمهيدُ لنبأِ موسى وفرعونَ والتَّشويقُ لهُ؛ لتتهيَّأَ الأذهانُ لتلقّيه، ويتمكَّنَ في النُّفوسِ غايةَ التَّمكُّنِ؛ لِما فيهِ مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ العظيمةِ[3]، وذلكَ أنَّ السّامعَ عندَ ذكرِ التِّلاوةِ يترقَّبُ مجيءَ المتلوِّ بنَفْسٍ يَقْظَى وذِهْنٍ مُتشوِّفٍ، ولو أُلقيَ إليه الكلامُ دونَ تمهيدٍ، وقيلَ مباشرةً: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لما تنبَّهَ لهُ حقَّ التَّنبُّه، ولم يكن له وقعُ التَّنبيه بذِكر التِّلاوة.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ التِّلاوةِ إلى نونِ العظَمةِ:

أُسنِدَ فعلُ التِّلاوةِ إلى نونِ العظَمةِ، فقيلَ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾، ولم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 92.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 577.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 63 - 64.

يُقَلْ: (أتلو عليكَ)؛ لتعظيمِ شأنِ التِّلاوةِ؛ لِما يترتَّبُ عليها مِنَ الأنوارِ والخيراتِ والبركاتِ، وإبانةِ الحقِّ ودَحْضِ الباطلِ، والمعنى: نتلو عليكَ بما لَنا مِنَ العظَمةِ والجلالِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ للمَتلوِّ، وتشريفٌ للمتلوِّ عليهِ، فالقرآنُ عظيمٌ بعظَمتِهِ سبحانَهُ، وعظَمتُهُ تَسْري إلى كلِّ مَنْ تلبَّسَ بهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، فتُفيد أنَّ المؤمنين ينالُهم شرفُ سماعِ القرآنِ العظيمِ وتلاوته والعمل به.

سماعُ تلاوةِ القرآنِ تكليفٌ، والعمل بمقتضاها تشريفٌ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمِ التَّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ دون الماضي، فلم يقل: (تلونا)؛ للإخبارِ بما يقع عند نزول الآياتِ، فالآياتُ التي يسمعها النَّبيُّ ﷺ حين نزولها تُتلى عليه، فهي لتصويرِ حَدَثِ التِّلاوةِ عندَ وقوعِهِ؛ لِما لهُ مِنَ العظَمةِ وعُلوِّ الشَّأنِ، ولتكونَ الصُّورةُ حاضرةً في ذهنِ كلِّ تالٍ للقرآنِ عند سماعِها أو قراءتها.

الخبر من الله عظيمٌ، حقيقٌ بالإنصات والتَّدبُّر

عِلَّةُ استعمالِ مفردةِ التِّلاوةِ وملاءمتُها:

اختيرَ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ لفظُ التِّلاوةِ دونَ القراءةِ؛ لأنَّ التِّلاوةَ أخصُّ مِنْ حيثُ كونُها خاصَّةً بكُتبِ اللهِ المُنَزَّلةِ، بخلافِ القراءةِ الَّتي تكونُ فيها وفي غيرِها، ولأنَّ التِّلاوةَ تدلُّ في أصلِ وضعِها على التَّتابعِ والمواظبةِ المناسبَينِ لمقامِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في ﴿نَتۡلُواْ﴾، وفيها أيضًا ملاءمةٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ في آخر سورة النَّمل؛ فقصَّةُ موسى وفرعونَ مِنْ جملةِ القرآنِ الَّذي أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بتلاوتِهِ للاتِّعاظِ والاعتبارِ وتبيينِ سبيلِ الحقِّ، فإنَّ ما أُمر بتلاوتِه في آخرِ النَّمل متّصلٌ ومن جنس ما يُتلى عليه في بداية القصص، وبذلكَ يتجاوبُ آخِرُ سورةِ النَّملِ معَ أوَّلِ سورةِ القصصِ.

تجاوبُ آخِرِ النَّملِ معَ أوَّلِ القصصِ

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ:

حرف (على) في قولِهِ تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ

﴿وَفِرۡعَوۡنَ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، وفي استعمالِه مبالغةٌ مِنْ حيثُ يُفيدُ أنَّ التِّلاوةَ قدِ استولَتْ على سمعِ النَّبيِّ ﷺ وعقلِهِ وقلبِه، وكأنَّها قدِ اشتملَتْ عليهِ وأحاطَتْ بِه، وذلكَ لشأنِ المتلوِّ وأهمّيَّتِه، فهو كلامُ ربِّنا الحكيمِ الخبيرِ، مع ما فيه مِنَ الإيماءِ إلى أهمّيّةِ الموضوعِ المطروق، فإنَّ ذكرَه بخبرِ أنَّه يُتلى على النَّبيِّ ﷺ دليلُ الاعتناءِ به.

في دقائقِ النُّظوم تنبيهٌ على الحقائقِ ورعايةٌ للدّقائق

دلالةُ إفرادِ الخطابِ:

النَّبيُّ ﷺ مَهبِطُ الوَحيِ ومصدرُ التِّلاوةِ

قال تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾، ولم يُقلْ: (عليكم)؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الَّذي يتلقَّى ذلكَ المتلوَّ[1]، وتلقّي الأُمَّةِ لهُ إنَّما هو بواسطتِه، وفي ذلكَ مزيدُ تشريفٍ لهُ ﷺ، وإشعارٌ بعِظَمِ مسؤوليَّتِهِ وقَدْرِهِ؛ إذ هو مَهْبِطُ الوَحْيِ والتَّنزيلِ، ومنهُ يسطعُ نورُ الحقِّ على الأُمَّةِ، بل على العالمِ بأَسْرِهِ. وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ مِنْ مقاصدِ السّورةِ الاستدلالَ على نُبوَّةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ الأمّيَّ بالاطِّلاعِ على الأمورِ الغيبيَّةِ[2].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

تحتمل (مِن) التّبعيضَ والبيانَ ومآلُهما في الدّلالة واحد

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ أنْ تكونَ للتَّبعيضِ، وهي مفعولُ ﴿نَتۡلُواْ﴾، أي: نتلو عليكَ بعضَ خبرِهما[3]؛ لأنَّ المتلوَّ في هذهِ السّورةِ بعضُ قصَّةِ موسى وفرعونَ في الواقعِ؛ لأنَّهُ قد ذُكِرَتْ في سوَرٍ أخرى أشياءُ مِنْ هذهِ القصَّةِ لم تُذكَرْ هنا، كآيةِ الطّوفانِ والجرادِ ونحوِهما[4].

ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ للبيانِ، ومفعولُ ﴿نَتۡلُواْ﴾ محذوف قد دلَّتْ عليهِ صفتُهُ، والتَّقديرُ: (نتلو عليكَ شيئًا مِنْ خبرِ موسى وفرعونَ)، ومآلُ المعنى على القولِ بالتَّبعيضِ وعلى القولِ بحذفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 235.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 248.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 65.

المفعولِ واحدٌ، ويرى الأخفش أنَّ ﴿مِن﴾ صِلَةٌ[1]؛ لأنّه يُجوِّزُ كونَها صِلَةً في الإثباتِ أيضًا، لا في النَّفيِ فقطّ، والمعنى: نتلو عليكَ نبأَهما.

دلالة استعمالِ مفردةِ ﴿نَّبَإِ﴾:

النَّبأ خبرٌ ذو شأنٍ ينزلُ على أصحاب الشَّأن

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة النَّبأ في قوله تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ دون الخبر، وذلك أنَّ النَّبأ يُستعمل في الخبر ذي الشَّأن، ففيه تنبيهٌ على عظيم ما سيُذكر من خبرهما، وأنَّه خبرٌ له منَ الأهميَّة ما يستدعي اليقظةَ والانتباه، ويُقوّي ذلك ذِكْرُ لفظِ التِّلاوة ﴿نَتۡلُواْ﴾، فاجتماعُ مفردة التّلاوة والنَّبأ يُشعر بعظيم ما سيُذكر؛ فهو تنبيهٌ على تفاصيلَ لا تُعلَمُ إلّا به، ولأنَّ النَّبأَ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، فيُفيدُ الكلامُ تعظيمَ شأنِ خبرِ موسى وفرعونَ[2]، والمعنى: نتلو عليكَ مِنْ خبرِهما العظيم العجيبِ الشَّأنِ[3]، فليسَ هناكَ أهمُّ مِنْ إرسالِ موسى عليه السلام إلى فرعونَ مُدَّعي الأُلوهيَّة، ولذلكَ أُفرِدَ للحديثِ عنهما مُعظَمُ هذهِ السّورةَ؛ لأنَّها تعالجُ مسألةَ التَّوحيد، وتردُّ على مَن ادَّعى الأُلوهيَّةَ[4].

نُكْتَةُ تقديمِ ذِكْرِ موسى عليه السلام وتأخيرِ خبره:

موسى عليه السلام عنوانُ القِصَّة ومحلُّ تشريفِها

قُدِّمَ ذكرُ موسى عليه السلام على فرعونَ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾؛ لتشريفِهِ عليه السلام، وإظهارِ العنايةِ بتعلُّقِ النَّبأِ بِهِ أوَّلًا، ولجعله عنوانَ القصَّة، ولأنَّهُ لا يوجدُ مُقتَضٍ لتأخيرِهِ، وأمّا في تفصيلِ النَّبأِ فبُدِئَ بذكرِ فرعونَ، فقيلَ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ إفسادَ فرعونَ في الأرضِ هو سببُ إرسالِ موسى عليه السلام، فذُكِرَ السَّببُ قبلَ المُسبَّبِ[5]، ففسادُ فرعون وعُلوّه هو سببُ

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1016.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 64.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 252.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10870.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 466.

مجيءِ موسى ﷺ؛ فقدَّم النَّظمُ الكريم في كلِّ موقعٍ ما هو الأولى بالتَّقديمِ والتَّأخير.

نوعُ الباء ودلالتُها البيانيَّة:

التِّلاوةُ النّازلةُ مُلتبِسةٌ بالحقِّ مصاحبةٌ للصّدق

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة[1]، والجارُّ والمجرورُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿نَتۡلُواْ﴾، أي: نتلو عليكَ مُلتبِسينَ بالحقِّ، أو مِنْ مفعولِه، أي: مُلتبِسًا بالحقِّ[2]، أو صفةٌ لمصدرِ ﴿نَتۡلُواْ﴾، أي: تلاوةً مُلتبِسةً بالحقِّ[3]، ومُؤدَّى هذهِ التَّقديراتِ واحدٌ، ولا يَخفَى ما فيها مِنَ المبالغةِ في بيانِ حقّيَّةِ التِّلاوةِ، وأنَّهُ لا يعتريها خَلَلٌ أو شكٌّ، فهي بوَحْيٍ مِنْ علّامِ الغيوبِ، وفي ذلكَ مزيدُ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ؛ إذ يُتلَى عليهِ نبأٌ صادقٌ كانَتْ فيهِ العاقبةُ للمتَّقينَ، وسنَّةُ اللهِ لا تتبدَّلُ، فستكونُ العاقبةُ لهُ ﷺ ولأتباعِهِ المؤمنينَ.

بلاغةُ استعمال مفردةِ (الحقِّ) دون (الصِّدق):

الحقُّ صدقٌ يُقابِلُ الكذبَ وحقٌّ يُقابِلُ الباطلَ

جاء استعمالُ مفردةِ (الحقِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ المرادَ بهِ الصِّدقُ الَّذي لا ريبَ فيهِ، ولا كذبَ ولا امتراءَ، بل هو ثابتٌ ثبوتًا راسخًا عندَ أهلِ العقولِ السَّليمةِ[4]، ولا يمكنُ أنْ يتبدَّل بتبدُّلِ الأزمانِ والأحوالِ، فيكونُ في الكلامِ مبالغةٌ في حقّيَّةِ التِّلاوةِ، ولم يستعمل مفردة (الصِّدق)؛ لأنَّ الكلام قد يوصَف بالصِّدق لمطابقته الواقع، لكن أراد أن يجمع في الآيةِ بين الصِّدق المقابل للكذب، والحقِّ المقابلِ للباطل، ففي الحقّ دلالةٌ زائدةٌ، وهي أنَّ هذا الحقَّ ليس صدقًا في وصف ما مضى فحسب، بل هو وعدٌ صادقٌ لما سيأتي من إحقاقِ الحقِّ، وزَهْقِ الباطل، ففيه إيماءٌ إلى ما سيكون، وهو ما يتلاءم مع ما جاء في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 65.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 649.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 248، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 65.

آخر السّورةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥﴾ [القصص: 85].

معنى تعريف لفظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

جنسُ الحقِّ قرينُ تلاوةِ كتابِ الحقِّ

التَّعريفُ في لفظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ للجنسِ، أي: تلاوةً ملابسةً بالجنسِ المُسمَّى بالحقِّ، فيكونُ في ذلكَ مِنَ المبالغةِ ما لا يخفَى، كأنَّ بينَ تلاوةِ هذا النَّبأِ العظيمِ وبينَ جنسِ الحقِّ ملابسةً ومصاحبةً لا انفصامَ لها، ولا انفكاكَ، وكذلكَ شأنُ كلِّ ما أخبرَ بِهِ الحقُّ سبحانَهُ.

نوعُ اللّامِ ومعناها:

تعليلُ تلاوةِ هذا النّبأ، وأنّه خاصّ بالمؤمنين

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للتَّعليلِ[1]، فتفيدُ أنَّ تلاوةَ هذا النَّبأِ خاصٌّ بالمؤمنينَ، أي: نتلو عليكَ لأجلِ قومٍ يؤمنونَ، لا لأجلِ غيرِهم.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ ﴿لِقَوْمٍ﴾:

الإيمانُ هو الرُّكنُ الذي يقومُ به المؤمنون ويُرشِدون بتعاليمه وأركانه

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظةِ ﴿لِقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، دون أن يقولَ: (للمؤمنينَ)، معَ أنَّهُ أوفقُ بما قبلَهُ وما بعدَهُ مِنَ الفواصلِ؛ وذلك للإشارةِ إلى تمكُّنِ الإيمانِ مِنْ نفوسِ المذكورينَ؛ فإجراءُ وصفِ الإيمانِ على كلمةِ ﴿لِقَوْمٍ﴾ يومِئُ إلى أنَّ ذلكَ الوصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومِنْ مُكمِّلاتِ قوميَّتِهم[2]؛ فإنَّ للقبائلِ والأُمَمِ خصائصَ تُميِّزُها وتشتهرُ بها، وهؤلاءِ يُميِّزُهم عن غيرِهم وصفُ الإيمانِ، فهم يقومون به، ويرشدون بتعاليمه وأركانه.

توجيهُ تخصيص صفة المؤمنين بالذِّكر:

حضُّ المؤمنينَ على الاعتبارِ، وتحفيزُ غيرِهم على الإقبال

خَصَّ النَّظمُ الكريم صفةَ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون مرادفاتها، فلم يقل: للعقلاءِ، أو النّاس، معَ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 64.

عمومِها للنّاسِ؛ لأنَّ المؤمنينَ أكثرُ النّاس انتفاعًا بالمتلوِّ دونَ غيرِهم[1]، ولأنَّهم الَّذينَ ينتفعونَ بالعِبَرِ والمواعظِ؛ فإيمانُهم يحثُّهم على تطلُّبِ العِلْمِ والحِكمةِ والقَصَصِ النّافعةِ؛ ليزدادوا بذلكَ يقينًا[2]، وفي ذلكَ تشريفٌ لهُم[3]؛ لأنَّ شأنَهم يَعظُمُ بعظَمةِ شأنِ القرآنِ المتلوِّ، فكان ذكرُهم حضًّا لهم على مزيدٍ منَ الاعتبارِ والاتّعاظ، وتحفيزًا لغيرهم ومهمازًا ليُقبلوا على الفهم والعقل الموصل إلى الهداية.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

المؤمنونَ دائمو الاعتبار متجدِّدو الطّاعات

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ، فيكونُ شاملًا للمؤمنينَ في وقتِ النُّزولِ وفيما بعدَهُ مِنَ الأزمنة[4]، فيكونُ في الكلامِ بِشارةٌ بدخولِ قومٍ في الإسلامِ، يؤمنونَ بهذهِ العِبَرِ والمواعظِ، وينتفعونَ بها، وأنَّ الإيمانَ يزدادُ فيمن يقوم بالإسلام دينًا، وفيه إيماءٌ إلى ضرورةِ التّزوّدِ الدّائمِ بالإيمانِ، فإنَّ الإيمانَ يزداد في قلب المؤمن على امتداد الزَّمان، واختلاف الأحوال.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ فعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنُ الكاملُ يؤمنُ بالقرآنِ الكاملِ والشَّرعِ التّام

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعلِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾، فلم يُقَلْ: (يؤمنونَ باللّه مثلًا)؛ للإشارةِ إلى أنَّ المنتفعينَ بسَوْقِ هذه القصَّةِ وأمثالِها مِنَ القَصَصِ قومٌ كاملونَ في الإيمانِ، يؤمنونَ بكلِّ ما كلَّفَهم اللّهُ تعالى الإيمانَ بهِ، وليسَ إيمانُهم مقصورًا على شيءٍ دونَ شيءٍ، وهذا هو شأنُ المؤمنِ الحقِّ، لا يغادرُ واديًا مِنْ أوديةِ الإيمانِ إلّا سلكَهُ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 64.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 275.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 466.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبأ والخبر:

الخبرُ أعمُّ، والنّبأُ ذو شأنٍ

الفرقُ بينَ الخبرِ والنَّبأِ: أنَّ النَّبأَ: خبرٌ لهُ شأنٌ وفائدةٌ عظيمةٌ، يورِثُ عِلْمًا أو غلَبَةَ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ: نَبَأٌ، حتَّى يتضمَّنَ هذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ[1]، فيكونُ الخبرُ أعمَّ مِنَ النَّبأِ؛ لأنَّ النَّبأَ خبرٌ مخصوصٌ؛ فكلُّ نبأٍ خبرٌ، وليسَ كلُّ خبرٍ نبأً[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 226، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 594.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفصيلُ بعد الإجمال، والبيانُ بعد الإحكام

بعدَما أجملَ ﷻ نبأَ موسى وفرعونَ في قولِه: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾، شرعَ في تفصيلِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، فهو انتقالٌ مِنَ التَّنبيه المُجمل، والتَّشويقِ العام، إلى التّفصيل والبيان، ومن حُسنِ الافتتاحِ إلى بيانِ غايته ومقصوده.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَلَا﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[2]، والارتفاعُ: إمّا ماديٌّ، كما في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، أو معنويٌّ، ككونِ الإنسانِ مَلِكًا مُستبِدًّا مُتسلِّطًا جبّارًا[3]. وقولُهُ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناهُ: طغَى وجاوزَ الحدَّ في الظُّلمِ، واستكبرَ وافتخرَ بنفسِه، ونسيَ العبوديَّةَ[4].

2) ﴿شِيَعٗا﴾: (شيع) أصلٌ يدلُّ على الانتشارِ والتَّقوية، يقالُ: شاعَ الخبرُ، أي: كَثُرَ وقويَ، واتَّصلَ بكلِّ أحدٍ، فاستوى عِلْمُ النّاسِ به، وشاعَ القومُ: انتشروا وكَثُروا[5]، والشّيعةُ: الجماعةُ المُتَّفقونَ على أمرٍ، فيُقوّي بعضُهم بعضًا[6]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾، أي: فِرَقًا يُشيِّعونَهُ في كلِّ ما يريدُهُ مِنَ الشَّرِّ والفسادِ، أو يُشيِّعُ بعضُهم

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 327.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.
(5) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).
(6) الخليل، العين: (شيع).

بعضًا في طاعتِهِ، أو أصنافًا في استخدامِهِ، يستعملُ كلَّ صنفٍ في عملٍ ويُسخِّرُهُ فيه، مِنْ بناءٍ وحَرْثٍ وحَفْرٍ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ الشّاقَّةِ، ومَنْ لم يستعملْهُ ضربَ عليهِ الجِزْيةَ، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرَى بينَهم العداوةَ والبغضاءَ؛ لئلّا تتَّفقَ كلمتُهم[1].

3) ﴿طَآئِفَةً﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يَحُفَّ بِهِ[2]، ومنهُ: الطّائفُ، وهو الَّذي يدورُ حولَ البيوتِ حافظًا لها، والطَّوافُ بالبيتِ العتيقِ، والطّائفةُ مِنَ النّاسِ: الجماعةُ منهُم، والطّائفةُ مِنَ الشَّيءِ: القِطْعةُ منهُ[3]. والمرادُ بالطّائفةِ في الآيةِ: بنو إسرائيلَ[4].

4) ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ﴾: يدلُّ الأصل (حيي) على الحياة الَّتي هي ضِدُّ الموتِ[5]، والاستحياءُ: الاستبقاءُ، يقالُ: استحياهُ، إذا استبقاهُ[6]. ومعنى ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾: يتركُ البناتِ أحياءً للخِدْمةِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أعـظـمُ جـرائـم فـرعـونَ تفريقُه بـيـنَ الـنّـاس بغرضِ الإفسادِ

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ حالَ فرعونَ في تجبُّرِه في أرضِ مصرَ، حيثُ جعلَ أهلَها منقسمينَ إلى فِرَقٍ وطوائفَ يُعادي بعضُها بعضًا، ويَكيدُ بعضُها لبعضٍ، وكانَ يستضعفُ طائفةً منهُم، وهم بنو إسرائيلَ، فيُذبِّحُ الذُّكورَ مِنْ أطفالِهم، ويُبقي الإناثَ منهُم على قيدِ الحياةِ؛ ليستعمِلَهُنَّ في الخِدْمةِ والبِغاءِ عندما يَكبُرْنَ، وإنَّما كانَ يفعلُ ذلكَ لكونِهِ موغِلًا في الفسادِ، بالغًا فيهِ أقصى النِّهاياتِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(3) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيي).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الاستئناف البيانيّ يُحرك الأذهان ويُعلِّل البيان

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ هذه الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ جاءَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ سألَ سائلٌ، فقالَ: وكيفَ كانَ نبؤُهما؟ فقيلَ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، وهذا بمنزلةِ التَّفسيرِ للمُجمَلِ، وفيهِ إشعارٌ بعِظَمِ شأنِ النَّبأِ، وترسيخٌ لمضمونِهِ في النُّفوسِ؛ لِما فيهِ مِنَ العِبَرِ البالغةِ.

بلاغةُ التَّوكيدِ:

فسادُ فرعونَ جديرٌ بالذَّمِّ حقيقٌ باللَّوم

تصديرُ قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ للاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِهِ[2]، وإظهارِ الاهتمامِ بهِ[3]؛ فهو خبرٌ عظيمُ الشَّأنِ، فيهِ صورةٌ مِنْ صوَرِ الإفسادِ العظيمِ لطاغيةٍ مِنْ طُغاةِ التّاريخِ، وهي تستوجبُ الذَّمَّ والتَّقبيحَ وتنفيرَ النّاسِ منها، فكانَ التَّوكيدُ محقِّقًا لهذه المعاني، مناديًا على هذه الدّلالاتِ.

سِرُّ الابتداءِ بذِكرِ فرعونَ:

المِحَنُ مأذى بالمِنَحِ والآلامُ بواعثُ الآمال

ابتدأ النَّظمُ الكريمُ بذكرِ أفعالِ فرعون وجرائمه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع أنَّ الآيةَ السّابقةَ ابتُدِئَ فيها بذكرِ موسى عليه السلام؛ وذلك لبيانِ أنَّ جرائمَ فرعونَ هي أبرزُ ما في القصَّة من معاناةٍ سابقةٍ لإرسالِ موسى عليه السلام، وأنَّ اللّٰه تعالى أرسله لإنقاذ بني إسرائيل وغيرهم من ظُلم فرعونَ وبَغْيه واستعلائه، ولتكونَ عِبرةً للمؤمنينَ، ويتعلَّموا معرفةَ عِلَلِ الأشياءِ، وإدراكَ حِكَمِ اللّٰهِ تعالى، ولا ييأسوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ وإنْ طالَ الظُّلمُ والبلاءُ، فلولا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 627.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 253.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.

تجبُّرُ فرعونَ ما حلَّ بِهِ وبقومِهِ الاستئصالُ، وما خرجَ بنو إسرائيلَ مِنْ ذُلِّ العبوديَّةِ[1].

علَّةُ إظهارِ اسمِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

فرعونُ قدوةُ المُتجبِّرينَ وإمامُ المُفسدين

آثَرَ النَّظمُ الكريم إظهارَ اسمِ فرعونَ دون الاكتفاء بالإضمار، فلم يقل: (إنَّهُ علا في الأرضِ)، وعدَلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ شأنِ فرعونَ، بذكرِهِ بلَقَبِهِ الَّذي عُرِفَ بهِ، وإسنادِ العُلوِّ المذمومِ إليهِ، ولتصبحَ الجملةُ مستقلَّةً جاريةً مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

عُلوُّ فرعونَ أمرٌ مُتيقَّنٌ لا شكَّ في اتِّصافِهِ بهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ وتعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عُلوَّ فرعونَ قد تحقَّقَ، وهو أمرٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ في اتِّصافِهِ بهِ، وثبتَ في صحائفِ الأيّامِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ العُلوِّ:

طلبُ العُلوِّ دليلُ الاستكبارِ وركنُ الطُّغيانِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ صفةِ العُلوِّ وتقديمَها في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما يُذكَرُ بعدَها مِنَ الجرائمِ؛ لأنَّها أمُّ المفاسدِ وأصلُها، وهي الغايةُ التي يسعى لها المفسدون، وما سواها بمنزلةِ الفرعِ أو التَّبَعِ، فالتَّكبُّرُ مفسدةٌ نفسيَّةٌ عظيمةٌ تتولَّدُ منها مفاسدُ كثيرةٌ، مِنِ احتقارِ النّاسِ، والاستخفافِ بحقوقِهم، وسوءِ معاشرتِهم، ونشرِ العداوةِ فيهم، فإذا انضمَّ إلى ذلكَ أنّه وليُّ أمرِهم وراعيهم كانت صفةُ الكبرِ مقتضيةً سوءَ رعايتِهِ لهم، والاجتراءَ على حقوقهم، وأن يَرمُقَهم بعينِ الاحتقارِ، فلا يَعْبَأَ بجَلْبِ الصّالحِ لهُم، ودفعِ الضُّرِّ عنهُم، بل يُسَخِّرُ مِنِ استطاعَ منهم لخدمةِ أغراضِهِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.

امتلاءُ الأرضِ مِنْ عُلوِّ فرعونَ

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِه ﷻ: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فيفيدُ أنَّ مكانَ عُلوِّ فرعونَ هو الأرضُ، ولدلالةِ هذا الحرفِ على الاستغراقِ يومِئُ إلى أنَّ الأرضَ قدِ امتلأَتْ مِنْ عُلوِّ فرعونَ واستكبارِه.

مَنْ علا في بعضِ الأرضِ فكأنَّما علا فيها جميعًا

دلالةُ الإيماءِ في تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المرادُ بـ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ الباري سبحانَهُ: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضُ مصرَ الَّتي هي مملكةُ فرعونَ، فالتَّعريفُ فيها للعهدِ بدليلِ المقامِ[1]، ونُكْتَةُ إطلاقِها - حيثُ لم يُقَلْ: (في أرضِ مصرَ) - الدّلالةُ على تعظيمِها، وأنَّها بمنزلةِ جميعِ الأرضِ في اشتمالِها على ما لا يشتملُ عليهِ غيرُها[2]، وتهويلُ شأنِ عُلوِّ فرعونَ، بالإشارةِ إلى أنَّهُ قد غمرَ أجزاءَ الأرضِ كافةً، ولم يَسْلَمْ منهُ جزءٌ منها، فإنَّه إمامٌ لأمثالِه من أبناءِ زمانه وغيرهم، فمَن علا في الأرض، كان قدوةً لغيرِه، ومن قتل نفسًا فكأنّما قتل النّاس جميعًا، وهذا هو شأنُ الطُّغاةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

شعورُ الانحطاطِ مصاحبٌ لطالبِ العُلوِّ

بلاغةُ القيدِ التَّهكميَّة:

قُيِّد عُلوُّ فرعونَ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بكونِه في الأرضِ؛ للتَّشنيعِ عليه، حيثُ استكبرَ وعلا في أسفلِ الأجرامِ، ومحلِّ التَّذلُّلِ والانخفاضِ[3]، وكانَ اللّائقُ بهِ أنْ ينظرَ إلى تسفُّلِ محلِّهِ، فلا يستكبرَ، فأفادَ القيدُ التَّهكُّمَ به، إذ إنَّ العُلوَّ في الأرضِ سيبقى سُفليًّا، وهو ما يُشير إلى شعور فرعون نفسه بذلك الانحطاط حين قال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36 - 37].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 275.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 239.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 264.

بلاغةُ عطفِ فعلِ الجَعْلِ على فعلِ العُلوّ:

تفـريـق النّـاسِ سبيلُ المستكبرين وأداةُ المتجبّرين لمحاربةِ المؤمنين

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو بمنزلةِ تفصيلٍ لهُ[1]، فتفريقُ النّاسِ أثرٌ مِنْ آثارِ عُلوِّ فرعونَ في الأرضِ، ونتيجةٌ مِنْ نتائجِهِ؛ لأنَّهُ دعامةٌ مِنْ دعائمِ تثبيتِ أركانِ مُلْكِهِ، هذا إذا كانَ المرادُ بالعُلوِّ ما يشملُ دعوى الأُلوهيَّةِ والظُّلمَ والتَّجبُّرَ ونحوَ ذلكَ كما هو الظّاهرُ، وإذا كانَ المرادُ بهِ دعوى الرُّبوبيَّةِ ونسيانَ العبوديَّةِ على وجهِ الخصوصِ؛ فالجَعْلُ غيرُ العُلوِّ، وعطفُهُ عليهِ ظاهرٌ[2]؛ لأنَّهما متغايرانِ، ونُكْتَةُ العطفِ: ذِكْرُ جرائمِ فرعونَ في حقِّ الخَلْقِ بعدَ ذِكْرِ جريمتِهِ في حقِّ الخالقِ، وهي ادِّعاءُ الأُلوهيَّةِ.

سِرُّ استعمالِ مفردةِ الجَعلِ دونَ التَّفريقِ:

التَّـفـريـق بين النّـاسِ عمل المفسدين من شياطين الإنس والجنِّ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الجَعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾، دون مفردة التّفريق، فلم يُقَلْ: (وفرَّقَ أهلَها شيَعًا)؛ لأنَّ الجعلَ أبلغُ في الدّلالةِ على تقبيحِ تفريقِ فرعونَ لأهلِ مصرَ؛ لأنَّ الجعلَ يأتي بمعنى التَّصييرِ، وتبديلِ صفةِ الشَّيءِ إلى صفةٍ أخرى، أو تحويلِ حقيقتِهِ إلى حقيقةٍ أخرى، كقولِكَ: (جعلتُ الخَشَبَ بابًا)، وفرعونُ قد بدَّلَ صفةَ أهلِ مصرَ، ونقلَها مِنَ الوئامِ والتَّعايشِ إلى التَّناحرِ والخِصامِ، وذلكَ جُرْمٌ عظيمٌ؛ لأنَّ التَّفريقَ بينَ النّاسِ شأنُ الشَّياطينِ ومَرَدةِ الجِنِّ.

إيماءُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

تفريقُ فرعونَ لأهلِ مصر أمرٌ ثابت متحقّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تفريقَ فرعونَ لأهلِ مصرَ وتشتيتَهُ لشملِهِمُ المجتمعِ أمرٌ ثابتٌ متحقِّقٌ، يسلكُه كلُّ مقتفٍ أثرَه.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 578.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

بلاغةُ استعمالِ مفردة (الأهلِ) وإضافتِها إلى الضَّمير:

ملاءمةُ الإضافة وبيانُ اتِّساعِ رقعةِ الفرقة

استُعمِلَ لفظ الأهلُ دونَ الآلِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾؛ لأنَّ الآلَ مخصوصٌ بالإضافةِ إلى الأعلام النّاطقينَ، ولا يُضافُ إلى النَّكرات، ولا إلى الأزمنةِ والأمكنة، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا، أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ مثلًا: آلُ اللّه، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ، وأمّا الأهلُ فيُضافُ إلى الكلِّ، يقالُ: أهلُ اللّهِ، وأهلُ الخيّاطِ، كما يقالُ: أهلُ زمنِ كذا وبلدِ كذا[1]، وهنا الإضافةُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الأرضِ، فهي مِنْ مَحازِّ استعمالِ لفظِ الأهلِ، ونُكْتَةُ الإضافة الإشعارُ بأنَّ شَرَّ فرعونَ كانَ مُستطيرًا، حيثُ لم تَسْلَمْ منهُ الأرضُ، ولم يَسْلَمْ منهُ أصحابُها أيضًا، وهذا دَيْدَنُ المُتألِّهينَ المُتكبِّرينَ أنْ يملؤوا البَرَّ والبحرَ بالظُّلمِ والجَوْرِ والطُّغيانِ، فيَشقى بهم الزَّمانُ والمكانُ وأهلُهما.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿شِيَعٗا﴾ وغرضُ تنكيرِها:

تفريقُ النّاسِ شِيَعًا قُوَّى فرعونَ حِقبًا

نُكِّر لفظ ﴿شِيَعٗا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ للتَّنويعِ؛ فيدلُّ على أنَّ فرعونَ قد فرَّقَ أهلَ مصرَ فِرَقًا مُتنوِّعةً مختلفةَ المذاهبِ، ومُتشعِّبةَ الآراءِ والمصالحِ؛ ليقعَ بينَها الجَدَلُ والخِصامُ، ويتسنَّى لهُ أنْ يُحكِمَ قبضتَهُ عليها جميعًا؛ إذِ اجتماعُها يُهدِّدُ مُلْكَهُ وسَطْوتَهُ، واختير لفظ ﴿شِيَعٗا﴾ لأنَّ مشايعة النّاسِ بعضَهم لبعضٍ قائمٌ على التَّناصرِ، بقطعِ النَّظرِ عنِ الحقِّ، وقد جرَتْ عادةُ الطُّغاةِ العملَ بسياسةِ (فرِّقْ تَسُدْ)، وهي في الأصلِ سياسةٌ شيطانيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُغري بينَ النّاسِ العداوةَ والبغضاءَ.

بلاغةُ فنِّ الاحتباكِ:

دلالةُ العُلوِّ على السُّفولِ، والافتراقِ على الاجتماعِ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ فنُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (أل)، والنّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 29.

لطيفٌ مِنَ الحذفِ، وهو الاحتباكُ؛ لأنَّ ذِكرَ عُلوِّ فرعونَ أوَّلًا دليلٌ على سُفولِهِ ثانيًا، وذِكْرَ الافتراقِ ثانيًا دليلٌ على الاجتماعِ أوَّلًا[1].

أثرُ المعنى في توجيه إعراب الجُمَل:

تنوُّعُ دلالةِ الجملةِ استئنافًا وحالًا ونعتًا تابعٌ لتأويل المعنى

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ أنْ يكونَ استئنافًا[2]، والغرضُ منهُ بيانُ حالِ الأهلِ الَّذينَ جعلَهم فرعونُ فِرَقًا[3]، والأحسنُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ تقديرُهُ: ما فعلَ بأهلِ مصرَ بعدَ تفريقِهم؟ فأُجيبَ بأنَّهُ كانَ يستضعفُ طائفةً منهُم، وهم بنو إسرائيلَ، وهذا الاستئنافُ نوعٌ مِنْ أنواعِ الرَّبطِ الخفيِّ بينَ الجملِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ حالًا مِنَ ضميرِ الفاعلِ في ﴿وَجَعَلَ﴾[4]، والمعنى: جعلَ فرعونُ أهلَ تلكَ الأرضِ فِرَقًا مُستضعفًا طائفةً منهُم[5]، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ الاستضعافَ كانَ مُقترِنًا بالتَّفريقِ؛ لأنَّهُ ثمرتُهُ المرجوَّةُ منهُ.

ويحتملُ أنْ يكونَ صفةَ ﴿شِيَعٗا﴾[6]، والمعنى: جعلَهم شيَعًا مُستضعَفةً طائفةً منهم[7]، وفي هذا الوصفِ تقبيحٌ لحالِ التَّفريقِ، وحالِ الشّيَعِ الَّتي رَضيَتْ باستضعافِ طائفةٍ منها، ولو اجتمعَتْ هذهِ الشّيَعُ ما استطاعَ فرعونُ استضعافَ طائفةٍ منها.

بلاغةُ صيغةِ الاستفعال:

من شأنِ الخوفِ توريثُ الحِقدِ وإثمارُ الكيد

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على شدَّةِ حرصِ فرعونَ على استضعافِ بني إسرائيلَ، أي: جَعْلِهم ضُعَفاءَ مقهورينَ؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تدلُّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 649.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(7) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

تطلُّبِ الشَّيءِ وتكلُّفِه[1]، والإنسانُ إذا طلبَ شيئًا حَرِصَ على أنْ يكونَ في غايةِ الكمالِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على حِقْدِ فرعونَ الشَّديدِ على بني إسرائيلَ؛ لخوفِهِ مِنْ زوالِ مُلْكِهِ على أيديهم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

حكايةُ حالِ الاستضعافِ والإيماءُ إلى تجدُّدِه

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (استضعفَ طائفةً منهُم)؛ ملاءمةً للأفعالِ السّابقة، ولأنَّ الاستضعافَ فعلٌ قد مضَى وانقضَى، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[2] واستحضارِها، وكأنَّها تُشاهَدُ وهي تقعُ الآنَ، وغرضُ ذلك التَّعجيبُ مِنْ شأنِها وتهويلُهُ؛ لأنَّها حالٌ عظيمةُ الشَّأنِ، فيها مِنَ الشَّناعةِ والقُبْحِ والظُّلمِ ما لا يرضَى بهِ عاقلٌ، وفيها تشخيصٌ لبَطْشِ فرعونَ الَّذي استحقَّ بسببِهِ الهلاكَ وزوالَ المُلْكِ، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الاستضعافَ متجدِّدٌ في أذنابه وأتباعه إلى يوم الدّين.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة الاستضعاف دونَ الاستقواء:

الاستضعافُ سلبُ إمكاناتِ القوّي لجعله فارغَ المضمون

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾ دون أن يقول: (يستقوي على طائفة)، وهو قد استقوى على بني إسرائيل؛ لبيانِ أنَّ غرضَه إفراغُ بني إسرائيل من قوّتهم، وتركهم هملًا لا يملكون مقوِّمات الوجود والبقاء، بحيثُ يستبقيهم ضعفاءَ لتحقيقِ أغراضه، ومنعِهم مِنَ الانطلاقة من جديد.

غرضُ تنكيرِ ﴿طَآئِفَةٗ﴾:

الإشارةُ إلى بني إسرائيلَ وحدَهم

جاء تنكيرُ لفظِ ﴿طَآئِفَةٗ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ للإفرادِ؛ أي: فردًا مِنْ أفرادِ الطَّوائفِ المُتفرِّقة في مصرَ في زمنِ فرعونَ، والمرادُ بها طائفةٌ مُعيَّنةٌ، وهم بنو إسرائيلَ، كما دلَّ على ذلكَ القرآنُ الكريمُ في مواضعَ عديدةٍ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 61، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 253.

توجيهُ مرجعِ الضَّميرِ:

عَدُّ بني إسرائيلَ مِنْ أهلِ مصرَ تغليبٌ لا تحقيق

ضميرُ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ راجعٌ إلى ﴿أَهۡلَهَا﴾، لا إلى ﴿شِيَعٗا﴾[1]، وإلّا لقيلَ: (منها) بدلَ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وعَدُّ بني إسرائيلَ مِنْ أهلِ مصرَ تغليبٌ، أو لأنَّهم كانوا بها[2]، فالإضافةُ لأدنى ملابسةٍ.

عِلَّةُ فصلِ جملةِ ﴿يُذَبِّحُ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ الجملةِ بدلًا وحالًا واستئنافًا

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يُذَبِّحُ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ جملةَ ﴿يُذَبِّحُ﴾ بدلٌ مِنْ جملةِ ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾[3] بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الاستضعافَ مُشتمِلٌ على التَّذبيحِ والاستحياءِ معًا. ويصِحُّ أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً تفسيرًا لـ ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾[4]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ تقديرُهُ: ما وجهُ استضعافِهِ لهُم؟ فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ. ويصِحُّ أنْ تكونَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾[5]، أي: يستضعفُ طائفةً منهُم مُذبِّحًا أبناءَهم، والجملةُ الحاليَّةُ إذا كانَتْ مضارعًا مُثبَتًا امتنعَ فيها الواوُ[6].

فهذه ثلاثةُ توجيهاتٍ لفصلِ جملةِ ﴿يُذَبِّحُ﴾ عن جملةِ ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾، وأَوْلاها أنَّها بدلٌ؛ وذلك أنَّ الاستضعافَ لم يقتصر على التَّذبيح، بل له صورٌ ووسائلُ كثيرة، أحدُها التَّذبيح.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

تُسندُ الأفعالُ إلى الآمِرين، ويتولّى كبرَها جميعُ المجرمين

أُسندَ فعلُ التَّذبيحِ إلى فرعونَ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ على سبيلِ المجازِ العقليّ؛ لأنَّ التَّذبيحَ في الحقيقةِ هو فعلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 61.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 650.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 650.
(6) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 432.

جنودِهِ وأعوانِهِ، لكنْ أُسنِدَ إليهِ لكونِهِ الآمِرَ بهِ[1]، وفي هذا الإسنادِ زيادةُ تشنيعٍ عليهِ، كأنَّه تولّاهُ بنفسِهِ على كثرةِ المذبوحينَ.

بلاغةُ صيغةِ التَّفعيلِ:

الإسراف في الذَّبحِ كاشفٌ عن حقدٍ وخوفٍ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ مبالغةِ فرعونَ في الذَّبحِ، وحرصِهِ عليهِ، وتكرارِهِ لهُ، وقتلِهِ الكثيرَ مِنْ أبناءِ بني إسرائيلَ، أي: يُذبِّحُ تذبيحًا كثيرًا؛ خوفًا على مُلْكِهِ[2]، وفي ذلكَ كشفٌ عن حِقْدٍ أسودَ كانَ يملأُ قلبَ فرعونَ، ويمنعُهُ مِنْ أنْ يَرِقَّ للأطفالِ، مع خوفٍ شديدٍ أن يكون منهم من ينزع مُلكَه، ولو ذبحَ طفلًا واحدًا لكانَتْ جريمةً شنيعةً، فكيفَ وقد ذبحَ الكثيرَ؟!

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

قتل الأطفال قمَّةُ التَّجبُّرِ والطُّغيان

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (ذبَّحَ أبناءَهم)؛ لأنَّ التَّذبيحَ قد مضَى، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[3]، واستحضارِها، وكأنَّها تُشاهَدُ وهي تقعُ الآنَ، وغرضُ ذلكَ تهويلُ تذبيحِ الأبناءِ، واستدعاءُ الإنكارِ عليهِ؛ لأنَّهُ جريمةٌ شنيعةٌ مُنكَرةٌ، لا يَرضَى بها عاقلٌ سَويُّ الفِطْرةِ، ولا يفعلُها إلّا مَنْ أشبهَ الضَّواريَ مِنَ البهائمِ الَّتي تأكلُ صِغارَ غيرِها، ولا تَرِقُّ لهُم قلوبُها.

فائدةُ استعمالِ لفظِ الأبناءِ دونَ الأولادِ:

اختصاص القتل بالذُّكورِ والاستحياء بالبنات

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الأبناءِ دونَ الأولادِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾؛ لأنَّ لفظَ الأبناءِ يُطلَقُ على الذُّكورِ فقط، ولفظُ الأولادِ يُطلَقُ على الذُّكورِ والإناثِ[4]، والمرادُ هنا الذُّكورُ مِنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 276، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 240.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.
(4) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 44.

الأطفالِ؛ لأنَّ فرعونَ كانَ يقتلُهم دونَ النِّساءِ، وقَصْدُ فرعونَ مِنْ قتلِهم ألّا تكونَ لبني إسرائيلَ قوَّةٌ مِنْ رجالِ قبيلتِهم، حتَّى يكونَ النُّفوذُ والكِبْرياءُ في الأرضِ لقومِهِ خاصَّةً(1).

سِرُّ العدولِ عن (أبناءَها) إلى ﴿أَبۡنَآءَهُمۡ﴾:

رعايةُ التَّناغمِ الصَّوتيِّ في ألفاظِ الآيةِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (يُذبِّحُ أبناءَها) برجعِ الضَّميرِ إلى الطّائفةِ باعتبارِ اللَّفظِ، لكنْ قيلَ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ برجعِ الضَّميرِ إلى الطّائفة باعتبارِ المعنى؛ إذ الطّائفةُ مجموعةٌ مِنَ الأفرادِ، وفي التَّعبيرِ بـ ﴿أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ موافقةٌ لقولِه: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ وتناغمٌ صوتيٌّ معَهُ، ومع ﴿نِسَآءَهُمۡۚ﴾.

عِلَّةُ تقديمِ لفظِ التَّذبيحِ على لفظِ الاستحياءِ:

تقديمُ الغايةِ الكبرى وهي ذبحُ المُنقِذِ لبني إسرائيلَ

قُدِّمَ ذِكرُ التَّذبيحُ على الاستحياءِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّهُ أصعبُ الأمورِ وأشقُّها عندَ النّاسِ؛ لِما فيهِ مِنْ إزهاقِ الرّوحِ، وإنْ كانَ استحياءُ النِّساءِ لأجلِ الخِدْمةِ والافتراشِ أعظمَ مِنَ القتلِ لدى أهلِ الغيرةِ(2)، ولأنَّ الغايةَ مِنَ الاستضعافِ والتَّهميشِ هو قتلُ الأبناءِ، فهو الغايةُ الكبرى المانعة من ولادة المُنقِذ لبني إسرائيل.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستفعالِ:

بيانُ شدَّة حرصِ فرعونَ على حياةِ النِّساءِ

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على طلبِ فرعونَ لحياةِ نساءِ بني إسرائيلَ(3)، وتكلُّفِهِ في هذا الطَّلبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى شِدَّةِ حرصِهِ على استحيائِهنَّ؛ لِما لهُ في هذا الاستحياءِ مِنَ المصلحةِ، وهي استخدامُهُنَّ.

دلالةُ استعمال مفردة الاستحياءِ:

الكنايةُ عن استحياءٍ خاصٍّ غرضُه الاعتداءُ على أعراضِ النِّساءِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ الاستحياءِ في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 163.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ ومعناهُ: يُبقيهنَّ أحياءً، وهذا في ظاهرِهِ عفوٌ وتركٌ للعقابِ، لكنَّهُ في الحقيقةِ عقابٌ شديدٌ؛ لأنَّ بقاءَ النِّساءِ بدونِ الذُّكورِ يوجِبُ صيرورتَهُنَّ مُستفرَشاتٍ للأعداءِ، فيكونُ المَقصِدُ مِنْ هذا الاستحياءِ خبيثًا، وهو الاعتداءُ على أعراضِهِنَّ، وليسَ لهُنَّ بدٌّ مِنَ الإجابةِ بحُكمِ الاسترقاقِ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ كنايةً عن استحياءٍ خاصٍّ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارِعِ:

تصويرُ أخلاقِ فرعونَ الخاليةِ مِنَ المروءةِ مع إجرامِه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ مَعَ أنَّ الاستحياءَ قد مضَى؛ لحكايةِ حالٍ ماضيةٍ، واستحضارِها لتهويلِ شأنِها؛ فهي حالةٌ مُستنكَرةٌ مُستبشَعةٌ، تُظهِرُ أنَّ فرعونَ باستحيائِهِ لنساءِ بني إسرائيلَ لا يعبأُ بأخلاقٍ أو مروءةٍ، وليسَ لهُ همٌّ إلّا إرضاءَ شهواتِهِ وأهوائِهِ، وهذا شأنُ أهلِ الطُّغيانِ؛ فهم كالبهائمِ الَّتي تُحرِّكُها غرائزُها، وليسَ للعقلِ والأخلاقِ والمروءةِ عليها سلطانٌ.

فنُّ بديعِ الطِّباقِ:

جمعُ الصّورِ المتقابلةِ يُصوِّرُ حقائقَ الأفعالِ ويُدني حقائقَ الرِّجالِ

في الجمعِ بينَ فعلي التَّذبيحِ والاستحياءِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ رعايةٌ للطِّباقِ، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، فيكونُ القارئُ - بمعونةِ المضارعِ المفيدِ تصويرَ الحالِ الماضيةِ - أمامَ صورتينِ متضادَّتينِ؛ إحداهما: صورةٌ بَشِعةٌ للموتِ، وهي صورةُ تذبيحِ الأطفالِ الذُّكورِ. والأُخرى: صورةٌ للحياةِ، ظاهرُها رِقَّةٌ ورحمةٌ، وباطنُها مَقْصِدٌ خبيثٌ، وهي صورةُ استحياءِ الإناثِ مِنَ الأطفالِ، ولا يخفَى ما في ذلكَ مِنْ إظهارِ قُبْحِ جَبَروتِ فرعونَ، ودناءةِ نفسِهِ الخبيثةِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 492 - 493.

بلاغةُ المجازِ في إطلاقِ لفظِ النِّساءِ وإرادةِ البناتِ:

الكشفُ عن مقصودِ الاستحياءِ في وظيفة الفاحشة

المرادُ بالنِّساءِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ الإناثُ مِنَ الأطفالِ، وقد أُطلِقَ عليهنَّ اسمُ النِّساءِ باعتبارِ المآلِ على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ؛ إيماءً إلى أنَّ فرعونَ كانَ يستحييهنَّ ليَصِرْنَ نساءً، ويَحمِلَهنَّ على أنْ يَصِرْنَ بغايا؛ إذ ليسَ لهنَّ أزواجٌ، ولأنَّ احتقارَهنَّ كانَ يصدُّ قومَهُ عنِ التَّزوُّجِ بهنَّ، فلم يبقَ لهنَّ حظٌّ مِنْ رجالِ القومِ إلّا قضاءَ الشَّهوةِ[1].

علَّةُ فصلِ جملةِ الفاصلة:

الباعثُ على التَّذبيحِ والاستحياءِ الإفسادُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ جاء جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، تقديرُهُ: لِمَ كانَ يفعلُ التَّذبيحَ والاستحياءَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهُ كانَ يفعلُ ذلكَ لمُجرَّدِ الفسادِ في الأرضِ[2]، وأخبثُ النُّفوسِ مَنْ كانَ الفسادُ همَّها ووُكْدَها. ويحتملُ أنْ تكونَ الجملةُ تعليلًا لجملةِ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[3]، فيكونُ ما فيهِ مِنْ نزعةِ الفسادِ هو الحاملَ لهُ على العُلوِّ.

بلاغةُ التَّأكيدِ ودلالتُه:

إفسادُ فرعونَ عنوانُ المجرمين وإلهامُ المتكبِّرين

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ لإظهارِ الاهتمامِ بمضمونِهِ، وهو التَّسجيلُ على فرعونَ بأنَّهُ كانَ مِنْ جملةِ المفسدينَ في الأرضِ، بل هو مِنْ رؤوسِهم، ولأنَّهُ لمّا ذُكِرَتْ أفعالُهُ القبيحةُ، وهي تذبيحُ الذُّكورِ مِنَ الأطفالِ، واستحياءُ الإناثِ منهُم، وربَّما يظنُّ ظانٌّ خفيفُ العقلِ أنَّ لهُ عُذْرًا في ذلكَ - جيءَ بالكلامِ مُؤكَّدًا؛ لبيانِ أنَّ كونَ فعلِهِ مِنَ الإفسادِ ممّا لا ينبغي أنْ يُشَكَّ فيهِ، أو يُبحثَ لهُ عن وجهِ صلاحٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.

نُكْتَةُ ذكرِ فعلِ الكونِ:

لفرعونَ قَدَمُ سبقٍ في الإفسادِ

جيءَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بفعلِ الكونِ الدّالِّ على تمكُّنِ الخبرِ مِنَ الاسمِ[1]، وعُبِّرَ عنهُ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على الرُّسوخِ، وأنَّ لفرعونَ صُحْبَةً قديمةً معَ الفسادِ، أي: كانَ مِنَ المفسدينَ كونًا هو في غايةِ الرُّسوخِ؛ لأنَّ أفعالَهُ المحكيَّةَ عنهُ في غايةِ الشَّناعةِ والبشاعةِ، وهو لم يكنْ مأمورًا بها مِنْ جهةِ شرعٍ ما، ولا لها فائدةٌ أصلًا[2]، إنَّما هي أعراضُ مَرَضٍ نفسيٍّ هو الكِبْرُ والبغيُ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

فرعونُ بعضُ المفسدينَ ومنتظمٌ في زمرتهم

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: إنَّهُ كانَ بعضَ المفسدينَ، ومُنتظِمًا في سِلْكِهم وزُمْرتِهم وطائفتِهم الَّتي هي شرُّ الطَّوائفِ.

نُكْتَةُ الجمعِ دونَ الإفرادِ:

الإفسادُ مُتمكِّنٌ مِنْ فرعونَ غارقٌ فيه

قولُه تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أبلغُ مِنْ أنْ يقالَ: (إنَّهُ كانَ مُفسِدًا)؛ لإفادتِه المبالغةَ في اتِّصافِ فرعونَ بالإفسادِ؛ إذِ المعنى: إنَّهُ كانَ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعرَفُ عندَ النّاسِ بفئةِ المُفسِدينَ، وإذا كانَ منها فهو مُفسِدٌ، وذلكَ مِنْ قبيلِ الكناياتِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، ويضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

شِدَّةُ الإفسادِ قرينُ الهلاكِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ فرعونَ مِنَ الكاملينَ الرّاسخينَ في الفسادِ[3]، الَّذينَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 68.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 241.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 8.

لهم عَراقةٌ وتمكُّنٌ في هذا الوصفِ[1]؛ لأنَّ فسادَهُ فسادٌ صِرْفٌ، ولذلكَ اجترأَ على تلكَ الأفعالِ العظيمةِ الشَّنيعةِ[2].

سِرُّ ذِكْرِ صفةِ الإفسادِ دونَ الإجرامِ:

غايةُ المجرمين نشرُ الإفسادِ في الأرض

عند النَّظر في الأفعال المذكورة، وهي: العُلوُّ في الأرضِ، وجَعْلُ أهلِها شيَعًا، واستضعافُ طائفةٍ منَ النّاس، والتَّذبيحُ والاستحياء، نجدها أقربَ إلى أن توصَف بالإجرام، لا بالإفساد، فيُسأل عن سِرِّ اختيارِ النَّظم لفظَ الإفساد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؟ والجواب: أنَّ الإجرام وسيلةٌ من وسائل الإفساد، والفساد غايةٌ مقصودة، فذَكَر الغايةَ باعتبارها العنوانَ الرّئيس لعمل فرعون، وأشار إلى الإجرام بأفعاله؛ فجمعَ النَّظمُ بينَ الإشارةِ إلى الإجرام بذِكر أشهر أفعالِه الدّالّة عليه، والتّصريح بالإفساد؛ للتَّنبيه على الغاية التي يسعى لها المجرمون، وهي الإفساد في الأرض.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ الفاعل:

فسادُ فرعونَ مُتجاوِزٌ حدودَ المكانِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنَّهُ كانَ مِنَ المفسدينَ في الأرضِ)، أي: في أرضِ مصرَ، لكن استُغْنيَ عن هذا القيدِ بما تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إيجازًا، ورعايةً لتلاؤمِ الفواصلِ، وإيهامًا أنَّ فسادَهُ مُطلَقٌ لا يتعلَّقُ بمكانٍ دونَ آخرَ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُلوّ والرِّفعة:

العُلوُّ يدلُّ على شِدَّةِ شكيمةِ فرعونَ في الكِبْرِ والطُّغيانِ

الرِّفعةُ والعُلوُّ كلاهما يدلُّ على الفَوْقيَّةِ، ولكنْ كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ العُلوِّ في التَّكبُّر، وعَدِّ الإنسانِ نفسَهُ عاليًا على غيرِه، كما في قولِهِ تعالى عن فرعونَ وقومِه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦﴾ [المؤمنون: 46]. وقدِ استُعمِلَ العُلوُّ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 2.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتقبيحِ شأنِ فرعونَ بالتَّنصيصِ على أنَّهُ قد طغَى في الأرضِ، وجاوزَ الحَدَّ في الظُّلم[1]، وأخذَ الكِبْرُ بزمامِ عقلِه، واستعلَى على غيرِه، كأنَّما ينظرُ إلى الأرضِ وهي تحتَ قدميهِ، وهو في مكانٍ مرتفعٍ، ليسَ يُساويهِ أحدٌ، ولمّا كانَ على هذا الوصفِ لم يَعْبَأ في تصرُّفاتِهِ بقصدِ صلاحٍ وتجنُّبِ فسادٍ، وإنَّما كانَ يتَّبعُ ما يدعوهُ إليهِ هواهُ، وحَسْبُكَ أنَّهُ كانَ يجعلُ نفسَهُ إلهًا، ويزعمُ أنَّهُ ابنُ الشَّمسِ[2].

الشّيعة والطّائفة:

الشّيعةُ أنسبُ بسياقِ التَّناحرِ، والطّائفةُ أنسبُ بسياقِ استضعافِ جميعِ الأفرادِ

الشّيعةُ: الجماعةُ الَّتي تشايعُ غيرَها على ما يريدُ، أي: تطيعُهُ وتنصرُهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ [القصص: 15]، وأُطلِقَ على الفِرْقةِ مِنَ النّاسِ على سبيلِ التَّوسُّعِ بعلاقةِ الإطلاقِ عنِ التَّقييدِ[3]، والطّائفةُ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ[4]. وقد اختيرَ لفظُ الشِّيَعِ - وهو جمعُ شيعةٍ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ فرعونَ جعلَ أهلَ مصرَ فِرَقًا متنازعةً، تتشيَّعُ كلُّ فِرْقةٍ إليهِ، وتُعادي الفِرْقةَ الأخرى؛ ليضربَ بعضَهم ببعضٍ، ويأمنَ اجتماعَهم عليهِ[5]. واختيرَ لفظُ الطّائفةِ في قولِهِ: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ استضعفَ فريقًا كاملًا، ولم يكنِ الاستضعافُ جاريًا على أشخاصٍ مُعيَّنينَ لأسبابٍ تقتضي ذلك؛ ككونِهم ساعينَ بالفسادِ، بل جرَى استضعافُهُ على اعتبارِ العنصريَّةِ والقَبَليَّةِ دونَ تمييزٍ بينَ مُستحِقٍّ للشِّدَّةِ وغيرِهِ[6].

الذَّبح والقتل:

القتلُ أعمُّ منَ التَّذبيحِ

الفرقُ بينَ الذَّبحِ والقتلِ: أنَّ القتلَ أعمُّ؛ لأنَّهُ صوَرٌ مختلفةٌ، منها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 67.
(4) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 67، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10871.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 69.

الذَّبْحُ[1]، وهو شَقُّ الحَلْقِ[2]. وقدِ اختيرَ التَّذبيحُ في قولِهِ تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّهُ أكثرُ بشاعةً، وأدعَى للإنكارِ؛ ووقوعُهُ على الأطفالِ جريمةٌ لا تُدانيها جريمةٌ، ووقوعُهُ مِنْ فرعونَ يدلُّ على أنَّ قتلَ الأطفالِ مِنْ أجلِ المُلْكِ شريعةٌ فرعونيَّةٌ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.

(2) الرّاغب، المفردات: (ذبح).

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّبشيرُ بزوالِ مُلْكِ فرعونَ يُسابِقُ الإخبارَ بإفسادِهِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة ما أراده فرعونُ منَ العُلوِّ في الأرض واستضعافِ أهلها بجعلهم شيَعًا، وتذبيح أبناءِ بني إسرائيلَ واستحياءِ نسائهم؛ ناسبَ أن يذكر السّياقُ إرادةَ اللّهِ تعالى بعدَ ذلك، وهي المَنُّ على المستضعفين، بجعلهم أئمّةً وجعلهمُ الوارثين، فهي مقابلةٌ بين إرادة فرعونَ وما نتجَ عنها، وبين إرادة اللّه تعالى وما جاء بعدَها، لبيانِ قدرة اللّه تعالى في نفاذ أمره وهيمنته، وضعفِ ما سواه من أدعياء العُلوِّ والاستكبار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّمُنَّ﴾: (منن) أصلٌ يدُلّ على اصطناع الخير[1]، والإحسان[2]، والمِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، وذلكَ يقالُ على وجهين؛ أحدُهما: أنْ يكونَ ذلكَ بالفعلِ وذلكَ لا يكونُ حقيقةً إلّا للّهِ تعالى. والثّاني: أنْ يكونَ ذلكَ بالقولِ، وذلكَ مُستقبَحٌ فيما بينَ النّاسِ إلّا عندَ كُفْرانِ النِّعمة[3]. وقولُهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: نتفضَّلَ عليهِم بإنقاذِهم مِنْ بأسِ فرعونَ[4].

2) ﴿أَئِمَّةً﴾: الإمامُ: المُؤتَمُّ به، إنسانًا كانَ يُقتدَى بقولِهِ أو فعلِه، أو كتابًا، أو غيرَ ذلكَ، مُحِقًّا كانَ أو مُبطِلًا، وجمعُهُ: أئمَّةٌ[5]. وقولُهُ جلَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (منن).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (منن).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 171.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمم).

ذكرُهُ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾، أي: قادةً يُقتدى بهِم بعدَ أنْ كانوا أتباعًا مُسخَّرينَ لآخرينَ[1].

3) ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾: الميراثُ: أنْ يكونَ الشَّيءُ لقومٍ ثمَّ يصيرَ إلى آخرينَ بنَسَبٍ أو سببٍ[2]، ويقالُ لكلِّ مَنْ حصلَ لهُ شيءٌ مِنْ غيرِ تَعَبٍ: قد ورِثَ كذا، ويقالُ لِمَنْ خوِّلَ شيئًا: أورِثَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزّخرف: 72][3].

وقولُهُ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ معناهُ: يأخذونَ مُلْكَ فرعونَ وقومِهِ وكلَّ ما كانَ لهُم[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنــعــامُ الـلـهِ للمُستضعَفينَ يأتي بعد الصَّبر وطلبِ الأجر

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة إرادةَ اللّهِ تعالى فيما يختاره لعباده الصّابرين مِنَ التّفضُّل عليهم، بعدَ استضعافهم في أرض مصرَ على يدِ فرعون وآله، ونجعلَهم قادةً ومُلوكًا بعدَما كانوا أتباعًا أذِلّاءَ لفرعونَ، ونجعلَهم يَرِثونَ مُلْكَ فرعونَ وقومِهِ بعدَ إهلاكِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

إرادةُ الخيرِ تأتي من حيثُ يُظنُّ تمكُّنُ الباطلِ

الظّاهرُ أنَّ جملةَ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التَّناسُبِ في الغرضِ[5]؛ فإنَّ ما في تلكَ الجملةِ مِنْ تذبيحِ الأبناءِ واستحياءِ النِّساءِ مِنْ عُلوِّ فرعونَ في الأرضِ، وهو بيانٌ لنبأِ موسى وفرعونَ، وإرادةُ اللّهِ الخيرَ بالَّذينَ استضعفَهم فرعونُ مِنْ تمامِ هذا النَّبأِ[6]. ويجوزُ أنْ تكونَ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 628، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 3.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(3) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 628.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 70.

الجملةُ حالًا مِنْ ﴿يَسۡتَضۡعِفُ﴾، أي: يستضعفُهم فرعونُ ونحنُ نريدُ أنْ نَمُنَّ عليهم(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارعِ:

إرادةُ اللهِ المَنّ على المستضعفين سُنَّةٌ ماضيةٌ إلى يوم الدّين

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ واستحضارِها؛ تصويرًا لها كأنَّها تقعُ الآنَ(2)، والغرضُ مِنْ هذا التَّصويرِ: التَّعجيبُ مِنْ هذهِ الحالةِ العجيبةِ، العظيمةِ الشَّأنِ، الَّتي تدلُّ على أنَّ للّهِ حُكْمًا وإرادةً فوقَ إرادةِ البشرِ وحُكْمِهم، وأنَّهُ سبحانَهُ قادرٌ على قلبِ الأمورِ، ونُصرةِ المظلومينَ وإهلاكِ الظّالمينَ، والمعنى: إنَّ فرعونَ يَطغَى عليهم، واللّهُ يريدُ في ذلكَ الوقتِ إبطالَ عملِه وجَعْلَهم أُمَّةً عظيمةَ الشَّأنِ(3)، وفي هذا تسليةٌ لكلِّ مظلوم مُستضعَفٍ وإن طالَ زمنُ استضعافِهِ، وفي الصّيغة دلالةٌ إيمائيَّة إلى أنَّ اللّه تعالى يريد ذلك المَنّ على الدَّوام لجميع المستضعفين، فالآيةُ أقربُ ما تكون إلى كونها سنَّةً مستمرّة إلى يوم الدّين، وهي بشارةٌ لا تتوقّف لِمَن آمن بها وعمل بها.

بلاغةُ إسنادِ الأفعالِ إلى نونِ العظَمةِ:

تبشيرُ المؤمنين بالمَنِّ والتَّمكين من ربِّ العالمَين

أُسنِدَتِ الأفعالُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ إلى نون العظَمة؛ لتعظيم شأنِ هذهِ الأفعالِ، وهي الإرادةُ، والمَنُّ على بني إسرائيلَ، وجعلُهم أئمَّةً، وجعلُهمُ الوارثينَ؛ لأنَّها لا تَصدُرُ إلّا مِنْ ذي العظَمةِ والجلالِ الَّذي لا يُرَدُّ أمرُهُ، وما فرعونُ وجَبَروتُهُ وسَطوتُهُ وقَهْرُهُ في جانبِ قدرةِ اللّهِ تعالى وإرادتِهِ إلّا هباءٌ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ هذه الإرادةَ ليست خاصّةً ببني إسرائيل، بل هي عامَّةٌ فيهم وفي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 578، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 467.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 70.

كلِّ من شابه حالَهم، فهي بشارةٌ وتطمينٌ للمؤمنين، بأنَّه سيكون لهم مِنَ المنِّ والتّمكين ما كان لغيرِهم.

بلاغةُ الإطناب بذِكر فعلِ الإرادةِ:

إرادتــه تعـالى مطلقةٌ مهيمنةٌ، ومنُّه يتنزَّلُ فيما تقتضيه حكمتُه

آثرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ فعلِ إرادة المنّ مع ما فيه من إطنابٍ، فقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾، دون الاكتفاء بذكرِ فعلِ المنِّ وحدَه، فلم يُقَلْ: (ونَمُنُّ)؛ وذلك لأنَّ ذكرَهُ أبلغُ؛ إذ مرادُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّفُ عن إرادتِهِ[1]، فيفيدُ الكلامُ تحقُّقَ المرادِ يقينًا، فيكونُ أنسبَ بمقامِ العِبْرةِ والموعظةِ، كما أفاد ذكر فعل الإرادة أنَّه كان وما زال وسيبقى، فهو سنَّةٌ أرادها اللّهُ تعالى، وسنّته لا تتخلّف عن عباده المؤمنين، ولو ذكر فعلَ المنِّ وحدَه لظُنَّ أنَّه حكاية ما حصل لبني إسرائيل، فذَكَر الإرادةَ ليُعْلم أنَّها باقية في الحال والمستقبل كما كانت في الماضي.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن نَّمُنَّ﴾، وقولِهِ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ لأنَّ المَنَّ وما عُطِفَ عليهِ أمورٌ مُستقبلةٌ بالنِّسبةِ للإرادةِ[2]، فيكونُ تحقُّقُها عَقِبَها.

سِرُّ استعمالِ مفردةِ المَنِّ دونَ النَّصرِ:

إنـجاءُ المؤمنين مَحْضُ فضلٍ مِنَ اللهِ تعالى ويلزم عنه النَّصرُ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة المنِّ في قوله تعالى: ﴿أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، دون مفردةِ النّصر، فلم يُقَلْ: (أنْ ننصرَ الَّذينَ استُضعِفوا)؛ لأنَّ المَنَّ فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ تخليصَهم مِنْ فرعونَ مَحْضُ فضلٍ مِنَ اللهِ، لا بمباشرةٍ منهُم لأسبابِهِ، فقد أهلكَ اللّهُ فرعونَ وجنودَهُ بالغرقِ، ولم يُقتَلْ مِنْ بني إسرائيلَ رجلٌ واحدٌ، ولو عُبِّرَ بالنَّصرِ لربَّما ظُنَّ أنَّهم باشَروا حربًا أو قتالًا، وأيَّدَهم اللّهُ بعدَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 468.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 62، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 253.

ذلكَ، والواقعُ بخلافِ ذلكَ، كما أنَّ ذِكر المَنِّ أدعى لمعرفةِ فضلِ اللّٰه على بني إسرائيل، يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ ذِكر جَعْلِهم أئمَّةً وجَعْلِهم وارثِينَ يستلزمُ حصولَ النَّصرِ، فالنَّصرُ من توابع فضلِ اللّٰه تعالى ومنِّه على عبادِه.

بلاغةُ حرفِ الاستعلاءِ:

المَـنُّ الإلـهـيُّ محيطٌ بالمؤمنين نـازلٌ على المُحسنين

دلَّ استعمالُ حرفِ الاستعلاءِ المجازيِّ في قولِه سبحانَهُ: ﴿أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ على تعظيم شأنِ المَنِّ على بني إسرائيلَ، بتصويرِه بصورةِ شيءٍ قد غَشيَهم واشتملَ عليهم مِنْ جميع الجوانبِ، فأصابَ الجميعَ، ولم يُغادِرْ منهُم أحدًا، وأنَّ منزلةَ المَنِّ منهم منزلةَ العُلوِّ ممّا هو دونه، فهو منُّ المولى سبحانه، وفضلُ العظيم في معاملةِ أوليائه.

توجيهُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

استـضـعـافُ المؤمنين مَجْلَبَةٌ للنَّصرِ والتَّمكين

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (ونريدُ أنْ نَمُنَّ عليهم)، لكنْ وُضِعَ الموصولُ موضعَ الضَّميرِ، فقيلَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾؛ وذلك لإظهارِ قَدْرِ النِّعمةِ على بني إسرائيلَ بذِكر حالتِهم السّابقةِ المغايرةِ لها[1]، وللإشارةِ إلى أنَّ علَّةَ استحقاقِهم المَنَّ والكرمَ هي استضعافُهم[2]، كأنَّهُ قيلَ: ونريدُ أنْ نَمُنَّ عليهم؛ لأنَّهم مُستضعَفونَ، وفي ذلكَ بُشرى للمظلومينَ بأنَّ اللّٰهَ رحيمٌ بعبادِه، وينصرُ المُستضعَفينَ المظلومينَ - إنْ أرادَ - في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

إشارةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

كلُّ مستضعفٍ صابرٍ سيأتيه الـفـرجُ بـالمَنِّ والإحسانِ

بُنِيَ فعلُ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، ولم يُقَلْ: (استضعفَهم فرعونُ)، من باب الإيجاز، ولإيهامِ أنَّ استضعافَ فرعونَ جعلَهم مِنَ الذُّلِّ بحيث

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 3.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 70.

يستضعفُهم كلُّ أحدٍ، ولا يقدرونَ على ردِّهِ، وفيهِ تعميم الخطابِ لجميعِ المُستضعَفينَ في الأرضِ ممَّنْ شاءَ اللّهُ نصرَهم، سواءٌ الَّذينَ استضعفَهم فرعونُ أم الَّذينَ استضعفَهم غيرُهُ، ويُقوّي ذلكَ التَّعبيرُ بالموصولِ كما تقدَّمَ، فيكونُ في الكلامِ تعريضٌ بأنَّ اللّهَ تعالى سيَمُنُّ على المُستضعَفينَ مِنَ المؤمنينَ، وينصرُهم على قريشٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي:

استضعافُ بني إسرائيلَ أمرٌ ثابت متحقّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ استضعافَ بني إسرائيلَ أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ، ورسخَ فيهِم حتَّى صارَ صفةً ثابتةً لهُم يُعرَفونَ بها.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيَّة:

المبالغةُ في تصويرِ الاستضعاف بيانٌ لشديدِ المعاناة

استُعمل حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فأفاد أنَّ مكانَ استضعافِ بني إسرائيلَ هو الأرضُ، وما في هذا الحرفِ مِنَ الدّلالةِ على الاستغراقِ يُشيرُ إلى أنَّ الأرضَ كأنَّها قد امتلأَتْ مِن استضعافِ بني إسرائيلَ، وكأنَّ فرعونَ قد جعلَ الأرضَ سِجْنًا لهُم، يُذيقُهم فيهِ أنواعَ العذابِ، وهذا من باب التَّصويرِ والتّقريب لحجم المعاناة التي مرَّ بها بنو إسرائيل، وهو أسلوب مستعملٌ في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التّوبة: 118].

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

استضعافُ بني إسرائيل وقع في أرض مصر

المرادُ بالأرضِ في قولِه جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضُ مصرَ[1] الَّتي سبقَ ذكرُها في قولِه تعالى: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فالتَّعريفُ فيها للعهدِ بدليلِ المقامِ.

دلالةُ تقييدِ فعلِ الاستضعافِ:

قُيِّد فعل الاستضعاف بالجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 242.

مكانُ الاستضعافِ هو مكانُ الاستخلاف

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معَ تقدُّمِهما في قولِهِ تعالى في وصفِ فرعونَ: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّمهيدِ لإيقاعِ تمكينِ بني إسرائيلَ على نفسِ الأرضِ الَّتي وقعَ عليهم الاستضعافُ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 6]، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّ الأرضَ للّٰهِ، يورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ، فترى أرضَ مصرَ قد تبدَّلَتْ صفتُها مِنْ كونِها مكانًا لعُلُوِّ فرعونَ واستضعافِهِ بني إسرائيلَ، إلى مكانٍ لتمكينِهِم ونصرِهِم، وكلُّ ذلكَ ببركةِ اتِّباعِ موسى عليه السلام.

بلاغةُ عطفِ الجُمَلِ:

الإمامةُ والوِراثةُ مِن نِعَمِ المَنِّ والتَّمكين

الجملتان المعطوفتان بالواوِ في قوله تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ معطوفتانِ على قولِهِ تعالى: ﴿أَن نَّمُنَّ﴾، وهذا مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ[1]؛ لأنَّ جَعْلَهم أئمَّةً وجَعْلَهم الوارثينَ مِنْ جملةِ المَنِّ عليهِم، وإفرادُهما بالذِّكرِ للإشعارِ بتعظيمِهما، حتَّى كأنَّهما مغايرانِ للمَنِّ، ولذلكَ عُطِفا عليهِ، فلا شيءَ أعظمُ مِنْ أنْ يكونَ الإنسانُ مالكًا أمرَ نفسِهِ، وقُدوةً لغيرِهِ فيما يُرضي اللّٰهَ تعالى، وأنْ يكونَ مُستخلَفًا في الأرضِ يَعْمُرُها بالخيرِ.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الجَعْلِ:

دوامُ الحالِ من المُحال

استُعمل فعلُ الجَعْلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ لأنَّ مِنْ معانيهِ التَّصييرَ، وتبديلَ صفةِ الشَّيءِ، وتحويلَ حقيقتِهِ، فيفيدُ الكلامُ تصييرَ بني إسرائيلَ صالحينَ للقيادةِ والمُلْكِ بعدَ كونِهم أذِلّاءَ مُستضعَفينَ، وتصييرَهم مالكينَ بعدَ كونِهم مملوكينَ، فسبحانَ مالكِ المُلْكِ، يُؤتي المُلْكَ مَنْ يشاءُ، وينزِعُ المُلْكَ ممَّنْ يشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ، وهذا التَّصييرُ إنَّما بأمرِ اللّٰه تعالى، ففيه منَّةٌ ونعمةٌ وفضلٌ وبشرى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 71.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأئمَّةُ دون الهُداةُ:

الأئـمَّـةُ أنسبُ بتصيير بني إسرائيلَ مُلوكًا ودعاةً يُقتدَى بهم

جاء استعمالُ لفظِ الأئمَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ دون (هداة)، والإمام هو المُؤتَمُّ بِهِ، إنسانًا كانَ أو غيرَهُ، مُحِقًّا كانَ أو مُبطِلًا[1]، والهُداةُ: جمعُ هادٍ، والهدايةُ في الأصلِ: دلالةٌ بلُطفٍ؛ وجعلهم أئمّة أنسبُ بالمعنى المرادِ، وهو أنَّهُ سبحانَهُ أخرجَ بني إسرائيلَ مِنْ ذلِّ العبوديَّةِ، وجعلَهم أمَّةً حُرَّةً مالكةً أمرَ نفسِها، لها شريعةٌ عادلةٌ وقانونٌ وحضارةٌ كاملةٌ، بحيثُ تصيرُ قُدوةً للأممِ، في شؤونِ الكَمالِ وطَلَبِ الهَناءِ، فَهَذا مَعْنَى جَعْلِهِمْ أَيِمَّةً، أي: يَقْتَدي بِهِمْ غَيْرُهُمْ ويَدْعونَ النّاسَ إلَى الخَيْرِ[2]. واختيارُ لفظِ الأئمَّةِ يناسبُ ما وصفَ بهِ ﷻ فرعونَ وقومَهُ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص: 41][3]، وشتّانَ بينَ إمامِ الخيرِ وإمامِ الشَّرِّ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَئِمَّةٗ﴾:

تعظيمُ إمامةِ بني إسرائيلَ، وتفخيمُ شأنِها

نُكِّرَ لفظُ ﴿أَئِمَّةٗ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾؛ لتعظيم إمامةِ بني إسرائيلَ، وتفخيم شأنِها، أي: ونجعلَهم أئمَّةً عظيمي الشَّأنِ، قُدوةً لغيرِهم، لا سلطانَ لظالمٍ عليهم.

علَّةُ تقديمُ الإمامةِ على الوراثةِ:

الإمامةُ أعظمُ مِنَ الوراثةِ

قُدِّم ذكرُ الإمامةِ على الوراثة في قولِه تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ مَع تقدُّمِها عليها زمانًا؛ لانحطاطِ رتبتِها عن الإمامةِ، وإنْ كانَتْ عظيمةً في ذاتِها، ولئلّا ينفصلَ عنهُ ما بعدَهُ الّذي هو منْ روادفِه، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 6][4].

بلاغةُ تكرارِ فعلِ الجَعْل:

مـقـتـضى التَّنويه بالنِّعَم استحضارُ الشُّكر

آثرَ النَّظمُ الكريم تكرارَ فعلِ الجَعْلِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 71.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 242.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 3.

﴿أَيِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ فلم يقل: (ونجعلَهم أئمَّةً ووارثينَ)؛ لإفادةِ أنَّ جَعْلَهم الوارثينَ نعمةٌ مستقلَّةٌ جديرةٌ بأنْ تُفرَدَ بالذِّكر. ولو لم يُكرِّر الجعلُ؛ لظُنَّ أنَّها تابعةٌ للنِّعمةِ السّابقةِ، فيَفوتُ التَّنويهُ بشأنِها، ومقتضى التّنويه الشُّكر بالذِّكر، واستحضارِ النِّعَم.

بلاغةُ المجازِ في استعمال مفردة الإرثِ:

المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾: أنْ يصيرَ لبني إسرائيلَ ما كانَ لفرعونَ وقومِه مِنَ المُلْكِ والدّيارِ وغيرِ ذلكَ(1)، فيكونُ الإرثُ مُستعمَلًا مجازًا في خلافةِ الأمَّةِ أمَّةً أخرى(2).

بلاغةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾:

شأنُ العظيمِ توريثُ الضَّعيفِ وإعزازُ الذّليل

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّهم قد ورِثوا جميعَ ما كانَ مُنتظِمًا في سِلْكِ مُلْكِ فرعونَ وقومِه وِراثةً كاملةً(3)، لا ينازعُهم فيها أحدٌ، فالتَّعريفُ للجنسِ المفيد أنَّهم أهلُ الإرثِ الخاصِّ، وهو إرثُ السُّلطةِ في الأرضِ بعدَ مَنْ كانَ قبلَهم مِنْ أهلِ السُّلطانِ(4).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 392.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 71.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 3.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 71.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من آيات الله الواعظة هلاك الظّالمين على أيدي المستضعفين

بعد أن بيَّنَتِ الآياتُ السابقة عُلوَّ فرعون في الأرض واستضعافَه بني إسرائيل، بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وبعد أن ذكرت إرادة الله تعالى أن يمنَّ عليهم بأن يجعلهم أئمَّةً، ويجعلهم الوارثين لفرعون وملكه - تأتي هذه الآية لِتُبيِّن أنَّ الله تعالى أراد - بالإضافة إلى ذلك - أن يمكِّن لهم في الأرض التي ورثوها، وأن يُهلِك فرعونَ وأَشْياعَهُ على أيديهم، لتكون تلك الأنباء موعظةً وذكرى للناس أجمعين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُمَكِّنَ﴾: (مكن) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ[1]، "يقال: مَكَّنْتُه ومكّنت له فتمكّن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 10]"[2]، و"المعنى المحوريُّ: رسوخ الشَّيء متجمعًا (من دقائق) في باطن يلتئم عليه، والتَّمكين من الشَّيء (إنالة) ما يصحُّ به الفعل من الآلات والقوَى، وهو أتمُّ من الإقدار، لأنَّ الإقدار إعطاء القدرة خاصَّةً، والقادر على الشَّيء قد يتعذر عليه الفعل لعدم الآلة"[3]. والمراد في الآية: نُطلِق أيديَهُم في حكم البلاد التي ورثوها من الظّالمين.

2) ﴿وَنُرِيَ﴾: (رأي) " أَصْلٌ يدلُّ عَلَى نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ. والرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنْسانُ في الأَمْرِ، وجَمْعُهُ: الآراءُ. يقال: رَأَى فُلانٌ الشَّيءَ وراءَهُ، وفَعَلَ ذَلِكَ رِئاءَ النّاسِ، وهوَ أَنْ يَفعَلَ شَيئًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (مكن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 111، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مكن).

ليَراهُ النّاسُ"[1]. و"المعنى المحوريّ: لحظ العينِ الشيءَ حال اتجاهها إليه"[2]، وهذه المسمّاةُ بالرُّؤية البصريَّة. وثَمّ ما يعرف بالرُّؤيا المناميِّة، والرؤية بمعنى الرأي، واجتمعا في قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: 102]، وأيضًا ما يعرف بالرؤية العلمية، "ومنها: كلّ (أرأيت. أفرأيت. أرأيتم. أفرأيتم. أرأيتك. أرأيتكم)"[3]. والمقصود في الآية: أن يرى فرعون وقومه هلاكهم على يد طفل من بني إسرائيل بأبصارهم.

3) ﴿يَحۡذَرُونَ﴾: (حذر) "أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مِنَ التَّحَرُّزِ والتَّيَقُّظِ. يُقالُ حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا. ورَجُلٌ حَذِرٌ وحَذورٌ وحِذْريانٌ: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ. وحَذارِ، بِمَعْنَى احْذَرْ، ومنه قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء: 56]"[4]، و"الحَذَر: احتراز من مخيف، يقال: حَذِرَ حَذَرًا وحذرته، قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]"[5]. والمراد: أنَّ فرعون وهامان وجنودهما سيرون من بني إسرائيل ما كانوا يَتوَقَّوْن حصولَه، ويَحولون دون وقوعه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قد يُــذِلُّ الله الظالمين في الدّنيا بإهلاكهم على أيدي المظلومين

تستمرُّ آيات السّورة الكريمة في بيان ما أراد الله تعالى أن يتفضَّل به على بني إسرائيل، تعويضًا عمّا فعله بهم فرعون وهامان وجنودهما من تقتيل الأبناء واستحياء النِّساء، حيث تبيِّن هذه الآية أنّ الله سبحانه أراد أن يُنعِم عليهم أيضًا بمنحهم أسباب القوَّة والتَّمكين في البلاد التي ورثوا حكمَها من القوم الظّالمين، وأن يذيق فرعون وهامان وجنودهما بأس هؤلاء المستضعفين الذي كانوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حذر).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (حذر).

يخشونه، ويعملون على دفعه والنجاة منه، بأبشع الوسائل وأقبح الجرائم، لكنّ اللّه تعالى أراد إذلالهم بإهلاكهم على أيدي من ظلموهم واستضعفوهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الجملة:

التمكين للمظلومين يحصل بعد هلاك الظالمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ﴾، لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝﴾ [القصص: 5]، الواردة في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: 5]، ما يعني أنّها داخلة في النِّعَم التي أراد اللّه تعالى الإنعام بها على بني إسرائيل، بعد أن استضعفهم فرعون وجنوده، فقتَّلوا أبناءَهم واستَحْيَوا نساءَهم، حيث سبقها في هذا السّياق نعمتان: أولاهما: أن يكونوا أئمَّةً للناس في أمور الدين، بهم يقتدون وبسببهم يهتدون، والثانية: أن يكونوا الوارثين لمُلك فرعون وجنوده.

دلالة التعبير بالفعل: ﴿وَنُمَكِّنَ﴾:

التمكين يعني إطلاق أيدي المستضعفين

"أصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشَّيءِ مكانًا يتمكَّنُ فيه"[1]، واختار النظم الكريم مفردة: ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ لأنها تدلُّ - بمادَّتِها وجَرْسِها - على أنّ اللّهَ تعالى أراد أن يجعل بني إسرائيل مقتدرين على حكم الأرض التي ورثوها، وأراد أن يسلِّطهم على أهلها، وأن يتصرّفوا في إدارة أمورها كيف شاؤوا، والمعنى: نُسلِّطهم على مصرَ والشام وغيرهما من البلاد، ونطلق أيديهم في حكمها، يتصرَّفون فيها كيفما يشاؤون.

بلاغة الاستعارة في ﴿وَنُمَكِّنَ﴾:

من نِعَم الله على الحكّام الصالحين أن يجتمع لهم ولاءُ الرَّعيَّة

شبّه النظم الحكيم إطلاق أيدي بني إسرائيل في حكم البلاد التي ورثوها، واستقرارَ أوضاعهم فيها؛ بالتمكين، الذي يعني: جَعْلَ الشيءِ ثابتًا راسخًا في المكان من غير اهتزاز ولا قلق، ثم حذف

(1) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 5/ 219، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 387.

المشبَّه واستعار له فعل التمكين على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، التي يتَّضح بها مدى استقرار مُلْك بني إسرائيل في هذه الأرض، وكيف كان حكمهم لها، وتصريفهم لأمورها، وكيف كان الناس يَدينون لهم بالولاء والطاعة، ولا يثورون عليهم، ولا ينازعونهم، وبهذه الصورة التي أبرزَتْها الاستعارة يُعرف وجه المنَّة في حكم بني إسرائيل للأرض التي أورثها الله تعالى لهم.

دلالة التعبير بفعل التمكين مضارعًا:

استحضار الصورة يساعد على الاتعاظ والاعتبار

عبَّر النظم الكريم بالفعل: ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مضارعًا؛ لما يفيده - بجانب تجدُّد التمكين ودوام حصوله - من استحضار الحالة الماضية، التي تتحدَّث عنها السورة الكريمة، كأنّها حاضرة ماثلة، يبدو فيها بنو إسرائيل في وضع الأقوياء المسيطرين على مقاليد الحكم، الآخذين بزمام الأمور، المتسلِّطين عليها، بعد أن كانوا مستضعفين مقهورين، لا يُسمع لهم ولا يَأْبَهُ أحدٌ بهم، ترسيخًا للعبرة، وتمامًا للفائدة.

لطيفة إسناد فعل التمكين إلى ضمير التعظيم:

قُدرةُ الله تُحيل المُستضعف المظلوم قويًّا متمكِّنًا

في إسناد فعل التمكين إلى ضمير الحق سبحانه بصيغة التعظيم في قوله ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ تأكيد لحصول التمكين، ووعد من الله تعالى بإتمامه، وفيه إبراز لإرادته الغالبة، وقدرته القاهرة، التي تُحيل المُستَضعَفَ المظلوم إلى قويٍّ متمكِّن، والظالمَ الجبّارَ إلى ضعيف مقهور، وهو درس من الدروس المهمة، التي يُتلى لأجلها نبأُ موسى وفرعون في كتاب الله الحكيم.

معنى اللام ومرجع الضمير في: ﴿لَهُمْ﴾:

واللام في ﴿لَهُمْ﴾ حرف جرٍّ يفيد الاختصاص، والضمير فيه يعود إلى بني إسرائيل، المُعَبَّر عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ [القصص: 5].

دلالة تقييد فعل التمكين:

في تقييد فعل التمكين بالجارِّ والمجرور: ﴿لَهُمْ﴾ دلالة على أن

ما أهون زوال ملك الظالمين على الله رب العالمين!

اللّٰه تعالى يريد أن يختصَّ هؤلاء المستضعفين الذين حدث لهم ما حدث من تقتيل الأبناء واستحياء النساء بنعمة التمكين والحكم، ليرى الناس الفوارق الهائلة بين حكمهم وحكم من استضعفوهم، وليوقِنوا بقدرة اللّٰه على إذلال الظالمين المستكبرين، وتمكين الضعفاء المظلومين، لهوان ذلك وسهولته عليه سبحانه.

دلالة تقديم ﴿لَهُمْ﴾ على ما بعده:

عناية الله بالضعفاء دائمة مستمرة

قدَّم الجارَّ والمجرور: ﴿لَهُمْ﴾ على شبه الجملة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الاهتمام موجَّه إلى تمكين المستضعفين، وإرادةَ اللّٰه منصبَّة على رفعة شأنهم، وتغيير أحوالهم من القهر إلى العزِّ، ومن الاستضعاف إلى التمكين، ومن التبعية إلى القيادة، انتصارًا لهم وانتقامًا من عدوِّهم، وتأكيدًا لقدرة اللّٰه على فعل ذلك في أي زمان ومكان، فالتّقديم لتعجيل ما يسرّهم.

دلالة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لا يكون التمكين نعمةً إلّا إذا خلا من المناكفة والمقاومة

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حرف جَرٍّ أفاد هنا الظرفيَّة المجازيّة، والتعبير به يدلُّ على أنَّ البلاد التي حكمها بنو إسرائيل، والأرض التي سيطروا عليها كانت لهم كالوعاء، فلم يحصل معهم فيها شيء من المناكفة أو المقاومة أو الإخراج، وأنّ أهلها ومواطنيها كانوا يجتمعون حولهم، ويحيطون به إحاطة الظرف بالمظروف، وأنّ أمورَهم كانت مستقرَّة، وأحوالَهم كانت هادئةً، فدلّ حرف الجرّ على هذه الاستعارة من خلال تشبيه شدّة تغلغلهم في أهل الأرض بالظّرفيّة المكانيّة.

معنى اللام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

واللام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ يمكن أن تكون للعهد، فيُراد بها: الأرض التي استُضعفوا فيها، وهي: مصر والشام، ويمكن أن تكون للجنس فيراد بها: الأرض كلها، ويدخل فيها مصر والشام دخولًا أوليًّا.

دلالة تقييد فعل التمكين:

قُيِّدَ فعل التمكين بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدلالة على أنَّ اللّٰه تعالى يريد أن يختصَّ بني إسرائيل الذين كانوا في قمَّة الاستضعاف والهوان بالقوَّة والتمكين في الأرض كلِّها، أو في ذات الأرض التي استُضعفوا فيها، وذُبِّح أبناؤهم فيها، واستحيا الظالمون نساءَهم عليها - تشريفًا لهم واستهانةً بمن استضعفهم، وتثبيتًا للرسول ﷺ والمؤمنين معه، وتهديدًا للكافرين به المعاندين له.

من تشريف اللّٰه للمظلومين أن يمكنهم في ذات الأرض التي ظُلموا عليها

ترشيح الاستعارة:

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ترشيح للاستعارة، وتقوية للتمكين بالمعنى المستعار منه، إذ به يُصَوَّرُ حالُ بني إسرائيل في حكم البلاد التي ورثوها بالشجرة الضاربة جذورُها في أعماق الأرض، ما يعني الثباتَ والاستقرارَ وعدمَ التأثُّر بالمخاطر والمصاعب.

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَنُرِيَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ﴾، لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما يعني أنها - أيضًا - داخلة في النعم التي تفضَّل اللّٰه بها على بني إسرائيل، الذين استضعفوا في الأرض، وبها يبلغ عددُ ما أنعم اللّٰه تعالى به عليهم، وبدّل به أحوالهم أربعةَ أمور، **أوّلها:** جعلهم أئمَّةً، **ثانيها**: جعلهم الوارثين للظالمين بصفة عامَّة ولفرعون وقومه بصفة خاصَّة، **ثالثها**: التمكين لهم في الأرض التي ورثوها، ورابعها: أن يكون زوالُ ملك فرعون وهلاك جنوده بسببهم وعلى أيديهم.

تتابع ذكر النعم يؤدي إلى استحضار قدرة المنعم

دلالة التعبير بالفعل: ﴿وَنُرِيَ﴾:

وقوله: ﴿وَنُرِيَ﴾ يصحُّ أن يكون بمعنى: الرؤية البصرية، ويجوز أن يكون بمعنى: العلم، والأول أنسب للسّياق وأبرُّ بالمعنى.

دلالة التعبير بفعل الإراءة مضارعًا:

استحضار الصورة الماضية يجعل الألم مضاعفًا والحزن عميقًا

عبر النّظم الكريم بالفعل: ﴿وَنُرِيَ﴾ مضارعًا، لِما يمتاز به التعبير بالمضارع من استحضار الحالة الماضية الحاصلة منذ زمن بعيد كأنَّها ماثلة مُشاهدة، تعمل عملها في نفوس المخاطبين والقارئين في كل عصرٍ وحين، وفيها يبدو فرعونُ وهامانُ وجنودهما وهم يرون حتفهم، ويشهدون زوال ملكهم على يد غلام وُلِد في بني إسرائيل، ويدركون حينها أن قيامَهم بتقتيل الأطفال واستحياء النساء لم يَحُلْ بينهم وبين حدوث المصير المهين الذي كانوا يحذرونه، ويتحاشون حصوله، فيجتمع عليهم نوعان من العقاب أحدهما حسّيٌّ، والآخر نفسيٌّ، فيبلغ عذابهم قمَّته وذروته.

لطيفة إسناد فعل الإراءة إلى ضمير التعظيم:

الله تعالى يتولّى بنفسه نُصرة المستضعفين المظلومين

وفي إسناد فعل الإراءة إلى ضمير الحق سبحانه بصيغة التعظيم في قوله ﴿وَنُرِيَ﴾ وعد بتمامه وتأكيد لحصوله، لما يفيده ذلك الإسناد من أن اللّٰه تعالى سيتولّى هذا الأمر بنفسه، ويدبِّر لوقوعه بقدرته وحكمته. وفيه كذلك إبراز لقدرة اللّٰه القاهرة التي أحالت فرعون وهامان وجنودهما إلى هلكى ومعذَّبين بعد أن كانوا طغاةً قاتلين، وأحالت بني إسرائيل المستضعفين المقهورين إلى حكّام آمنين ممكّنين، فيطمئنّ إلى جنب اللّٰه تعالى الرسولُ والمؤمنون، ويخشى عقابَه وبطشَه الكافرون المتكبِّرون.

توجيه القراءات في جملة: ﴿وَنُرِيَ﴾:

خطران عظيمان يحيطان بالظالمين عند زوال ملكهم

الفعل: ﴿وَنُرِيَ﴾ قرئ بقراءتين[1]، أولاهما: ﴿وَنُرِيَ﴾ بنون العظمة، ونصب الفعل، ونصب ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وما عُطف عليه، وهي قراءة الجمهور، وتدلُّ على أن اللّٰه تعالى باشر بنفسه، وتولى بعظمته نصرة بني إسرائيل، وهلاك فرعون وهامان وجنودهما على أيديهم، ورتّب له ترتيبًا محكمًا فعذَّبهم وأهلكهم.

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 381.

والأخرى - وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف -: ﴿وَيَرَىٰ﴾ بياء الغائب المفتوحة وفتح الراء، على أنه مضارع رأى، ورفع (فِرْعَوْنُ) وما عطف عليه، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، وتفيد أنّ فرعون وهامان وجنودهما وقعوا فيما كانوا يحذرون، واستحضروا عند رؤيتهم الهلاك والدمار الذي حلَّ بهم فشلَّهم فيما خططوا ودبروا.

والقراءتان تدلّان على أنَّ فرعون وهامان وجنودهما أحاط بهم خطران عظيمان، أحدهما: خارجيٌّ، تدلُّ عليه القراءةُ الأولى، والآخر: نفسيٌّ، تدلُّ عليه الثانيةُ.

دلالة التّعدية إلى: ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾:

ذِكْـــرُ أسـمـاء الـــظـــالـمـــين الـهـالـكـين يبث الرعب في قلوب مـــن يـحـــذو حذوهم

عُدّيَ الفعل: ﴿وَنُرِىَ﴾ إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ دون غيرهم من أهل الأرض، التي استُضْعِف فيها بنو إسرائيل؛ وعُطفوا بالواو التي تفيد المشاركة؛ لأنَّ ثلاثتهم كانوا الضالعين في الاستضعاف، القائمين بتقتيل الأبناء واستحياء النساء، وكان لكلٍّ منهم فيه دورٌ فاعلٌ، وأثرٌ بارزٌ.

بجانب ما في ذِكْرِهم من بثِّ الرعب في قلوب المشركين الذين يناوئون الرسول ﷺ والمؤمنين، والذين لا يبلغون مبلغهم بأي حال من الأحوال.

لطيفة الترتيب بين: ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾:

عقاب الظالمين يشمل كل من شارك في الظلم بأية صورة وبأي مقدار

وبدأ النظم الكريم بفرعون؛ لأنَّه كان أكثرهم استفادةً من الاستضعاف، وأشدَّ حرصًا عليه، إذ كان خطر بني إسرائيل يَمَسُّ ملكه ويطول شخصَه بصورة مباشرة، كما أنَّ التّقتيل والاستحياء لا يمكن أن يحصلا في أرضه إلا بإذنه وأمره. وثنّى بهامان؛ لأنَّه كان وزيره وشريكه في التخطيط، والمسؤول الأوّل عن التنفيذ، والمستفيد الثاني من استضعاف بني إسرائيل.. وأعقبه بالجنود لأنَّهم الأداة التي توصَّل بها فرعون وهامان إلى تحقيق ما يريدانه من الظّلم

والبطش، والوسيلة التي حصل بها الاستضعاف، ولولاهم ما حدث تقتيل الأبناء، ولا تمّ استحياء النساء.

دلالة إضافة الجنود إلى ضمير ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾:

لا فرق في العقوبة بين الظالم وجنده

في قوله ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ "أضاف الجنود إلى ضمير فرعون وهامان تغليبًا، أو لأنَّ هامانَ له جنودُه كما لفرعون جنودُه، أو لأنَّ جند السلطان هم جند الوزير أيضًا"[1]، وفيه دلالة على أنَّ الجنود كان لديهم حرص على التقتيل والاستحياء يماثل حرص فرعون وهامان، فكأنَّهم وضعوا أنفسهم في موضعهما، وقاموا بما يريدانه على الوجه الذي يريدانه، فنالهم من العقاب ما نالهما. وثَمَّ دلالة أخرى على أنَّه لا فرق في العقوبة بين الظالم وآلته من الجند المساعدين.

دلالة حرف الجرّ ومرجع الضمير:

هلاك الظالمين قد يكون بسبب وقد يكون بغير سبب

(مِنْ) في ﴿مِنۡهُم﴾ حرف جرٍّ يمكن أن يكون هنا لابتداء الغاية، ويمكن أن يكون للسببيَّة، والضمير (هُمْ) فيه يعود على المستضعفين (بني إسرائيل).

فإذا كان (مِنْ) لابتداء الغاية، فالمعنى: إنَّ هلاك فرعون وهامان وجنودهما ستكون بدايته بولادة موسى عليه السلام فيهم، ثم إرساله إلى فرعون، ثم ارتفاع أمره، ثم هلاك فرعون وجيشه في اليمِّ عندما حاولوا ملاحقة موسى وبني إسرائيل.

وإذا كان للسببيَّة، فالمعنى: إن هؤلاء المستضعفين سيكونون سببًا في هلاك فرعون وهامان وجنودهما، على الرغم من ضعفهم، وقلَّة حيلتهم.

دلالة تقديم ﴿مِنۡهُم﴾:

تشريف المستضعفين والتعجيب من قدرة الله على الظالمين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُم﴾ على المفعول الثّاني ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾، اهتمامًا بحصوله من المستضعفين، وتأكيدًا لمباشرتهم

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 63، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 255.

له أو كونهم سببًا فيه، تشريفًا لهم، وتعجيبًا من قدرة اللّه تعالى على الطغاة الظالمين.

عِلَّة التعبير بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ اسم موصول في محلِّ نصب مفعول به ثان للفعل: ﴿وَنُرِيَ﴾، عبَّر به النظم الكريم دون المفعول الصَّريح؛ لما يفيده - بمعناه وبنائه المختوم بألف المدِّ - من تهويل المفعول وتفخيمه، وليتوصَّل بما في حَيِّزه من جملة الصلة إلى أنّ هذا المصير كان يُكدّر عيش فرعون وأشياعه، فكانوا مشغولين بتوقّيه، والتدبير للنجاة منه، فارتكبوا أبشع الجرائم، واستخدموا أَخَسَّ الوسائل، ومع ذلك لم ينجُ من هذا المصير أحد منهم، ولو عبَّر بالمفعول الصَّريح فقيل: (ونُري فرعون... منهم القتل والتنكيل)، لَفُهِم أنَّهم عاشوا آمنين مطمئنّين إلى أن حدث ذلك فجأةً لهم من بني إسرائيل، ولَفاتَ معنى الحذر المنبئ عن الرُّعْب والخوف الذي تملَّكهم طيلة حياتهم من هذا المصير، والفرق بين التركيبين جدُّ كبير.

الظالمون يعيشون في خوفٍ وذعرٍ طيلة حياتهم

دلالة التعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا:

التَّعبير بالفعل ﴿كَانُواْ﴾ يدلُّ - بزمانه ومادَّتِه - على أنَّ الخوف والهلع من الهلاك على يد غلام من بني إسرائيل قد تمكَّن من فرعون وهامان وجنودهما، وسيطر عليهم، وأصبح ملازمًا لهم لا ينفكُّ عنهم، كأنَّه غريزةٌ فيهم، وفطرةٌ فُطروا عليها.

كأنَّ الخوفَ والهلعَ غريزةٌ في الظّالمين وفطرةٌ فُطروا عليها

لطيفة إسناد فعل الكون إلى واو الجماعة:

أُسنِد فعل الكون إلى ضمير الجماعة؛ للإشارة إلى أنَّه لا فرق في الهلع والخوف من الهلاك على يد غلام من بني إسرائيل بين فرعون وهامان وجنودهما، فكلُّهم في أمر الرعب سواء، ومظاهره وعلاماته تبدو عليهم جميعًا بلا استثناء.

الظالمون في الرعب والفزع سواء

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَحۡذَرُونَ﴾:

لا يفتر الظالمون عن التّفكير والعمل لتوقّي ما يحذرون

في تعبير النظم الكريم بالفعل ﴿يَحۡذَرُونَ﴾ الذي تدلُّ مادَّته على: الانتباه وأخذ الحَيْطَة والاحتراس من الوقوع في شيء مخيف؛ دلالة على حرص فرعون وهامان وجنودهما الشَّديد، وتفكيرهم الدائم في توقّي خطر بني إسرائيل، وعملهم الدؤوب لدفعه عنهم، والحَيْلولة دون حصوله لهم.

دلالة التعبير بـ ﴿يَحۡذَرُونَ﴾ مضارعًا:

تتنوع وسائل الظالمين للوقاية من المصير المحذور

عبَّر النظم بفعل الحذر مضارعًا؛ للإشارة إلى تَجَدُّدِ حذرهم، واستمرار اتخاذهم وسائلَ متنوعةً، وخطوات متتابعةً، تحول بينهم وبين حصول أي شيء فيه أذى لهم، أو ينتج عنه هلاكهم على يد بني إسرائيل أو بسببهم، وما تقتيل الأبناء واستحياء النساء إلا وسيلة من الوسائل التي اتخذوها لتوقّي ذلك المصير.

لطيفة إسناد المضارع إلى واو الجماعة:

الظالمون في الحذر من نتائج ظلمهم شخص واحد

أُسند الفعل ﴿يَحۡذَرُونَ﴾ إلى واو الجماعة، للإشارة إلى أنَّهم كانوا في فعل هذه الوسائل، واتخاذ تلك الخطوات على قلب رجل واحد، وأنَّ الشعور بالخطر والتفكير فيما يحول بينهم وبينه كان يتملَّك فرعون وهامان والجنود بلا استثناء.

نكتة حذف مفعول ﴿يَحۡذَرُونَ﴾:

تقدير الكلام هنا (ما كانوا يحذرونه) فأفاد حذف المفعول هنا التّعميم ليشمل كلّ ما يمكن الحذر منه، فضلًا عن إفادته الإيجاز.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

التّمْكين والتَّثْبيت:

التمكين يحتاج إلى أسباب والتثبيت أمر معنوي ينبع من النفس أو من الغير

من الناحية اللفظيَّة: كلاهما مشتق من فعل متعدٍّ مضعَّف العين على وزن (فعّل).

ومن الناحية المعنويَّة، التمكين يعني: إعْطاء ما يَصِحُّ بِهِ الفِعْل كائنًا

ما كانَ من الآلات والعدَد والقوى، ما يعني أنه لا يتمُّ إلّا اذا امتلك الإنسان أسبابًا تساعد عليه، أو منحه أحدُ الأسباب التي تساعد على حصوله، وكلُّ ما في القرآن منه بالمعنى الثاني، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ۝٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ [الكهف: 84 - 85].

أما التثبيت فيعني: التقوية، وهو أمر معنويٌّ، ليس فيه آلات ولا أدوات، ويمكن أن يكون نابعًا من النفس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [البقرة: 265]، ويمكن أن يكون من الغير، كما في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27].

الإراءة والإعلام:

الإراءة تقتضي الإعلام، والإعلام لا يستلزم الإراءة

من الناحية اللفظيَّة، كلاهما مشتقٌّ من فعل متعدٍّ على وزن أفعل.

ومن الناحية المعنويَّة، فالإراءة تعني: المعاينة والمشاهدة بحاسَّة البصر، وقد تكون بمعنى الإعلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]، عندما يكون الوصف دقيقًا والآثار باقية، وهي أقوى من الإعلام وآكَدُ.

أمّا الإعلام فهو إحاطة لا تشمل الإراءة، ويختصُّ بالإخبار السريع، وهو بخلاف التعليم الذي يستغرق وقتًا ويستلزم التَّكْرار.

الحذر والخوف:

الحذر يدفع الضرر، أما الخوف فلا يدفعه

من الناحية اللفظيَّة: الأوَّل مشتقٌّ من الثلاثي الصحيح (حذر) والثاني مشتقٌّ من الثلاثي معتل الوسط (خاف)، ومن الناحية المعنويَّة: الحذر هوَ: توقِّي الضَّرَر، سَواء كانَ مظنونًا أو متيقَّنًا، والخَوْف توقُّع الضَّرَر المَشْكوك في وُقوعه.

والحذر يدْفع الضَّرَر، أما الخَوْف فلا يَدْفَعهُ، ولِهَذا يُقال: خُذ حذرك، ولا يُقال: خُذ خوفك(1).

(1) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص: 240.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾

[القصص: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

التفصيل بعد التشويق يساعد في ترسيخ العبرة والتقاط الدرس

بعد أن وضَّحت الآيات السابقة أن الله تعالى أراد أن يمنَّ على بني إسرائيل بأن يجعلهم أئمّةً، ويجعلهم الوارثين، ويمكِّن لهم في الأرض، ويكون هلاك فرعون وقومه على أيديهم، جاءت هذه الآية لتَشْرَع في بيان كيفية حصول ذلك الإنعام، فوضَّحت أنَّ بدايته كانت بميلاد موسى، وفصّلت كيف أنجاه الله من الظالمين، "فإنَّ الإرادة لما تعلَّقتْ بإنقاذ بني إسرائيل من الذُّلِّ خلق الله لهم المُنقِذَ، وهو الذي كان يحذره فرعونُ على مُلكه، وكان يذبّح أبناء بني إسرائيل لأجله"(1)، ليساعد التفصيل بعد التشويق في ترسيخ العبرة والتقاط الدرس.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿رَآدُّوهُ﴾: (ردّ) "أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، وهوَ رَجْعُ الشَّيْءِ. تَقولُ: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا. وسُمّيَ المُرْتَدُّ لِأَنَّهُ رَدَّ نَفْسَهُ إلَى كُفْرِهِ"(2)، "الرَّدُّ: صرف الشيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ فارْتَدَّ... فمن الرّدّ بالذّات قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، وقوله: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، ومن الرّدّ إلى حالة كان عليها قوله: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]"(3)، "وكل ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى: الرجوع والإرجاع"(4).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 465.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رد).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ردد).

2) ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾: (جعل) "كَلِماتٌ غَيْرُ مُنْقاسَة، لا يُشْبِهُ بَعْضُها بَعْضًا.. وجَعَلْتُ الشَّيْءَ: صَنَعْتُهُ، قالَ الخَليلُ: إلّا أَنَّ جَعَلَ أَعَمُّ"[1]، و"المعنى المحوريُّ: تحويل الشيء إلى وضع أو هيئة معينة"[2]، وقيل: "الحكم بالشيء على الشيء، حقًّا كان أو باطلًا، فالحقّ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وأمّا الباطل فنحو قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136]"[3]، والمراد به في الآية: مصيِّروه رسولًا إلى فرعون وقومه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يد الله تعالى تتولّى تحقيق مراده

أراد اللّه تعالى أنْ يمنّ على بني إسرائيل، فبعث إليهم موسى ﵇ لينقذهم مما هم فيه، ويُذيق فرعونَ وقومَه ما أذاقوه لأهله وعشيرته، وقد أحاط به عند الحمل والولادة خطر القتل الذي كان يحصل لغلمانهم، لكنّ اللّه تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه، فبعد أن حملت أمُّه فيه وكتمت عن الناس حملها حتَّى وضَعَتْه، انتابتها الحيرة، ولم تَدْرِ ماذا تفعل حتى لا يقتله جنود فرعون كما قتلوا تسعين ألفًا من ذكور بني إسرائيل. حينئذ أوحى اللّه تعالى إليها أن تقوم بإرضاعه في خفية، وأن تضعه في تابوت وتلقيه في النيل، إذا تيقَّنت من انكشاف أمرها ومجيء الجنود لقتله، مع وعدها بحفظه، وتبشيرها بِرَدِّهِ إليها، وجعله من المرسلين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

بيان تفاصيل الإرادة بعد ذكر فعل الإرادة

الواو عاطفة، والعطف من عطف القصّة على القصّة، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ شروعٌ في تفصيل ما أنعم اللّه به على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جعل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

بني إسرائيل، وبدايةُ سردٍ لكيفيَّة جعلهم أئمَّةً وارثين، فالواو لعطف ما بعدها على قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: 5]، إذ الكلُّ من أجزاء نبأ موسى وفرعون، الذي تحكي تفاصيلَه السورةُ الكريمةُ.

معنى الإيحاء في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾:

الفعل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ معناه: أبلغناها عن طريق الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: 68]، أو في رؤية مناميَّة، أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك، وعلى كلِّ الاحتمالات فإنَّ ذلك من فضل الله تعالى ولُطْفِه بموسى عليه السلام وبأمِّه.

نكتة إسناد فعل الإيحاء إلى ضمير العظمة:

كل شيء يتم بإرادة الله وتدبيره

في إسناد فعل الإيحاء إلى ضمير الحق سبحانه بصيغة التعظيم في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ تفخيم للموحى به، وتعظيم لشأنه، وإعلام بأن الله تعالى بما له من الكمال والجلال والاقتدار - هو الذي تولَّى أحداث قصة موسى كلِّها بنفسه، ورتّبها بحكمته؛ بدايةً من ولادة موسى عليه السلام، ومرورًا بإرضاعه وإلقائه في اليمِّ، ثم وصوله إلى قصر فرعون والتقاطه من قبل آله، وغير ذلك من الأحداث، إلى أن تمّ مراده سبحانه بهلاك فرعون وجنده على يديه.

دلالة تعدية فعل الإيحاء بـ: ﴿إِلَىٰٓ﴾:

وسائل رعاية الله لخلقه مختلفة متنوعة

في تعدية فعل الإيحاء إلى ﴿أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالحرف المفيد لانتهاء الغاية: ﴿إِلَىٰٓ﴾ دلالةٌ على رعاية الله تعالى وتشريفه لهذه الأمِّ، التي تتملَّكها الحيرة والقلق، إذ أرسل الله إليها على وجه الخصوص مَلَكًا - على أحد الأقوال - يحمل رسالةً، فيها وعدٌ منه بما "يُسلّيها ويُطامِنُ قلبَها ويملؤُها غِبطةً وسُرورًا"[1]، وهو ما يفعله الله تعالى مع جميع خلقه، ولكن بوسائل مختلفة وأساليب متنوعة.

(1) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 12/ 11.

نكتة التعبير بـ: ﴿أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾:

سعادة المرأة وشرفها في كنيتها بأسماء أبنائها

عبَّر النظم الكريم عنها بـ: ﴿أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ دون الاسم الصريح؛ لأسرار ودلالات، **منها** أنَّ موسى هو الرضيع الذي سيكون هلاك فرعون وهامان وجنودهما على يديه، ففي إضافتها إليه تشريف لها إذ هي أمُّ نبيِّ اللّه تعالى وكليمه ﷺ. **ومنها** أنَّ الوحي إليها، والاهتمام بأمرها، والحرص على تطمينها؛ كان باعتبارها أُمًّا خائفةً على رضيعها، وليس باعتبارها فلانة بنت فلان. **ومنها** أنَّ ذِكْرَها بالاسم الصريح ممّا لا يتعلَّق به كبير فائدة. **ومنها** أنَّ ذلك يتماشى مع هدي القرآن في الحرص على ترسيخ المعاني والمفاهيم، دون ربطها بأشخاص أو شخصيات، ليكون الخطابُ بها عامًّا، والمعنى المقصودُ منها شاملًا الخلائق أجمعين. وأخيرًا: لأن مما يسعد المرأة ويشرفها أن يكنى عنها بأسماء بنيها.

معنى ﴿أَنْ﴾ في جملة: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾:

قوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ تفسير لما أوحى اللّه به إلى أمِّ موسى، فـ ﴿أَنْ﴾ فيه تفسيريَّة، لأنّ في الوحي معنى القول. ويجوز أن تكون مصدرية، والمعنى: أوحينا إلى أمِّ موسى إرضاعه.

الغرض من الأمر في ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾:

من المنطقي أن يداوم الإنسان على العمل إلى أن يتحقَّق من الخطر

الغرض من التعبير بفعل الأمر: ﴿أَرْضِعِيهِۖ﴾ نصحُها بالمداومة على إرضاع صغيرها في خفية، إلى أن يتحقَّق لديها تعرُّضه لخطر القتل، إذْ إنّ دلالة الوجوب للأمر مستبعدة في حقّها هنا، لأنّ الأمّ من شأنها أن ترضع وليدها دون الحاجة للأمر بذلك، وقد استجابت لذلك، إذ "روي أنَّها أرضعتْهُ ثلاثةَ أشهرٍ في تابوتٍ من بَرْديٍّ مطليٍّ بالقارِ من داخلِه"[1].

سبب الأمر بالمداومة على إرضاعه:

أن "تَقْوى بنيتُه بلبان أمِّه، فإنه أسعدُ للطفل في أوَّل عمره من

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 393.

لبان غيرها"[1]، وليَتقوّى برضاعه منها على مواجهة الأحداث التي سيمرُّ بها، ابتداءً من إلقائه في اليمِّ، ثمَّ وصوله إلى القصر، ثمَّ التقاط آل فرعون له، وعرضهم المراضع عليه، ثمَّ إرشاد أخته إلى أمِّه لترضعه، ثم ذهابها إليه وإرضاعها له بعد أن فارقها بعض يوم.

رضاع الأمهات يقوّي الأبناء بدنيًّا ونفسيًّا

معنى الفاء في جملة: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ﴾:

والفاء في جملة: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ﴾ للتفريع، والغرض منها تنبيه أمِّ موسى إلى ما تفعله عندما تدرك أنَّ أمرها قد سينكشف، وأنَّ قتل رضيعها حاصل إذا علموا بأمره.

دلالة التعبير بـ: (إذا):

عبَّر النظم الكريم في جملة الشرط بـ: (إذا) التي تفيد التحقُّق أداةً للشرط، وبفعل الشرط: ﴿خِفۡتِ﴾ ماضيًا، في قوله: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ﴾ لتوجيه أمِّ موسى إلى ضرورة إلقاء الرضيع في اليمِّ عند التأكد من وجود خطر داهم، وعندما يصير قتله في حكم الأمر المحقَّق؛ "دفعًا للضّرِّ المحقّق بالضّرِّ المشكوك فيه"[2].

على المرء أن يدفع الضرر المحقَّق بغير المحقَّق

دلالة التعبير بفعل الخوف:

الخوف: حالة نفسيَّة تعتري الإنسان بسبب شيء مكروه يتوقَّع حصوله، والتعبير به في جملة: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ﴾ يدلُّ على إحاطة المولى سبحانه بما يمكن حصوله للرضيع، وما يمكن أن ينتاب أمَّه في ذلك الحين، ومن ثَمَّ كان إرشادها إلى ما يجب أن تفعله في هذه الحالة، رعايةً لها وتقديرًا لشعورها الفطريِّ المبرَّر.

الخوف المُبَرَّر شعور فطري يقدره الله

نكتة تعدية فعل الخوف بحرف الاستعلاء:

في تعدية فعل الخوف المسند إلى ضمير أمِّ موسى بصيغة الخطاب ﴿خِفۡتِ﴾ إلى ضمير موسى عليه السلام بحرف الجرِّ المفيد

خوفُ الأمّهات يُحيط بالأبناء ويحوطهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 16.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 16.

للاستعلاء أو الظرفيَّة في: ﴿عَلَيۡهِ﴾ إبرازٌ للخوف الذي هو أمر معنويّ، وحالة نفسيّة في صورة أمر حسّيٍّ يحيط بموسى من أعلاه وأسفله، وعن يمينه وعن شماله، ليمنعَه من أي شيء يؤذيه، أو يكون خطرًا على حياته. وفيه تصوير للحالة التي كانت عليها أمُّ موسى، وبيانٌ للمشاعر التي كانت تتملَّكُها تجاه صغيرها بعد أن وضعته في عام يقتل فيه الصغار.

معنى الفاء في جملة: ﴿فَأَلۡقِيهِ﴾:

المُسْلم يتقيد عند الخوف بما يأمر به الشارع الحكيم

الفاء في جملة: ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ رابطة لجواب الشّرط، وهي مفيدة أيضًا للتعقيب والتفريع، وهي تدلُّ على أنّ تحقق أمِّ موسى من وجود خطر مُحْدِق على حياة الرضيع سببٌ كافٍ لإسراعها بإلقائه في اليمّ دون تردُّد أو تباطؤ، أو ظنٍّ أنَّ في ذلك هلاكه وموته، فالذي أمر قادر على أن يحفظ وينجي.

دلالة تعدية فعل الإلقاء بالحرف: ﴿فِي﴾:

إبراز قدرة الله على تسخير الأشياء لتحقيق مراده

عُدّيَ فعلُ الإلقاء إلى ﴿ٱلۡيَمِّ﴾ بحرف الظرفية: ﴿فِي﴾، للدلالة على أنَّها أُمِرَت بإلقاء الرضيع في الماء، ومتابعته حتى يصل إلى وسط النهر، ولم تؤمر بإلقائه على جانب اليَمّ، أو في أطرافه. وثَمَّ دلالة أخرى على أنَّ اليمَّ سيكون له كالحاضنة الحافظة من كل مكروه وسوء بأمر اللّه ﷻ، إبرازًا لقدرته سبحانه على تسخير كُلِّ شيء لتحقيق مراده في الإنعام على بني إسرائيل وتمكينهم في الأرض، وعلى غير ذلك.

لطيفة التعبير بـ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾:

لا فرق بين الأمواه في المخاطر والفوائد

عبَّر النظم الكريم عن نهر النيل بـ: ﴿ٱلۡيَمِّ﴾ الذي يعني: البحر؛ لاتساعه وكثرة مائه، "وعظمته على غيره من الأنهار، بِكِبَرِه وكونه من الجنَّة، وما يحصل به من المنافع"[1]، ولبيان قدرة اللّه تعالى، ورعايته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 465.

لموسى عليه السلام؛ لدلالة التعبير على أنَّه كان معرَّضًا في النّيل لما يتعرَّض له من يُلقى في البحر، الهادرِ ماؤُه، المتلاحقة أمواجه، من أخطار عظيمة، ومخاوف مهلكة، كالغرق بالماء، والأكل من الحيتان، والانزلاق في الأودية والتفريعات وغير ذلك من مخاطر الأمواه أيًّا كان حجمها، وهو ما يفوت لو تم التعبير عن النيل بلفظ آخر غير ﴿ٱلْيَمِّ﴾[1].

معنى الواو في جملتي: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾:

تنفيذ أمر الله يجب أن يكون مصحوبًا بعدم الخوف أو الحزن

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ حرف عطف يفيد المصاحبة، وفيه دلالة على أن تنفيذ أمر الله تعالى بإلقاء الرضيع في اليمِّ يجب أن يكون مصحوبًا بعدم الخوف، وعدم الحزن، لأنَّ الذي أمر بذلك هو الكريم سبحانه الذي يحفظ أولياءه، ويكرم أصفياءه.

الغرض من النهي في ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾:

من معالم وحي الله إلى خلقه الجمع بين التكليف وما يساعد على امتثاله

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ نهي عن الخوف على حياة الرَّضيع، ونهي عن الحزن لفراقه، عبَّر بهما النَّظم الكريم لتطمين أمِّ موسى ونصحها بأن يكون تنفيذها أمر الله تعالى بإلقاء الرَّضيع في اليمّ مصحوبًا بالثِّقة في تدبير الله، وقدرته على تنفيذ ما وعد به، من غير شكٍّ أو تردُّد، مع خلوِّه من الخوف والحزن بأيِّ شكل وبأيَّة صورة، تيسيرًا عليها وحثًّا لها على الامتثال بثقة واطمئنان.

دلالة التعبير بالمضارع المنفيِّ:

مَنْ يُنَفِّذُ أوامرَ الله لا يتجدد خوفه ولا حزنه أبدًا

عُبِّرَ بالمضارع في جملتي: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾؛ لما يمتاز به المضارع من إفادة التَّجدد، والمعنى: لا يتجدَّدْ خوفُك عليه من أيِّ شيء، ولا يتجدَّدْ حزنُك لبُعده عنك، وكوني مطمئنَّةً إلى أنّ ما نأمرُ به فيه مصلحةٌ لك ولولدك. وأوثر النَّهي عنهما بالحرف المختوم بألف المد: (لا)؛ للإشارة إلى أنَّ الخوف عليه والحزن لفراقه يجب

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، مصر في القرآن الكريم، ص: 44.

أن ينعدما بشكل أبديّ، وبصورة نهائية، والمعنى: لا تخافي عليه أبدًا، ولا تحزني لفراقه كذلك أبدًا.

دلالة تكرار حرف النهي:

المـتـثـل لأمـر الـلـه في أمـن وطمأنينة

جيء بجملة: ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾ مُعَبَّرًا فيها بالمضارع المنفي بالحرف: (لا) مع قُرب العهد به، وإمكان الاكتفاء بالحرف الأول؛ لبيان أنّ قوّة النّهي عن الحزن هي في قوّة النّهي عن الخوف، ولتأكيد النَّهي عن جميع أشكاله بسبب فراق الرَّضيع؛ لأنَّ فراقه لن يطول كما يلوح من السّياق، وكما يفهم من النَّهي.

لطيفة تقديم النهي عن الخوف:

قُدِّم النهي عن الخوف على النهي عن الحزن في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾؛ لأنَّه أسبق حدوثًا، وأكثر أسبابًا، كما أنَّه يمكن أن يتسبب في الحزن ويساعدَ عليه.

دلالة التعبير بالفعلين غير معدَّيين:

مَنْ يُنَفِّذُ أوامرَ الـلـه لا يـخـاف من أي شيء ولا يحزن بأي شكل

جاء البيان الكريم بفعل الخوف لازمًا غير متعدٍّ؛ ليعمَّ النَّهيُ جميعَ أنواع الخوف، وكلَّ أسبابه، والمعنى: لا تخافي غرقَه، ولا تخافي ضياعَه، ولا تخافي تقلُّباتِ البحر، ولا تخافي أذى الحيتان، ولا تخافي جوعه، ولا تخافي غير ذلك ممّا يمكن أن تذهب نفسُك فيه كلّ مذهب. وكذلك السر في التعبير بفعل الحزن دون تعدية، وهو: أن يكون النَّهي شاملًا كل أشكال الحزن وأنواعه، إذ من الممكن أن يكون الحزن في شكل بكاء، أو امتناع عن الطعام، أو في شكل تفكير وانشغال، فجاء فعل الحزن مطلقًا ليشمل ذلك وغيره.

علّة فصل جملة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾:

جاءت جملة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ مفصولةً غير معطوفة، لأنّها بمثابة التَّعليل لما قبلها، فيما يعرف بشبه كمال الاتّصال الذي تُجيب فيه الجملة الثّانية عن سؤال أثارته سابقتُها في نفس الأمّ

المفزوعة، عن سبب نهيها عن الخوف والحزن، وهما أمران بدهيان في مثل هذا الموقف، فتأتي الجملة الثّانية لتطمئنها بأن اللّه تعالى سيردُّه إليها، وتبشِّرها - في الوقت ذاته - بأنه سيكون واحدًا ممّن اصطفاهم اللّه تعالى لحمل رسالته إلى النّاس.

وحي الله تعالى يـجـيـب عـما يـدور في أذهـان المتلقّين ويشغل تفكيرهم

ويمكن أن يكون الفصل لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، بما لا يُسوّغ وصلهما لفظيًّا، فيما يعرف بكمال الانقطاع. غير أنّ السَّبب الأوَّل أكثرُ اتِّساقًا مع الموقف الذي تعيشه أمُّ موسى، وأكثر تجاوبًا مع ما يعتلج في نفسها من خوف على رضيعها، وحزن لفراقه.

دلالات التأكيد في جملة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾:

جاءت جملة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ اسميَّةً مُصَدَّرةً بحرف التَّحقيق؛ للاعتناء بتحقيق مضمونِها، مراعاةً لحال أمِّ موسى، التي أُمِرَت بأن تَفِرَّ بابنها من واقعٍ مُخيف إلى مصير مُخيفٍ مُحزنٍ من وِجهة نظرها، ومن ثَمّ فهي تحتاج إلى ما يطمئنها بحفظ رضيعها من المخاطر والمهالك، لا سيَّما أنَّه سيفارقها، ولا تدري هل ستلقاه مرَّةً ثانيةً أم لا؟، ولذا جاء التعبير مؤكِّدًا ردَّه إليها، ومبشِّرًا بكونه من المرسلين، زيادةً في التَّطمين، وإدخالًا للسُّرور على قلبها المحزون.

تأكيد المضامين يـتـمّ رعـايـةً لأحـــــــوال المخاطبين

دلالة التعبير عن المسند إليه بالضمائر:

في هذه الجملة عبَّر النظمُ الكريم عن المبتدأ بضمير العظمة في: ﴿إِنَّا﴾، وجاء بالاسم المشتق: ﴿رَآدُّوهُ﴾ مسندًا إلى ضميره (واو الجماعة) بصيغة الجمع أيضًا؛ لتعظيم الفاعل ﷻ وتفخيمه، ولتأكيد حصول الفعل المسند إلى ضميريه، والقطع بعدم قدرة أيِّ أحدٍ كائنا مَنْ كان على منع ما قدَّر اللّهُ وأراد، ممّا له عظيم الأثر في تطمين أمِّ موسى إلى وعد ربِّها.

لا يمنع ما أراد الـلـه أيُّ أحـد كائنًا من كان

دلالة التعبير عن المسند بالاسم المشتق:

جاء بالمسند: ﴿رَآدُّوهُ﴾ اسمًا مشتقًّا، لما يفيده - بمعناه الدّال على

الدّوام - من حصول فعل الرّد حصولًا يقينيًّا يحول دون التشكيك فيه، ولما يفيده - ببنائه المشتمل على حرف مدٍّ يليه حرفٌ مضعّفٌ - من الدلالة على ما يلي:

ما تكفل الله به لا ينبغي التَّشكيك فيه

أوّلًا: حسم هذا الأمر حسمًا يؤكّد وقوعه، وينصح بعدم الانشغال به.

ثانيا: أنّ قدرة اللّه تعالى على ردِّ الرضيع إلى أمِّه لا حدود لها، ولا يبلغ أحد منتهاها، ولا مقارنة لقدرة أحد مهما كان بها.

دلالة تقييد فعل الرد بـ ﴿إِلَيۡكِ﴾:

وحي الله يعبّر بما يؤانس المكلَّفين ويزيل خوفهم

في التَّعبير عن أمِّه بضمير الخطاب المجرور بحرف الانتهاء: ﴿إِلَيۡكِ﴾ تأكيد لأنّ ردّ الطفل سيكون إليها على وجه الاختصاص، وليس إلى أحد غيرها، لتكون هي نفسُها القائمةَ بإرضاعه، الرّاعية له، المدبِّرة لأمره، بجانب ما في خطابها من تشريف ومؤانسة.

معنى الواو في جملة: ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾:

عطف البشارة على الوعد يزيل كل ألم ويذهب أي حزن

الواو في: ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ لعطف ما بعدها على ﴿رَآدُّوهُ﴾؛ وهي تجمع بين البشارة والتَّطمين، ليزولَ الخوفُ والحزنُ اللَّذان اعتريا أمَّ موسى معًا، إذ لو اقتصر التَّعبيرُ على الوعد بردِّ الرَّضيع لبقيَ في النَّفس شيءٌ من حُزن الفراق، ولكان التَّطمين مشوبًا بألم، فجاءت البشرى معطوفة بالواو لإزالة ذلك بالكلّية.

دلالة التعبير بالاسم المشتق معطوفًا:

حصول المعطوف عليه يؤكد حصول المعطوف

عبر النظم بالاسم المشتق: ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ معطوفًا على خبر إنّ: ﴿رَآدُّوهُ﴾ بالواو، ومسندًا إلى ضمير المتكلِّم بصيغة الجمع، للدَّلالة على ما يلي:

أوّلًا: تأكيد كون الرَّضيع من المرسلين، كما أكَّد ردَّه إليها، لأن قَرْنَهما معًا بالواو يفيد أنَّ حصول الأوَّل يؤكِّد حصول الآخر.

ثانيًا: تأكيد أنّ اللّه تعالى سيتولّى بنفسه ردَّ الرّضيع إلى أمِّه، وسيتولّى بنفسه - أيضًا - تهيئته للرسالة، وتأييده للقيام لها، وحفظه عند القيام بها، زيادةً في تطمين أمِّه، وتقرير قدرته سبحانه على تحقيق ما أراد.

دلالة تقييد فعل الجعل بالجارِّ والمجرور:

التّعبير بالجارِّ والمجرور: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دون الاسم النَّكرة؛ يعني: أنَّ هذا الرَّضيع سيكون واحدًا من رسل اللّه المعهودين في بني إسرائيل، كيوسف وزكريا ويحيى وغيرهم، إذا كانت اللام للعهد؛ أمّا إذا كانت للجنس، فالتّعبير يدلُّ على أنَّ الرضيع سيكون أحد المرسلين، الذين هم خلاصة المخلوقين، أرسلهم اللّه إلى النّاس ليبلِّغوهم رسالته إليهم، وليردّوهم إلى طريقه المستقيم، من أمثال نوح وإدريس وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل اللّه المكرمين.

عناية الله تعالى تحوط خلقه بعامّة ورسله بخاصة

وأيًّا كان نوع اللام ففي البشارة نوع من التعهّد بحفظه ورعايته، لأنّه إذا كانت عناية اللّه تعالى تحوط خلقه بصفة عامة، فإنها تحوط أنبياءه ورسله إلى الناس بخاصة.

نكتة التعبير بوصف الرّسالة دون النُّبوّة:

الرسول من كان ذا شريعة مستقلّة، والنّبي من بُعث على منهج سابقيه

أوثر التَّعبير بوصف الرِّسالة دون وصف النُّبوة؛ للدَّلالة على أنَّ الرضيع سيكون صاحب شريعة مستقلَّة، ولن يكون تابعًا في هديه وأحكامه لأحد ممن بُعثوا قبله، ما يعني أنه سيكون رسولًا صاحب منزلة وشأن بين أنبياء اللّه ورسله، قال تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253].

دلالة حذف متعلق اسم المفعول: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

البُشرى بالاصطفاء للرسالة بغضِّ النظر عَن المرسل إليهم

لم يُذكَر في وحي اللّه تعالى إلى أمِّ موسى قيدُ اسمِ المفعول: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أو متعلَّقه؛ لأنّ القصد هو البُشرى باصطفائه للرسالة، بغض النظر عمّن سيرسل إليهم، كما أنَّ المخاطبة لا يشغلها معرفة

المرسل إليهم، بقدر ما يشغلها نجاة رضيعها وحياته، ومن ثَمَّ كان التبشير بحصول الأولى وامتداد الثانية.

براعة جمع الآية بين خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين:

جمعت الآية الكريمة بين خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين على النّحو التالي:

ليس ثـمّ كـلامٌ يجمع كثيرًا من الفنون مع الدِّقَّة وحسن الترتيب سوى كلام الله

الخبران هما: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ و﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾، لأنّه يشعر بحصول الخوف.

والأمران هما: ﴿أَرۡضِعِيهِۖ﴾ و﴿فَأَلۡقِيهِ﴾.

والنّهيان هما: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ و﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾.

أمّا البشارتان فهما: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

وليس ثمَّ أحد يمكنه أن يجمع في كلام بين هذه الأساليب والفنون، مصحوبةً بالدقَّة والإحكام وحسن الترتيب الذي جاءت عليه الآية الكريمة.

وقد مدح الأصمعي امرأةً لإنشادها شعرًا حسنًا، فقرأت الآية الكريمة، ثم قالت له: أبعد هذه الآية بلاغة، لقد اشتملت على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

لطيفة ترتيب الآية على الوجه الذي جاءت عليه:

مجيء الكلام على ما هو أنفع لقلب المخاطب

بدأت الآية بالإخبار؛ لأنَّه الأنسب لسياق السَّرد والقصّ، وثنّت بالأمرين، لأنَّهما الحاصلان أوّلًا، وأردفتهما بالنّهيين، ليكون امتثال الأمرين مصحوبًا بهما، ثم ختمت بالبشارتين، لإدخال السعادة على قلب أمٍّ امتثلت أمر اللّه تعالى، وفيها من الضَّعف والإشفاق ما فيها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليم والبحر:

يقول ابن منظور: "ويَقَع اسمُ اليَمّ على ما كان ماؤه مِلْحًا زُعاقًا،

وعلى النهر الكبير العَذْب الماء، وأُمِرَتْ أُمُّ موسى حينَ ولَدَتْه وخافتْ عليه فِرْعَوْنَ أنْ تجعلَه في تابوت، ثم تَقْذِفَه في اليَمِّ، وهو نَهَرُ النيل بمصر، حماها الله تعالى، وماؤه عَذْبٌ. قال الله ﷻ: "فلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسّاحِلِ" فَجَعل له ساحِلًا"[1].

اليمّ يطلق في الأغلب على ما كان ماؤه عذبًا، والبحر على ما كان ماؤه مالحًا

وأصل البَحْر: كلّ مكان واسع جامع للماء الكثير، وقال بعضهم: البَحْرُ يقال في الأصل للماء الملح دون العذب، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: 53] إنما سمي العذب بحرًا لكونه مع الملح[2].

الإلقاء والرمْي:

من الناحية اللفظيَّة: الأوَّل، مشتقٌّ من الثُّلاثيِّ معتلِّ الآخر (لقى)، والثاني، مشتقٌّ من الثُّلاثي معتلِّ الآخر أيضًا (رمى). ومن الناحية المعنويّة: الإلقاء هو طرح الشيء مصحوبًا باهتمام، وبحيث تلقاه أو تراه ويمكنك متابعته، أما الرمي فهو طرح لا يشترط فيه الاهتمام، ولا الحرص على الرؤية والمتابعة، مع جواز حصولهما.

الإلقاء طرح الشيء مع متابعته، والرمي نبذٌ من دون رؤية أو متابعة

الخوف والحُزن:

من الناحية اللفظية: الأول، مشتقٌّ من الثلاثي معتلّ الوسط (خاف)، والثاني، مشتق من الثّلاثي الصَّحيح (حزن). ومن النّاحية المعنويَّة، يطلق الخوف على الحالة التي تعتري الإنسان من شيء يتوقعه على سبيل الحقيقة أو الظَّن، أمّا الحزن فإنَّه يطلق على الحالة النفسيَّة التي تعتري الإنسان بسبب شيء حصل فعلًا.

الخوف ما يعتري الإنسان بسبب أمر متوقع، والحزن ما يعتريه بسبب أمر وقع

(1) ابن منظور، لسان العرب: (يمم).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (بحر).

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إلقاءٌ في اليمِّ يعقبه التقاطٌ وفرحٌ من العدوّ

بعد أن ذكرت الآية السابقة أنَّ اللّه تعالى أمر أمَّ موسى بإلقائه في اليمِّ عندما تتأكّد أنّه في خطر، ونهاها عن الخوف على حياته والحزن لفراقه، وبشَّرها بردِّه إليها وجعله من المرسلين - تأتي هذه الآية لاستكمال النَّبأ ومتابعة الأحداث التي بها تحقّق مراد اللّه تعالى بالمَنِّ على بني إسرائيل، فتُبيِّن أنَّ الصندوق الذي كان يحمل الرَّضيع ظلَّ يسير في النّيل إلى أن وصل قصر فرعون؛ فالتقطه رجاله وآله، ليكون العدوَّ الذي أرسله اللّه تعالى لغمِّهم وحزنهم وزوال ملكهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾: (لقط) "أَصْلٌ صَحيحٌ يدلُّ عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ مِنَ الأَرْضِ قَدْ رَأَيْتَهُ بَغْتَةً ولَمْ تُرِدْهُ، وقَدْ يَكونُ عَنْ إرادَةٍ وقَصْدٍ أَيْضًا... واللُّقَطَةُ: ما التَقَطَهُ الإنْسانُ مِنْ مالٍ ضائِعٍ... واللَّقَطُ: قِطَعٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ توجَدُ في المَعْدِنِ"(1). و"المعنى المحوريُّ لهذا الجذر أَخْذُ ما عَرَضَ وجوده بلا توقُّع أو طلب؛ فلا يذهب ضياعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]"(2).

والمراد: تلقَّفه آل فرعون من اليمِّ.

2) ﴿وَحَزَنًاۗ﴾: (حزن) "أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ خُشونَةُ الشَّيْءِ وشِدَّةٌ فيهِ... والحُزْنُ مَعْروفٌ، يُقالُ: حَزَنَني الشَّيْءُ يَحْزُنُني، وقالوا أَحْزَنَني"(3)، و"الحُزْن والحَزَن: خشونة في الأرض وخشونة في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقط).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).

النّفس لما يحصل فيه من الغمّ، ويضادّه الفرح... قال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: 153]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]"[1]. والمراد به: هلاك فرعون وزوال ملكه.

3) ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾: (خطأ) "الخَطَأ: العدول عن الجهة... ومن أراد شيئًا فاتّفق منه غيره يقال: أخطأ، ويقال لمن فعل فعلًا لا يَحْسُن، أو أراد إرادةً لا تَجْمُل: إنه أخطأ"[2]، ومنه "الخَطَأ ضد الصواب؛ قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ [النساء: 92]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]"[3]. والمراد: إنَّ فرعون وأشياعه كانوا خاطئين في جميع أمورهم بعامّة، وفي استضعافهم بني إسرائيل بصفة خاصّة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قد يعتقد الإنسان أن سعادته في أمر ما فإذا به سبب حزنه وشقائه

امتثلت أمُّ موسى لأمر ربِّها، فظلَّت تُرْضِع صغيرها عدّة شهور في خفية، إلى أن تحقَّقت من انكشاف أمرها، وتملّكها الخوف على رضيعها، فأوحى الله إليها بأن تضعه في صندوق وتلقيه في اليمِّ، تتقاذفه الأمواج، ويجري به الماء حتَّى وصل إلى قصر فرعون، فالتقطه آله؛ ليكون وبالًا عليهم، وعقابًا من الله لهم، بسبب الأخطاء التي ارتكبوها بصفة عامَّة، وأخطائهم في استضعاف بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم بصفة خاصَّة، وإثباتًا لقدرة الله تعالى على كل شيء.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في جملة: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾:

الإيذان بكمال سرعة الامتثال لأمر الله

الفاء في جملة: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ هي "المفصحة عن عطفِ ما بعدها

(1) الراغب، مفردات القرآن: (حزن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خطأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).

على جملةٍ مترتّبةٍ على ما قبلها من الأمرِ بالإلقاءِ، قد حُذفتْ تعويلًا على دلالة الحالِ وإيذانًا بكمال سرعةِ امتثالِ أمِّ موسى لأمر ربِّها، والمعنى: فألقتْهُ في اليمِّ بعد ما جعلتْهُ في التّابوتِ حسبما أُمرت به"[1]، بجانب ما في الحذف من إثارة المتلقّي وإحداث نوع من التفاعل بينه وبين الأسلوب القرآني، ليساعده في متابعة الأحداث والتقاط العبرة.

نكتة التعبير بمفردة الالتقاط دون الأخذ:

الالتقاط لا يكون إلا للأشياء النفيسة

الفعل: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾ يدلُّ على فرحهم بالصندوق، وترقّب ما فيه بلهفة واشتياق، لأنَّ المُلتقَط في غالب الأحوال لا يكون إلّا نفيسًا. وفيه أيضًا دلالة على أنّهم "أخذوه أخذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضَّياعِ"[2]، وهو ما لا يتحقّق إذا عُبّر عن ذلك بفعل الأخذ، لما فيه من قوّة وشدّة، توحي بعدم الفرح بما التقطوه، وخُلوِّ أخذه من الرّعاية والعناية.

لطيفة تقديم ضمير المفعول:

قُدِّم ضمير المفعول المتّصل بفعل الالتقاط: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾ على الفاعل؛ لأنّ الاهتمام موجّه إلى بيان ما حدث للرضيع، بعد الإلقاء في اليمّ، ذي المخاطر المتعددة، والمهالك الكثيرة المتنوعة.

دلالة التعبير عن فاعل الالتقاط بـ: ﴿ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾:

من البدهيّ ألا يحصل شيء في بيت أحد إلا بعلمه

في إضافة ﴿ءَالُ﴾ إلى ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تحديد للفاعلين وبيان أنّهم من خدم فرعون وتابعيه، وفيه دلالة على أنّ الالتقاط تمّ بأمره وإذنه؛ لأنّه كان جالسًا في شرفة قصره المُطلّة على اليمّ وقت التقاط الصندوق[3]، أو لأنّهم جاؤوا به إليه بعد التقاطه، ووضعوه بين يديه[4]، فأذن لهم بإدخال الصندوق ومعرفة ما فيه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 220.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 220.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 220.

(4) الجلالين، تفسير الجلالين: 7/ 271.

نوع المجاز ودلالته في: ﴿ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾:

في التعبير عن فاعل الالتقاط بـ: ﴿ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ مجاز مرسل علاقته الكلية، حيث عبّر بالكلّ عن الجزء، إذ الملتقِط كان جاريةً لابنة فرعون، أو بعض خادمات القصر، وقيل: بعض رجال فرعون[1]، وفي التعبير بالكلّ دلالة على أنّ جميع من في القصر تناقلوا خبر الصندوق، وعرفوا ما فيه، وسارعوا إلى رؤيته، وكانوا به فرحين سعداء، لأنّ الله تعالى ألقى محبّته في قلوبهم جميعًا، "لا سيما امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم، التي استوهَبَتْهُ من زوجها، وظلّت تلحّ عليه حتى وهبه لها"[2].

القلوب بيد الله، يقذف فيها حبَّ من شاء وقت ما يشاء

بلاغة الاستعارة في جملة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ﴾:

عبَّر النظم بجملة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾، لبيان علّة الالتقاط وما ترتّب عليه، والتعبير فيها بلام التعليل في: ﴿لِيَكُونَ﴾ استعارة؛ لأنّهم التقطوه ليكون لهم حبيبًا وسرورًا، لا ليكون عدوًّا وحزنًا، ويقال في إجرائها: شُبِّهت العداوة والحزن المترتّبان على الالتقاط بالعلّة الحقيقيّة، التي هي: المحبّة والسرور، بجامع الترتب على الالتقاط في كل، ثمَّ سرى هذا التشبيه إلى تشبيه ترتُّب العداوة والحزن على الالتقاط بترتُّب العلّة الحقيقيّة عليه، بجامع مطلق ترتّب شيء على شيء، ثمّ استعيرت (اللام) الموضوعة لترتّب العلّة الحقيقيّة على الالتقاط لترتّب العلّة غير الحقيقيّة عليه، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التّبعيّة[3].

إظهار الحقيقة المستترة

رأي آخر في اللام:

"وثَمَّ من يرى: أنّ (اللام) هنا لام العاقبة، لا لام التعليل؛ لأنّهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شكّ أنّ ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نُظر إلى معنى السياق فإنّه تبقى اللام للتعليل؛ لأنّ معناه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 18.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 220.
(3) السجاعي، حاشية السجاعي على قطر الندى، ص: 35.

أنّ اللّه تعالى قيّضهم لالتقاطه ليجعله لهم عَدوًّا وحَزَنًا، فيكون أبلَغَ في إبطال حذرهم منه"[1].

دلالة التعبير باللام في الجملة:

من عجيب قدر الله تعالى أن يقوم الإنسان بتربية عدوّه وسببِ حزنه

وسواء أكانت اللام للتعليل أم للعاقبة ففي التعبير القرآنيِّ إبراز لقدرة اللّه تعالى على تحقيق مراده على وجه يثير التعجّب والدهشة، ويُفزع المتكبِّرين، ويُطمئن الخائفين، لأنّه يدلُّ على أن من عجيب قَدَر اللّه وتدبيره سبحانه أن يقوم فرعونُ بتربية عدوّه وسبب حزنه.

دلالة التعبير بالفعل: (يَكونَ) دون (يصير):

لا محبة للكافرين في نفوس المؤمنين

التعبير بفعل التكوين دالٌّ على أنّ حكمة اللّه تعالى من ميلاد موسى وإيجاده أن يكون عدوًّا وحَزَنًا لفرعون وآله دائمًا وأبدًا، وأنَّه لن يكون لهم حبيبًا وسرورًا في وقت من الأوقات، وهو ما لا يتحقَق إذا عَبَّر النظم بالفعل (يصير) الموضوع للتنقل من حال إلى حال[2]، لأنه يعني أنّ موسى تحوّل إلى العداوة والحزن، ولم يكونا متأصِّلَيْن فيه.

دلالة اللام في: ﴿لَهُمْ﴾:

المؤمن عدوٌّ وحَزَنٌ للكافرين، فرحٌ وسرورٌ للمستضعفين

جيء بالضمير العائد إلى آل فرعون في: ﴿لَهُمْ﴾ مجرورًا بحرف اللام الذي يفيد الاختصاص، للدلالة على أن نتائج هذا الالتقاط ستعود على فرعون وآله بالعدواة والحزن لا على غيرهم، ما يعني: أنَّه سيكون لهم عدوًّا وحزنًا، ولبني إسرائيل والمستضعفين سعادةً وسرورًا.

لطيفة تقديم: ﴿لَهُمْ﴾ على خبر ﴿لِيَكُونَ﴾:

قُدِّمَ الجارّ والمجرور: ﴿لَهُمْ﴾ على خبر الفعل النّاسخ ﴿عَدُوًّا﴾، لأنّ الاهتمام موجَّهٌ إلى بيان نتائج التقاط موسى على فرعون وآله، وما سيحدث لهم بسبب هذا العمل الذي لا يعلم أحد المصير المترتب

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 222.

(2) الراغب، مفردات القرآن: (صير).

عليه سوى اللّه الذي رتبه وأحكمه. ويمكن أن يكون غرض التّقديم تخصيص آل فرعون بذلك دون غيرهم.

دلالة مجيء الخبر: ﴿عَدُوًّا﴾ نكرة:

عـداوة المؤمنين للـكـافـريـن لا يـمـكـن تـحـديـد ماهيَّتها

جيء بخبر الفعل الناسخ ﴿عَدُوًّا﴾ نكرةً مُنَوّنًا للتهويل والتفخيم، ولما فيه من الإبهام الذي لا تنكشف به ماهيَّة العداوة وحدودها، فهي عداوة في كلِّ ما يمكن أن تذهب فيه نفس المتلقّي، ما يعني أنَّ موسى سيكون عداوةً مستمرّةً، غير معروفة الشكل والنوع والوقت لفرعون وهامان وجنودهما.

نوع المجاز في قوله: ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ وسِرُّ عطْفِه بالواو:

العداوة والحزن أمران لا يفترقان

التعبير بالمصدر: ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ مجاز مرسل علاقته المُسَبَّبِيَّة، لأن الحقيقة التي يصدر عنها أنّ موسى سيكون سببًا لحزن فرعون وأشياعه، لكنّ البيان القرآني جعله "نفسَ الحزنِ؛ إيذانًا بقوَّةِ سببيَّتِه لحزنِهم"[1]، وجيء به معطوفًا على: ﴿عَدُوًّا﴾ بواو المصاحبة؛ للدلالة على تأكّد حصوله لأنّهما لا يفترقان.

لطيفة الجمع بين العداوة والحزن:

العداوة والحَزَن يتسببان للعدوّ في الألم الحسّيّ والألم النفسيّ

جمع النظم الكريم بين العداوة والحزن؛ للإشارة إلى أن الرضيع سيسبّب لفرعون وآله نوعين من الألم، أحدهما: حسّيّ، ويتمثّل في العداوة، والآخر: نفسيّ، ويتمثّل فيما يصيبهم بسببه من همّ وغمّ، يتجدّد ولا ينقطع، وبهما يبلُغ ألمُهم ذروتَه وقمَّتَه، ويكون أقوى في عقابهم وأنْجَعَ. وقدَّم العداوة على الحزن لأنّها تحصل أوّلًا، ولأنّها - كذلك - سببٌ في الحزن ومساعد على حصوله.

القراءات الواردة في: ﴿وَحَزَنًاۗ﴾:

قَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِضَمِّ الحاءِ وإسْكانِ الزّايِ ﴿وَحُزْنًاۗ﴾،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 220.

وقَرَأَ الباقونَ بِفَتْحِهما ﴿وَحَزَنًا﴾[1]، وهما لغتانِ كالسَّقَم والسُّقْم، والعَدَم والعُدْم، متقاربتان في المعنى، وتدلّان على أنّ الرضيع سيكون سببًا قويًّا في حَزَن فرعون وآله وحُزْنِهم. وقيل: (الحُزْن): الاسمُ والغمّ وما أشبهه، و(الحَزَن): مصدر.

عِلَّة فصل جملة: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾:

الـظـالـمـون يُـعـاقَـبـون في الـدُّنـيـا قبـل الآخرة

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ مفصولةً غير معطوفة؛ لشبه كمال الاتصال، حيث إنّها تجيب عن سؤال يتردّد في نفس المتلقّي عن السبب في كون الرضيع عدوًّا وحزنًا لفرعون وآله، ببيان أنَّ هؤلاء القوم وعلى رأسهم فرعون وهامان ارتكبوا أخطاءً جسيمة في حقِّ الناس بعامّة، وفي حقّ بني إسرائيل الذين خرج منهم الرضيع بصفة خاصّة. وفيها إبراز لعدالة اللّه تعالى وإثبات لقدرته على إذلال الخاطئين الظالمين، وعقابهم بما لا يظنّون وما لا يشعرون.

الغرض من التعبير بـ ﴿إِنَّ﴾:

عقاب الظالمين أمـر يقيني لا يحتمل الشك

جاءت جملة التّعليل: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ﴾ اسميّةً مُصَدّرَةً بحرف التّحقيق: ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيد استحقاق مَنْ ذكرتهم الآيةُ الكريمةُ العقابَ الذي سينزله اللّه تعالى بهم على يد الرضيع في مستقبل الأيّام، بتأكيد ضلوعهم في الخطأ، وارتكابهم له مرّات لا حصر لها، من غير شكّ أو افتراء، بجانب ما يمتاز به هذا الحرف من أنه "يربط بين الجمل برباط وثيق، لا يتحقّق بغيره من الحروف... حيث ترى الكلام به مستأنَفًا غير مستأنِف، مقطوعًا موصولًا معًا"[2].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار:

ذكر المستكبرين يبثُّ الرعب في نفوس الكافرين

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: (إنهم كانوا خاطئين)، لكنّ النظم الكريم عدل عن الضمير إلى تخصيص ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 341.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 273.

بالذكر دون غيرهم من آل فرعون، بثًّا للرعب في نفوس الكافرين، بجانب ما فيه من دلالة على استحقاقهم ما أراده اللّه بهم؛ لأنّ لهم أثرًا عظيمًا، وحظًّا كبيرًا في ارتكاب الأخطاء، التي كانت سببًا رئيسًا في نزول العذاب بهم وبغيرهم، ممّن رضوا بجرائمهم وسعدوا بحصولها، ولم يفكّر أحدٌ منهم في الاعتراض عليها، أو في مجرد النصح بالكفِّ عن فعلها، فنالهم من العقاب ما نال فرعون وهامان وجنودهما.

دلالة الترتيب في جملة التعليل:

تقديم الأكثر خطأً، ثم الذي يليه، ثم الأداة أو الوسيلة

بدأت جملة: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ المسوقة للتعليل، بفرعون؛ لأنّه أكثر المذكورين خطأً، وأعظمهم مسؤوليّة، ولأنّ كلَّ الأخطاء التي يرتكبها غيره مرجعُها إليه، ومردُّها إلى إذْنِه وتحريضه، وثنّى بهامان؛ لأنّه يليه في المسؤولية وكثرة الأخطاء وشدّة التحريض، إذ كان يتلقّى الأوامر من فرعون، ويتصرّف فيها بالزيادة وإطلاق اليد حسبما يبدو له، وذكرت الآية الجنودَ ضمن المخطئين؛ لأنّهم كانوا الأداةَ المُعينةَ لفرعون وهامان، والوسيلةَ التي يتسلّطان بها على الناس، ويرتكبان من خلالها الأخطاء في حقّهم، وفي حقّ بني إسرائيل، ولولاهم ما تَجَبّر فرعونُ وهامانُ ولا طَغَوْا. ثمّ إنّ التّرتيب جاء موافقًا لما بدأت فيه الآيات ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾.

دلالة إضافة الجنود إلى ضمير ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾:

بعض الناس يقوم بالمهمّة بطريقة أشدّ وأقوى من المستفيد بها

سبق القول بأنّ إضافة الجنود إلى ضمير فرعون وهامان قد تكون تغليبًا، أو لأنّ هامانَ له جنودُه كما لفرعون جنودُه، أو لأنّ جند السلطان هم جند الوزير أيضًا، وفيه دلالة على أنّ الجنود كان لديهم حرصٌ على ارتكاب الخطايا يماثل حرص فرعون وهامان أو يزيد، فبعض الناس قد يقوم بالمهمّة بطريقة أشدّ

وأقوى من طريقة صاحبها، والمنتفع الأول بها. وثَمَّ دلالة أخرى - سبق ذكرها أيضًا - وهي أنّه لا فَرْقَ في العقوبة بين الظالم وآلتِهِ من الجند المساعدين.

نكتة التعبير بالفعل: ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا:

تكرار الخطأ يُحيله إلى جِبِلَّة وطبيعة

التعبير بفعل الكون ماضيًا يدلُّ بزمانه على تحقّق ارتكاب فرعون وهامان وجنودهما الأخطاء والجرائم من غير شكّ أو افتراء، ويدلُّ - ببنائه واشتقاقه - على أنّ إتيان الأخطاءَ صار فيهم أمرا جِبِلّيًّا، وغدا سمةً من السمات التي لا يستطيعون الانفكاك عنها، أو التخلص منها، ما يعني أنّهم يقومون بها مستمتعين مسرورين.

لطيفة التعبير بـ: ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾:

الخاطئ مَنْ يفعل الجُرْمَ عامدًا، والمخطئ مَنْ يفعله عن غير عمد

عبّر البيان عن السبب في كون موسى عدوًّا وحزنًا لفرعون وهامان وجنودهما باسم الفاعل: ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾، المشتقّ من الثلاثي خَطِئَ؛ لدلالته على أنّهم كانوا يرتكبون الجرائم والخطايا عن عمد، ولا يخشون بسببها عذابًا ولا عقابًا، ما يعني: أنّهم بلغوا في الإجرام مبلغًا يوجِب العقابَ في الدّنيا والعذابَ في الآخرة.

بخلاف (مخطئين)، المشتقِّ من الفعل: أخطأ، والذي يستعمل فيمن يفعل الذنب أو الخطأ عن غير عمد، وهو ما ليس حاصلًا لدى فرعون وهامان والجنود.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآل والأهل:

الآل أعمّ، ويكون من جهة القرابة والصحبة، والأهل أخصّ، ويكون من جهة النسب والاختصاص

الآل: خاصَّة الرجل من جِهَة القَرابَة أَو الصُّحْبَة، ويضاف للأشرف الأفضل، تَقول: آل الرجل لأَهله وأَصحابه، ولا تَقول: آل البَصْرَة، وآل العلم، وقالوا: آل فِرْعَوْن أتباع، وكَذَلِك آل لوط. وقالَ المبرّد: إذا صَغَّرتِ العَرَب الآل قالَت: أهل، فَيدلُّ على أَن أصل الآل الأَهْل. وقالَ بَعضهم: الآل عيدان الخَيْمَة وأعمدتُها، وآل الرجل

مشبَّهون بذلك؛ لأَنهم مُعْتَمدَهُ. والَّذي يرْتَفع في الصحارى آل لِأَنَّهُ يرْتَفع كَما ترْتَفع عيدان الخَيْمَة، والشخص آل لِأَنَّهُ كَذَلِك[1].

والأَهْل يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، ويضاف للزمان والمكان، فَمن جِهَة النّسَب، قَوْلك: أهل الرجل لِقَرابَتِهِ الأدنين، ومن جِهَة الِاخْتِصاص، تقول: أهل البَصْرَة، وأهل العلم، وأهل الزمان، وأهل الخياط[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

(2) الراغب، مفردات اللغة: (أل)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التقاطٌ ثم حوارٌ فتَبَنٍّ مصحوبٌ بالغفلة عن حقيقة التَّبَنِّي

بعد أن وضَّحت الآية السابقة التقاط آل فرعون للرضيع بعد أن ألقته أمّه في اليمّ، تأتي هذه الآية لتبيِّن ما صَرَفَ به اللّٰهُ تعالى فرعونَ وأتباعه عن قتله، ووجّههم إلى القيام برعايته وتربيته، إذ تحكي الآية مقالة امرأة فرعون التي كانت سببًا في ترقيق قلبه، وإقناعه بإبقاء الرضيع على قيد الحياة، واتّخاذه ولدًا نافعًا، دون أن يشعر هو وجنوده بأنّهم يفعلون ذلك مع من سيكون زوال ملكهم على يديه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾: (قرر) "قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبت ثبوتًا... يقتضي السّكون... كقوله: ﴿هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [الفرقان: 74]، وأصله من القُرِّ، أي: البرد، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرِدَتْ فصَحَّت، وقيل: لأنّ للسُّرور دمعةً باردةً قارَّةً، وللحُزْن دمعةً حارّة"[1]، "وكل (قُرَّة عين...) هو من برودة العين عند السرور... أو من استقرارها وعدم تطلّعها إلى غير ما ترى لرضاها به"[2]. والتعبير كناية عن سرورهما به وعدم تطلعهما لغيره.

2) ﴿يَنفَعَنَآ﴾: (نفع) " كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضَّرِّ"[3] و"النَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ. قال: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا

(1) الراغب، مفردات القرآن: (قرّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).

﴿نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: 3]"[1]. و"المعنى المحوريّ لهذا الجذر: فائدة تُنال من الشيء أو جدوى تعود به، ومنه جاء النَّفْعُ بمعنى ضد الضَرّ في القرآن، مثل: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قدرُ الله تعالى ينفذ بكلمة

تُبَيِّنُ الآية الكريمة أنّ آل فرعون بعد أن التقطوا الصندوق من اليمّ جاؤوا به إلى فرعون وزوجه، فلمّا عالجوه وفتحوه وجدوا فيه طفلًا، ألقى اللّه تعالى محبّته في قلوبهم، لا سيما امرأة فرعون، فلمّا أمر زوجها بقتله - بعد قول الغواة: هو الصبي الذي نحذر منه - قالت له امرأته: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدًا، فوهبه لها دون أن يدري أو يعلم أنّ هلاكه وزوال ملكه سيكون على يديه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في أول الآية:

بيان تفاصيل الحوار الذي دار بعد الالتقاط

الواو في جملة: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾، جيء بها مواصلةً لسرد نبأ موسى وفرعون، واستكمالًا لبيان ما حدث بعد أن ألقت أمّ موسى رضيعها في اليمّ؛ امتثالًا لأمر اللّه تعالى، وثقة في وعده برده إليها، وجعله من المرسلين.

دلالة التعبير بفعل القول:

الكلام الناصح لا بد أن يكون خاليًا من الاستفزاز والتحدّي

التعبير بفعل القول في جملة: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ يدلُّ على أنها عبّرت عمّا في نفسها، وما تراه بشأن الغلام ببيان واضح صريح، وبأسلوب مقنع ليس فيه شيء من استفزاز المخاطب أو تحدّيه، وأنها نجحت بكلماتها في استمالته للتراجع عن قراره بقتل

(1) الراغب، مفردات القرآن: (نفع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفع).

الرضيع بعد أن زيّن ذلك له الغواة من أتباعه، وخوّفوه من إبقائه على قيد الحياة.

براعة التعبير عن المسند إليه:

اللّه قادر على تسخير الطغاة لتحقيق مراده

عبّر النظم عن المسند إليه بـ: ﴿ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون اسمها الصريح لدلالات وأسرار، منها:

أوّلًا: أن يُعْرَف أن القائلة هي امرأة فرعون، فتتجلّى قدرة اللّه تعالى على تسخير خلقه - بما فيهم فرعون وآله - لتحقيق مراده في الإنعام على بني إسرائيل.

ثانيا: تسجيل أنّ صاحبة هذا الموقف هي امرأة، لا حول لها ولا قوة، ولكنّها تتمتّع بعقيدة إيمانيّة راسخة، دفعتها لتغيير ما تراه منكرًا بأسلوب هادئ مقنع.

ثالثا: الدعوة إلى تدبّر البيان الذي استطاعت به أن تدفع الضر عن الرضيع، وأن تنفذ إلى قلب فرعون دون كذب أو مخادعة.

دلالة حذف المبتدأ من جملة: ﴿قُرَّتُ﴾:

من البدهيّ أن يكون الأبناء قرّة عيون أبويهما

عبارة: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ هي صَدْرُ ما قالته امرأة فرعون، وكلمة: ﴿قُرَّتُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: (هو قُرّة)، ولم تذكر المبتدأ لأنّ الرضيع بين أيديهما، والحديث عنه يدور بين الحاضرين، ولتَصْرِفَ زوجَها عن قتل الرضيع بتعجيل ذكر الثّمرة من إبقائه وتربيته وهي أن يكون نافعًا لهما تقرّ به أعينهما، وهي بمثابة التمهيد لما بعدها من النهي عن قتله.

بلاغة الكناية في تركيب: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾:

العين لا تستقرّ إلا على الجميل الذي يبهج النفس ويريح القلب

والتعبير بكلمة ﴿قُرَّتُ﴾ مضافة إلى: ﴿عَيۡنٖ﴾ يجعل الكلام كناية عن الفرح والسرور اللذين سيحصلان لهما، بسبب رعايتهما الرضيع، لا سيما بعد رؤيتهما أثره الطيب في شفاء ابنتهما من البرص الذي كان يُشَوِّهُ جمالها، ويجعلهما في حالة حزن عليها،

وذلك لأنّ العين لا تستقرّ إلّا على الجميل الذي يُفرح النفس ويُبهجها، ويُدخل السعادة والسرور على قلب صاحبها، فقرار العين طريق إلى سعادة النفس، وانشراح الصدر، وراحة القلب.

لطيفة الفرق بين: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ وغيره:

الفرق بين قوله تعالى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ وبين أن يقال: (قرة نفس) أو (قرة قلب) من وجهين: **أحدهما**: أنّ الاستقرار لا يكون إلا لمتحرّك، والقلب والنفس لا يتحركان وإنما يتقلبان، **والآخر**: أنّ استقرار العين سبب في راحة النفس واطمئنان القلب، وليس العكس.

دلالة تقييد الخبر ﴿قُرَّتُ﴾ بالضميرين:

نفعُ الأولاد يعود على الأبوين بالدرجة الأولى

تقييد البيان الخبر: ﴿قُرَّتُ﴾ بضميرها وضمير فرعون المجرورَيْنِ بحرف الاختصاص ﴿لِّي وَلَكَ﴾ يعني: أنّ الخير والسعادة التي ستحصل بسبب الرضيع ستعود عليهما بالدرجة الأولى، وسيكون نصيبهما منها أكبر من نصيب أيِّ أحد آخر، وفيه إلماح إلى أنّهما يحتاجان إلى تلك السعادة؛ لخلوِّ حياتهما منها ومن أسبابها.

لطيفة تقديم ضميرها على ضمير فرعون:

التعطُّف يفضي إلى تلبية الحاجات وتحقيق الرغبات

وابتدأت بنفسها فقالت: ﴿لِّي﴾ قبل ذكر فرعون؛ للإشارة إلى أنّ حاجتها إلى الرضيع ربّما تكون أكثر من حاجته إليه، بجانب ما فيه من الدلال والتعطُّف الذي يثير الرجال إلى تلبية حاجات النساء، فقوّة المرأة تكون في إظهار ضعفها واحتياجها إلى الرجل، ولو بدأتْ بالضمير العائد إليه (لَكَ) لأمر بقتله؛ تذرُّعًا بأنّه ليس في حاجة إليه[1].

السر في فصل جملة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾:

من البدهيِّ ألّا يُقتَل من هو سبب جمال الحياة وسعادتها

جاءت جملة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً فيما يسمَّى كمالَ الانقطاع، الذي يُسوِّغ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 20.

فصلَهما لفظيًّا، لكنّه لا يمنع اتصالهما معنويًّا، ويمكن أن تكون جملة: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ مُفَرّعة عن قولها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾، ففُصِلَتْ عنها كما يُفصَل السَّببُ عن المسبَّب، إذ من البدهيِّ ألّا يُقتل من سيكون سببًا في جمال الحياة وسعادتها، ومن سيَقْوى ارتباطُهما به، ويزدادُ فرحُهما بوجوده.

دلالة التعبير بفعل القتل صراحة:

تعبيرها بفعل القتل الصَّريح في جملة: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ فيه دلالة على أنّ فرعون كان قد عزم على قتل الرضيع، بعد أن حذّره من استبقائه الغواةُ من حاشيته، وفيه دلالة على كثرة وقوع القتل وتكرّره إذ هو معهود صنيع فرعون مع الولدان.

نكتة إسناد فعل القتل إلى ضمير الجمع:

تفخيم المخاطب يـــؤدي إلى استنزال طائره، ويساعد المتكلم في تحقيق مراده

إسناد فعل القتل إلى ضمير الجماعة في قوله ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ من باب تعظيم فرعون وتفخيمه؛ استنزالًا لطائره، وتخفيفًا من إصراره، وليساعدها في تحقيق ما تريد، ويجوز أن يراد بالضمير: فرعون وأركان دولته، "وهذا أحسن لأنّ فيه تمهيدًا لإجابة سُؤْلها، حيث أسندت معظم القتل لأهل الدولة، وجعلت لفرعون منه حظَّ الواحد من الجماعة، فكأنّها تُعَرِّضُ بأن ذلك ينبغي أن لا يكون عن رأيه، فتهوِّن عليه عُدولَه في هذا الطفل عمّا تقرَّر من قتل الأطفال"[1].

سبب فصل جملة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾:

وجملة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ هي السّبب الذي من أجله طلبت امرأة فرعون استبقاء الرّضيع على قيد الحياة، وجاءت مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتّصال الذي تُفصل فيه جملة الجواب عن سابقتها، التي تثير سؤالًا عن السّبب الذي يدعو إلى التوقف عن قتل الرضيع، فهي تعليل لجملة النهي.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 21.

فائدة التعبير بجملة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾:

وهذه الجملة بتركيبها كانت سببًا في إزالة محاذير فرعون من استبقاء الرضيع حيًّا؛ لأنّها أقنعَتْه أن تبنّيهما له، والقيام على تربيته سيجعلانه يدور في فَلَك فرعون، ويَنْحو منحاه، لأنه سَيَشِبُّ تحت سمعه وبصره، ولن يكون منه إلّا ما يُرْضي فرعون ويُسعده، شأنه في ذلك شأن الأولاد الحريصين على ردِّ الجميل لآبائهم.

الحديث عن نفع الأبناء يزيد محبَّتَهم ويدفع إلى رعايتهم

دلالة التعبير بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ في جملة التعليل:

في جملة التعليل عبّر النظم الكريم بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾، الموضوع للطَّمع وشدَّة الرَّجاء؛ لأنّ امرأة فرعون رأت فيه "مخايلَ اليُمن ودلائل النفع لأهله، لِما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبُرء البرصاء، ولعلّها توسّمت في سيماه النجابة المُؤْذِنَة بكونه نفّاعًا"[1].

مظاهرُ النَّجابةِ التي تبدو على شخص ما تُؤْذِنُ بكونه نفّاعًا

دلالات التعبير بفعل النفع مضارعًا:

وعبّرت في خبر ﴿عَسَىٰٓ﴾ بفعل النفع: ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ الموضوع للوصول إلى الخيرات؛ لثقتها البالغة في أن تبنّيه لن يُثمر إلّا كلَّ خير، ولن يكون من ورائه ضرٌّ يحصلُ لهما أو لغيرهما مطلقًا، وجاءت به مضارعًا؛ لثقتها كذلك في أنّ نفعه سيكون متجدّدًا طيلة حياتهما، ولن ينقطع عنهما في أيّة مرحلة من مراحل عمرهما.

الطمع في ألّا يترتب على التبنّي إلا كلُّ نفعٍ

نكتة تقييد فعل النفع بضميرهما:

في وصلها فعلَ النفع بالضمير العائد إليها وإلى زوجها إشارةٌ إلى أنّ نفع الرضيع سيكون واصلًا إليهما معا بطريقة مباشرة، وأنه سيخصّهما به دون غيرهما، في الماحة إلى أنّه لن يكون مواليًا لبني إسرائيل، ولا لأحد غير فرعون وآله، وفيه من دغدغة المشاعر وترقيق القلب ما يحقّق الاستجابة، ما يفوت إذا قالت: (عسى أن ينفع) دون تقييد.

مخاطبة المشاعر ترقِّق القلب وتستميل المخاطب

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 395، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 172.

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في جملة: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾:

نـفـع الـنـاس مؤكد ما داموا على قيد الحياة

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ حرف عطف يفيد التنوّع والمغايرة، جيء به لعطف ما بعده على جملة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، عطفَ الخاصِّ على العام[1]، اعتناءً به وتأكيدًا لمعنى نفعه لهما، بإيراده مرّتين في صورتين مختلفتين، إذ التعبير به يدلُّ على أنّ فوائد استبقاء الرضيع حيًّا كثيرة ومتنوعة، فبجانب ما سبق ذِكْرُه من كونه نافعًا لهما بصفة عامَّة، يمكن أن يتّخذاه ابنًا إذا لم يكن له أبوان، فيتأكَّد نفعه لهما، ويكثر خيره، لأنّهما سينزلانه منزلة الابن، وسينزلهما منزلة الأبوين.

دلالة التعبير بفعل الاتخاذ:

اشتداد الرغبة في طلب شخص ما يدلُّ على جدارته واستحقاقه

عبّرت امرأة فرعون عن رغبتها في تبنّي الرضيع بفعل الاتّخاذ في جملة: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾؛ لِما في أصل مادتّه الدّالة على القوّة من برهانٍ على جدّيّتِها في هذا الأمر، وإصرارها على حصوله، ولِما في صيغة الافتعال التي جاء عليها ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ من المبالغة الدّالة على عظيم رغبتها في تبنّي الرضيع والقيام على رعايته وتربيته؛ لأنها توسّمت فيه مخايل الأبَّهة والنجابة، وتوفُّر أسباب اللياقة والاستحقاق لأن يُرَبَّى في بيوت الملوك.

فائدة إسناد فعل الاتخاذ إلى ضمير الجماعة:

الخير لا يأتي إلا بالخير

أُسند فعل الاتخاذ إلى ضمير الجماعة العائد إليها وإلى زوجها: ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾؛ بقصد إثارة فرعون ودعوته للنظر في فكرة التبنّي، لأنّها فكرة جديرة بالتّأمل والتّدبّر، لكثرة فوائدها، ولأنّها سبب في دفع شرّه، والاستفادة من خيره؛ ذلك "أنّ هذا الطفل إذا انضمَّ إلى أهلهم، وكان ربيبَهم، فإنه يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد، قياسًا على الأحوال المُجرّبة في علاقة التربية والمعاشرة والتبنّي والإحسان، بأنّ الخير لا يأتي بالشر"[2].

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 64، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 21.

نكتة التعبير بالمفعول الثاني: ﴿وَلَدًا﴾ نكرة:

في التنكير تعظيم وتفخيم وتكثير

جيء بالمفعول الثاني لفعل الاتِّخاذ: ﴿وَلَدًا﴾ نكرة؛ للتّعظيم والتّفخيم ولمزيد من التّرغيب في التّبنّي، لدلالته على أنّه سيكون لائقًا بهما، ومساندًا لهما، وأنَّ جوانب لياقته ومساندته أكثر من أن تحصى أو تحصر في بعض الأمور.

لطيفة التعبير بـ: ﴿وَلَدًا﴾ دون (ابنا):

عبّرت امرأةُ فرعون بـ: ﴿وَلَدًا﴾ دون (ابنا)؛ للدّلالة على أنّهما سينزلانه منزلة الولد المولود من صُلْبهما، وليس منزلة الابن الذي تبَنَّياه، وأنّه أيضًا سيساندهما ويعاملهما معاملة الوالدين اللذيْن انحدر من صلبهما، وليس معاملة الأبوين اللذيْن تبنياه.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

يكيد الله تعالى بالظالمين من حيث لا يشعرون

جملة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من كلام الله ﷻ على الأرجح، والواو في أولها هي واو الحال، والجملة بعدها حالية، وصاحبها ﴿ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾، والتَّقديرُ: (فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدوًّا وحَزنًا، وقالتِ امرأتُه له كيتَ وكيتَ، وهُم لا يشعرون بأنَّهم على خطأ عظيمٍ فيما صنعوا من الالتقاط ورجاءِ النَّفعِ منه والتَّبني له)[1].

دلالة نفي المسند بـ: ﴿لَا﴾:

من عجيب قدر الله أن تكون المشاعر مخالفة للحقائق

جيء بالمسند مضارعًا منفيًّا بالحرف المختوم بألف المدِّ في جملة: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: للإشارة إلى انعدام علمهم وإدراكهم لحقيقة الرضيع الذي التقطوه، ولتأكيد نفي أيّ احتمال راودهم، أو هاجس دار بذهنهم؛ مفاده أنّ هذا الرضيع يمكن أن يكون وبالًا عليهم، أو يسبّب شرًّا لهم، وهذا من عجيب قدر اللّه، أن ينتفي ذلك الشعور تمامًا، وأن يشعروا تجاهه بعكس ما كانوا يحذرون، وبضِدِّ ما كانوا يقتلون الأبرياء لأجله.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 221.

نكتة التّعبير بفعل الشّعور دون غيره:

معرفة حقيقة الآخرين من العلم الخفيّ الذي لا يَتوصل إليه أحدٌ

آثر النظم التعبير بالفعل: ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ الذي يعني: العلم والفطنة[1]، دون (يعلمون) أو غيره ممّا يمكن أن يقوم مقامه؛ لأنّ معرفة حقيقة الرضيع من العلم الخفي[2] الذي لا يُتوصّل إليه، ولا يوجد من الأسباب ما يُعين عليه، ولا يكون إلّا بتوفيق من اللّه سبحانه، وفرعون وقومه لا يستأهلون توفيق اللّه ولا يستحقّون عونه، ومن ثَمَّ كان التعبير بالشعور أدقَّ ما يُستعمل في هذا المقام.

دلالة التعبير بالفعل المضارع في: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

عندما تُسلب العقول يقعُ المحذور

عبّر النظم الكريم بالمضارع: ﴿يَشۡعُرُونَ﴾؛ لما يمتاز به من استحضار الحال الماضية كأنّها ماثلة حاضرة، تراها العيون وتشاهدها الأبصار، على الرغم من حصولها من زمن سحيق، وفي هذا المشهد يبدو فرعون وقومه فرحين بالرضيع، مستبشرين بتبنّيهم له، مؤمّلين من وراء رعايتهم له النفع العظيم والمساندة القويّة، ذاهلين عن كل ما كانوا يحذرون من أطفال بني إسرائيل، طارحين له وراء ظهورهم، ما من شأنه أن يزيد الإيمان في نفوس المؤمنين، ويقذف الرعب في قلوب الكافرين، ويدفعهم إلى الإقلاع عن كفرهم واستكبارهم لو كانوا يتفكرون.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المرأة والزوج:

يُعبَّر بالمرأة عندما تفقد الحياة الزوجية كثيرًا من مقوّماتها، وبالزوج في عكس ذلك

المرأة والزوج كلاهما يطلق على الأنثى، لكنّ الأوّل أعمّ؛ لشموله المتزوّجات وغير المتزوّجات، والثاني أخصّ؛ لأنّه لا يطلق إلّا على المرأة المقترنة برجل، والملحوظ أنّ القرآن يعبّر عن المتزوّجة بـ (امْرأة) عندما تفقد الحياة الزوجية كثيرًا من مقوّماتها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التحريم: 10]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 21.

ﵟٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَﵞ [التحريم: 11]، حيث عبّر النظم الكريم عن ثلاث من النساء المضروب بهنّ المثَلُ في سورة التحريم بلفظ: (امْرَأَت) دون (زوج) - مع أنّ الأوليَيْن كانتا متزوّجتين من اثنين من أنبياء الله، هما نوح ولوط عليهما السلام، أمّا الثّالثة فكانت متزوّجة من فرعون، إذ يقف الكفر حائلًا دون كون الحياة بين رسولي الله وامرأتيهما، وبين امرأة فرعون وزوجها على النّحو المثالي[1]. أما إذا كانت الحياة الزوجية على ما يرام، وليس ثَمَّ نقصٌ يعتريها أو شيءٌ يُنغِّصها، عبّر القرآن عن المرأة بلفظ: (زوج)، للإلماح إلى التّقارب، والمحبّة والمودّة التي تربط بينهما، كما في قوله: ﵟتَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚﵞ [التحريم: 1].

ولعل السّرّ البياني في "ضنّ القرآن بكلمة: (زوج) في المقامات التي تكون الحياة الزوجية فيها قليلةَ الإثمار أنّ الكلمة نفسَها تدل على "الزوجيّة"، فالمرأة ما سمّيت زوجًا إلَّا مضافًا إليها الرجل، وما سمّي الرجل زوجًا إلّا مضافةً إليه هي، ودبيب الخلاف بينهما هنا ينافي هذا الاعتبار"[2] الدال على التقارب والتفاهم والمحبّة.

النفع والإفادة:

النفع يكون في الخير، والإفادة تكون فيما ينفع وفيما يضرّ

من النّاحية اللفظيّة: الأوّل، مشتقّ من الثّلاثي الصّحيح (نفع)، والثاني، مشتقّ من الثّلاثي معتلّ الوسط (فيد). ومن النّاحية المعنويّة: النَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ. قال تعالى: ﵟوَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاﵞ [الفرقان: 3]، والإفادةُ: ما أَفادَ الإنسان غيره على وجه العموم، ما يعني يمكن أن تكون فيما ينفع وفيما يضرُّ، على أنّ هذه المفردة لم ترد في كتاب الله تعالى.

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، من أسرار التعبير القرآني في علاجه مشاكل الأسرة.. سورة التحريم نموذجا، ص: 44.

(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 1/ 396.

الاتخاذ والأخذ:

الاتّخـاذ أخذ الـشيء بغرض الاسـتـمـرار، والأخـذ يطلق عـلى الـتّـنـاول باليد

الاتّخاذ والأخذ ينحدران من جذر لغويّ واحد هو: (أخذ) الدّال على حَوْزِ الشيء وجَبْيِه وجَمْعِه[1]، بَيْدَ أن الأوّل مشتقّ منه مع زيادة حرفين، فصار على وزن: (افْتَعَل)، والثّاني من الجذر ذاته بدون زيادة، على وزن: (فَعَلَ). ومن النّاحية المعنوية: أن الأَخْذ مصدر أخذت بيَدي، ويستعار فَيُقال: أَخذه بِلِسانِه إذا تكلّم فيه بمكروه، وجاء بِمَعْنَى العَذاب في قَوْله تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وأَصله في العَرَبِيَّة الجمع... والاتّخاذ أخذ الشَّيء لأمر يستَمرّ فيه مثل الدّار يتخذها مسكنًا، والدّابّة يتّخذها قعدة، ويكون الاتّخاذ التَّسْمِيَة والحكم، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3][2].

الشعور والإحساس:

الشعور يعني الإدراك بالعلم والفطنة، والإحساس يعني الإدراك بإحدى الحواس

من الناحية اللفظية: الأول مشتقٌّ من الثّلاثيّ الصحيح (شعر)، والثّاني مشتقٌّ من الثلاثي الصحيح أيضًا (حسّ). ومن الناحية المعنوية: فالشُّعور يطلق على العلم والفطنة، يقال: شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إذا عَلِمْتَهُ وفَطِنْتَ لَهُ، وسُمّي الشّاعِرُ لِأَنَّهُ يَفْطِنُ لِما لا يَفْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ[3]، كما يطلق الشعور أيضًا على: الإدراك بالحواس[4]. أما الإحساس فإنه يطلق على العلم بالشيء، لكنه لا يكون إلا عن طريق حواسِّ الإنسان الخمس، يقال: أَحَسَّ الرَّجُلُ الشَّيْءَ إِحْسَاسًا: عَلِمَ بِهِنّ، وهو يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وبالباء... ثم اسْتُعْمِلَ في الوِجْدانِ والعِلْمِ بِأَيِّ حاسَّةٍ كانَتْ، وحَواسُّ الإِنْسانِ مَشاعِرُهُ الخَمْسُ السَّمْعُ والبَصَرُ والشَّمُّ والذَّوْقُ واللَّمْسُ الواحِدَةُ حاسَّةٌ"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (شعر).
(5) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (حسس).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ [القصص: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإخبار بحال من فارقهم الرّضيعُ بعد الإخبار بحال من لقيهم

لمّا كانت الآية السّابقة لبيان حال الرّضيع بعد أن التقطه آل فرعون، وصرفهم اللّه تعالى عن قتله إلى رعايته وتبنّيه، آملين أن يكون لهم ولدًا نافعًا مساعدًا مساندًا؛ جاءت هاتان الآيتان لبيان حال أمّه، بعد أن ألقته في اليمّ، وفارقها إلى مصير لا تعرف عنه شيئًا، وكيف ثبّتها اللّه تعالى في مواجهة هذه المحنة، التي عصفت بعقلها وأفقدتها تركيزها، لدرجة أنّها أوشكت أن تُظهر للنّاس حقيقة رضيعها، ثمَّ وفّقها سبحانه إلى أن تطلب من أخته أن تأتيها بخبره وما آل إليه أمرُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُؤَادُ﴾: (فأد) "أَصْلٌ صَحيحٌ يدلُّ عَلَى حُمَّى وشِدَّةِ حَرارَةٍ. مِنْ ذَلِكَ: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ. وهَذا فَئِيدٌ، أَيْ مَشْوِيٌّ... ومِمّا هوَ مِنْ قياسِ البابِ: الفُؤادُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِحَرارَتِه"[1]، و"الفُؤادُ كالقلب لكن يقال له: فُؤادٌ إذا اعتبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقّد... قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]، وجمع الفؤاد: أَفْئِدَةٌ، قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]"[2].

2) ﴿فَٰرِغًاۖ﴾: (فرغ) "أَصْلٌ صَحيحٌ يدلُّ عَلَى خُلوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَراغُ: خِلافُ الشُّغْلِ"[3]، قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (فأد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرغ).

ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ [الرحمن: 31]، و"المعنى المحوريّ: خلاء الظروف ونحوها مما يشغلها من مائع ونحوه"(1)، ومنه قوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]، والمعنى: فَرَغَ من لبّها لِما تداخلها من الخوف، أو فارغًا من أيّ شيء إلّا من التفكير في ولدها(2).

3) ﴿لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾: (بدو) "أَصۡلٌ واحِدٌ، وهوَ ظُهورُ الشَّيۡءِ، يُقالُ: بَدا الشَّيۡءُ يَبۡدو: إذا ظَهَرَ، فَهوَ بادٍ"(3)، "والمعنى المحوريّ هو: بروزٌ بقوّة أو تجسّمٌ مع امتداد وجَوۡز... وسائر ما في القرآن من التركيب هو من البروز والظهور: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ [آل عمران: 118]"(4)، والمعنى: أن أمّ موسى أَوۡشَكَتۡ أن تُظهِرَ خبر ولدها وتكشفه.

4) ﴿رَّبَطۡنَا﴾: (ربط) "أَصۡلٌ واحِدٌ يدلُّ عَلَى شَدٍّ وثَباتٍ. مِنۡ ذَلِكَ رَبَطۡتُ الشَّيۡءَ أَرۡبِطُهُ رَبۡطًا، والَّذي يُشَدُّ بِهِ رِباطٌ"(5)، "وفلان رابِطُ الجأش: إذا قوي قلبه، كقوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الكهف: 14]"(6)، ومعنى ﴿رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾: ثبّتناها وقوّينا قلبها بالصبر والإيمان.

5) ﴿قُصِّيهِۖ﴾: (قص) "أَصۡلٌ صَحيحٌ يدلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيۡءِ. مِنۡ ذَلِكَ قَوۡلُهُمۡ: اقۡتَصَصۡتُ الأَثَرَ، إذا تَتَبَّعۡتَهُ"(7)، "والقَصَصُ: الأثر، قال: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: 64]، وقوله: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]"(8)، بمعنى: تتبّعي أثره وخبره.

6) ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾: (بصر) "أَصۡلانِ: أَحَدُهُما العِلۡمُ بِالشَّيۡءِ، يُقالُ: هوَ بَصيرٌ بِهِ. ومِنۡ هَذِهِ: البَصيرَةُ... يُقالُ: بَصُرۡتُ بِالشَّيۡءِ: إذا صِرۡتَ بِهِ بَصيرًا عالِمًا، وأَبۡصَرۡتُهُ: إذا رَأَيۡتَهُ"(9)،"والآخر البصَر، بمعنى: (الرؤية) جاءت استعمالات التركيب في القرآن بهذا المعنى ومشتقّاته، قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، وقال أيضا: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾"(10)، والمعنى: أبصرته وشاهدته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرغ).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (فرغ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بدو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (ربط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصّ).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (قصص).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بصر).

7) ﴿جُنُبٍ﴾: (جنب) "أَصْلانِ مُتَقارِبانِ أَحَدُهُما: النّاحيَةُ، والآخَرُ البُعْدُ"[1]، ومن كَوْن الجَنْب ناحية خارجيّة جاء معنى البُعد، كما في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ [الليل: 17]، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بُعْد أو عن مجانبة لها منه، فلم يعرفوا أنّها أُخته"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قَلَقٌ ولهفةٌ يزولان بتثبيت الله وتوفيقه إلى تقصّي خبر الرضيع

توضّح الآيةُ الأولى أنّ القلق قد استَبَدَّ بأمّ موسى بعد أن ألقت رضيعها في اليمّ، والتقطه آل فرعون، وأنّ فؤادها أصبح خاليًا من التفكير في أيِّ شيء سوى التفكير في مصير ولدها من فرط دهشتها وخوفها عليه، لدرجة أنها كادت تُصرّح للناس بأنّ الذي في الصندوق هو ابنها، لولا أن قوّى اللّهُ قلبها بالثبات والصبر. وتُبَيِّنُ الآيةُ الثانيةُ أنّ اللّه تعالى هَدَى أمَّ موسى إلى أن تطلبَ من أخته أن تتقصّى خبره، وتعرف ما آل إليه أمرُه، ففعلت ذلك، وأخذت تشاهده عن بُعد، دون أن تُشْعِرَ أحدًا بتتبُّعِها له.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في صدر الآية:

بيان عظيمِ لطف الله بعباده وقدرته على إذلال أعدائه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾، لعطف ما يليها على جملة: "وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ..."، جيء بها وبما بعدها لبيان حال أمّ موسى بعد أن ألقت رضيعها في اليمّ، امتثالًا لأمر اللّه تعالى، إذ كلّ ذلك من أجزاء نبأ موسى وفرعون، ولِما يصوّره مشهد حالها من عظيم لطف اللّه بعباده الذين يمتثلون أوامره، ويستجيبون لتكاليفه، كما أنّه - بمفهوم المخالفة - يبرز قدرة اللّه على معاقبة الكافرين المستكبرين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنب).

قلق الأهل على أبنائهم لا ينقطع ليلًا أو نهارًا

دلالة التعبير بالفعل: ﴿وَأَصۡبَحَ﴾:

الفعل: ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ يمكن أن يكون مستعملًا "في معنى (صار)، فاقتضى تحوّلًا من حالة إلى حالة أخرى، أي: كان فؤادها غير فارغ، فأصبح فارغًا"[1]، ويمكن أن يكون على ظاهره، فيكون دالًّا على استمرار انشغالها برضيعها، وقلقها عليه منذ أن ألقته في اليمّ ليلًا، حيث تصاعد قلقها، وتزايد خوفها لا سيّما بعد أن جرفت الأمواج الصندوق واختفى بعيدًا عن عينيها، وبعد أن وصلتها الأخبار في الصباح بأن رضيعها بين يدي فرعون وجنوده.

قلب الأم يحترق لبعد أطفالها

لطيفة التعبير بالفؤاد دون القلب:

أوثر التعبير بالفؤاد دون القلب، لدلالته على معنى التفوّد، الذي يعني: الاحتراق والألم بسبب فراق الرضيع، وشدّة القلق على مصيره، لا سيّما بعد أن وقع بين يدي من كانوا يقتلون كل طفل، ما يعني أنّه الأنسب بتصوير حال الأمّ المُلتاعة ممّا يرادفه.

الأبناء حاضرون في أذهان أهليهم حضورًا يستوجب ذِكرهم بأسمائهم

نكتة التعبير عن الرضيع باسمه الصريح:

درج النّظم الكريم على التّعبير عن نبيِّ اللّه موسى ﵇ بالضّمير، بدايةً من قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ وفيما يليه، إلّا أنه عدل عن التّعبير بالضّمير إلى الاسم الظاهر هنا، فلم يقل: (وأصبح فؤاد أمه...)؛ تجاوبًا مع حالة حضور موسى في ذهن أمّه، وفراغ فؤادها من كلّ شيء إلّا من ذكره، كما يرويه الإمام الطبري عن ابن عباس وغيره من السلف الصالحين[2]، بالإضافة إلى ما سبق بيانه من أنّ مقصود النظم الكريم ذكر نبأ موسى بكلِّ تفاصيله.

معنى الفراغ في قوله: ﴿فَٰرِغًاۖ﴾:

كلمة الفراغ تدل على خُلوٍّ وعدم امتلاء، وذلك لا يكون إلا في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 22.

(2) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 19/ 527.

المحسوسات، وهي هنا تحتمل معنيين، **أوّلهما:** أن يكون فؤادها فارغًا من الخوف والحزن بسبب ثقتها في وعد الله لها بردّه إليها وجعله من المرسلين، **الآخر:** أن يكون فارغًا من التفكير في كلّ شيء إلّا في رضيعها وما يمكن أن يحصل له بعد أن ألقته في اليمّ، وهو الأظهر هنا، وعلى كلا الاحتمالين لا يمنع انشغالها بالتفكير في رضيعها إيجابًا أو سلبًا.

قلب أمّ موسى بين الثقة في موعود الله وخوف الأمّ الفطريّ

بلاغة الاستعارة في كلمة: ﴿فَٰرِغًاۖ﴾:

في التعبير بكلمة: ﴿فَٰرِغًاۖ﴾ استعارة تصريحيّة، شُبّه فيها ترك التفكير في كلّ الأمور بالفراغ، بجامع الخلوّ في كلٍّ، ثمّ استعير الفراغ لترك التفكير على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيّة، التي صَوَّرتْ قلبَ أمِّ موسى مُجَوّفا فارغًا من كلِّ شيء، وليس فيه إلّا شيء واحد، هو رضيعها الذي دفعت به إلى اليمّ في عتمة الليل وسواده الحالك، فاجتمع عليه ظلام الصندوق، وسواد الليل، وأمواج اليمِّ... وغير ذلك ممّا يطيش بالعقل، ويَذهب باللّب، ويُنسي كلّ شيء.

تعرّض الصغار للخطر يذهب بعقل الأمّ وينسيها كل شيء

دلالة التعبير عن الخبر باسم الفاعل:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن خبر ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ بالاسم المشتقّ ﴿فَٰرِغًاۖ﴾؛ لِما يفيده التعبير بالاسم من الدّلالة على الدوام والثبوت؛ لأنّ اسم الفاعل يدلُّ على تمكن الفعل من صاحبه حتّى أصبح اسمًا له، ما يعني: دوام فراغ فؤاد أمّ موسى منذ ألقت ولدها في اليمّ، وعدم امتلائه بأيّ شيء من ذلك الحين سوى بالتفكير فيه إيجابًا أو سلبًا.

لا يملأ فؤاد الأمّ الفارغ سوى التفكير في أبنائها

نكتة حذف متعلّق الفراغ في ﴿فَٰرِغًاۖ﴾:

حُذف متعلّق اسم الفاعل ﴿فَٰرِغًاۖ﴾، لإفادة العموم والشّمول، والمعنى: فارغًا من كلِّ أنواع التّفكير سوى التّفكير في موسى، فارغًا من كلِّ الهموم إلّا من همّ موسى، فارغًا من ذكر المصاعب إلّا من المصاعب التي يمكن أن يتعرّض لها موسى، فارغًا من كلِّ الأسماء

تفكير الأمهات في أبنائهنّ يعمّ كلَّ ما يخصّهم

إلّا من اسم موسى... وهكذا، فيما يعدُّ تصويرًا حيًّا ينقل ما يملأ قلب الأمّ المهمومة لفراق ولدها، المشغولة به في ليلها وصباحها.

الهمّ والغمّ لفقد المحبوب يشغل صاحبه عن كلِّ شيء

بلاغة الكناية في لفظة ﴿فَٰرِغًاۖ﴾:

يمكن أن يكون التّعبير بفراغ الفؤاد كنايةً عن ذهول العقل وطيش اللّب، والمقصود: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طاش صوابها، وطار عقلها لما انتابها من فرط الجزع والدّهش[1]، والقلق عليه، والتّفكير فيما يمكن أن يفعله فيه عدوّه الذي كان يبحث عنه، ما يعني: "فراغ فؤادها من الأمور المُسْتَكِنَّة، وتوزّع فكرها في كلِّ وادٍ"[2].

إذا اضطرب فؤاد العبد فقد يسلك مسلكًا يضرّه

سبب فصل جملة: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾:

جاءت جملة: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾؛ لأنَها بمثابة البيان والتّعليل لها، ما يعني أنّها تنزّل منها منزلة التّابع من المتبوع، فيما يعرف بكمال الاتّصال. ويمكن أن يكون سبب الفصل كون الثّانية تجيب عن سؤال أثارته الأولى عن كيفيّة كون فؤادها فارغًا، فيما يسمّى شبه كمال الاتصال.

تصوير اضطراب الفؤاد وسرعة خفقانه

معنى ﴿إِن﴾ في جملة: ﴿إِن كَادَتۡ﴾:

﴿إِن﴾ في جملة: ﴿إِن كَادَتۡ﴾ هي المخفّفة من الثّقيلة، واسمها ضمير الشّأن المحذوف، وجملة ﴿كَادَتۡ﴾ خبرها، والأَوْلَى إهمالُها وإلغاءُ عملها[3]، وسواء أكانت عاملةً أم ملغاةً فهي تُسهِم بموقعها وجَرْسِها المكوّن من متحرّك فساكن في تصوير اضطراب فؤاد أمّ موسى وسرعة خفقان قلبها وتزايد ضرباته النّاتج عن تشتّت الفكر وطيشان اللّب.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 395.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 468.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 283.

دلالة التعبير بالفعل (كادَ):

تعبير القرآن بالفعل: (كادَ) الموضوع للمقاربة يُبَيّن حالة الشّتات الفكريّ والذّهول العقليّ الذي كانت عليه أمّ موسى بعد فراق ولدها، والذي جعلها على وشك الحديث إلى الآخرين بما يكشف حقيقة الرّضيع الُملقى في الصّندوق، ويعرِّف النّاسَ أنّه ابنُها، وفيه إبراز لعظيم لطف الله بها، وحسن رعايته لها ولرضيعها.

عندما تحيط الأخطار بالأبناء تتشتّت أذهان الأمهات

معنى (اللام) في قوله تعالى: ﴿لَتُبۡدِي﴾:

اللام في جملة: ﴿لَتُبۡدِي﴾ هي الفارقة بين إنْ المخففة وإن النافية، وقيل: إنّها بمعنى إلّا، و﴿إِن﴾ التي في أول الجملة نافية[1]، فيكون في الجملة قصرٌ بالاستثناء بعد النّفي، وهو قصرٌ ادّعائيٌّ، وأيًّا كان نوعها فهي تشعر بتوكيد الفعل الدّاخلة عليه، ما يعني: وصول أمِّ موسى إلى مرحلة العزم والإصرار على إظهار حقيقة أمومتها للرّضيع دون التّفكير في أيّ شيء آخر.

وصول أمّ موسى إلى نهاية الصّبر على فراق وليدها

دلالة التعبير بالإبداء دون الإظهار:

تعبير النّظم بالفعل: ﴿لَتُبۡدِي﴾ الموضوع للظهور بقوّة فيه دلالة على أنّها كانت ستُظهِر حقيقة الرضيع إظهارًا لا لُبْسَ فيه ولا غموض، مهما كانت النتائج المترتّبة عليه، وكأنّ صراخَها بعبارة: أدركوا ولدي، أو يا بُنَيّاه، أو إنّه ابني، وضعتُه في صندوق وألقيتُه في اليمّ غايةٌ تُريحها، وتَذْهبُ بفراغ فؤادها، ويا لَهُ من تعبير يصوّر بصدق، وينقل بواقعيّة حالة تشتّت الفكر وذهاب العقل، التي كانت عليها أمّ موسى!

الإبداء يعني إظهار الحقيقة إظهارًا لا لُبْسَ فيه ولا غموض

دلالة المضارعة في: ﴿لَتُبۡدِي﴾:

والتعبير بالفعل ﴿لَتُبۡدِي﴾ مضارعًا يدلُّ على استحضار الصّورة؛ لأنّها تصوّر حالتها أمام القارئ الكريم كأنّه رأي عيْن، كما يدلُّ الفعل المضارع على تجدّد عزمها إظهار حقيقة الرضيع، وتعريف

تجدُّد العزم على إظهار الحقيقة مع كلّ خطر ومع كلّ نبأ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 289.

الناس بأمومتها له مع كلّ خطر يتعرّض له، ومع كل نبأ يأتيها عنه، فعندما جرفه الموج كادت تصرخ وتقول: وا بُنَيّاه، وعندما جاءها خبر التقاط آل فرعون له كادت تُشْعِر أهل مصر بأنّه رضيعها، وعندما قيل: إنّ فرعون قد تَبَنّاه كادت تقول للناس: إنّه ولدي أنا وليس ابن أحد غيري... وهكذا[1].

دلالة تعدية ﴿لَتُبْدِى﴾ إلى الضمير بالباء:

شأن الحقائق دائما الظهور والوضوح

الباء حرف جرّ يفيد الإلصاق، وهو أصل معانيه[2]، والضمير في كلمة ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى خبر موسى وحقيقته، والسرّ في تعدية فعل الإبداء إلى ضمير خبر موسى بحرف الإلصاق في قوله: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ مع إمكان التعبير بدونه "إمّا تأكيدُ لصوق المفعول بفعله، والأصل: لتبديه، وإما تضمينُ ﴿لَتُبْدِى﴾ معنى (تبوح) وهو أحسن"[3] كما يرى ابن عاشور، وأيًّا كان المعنى ففي التعبير بهذا الحرف نوع من التصوير الذي يبرز انفصال شيء عن شيء كان ملتصقًا به، ليحصل بانفصاله تَميُّزُه وظهوره، ما يعني أن أمّ موسى كانت عازمة على أن تظهر حقيقة الرضيع واضحةً جليّةً، من غير لُبْسٍ ولا غموض، كما هو شأن الحقائق دائمًا.

معنى ﴿لَوْلَآ﴾ في ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾:

رعاية الله تحول بين الإنسان والمهالك

﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود، والتعبير به هنا يدلُّ على أنَّ تثبيت اللّه تعالى لأمّ موسى حال بينها وبين إظهار أمومتها للطفل الموضوع في الصندوق، لما لإظهار ذلك من آثار وخيمة وعواقب سيّئة، إذ لو كان الإبداء خيرًا لما حيل بينها وبينه.

دلالة التعبير بالربط في: ﴿رَّبَطْنَا﴾:

الرّبط معناه: الشدّ والإحكام، وهو لا يكون إلّا في الأشياء الحسّيّة،

(1) ابن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن: 19/ 530.
(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 4.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 23.

توفيق الله لأوليائه بتثبيتهم وقت الشّدائد

والمقصود به هنا: تثبيت قلب أمّ موسى بالاطمئنان والصّبر، وعصمتها من قول: إنّ موسى ولدُها[1]، وردّ المعاني الصالحة التي أودعها اللّه تعالى في قلبها[2].

وآثر التّعبيرُ أن يجيء على الأسلوب المصدريّ في جملة: ﴿أَن رَّبَطۡنَا﴾، للدلالة على شدّة تثبيت اللّه تعالى لأمّ موسى على صعوبة الحال التي كانت فيها.

بلاغة الاستعارة في الفعل ﴿رَّبَطۡنَا﴾:

رَبْطُ الله على قلوب عباده سبب استقرارهم وهدوئهم

في التعبير بالفعل: ﴿رَّبَطۡنَا﴾ استعارة تصريحيّة، شُبِّه فيها تثبيت قلب أمّ موسى بالاطمئنان والصّبر بالرّبط والعقد القويّ على شيء متحرك، بجامع القرار وعدم الانفلات في كلّ، ثمّ استُعير الربط للتّثبيت على سبيل الاستعارة التصريحيّة التَّبَعيَّة، التي تُبرِزُ أثرَ تثبيت اللّه في هدوء أمّ موسى واستقرار فؤادها، وانصرافها عن إعلان حقيقة ولدها، واطمئنانها إلى قدر اللّه، والاستسلام لأمره الذي لا يأتي إلّا بالخير.

بلاغة الكناية في قوله ﴿رَّبَطۡنَا﴾:

الربط على القلوب يجعلها مستبشرةً مع شدّة الخطر

يمكن أن يكون التّعبير بالرّبط على القلب كنايةً عن قرار قلب أمّ موسى واطمئنانه، واستبشاره بوعد اللّه سبحانه بردّ ولدها إليها، وجعله من المرسلين، ومظهر ذلك ودليله عزوفُها عمّا كادت أن تفعله من إظهار أمره، والإخبار بأمومتها له، ويكون المعنى: "شددنا على قلبها بالصبر والثبات بتذكير ما سبق من الوعد، وهو رَدُّهُ إليها وجَعْلُه من المرسلين"[3].

نكتة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

تثبيت الله تعالى ليس كأيّ تثبيت

التعبير بفعل الربط ماضيًا مسندًا إلى ضمير العظمة في قوله:

(1) ابن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن: 19/ 530.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 468.

(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 280.

﴿رَّبَطۡنَا﴾ يدلُّ على حصول التثبيت حصولًا يليق بجلال اللّٰه وكماله واقتداره، وأنّه ليس كأيّ تثبيت، إنّه تثبيت يذهب معه فراغ الفؤاد، وطيشان العقل، تثبيت يملأ القلب بالرضا والاستبشار، ويتحوّل به الشخص إلى مؤمن كامل الإيمان، بجانب ما يفيده من رعاية اللّٰه لصاحبه، وكريم لطفه به.

لطيفة تعدية ﴿رَّبَطۡنَا﴾ بـ: ﴿عَلَىٰ﴾:

تثبيت الله تعالى يُحصِّن قلب المؤمن ويقوّيه

في تعدية فعل الربط إلى القلب بحرف الاستعلاء: ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ ترشيح لاستعارة الربط لمعنى التثبيت، لأنّه يُحيل التثبيت من شيء معنويّ إلى شيء حسّيّ يحيط القلب من جميع جوانبه كأنّه يُحصّنه، ويُساعده على الاستقرار والثبات، ويمنع خروج أيّ شيء منه، ما يعني: تمكّن التثبيت من القلب، وقوّة محافظته عليه، وشدّة تأثيره فيه.

معنى (اللام) في ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

يريد الله لعباده الخير والصلاح بكلّ ما قدّره عليهم

اللام في جملة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي لام التّعليل، التي تدلّ على أنّ علة تثبيتها والربط على قلبها أن تكون من المؤمنين الواثقين فيما أوحى اللّٰه تعالى به إليها عندما أمرها أن تلقي رضيعها في اليمّ.

دلالة التعبير بفعل التكوين: ﴿لِتَكُونَ﴾:

من فضل الله على عباده أن يُخرجهم من المِحَن أقوى إيمانًا وأشَدَّ تحصينًا

التعبير بالفعل: ﴿لِتَكُونَ﴾ يدلُّ - بمادته - على أنّ علّة الربط على قلبها أن يتغلغل الإيمان في فؤادها، وأن يتعمق في مكوّناتها بحيث يصير كالغريزة[1] التي فُطرت عليها، والسّجيّة التي خُلقت بها، فيلازمها ملازمةً لا انفكاك لها، ويرتبط بها ارتباطًا لا فراق بعده، ما يعني أنّها ستخرج من هذه المحنة وهذا الابتلاء أشدّ عودًا، وأقوى إيمانًا، وأعظم تحصينًا، وهذا من عظيم فضل اللّٰه عليها وعلى عباده.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 468.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في جملة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمكن أن تكون بيانيّة، والمعنى: أنّ اللّه تعالى ربط على قلبها لتكون مؤمنةً به، واثقةً في إنجاز وعده لها. ويمكن أن تكون تبعيضيَّة، والمعنى: أنّ اللّه تعالى تفضّل عليها بالتثبيت ليُدخِلَها في زمرة المؤمنين به، الواثقين في وعوده، دخول الجزء في الكلّ، فتحظى بالرّعاية في الدّنيا، والنّعيم في الآخرة.

مَـنْ ربـط اللّه عـلى قـلبه كـان مـن المؤمـنين لا محالة

دلالة التعبير بالإيمان في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

التعبير بوصف: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الموضوع لإذعان النّفس للحقّ على سبيل التصديق، باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح[1] يدلُّ على أنّها ستتحوَّل من فراغ الفؤاد، وذهول العقل إلى ما يقتضيه وصف الإيمان من الإذعان لوحي اللّه، وتصديق القلب بوعده، والثّقة الكاملة في تحقّقه، والاستبشار والفرح بوقوعه وحصوله، "فيكونَ فرحُها وابتهاجُها مِنَ الوثوقِ بوَعدِ اللّه، وهو: أنّهُ حافظُه ورادُّه إليها، ولا يكونَ فرحُها مِن تَبَنّي فِرعون؛ فإنّ هذا الفَرَحَ سَخْطةٌ مِنَ اللّه تعالى"[2].

الإيـمـان باللّه يـمـلأ الـقـلـوب ثـقـةً في وعـوده وفرحًا وابتهاجًا بحصولها

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

أفاد التّعريف هنا الجنسيّة الاستغراقيّة، أي من جنس المؤمنين، ويمكن أن يكون التّعريف للعهد الذّهنيّ، أي: المؤمنين المعروفين بالصّبر والثّبات.

لطيفة التعبير بـ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وليس (المؤمنات):

كان مقتضى الظاهر أن يعبر النظم بجمع الإناث، فيقال: (ولتكون من المؤمنات)، ولكنّ العدول إلى التعبير بجمع المذكر:

الإيـمـان باللّه يحيل الأشخاص الـضـعـفـاء إلى أقوياء أشداء

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أمن).
(2) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 12/ 19.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمكن أن يكون من باب التغليب؛ جريًا على عادة العرب في البيان عند الحديث عمّا يخصّ النساء، سترًا لهنّ وصيانةً. ويمكن أن يكون إشارةً إلى أنّها بلغت في هذا الموقف الصعب مبلغ الرجال، صبرًا وجَلَدًا وتحمّلًا، على الرغم من كونها أُمًّا يتحرّق قلبها، ويتألّم فؤادها، ويطيش عقلها، لكنّها اطمأنّت لوعد الله ووثقت فيه، فأمسكت عن الكلام بلسانها، واحتفظت بالحقيقة في نفسها، وهو أمر شديد الصعوبة على النساء، لما فُطرن عليه من الرقة والبوح بما يشكل خطرًا على الأبناء بصفة عامّة، وعلى الرُّضَّع منهم بصفة خاصّة.

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَقَالَتۡ﴾:

الأمهات لا يسترحن حتى يعرفن ما حدث لأولادهنّ

الواو في جملة: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ﴾ تعطف قولها لبنتها على جملة: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ﴾، إذ الكلّ داخل في بيان حال الأمّ بعد أن ألقت رضيعها في اليمّ، فهو من باب سرد أحداث القصّة، فبعد الحديث عن فراغِ فؤادها ورَبۡطِ الله على قلبها، يأتي الحديث عمّا اتخذَتۡهُ من خطوات لتطمئنّ على رضيعها، وتعرف ما آل إليه أمره، تجاوبًا مع الفطرة التي فطرها الله تعالى عليها، "والظاهر أنّ هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغًا، إن كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهر، وإن كانت قد عرفته فتَتَبَّعتِ الخبر لتعرف هل قتلوه أم لا؟ ولينكشف ما هو عليه من الحال"[(1)].

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِأُخۡتِهِۦ﴾:

البنات أكثر اطلاعًا على أحوال الأمّهات، وأعظم شعورًا بهنّ

اللام في ﴿لِأُخۡتِهِۦ﴾ حرف جرّ يفيد الاختصاص، وهو يدلُّ على أنّها خَصّت أخته دون غيرها بالقول، لأنّها أكثر اطلاعًا على حال أمّها، وأعظم شعورًا بها، وتعرف ما أصابها منذ ألقت ابنها في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 259.

اليمّ؛ ما يعني أنّها ستكون أحرص من غيرها على فعل ما يطمئنها، ويهدّئ من روعها، بجانب ما في تخصيصها بالقول من زيادة الحيطة، وأخذ الحذر.

نكتة التعبير بـ: ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ مضافة:

الأخواتُ محبّاتٌ لإخوانهنّ حريصاتٌ عليهم

"التَّعبيرُ عنها بأخوَّتِه عليه السلام دونَ أنْ يقال: لبنتِها، للتَّصريحِ بمدارِ المحبَّةِ الموجبةِ للامتثالِ بالأمرِ"[1]، والحرص على القيام به بطريقة تحقّق النفع والفائدة لأخيها ولأمّها على السواء. وفي إضافتها إلى الضمير الموصول العائد لموسى ما يُشعر بالقرب والاحتضان الذي يكون من الأخت لأخيها، لا سيّما في فترة الرضاع، والواقع يشهد أن كثيرًا من الأخوات يقمن بدور الأمّهات إذا لزم الأمر وتطلّب الموقف.

دلالة التعبير بالقصّ في الفعل: ﴿قُصِّيهِۖ﴾:

سماع أخبار الأبناء يريح الأمهات ويعوضهن عن فراقهم

في التعبير بفعل القصّ - الموضوع لتتبّع الأثر والخبر - دلالة على أنَّ أمَّ موسى طلبت من أخته أمرين، **أحدهما:** أن تتبّع أثر الصندوق، وتعرف أين ذُهِب بأخيها واستقرّ، **والآخر:** أن تعرف خبر الرضيع، وما آل إليه أمره، ثمّ تعود لتخبرها وتقصّ عليها ما توصّلت إليه، ففي ذلك القصّ ما يريحها ويعوّضها عن فراقه.

غرض الأمر في: ﴿قُصِّيهِۖ﴾:

والغرض من الأمر في قولها: ﴿قُصِّيهِۖ﴾ على ظاهره في إفادة الوجوب لوقوعه من الأمّ لابنتها، ولرغبتها الملحّة في تتبّع أخباره، فضلًا عن إفادته الرجاء والأمل في أن تساعدها للتَّعرُّفِ على حال أخيها ومعرفة ما يحيط به، وفيم يفكر مَنِ التقطوا الصندوق وعرفوا ما بداخله.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾:

الحذف في البيان القرآني يعبر عن الواقع العملي

الفاء في جملة: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ فصيحة، وهي التي تفصح عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 222.

كلام محذوف، تقديره: فقصّت أثره فبَصُرت به، وهي تدلّ على أنّ أخت موسى قامت بأمور كثيرة، وأفعال عديدة، بعد أن أمرتها أمّها، حتى وصلت إلى أخيها وأبصرته، وأنها كانت أثناء فعل ذلك مُتخَفّيَةً[1] غير معروفة، ولا ملحوظة، ما يعني أنّ طَيَّ هذه الجمل وحذْفَها يتماشى مع تخفّيها أثناء القيام بهذه الأعمال.

دلالة التعبير بفعل الإبصار:

النّـجـاح في المهمّات يحتاج إلى ذكاء وعمل

عبّر البيان الكريم بفعل الإبصار المسند إلى ضمير أخت موسى في قوله ﴿فَبَصُرَتۡ﴾، والموضوع للنّظر الجامع بين الرّؤية والعلم والحاصل بنوع من التّحديق[2]؛ للدّلالة على أنّها ظلّت تحدّق في تتبّع الصندوق، وتنتقل خلف أثره من مكان إلى مكان، وتحصل على معلومات من هنا وهناك، حتّى وصلت إلى مكان أخيها، ورَأَتْه عن جُنُب بعينيها "عِنْدَ قَوْم مِنْ حاشيَةِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ يَتَطَلَّبونَ لَهُ امْرَأَةً تُرْضِعُهُ، حينَ لَمْ يَقْبَلِ الْمَراضِعَ"[3]، وفي التّعبير إلماحٌ إلى ذكائها، والمجهود الذي بذلَتْه، حتّى كلّل اللّه سعيها بالنّجاح.

لطيفة تعدية ﴿فَبَصُرَتۡ﴾ بالباء:

كـلّـما كـانت الغاية عظيمة كـان المجهود عظيما

الباء في ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ للسّببيّة، والضمير الموصول في محلّ نصب مفعول به، يرجع إلى نبيّ اللّه موسى، "والباء الدّاخلة على ضمير المفعول للدّلالة على شدّة العناية برؤية المرئيّ حتّى كأنّه صار باصرًا بسببه. ويمكن أن تكون الباء لتأكيد الفعل، فتفيد زيادة مبالغة في معناه"[4]، ما يعني أنّ حرصها على رؤية أخيها كان باعثًا لها على المبالغة في التدقيق والتحديق، حتّى استطاعت الوصول إليه، والاطمئنان عليه، دون أن يشعر بذلك أحد من النّاس كافّة.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 290.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (بصر).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 290.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 24.

كما يمكن أن يكون فعل الإبصار قد تضمّن فعلًا آخر يتعدّى بالباء، على تقدير: فعلمت به، أو فظفرت به.

معنى ﴿عَن﴾ في القيد ﴿عَن جُنُبٍ﴾:

الحذر لا يتعارض مع الإيمان بالقدر

﴿عَن﴾ حرف جَرٍّ يفيد المجاوزة، وهو أشهر معانيه[1]، وفي التّعبير به دلالة على أنّها كانت تحذر الاقتراب الشّديد من الرّضيع، وتتجاوز المكان الذي يوجد فيه، حتّى لا يلحظ أحدٌ نظرها إليه، أو لهفتها عليه، فيربط بينها وبينه، وينكشف أمرهما.

دلالة التعبير بمفردة: ﴿جُنُبٍ﴾ دون (بُعْدٍ):

المؤمن لا يُعطي أعداءه فرصة لإيذائه أو التّنكيل به

كلمة: ﴿جُنُبٍ﴾ صفة لموصوف محذوف يُفهم من السّياق، تقديره: مكان جنب، أي: بعيد، وقيل بمعنى: جانب، لأنّها كانت تمشي على الشّط، وقيل: كأنّه من الأضداد، فإنّه يكون بمعنى القريب - أيضًا - كالجار الجنب. وقيل على جانب.. وقيل: النّظر عن جنب، أن تنظر إلى الشّيء كأنّك لا تريده[2]، وهي مع حرف الجرّ قبلها في محلّ نصب حال من الضمير في: ﴿فَبَصُرَتْ﴾، والتّعبير بها يؤكد أنّ أخت موسى كانت في غاية الحذر، فهي ترمقه من مكان بعيد، بحيث تنظر إليه "مُزْوَرَّةً مُتجانفةً مُخاتلةً"[3]، لئلّا يُعلم أنّها منه بسبيل[4]، ولو قيل: (عَنْ بُعْدٍ) لفُهم أنها كانت في مكان بعيد لم تستطع إبصاره منه، ولكان ثَمَّ تناقضٌ مع التّعبير بالفعل ﴿فَبَصُرَتْ﴾، الدّال على أنّها رأته بعينيها.

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للحال، والجملة التي تليها في محل نصب، جيء بها لبيان حال قوم فرعون أثناء قيام أخت موسى بتقصّي أثره، ومعرفة خبره.

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 41.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 290.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 396.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 351.

نكتة تقديم الضمير: (هُمْ) على الخبر:

الضمير: (هُمْ) في جملة الحال يعود إلى: آل فرعون، وقُدِّم على الخبر الفعليّ ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لتقوية عدم شعورهم بأخت موسى أثناء قيامها بتقصّي أمره، وتأكيد عدم انتباههم لها، وأنّ ذلك راجع إلى حِذْقِها وذكائها وتوفيقِ اللّه لها في تنفيذ مهمّة التّقصّي والتّتبّع.

حسن التّصرّف مـردُّهُ إلى عون الله وتوفيقه

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

جملة: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في محلّ رفع خبر الضمير: (هُمْ)، جيء فيها بالخبر الفعلي منفيًّا بحرف النّفي المختوم بألف المدّ ﴿لَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم بلغوا في عدم الشّعور بأخت موسى أثناء قيامها بتتبّع خبر أخيها مبلغًا لا يمكنهم معه معرفتها وإدراك أنّها أخته بأيّ حال من الأحوال.

حفظ الله للعبد يحول بينه وبين أن يُكشَف

نكتة التّعبير عن المسند بالفعل المضارع:

جيء بالمسند المنفيّ: ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لما يفيده من تجدّد عدم شعورهم واستمراره مدّةَ التّقصّي وما بعدها، ولما يُفيده كذلك من استحضار الحالة الماضية كأنّها حاضرة ماثلة، يبدو فيها القوم مشغولين بالرضيع، حريصين على حياته، لاهين عن معرفة المحيطين به، المراقبين له، بينما تقف أخته ناظرةً إليه تارةً وإلى القوم تارةً أخرى، في مشهد يثير العجب، ويزيد الإيمان باللّه الذي سخّر فرعون وهامان وقومهما وجنودهما لخدمة عدوّهم وإبقائه على قيد الحياة.

الله تعالى قادر عـلى تسخير الأعداء لتحقيق مراده

سر إسناد فعل الشعور المنفي إلى ضمير:

أَسند النظمُ الكريم فعل الشّعور المنفيّ إلى واو الجماعة في قوله ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾، للدّلالة على أنّ الجميع كانوا متساوين في عدم الشّعور بأخت موسى، وعدم إدراك ما تقوم به، لا فرق في ذلك بين فرعون وهامان وجنودهما، ولا فرق فيه كذلك بين الرّجال والنّساء والكبار والصغار.

صـرف عـقـول الـجـمـيـع عن إدراك ما حولهم كـصـرف عقل واحد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤاد والقلب:

من الناحية اللفظيّة: الأول مشتقّ من الثلاثي: (فأد)، والثاني مشتق من الثلاثي: (قلب)، ومن الناحية المعنويّة: يعبّر القرآن بالفؤاد عند الإلحاح إلى ما في القلب من معاناة أو حزن، وعند الإشارة إلى وظيفة إنضاج الرأي أو الفكرة أو الاتّجاه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36].

الـفـؤاد يطلق عـلـى الـعـقـل والقلب الحزين، والقلب ملحوظ فـيـه مـعـنـى التّقلب

ويعبّر البيان القرآنيّ بالقلب عند الحديث عن السّيطرة على أعضاء البدن، وبيان السّبب في الهداية أو الغواية، وذكر معنى التّقلب، كما في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: 7]، وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ﴾ [المائدة: 13]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2].

الفراغ والخُلوّ:

من الناحية اللفظيّة: الأول مشتقّ من الثلاثيّ: (فرغ)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ: (خلا)، ومن الناحية المعنويّة: أنّ الأوّل يدلُّ على خلاف الشّغل كما سبق بيانه، ويكثر التّعبير به في الأمور المعنويّة، كما في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: 31]، وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: 250]. أما الخلوّ فهو أيضًا يدلُّ على فراغ لكنّ التّعبير يكثر فيما هو حسّيّ، فقولنا "يَخْلو يُسْتَعْمَل في ما لا يكون هَيْئَةً يُشاهد عليها كالطُّعوم والروائح وما يجرى مجراها؛ لِأَن الشَّيْء يَخْلو من الشَّيْء

يُعبَّر بالفراغ في الأمور المعنويّة، والخُلوّ في الأمور الحسّيّة

إذا كانَ كالظّرف لَهُ، ولِهَذا يُقال: خلا البَيّت من فلان ومن كَذا"[1]، ومنه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 141]، و﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: 24]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: 214].

الإبداء والإظهار:

الإبـداء يكـون عـن غير قصد، والإظـهـار يكون بـقـصـد وبـغـير قصد

من الناحية اللفظيّة: الأول مشتقّ من الثلاثيّ: (بدا)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ: (ظهر)، ومن الناحية المعنويّة: أنّ الإبداء يعني: الإظهار، ويعبّر به: في الحسّيّ وغير الحسّيّ، تقول: بدا لي الشَّيّء إذا ظهر، وتقول بدا لي في الشَّيّء، إذا ظهر لَك فيهِ رَأْي لم يكن ظاهرًا لَك[2]. كما أنّه يكون عن غير قصد في الأغلب الأعم: تَقول بدا البرق، وبدا الصُّبح، وبدت الشَّمس، وبدا لي في الشَّيّء، لِأَنَّك لم تقصد للبُدوّ.

أما الظُّهور والإظهار فإنّه يكون في الأمور الحسّيّة غالبًا، كما يكون بِقصد وبِغير قصد، تَقول: استتر فلان ثمَّ ظهر، ويدلُّ هَذا على قصد للظهور، ويُقال ظهر أَمر فلان، إن لم يقْصد لذَلِك[3].

الربط والتسكين:

الربط يُعبَّر به عـن التـقـوية والـشـدّ، والتسكين يُعبَّر بـه عـن مجرد التهدئة

من الناحية اللفظية: الأول مشتقّ من الثلاثيّ: (ربط)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ: (سكن)، ومن الناحية المعنويّة: في الربط معنى التّقوية والشّد والتّثبيت، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: 11]، وقوله ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: 14]، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. أما التّسكين ففيه معنى التّهدئة لكونه مأخوذًا من (سكن) الموضوع لثبوت الشّيء بعد تحرّكه[4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 152.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 60.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (سكن).

القصّ والتّتَبُع:

الـقـصّ يكـون لاقـتـفـاء الأثـر والخبر، والتّتبّع يـكـون لاقـتـفـاء الأثر

من الناحية اللفظيّة: الأوّل مشتقّ من الثلاثيّ: (قصص)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ: (تبع)، ومن الناحية المعنويّة: الأوّل موضوع لاقتفاء الأثر والخبر، كما في قوله: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، وقوله: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62]. والتّتبّع يكون لاقتفاء الأثر، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسام والائتمار[1]، مثل قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 3]، ويعبّر به عن اللحاق، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾ [الشعراء: 60].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (تبع).

﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَقَصٍّ وتتبُّعٌ ثم تحريمٌ يُمهِّد لتحقيق الوعد

بعد أن بيّنت الآيةُ السّابقة قيام أخت موسى بتقصّي أثره وتتبّع خبره، حتّى وجدَتْهُ مع نسوة من حاشية امرأة فرعون، فنظرت إليه نظراتٍ لا يشعر أحد منها أنّها أخته، وأنّها جاءت لتعرف خبره؛ تأتي هذه الآية لتبيّن أنّ اللّه تعالى صرف الصّغير عن الرّضاع من أيّة امرأة جلبوها لإرضاعه، وظلّ على هذا الحال حتّى دلّتهم أختُه على امرأة مؤهّلة تقوم بكفالته ورعايته لهم، مقابل أجر يعطونه لها، تمهيدًا لردّه إلى أمّه، كما وعدها اللّه تعالى عندما أمرها بإلقائه في اليمّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَرَّمۡنَا﴾: (حرم) "أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ والتَّشْديدُ، فالحَرامُ: ضِدُّ الحَلالِ"(1) و"الحرام: الممنوع إمّا بتسخير إلهي، وإمّا بشريّ، وإما بمنع قهريّ، وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشّرع، أو من جهة من يرتسم أمره، فقوله تعالى: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾، فذلك تحريم بتسخير، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72]، فهذا من جهة القهر بالمنع"(2).

2) ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾: (رضع) "أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ شُرْبُ اللَّبَنِ مِنَ الضَّرْعِ أَوِ الثَّدْيِ. تَقولُ: رَضِعَ المَوْلودُ يَرْضَعُ... ويُقالُ: امْرَأَةٌ مُرْضِعٌ، إذا كانَ لَها وَلَدٌ تُرْضِعُهُ. فَإِنْ وصَفْتَها بِإِرْضاعِها الوَلَدَ قُلْتَ: مُرْضِعَةٌ. قالَ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: 2]"(3)، "وسُمّيَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (حرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضع).

الثّنيّتان من الأسنان الرّاضِعَتَيْنِ، لاستعانة الصّبيّ بهما في الرّضع، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233][1]. والمراد في الآية: النّسوة اللاتي يأخذن على رضاع الصغار أجرًا، أو: الأثداء التي يتمّ الرضاع منها.

3) ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾: (دلّ) "أَصْلانِ: أَحَدُهُما إبانَةُ الشَّيْءِ بِأَمارَةٍ تَتَعَلَّمُها، والآخَرُ اضْطِرابٌ في الشَّيْءِ. فالأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: دَلَلْتُ فُلانًا عَلَى الطَّريقِ. والدَّليلُ: الأَمارَةُ في الشَّيْءِ. وهوَ بَيِّنُ الدَّلالَةِ والدِّلالَةِ"[2] و"الدّلالة: ما يُتَوَصَّلُ به إلى معرفة الشيء... سواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حيّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 14]"[3]، "ومن الدّلالة على الشّيء: الإرشاد إليه، ومنه: ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾"[4].

4) ﴿نَٰصِحُونَ﴾: (نصح) "أَصْلٌ يبدلُّ عَلَى مُلاءَمَةِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وإِصْلاحٍ لَهُما... ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خِلافُ الغِشِّ. ونَصَحْتُهُ أَنْصَحُهُ. وهوَ ناصِحُ الجَيْبِ لِمَثَلٍ، إذا وُصِفَ بِخُلوصِ العَمَلِ، والتَّوْبَةُ النَّصوحِ مِنْهُ، كَأَنَّها صَحيحَةٌ لَيْسَ فيها خَرْقٌ ولا ثُلْمَةٌ"[5]، و"النُّصْحُ: تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِه. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79]"[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جـوع وإعـراض ينتهي باقتراح يحلّ الأزمة

تُبَيِّنُ الآية الكريمة أنّ أخت موسى بعد أن أبصرته عن جُنُبٍ،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (رضع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (دل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصح).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (نصح).

ورأت امتناعه عن الرّضاع من النّسوة اللاتي جلبوهنّ لإرضاعه، وعلمت أنّهم مستمرّون في البحث عمّن يرضعه، حرصًا على حياته، قالت لهم بأسلوب مملوء بالإثارة والترغيب: هل أدلّكم على أهل بيت يقومون بإرضاعه ورعايته، ويتكفّلون بكلِّ ما ينفعه وما يحتاج إليه، ولا يقصِّرون فيما يعود عليه بالخير والمصلحة.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله تعالى:

إذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه

الواو في قوله ﴿وَحَرَّمۡنَا﴾، يُحْتَمَلُ أن تكون لعطف ما يليها على جملة: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ﴾ إذ الكلّ من محطّات نبأ موسى وفرعون ومن أحداثه، فهي تعطف حدثًا لاحقًا على حدث سابق، فتكون من عطف القصّة على القصّة. ويُحْتَمَلُ أن تكون استئنافيّة جيء بها للتّنبيه إلى سبب ردّ الرّضيع إلى أمّه، والأحداث التي مهّدت لذلك، وأسلَمَتْ إليه.

دلالة التعبير بالماضي ﴿وَحَرَّمۡنَا﴾:

الفعل والمنع لا يكون إلّا وفق ما قدّر الله في الأزل

التّعبير عن التّحريم بالفعل الماضي يشير إلى أنّه تحريم قديم، قضاه اللّه تعالى في الأزل، وكان من مقدّماته "أن جعل اللّه إرضاعه من أمّه مدّةً تعوّد فيها بثديها، يقوّيه التّعبير بالجارّ والمجرور في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ المُؤْذِن بأنّ ذلك التّحريم ممّا تعلّق به علم اللّه وإرادته في الأزل"(1)، كما سيأتي بيانه.

لطيفة إسناد التحريم إلى نون العظمة:

مخالفة المعتاد تـؤذنُ بتميّز المخالِف

أُسند فعل التحريم إلى ضمير الحقّ سبحانه بصيغة التعظيم في قوله ﴿۞وَحَرَّمۡنَا﴾: للإشارة إلى أنّ ذلك ما كان ليحدث لولا ترتيب اللّه تعالى وتقديره، إذ ليس من العادة أن يمتنع الأطفال عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 25.

أثداء المرضعات، بدليل أنّ كثيرًا من النّسوة كُنّ يتّخذن الإرضاع مهنةً يتكسّبن منها، ولولا إقبال الأطفال على الرّضاع منهنّ لما كان لمهنتهنّ رواج، ولما كان لهنّ وجود، ما يدلُّ على أنّ امتناع موسى عن الرّضاع منهنّ أمر خارج عن المألوف خارق للعادة، وأنّه ما حدث إلّا لأمر قدّره الله بحكمته، وأراده للرضيع وأمه بعظمته.

نكتة تقديم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعول:

قد يكون الامتناع سببًا في الإثارة وموجبًا للعناية

قدّم النّظمُ الكريم الجارّ والمجرور: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعول: ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ للدّلالة على أنّ امتناعه عن المراضع كان أمرًا خاصًّا به، لم يشاركه فيه أحد من رُضّع ذلك الزمان، تكريمًا من الله تعالى له وصيانةً، ولإثارة حرصهم عليه، ودفعهم إلى جلب مزيد من المراضع، حتّى تأتي أخته، فتدلّهم على أمّه لترضعه، فيسرعوا في طلبها، وينزلوا على شرطها بأنّها لن ترعاه إلّا في بيتها.

دلالة التعبير بـ ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ جمعًا مُعرّفًا:

طيبُ الابتداء مُؤْذِنٌ بالاستمرار إذا أراد الله

﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾: جمع مُرضِع بضمّ الميم وكسر الضّاد، وهي: المرأة التي تُرضع، أو جمع مَرضع بفتح الميم على أنّه مصدر ميميّ، بمعنى: الرَّضاع، وجُمع لتعدّد مرّاته، أو اسم مكان، أي: موضع الرّضاع، وهو: الثّدي، واللّام فيه للجنس.

وفي التعبير به جمعًا معرّفًا بـ (أل) التي للجنس دلالة على أنّ الصّغير رفض كلّ المرضعات اللاتي جيء بهنّ لإرضاعه، سواء كنّ منفردات أو مجتمعات، ولم يَطعم حليب واحدة منهنّ، فضلًا عن أنّه لم يلتقم ثديًا غير ثدي أمه، حتّى أعاده الله تعالى إليها.

فائدة تقييد التحريم بالجارّ والمجرور: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

أزلية التحريم تدل على حكمة الله تعالى وحسن تدبيره

﴿مِن﴾ حرف جَرٍّ يفيد الابتداء، و﴿قَبۡلُ﴾ ظرف مبني على الضَّمِّ في محل جَرٍّ، وكلاهما في محل نصب حال من: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا﴾، والمعنى: حرمنا عليه المراضع من قبل قصّ أخته أو إبصارها، أو

من قبل وروده على من هو عندهم، أو من قبل ذلك، أي: من أوّل أمره[1]. وتقييد فعل التحريم بالجارِّ والمجرور: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يدلُّ على قِدَم هذا التحريم، وأنّه ممّا تعلق به علم الله تعالى وإرادته في الأزل، يقوّيه حذفُ ما أُضيف إليه الظّرف: ﴿قَبۡلُ﴾، فلم يُقَل: (من قبل مجيء أمه) أو (من قبل قصّ أخته أو إبصارها) أو (من قبل ولادته)[2] أو غير ذلك، للإيذان بأزليَّةِ التحريم وشمولِ القَبْليّة كلَّ ما ذُكر وغيرَه.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَقَالَتۡ﴾:

من حكمة المؤمن اغتنامُه ما يلوحُ من فرص

الفاء في جملة: ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ هي الفصيحة، التي تُؤْذِنُ بجُملة مقدّرة، والمعنى: فأظهرت أخته نفسها كأنّها مرّتْ بهم عن غير قصد، فقالت: هل أدلّكم... و"ذلك بعد أن فشا في النّاس طلب المراضع له، وتبديل مرضعة عقب أخرى، حتّى عُرض على عدد كثير في حصّة قصيرة، وذلك بسرعة مَقْدِرة آل فرعون، وكثرة تفتيشهم على المراضع، حتّى ألْفَوا عددًا كثيرًا في زمن يسير. وأيضًا لعرض المراضع أنفسهنّ على آل فرعون لمّا شاع أنهم يتطلّبون مرضعًا"[3].

دلالة الاستفهام في: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾:

رُبّ كلمةٍ تدفع بلوى، وأخرى تجرُّ بلايا

في جملة القول آثرت أختُ موسى التعبير عن اقتراحها بأسلوب الاستفهام المستعمل بغرض العرض والتّحضيض؛ تلطّفًا مع آل فرعون، وإبعادًا للظِّنّة عن نفسها[4]، ولو قالت: (أنا أعرف أهل بيت يكفلونه لكم)، لظنّوا أنّها منهم، أو أنّهم دفعوها لفعل ذلك، وأنّ ثمّة صلةً بينهم وبين الرضيع، وأنّها جاءت تسعى خلفه، وأنّه ألقي في اليمّ لقصد معيّن، لكنّها سلكت مسلك الاستفهام؛ لأنّه يفيد رجوع

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 290.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 198.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 25.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 25.

الأمر إلى إرادتهم ورغبتهم، ويؤكّد أنّها ليست ذات مَأْرَبٍ ولا هدف من وراء ما تقترح.

دلالة التعبير بالفعل: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ مضارعًا:

حسن العرض من أسباب إقناع المخاطب

التعبير بالفعل: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ الموضوع للإبانة والبيان المصحوب بالدّليل يعني: أنّها تعرف من رشّحتهم لرعاية الرّضيع معرفة جيّدةً، وأنّهم أصحاب خبرة طويلة في مجال إرضاع الصغار والقيام على أمورهم، وأنّهم مُجَرَّبون في ذلك كثيرًا، وأنّ الرُّضّع يُقبِلون عليهم، ويطمئنّون إليهم، وعبّرت بفعل الدلالة مضارعًا؛ للإشارة إلى أنّها على استعداد لفعل ذلك إذا وافقوا عليه واستحسنوه.

لطيفة التعبير بالأهل في ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾:

تربية الصغار ورعايتُهم عمل لا ينبغي أن يقوم به سوى المؤهلين

عبّرت أخت الرضيع بوصف: ﴿أَهْلِ﴾ دون (أمّ) أو (امرأة)؛ للإلماح إلى أنّها تُرَشِّحُ امرأةً مؤهّلةً لائقةً برعاية الملوك، جديرةً بالقيام على تربيتهم، وحسن تنشئتهم، كما أنّها تُعامل من ينزل بيتها ويحلّ بدارها معاملة الأهل[1] في المحبّة والرّحمة والحرص، بالإضافة إلى أنَّ جميع من في البيت يساعدونها في ذلك ويعينونها عليه، فهو بيت رعاية وكفالة ونصيحة.

موقع جملة: ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ ودلالتها:

التّعهّد والضّمان دافع إلى الثّقة والاطمئنان

جملة: ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ في محل جرّ صفة لـ: ﴿أَهْلِ﴾، جيء بها زيادة في الترغيب والإثارة إلى أن تكون أمّ موسى مرضعةَ الصغير، والقائمةَ على رعايته والعناية به، بطلب منهم.

وعبّرت أخت موسى بالفعل: ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ﴾ الموضوع للتّعهّد والضّمان[2]؛ للدّلالة على أنهم سيتعهّدون برضاعه ورعايته وتربيته وجميع مصالحه ويضمنونها، وآثرت التّعبير بفعل الكفالة دون

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أهل)، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 260.
(2) ابن فارس: مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ضمن).

الرّعاية، لما فيه من معنى التّعهّد والضّمان، الدّافع إلى اطمئنان آل فرعون، والمثير لهم كي يرسلوا في طلب أمّ موسى؛ لتقوم بإرضاع الصّغير والعناية به.

دلالة التعبير بفعل الكفالة مضارعًا:

الكفالة الحقّة تعني القيام بما تتطلّبه كل مرحلة

في التعبير بالفعل: ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ﴾ مضارعًا دلالة على أنّها ستكون كفالةً متجدّدةً منتظمةً، يتوفّر فيها كلّ ما يحتاج إليه الصّغير، ويتناسب مع المرحلة العمريّة التي يمرّ بها، وأنّها ستمتدّ إلى أن يكون يافعًا مستغنيًا عن الرّعاية والعناية.

لطيفة تقييد فعل الكفالة بالجارّ والمجرور: ﴿لَكُمۡ﴾:

أحسن الكفالة ما اطمأنّ طالبُها إلى من يقوم بها

اللام في: ﴿لَكُمۡ﴾ للاختصاص، والضمير فيه يعود إلى المخاطبين وهم آل فرعون، وفي تقييد فعل الكفالة بالجارّ والمجرور تنزيه لأمّ موسى وأهل بيتها، ودفع للظِّنّة والرّيب فيهم، والمعنى: أنّهم سيفعلون ذلك لأجلكم لا لأجلهم، لأنّهم ليسوا أصحاب مأربٍ فيه، وليس لهم غرض من ورائه. ويَحْتمِل أن تكون اللام فيه للتّعليل، بمعنى: أنّهم سيفعلون ذلك بناء على طلبكم، وسيكفونكم أمره وهمّه، ولن تقلقوا عليه معهم.

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها تزيد من ترغيب المخاطبين وإثارتهم إلى طلب أهل البيت المُقتَرح؛ ليقوموا برعاية الصّغير وتربيته.

دلالة تقديم الضمير: (هُمْ) على الخبر:

من عوامل إقناع المخاطب شعورُه بأنّ المرشح للمهمّة سيبذل أقصى ما عنده

قُدِّم المسند إليه: (هُمْ) على الخبر المشتق: ﴿نَٰصِحُونَ﴾، لتقوية نصحهم للرضيع وتأكيده، ما من شأنه أن يزيد اطمئنان المخاطبين إلى أنّ الرّضيع سيكون بين يدي أناس يقدّمون أحسن ما عندهم، ويبذلون أقصى ما لديهم في الرّعاية والاهتمام.

معنى (اللام) في: ﴿لَهُۥ﴾:

والـلام في: ﴿لَهُۥ﴾ حرف جرّ يفيد الاستحقاق[1]، والمعنى أنّهم سيقومون برعايته والاعتناء به؛ لأنّه يستحقّ، شأنه في ذلك شأن الصّغار المحتاجين إلى العناية والرّعاية بداهةً، وليس معناه أنّهم سيخصّونه بهما دون غيره من الرّضّع، لأن ذلك سيدفع المخاطبين إلى السّؤال عن أسرار هذا الاختصاص وأسبابه.

التّسوية في المعاملة أمر لا يثير حفيظة أحد ولا يدفع الناس إلى التّساؤل

نكتة تقديم الجارّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾ وسرّ تعليقه بالخبر:

قُدِّم ضمير الرّضيع، المجرور باللام في: ﴿لَهُۥ﴾ على الاسم المشتقّ الواقع خبرًا للمبتدأ: ﴿نَٰصِحُونَ﴾، لأنّ الرضيع محور العناية والاهتمام لدى المتكلِّم والمخاطَب، وسيكون كذلك لدى المرشّحة لإرضاعه أيضًا، "وتعليق الجارّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾ بـ: ﴿نَٰصِحُونَ﴾ ليس على معنى التّقييد، بل لأنّه حكاية الواقع، فالمعنى: أنّ النّصح من صفاتهم، وهو حاصل له كما يحصل لأمثاله، حسب سجيّتهم وطبيعتهم"[2].

مَنْ حسُنت سجاياه وطبيعته حسُنت رعايتُه وتربيتُه

دلالة التعبير بالنُّصح في الخبر: ﴿نَٰصِحُونَ﴾:

التّعبير في الخبر باسم الفاعل: ﴿نَٰصِحُونَ﴾، المشتقّ من الفعل: (نصح) الموضوع: لإخلاص العمل، وخلوّه من الغشّ بكلّ أشكاله؛ فيه دلالة على اتّصافهم بكمال الشّفقة والرّحمة وحسن التّربية وكمال الاهتمام، وغيرها من الصّفات المطلوب تحقّقها فيمن يقوم برعاية الرّضع وتأديبهم، والمعنى: "لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه، ولا يخونونكم فيه"[3].

كل إناء ينضح بما فيه

دلالة التعبير باسم الفاعل:

عدل النّظم عن التّعبير بالفعل (ينصحون) إلى الاسم المشتقّ

التّربية النّفسيّة والرّعاية العقليّة أهمّ وأصعب من التّغذية البدنيّة

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 25.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 198.

في: ﴿نَٰصِحُونَ﴾، الذي يفيد الدّوام، لتأكيد أنّ النّصح من سجاياهم، وممّا هو ثابت لهم، فلذلك لم يقل: (وينصحون له) كما قيل: ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾؛ لأنّ الكفالة أمر سهل، بخلاف العناية والنّصح[1]، الذي يحتاج المتلقّي إلى التّأكّد من تحققه فيهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّحريم والمنع:

التّحريم يعني المنع والتّشديد، والمنع يستعمل فيما يحول دون الوصول للشّيء

من النّاحية اللفظيّة، الأوّل مشتقّ من الثلاثيّ: (حرم)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ: (منع)، ومن النّاحية المعنويّة: الأوّل، يدلُّ على: المَنْعُ والتَّشْديدُ، ويستعمل في: الممنوع بتسخير إلهيّ، أو بشريّ، أو بمنع قهريّ، أو بمنع من جهة العقل أو من جهة الشّرع، أو من جهة من يرتسم أمره، كقوله: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾، و: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72][2]. أمّا المنع فيَصْدُقُ بالحَجْز دون الوصول إلى شيء، كما في قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: 63]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75][3].

الكفالة والرعاية:

الكفالة التزام نفس المكفول، والرعاية فعل الأسباب التي تصرف المكاره عنه

من النّاحية اللفظيّة، الأوّل مشتقّ من الثّلاثيّ: (كفل)، والثّاني مشتقّ من الثّلاثيّ: (رعى)، ومن النّاحية المعنوية: الأول يدلُّ على: التِزام نفس المَكْفول بِه، ومِنْه كَفَلْتُ الغُلام إذا ضَمَمْتَهُ إليك لتَعولَهُ، ولا تَقول: ضَمِنْتُه لِأَنَّك إذا طولِبت بِهِ لزِمَكَ تَسْليمُه ولا يلزمك تَسْليم شَيْء عَنهُ، وفي القُرْآن: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: 37]، ولم يقل ضَمَّنها[4]. والرِّعايَة: فِعلُ السَّبَب الَّذي يصرِفُ المَكارِهَ عَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 25.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (حرم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (منع).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 207.

الشيء، ومِنْ ثَمَّ يُقال: فلان يرْعَى العهود بَينه وبَين فلان، أَي يحفظ الأَسْباب الَّتي تبقى مَعها تِلْكَ العهود، ومِنْه راعي المَواشي لتفقُّدِه أمورَها، ونفي الأَسْباب الَّتي يخْشَى عَلَيْها الضّياع(1).

النصح والإخلاص:

من الناحية اللفظيّة، الأوّل مشتقّ من الثلاثيّ المجرّد: (نصح)، والثّاني مشتقّ من الثّلاثيّ المزيد: (أخلص)، ومن النّاحية المعنويّة: النّصح: يُعبَّر به عن العمل الخالي من الغشّ بأيّ شكل من الأشكال، أو الذي لم يُصِبْه شيء من الكَدَر أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾. أمّا الإخلاص: فيُعبَّر به عن العمل الخالص، أي الذي زال عنه شَوْبُه بعد أن كان فيه(2).

النصح يُعبَّر به عن العمل الرائق، والإخلاص ما زال عنه شَوْبُه بعد أن كان فيه

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 205.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خلص).

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ [القصص: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حرمان يؤدّي إلى تحقيق وعد الله

بعد أن بيّنت الآية السابقة أنّ أخت موسى عندما رأت امتناعه عن المراضع اللاتي أحضرهنّ آل فرعون؛ اقترحت أن تَدلَّهم على امرأة تقوم بإرضاعه، وتتعهّده بالعناية والرّعاية، وفعل كل ما يحقق له الخير والمصلحة، تأتي هذه الآية لتبيّن أنّهم سألوها عنها فدَلَّتهم على أمِّها، وأنّها تُرضع هارون الذي وُلد قبل عام من تلك الحادثة، فطلبوا منها أن تأتي بها، فانطلقَت إلى أُمِّها بأمرهم، فجاءتْ بها والصَّبيُّ على يدِ فرعونَ يُعلّله شفقةً عليه، وهو يبكي يطلُبُ الرَّضاعَ، فحينَ وجَدَ ريحَها استأنَسَ والتَقَم ثديَها، وبذلك ردّه الله تعالى إليها كما وعدها، وثَبَت في يقينها أنّه سيكون رسولًا، كما بشّرها بذلك ربّ العالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾: (ردّ) "أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، وهوَ رَجْعُ الشَّيْءِ. تَقولُ: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، وسُمّيَ المُرْتَدُّ لِأَنَّه رَدَّ نَفْسَهُ إلَى كُفْرِهِ"(1) و"الرَّدُّ: صرف الشّيء بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يقال: رَدَدْتُه فارْتَدَّ، ومن الرّدّ بالذّات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] وقوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، ومن الرّدّ إلى حالة كان عليها قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]"(2)، "وكلّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى: الرجوع والإرجاع"(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردّ).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ردّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ردّ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

حين يتحقّق وعد الله تقرُّ العيونُ، وتطمئنُّ الأفئدة

بعد أن زكّت أخت موسى أمّها لتقوم بإرضاع الصغير الذي امتنع عن كلّ المراضع اللاتي جئن لإرضاعه، طلبوا منها أن تأتي بها، فانطلقت إليها وأحضَرَتْها، فلمّا وجد الرضيع ريحها استأنس بها، والْتَقَم ثدْيَها، فطلبوا منها أن تبقى عندهم، فتعلّلت بأنّها لا تستطيع أن تغادر بيتها، وأظهرت الزّهد فيه دفعًا للتُّهَمَة، فرَضوا بذلك، وعادت به إلى بيتها، ليتحقّق وعْدُ اللّه تعالى بردِّه إليها "بهذا الضرب من اللطف؛ ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فيما كان وعدها من أنّه يردُّه إليها، ولقد كانت عالمةً بذلك، ولكن ليس الخبر كالعيان، فتحقّقت بوجود الموعود ولَكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾:

إسناد الأمور إلى أهلها عمل لا يَحْتمِل التأخير

الفاء في جملة: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ هي الفصيحة، التي تُؤْذِن بكلام محذوف لدلالة السياق عليه، إذ المعنى: فسألوها عن أهل هذا البيت، فدلّتهم على أمّها، فطلبوا منها أن تأتي بها ففعلت، فالتقم الرضيع ثديها بعد أن استأنس بها، وبذلك رددناه إليها.

ويمكن أن تكون فاءَ التفريع الدالّة على أنّ ردّ الرضيع إلى أمّه مفرَّعٌ عمّا قالته ابنتها لآل فرعون ومترتّب عليه، ما يعني: أنّهم أسرعوا في طلبها بعد أن اطمأنوا إلى أهليَّتِها لتربيته والنصح له، حين زكّتها أخته لهم.

لطيفة إسناد فعل الرّدِّ إلى ضمير العظمة:

إذا قضى الله شيئًا فلا رادَّ لقضائه، ولا مانع لما أراد

أسند النظم الكريم فعل الرّدّ إلى ضمير الحق سبحانه بصيغة التعظيم، في قوله: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الرد ما كان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 198.

ليحصل لولا قدرةُ اللّه التي لا تدانيها قدرة، وإرادتُه التي لا يحول دونها أحد كائنًا من كان، إذ كان من الممكن - حسب التصوُّرِ البشريّ - أن يحول دون ردّ الرضيع إلى أمّه "ما ظهر من القرائن التي تكاد تقطع بأنّه من بني إسرائيل، ومنها: إلقاؤه في البحر على تلك الصفة، وأنّ المدلول عليها لإرضاعه من بني إسرائيل، وأنه قبل ثديها دون غيرها من القبط وغيرهم"[1]، لكنّه حصل بحول اللّه تعالى وقوته.

معنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ في القيد: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾:

﴿إِلَىٰٓ﴾ حرف جَرٍّ يفيد انتهاء الغاية المكانية أو الزمانية، وفيه دلالة على أنّ ردّه تمّ إليها، وعودته كانت إلى بيتها، كما وعدها اللّه تعالى عندما أمرها بإلقائه في اليمّ.

براعة التعبير في قوله ﴿أُمِّهِۦ﴾:

مشاعر الأمومة من الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها

كان مقتضى الظاهر أن يقال: (فرددناه إليها كي..)، لكنّ النظم الكريم عدل عن ضميرها إلى التعبير بوصف الأمومة مضافًا إلى ضمير الرضيع قائلا: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، رحمةً بها، وتقديرًا للمشاعر التي اختلطت بداخلها، وأفرغت فؤادها، وللإلماح إلى أنّ الأحوال التي تقلّبت فيها ما حصلت إلّا لكونها أمًّا ألقت في اليمّ رضيعًا، لا يملك لنفسه حولًا ولاقوّةً. كما أنّه في أشدّ الحاجة إليها، ولا يمكنه الاستغناء عنها، وهو اعتبارٌ مقدّرٌ عند اللّه سبحانه، لأنّه من الفطرة التي فَطَر الناس عليها.

سر فصل جملة: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾:

تعليم المؤمنين الثقة في وعود رب العالمين

جاءت جملة ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ مفصولة عما قبلها، لأنّها تجيب عن سؤال أثارته الجملة السابقة عن السّرِّ في ردّ الرضيع إلى أمّه، ومن ثَمّ فصلت عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، فيما يُسمَّى: الاستئنافَ

(1) البقاعي: نظم الدرر: 5/ 469.

البيانيَّ، أو شبه كمال الاتصال، الذي يبين هنا مدى رحمة الله تعالى بأمّ موسى، وتقديره لأمومتها، وحرصه على كمال دينها، وتعليمًا لها ولغيرها من المؤمنين ضرورة الثقة في وعود ربّ العالمين.

دلالة التعبير بالقرار في الفعل ﴿تَقَرَّ﴾:

في التعبير بالفعل: ﴿تَقَرَّ﴾ المسند إلى عين أمّ موسى دلالة على كثرة نظرها إلى الرضيع، وشدّة فرحها بعودته إليها، وفي التعبير به مضارعًا دلالة على تجدّد هذا النّظر وكثرته.

بلاغة الكناية في ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾:

استقرار العين دليل على شدّة الفرح

التعبير بجملة: ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ كناية عن سعادة أمّ موسى برضيعها، وشدّة فرحها بعودته إليها، وهدوئها واطمئنانها بوجوده في بيتها، وإذا كانت الكناية تفيد المعنى مصحوبًا بالدّليل، فإنّ دليل ذلك أنّ عينيها لا تَمَلّان النظر إليه، والاستمتاع بمشاهدة شكله وحركاته ونظراته وسماع أصواته، لأنّ العين لا تستقرّ إلّا على ما يبهج النفس ويطمئن القلب. "وقيل معناه: تستقرّ عينها عن الطرْف في تطلّبه إلى كلّ جهة، وتنام بإرضاعه وكفالته في بيتها، آمنة لا تخاف، لأنها رأت ما كانت متشوّقة إليه"[1].

بلاغة المجاز في إسناد فعل القرار إلى العين:

استقرار العين دالٌّ على استقرار البدن أو سببٌ فيه

في إسناد فعل القرار إلى عين أم موسى مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبّر البيان عنها بالعين؛ لأنّه الجزء الذي له مزيد اختصاص بفعل القرار، لكنّ المقصود أعمّ وأشمل من استقرار العين، إذ المعنى: لكي تَقَرَّ عينها، ويهدأ فؤادها، ويطمئنّ قلبها، وينشرح صدرها، ويستريح بدنها بعودته إليها، ووجوده إلى جوارها في ليلها ونهارها. ويمكن أن تكون علاقة المجاز هي السببيّة، ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 470.

يعني أنّه عبّر بالسّبب وأراد المسبَّب، ومعناه: أنّ استقرار العين سبب في استقرار البدن وهدوء صاحبه.

دلالة الإضافة في ﴿عَيْنُهَا﴾:

في إضافة العين إلى ضمير أمّ موسى ما يُشعِر بأنّ ردّ الصغير إليها كان رعايةً لمشاعرها، وتقديرًا لأمومتها، ولطفًا من اللّه تعالى بها في المقام الأول، يقوّي ذلك المعنى تقديم قرار العين على غيره من أسباب ردّ الرضيع إليها، كما سيأتي توضيحه.

اللطفُ بالأمهات اعتبارٌ مقدّرٌ عند الله تعالى

معنى (الواو) في جملة ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾:

جملة: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي السّبب الثاني من أسباب ردّ الرضيع إلى أمّه، والواو فيها لعطف الحزن المنفي على جملة: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، ليحصل بهما نوع من الراحة البدنيّة المتمثلة في استقرار العين، والراحة النفسية المتمثّلة في انتفاء الحزن بسبب فراقه، وعودة السعادة إليها بسبب ردّه، فتبلغ الراحة قمتها، وتصل السعادة ذروتها، إذ من البدهيّ أنّ الاطمئنان على حياته دون عودته إليها يُبقي النفس ملتاعةً، والقلب فارغًا طيلةَ مدَّةِ بُعْدِه عنها وبعدها عنه، ما يعني أن الإنعام سيكون مَشوبًا بكَدَرٍ.

تخليص النعمة من أي كدر يشوبها

دلالة نفي المضارع بالحرف: (لا):

في جملة: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أوثِر نفيُ مضارع الحزن بالحرف: (لا)؛ لأنّه يدلُّ بمعناه وبنائه المختوم بحرف المدّ على انتفاء تجدّد الحزن، وعدم حصوله مرّةً ثانيةً، ما يعني أنّ عودة موسى إلى أمّه ستكون عودةً أبديّة، لا فراق بعدها، ولا حزن معها.

من تمام النّعمة ألّا يأتي بعدها حزن أبدًا

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، جيء بها لبيان أنّ السّبب الثّالث من أسباب ردّ موسى إلى أمّه أن تتعلّم درسًا إيمانيًّا في غاية الأهمّية، وهو الثقة في وعد اللّه

وعدُ الله لا يتخلّف مهما كانت قتامة الأحداث

تعالى، واليقين بأنّه حقّ لا يتأخّر ولا يتخلّف، وألّا ينتابها شكّ فيه مهما كانت ضخامة الأحداث المحيطة، ومهما كانت قَتامَتُها.

معنى اللام في: ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾:

في ذكر حرف التعليل مع إمكان الاستغناء عنه شِدَّةُ اعتناءٍ بالسبب

اللام في جملة: ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾ هي لام التّعليل، أوثر التعبير بها مع إمكان الاكتفاء بـ ﴿كَيۡ﴾؛ لشدّة العناية بهذا السّبب وبيان مدى أهمّيته في جملة الأسباب المذكورة، وقد عدّه بعضهم الغرض الأصليّ لردّ الرضيع إلى أمّه، بسبب التعبير بحرف التعليل مع إمكان الاستغناء عنه بالأوّل[1].

دلالة التعبير بالعلم في: ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾:

الثقة في وعد الله تعالى لا بدّ أن تصل إلى حدّ اليقين الذي لا شكّ معه

في التعبير بمفردة العلم الموضوع لإدراك حقيقة الشّيء[2] دلالة على أنّ القصد من ردّ موسى إلى أمه: أن يثبت علمها ويتمكّن[3]، بأن تعلم عين اليقين، وتتأكّد بالدليل من أنّ الله تعالى إذا وعد بشيء فإنّ وعده آتٍ لا محالة، وأنّه لا ينبغي للإنسان أن يجزع أو يرتاب، وما من شكٍّ في أنّ أمّ موسى كانت تعلم أنّ وعد الله حقّ، ما يجعل القصد من التعبير بالعلم هو: أن تنتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن علم الغيب إلى علم الشهادة[4].

موقع جملة: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾:

جملة: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ في محل نصب سدّتْ مسدّ مفعولي: ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾، ما يعني: أنّ المقصود أن تعلمه وتتأكّد منه هو مضمون هذه الجملة، وهو أنّ ما وعدها الله تعالى به من ردّ ابنها إليها وجعله من المرسلين حقٌّ لا ريب فيه، ولا يمكن أن يتبدّل أو يتغيّر.

---

(1) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 12/ 22.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (علم).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 396.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 470.

دلالة التعبير بالوعد مضافًا إلى اسم الجلالة:

لا أحدَ أوْفَى بعهده من الله تعالى

المراد بالوعد في قوله ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ ما وعد اللّه تعالى به أمّ موسى عندما أمرها بإلقاء رضيعها في اليمّ، من ردّه إليها، وجعله من المرسلين، وفي إضافته إلى اسم الجلالة العَلَم: ﴿ٱللَّهِ﴾، تفخيم لهذا الوعد وتعظيم له، ودلالة على تأكّد حصوله، وزيادة تطمين إلى إتمامه؛ لما توحي به الإضافة من أنّ اللّه تعالى قد تعهّد به، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: 111]؟!.

دلالة الإخبار بالمصدر ﴿حَقٌّ﴾ وتنكيره:

لا يستطيع الباطل مهما كانت سطوته منع حصول الحق

التعبير عن المسند بالمصدر: ﴿حَقٌّ﴾ الذي يعني: الثابت الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، ويعني أيضًا: نقيض الباطل[1]، يدلُّ على أنّ ما يَعِدُ اللّه تعالى به حاصلٌ بصورة مؤكّدة، لأنّه الحقّ وما سواه هو الباطل، وأنّ الظلم مهما كانت قوّته وسطوته لا يستطيع أن يَحولَ دون حصول الحقّ، أو يتسبّب في عدم وقوعه. ومَجيؤُه منكّرًا ليفيد معنى التّعظيم لهذا الوعد الإلهيّ.

سر تقديم جملة: ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾:

قرار العين وطمأنينة النفس يؤدّيان إلى حصول العلم

قدّم النظمُ الكريم جملة: ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ على جملة: ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ رعايةً لحال أمّ موسى، ولطفًا من اللّه تعالى بها، كما سبق ذكره. ولأنّ قرارَ عينها، واطمئنان قلبها، وانشراح صدرها مُؤَدٍّ إلى أن تعلم علْمَ اليقين أنّ وعد اللّه حقٌّ لا ريب فيه ولا شكّ، ما يعني أنّ اللّه تعالى هيّأ لعلمها ذلك الأسبابَ التي تعين عليه، وتؤدّي إلى حصوله، إذ ما من شكّ في أنّ فراغَ الفؤاد وطَيَشانَ العقل المبرهِنَ عليهما زيْغُ البصر لا يساعد في حصول العلم بأيّ شكل من الأشكال، وبأيّة صورة من الصور.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

معنى (الواو) ومرجع الضمير في ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

الواو في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها لبيان حال الناس في العلم بحقيقة وعد اللّه، ومدى يقينهم في حصوله، وارتيابهم في التسليم به، لا سيّما إذا أحاطت بهم المخاطر.

أعان الله من عاش في زمن يتفشّى فيه الجهل ويندر الإيمان

والضمير في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائد إلى النّاس في زمان أمّ موسى كما يفهم من السياق، والمراد بهم: قوم فرعون وبنو إسرائيل؛ "لأنّهم كانوا بين مشركين وبين مؤمنين، تقادم العهد على إيمانهم، وخلت أقوامهم من علماء يلقنونهم معاني الدين، فأصبح إيمانهم قريبًا من الكفر"[1].

دلالة التعبير باسم التفضيل: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

التعبير باسم التفضيل يدلُّ على أنّ السمة العامّة الغالبة في ذلك الزمان هي الكفر باللّه، وقلّة العلم به، ويستثنى من ذلك فئة قليلة جدًّا، منهم أمّ موسى التي كانت تعلم أنّ وعدَ اللّه حقُّ علمَ اليقين، لكنّها بعد ردّ ابنها إليها صارت تعلمه عين اليقين.

أكثر الناس عند تحقّق الأخطار مرتابون في وعد الله

بلاغة المقابلة بين ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾، و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

بين قوله تعالى: ﴿وَلِتَعۡلَمَ﴾، وقوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مقابلة معنيين بمعنيين، ومن بلاغتها أنّها تبيّن أن اللّه تعالى رَدَّ إلى أمّ موسى ولدها لتزدادَ يقينًا بأنّ وعد اللّه حقٌّ، وتمتازَ عن غيرها من بني قومها ومن آل فرعون الذين لا يعلمون هذا ولا يعرفونه، لا علم اليقين ولا عين اليقين. وفيها امتداحُ لأمِّ موسى وإظهار لما فضّلها اللّه تعالى به عن الناس في عصرها، إذ بضدّها تتميّز الأشياء.

يتفاضل الناس في الإيمان بالله تعالى والثقة في وعوده

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الأمّ والوالدة:

تطلق الأمّ على: الوالدة القريبة التي ولدت، والبعيدة التي ولدت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 26.

الأمّ المرأة التي ولدت والتي لم تلد، والوالدة المرأة التي ولدت فقط

من ولدت، ولهذا قيل لحوّاء: هي أمّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط. ويقال لكلّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ، قال الخليل: كلّ شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى أمًّا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: 4][1]. والمرأة قد يقال لها أمّ، وإن لم تلد، ولا يقال لها والدة إلّا إذا ولدت، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233].

(قرّ) و(سكن):

قرار العين سرورها، وسكون النفس طمأنينتها، والأوّل أخصّ والثاني أعمّ

قرار العين يعني: سكونها وتوجّهها بالنظر إلى شيء محدّد، وأصله من القُرِّ، أي: البرد، فَقَرَّتْ عينه، معناه: بردت فصحّت، وقيل: لأنّ للسّرور دمعةً باردةً قارَّةً، وللحزن دمعة حارّة، وكل "قرّة عين" هو من برودة العين عند السرور، أو من استقرارها وعدم تطلّعها إلى غير ما ترى لرضاها به، والتعبير كناية عن سرور النفس وسعادتها، ورضاها بما بين يديها. أمّا السُّكونُ فهو: ثبوت الشّيء بعد تحرّكه[2] وسكون النفس كناية عن: الهدوء بعد القلق، والرضا بعد الغضب، والفرح بعد الحزن، واستقرار البصر بعد زَيْغِه، وهو أعمُّ وأوسع من قرار العين، كما أنّ قرار العين يمكن أن يكون دليلًا على سكون النفس وطمأنينتها.

الحزن والاغتمام:

الحزن شعور يحصل بسبب مكروه وقع، والاغتمام يحصل مع تتابع البلوى

من الناحية اللفظيّة: الأوّل مشتقّ من الفعل الثلاثيّ: (حزن)، والثاني مشتقّ من الثلاثيّ المزيد: (اغتمّ)، ومن الناحية المعنويّة: الحزن: ألمٌ يعتري النفسَ الإنسانيّة بسبب مكروه وقع، قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: 92]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، وهو لا يحصل باختيار الإنسان، ولكن يأتي على الرغم منه[3].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أم).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (سكن).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (حزن).

أمّا الاغتمام: فهو مأخوذ من الغمّ، الذي يعني: ستر الشيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا ضوء الشمس. قال تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210][1]، وهو أشدّ من الحزن إلّا أنّه لا يحصل إلا مع تتابع المصائب وكثرة البلوى، قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: 153].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (غم).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتمامُ الوعدِ الصّادق لأمِّ موسى عليه السلام

لمّا ذكر اللّه سبحانه وعدَهُ الصّادقَ لأمِّ موسى بردِّه إليها وجعْلِه من المرسلين، وانتهى السّياقُ من حكاية ردِّ موسى إلى أمِّه؛ كمَّل ما فيه وفاءَ وعدِ اللّه إيّاها بهذا الاستطراد[1]، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَغَ﴾: (بلغ) أَصلٌ واحدٌ وهوَ الوُصولُ إلَى الشَّيْءِ، وبَلغَ الشَّيءُ يَبلُغُ بُلوغًا وبَلاغًا؛ إذا وصَلَ، وانْتَهى، وهو الوصول إلى الشَّيء، تقول: بَلَغْتُ المكان؛ إذا وصلت إليه، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ به من عيش، وكذلك البَلاغَةُ الَّتي يُمدح بها الفصيح اللِّسان؛ لأنَّه يَبْلُغُ بها ما يريده، ولي في هذا بَلاغٌ، أَيْ: كِفايَةٌ[2]، فتجتمع هذه الأمثلةُ في وصول الشَّيء إلى غاية له: مكان أو شيء أو مدى مقصود[3]، والمرادُ في الآيَةِ: وصولُ موسى عليه السلام إلى سنِّ الأشُدِّ، وما يتبعها من قوَّة الجسم والعقل.

2) ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: (شدّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ، وفُروعُه تَرْجِعُ إِلَيْهِ[4]، والشِّدَّة: الصَّلابة، وهي ضِدُّ اللين[5]، والشَّدُّ: التَّقوية[6]، يقال: شَدَّ الشَّيءَ يَشُدُّه شدًّا: أوثقه وقوّاه[7]، (وبلغ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 87.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلغ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).

أشُدَّه): هو جمع شِدَّة، وهي القوَّة والجَلَدُ في البَدَنِ والعَقلِ، وبلوغه الحِنْكَةَ والمعرِفَة[1].

3) ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾: (سوي) أصل واحد يَدُلُّ على استقامة واعتدالٍ بين شيئين، يقال: هذا لا يساوي كذا، أي: لا يعادله، وفلان وفلان على سويَّة من هذا الأمر، أي: سواء[2]، وقولهم: استوى الشَّيءُ؛ إذا اعتدل، واستوى الرَّجل؛ إذا انتهى شبابه[3]، والاستواء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، هو كمال البنية، كقوله تعالى في وصف الزرع: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][4]، والمقصود بالآية: الاعتدالُ والاستقامة وتمام الخَلق والقوة.

4) ﴿حُكۡمٗا﴾: (حكم) أصل واحد: هو المَنْعُ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ بذلك؛ لأنَّها تمنعها من الاضطراب، والحِكْمَةُ هذا قياسها؛ لأنَّها تمنع من الجهل[5]، والحُكْم أعمُّ من الحِكْمَة، فكلُّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ، وليس كلُّ حُكْم حِكْمَةً، فإنَّ الحَكِيم لَهُ أَنْ يَقْضيَ على شَيءٍ بِشَيْءٍ، فيقولُ: هوَ كَذا، وَلَيْس بِكَذا[6]، ولهذا العموم قيل في معنى الحُكم في الآية: الحِكْمة، والنُّبوَّة، والعِلم والمعرفة بأمر الدّين، وما يقع به الحُكم بين الخُصوم[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لَمّا بَلَغَ موسى ﵇ أَشُدَّهُ ومبلغَهُ الذي لا يزيد عليه نشؤُهُ، وعظمت قوَّته، وتكامل عقله؛ آتيناه حُكمًا وعلمًا يَعرِف بهما الأحكام

هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(3) الجوهري، الصّحاح، والزبيدي، تاج العروس: (سوي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 87.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(6) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 288.

الشرعيَّة، وكما جزينا موسى ﵇ على طاعته وإحسانه؛ نجزي مَن أحسن مِن عبادنا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في الآية:

عطفُ أجزاء قصة موسى ﵇ بعضها على بعض

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّه من عطف جزء القصَّة على جزء القصَّة، والجهةُ الجامعة بينهما: الكلام على محور القصَّة، وهي قصَّة موسى ﵇، فبعد أن ذكر قصَّة عناية اللّه به في صغره؛ أردفها قصَّة عنايته به في كبره.

بلاغةُ تعليقِ التَّركيب بـ(لَمّا) الحينية:

إيتاءُ موسى العلمَ والحُكم في سنِّ الاستواء والأشُدِّ

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ بـ(لمّا) الحينية، وهي ظَرفٌ بمعنى حينَ، وتُفيدُ الشَّرطَ[2]، وتأتي في سياقِ الزَّمان الماضي، وهي مع إفادَتِها الحينَ تُلمِحُ إلى التَّعليلِ في بناءِ الجَزاءِ على الشَّرطِ، فالتَّعبير بها هنا أفاد الإيذان بتقضّي الوقت، وطَيِّ الكلام على ما قبلَ بلوغ أشُدِّه إلى ما هو أهمُّ، وكذلك أشعرَ بترتُّب ما يُذكر بعدُ على هذا الأمر، ولبيان تعلُّق وقت حصول إيتاءِ اللّه لموسى حُكمًا وعلمًا، على وقت حصول بلوغ أشُدِّه واستوائه، وللتنبيه على أنَّ جملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ مترتِّبةٌ على جملة الشَّرط، وأنَّها جواب لها.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾:

إرسالُ المرسلين باستكمال سنِّ الأشُدِّ الأربعين

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ استعمالُ لفظ (الأَشُدّ)، وهو جمع شِدَّةٍ كنِعْمَةٍ وأَنْعُمٍ، وهي - أي: شِدَّة - اسم هيئة بمعنى:

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 20/ 87.

القوَّة، ثم عومِل - أي: الجمع - معاملةَ المفرد[1]، وقيل: الأَشُدُّ جمع شَدٍّ، وقيل: هو اسم مفرد، وليس بجمع، ومعناه: بلوغُ القوَّة والجَلَد في البدن والعقل بما لا مزيد عليه، وذلك من ثلاثين إلى أربعين، فإنَّ العقلَ يكملُ حينئذٍ[2].

فائدةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾:

الأَشُدُّ كمال القوَّة الجسمانية البدنيَّة، والاستواء كمالُ القوة العقليَّة

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ عطْفُ الاستواءِ على بلوغ الأشدِّ، والعطفُ يقتضي المغايرة في الأصل، فيكون الاستواءُ غيرَ بلوغ الأشُدِّ، وقد اختلف العلماء في تلمُّس الفرق بينهما: فقيل - وهو الأقرب -: إنَّ الأشُدَّ عبارةٌ عن كمال القوَّة الجسمانية البدنيَّة، والاستواءَ عبارةٌ عن كمال القوة العقلية، وقيل: إنَّ الأشُدَّ عبارةٌ عن كمال القوَّة، والاستواءَ عبارةٌ عن كمال البِنية والخِلقة، وقيل: إنَّ الأشدَّ عبارةٌ عن البلوغ، والاستواءَ عبارةٌ عن كمال الخِلقة[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

مطلقُ الإنعامِ على الأنبياء الكرام

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ التعبيرُ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ للدَّلالة على مطلق الإنعام على الأنبياء الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام، فالإيتاءُ دالٌّ على المجيء بيُسر وسهولة[4]، فإيتاءُ اللّٰه سبحانه لنبيِّه موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ما آتاهم من النبوَّة والرسالة إنَّما هو على سبيل الامتنان والفضل من غير اكتساب منهم أصلًا[5].

نكتةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العظمة:

عطاءُ العظيم عظيمٌ يناسب قدره

أُسنِدَ فعلُ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 87.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 6.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 583.
(4) الراغب، المفردات: (أتى).
(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 03/ 87.

ضمير (نا)؛ للدَّلالة على عظمة المؤتي ﷻ، فعطاءُ العظيم عظيمٌ يليق بقدره، وفيه أيضًا تعظيمٌ لقدر النُّبوَّة والعلم الذي يهبهُ اللّه ﷻ لمن اصطفى من عباده.

بلاغةُ جزاء الشَّرط في الآية:

إيتاءُ العلم والنبوَّة بعد استكمال القوَّة

جاءت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ جوابًا للشرط المذكور في أوَّل الآية في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ إيتاء العلم، والعمل بمقتضى ذلك العلم، إنَّما يكون بعد البلوغ واستكمال القوى البدنيَّة والعقلية، وما قبله في زمان عدم التَّكليف، فإنَّه فيه معدومٌ إلّا في النّادر[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالحكم في ﴿حُكۡمٗا﴾:

منعُ الحكمة صاحبَها من الزلل في القول والعمل

ورد في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ لفظ ﴿حُكۡمٗا﴾، وقد اختلف المفسِّرون في تحديد معنى الحُكم على أقوال: فقيل: حُكْمًا، أي: حِكمة، والمرادُ بها ما يجب فعلُه، أو نبوَّة فإنَّ النَّبيَّ حاكم على أمَّته[2]، وقد حاول بعضُ العلماء التَّرجيح بدلالة اللُّغة، فقال: إنَّ أصل الحُكْم في اللغة: المنعُ، وأصله من الحَكَمَةِ التي توضَع في حنك الفَرَس، ومن ذلك الحِكْمةُ، وهي وضْعُ الشَّيء في موضعه، ومنه الحُكْم، وهو: وضع الحقِّ في مَوْضعه بين المتخاصمين[3]، والحُكْمُ أعمُّ من الحِكْمَة، فكلُّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ، وليس كلُّ حُكْم حِكْمَةً، فإنَّ الحَكيم لَهُ أَنْ يَقْضيَ على شَيءٍ بِشَيْءٍ، فيقولُ: هوَ كَذا، ولَيْس بِكَذا[4]، ولهذا العموم قيل في معنى الحُكم: الحِكْمة، والنُّبوَّة، والعِلم والمعرفة بأمر الدّين وما يقع به الحُكم بين الخُصوم[5].

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 03/ 46.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 288، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 69.
(3) الشنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 743، والشّعراويّ، التّفسير: 13/ 9594.
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 288.

بلاغةُ تقديم الحكم على العلمِ:

العلمُ النّافعُ هو العلم المُؤَيَّدُ بالعمل

عطفَ النَّظمُ الكريم العلمَ على الحُكمِ، في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، والعطف يقتضي المغايرةَ بينهما، فيستفاد من ذلك أن ليس كلُّ حكيم عالمًا وليس كلُّ عالمٍ حكيمًا، وقد جمعَ اللّه لأنبيائه بينهما، فالحكمة هي النبوَّة، والعلم هو العلمُ "بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه، فلا يقول، ولا يفعل ما يستجهل فيه، وهو أوفقُ لنظم القصَّة؛ لأنَّه تعالى استنبأَهُ بعد الهجرة في المراجعة"[1].

وذكرَ بعضُ العلماءِ في علَّةِ هذا العطف: أنَّ العلم أن تُحقِّق، وتَعرِف، وأمّا الحكمُ؛ فسلوكٌ وتطبيق لما تَعلم، فالعِلمُ تحقيقٌ والحُكم تطبيقٌ[2]، ولكنْ يُشكل على هذا الكلام ذِكْرُ الحكم أوَّلًا والعلم ثانيًا، ولهذا فالقول: إنَّ الحكم هو النُّبوَّة، والعلم هو علم الشَّريعة الَّذي يختصُّ اللّه بعلمه الأنبياء عليهم السلام أوفقُ للتَّرتيب[3]، فيَصطفي اللّه من شاء بالنُّبوَّة، ثم يفتح عليه من علم الشريعة ما يحتاجه النّاس في عبادتهم.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿حُكۡمٗا﴾ و﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾:

إيتاءُ اللهِ نبيَّهُ موسى عليه السلام حُكمًا وعلمًا عظيمًا

وَرَدَ لَفظا ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ نكرتين، والنُّكتة البلاغيَّة في ذلك أنَّ التَّنكير يدلُّ على الإبهام، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ مَن أراد أن يعظِّم شيئًا أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ، فقد آتى اللّه عز وجل نبيَّهُ موسى عليه السلام حُكمًا وعلمًا عظيمين لا يكتنه كنههما، ولا يُقادر قدرهما، فهما من جملة ما اختصَّ اللّه تعالى به نبيَّه موسى عليه السلام عند تكامل قواه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 6.
(2) الشعراويّ، التفسير: 13/ 9594.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

ويجوز أن يكون تنكيرُ ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ للنَّوع، أي: نوعًا خاصًّا من الحكم والعلم، فالحُكم هو النبوَّة، والعلم هو علم الشَّريعة الَّذي يختصُّ اللّه بعلمه الأنبياء عليهم السلام[1].

فائدةُ العطفِ بالواو في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

سنَّةُ الله الكريم في جزاء عباده المحسنين

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّه خرجَ مخرجَ التَّذييل لما سبق، وفائدة التَّذييلِ غالبًا توكيدُ المذيَّل، وإبراز حكمه في صورة كلّيَّة[2]، والتَّقدير: (أنَّ جزاء المحسنين من شأننا أن نفعل أمثالَهُ، فليس ذلك ببدعٍ منّا، وأنَّه سنَّةٌ من سُنَنِ اللّه الواحد الأحد في خَلْقِهِ)، ولهذا لم يأتِ هذا التَّركيبُ إلّا مقرونًا بفعل مسندٍ إلى نون العظمة.

دلالةُ حرفِ التَّشبيه في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

مشابهةُ جزاءِ المحسنين لجزاء الأنبياء والمرسلين

استُعمِل في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ حرفُ الكاف من (كذلك)، بمعنى (مِثل)، وهو دالٌّ على المشابهة، أي: ونجزي المُحسنين جزاءً مثلَ ما جزينا موسى عليه السلام، فآتيناهُ بطاعته إيّانا الحُكمَ والعلم، كذلك نجزي من أحسن عمله، فأطاعنا في أمرنا، وانتهى عمّا نهينا عنه من معاصٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ موسى عليه السلام كان محسنًا في عمله، متَّقيًا للّه في أموره، فآتاه اللّهُ الحُكمَ والعلم جزاءً على إحسانه[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الجزاءُ العظيمُ الذي أعدَّه الله الكريم للمحسنين

يشير اسمُ الإشارة للبعيد (ذلك) في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى المصدر المحذوفِ المفهوم من الكلام السّابق، وهو عبارةٌ عمّا أوتي موسى عليه السلام من الحُكم والعلم، وقد أوثر اسمُ الإشارة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 69، والزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 454، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/ 171.

الدّال على البُعد، إيذانًا بعلوِّ صفته وعظمته[1]، كما دلَّ السّياق على تعظيم هذا الجزاء باعتبارين، **الأوّل:** أنَّه جعل جزاء موسى مثالًا ومرجعًا، يُضرب به المثل في حُسن الجزاء وعظمته، **والثّاني**: أنَّه لمّا كان جزاءُ موسى بهذه الدَّرجة، فإنَّ الجزاء الَّذي يشابهه يدلُّ على عِظم مَن سيق الجزاء له.

ولمّا كان لفظُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مفيدًا التَّشبيه على أمرٍ قد سبق، أو أمرٍ حاضرٍ في ذهنِ المخاطَبِ؛ كان اسم الإشارة (ذلك)؛ للتَّعبير عن المشبَّه به، الذي يكون مركَّب الصّورة والمعنى، فأوجز معناه التَّركيبي في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به، ثم ذكر المشبَّه، فيكون هذا التَّركيب من قبيل التَّشبيه المركَّب.

علّةُ تقديمِ المفعولِ المطلق المحذوف:

قصرُ الجزاء العظيم على المحسنين

اسم الإشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف مفعول مطلق، عاملُهُ (مكّنّا)؛ إذ أصلُ الكلام: نجزي المحسنين جزاءً مثلَ ذلك الجزاء، ولكنَّه قدَّم على الفعل لإفادة القصر، والمعنى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين، لا جزاء آخر أدنى منه[2].

دلالةُ إسنادِ الفعل ﴿نَجۡزِي﴾ إلى نون العظمة:

جزاءُ العظيم عظيمٌ

أُسند فعلُ الجزاء في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى نون العظمة؛ للإشعار بعظمة الوهّاب سبحانه وعلوِّ قدره، وفيه أيضًا تفخيمٌ لشأن الجزاء، فجزاءُ العظيم عظيمٌ مناسب لعظمته وجلاله وإحسانه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿نَجۡزِي﴾:

دوامُ الجزاء بدوام الإحسان

أوثرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مجيءُ فعل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 03/ 158.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 03/ 158.

الجزاء بصيغة المضارع؛ دلالةً على تجدُّد الجزاء منه سبحانه؛ للمحسنين في كلِّ زمانٍ ومكان، بحسب تجدُّد وقوع الإحسان من المحسنين، فهي سُنَّةٌ مُستمرَّةٌ من سُننِ اللّه الكريم في خلقه، ولمّا كان قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ على معنى الجزاء على الشَّرط المُضمَّن في (لمّا)؛ ناسب أن يعبَّر عنه في السّياق بلفظ الجزاء.

بلاغةُ حذفِ متعلّق زمن الجزاء:

شمولُ جزاء المحسنين ثوابَ الدُّنيا والآخرة

جاء الجزاءُ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مطلقًا غير مقيَّدٍ بزمن، فلم يقل مثلًا: وكذلك نجزي المحسنين في الآخرة، فأفاد ذلك عمومَ الجزاء في الدُّنيا والآخرة، فيدخل الجزاء في الآخرة دخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّه أجزلُ وأوفى وأبقى وأكمل، ويشمل كذلك الجزاء في الدُّنيا بنيل المرغوب وقرَّة العين.

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

عمومُ الجزاءِ الكريم لكلِّ الأفراد المحسنين

دلَّ تعريفُ لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وجمعه في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على الاستغراق؛ لإفادة عموم الحكم لجميع أفراد الجنس، فكلُّ محسنٍ يعطيه اللّه الجزاء الحسن، كما تحتمل (أل) هنا الموصوليَّةَ؛ ليكون الجزاءُ خاصًّا بالَّذين اتَّصفوا بالإحسان في أعمالهم وقلوبهم، حتى صاروا خالصين للّه تعالى[1].

نكتةُ حذفِ متعلّق الاسمِ المشتقِّ:

التَّرغيبُ في مطلق الإحسان دون تحديد للأعيان

حُذِفَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ متعلِّقُ الاسم المشتقِّ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ قصدًا للعموم وإناطة الحكم بالاسم المشتقِّ في حدِّ ذاته، بمعنى: أنَّنا نجزيه بسبب إحسانِه مطلقًا، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ إحسانَهُ هو سببُ جزائهِ تلك النِّعمة، سواءٌ كان المرادُ المحسنَ في الأعمال، أي: عمل أعمالًا حسنة صالحة، أم كان المرادُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3814.

المحسنَ إلى الناس، أي: الذي أحسن إليهم، أو المُحسن إلى نفسه، والظاهر استغراق هذه المعاني الثلاثة جميعًا، ولا مانع منه في اللّفظ والسّياق، ويُحتمل أن يكون المرادُ المحسنَ في عمله، فيتبعه الإحسان إلى النّاس وإلى نفسِه على طريق اللزوم، كما أنَّ في الحذف مراعاةً للفاصلة ورؤوس الآي.

بلاغةُ الاختصار في جملة التَّذييل:

تعميمُ المقالِ وإرسالـه على سبيل الأمثال

خُتِمَتِ الآيةُ بقَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ تذييلًا لما سبق من جزاء موسى عليه السلام، وفائدةُ التذييل غالبًا توكيدُ المذيَّل، وإبراز حُكمه في صورة كلّيَّة[1]، والمعنى في هذا التَّركيب: أنَّ مِن سُنَّة اللّه المستمرَّة أنَّه يجزي المحسنين، فالأمر ليس مختصًّا بموسى عليه السلام، بل هو عامٌّ في كلِّ مَن يتَّصف بوصف الإحسان، وقد خرجت الجملةُ مخرجَ المثل، وأفادت التَّأكيد لاشتمالها على معنى ما قبلها[2].

توجيهُ المتشابهِ اللفظي:

تـمـيُّـزُ مـوسى بـالاسـتـواء وكمال الأعضاء

يُلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يوسف: 22]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ تشابُهٌ لفظيٌّ بين الآيتين، بزيادة لفظ ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ في موضع القصص، فخُصَّ موسى عليه السلام بوصف الاستواء، ولم يوصف يوسف عليه السلام بذلك؛ لأنَّ اللّه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنَّه أوحى إليه صغيرًا قبل الأربعين؛ لـمّا طرحه إخوتُه في الجبِّ، حيثُ قال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]، وأراه عز وجل الرؤيا الَّتي قصَّها على أبيه، وأمّا موسى عليه السلام: فلم يُفعل به شيءٌ من ذلك إلى أن بلغ الأشُدَّ، واستوى، فالاستواءُ انتهاءُ شبابِه، وتكامل عقلِه، وهو من الثلاثين إلى الأربعين[3].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 611.

(3) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/ 798، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 115.

ومِن أظهرِ الأقوال أيضًا أنَّ موسى وُصف بالاستواء، ولم يوصَفْ يوسف إلّا ببلوغ الأشُدِّ خاصَّة؛ لأنَّ موسى كان رجلًا طوالًا، كما في الحديث: «كأنَّه من رجال شنوءة»[1]، فكان كاملَ الأعضاء، ولذلك كان وكْزُهُ القبطيَّ قاضيًا على الموكوز[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحكيم والعالم:

كلُّ حكيمٍ عالِمٌ بلا عكس

يتَّضحُ الفرقُ بين الحكيمِ والعالِمِ: في كونِ العالِمِ هو الذي يعلم الأشياءَ، والحكيُم: هو الَّذي يَعْمَلُ بما يوجبه العلمُ، وقيل: هو الَّذي يمنعُ نفسه عمّا يجهِّلُه، ويُسَفِّهُهُ، ومنه حَكَمَةُ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنع الدّابَّة عن الفساد[3].

كما أنَّ وصفَ الحكيمِ أعمُّ دلالةً مِن وصف عالم، فهو يَرِدُ على ثلاثة أوجه: **الأول:** بمعنى: المُحْكِم، مثل: البديع بمعنى: المُبْدِع. **والثّاني**: بمعنى: مُحْكَم، وفي القرآن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: 4]، أي: مُحْكَم، وإذا وُصِفَ اللّه تعالى بالحِكمة من هذا الوجه؛ كان ذلك من صفات فِعْلِه، **والثّالث**: الحكيمُ بمعنى العالم بأحكام الأمور، فالصِّفة به أخصُّ من الصِّفة بعالم، وإذا وُصِفَ اللّه به على هذا الوجه؛ فهو من صفات ذاتِه[4]، فيظهر بذلك أنَّ كلَّ حكيمٍ عالمٌ بلا عكس.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: (رقم: 167).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 87.
(3) السّمعاني، التّفسير: 3/ 20.
(4) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 96.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقاديرُ الله سبحانه لموسى عليه السلام بالابتلاء بعد الاصطفاء

لمّا ذكرَ اللّه سبحانه مبدأَ أمر موسى عليه السلام، وأنَّه لمّا بلغ أشُدَّه، واستوى؛ آتاه اللّه حُكمًا وعلمًا؛ ذكرَ تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدَّرَهُ له من النُّبوَّةِ والتَّكليم في قضيَّة قتْلِه القِبْطيَّ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَفْلَةٍ﴾: (غفل) أصلٌ صحيح يدلُّ على ترك الشَّيء سهوًا، وربَّما كان عن عمدٍ، من ذلك: غفلت عن الشَّيء غفلة وغُفولًا؛ وذلك إذا تركْتُه ساهيًا، وأغفلته؛ إذا تركته على ذُكرٍ منك له(2)، والغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسان من قلَّةِ التَّحفُّظ والتَّيقُّظ، يقال: غَفَلَ، فهو غافِلٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: 1]، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو من الغفلةِ بمعنى عدم التَّنبُّه(3)، ومعناه في الآية: أنَّ موسى عليه السلام دخلَ المدينةَ، في وقت عدم تنبُّهِ أهلِها لما يجري فيها، وهو وقتُ استراحة النّاس وتفرُّقهم وخلوِّ الطريق منهم(4).

2) ﴿شِيعَتِهِۦ﴾: (شيع) أصلٌ يدلُّ على مُعاضدة ومُساعفة، ومنه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 06/ 202.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(3) الراغب، المفردات، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.

قولهم: شَيَّع فلانٌ فلانًا عند شخوصه[1]، والمشايعةُ المتابعةُ على أمر مُعيَّن، ومِن معانيه الظُّهور والتَّفرُّق[2]، والشّيَعُ: الفِرَقُ الَّتي يتابع بعضُها بعضًا[3]، وليس شرطًا أن يكون تجمُّعهم على خير أو صواب، والشّيعة: من يتقوّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، والشّيعَة: أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها: شيَعٌ وأشْياع[4]، فالمراد بالذي مِن شيعتهِ في الآية: أنَّهُ رجلٌ مِن قومهِ بني إسرائيلَ[5].

3) ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾: (غوث) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الإغاثة والنُّصرة عند الشِّدَّة[6]، يقال: أغاثَهُ يُغيثه؛ إذا نصره على عدوِّه، وأعانه عليه، واستغاثه: طلبَ الغوث، وهو التَّخليص من الشِّدَّة، والعون على الفِكاك من الشَّدائد[7]، واستغاثةُ الإسرائيليِّ بموسى في الآية معناه: طلبُ نصرتهِ على القبطيِّ.

4) ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾: (وكز) أصلٌ صحيح، يقال: وكَزه: طعنه، ووكزه: ضربه بجمع كفِّه، ووكزه: دفعه[8]، والمقصود في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: ضربه بجميع الكفِّ[9].

5) ﴿فَقَضَىٰ﴾: (قضى) أصلٌ صحيح يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانه وإنفاذه لجهته، والقضاء: الحكم، ولذلك سمّي القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يُحكم الأحكام ويُنفِّذها، وسمّيتِ المنيِّة قضاء؛ لأنَّه أمرٌ ينفذ في ابن آدم وغيره من الخلق[10]، ويُعبَّر عنِ الموت بالقضاء، فيقال: فلانٌ قَضَى نحبُّه، كأنَّه فصل أمره المختصَّ به من دنياه، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 2]، قيل: عني بالأوَّل: أجل الحياة، وبالثاني: أجل البعث، وقال: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: 77]، وذلك كناية عن الموت[11]، وهو المقصود في الآية.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شيع).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شيع).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شيع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (شيع)، والزّجاج، معاني القرآن: 03/ 174، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 205.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 89.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غوث).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (غوث).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وكز).
(9) الراغب، المفردات: (وكز).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(11) الراغب، المفردات: (قضي).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دخول موسى عليه السلام المدينةَ ووقوع حادثة القتل

يُخبر اللّهُ سبحانه عن موسى عليه السلام أنَّهُ دخلَ المدينةَ مستخفيًا وقتَ غفلةِ أهلِها، فوجد فيها رجلين يقتتلان: أحدُهما من قوم موسى من بني إسرائيلَ، والآخرُ من قوم فرعونَ، فطلب الَّذي من قوم موسى النَّصرَ على الَّذي من عدوِّه، فضربه موسى بجُمْع كفِّه، فمات، فقال موسى حين قتله: هذا من نزغ الشَّيطان، بأن هيَّج غضبي، حتّى ضربتُ هذا، فهلك، إنَّ الشَّيطان عدوٌّ لابن آدم، مُضِلٌّ عن سبيل الرَّشاد، ظاهر العداوة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل بالواو في الآية:

عطفُ قصَّةِ موسى مع القبطيِّ على قصصه السّابقة

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقترانِ؛ لأنَّه من عطف جزء القصَّة على جزءٍ آخرَ منها، بدايةً من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، كما يشعر هذا العطفُ بأنَّ أخبارًا كثيرة من حياة موسى عليه السلام تنبئ عنها القصَّة قد طويت للوصول إلى محلِّ العِبرة منها.

فائدةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾:

عدمُ تعيين المعهود بالذكر عادةٌ قرآنية

جاء لفظُ ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ معرَّفًا باللّام، وهي لام العهد؛ لأنَّ الكلامَ حاصلٌ عن مدينةٍ بعينها معهودةٍ في الذِّهن، وإن لم يعيِّنها القرآن؛ لعدم ترتُّب فائدة على ذلك[2]، فذكر النَّظم القرآنيُّ لفظَ المدينة مبهمًا دون تعيين اسمها؛ لعدم ارتباط المقصدِ والعِبرة من القصَّة به، وإن ذكرَ بعضُ المفسِّرين أسماءً لها.

---

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.
(2) الخطيب القزويني، الإيضاح: 2/ 21.

دخولُ موسى ﷺ المدينةَ متمكّنًا

سرُّ التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيره:

أوثرَ التَّعبيرُ بحرف الجر ﴿عَلَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، ودخوله على الظَّرف ﴿حِينِ غَفْلَةٍ﴾، فذهب بعضُ النُّحاة إلى القول بالتَّضمين، أي: إنَّ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ ضُمِّن معنى (في) الدّالِّ على الظَّرفية بمعنى (في حين غفلة)[1]، والرّاجح أنَّ النَّظم القرآني البديع آثر حرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيره؛ لما يدلُّ عليه من الاستعلاء المجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، أي: متمكّنًا من حين غفلة أهلها[2].

عدمُ شعور النّاس بحادثة قتْلِ القبطي

دلالةُ الإتيانِ بالظَّرف الزماني ﴿حِينِ﴾:

دلَّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، على الوقت الَّذي يغفلُ فيه أهلُ المدينة عمّا يجري فيها، وهو وقتُ استراحة الناس وتفرُّقهم وخلوِّ الطَّريق منهم، وقيل: كان ذلك في وقت القيلولة، وكان موسى مجتازًا بالمدينة وحده ليلحق بفرعون؛ إذ كان فرعونُ قد مرَّ بتلك المدينة، والمقصودُ من ذكر هذا الوقت الإشارةُ إلى أنَّ قتْلَهُ القبطيَّ لم يشعرْ بِهِ أحدٌ؛ تمهيدًا لتتمَّة القصَّة، ومقدِّمةً لذكر خروجه من أرض مصر[3].

خلوُّ المدينةِ من النّاس في وقت القيلولةِ والرّاحة

نكتةُ العدولِ عن الإضافة في ﴿غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾:

وردَ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لفظُ ﴿غَفْلَةٍ﴾ منوَّنًا نكرة، والغرض من تنكيرِه: الإبهامُ المستلزم للتَّفخيم، بمعنى: غفلة عظيمة من أهلها، ولهذه النُّكتة عدل النَّظمُ القرآنيُّ عن الإضافة (غفلة أهلها) إلى التَّنوين لإفادة التفخيم[4]، وقد اختلفوا في تحديد وقت هذه الغفلة العظيمة على أقوال، أرجحها أنَّه وقتُ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 262.

القائلة، وهو حين الغفلة، وقيل: هو ما بين العشاء والعتمة، وقيل: على غفلةٍ بنسيان النّاس لأمرهِ وبُعدِ عهدِهم بهِ، وقيل: كان يوم عيد[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَوَجَدَ﴾ دون غيره:

تتابعُ الأحداث بشكل مفاجئ في قصَّة موسى عليه السلام

عُطِف قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الفاء الدّالِّ على التَّعقيب، ممّا يدلُّ على تتابع أحداث القصَّة وتسارعها في المدينة الَّتي دخلها، والمقصود: أنَّ موسى عليه السلام بمجرَّد أن دخل المدينة حتّى وجد فيها رجلين يقتتلان، وأوثر التَّعبيرُ بالفعل ﴿فَوَجَدَ﴾؛ للدَّلالة على المفاجأة والمباغتة، بمعنى أنَّ موسى عليه السلام دخل المدينة من غير ميعادٍ، فوجد ما لم يكن يتوقَّعُهُ، أو يخطر ببالهِ، فالسّياق يشير إلى أنَّ وجدانه الرجلين يقتتلان حصلَ فجأةً.

مناسبةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

الاهتمامُ بمكان وقوع أحداث القصَّة

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول لنكتة الاهتمام بمكان حصول هذه الأحداث العظيمة لموسى عليه السلام، وهي المدينةُ التي دخلها في وقت الغفلة.

سرُّ التَّنكيرِ في لفظ ﴿رَجُلَيۡنِ﴾:

معرفةُ موسى لطائفة الرَّجلين دون أعيانهما

جاء لفظُ ﴿رَجُلَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ نكرةً للدلالة على الإبهام والشّيوع، فموسى عليه السلام لا يعرف هذين الرجلين، وليس على عهد بهما، ولا يعرف أعيانهما، وإنَّما عرف الطّائفة الَّتي ينتمي إليها كلُّ واحد منهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَقۡتَتِلَانِ﴾:

ملازمةُ الرَّجلين للتَّضارب ومقدِّمات القتل

وُصفت النَّكرةُ ﴿رَجُلَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ بالجملة الفعلية ﴿يَقۡتَتِلَانِ﴾، وهي في موضع الصِّفة لرجلين؛ تصويرًا للحالة الَّتي كانا عليها من الاقتتال، وقال ابن

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280.

عطيَّة: "هي في موضع الحال بمعنى مُقتتِلين"[1]، وهو على مذهب سيبويه من جواز مجيء الحال من النَّكرة من غير شرط[2].

وأوثر التَّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ دون غيرِها من الصّيغ؛ للدَّلالة على الحال الحاضرةِ وتصوير الموقف، كأنَّ القارئَ يراه بعينيه، فموسى ﷺ عندما دخل المدينة؛ وجد فيها رجلين يتضاربان، ويلازمان مقدِّمات القتل من الضرب والقتل[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾:

تصويرُ شدَّةِ تضارب الرجلين وتشبيهه بالقتال

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ صورة بيانيَّة من نوع الاستعارة؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ الرجلين اختصما، وتضاربا ضربًا شديدًا، وهو المعبِّر عنه بالتقاتل على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث شبَّه التضارب بالتقاتل في الشِّدَّة، فحذف المشبَّهَ، وصرَّح بالمشبَّهِ به.

بلاغةُ الفصلِ في ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾:

تفصيلُ ما أُجمِلَ من حال الرجلين

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾؛ لكمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[4]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ تفصيلًا لما أُجمل في قوله: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾[5].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

قيامُ الحكايةِ في القصص مقام الحضور

استُعمِل في قوله تَعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، والأصل فيه أنَّه يُستعمل للشّاهد المشار إليه، وجوِّز

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 52.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 116.
(4) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.

الإشارة بهذا في هذا السّياق أنَّها واقعةٌ على طريق الحكاية؛ لما وقع وقت الوِجْدان، كأنَّ الرائي لهما يقوله، لا في المحكيِّ لرسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وسلم، وقال المبرِّد: العرب تشير بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى الغائب، قال جرير:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة *** لو شئت ساقكم إليَّ قطينا[1]

وهذه الإشارة قائمةٌ مقامَ الضميرِ في الرَّبط[2]، وقال ابن عاشور: "اسم الإشارة في مثل هذا لا يُراعى فيه بُعدٌ ولا قُربٌ، فلذلك قد تكون الإشارتان متماثلتين كما هنا"[3].

بلاغةُ استعمال ﴿مِن﴾ في ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾:

مـــوالاةُ موسى عليه السلام لـبـنـي إسرائيل

يحتمل أن تكون ﴿مِن﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ تبعيضيَّةً، بمعنى: أنَّ أحدَ الرَّجلين بعضُ شيعتهِ، أي: أتباعه وعلى دينه، ويحتمل أن تكون بيانيَّةً، بمعنى: أنَّ الذي استجاره من أتباعه لا من أتباع غيره.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿شِيعَتِهِۦ﴾:

الـشّـيـعـةُ الجماعةُ المنتمية إلى واحد

أوثرَ في قوله تَعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ التَّعبيرُ بلفظ ﴿شِيعَتِهِۦ﴾، ومعنى الشّيعة: الجماعةُ المنتميةُ إلى أحدٍ، وسُمّيت كذلك؛ لأنَّها تُشايِع غيرها على ما يريد، أي: تتابعه، وتطيعه، وتنصره، وأُطلقَت على الفرقة من النّاس على سبيل التوسُّع بعلاقة الإطلاق عن التقييد، قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: 32]، فالمرادُ بالَّذي من شيعته: أنَّه رجلٌ من بني إسرائيلَ[4].

(1) البيت لجرير في ديوانه، يُنظر: ديوان جرير، دار بيروت، بيروت، 1406 - 1986، ص: 477.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.

نكتةُ العطفِ بالواو في ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾:

ذِكرُ الأعداءِ بعد ذِكرِ المشايعين

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدالِّ على العطف والاقتران، فبعد أن ذكرَ الرَّجلَ الأوَّلَ وانتماءَهُ إلى شيعة موسى عليه السلام؛ عطفَ عليه ذِكرَ الرَّجلِ الثّاني وانتمائهِ إلى القبط المشركين، وهم عدوُّ موسى عليه السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر في ﴿عَدُوِّهِۦ﴾:

مجيءُ الوصفِ على وزن المصدرِ يجعلُهُ بلفظٍ واحد

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ بلفظ العدوِّ، ومعناه: ذو العداوةِ، وهو فعولٌ بمعنى فاعلٍ من: عَدا يَعْدو، مثل عَفوٍّ، وأصله مصدرٌ على وزن فَعولٍ مثل قَبولٍ ونحوِه من مصادر قليلة، ولكونه على زِنة المصادر عومِل معاملة المصدر، فاستوى في الوصف به المذكَّر والمؤنَّث والواحد والمثنى والجمع، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ [الشعراء: 77]، ويُجمع بكثرة على أعداء، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ [فصلت: 19](1).

بلاغةُ المقابلةِ في قوله: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾، ﴿مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾:

توضيحُ المعنى بجمع اللفظ وضدِّه

يتضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ مُحسِّنًا بديعيًّا من نوع المقابلة، حيث قابل بين كون أحد الرجلين من شيعته، وكون الآخر من عدوِّه، وبينهما تضادٌّ يثير الذِّهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسنًا وطرافة، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياء.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾، ﴿عَدُوِّهِۦ﴾:

نشوءُ موسى على معاداة القبطِ وموالاة بني إسرائيلَ

أُضيفَ لفظا الشّيعةِ والعدوِّ في قوله تَعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ إلى ضمير موسى عليه السلام، فالمرادُ بالَّذي من شيعته: أنَّه رجلٌ من بني إسرائيل، وبالَّذي من عدوِّه: رجلٌ من القبط قوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 133.

فرعون، ويجوز أن يكون المرادُ بهذين الوصفين أنَّ موسى كان يعلم أنَّه من بني إسرائيل بإخبار قصَّة التقاطه من اليمِّ، وأن تكون أمُّه قد أفضت إليه بخبرها وخبره، فنشأ موسى على عداوة القبطِ، وعلى إضمار المحبَّة لبني إسرائيل[1].

نكتةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾:

استغاثةُ الإسرائيليّ بموسى عليه السلام فورَ رؤيته

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ بحرف الفاء الدّالَّة على التَّعقيب، ممّا يدلُّ على تتابعِ أحداث القصَّة وتسارعها في المدينة التي دخلَها موسى عليه السلام، فلمّا أبصر أحدُ الرجلين المتقاتلين موسى عليه السلام - وكان من شيعته وأتباعه - سأله الإعانةَ على عدوِّه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾:

طلبُ الإسرائيليِّ المغلوب الإغاثةَ والنُّصرة من موسى عليه السلام

دلَّتِ السّين والتّاء من الفعل (استغاث) في قوله تَعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ على طلب الإغاثة والنُّصرة، ويؤيِّدُ ذلك قوله تعالى بعدُ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾، ويجوز أن يكون معنى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾: استعانه، ولذلك عُدّي بـ﴿عَلَى﴾؛ لتضمينه معنى الإعانة[2].

وأوثرَ التَّعبيرُ بفعل الاستغاثة، ومعناه: طلبُ الغوث - وهو التَّخليصُ من شِدَّة أو العون على دفع مشقَّة، وإنَّما يكونُ هذا الطَّلب بالنِّداء - إيذانًا بأنَّ الإسرائيليَّ كان مغلوبًا، وأنَّ القبطيَّ اشتدَّ عليه في حمل خشب له إلى مطبخ فرعونَ، فكان بذلك ظالمًا؛ إذ لا يُجبَرُ أحدٌ على عملٍ دون رضاه[3].

سرُّ إيثارِ وضع الاسم الموصول موضعَ الاسم الظاهر:

انتسابُ الإسرائيليِّ إلى شيعة موسى عليه السلام

أوثرَ في قوله تَعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ استعمالُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88 - 89.

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلته، والنُّكتة البلاغيَّة في إيثار وضع الاسم الموصول موضعَ الاسم الظاهر أنَّه يسمح بوصفهِ بجملة الصِّلة والتَّنبيه على علَّة الحُكم، فأحدُ الرجلين المتقاتلين موصوفٌ بأنَّه من شيعة موسى عليه السلام، وهو علَّةُ سؤالِ النُّصرة منه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِى﴾:

نصرةُ المظلوم واجبٌ في جميع الملل

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلته دون الاسم الظّاهر في قوله تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ تنبيهًا على علَّةِ الحُكم، وهو كون هذا الرَّجل عدوًّا لموسى عليه السلام؛ بكونه قبطيًّا من قوم فرعون، ولكونه ظالمًا والإسرائيلي مظلومًا، فقد ذكرت كُتُبُ التَّفسيرِ أنَّ القبطيَّ كان طبّاخَ فرعونَ، وقد أراد تسخيرَ الإسرائيليِّ عنوةً لحمل الحطب إلى مطبخه، فكان سببَ تقاتلهما، فعندما استغاثَ بموسى عليه السلام هبَّ إلى نصرته؛ لأنَّ نصرَ المظلومِ واجبٌ في جميع الملل[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦۖ﴾:

معاداةُ موسى عليه السلام للظالمين

وردَ في قَوله تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾، ومعناه في هذا السّياق التَّبعيض، بمعنى: أنَّ أحد الرَّجلين المتقاتلين بعضُ عدوِّه، فقد كان قبطيًّا من قوم فرعون، وكان موسى من بني إسرائيل، وقد علم موسى هذه العداوةَ وأسبابَها من قبلُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾:

مسارعةُ موسى عليه السلام لنصرة المظلوم

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ بحرف الفاء الدالَّة على التَّعقيب، ممّا يدلُّ على تتابع أحداث القصَّة وتسارعها، فعندما استغاث الإسرائيليُّ بموسى عليه السلام؛ هبَّ لنصرته دون تباطؤٍ متوجِّهًا إلى القبطي الظّالم لكفِّه عن غيِّه.

والوَكْزُ الوارد في قوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، بمعنى: الضربُ باليد مجموعًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 117.

كعقد ثلاثة وسبعين، إلّا أنَّ اللَّكزَ في اللَّحا، والوَكْزَ على القلب[1]، فيكون ﷺ قد ضربه باليد، غير أنَّه قد أخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن قتادةَ أنَّه ﷺ ضربه بعصاه، فكأنَّه يفسِّر الوَكز بالدفع أو الطعن، وذلك من جملة معانيه في اللُّغة، ولعلَّه أراد بعصاه عصًا كانت له، فإنَّ عصاه المشهورة أعطاه إيّاها شعيب ﷺ بعد هذه الحادثة، كما هو مشهور[2].

دلالةُ عودِ الضَّمير في ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾:

وَكْــزُ مـوسى لـعـدوِّهِ نـصرةٌ للمظلوم

يعود الضَّميرُ المتَّصل بالفعل ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ على القبطيِّ الموصوف بقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾، والمعنى: فوكز موسى ﷺ الذي هو من عدوِّهِ بعد استغاثة الذي هو من شيعته عليه، فاجتمع أمران: استغاثة الذي هو من شيعته به وكونه من عدوِّه.

بلاغةُ تقديمِ من وقع عليه الفعل:

بـطْـشُ مـوسى بعدوِّهِ القبطي دون ولـيِّـه الإسرائيلي

تقدَّم المفعولُ به في قوله تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ على الفاعل، وهو موسى ﷺ؛ لقصد الاختصاص، بمعنى أنَّ بطْشَ موسى ﷺ اقتصر على عدوِّهِ القبطي دون الإسرائيلي، إضافة إلى جنوح النَّظم إلى الاختصار الكائنِ في الإضمار دون الإظهار.

سرُّ مجيءِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

إزالــةُ اللَّـبس ورفــع الإبـهـام بالتَّصريح باسم موسى في الكلام

عُدِلَ عن الإضمار في قوله تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ إلى الإظهار في لفظ ﴿مُوسَىٰ﴾ مع أنَّ سياقَ القصَّة كلَّهُ خاصٌّ به، وقائم على استعمال الضمير؛ لنكتة رفع الإبهام المحتمل من تتابع الضَّمائر، فقد سبق ذِكرُ ثلاثة أطراف في السّياق، وهم الإسرائيليُّ والقبطي وموسى ﷺ، وكلُّ واحد منهم يصلح عود الضَّمير عليه، فصرَّحَ بلفظِ موسى ﷺ؛ إزالةً للَّبس ورفعًا للإبهام.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 263.

نكتةُ العطفِ بالفاء في قوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾:

تسبّبَ الوَكزُ في قتل القبطيّ

عُطِفَ قوله تَعالى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ على جملة: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، بحرف الفاء الدالَّة على التَّعقيب، بمعنى: أنَّ موتَ القبطي المعبِّر عنه بالقضاء عليه وقع مباشرةً بعد وكْزِ موسى عليه السلام له، فهو من تعقيب السَّبب بنتيجته.

سرُّ إضمارِ الفاعل في ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾:

تعدُّدُ التَّقدير النَّحويِّ وأثره في ثراء النَّظم القرآنيِّ

أُضمِر فاعل القضاء في قوله تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾، وقد اختلف العلماء في تعيينه، فقيل: إنَّ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ جملة تُقال بمعنى: مات لا غير، ففاعل ﴿فَقَضَىٰ﴾ محذوفٌ أبدًا على معنى قضى عليه قاضٍ، وهو الموت، وقيل: يعود ضميرُ الفاعل في قضى على موسى عليه السلام، وقيل: هو عائدٌ على اللّه تعالى، أي: فقضى اللّه سبحانه عليه بالموت، فقضى بمعنى: حَكَمَ، ولا يقضي بالموت غيرُه، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ: 14]، وقيل: يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكَزه، أي: فقضى الوَكْزُ عليه، أي: أنهى حياته، وكان موسى لم يتعمَّدْ قتلَهُ، ولكن وافقت وكزتُهُ الأجلَ(1).

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾:

شيوعُ القضاء على الشخص في القتل

تضمَّن قولُهُ تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ كنايةً، فقوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾، بمعنى: فَرَغَ منه؛ ليفيد بلازمه معنى قتلِه، وكلُّ شيءٍ فرغتَ منه؛ فقد قضيته، فتكون في قوله: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ كنايةٌ عن قتلِه وإنهاء دفنه في الرَّمل(2).

سرُّ التعديةِ بحرف الاستعلاء (عَلى):

تضمينُ القضاء معنى الوقوع

تعدّى الفعل ﴿فَقَضَىٰ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 293، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 88.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 118.

﴿عَلَيۡهِۖ﴾ بحرف الجرِّ (على)؛ لأنَّ أصلَ القضاء هنا: أنهى حياته، وهو بهذا المعنى يتعدّى بـ (على)، وحاصله: وقع القضاءُ عليه، وهذا سرُّ تعديته بـ(على) لتضمُّنه معنى الوقوع[1]، وقد يتعدّى الفعلُ بـ(إلى) لتضمينه معنى الإيحاءِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [الحجر: 66].

بلاغةُ الفصلِ في ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾:

مبادرةُ موسى عليه السلام إلى التَّوبة والنَّدم

فُصِلَت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾؛ لما بينهما من شِبه كمال الاتصال، وهو كونُ الجملة الثانية قويَّةَ الارتباط بالأولى، فقد وقعت الثّانية جوابًا عن سؤالٍ يُفهم من الجملة الأولى، ففُصِلت عنها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[2]، فإنَّه هنا لمّا كان كأنَّه قيل: إنَّ هذا الأمرَ عظيم، فما ترتَّب عليه من قول من أوتي حكمًا وعلمًا؟ فأجيب بالإخبار عنه بأنَّه ندم عليه في الحال، وقال: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾[3]، وتكمن بلاغة مجيء الكلام على طريق الاستئنافِ البياني في إغناء السّائلِ عن أن يسأل، ولتكثيرِ المعنى بتقليل اللفظ، ولتنبيه السّامع إلى سرعة تنبُّهِ موسى عليه السلام إلى خطئه[4].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾:

حفظُ النَّفسِ المعصومةِ من أصول الشَّرائع كلّها

تضمَّن قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ ثلاثَ كناياتٍ، فإنَّه لمّا نسب قَتْلَهُ القبطيَّ إلى عمل الشيطان؛ أفاد بلازمه أنَّ قَتْلَهُ إيّاه كان خطأً، وأنَّ موسى لم يكن أُمِرَ بقَتْلٍ ولا قِتالٍ، والكناية الأخرى: أفاد التَّعبيرُ بعمل الشَّيطان الانتقالَ إلى لازمه، وهو أن

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 482.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 256.
(4) السكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 252.

يكون هذا العمل من تحسين الشَّيطان وتزيينه وإغوائه، والكناية الثالثة: أنَّه لمّا نسبه إلى عمل الشيطان؛ انتقل الذِّهن بلازمه إلى أنَّه عملٌ مستقبح في جميع الشَّرائع، وأنَّ البشرَ لا يرضونه، وأنَّ حِفظَ النَّفس المعصومة من أصول الشَّرائع كلِّها(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

اعترافُ النَّبيِّ بأنَّ عملَ الشَّيطان واضحٌ جليٌّ

استُعمِلَ اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾، والإشارة للإشارةِ به إلى الضَّربة الشَّديدة الَّتي تسبَّب عنها الموت أو إلى الموت المشاهد من ضربته، أو إلى الغضب الَّذي تسبَّب عليه موت القبطي(2)، والنُّكتةُ البلاغيَّة في استعمال اسم الإشارة: تمييزُ العمل الذي هو القتل أكملَ تمييزٍ، للإشعار بأنَّ عملَ الشيطان واضح جليٌّ، ولتقرير أنَّه ما فعله إلّا خطأً، وأنَّ الشَّيطان أَوْقَدَ غضبه حتّى بالغ في شدَّة الوكز.

نكتةُ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾:

القتلُ من تسبُّب الشيطان

يُحتمل حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ أن يكون للسَّببية، والمعنى: أنَّ هذا القتل من تسبُّب الشيطان، فهو الذي هيَّج غضبَهُ حتّى ضربَهُ، فقتله، وتحتمل أن تكون للتَّبعيض؛ لتفيد أنَّ أيَّ عمل يكون مثل هذا العمل هو من بعض عمل الشَّيطان، أو أن تكونَ لبيان الجنس بمعنى أنَّ القتلَ من جنس عمل الشَّيطان(3).

فائدةُ الإضافةِ في ﴿عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾:

القتلُ من اختصاص عمل الشَّيطان

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ على معنى الاختصاص، أي: اختصاص هذا العملِ وما يجري مجراه بالشَّيطان، ليفيدَ أنَّ ذلك العمل - من بدايته إلى أن قضى عليه

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 90.
(3) الواحدي، البسيط: 17/ 357، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 263.

- مِن نزْغِ الشَّيطان في يده، وأنَّ الغضبَ - الَّذي اقترنت به تلك الوكزة - كان من الشَّيطان ومن همزه، فنصَّ ﷺ أنَّ هذا القتلَ من عمل الشَّيطان[1].

بلاغةُ إسنادِ الفعل إلى سببه:

أُسندَ الفعلُ إلى الشَّيطان بسبب تحسينِهِ الفعل

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ مجازًا عقليًّا، فقد نُسِبَ العمل إلى غير فاعلِه الحقيقيِّ للملابسة، فإنَّ قتْلَ القبطيِّ لمّا وقعَ بسبب تحسين الشَّيطان وتزيينه وإغوائه وتهييجه لغضب موسى ﷺ نُسِبَ إليه، فهو مجازٌ عقليٌّ بإسناد الفعل إلى سببه، والعلاقة سببيَّةٌ.

نكتةُ إيرادِ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ دون (إبليس):

هلاكُ الشَّيطانِ وإهلاكه النّاس في النّيران

أوثرَ إيرادُ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾، دون (إبليس)؛ لِما يفيده لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ بأصل اشتقاقِهِ من الدَّلالة على البُعدِ عن الخير، هذا إذا قلنا باشتقاقه من (شطن)، بمعنى: بَعُدَ، وبهلاكه وإهلاكه غيرَهُ بإيقاعهم فيما يوجب النّار؛ إذا قلنا باشتقاقِهِ من (شاط) بمعنى: احترق[2]، وعلى كلٍّ فكراهيةُ الشَّيطان مستقرَّة في النُّفوس، مركوزة في الفِطَرِ السَّليمة.

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾:

جميعُ المعاصي بـرضـا هـذا الشَّيطان

جاء في قَوْله تَعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ لفظُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ معرَّفًا باللّام، فيمكن أن تكونَ (أل) للجنس، فيقتضي عموم الشَّياطين، ويمكن أن تكون (أل) فيه للعهد، أي: الشَّيطان المعهود وهو إبليس، وذلك لأنَّ جميع المعاصي برضا هذا الشَّيطان، والرّاضي يجري مجرى الفاعل له، وتدخل ذرّيَّته معه تبعًا[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شطن).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 94.

دلالةُ فصلِ الجملة في الآية:

تعليلُ نسبةِ العمل إلى الشَّيطان

وردت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ مفصولةً عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾؛ لأنَّ بينهما ما يُسمّى في البلاغة بـ (شبه كمال الاتِّصال)، وهو كون الجملةِ الثانية قويَّةَ الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصَلُ عنها، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[1]، وفي هذه الآية جاءت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ تعليلًا لوجهِ نسبة عمل قَتْلِ القبطي إلى الشَّيطان.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ في الآية:

الأصلُ في النَّفس الإنسانية الخيرُ

صُدِّرت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ بحرف (إنَّ) لنكتةِ تعليل نسبة العمل إلى الشَّيطان، وهو تعليلُ كونِ شدَّة غضبِهِ من عمل الشَّيطان؛ إذ لولا الخاطرُ الشَّيطانيُّ؛ لاقتصر على زجر القبطيِّ، أو كفِّه عن الَّذي من شيعته، فلمّا كان الشَّيطان عدوًّا للإنسان، وكانت له مسالك إلى النُّفوس؛ استدلَّ موسى بفعله المؤدّي إلى قتلِ نفس أنَّه فعلٌ ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها؛ لكان عملُهُ جاريًا على الأحوال المأذونة، وفي هذا دليل على أنَّ الأصل في النَّفس الإنسانيَّة هو الخير وأنَّه الفطرةُ، وأنَّ الانحرافَ عنها يحتاج إلى سببٍ غير فطريٍّ، وهو تخلُّل نزغِ الشَّيطان في النَّفس[2].

فائدةُ التَّنكير في ﴿عَدُوّٞ﴾:

عداوةُ الشَّيطان للإنسان عظيمةٌ قديمة

جاء لفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ نكرةً، والنُّكتة في تنكيره التَّعظيم والتهويل، فإنَّ الشَّيطان لـمّا جُبِل على الخبث والشَّرِّ؛ كانت عداوتُهُ لأصل نوع البشر عظيمة، مستقرَّة في

---

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 90.

طبعه، لا يهنأ له بال ما دام عدوُّه ومحسوده في حالة حسنةٍ، وفي هذا ما يدعو إلى الحذر منه.

بلاغةُ حذف متعلّق ﴿عَدُوّٞ مُّضِلّٞ﴾:

شهرةُ عداوة الشَّيطان لبني الإنسان

حُذِفَ متعلِّق لفظ ﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾؛ كونه معلومًا بدلالة المقام، فالشَّيطان عدوٌّ لآدم وذريَّته من يوم خَلْقِهِ، وقد تكرَّر في القرآن الكريم كثيرًا تذكيرُ النّاس بعداوة الشَّيطان لأبيهم آدم وذرّيَّته من بعده؛ ليعلموا أنَّها عداوةٌ مستمرَّة بين النوعين، فيحذروا من كل ما هو منسوبٌ إلى الشَّيطان ومعدود من وسوسته[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿مُّضِلّٞ﴾:

سعيُ العدوِّ لإلحاق الضرِّ بعدوِّهِ

وُصِفَ الشَّيطان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ﴾ بأنَّه عدوٌّ مضلٌّ، فرُتِّبَ على الإخبار عنه بالعداوة وصفُهُ بالإضلال؛ لأنَّ العدوَّ يعمل لإلحاق الضرِّ بعدوِّه[2]، ولا ضرر أعظمُ من إضلاله الإنسان وجرّهِ إلى الطُّغيان المفضي إلى سخط الرحمن وتصليته النّيران.

دلالةُ الوصفِ بلفظ ﴿مُّبِينٞ﴾:

الطبعُ الشيطانيُّ المنافي للصَّلاح الإنسانيِّ المؤيَّد بالتَّوفيق الإلهيِّ

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ تأكيدُ عداوةِ الشَّيطان بالوصف ﴿مُّبِينٞ﴾، من الفعل أبان اللّازم، أي: بَيِّنُ العداوةِ والإضلال، فعداوته وإضلاله في غاية البيان والظُّهور، ما في شيءٍ منهما خفاء، والمبين أصلُهُ المُظهِر للعداوة، بحيث لا تخفى على من يتتبَّع آثار وسوسته وتغريره، وما عامل به آدم من حين خلقهِ إلى حين غروره به، ففي ذلك كلِّه إبانةٌ عن عداوته، ووجهُ تلك العداوة أنَّ طبْعَهُ ينافي ما في الإنسان من الكمال الفطري، المؤيَّد بالتوفيق والإرشاد الإلهيِّ، فلا يحبُّ أن يكون الإنسان إلّا في حالة الضلال والفساد.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 67.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 90.

ويجوز أن يكونَ لفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ مستعملًا مجازًا في القويِّ الشَّديد؛ لأنَّ شأنَ الوصف الشَّديد أن يظهرَ للعيان[1]، وفي التَّعبير بلفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ أيضًا عتابٌ للنَّفس وندمٌ على العمل؛ لأنَّه إن كان ظاهرَ العداوةِ والإضلال؛ كان وقوع القتلِ ممّا لا ينبغي، فالقصد منه العتابُ وتأكيد النَّدم.

بلاغةُ التَّذييل في ختام الآية:

تأكيدُ عداوة الشَّيطان بإخراج الكلام مخرجَ الأمثال

جاءتِ الأوصافُ في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ مطلقةً من غير تقييدٍ على سبيل التَّذييل، فتفيدُ معنى العموم والكليَّة، ولتخرج مخرجَ المثل مع تضمُّنها تأكيدَ ما قبلَها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغفلة والسَّهو والنِّسيان:

الغفلةُ تركٌ باختيار الغافل، أمّا النسيانُ؛ فهو تركٌ بغير اختيار

يتجلّى الفرقُ بين لفظَي (الغفلة) و(النِّسيان) في كون الغفلةِ تركًا باختيار الغافل، أمّا النسيانُ؛ فهو تركٌ بغير اختيار الإنسان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يقل: ولا تكن من النّاسين، فإنَّ النِّسيان لا يدخل تحت التَّكليف، فلا يُنهى عنه[2]، ويقوّي هذا الفرقَ أنَّ النِّسيان غير مؤاخذٍ بهِ لقول النَّبي ﷺ: «إنَّ اللّٰه وضع عن أمَّتي الخطأ والنسيان، وما استُكرهوا عليه»[3]، والغفلةُ تكون عمّا يكون، والسَّهو يكون عمّا لا يكون، تقول: غفلتُ عن هذا الشَّيء حتّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتّى كان؛ لأنَّك إذا سهوتَ عنهُ؛ لم يكن، ويجوز أن تغفُلَ عنه، ويكون، وفرقٌ آخر: هو أنَّ الغفلةَ تكون عن فعل الآخر، تقول: كنت غافلًا عما كان من فلان، ولا يجوز أن يُسها عن فعل الآخر[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 67.
(2) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 6/ 406.
(3) أخرجه ابن ماجة في سننه، رقم: (2045).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 388.

التَّقاتل والتَّنازع والتَّخاصم:

دلالةُ صيغة التَّفاعل على المشاركة والتَّرابط

تتَّفق هذه الألفاظُ (التَّقاتل) و(التَّنازع) و(التَّخاصم) على معنى الصيغة الصرفيَّة، فكلُّها على صيغة التَّفاعل، وهي تدلُّ على الاشتراك في أمر[1]، كما تتَّفق هذه الألفاظُ في كونها مرتبطةً، فكلٌّ من التَّنازع والتَّخاصم قد يُفضي إلى التَّقاتل.

وتختلف هذه الألفاظُ: في كون التنازع والتَّخاصم يُطلقان على سبيل الحقيقة، أمّا التَّقاتُل؛ فيطلق على الحقيقة بمباشرة أسباب القتل، وقد يُطلق على التنازع والتخاصم على سبيل المجاز؛ لأنَّهما قد يفضيان إلى القتل.

الشَّيعة والجماعة والأتباع:

عمومُ الجماعة واختصاص الشَّيعة بواحد

بين هذه الألفاظ عمومٌ وخصوص، فلفظُ الجماعة عامٌّ في كلِّ تجمُّع لأشخاص، ويختصُّ الأتباع بأنَّهم أشخاص يتابعون جهة واحدة، وأمّا الشَّيعة؛ فهي جماعة خاصة تتشيَّع لواحد، وتميل إليه من محبَّتهم له، وأصلها من الشياع، وهي الحطب الدِّقاق التي تُجعل مع الجزل في النار لتشتعل، كأنَّه يجعلها تابعًا للحطب الجزل لتشرقَ[2].

الإغاثة والنُّصرة والمعونة:

عمومُ المعونةِ وخصوص النُّصرة بالغلبة والإغاثة بالشدَّة

الإغاثةُ: تقديمُ الغوث، وهو الإنقاذ من الشِّدَّة والهلكة، والمعونة: تقديم العونِ، فهما يشتركان في عموم تلبية الدُّعاء، إلا أنَّ الفرقَ بينهما من جهة أنَّ طالبَ الغوثِ مسلوبُ القدرة، وطالب العون ضعيفها[3]، والنُّصرة لا تكون إلّا على المنازع والخصم والمناوئ المشاغب، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره، تقولُ: أعانه على من غالبَهُ، ونازعه، ونصره عليه، وأعانه على فَقْره؛ إذا أعطاه ما

(1) الحملاوي، شذا العرف، ص: 30 - 33.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 307.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 298/ 2.

يعينه، وأعانه على الأحمال، ولا يقال: نصره على ذلك، فالإعانة عامَّةٌ والنُّصرة خاصة[1]، كما تشترك الاستعانة والاستغاثة بالمخلوق بكونِها على نوعين: أحدُهما فيما يقدر عليه، وهذا جائزٌ، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: 2]، وقال: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾، وثانيهما فيما لا يقدر عليه إلّا اللّهُ، كالاستعانة بالأموات، والاستغاثة بالأحياء، من شفاء المرضى، وتفريج الكربات، ودفع الضرِّ، وهو غيرُ جائز[2].

الوَكْز واللَّكْز:

الـوَكْـزُ بجميع الـكـف، والـلَّـكـز بأطراف الأصابع

يشتركُ الوَكْزُ واللَّكز في كونهما ضربًا بالكفِّ، ويختلفان في كون الوكز بجميع الكف، والثاني: بأطراف الأصابع، وقيل بالعكس، وقيل: اللَّكز في الصدر، والوَكز في الظَّهر، وقيل: اللَّكزُ في اللَّحا، والوَكْزُ على القلب، والنَّكزُ كاللكز، وحكى الثَّعلبي أنَّ في مصحف ابن مسعود (فنكزه) بالنّون، والمعنى واحد[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 189.
(2) الفوزان، كتاب التّوحيد، ص: 101.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 227.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قبولُ اللهِ المنّان توبةَ موسى عليه السلام

لمّا ذكر موسى عليه السلام أنَّ ما صدر منه من عمل الشَّيطان وتغريره، وهو يشتمل على ظلمٍ لنفسِهِ؛ أتبعَ ذلك بالتَّوبة إلى الله والاعتراف بخطئِهِ وطلب غفرانه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَلَمْتُ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلُّ على خلاف الضّياء والنّور، ووضع الشَّيء في غير موضعه تعدّيًا[1]، والمقصود هنا الثّاني؛ لأنَّه حجبَ ما ينبغي أو ما يُسْتَحقُّ، أي: منعه، كمنع الضَّوء في حالة الظُّلمة، وكمنع المطر على الأرض المظلومة، والظَّلام يحجب الرُّؤية[2]، والظُّلم: الميلُ عن القصد، والعربُ تقول: الزم هذا الصَّوب، ولا تظلم عنه، أي: لا تجُر عنه، والظَّلَمَة: المانعون أهلَ الحقوق حقوقَهم[3]، وسمّى موسى عليه السلام قتْلَهُ القبطيَّ ظلمًا لنفسه؛ لأنَّه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، ولأنَّ ضرر المعصية الدنيوي والأخروي عائدٌ على نفس الإنسان وحده.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قَبول الله توبة التّائبين وتجاوزه عن ذنوب الخاطئين

يقول تعالى ذكره مُخبرًا عن ندم موسى على ما كان من قتله النَّفس الَّتي قتلها، وتوبته إليه منه ومسألته غفرانه من ذلك: ربّي إنّي ظلمتُ نفسي بقتل النَّفس الَّتي لم تأمرني بقتلها، فاغفر لي ذلك الذنب، فغفرَ الله له إنَّ الله غفورٌ لذنوب عباده، رحيمٌ بهم[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 541، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

الاعترافُ بالذَّنب وتفريع طلب الاستغفار عليه

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ عن قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثانية من الأولى منزلةَ نفسِها(1)، فقد وقعت جُمَلَةُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾؛ لأنَّ الجزمَ بكون ما صدر منه عملًا من عمل الشَّيطان وتغريره يشتمل على أنَّ ذلك ظلمٌ لنفسه، وأن يتوجَّه إلى اللّه بالاعتراف بخطئه، ويُفرِّع عليه طلب غفرانه(2).

نكتةُ إيثارِ النِّداء بعنوان الرُّبوبيَّة:

مِنْ آثارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ) إحسانُهُ ورَحْمَتُهُ بِخَلْقِهِ

أوثرَ النِّداءُ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾؛ لِما في اسم اللّه الرَّبِّ من الدَّلالة على إحسانِه سبحانه بعباده والشَّفقة عليهم، وذلك أنَّ اسم الرَّبِّ مشتقٌّ من التَّربية، ومعناها يرجع إلى تدبير أمر المربوبِ والرفق واللُّطف به؛ فهو أنسبُ لسياق الدُّعاء والتَّضرُّع(3)، فناسب نداء موسى عليه السلام بـ ﴿رَبِّ﴾ للإشعار بحاجته إلى ربِّ العالمين، وأنَّه الملجأُ الَّذي يلجأ إليه الخلقُ دائمًا.

بلاغةُ حذفِ حرف النِّداء في ﴿رَبِّ﴾:

الدّاعي قريب من ربِّه المجيب

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾؛ للإيجاز وللإيذان بقربِ اللّه تعالى من الدّاعي، وللإشعار بطلب المبادرة إلى التَّضرُّع بعد المعصية، ويُحتمل أن تكونَ الصيغة للنداء، وهو ليس بنداء، بل هو بمعنى الدُّعاء والتَّضرع؛ ليكون على

---

(1) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 91.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 16، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 149.

خلاف مقتضى الظّاهر، ونكتة مجيء الدُّعاء والتَّضرُّع بصيغة النِّداء الَّذي حُذفت منه الأداةُ هي الإشعار بقرب الدّاعي إلى المدعوِّ مع إقبالِ المدعوِّ إليه بالاستجابة، ولأنَّ الدُّعاءَ يُصدَّر بالنِّداء غالبًا، ويحتمل أن يكون حذْفُ الأداة لنكتةٍ أخرى، فإنَّه لمّا كان النِّداء فيه طرفٌ من معنى الأمر؛ حُذِفت (يا) من نداء الرَّبِّ، ليزول معنى الأمر؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّده، وتُظهر معناه، فكان في حذف (يا) النِّداء إجلالٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لربِّ العالمين(1).

فائدةُ التَّأكيد بـ﴿إِنِّي﴾:

تأكيدُ النَّدمِ والتَّوبةِ بالاعترافِ بالذَّنب والحَوْبَة

أُكِّد تضرُّع موسى ﷺ بحرف (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ للدَّلالة على فرط ندمِه واعترافه بخطئه؛ إذ قتل نفسًا، لم يُؤمَر بقتْلها، وتأكيده على مبادرته للتَّوبة وطلب المغفرة من ربِّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الماضي في ﴿ظَلَمْتُ﴾:

ظلمُ موسى نفسَه بقتْلِهِ النَّفسَ المحرَّمة

أوثرَ استعمالُ صيغة الماضي في الفعل ﴿ظَلَمْتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ للإشعار بأنَّ ظلْمَهُ نفسَهُ وقع في وقت مضى، وهو وقت قتلِه نفسًا لم يُؤمر بقتلها، فظلمُ موسى ﷺ نفسَهُ منقضٍ ليس مستمرًّا ولا متجدِّدًا.

نكتةُ تسميةِ خطأِ موسى ظلمًا:

عادةُ المقرَّبين استعظامُ أخطائهم

في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، سمّى موسى ﷺ فعله ظُلمًا، وإن كان قد وقع خطأً على عادة المقرَّبين في استعظام ما وقع منهم، ولم يزل ﷺ يعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنَّه قد غفر حتى إنَّه في القيامة، يقول: «وقتلت نفسًا لم أؤمرْ بقتلها»(2)، حسبما صحَّ في حديث الشفاعة.

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 65/ 9، والخفاجيّ، عناية القاضي: 159/ 4، والقونويّ، حاشيته على البيضاوي: 360/ 8.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: (رقم: 4712)، ومسلم في صحيحه: (رقم: 194).

فائدةُ إسنادِ الظُّلم إلى تاء الفاعل:

نسبةُ الفعل المقدَّر إلى العبد لتسبُّبه به

أَسند موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ الظُّلم إلى نفسه، وإن كان موت القبطيِّ بتقدير اللّه ﷻ؛ لما اكتسبه من التسبُّب بالوَكز، وفيه إشعارٌ بأنَّ السَّيئات تُنسب إلى النَّفس مع الاعتقاد بأنَّ اللّه تعالى هو الذي يقدِّرها، وهو خالق الحركات والسَّكنات.

سرُّ الإخبارِ عن ظلم النَّفسِ قبل الدُّعاء:

نهجُ الابنِ نهج الأبِ في التزام الأدب قبل الطَّلب

أخبر موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ بظلمِهِ قبل الدُّعاء أدبًا مع اللّه، واعترافًا بخطئه، ثمَّ فرَّع عليه طلب غفرانه، وقد نهج بذلك نهج أبيه آدمَ عليه السلام عندما قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23][1].

نكتةُ تعليقِ الظُّلم بالنَّفس:

ضررُ المعصيةِ الدُّنيوي والأخروي عائدٌ على نفس الإنسان وحده

في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾، علَّق موسى عليه السلام الظُّلم بنفسه؛ لأنَّ ضررَ المعصية الدُّنيويَّ والأخرويَّ عائدٌ على نفس الإنسان وحدَهُ، فقتْلُ موسى عليه السلام نفسًا - لم يُؤمر بقتلها - ذنبٌ استوجبَ منه الاستغفار والإقرار.

وزعم بعضُهم أنَّه عليه السلام أراد بقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: إني عرَّضتها للتَّلف بقتل هذا الكافرِ؛ إذ لو عرف فرعونُ ذلك؛ لقتلني به، وأراد بقولِهِ: ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾، فاستر عليَّ ذلك، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

ندمُ موسى عليه السلام على وكزةٍ وافقت الأجل

يتضمَّن قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ كنايةً عن نَدَمِ موسى عليه السلام على ذلك الوكز، الذي كان فيه ذهابُ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 585.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 264.

نفس القبطي، فحملَهُ ندمُهُ على الخضوع لربِّه والاستغفار من ذنبِهِ من أجل أنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتّى يُؤمر، وأيضًا فإنَّ الأنبياء يُشفقون ممّا لا يُشفق منه غيرهم[1].

سرُّ العطفِ بالفاء في ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾:

المخرجُ من الذُّنوب المبادرة إلى التَّوبة والاستغفار

عطفَ قولَهُ تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ على سابقه بحرفِ الفاء الدّال على التعقيب؛ إشعارًا بسرعة توبة موسى عليه السلام، فقد أعقبَ اعترافَهُ بذنبه طلبُ المغفرة من ظُلم النَّفس إيذانًا بأنَّ مخرجَ الظُّلم هو الاستغفار[2].

بلاغةُ عطف الطَّلبِ على الخبر بالفاء:

الاستغفارُ بإظهار النَّدامة والتحسُّر، وتعجيل المغفرة

عُطِف في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ الطَّلبُ في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ على الخبر ﴿إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾؛ لأنَّ المرادَ من الخبر: ﴿إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ إنشاءُ التحسُّر والنَّدامة بدلالة الجملة على النَّدم بطريق الكنايةِ - كما تقدَّم - وهذا أبلغُ من أن يقال: استغفرت فاغفر لي؛ لأنَّه استغفارٌ بإظهار النَّدامة والتحسُّر[3]، ووُصِلَ الطلبُ بما قبلَهُ بحرف الفاء الدّالة على التعقيب، وإفادة ترتُّب ما بعدها على ما قبلها، بمعنى أنَّ اللّٰه سبحانه استجاب استغفاره، فعجَّل له بالمغفرة، فلمّا طويت جملة: (فاستجاب اللّٰه له)؛ دلَّ على سرعةِ الاستجابة بأن جاءت عقب الطَّلب من غير مهلةٍ[4].

نكتةُ حذفِ المفعول في فعل المغفرة:

التَّأكيدُ على طلب المغفرة في حدِّ ذاتِها

طويَ في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾، ذِكرَ المفعولِ به؛ لكلا الفعلين ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ و﴿فَغَفَرَ﴾، وتقديرُ الكلام: فاغفر لي زلَّتي،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 261.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 485.
(4) النّسفي، التّيسير في التفسير: 11/ 414، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 91.

أو فاغفر لي خطئي، فغفر له زلَّته، أو فغفر له خطأه، والنُّكتة في حذف المفعول التَّركيز على معنى الفعل ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ في حدِّ ذاته، والتَّأكيد على طلب المغفرة بعينها، وليس السّياق في بيان الذنب المغفور، ومعلوم إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح[1].

بلاغةُ الجناسِ في الآية:

جناسُ الإلحاق بما اتَّفق في أصل الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ محسِّنٌ بديعي يسمّى بجناس الاشتقاق، حيث توافقت كلمتا ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ و﴿فَغَفَرَ﴾ في الحروف الأصول، وهو ملحقٌ بالجناس الاصطلاحيِّ؛ لأنَّ كثيرًا ما يلحق بالتجنيس الكلمتان الراجعتان إلى أصل واحد بالاشتقاق؛ لما فيه من المسامحة[2].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾:

مـزيـدُ الإكـرام بـقـبـول تـوبـة موسى عليه السلام

ورد في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ حرفُ اللّام، ومعناها التَّعليل، بمعنى: أنَّ طلبَ المغفرةِ وحصولها كان من أجل موسى عليه السلام بما اتَّصف به من توبة وإنابة، وليفيد تقريرَ سببِ المغفرة وترتُّبها على اعترافه بالخطأ ودعائه المذكور.

دلالةُ فصلِ الجملة في الآية:

تعليلُ مغفرة ذنوب التّائبين بأنَّه هو الغفور الرَّحيم

وردت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مفصولةً عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾؛ لأنَّ بينهما ما يُسمَّى في البلاغة بـ (شبه كمال الاتِّصال)، وهو كون الجملة الثانية قويَّةَ الارتباطِ بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصِلَ عنها كما يُفصَل الجوابُ عن السُّؤال[3]، فجملة:

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) العصام الأسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(3) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجملة: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾؛ إذ علَّل المغفرةَ له بأنَّه شديدُ الغفران ورحيم بعباده[1].

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في الآية:

تبشيرُ التَّوّابين بسَعة رحمة ربِّ العالمين

تتابعَت في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عدَّةُ مؤكِّدات؛ التأكيد بـ(إنَّ)، والجملة الاسمية، وضمير الفصل، وكلُّها من مؤكِّدات مضمون جملة الإسناد، وقد جاء الكلامُ على أسلوب الخبر الإنكاري على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ موسى عليه السلام يعلم أنَّ اللّه هو الغفور الرَّحيم، ونكتة ذلك أنَّ مثل هذا الفعل العظيم قد يشوبُ صاحبه شكٌّ في أنَّ اللّه تعالى قد لا يغفر له؛ تنبيهًا لعظم خطر الفعل، فأكَّد الكلامَ؛ للدَّلالة على عظم مغفرتهِ، وأنَّ رحمته قد وسَعت كلَّ شيءٍ، وفيه أيضًا حثٌّ على اجتنابِ الكبائر وعدم تكرارِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بضمير الفصل:

ومن يغفر الذُّنوبَ إلّا اللهُ

أفاد ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أسلوب القصر، بمعنى: اختصاص المسند إليه - وهو الضَّميرُ العائد على لفظ ﴿رَبِّ﴾ - بالمسندين المذكورين: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ زيادةً على معنى التأكيد وتقريرًا له، والمعنى: أنَّه هو وحده الغفور الرَّحيم[2].

نكتةُ التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

مدحُ ربِّ العالمين بالأسماء الحسنى والصِّفات العلا

عُرِّفَ الوصفان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بـ (أل) الدّالة على استغراق الصِّفة، وكمالها في الممدوح سبحانه، فرحمةُ اللّه عز وجل ومغفرته مطلقةٌ وسَعت كلَّ شيءٍ، فلَهُ الأسماءُ الحسنى والصِّفات العلا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 92.
(2) الشربينيّ، السّراج المنير: 3/ 88.

براعةُ الاقترانِ بين وصفي ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

وعدُ التّائبين بالإحسان والغفران المبين

وصف ربُّنا سبحانه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذاته العليَّة بهاتين الصِّفتين: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فوصْفُ الغفورِ يقتضي سترَ ذنوب العصاة الَّتي ارتكبوها، ووصفُ الرَّحيمِ يقتضي أنَّه سبحانه يتولّاهم برحمته بقبول توبتهم وترغيبهم في الرجوع إليه والإنابة بين يديه، فيكون ذلك أدعى إلى تقوية أملهم بمغفرة اللّهِ لهم، والنُّكتة في الجمع بين هذين الوصفَين في الإخبارِ عن اللّه تعالى التَّنبيهُ على أنَّه تعالى وعد التّائبين باللُّطف والرَّأفةِ والإحسان مع الغفران[1].

نكتةُ تقديم صفةِ الغفور على الرَّحيم:

التَّخلية قبل التَّحلية

الغفور من المغفرة وهو السِّتر، يُقال: غفر له ذنبَهُ، أي: ستره على صاحبه، فاللّهُ سبحانه يستر ذنوب العصاة أوَّلًا بستره الجميل، ثمَّ يأتي بعده الإنعامُ والتفضُّل بقبول توبتهم؛ رحمةً منه بهم ولطفًا، فترتيب الصِّفات ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من باب الترقّي من السَّتر والمحو إلى الإنعام والتفضُّل، فيكون من باب التخلية قبل التحلية.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة:

المبالغةُ في الغفران والرَّحمة والإنعام

جاء الوصفانِ على صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لإفادة كثرةِ مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم، فصفةُ (غفور) على وزن (فعول) أفادت المبالغةَ في الغفران وستر الذُّنوب ومحوها، وصفةُ (رحيم) على وزن (فعيل) أفادت المبالغة في إنعامه وتفضُّله بقبول توبة العصاة التائبين والعفو عنهم.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 485.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾

[القصص: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شُكْرُ موسى عليه السلام ربَّهُ المنّان

لمّا ذكر اللّه سبحانه في الآية السّابقة توبةَ موسى عليه السلام من ذنبهِ، وما أنعم اللّهُ سبحانه عليه بالإجابة إلى سُؤلِهِ وقبول توبتِهِ؛ ذكرَ في هذه الآية أنَّه شكر ربَّه على هذه النِّعمة التي أنعم بها عليه(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهِيرٗا﴾: (ظهر) أَصْل صحيح واحد يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهورًا فهو ظاهر؛ إذا انكشف، وبرز، ولذلك سُمّي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النَّهار وأَضْوَؤُها، والأَصْلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنْسانِ، وهوَ خِلافُ بَطْنِه، وهوَ يَجْمَعُ البُروزَ والقوَّةَ، والظَّهيرُ: المُعِينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِكَ، والمُظاهَرَةُ: المعاونة، والتَّظاهُرُ: التعاون، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [القصص: 86]، أي: معينًا(2)، وهو المقصودُ بالآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّكر على النِّعم ومعاداة أهل الإجرام والنِّقم

قال موسى عليه السلام: ربّي بما أنعمت عليَّ بالتوبة والمغفرة والنِّعم الكثيرة، فلن أكونَ معينًا لأحد على معصيته وإجرامه(3).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الفصلِ في الآية:

مقابلةُ سترِ الله وغُفرانه لموسى عليه السلام بشكر نعمه

فُصِلَت الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 258، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 21/ 120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.

﴿أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ لأنَّ بينهما ما يسمّى في البلاغة بـ (شبه كمال الاتصال)، وهو كونُ الجملة الثانية قويَّة الارتباط بالأولى، فقد وقعت جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، ففُصِلت عنها، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[1]، فإنَّه هنا لمّا أنعمَ اللّه سبحانه على موسى ﵇ بالإجابة إلى سؤله؛ تشوَّف السّامع إلى شكرِه عليها، فأجيب بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾[2].

مناسبةُ إعادةِ لفظ: ﴿قَالَ﴾:

التَّنبيهُ على اتِّصال كلام الكليم

أُعيد فعلُ القول في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾؛ لإفادة تأكيد الفعل ﴿قَالَ﴾، في قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾، كما أُعيد القول للتَّنبيه على اتِّصال كلام موسى، حيث وقع الفصلُ بينه بجملتي: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالباء في الآية:

أثرُ حروفِ المعاني في ثراء النَّظمِ القرآنيِّ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ بحرف الباء في لفظ ﴿بِمَآ﴾، وهي تحتمل أن تكونَ سببيَّةً، أي: بسببِ ما أنعمتَ عليَّ مِنَ القوَّة أشكُرُك، فلنْ أستعملَ القوَّةَ إلّا في مُظاهَرةِ أوليائك[4]، ويحتمل أن تكونَ للقسم، و(ما): مصدرية، وجواب القسم محذوف، أي: أقسم بإنعامك عليَّ لأمتنعنَّ عن مثل هذا الفعل، وقيل: لأتوبنَّ[5]، وقيل: إنَّ الباء هنا للاستعطاف، كأنَّه قال: ربّي اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرةِ، فلن أكونَ - إن عصمتَني - ظهيرًا للمُجرِمين[6].

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 92.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 92.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 264.
(6) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 398.

نكتةُ التعبيرِ بـ (ما) في الآية:

شكرُ الإنعام بالابتعاد عن الآثام

تحتمل (ما) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ أن تكون موصولةً أو مصدرية، فعلى فرض كونها موصولةً يكون قد حذف العائد من الصِّلة؛ لأنَّه ضميرٌ مجرور بمثل ما جُرَّ به الموصول، والحذف في مثله كثيرٌ، والتقدير: (بالَّذي أنعمت به عليَّ)، وعلى فرض أن تكون (ما) مصدريَّة، فالتَّقدير: (أقسم بإنعامك عليَّ؛ لأمتنعن عن مثل هذا الفعل)، واختلف العلماء في تحديد هذا الإنعام: فمنهم من قيَّده بالمغفرة وعدم المعاقبة على قتل القبطيِّ، واستشكله بعضهم في كيفية معرفة المغفرة قبل الوحي[1]، ومنهم من أطلق الإنعام فيما أوتيه موسى من الحكمة والعلم والجاه والعزَّة والمَنَعَة[2].

بلاغةُ التَّعبير بـ (عَلى) في ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾:

نِعَمُ الرَّحمنِ تعلو وتغطّي الإنسانَ

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ التَّعبيرُ بحرف الجرِّ (على) الدالِّ على الاستعلاء، وهو هنا استعلاء مجازيٌّ، فنِعمُ اللّه سبحانه الكثيرة من العلم والحكمة والاصطفاء والعناية... تعلو موسى عليه السلام وتغمرهُ، وتغطّيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفاء في ﴿فَلَنۡ أَكُونَ﴾:

القسمُ بنصرة المظلومين وعدم مظاهرة المجرمين

وُصِل قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بحرف الفاء، وتحتمل السببيَّة، والتَّقدير: (لما أنعمت عليَّ بهذا الإنعام؛ فإني لا أكون معاونًا لأحد من المجرمين، بل أكون معاونًا للمسلمين)، وهذا يدلُّ على أنَّ ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية[3]، ويحتمل أن تكون الفاء رابطة؛ لأنَّ الموصولَ كثيرًا ما يعامل معاملة اسم الشرط، فيقترن خبره ومتعلِّقُهُ بالفاء تشبيهًا

---

(1) الواحدي، البسيط: 13/ 361.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 280، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 225.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 258، وابن عادل، اللّباب: 14/ 258.

له بجزاء الشرط، وقد دلَّ هذا النَّظم على أنَّ موسى أراد أن يجعل عدم مظاهرتهِ للمجرمين جزاءً على نعمة الحكمةِ والعلم، بأن جعل شكر تلك النِّعمة الانتصار للحق وتغيير الباطل[1].

فائدةُ النَّفي بـ(لَنْ):

إلـــزامُ مـوسى نـفـسـه بـنـصر الأولياء ومعاداة الأعداء

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بحرف (لن)، وهو لنفي المستقبل مع تأكيد النَّفي، والتَّقدير: (بسبب الَّذي أنعمته عليَّ من القوَّة أشكرك؛ فلن أستعملها إلّا في مظاهرة أوليائك)، وهو إلزام لنفسه بنصرة أوليائه ﷺ كالنَّذْر[2]، وذهب الكسائيُّ والفرّاء إلى أنَّ هذه الآية خبرٌ، ومعناها الدُّعاء، وأنَّ (لن) واقعةٌ موقعَ (لا)، كأنَّه قال: ولا تجعلني ظهيرًا للمجرمين، ولكن ردَّه ابن هشام بأنَّ فعل الدُّعاء لا يسند إلى المتكلِّم؛ بل إلى المخاطَب أو الغائب، نحو: يا ربّي لا عذَّبتَ فلانًا، ويجوز: لا عذَّبَ اللّه تعالى عَمْرًا[3].

نكتةُ إيثار نفي الكون في الآية:

نفيُ الكون أبلغُ من نفي الفعل

أوثرَ نفيُ الكونِ في قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، بدل نفي الفعل (فلن أظاهر...)؛ لأنَّ نفيَ الكون أبلغُ من نفي الفعل من جهة أنَّه يقتضي الدَّوام والاستمرارَ والمبالغة في رسوخ الوصف.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿ظَهِيرٗا﴾:

الـظَّـهـرُ أعـلى وأقـوى جـزء في جسم الإنسان

استُعمل لفظُ ﴿ظَهِيرٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ومعناه: المُظاهِرُ، أي المُعين، وهو فعيل بمعنى مفاعل، أي: مُظاهِر، وهو مشتقٌّ من: ظاهر عليه؛ إذا أعان من يغالبه على غلبه، وأصله الأصيل مشتقٌّ من اسم جامد، وهو اسم الظهر من الإنسان أو الدابَّة؛ لأنَّ المعاون أحدًا على غلب غيره، كأنَّه يحمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 93.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 265.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 375.

الغالب على المغلوب، كما يحمل على ظهر الحامل، فيكون بهذا المعنى استعارة تصريحية[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظ: ﴿ظَهِيرًا﴾:

نفيُ المظاهرة والمعاونة للمجرمين

جاءَ لفظ ﴿ظَهِيرًا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لإفادة الإبهام والعموم، إضافةً إلى مجيء هذه النِّكرة في سياق النَّفي، فتقتضي العموم أيضًا، والمقصود من ذلك المبالغةُ في نفي المظاهرة والمعاونة للمجرمين.

فائدةُ التَّعبيرِ باللّامِ في ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾:

مظاهرةُ المستضعفين المؤمنين على المجرمين

وردَ في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ حرفُ اللّام، ومعناه التعليل، أي: فلن أكونَ ظهيرًا لأجل المجرمين، بل لمظاهرة المستضعفين المؤمنين من قومي على المشركين.

سرُّ التعريف بـ (أل) في ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾:

تنوُّعُ الدَّلالة بين العهد أو الاستغراق

تحتمل (أل) في لفظ ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ العهد أو الاستغراق، فإن كانت للعهد؛ فالمقصود بالمجرمين الإسرائيليُّ الذي خاصمه القبطي، فأدت معاونته إلى جرم، وعلى الاستغراق يكون المقصودُ به كلَّ المجرمين، ويدخل فيه فرعونُ وقومه دخولًا أوَّليًّا، وهو الأَوْلى.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾:

دلالةُ الإجرامِ بين الحقيقة والمجاز

استُعمل لفظُ ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، والمجرمون جمع مجرم، والمراد به من أوقع غيره في الجُرم، أو من أدَّت معاونته إلى جُرم، كالإسرائيليِّ الذي خاصمه القبطيُّ، فأدَّت معاونته إلى جرم في نظر موسى عليه السلام، فيكون في المجرمين مجازٌ بالنِّسبة للإسناد إلى السَّبب، وجوَّز أن يرادَ بذلكَ الكفّار، وعنى بهم من استغاثَهُ ونحوه، بناء على أنَّه لم يكن أسلم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 57.

وقيل: أراد بالمجرمين فرعونَ وقومه، والمعنى: أقسم بإنعامك عليَّ لأتوبنَّ، فلن أكون معينًا للكفّار بأن أصحبهم، وأُكثِّر سوادهم، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون، ويركبُ بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمّى ابن فرعون[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المظاهرة والتَّقوية والنُّصرة والإعانة:

عمومُ الإعانة وخصوص النُّصرة بالغلبة والتقوية بالقوّة

المُظاهرة مشتقَّةٌ من مادة الظَّهْر، وهي مفيدة لِمَعْنى المعونة على المجاز، وتختصُّ النُّصرة بأنَّها لا تكون إلّا على المنازع والخصم والمناوئ المشاغب، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره، تقول أعانه على من غالبه، ونازعه ونصره عليه، وأعانه على فَقْره؛ إذا أعطاه ما يعينه، وأعانه على الأحمال، ولا يقال: نصره على ذلك، والتَّقوية من اللّه تعالى للعبد هي إقداره على كثرة المقدورِ، ومن العبد للعبد إعطاؤُهُ المال وإمداده بالرجال، وهي أبلغُ من الإعانة، ألا ترى أنَّه يقال: أعانه بدرهم، ولا يقال: قوّاه بدراهم، وإنَّما يقال: قوّاه بالأموال والرِّجال، وقال بعضهم: التَّقوية تكون على صناعة، والنُّصرة لا تكون إلّا في منازعة، فالإعانةُ عامَّة والتَّقوية والنُّصرة خاصَّة[2].

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 398، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 264.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 137، 189، والكفويّ، الكلّيات، ص: 592.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [القصص: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خـــوفُ مـوسى عليه السلام من عواقب فِعلته

لمّا ذكر اللّه سبحانه قصَّةَ قتلِ موسى القبطيَّ، وأتبعه ما هو الأهمُّ من أمره بالنَّظر إلى الآخرة؛ ذكر ما تسبَّب عنه من أحوال الدُّنيا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَآئِفٗا﴾: (خوف) أصلٌ يدلُّ على الذُّعرِ والفَزَع، والخَوْف: توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنَّ الرَّجاء والطمع توقُّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادُّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، والخيفَةُ: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ [طه: 67 - 68][2]، والمقصود بالآية: توقُّع مكروه عن أمارة معلومة.

2) ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: (رقب) أصلٌ واحد مطَّرد يدلُّ على انتصابٍ لمراعاة شيء، ومن ذلك الرَّقيب، وهو الحافظ، ورقب الشَّيءَ يرقبه: انتظره ورصده، وحرسه وحفظه، وهو من لازم العلوِّ والإشراف على الأماكن؛ لأنَّ المُشرف مطَّلع على ما دونه، ثمَّ إنَّهم كانوا يفعلون ذلك، أي: يصعدون على الأماكن المرتفعة للاطِّلاع، ويُسمّونها مَراقِبَ، ورقب الإنسانَ يرقبه هو أن ينتظره، ثمَّ قيل لكلِّ من حافظ على شيء وراعاه: راقبه، وارتقبه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (خوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رقب).

3) ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾: (صرخ) أصلٌ يدلُّ على صوت رفيع، من ذلك الصُّراخ، يقال: صَرَخَ يَصْرُخُ، وهو إذا صَوَّتَ، ويُقال: الصّارِخُ: المستغيثُ، والصّارِخُ: المغيثُ، ويُقال: بلِ المُغيث مُصْرِخٌ[1]، والصَّريخُ فعيلٌ بمعنى مُفْعِل، أي: مُصْرِخ، مثل: نذير بمعنى: مُنْذِرٍ، وسميع بمعنى: مُسْمِع[2]، والمراد بقوله: ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ في الآية: يستغيثه، ويستنصره بأعلى صوته[3].

4) ﴿لَغَوِيٌّ﴾: (غوي) أصل يدلُّ على خلاف الرُّشد وإظلام الأمر[4]، والغَواية بفتح الغين: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجل غاوٍ وغوٍ وغويٌّ وغيّان: ضالٌّ: وأغواه هو[5]، والغيُّ: جهلٌ من اعتقاد فاسد[6]، ومعناه في الآية: أنَّ الإسرائيليَّ يشادُّ من لا يطيقه، ثم يروم الغوث من موسى عليه السلام يومًا بعد يوم[7].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

عـتـاب مـوسى للإسرائيليّ بعد قتاله قبطيًّا آخر

لـمّا وقعت حادثةُ قتلِ موسى القبطيَّ؛ أصبح موسى في مدينة فرعونَ خائفًا، يترقَّب الأخبار ممّا يتحدَّث به النّاس في أمره وأمر قتيله، فرأى صاحبه بالأمسِ يقاتل قبطيًّا آخر، ويطلب منه الانتصارَ له، قال له موسى: إنَّك لكثيرُ الغَواية ظاهرُ الضلال[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ العطف بالفاء في ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

شـعـورُ مـوسى بـالـخـوفِ عقبَ مقتل الـرَّجـلِ بالوَكز

وُصِلَتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ بما قبلها بحرف الفاء الدّالَّةِ على التعقيب، والمعنى: أنَّه عقبَ موت

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صرخ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرخ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 13.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(6) الرّاغب، المفردات: (غوي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 94.
(8) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.

ذلك الرجلِ من الوَكز أصبحَ موسى عليه السلام من غدِ ذلك اليوم خائفًا من أن يظهرَ أنَّه هو القاتل، فيُطلبَ به، ويقتصَّ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

دوامُ خوفِ موسى بعد قتلِ الرَّجل

عُبِّرَ بالفعل ﴿فَأَصۡبَحَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾، ويُحتمل في هذا النَّظم أن يكون تامًّا، أي: دخل في الصباح حالةَ كونهِ في المدينة الَّتي قتل فيها القبطيَّ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ دخول المدينة والقتل كانا بين العشاءين، حين اشتغل الناس بأنفسهم، كما ذهب إليه بعضُهم، كما يحتمل أن يكون الفعلُ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ ناقصًا، بمعنى صار، لغرض استيعاب اتِّصاف المسند إليه بالمسند في جميع الأوقات، كما تقول: أصبح زيدٌ عالمًا، والمعنى أنَّ موسى صار دائمَ الخوف في كلِّ أوقاتِهِ في تلك المدينة الَّتي قتل فيها القبطيَّ[1].

فائدةُ التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

ارتباط أحداث القصَّة بالعهد الذهنيِّ والذِّكْريِّ

جاء لفظ ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالة على تعريف العهد الذكري، أي: المدينة التي ذُكِرَت في أوَّل القصَّة، وهي المدينةُ التي دخلها وقت غفلة أهلها، وقتل فيها القبطي.

بلاغةُ تعدُّدِ الخبر في ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾:

دقَّةُ الوصف القرآنيِّ لأحوال النَّفس البشريَّة

أخبر في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ عن موسى عليه السلام بوصفي: ﴿خَآئِفٗا﴾ و﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ للتَّعبير عن الحالة النفسيَّة الَّتي كان يعاني منها موسى عليه السلام بعد جنايته الَّتي جناها، وقتْلِهِ النَّفسَ الَّتي لم يُؤمرْ بقتلها، فصار يمشي خائفًا أن يؤخذ، فيُقتل بها، وينتظر ما الَّذي يتحدَّث به الناس، ممّا هم صانعون في أمره وأمر قتيله[2].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 281، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 21/ 122.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 192.

نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل في ﴿خَآئِفٗا﴾:

جوازُ الخوف على الأنبياء لطبعهم البشريِّ

وُصِف موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18] باسم الفاعل ﴿خَآئِفٗا﴾ من الخوف، والخوفُ من الأعداء سنَّةُ اللّه في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم؛ ردًّا على من قال غير ذلك، فالخوفُ لا ينافي المعرفةَ باللّه ولا التوكُّل عليه، فأصبح موسى عليه السلام خائفًا من قتلِ النفس أن يُؤخذ بها[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾:

استعارةُ الترقُّب للحذر من الأعداء

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ التَّعبيرُ بالفعل يترقَّب، وحقيقتُهُ الانتظار، وهو هنا مستعارٌ للحذر، فموسى عليه السلام صار بعد فعلته يراقب ما يقال في شأنه؛ ليكون متحفِّزًا للاختفاء أو الخروج من المدينة؛ لأنَّ خبرَ قتلِ القبطي لم يُفشَ أمرُه؛ لأنَّه كان في وقتٍ تخلو فيه أزقة المدينة - كما تقدَّم - فلذلك كان موسى يترقَّب أن يظهر أمرُ القبطيِّ المقتول[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَتَرَقَّبُ﴾:

حذر موسى عليه السلام من فشوِّ أمر القتيل

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ بصيغة المضارعِ في الفعل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ لنكتة تصوير حالة موسى عليه السلام واستحضارها في النُّفوس، كما يفيد المضارع إفادةَ تجدُّد حالة قلق موسى عليه السلام ودوام مراقبته لأخبار النّاس وحديثهم عن المقتول وقاتله.

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾:

تشوُّف النَّفس لمعرفة تفاصيل القصصِ

أوثرَ حذفُ مفعول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾؛ لقصدِ العموم المناسب للسّياق، ولتذهبَ النَّفسُ في تقدير تفاصيل القصَّة مذاهب شتّى، ولهذا قال المفسِّرون: قيل: ينتظر، ويتوقَّع مكروهًا يقع به، وقيل: ينظرُ هل عَلِم به أحدٌ؟ وقيل:

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 202.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 91.

ينتظر عِلمَ فرعون، وأن يخبر بذلك في وقته، وقيل: يترقَّب نصرة ربِّه ﷻ، وقيل: يترقَّب أن يسلمه قومه، وقيل: يترقَّب المغفرة[1].

فائدةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

التَّشويقُ بتتابع أحداث القصَّة

وُصِلَت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ بما قبلها بحرف الفاء الدّالَّة على التعقيب وتتابع أحداث القصَّة، فموسى عليه السلام مرَّ، وهو بحالة التَّرقُّب، وإذا ذلك الإسرائيليُّ - الذي قاتل القبطيَّ بالأمس - يقاتل آخرَ من القبط، وكان قتْلُ القبطيِّ قد خفي عن الناس، واكتتم، فلمّا رأى الإسرائيليُّ موسى؛ استصرخه[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية:

مفاجأةُ موسى عليه السلام بصراخ الرجل الذي استنصره بالأمس

ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ حرف (إذا) الدّالة على المفاجأة، بمعنى: أنَّ موسى عليه السلام تفاجأ بأن وجد مجدَّدًا الإسرائيلي - الَّذي تسبَّب له في قتل نفس لم يُؤمر بقتلها، وأوقعه في جريمة لم يقصدها - يستنصره مجدَّدًا على قبطيٍّ آخر.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته:

التَّعجيبُ من حال الرجل الَّذي من قوم موسى

جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾؛ لعدم علم المخاطَب بالأحوال المختصَّة بشخصيّات القصَّة سوى ما ذُكِرَ عنها بالصِّلة، وما تسمح به الصِّلة من الوصف بجملة الصِّلة وبيان علَّة الأحكام، فقوله: ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ دلَّ على أنَّ المستصرخَ هو الإسرائيليُّ ذاته الَّذي تقدَّم ذكره في أوَّل القصَّة، كما يفيد التَّعجيب

(1) النّسفي، التّيسير في التفسير: 11/ 414، والقشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 266.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 281.

من حاله أنَّه لم يكتفِ بما تسبَّب به لموسى ﷺ من ورطةٍ كبيرة بقتل قبطيٍّ، حتّى استغاثه مجدَّدًا على قبطيٍّ آخر[1].

نكتةُ التَّعريف بـ (أل) في ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾:

دلالةُ اللّامِ على تعريف الحضور

جاء لفظُ ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ معرفًا بـ(أل)، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾، ونكتة ذلك أنَّ تعريفَهُ عوضٌ عن المضاف إليه، أي: بأمسه؛ إذ ليس هو الأمس لوقت نزول الآية، فيعني بالأمس اليوم الَّذي قبل يوم الاستصراخ، وهو في هذا السّياق معربٌ، فحركةُ سينه حركة إعرابٍ؛ لأنَّه دخلته (أل)، بخلاف حاله إذا عَريَ منها، فالحجاز تبنيه؛ إذا كان معرفةً، وتميم تمنعه الصَّرف حالة الرفع فقط، ومنهم من يمنعه من الصَّرف مطلقًا، وقد يبنى مع (أل) على سبيل النُّدور[2].

نكتةُ زيادةِ مبنى الكلمة في ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾:

طلبُ الإسرائيليِّ الإغاثة من موسى ثانية

أفادتِ السّين والتاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ الطَّلب، بمعنى: أنَّ الإسرائيليَّ كان يطلب أن يزيل ما يصرخ بسببه من الضرِّ من قبطيٍّ آخر كان يظلمه، والصَّريخ في اللغة: النَّجدة والغوث، فهو نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ [يس: 43]، أي: لا مغيثَ يغيثهم، وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ [إبراهيم: 22] أي: ما أنا بمغيثِكم، وما أنتم بمغيثي[3].

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾:

تصويرُ حالة الإسرائيليِّ واستحضارها في النُّفوس

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظ (الاستصراخ) دون (الاستغاثة) مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾؛ لإفادة معنى زائدٍ على مجرَّد الاستغاثة، وهو الدلالة على صُراخ الإسرائيليِّ ورفع

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 485.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 294، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 94.

(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 02/ 330.

صوته يستغيث موسى من بعيد، وهو المناسب لسياق المفاجأةِ المدلول عليها بلفظ (إذا)[1].

ويدلُّ المضارع في الفعل ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ على تصوير حالةِ الإسرائيليِّ واستحضارها في النُّفوس، إضافة إلى الإشارة إلى تكرُّر التَّصويت باستغاثته بموسى عليه السلام مرَّةً بعد مرَّةٍ.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ بلفظ: ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾:

الإشعارُ بقوَّة الصراخِ والمبالغة في طلب النجدة

تضمَّن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ مجازًا، علاقته سببيَّة في لفظ: ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾، فقد سُمّيت الاستغاثة استصراخًا؛ لأنَّه مبدؤها غالبًا، وسببٌ في نجدة المستغيث، ولكثرة التَّعبير بالاستصراخ عن الاستغاثة؛ صار حقيقةً عرفيَّةً، وفائدة التَّعبيرِ بالمجاز في هذا السّياق الإشعارُ بقوَّة صراخِهِ والمبالغة في طلب النجدة[2].

بلاغةُ الفصلِ في ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾:

فصلُ الكلامِ فصلُ الجوابِ عن السُّؤال

فُصِلَتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ عن الجملة قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾؛ لأنَّ بينهما ما يسمّى في البلاغة بـ (شبه كمال الاتِّصال)، وهو كون الجملة الثّانية قويَّة الارتباط بالأولى؛ فقد وقعت جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، ففُصِلت عنها، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[3]، فإنَّه هنا كأنَّه قيل: إنَّ هذا الأمر عجيبٌ، فما ترتَّب عليه من قول موسى؟ أُجيب بالإخبار عنه بأنَّه تذمَّر منه، وقال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وتكمن بلاغةُ مجيءِ الكلام على طريق الاستئناف البياني، في إغناء السّائل عن أن يسألَ ولتكثير المعنى بتقليل اللَّفظ[4].

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 21/ 122.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 485.

(3) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

(4) السكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 252.

دلالةُ عود الضَّميرِ في شبه الجملة: ﴿لَهُۥ﴾:

عتابُ موسى للإسرائيليِّ بكثرة الجدال والشِّجار

اختلفَ العلماء في مرجع الضَّمير، في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، والظّاهر أنَّه عائدٌ على الَّذي قيل فيه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: الإسرائيليُّ الَّذي كان سببًا في قتل القبطيِّ بالأمس، فقال له موسى ذلك على سبيل العتاب والتأنيب، وهو الأظهر، وقيل: الضَّمير والخطاب بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ للقبطيِّ، ودلَّ عليه قوله: ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾، ولم يفهم الإسرائيليُّ أنَّ الخطاب للقبطيِّ[1].

وتقدَّم الجارُّ والمجرور لنكتة الاختصاص، فموسى عليه السلام اختصَّ الإسرائيليَّ بهذا العتاب، والتَّأنيب بناء على أرجح الأقوال عند المفسِّرين، وكذلك على القول الآخر، فموسى عليه السلام اختصَّ القبطيَّ بهذا الكلام دون صاحبه.

فائدةُ التَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾:

تأكيدُ المقال لمطابقة الكلام لمقتضى الحال

تتابعت المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، حيث أكَّد الخبرَ بـ(إنَّ) واللّام؛ لمطابقة مقتضى الحال، فإنَّه لـمّا كان الحال مُقتضيًا أن يمكثَ ذلك الإسرائيليُّ - الَّذي تسبَّب في ورطةٍ كبيرةٍ لموسى عليه السلام - مُدَّة لا يخاصم أحدًا؛ خوفًا من جريرة ذلك القتيل، وهو ما لم يلتزم به، فلمّا لم يَعتبِرْ بما وقع؛ أكَّد له موسى عليه السلام غوايته؛ لكون ما وقع بالأمس لم يكفَّه عن الخصومة لمن لا يطيقه، وإن كان مظلومًا[2].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿لَغَوِيٌّ﴾:

كثرةُ الجدال دليل على الغواية والضَّلال

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بلفظ (غويّ) على وزن فعيلٍ من أغوى يُغوي، فيحتمل أن يكون بمعنى مُغْوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم، والمعنى على هذا: أنَّ الإسرائيليَّ مُغوٍ لموسى، فإنَّه وقع بالأمس فيما وقع فيه بسببه، ويحتمل أن يكون

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 294.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 259.

الغويُّ بمعنى الغاوي، ومعناه الشَّديد الغَواية وهي الضلال وسوء النظر، أي: إنَّك تشادُّ من لا تطيقه، ثمَّ تروم الغوث منّي يومًا بعد يوم، وليس المرادُ أنَّه ظالمٌ أو مفسد؛ لأنَّه لو كان كذلك؛ لما أراد أن يبطِشَ موسى بعدوِّه(1).

الغرضُ من الوصف بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

ضـلالُ الإسرائيليِّ كثير بيِّن غيرُ خفيٍّ

وصف موسى ﵇ الرَّجلَ من قومه في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بأنَّه غويٌّ مبين، أي: صاحب ضلالٍ كثيرٍ بيِّنٍ غير خفيٍّ؛ وذلك لأنَّه تسبَّب في قتل رجل بالأمس، وهو اليوم يقاتل آخر، أو لأنَّ عادته الجدال والقتال(2).

بلاغةُ الكناية في ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾:

كـثرةُ الخصام توجِب العتاب والملام

في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ كنايةٌ عن تذمُّر موسى ﵇ من الإسرائيليِّ، وإلقاء اللَّوم عليه، وتأنيبه بسبب كثرة خصوماتِه؛ لأنَّه يشادُّ من لا يطيقه، ثمَّ يروم الغوث منه يومًا بعد يوم، فيوقعه في مشاكل كبيرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

التَّرقُّب والتَّرصُّد:

أصل التَّرقُّب الانتصاب، وأصل الرَّصد التهيُّؤ

يشترك لفظا (التَّرقُّب) و(التَّرصُّد) في الدَّلالة على انتظار شيء ومراعاته، ويختلفان في أصل الاشتقاق، فأصل التَّرقُّب الانتصاب، ومن ذلك اشتقاق الرقبة؛ لأنَّها منتصبةٌ، ولأنَّ النّاظر لا بدَّ أن ينتصبَ عند نظرهِ(3)، وأصل الرَّصد التهيُّؤ والاستعداد لشيء على الطريق، والمرصاد الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 265، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 587، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 94.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 267.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).

﴿١٤﴾ [الفجر: 14]، أي: بمكان الرَّصد؛ تنبيهًا أنَّه لا ملجأ ولا منجى منه إلّا إليه[1].

الاستغاثة والاستصراخ:

الاستغاثةُ حقيقةٌ والاستصراخُ مجازٌ

يشتركُ لفظا (الاستغاثة) و(الاستصراخ) في الدَّلالة على طلبِ الإغاثة والنَّجدة، ويختلفان في ملحظ اشتقاقِ كلِّ لفظٍ منهما، فالاستغاثة من الغوث، وهي الإغاثةُ والنُّصرة عند الشِّدَّة، أمّا الاستصراخُ؛ فهو من الصراخ ورفع الصوت، وسمّيت الاستغاثةُ استصراخًا؛ لأنَّ الصُّراخَ مبدؤها غالبًا، والسَّببُ في نجدة المستغيث، فهو مجازٌ علاقته سببيَّة، لكن لكثرة التَّعبير بالاستصراخ عن الاستغاثة؛ صار حقيقة عرفيَّة في طلب النَّجدة[2].

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رصد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوث - صرخ)، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 485.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُسارعة موسى لإغاثة الإسرائيليِّ مرَّةً أخرى

لمّا كان الحالُ مُقتضيًا أنَّ ذلك الإسرائيليَّ يمكث مدَّةً لا يخاصم أحدًا؛ خوفًا من جريرة ذلك القتيل، ولمّا صار الإسرائيلي - الَّذي خلَّصه موسى بالأمس - يستغيث به ثانيًا من قبطي آخر؛ عاتبه موسى، ثم دنا منهما؛ لينصره مبادرًا إلى إصراخه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْطِشَ﴾: (بطش) أصل واحد، وهو أَخْذُ الشَّيء بقهر وغلبة وقوَّةٍ، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ [البروج: 12]، ويقال: هو سرعةُ الانتقام وعدم التُّؤَدَة في العفو، وكلُّ ما في القرآن من البطش؛ فهو بمعنى الأَخْذِ الشَّديد صَوْلَةً أو عُقوبة[2].

2) ﴿جَبَّارًا﴾: (جبر) أصل يدلُّ على إصلاح الشَّيء بضربٍ من القهر[3]، والجبّار في صفة الإنسان، يقال لمن يجبرُ نقيصتَهُ بادِّعاء منزلةٍ من التَّعالي لا يستحقُّها، وهذا لا يقال إلّا على طريق الذَّمِّ[4]، ورجل جبّار: متكبِّر[5]، والجبّار في الآية الَّذي يفعل ما يريد مما يضرُّ بالنّاس، ويأخذ النّاس بالشدَّة دون الرفق[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 259، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 123.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطش).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبر).

(4) الراغب، المفردات: (جبر).

(5) ابن سيده، المحكم: (جبر).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 94.

3) ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: (صلح) أصل واحد يدلُّ على خلاف الفساد، يقال: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، ويقال: صلَح بفتح اللام، وحكى ابن السِّكّيت: صَلَحَ وصَلُحَ، والصَّلاح والفساد مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال[1]، والصَّلاح: الاستقامة والاعتدال، يقال: صَلَحَ، وصَلُحَ يَصْلُحُ صلاحًا وصَلوحًا، أي: استقام واعتدل، وأصلح الشَّيء بعد فساده أقامه وعدَّله، ويأتي بمعنى الخير والنَّفع، ومن معاني الصَّلاح: السَّلامة والصِّحَّةُ والصَّواب والكمال، والمقصود في الآية هو الإصلاح بين الخصمين بالسَّعي في التَّراضي بينهما بالمعروف[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إفشاء الإسرائيليّ لحادثة موسى مع القبطيّ

يُخبر ربُّنا سبحانه عن موسى عليه السلام أنَّه أراد أن يبطِش بالفرعونيِّ الَّذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ، فقال الإسرائيليُّ لموسى، وظنَّ أنَّه إيّاه يريد: يا موسى أتريد أن تقتلني، كما قتلت نفسًا بالأمس؟ ما تريد إلّا أن تكونَ طاغيةً في الأرض، وما تريد أن تكون من الَّذين يصلحون بين النّاس[3]، وقيل: القائلُ هو القبطي[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾:

مبادرة موسى عليه السلام لنجدة الإسرائيليّ

وُصِلت الجملة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ بما قبلها بحرف الفاء الدّالَّة على التعقيب مع السَّببية، فأشعرت هذه الفاء بمبادرة موسى عليه السلام لنجدة الإسرائيليِّ - بعد تأنيبه له ومعاتبته - قاصدًا القبطيَّ ليمنعه من ظلمه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 94.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 195، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 174.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 487.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿فَلَمَّآ﴾ الحينية:

طيُّ الكلام مناسبةٌ للإيجازِ في المقام

عُبّر بـ﴿فَلَمَّآ﴾ الحينية، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾، وهي ظَرفٌ بمعنى: (حينَ)، وتُفيدُ الشَّرطَ[1]، وتأتي في سياقِ الزَّمان الماضي، وهي مع إفادتها الحينَ تُلمِحُ إلى التَّعليل في بناء الجَزاء على الشَّرط، فالتَّعبير بها هنا أفاد الإيذان بتقضّي الوقت وطيِّ الكلام على محاورته للإسرائيليِّ، وكذلك أشعر بترتُّب ما يُذكر بعدُ على هذا الأمر، فقولُ الإسرائيليِّ لموسى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾ مترتِّبٌ على جملة الشَّرط وجواب لها.

نكتةُ التَّوكيد بـ ﴿أَنۡ﴾ في ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ﴾:

الإشعارُ بالإبطاءِ الزمنيِّ بزيادة حرف في النَّظم القرآنيِّ

ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ﴾ حرف ﴿أَنۡ﴾ بعد (لمّا)، فقال النُّحاة: إنَّها زائدةٌ للتَّوكيد، بمعنى: توكيد إرادة موسى أن يبطش بالَّذي هو عدوٌّ لهما، أي: إنَّه همَّ همًّا قويًّا بالبطش بالرَّجل القبطيِّ، وذهب بعض العلماء إلى أنَّ زيادة (أن) بعد (لمّا) تفيد الإشعارَ بالإبطاء الزمنيِّ، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: 96]، والنكتة على هذا القول: أنَّ موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى البطش بالثّاني، كما كانت مسارعته إلى البطش بالأوَّل، بل كان عنده إبطاءٌ في بسط يده إليه، فعبَّر النَّظم القرآنيُّ عن ذلك الإبطاء بزيادة ﴿أَنۡ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الإرادة:

عزْمُ موسى على نصرة المظلوم مرَّةً أخرى

عُبِّرَ بفعل الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ﴾؛ للدَّلالة على العزم دون الفعل، فإرادةُ موسى عليه السلام البطشَ بالقبطيِّ لم تتجاوز العزم والتَّصميم، بمعنى: أنَّه أراد البطش به، لكنَّه لم يفعل، كما

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 20/ 87.

(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 295.

أفاد هذا التَّعبيرُ ظهورَ صفةِ إرادة موسى البطش بما ظهر من أحوالِه الَّتي كان عليها من الحميَّة وغيرها.

وقيل: إنَّ الَّذي أراد أن يبطشَ هو الإسرائيليُّ، فنهاه موسى عن ذلك بعد أن قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ففزع الإسرائيليُّ عند ذلك من موسى، وخاطبَهُ بالفضح، وكان موسى من النَّدامة والتَّوبة في حدٍّ لا يُتصوَّر معه أن يريدَ البطشَ بهذا الفرعونيِّ الآخر(1).

بلاغةُ تعليق الإرادةِ بالمصدر المؤوَّل:

دلالــةُ المـصـدرِ المــــؤوَّل دون الـصَّـريـح على زمن الفعل

أوثرَ التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَبۡطِشَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾؛ لنكتة الدَّلالة على زمن الفعل، فإنَّ المصدر، قد يكون فيما مضى وفيما هو آتٍ، وليس في صيغتِه ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع ﴿أَن﴾؛ ليجتمعَ لهم الإخبارُ عن الحدث مع الدَّلالة على الزمان، وفي هذا السّياق أفاد هذا النَّظم أنَّ موسى عليه السلام قد هبَّ في الحال لنصرة المظلوم.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿يَبۡطِشَ﴾:

المــؤاخــذةُ على العمد والأخطاء من غير عفو ولا إبقاء

عُبِّرَ بالفعل ﴿يَبۡطِشَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾، والبطش: الأَخْذُ بالعنف وصولة وسطوة، وقيل: هو المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء، والمرادُ به في هذا النَّظم الضَّربُ(2).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته:

عــداوةُ الـقـبـطِ لبني إسرائيـلَ قديمةٌ مطلقةٌ

استُعمِل الاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾؛ لعدم علم المخاطَب بالأحوال المختصَّة بشخصيّات القصَّة سوى ما ذُكِرَ عنها بالصِّلة، ولما تسمح به الصِّلة من الوصف

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 282.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 124، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 94.

بجملة الصِّلة وبيان علَّة الأحكام، فقوله: ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ دلَّ على أنَّ المقصودَ هو القبطيُّ؛ لأنَّه عدوٌّ لموسى وللإسرائيليِّ؛ إذ لم يكن على دينِهما؛ ولأنَّ القِبطَ كانوا أعداءً لبني إسرائيلَ على الإطلاقِ[1].

نكتةُ التَّنكير في ﴿عَدُوٌّ﴾:

شدَّةُ العداوةِ بين الأقباط والإسرائيليين

جاء لفظُ ﴿عَدُوٌّ﴾ نكرةً، في قوله تعالى: ﴿أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، والنُّكتة في تنكيره التَّفخيم، أي: عدوٌّ عظيمُ العداوةِ، ولإرادة ذلك لم يضفه، والمرادُ بالَّذي هو عدوٌّ لهما القبطيُّ، وقد كان القبط أعظمَ النّاس عداوةً لبني إسرائيل[2].

مناسبةُ تعليق ﴿عَدُوٌّ﴾ بقوله: ﴿لَّهُمَا﴾:

الاعتذارُ لموسى في سرعته لنصرة شيعته

قُيِّد لفظُ ﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿لَّهُمَا﴾، والمقصودُ بضمير المثنّى موسى عليه السلام والإسرائيليُّ، والنُّكتة في تقييده تأكيدُ بيانِ سببِ إرادة موسى عليه السلام أن يبطش به، وكأنَّه بمنزلة الاعتذارِ لموسى في سرعةِ إقدامِه على إغاثة الذي هو من شيعتِه، فهو ليس عدوًّا لأحدهما فحسب، بل هو عدوٌّ لهما معًا.

بلاغةُ الفصل في قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

ترتُّب فصلِ الجواب على ما سبق من العِتاب

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِى﴾، عن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثانية من الأولى منزلةَ نفسِها[3]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِى﴾ جوابًا للشرط، ففصلت جزاء الشرط عن فعله، كما أفاد الفصلُ أنَّ القول جاء بعدَ ما وُجِدت من موسى عليه السلام أمارةُ البطش وإرادته.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 7.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 267.

(3) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.

نكتةُ إضمار الفاعلِ في قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

أثرُ اختلافِ القائل في تفريع المسائلِ

اختلفت أقوالُ المفسرين في تعيين فاعل القولِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾، فقال جمهورُ المفسِّرين، وهو الرّاجح: إنَّ قائل ذلك هو الإسرائيليُّ، وحجَّتهم أنَّه لما خاطَب موسى الإسرائيليَّ بأنَّه غويٌّ، ورآه على غضب؛ ظنَّ أنَّه لما همَّ بالبطش أنَّه يريده، فقال هذا القول، ولا يعرف قتلَهُ بالأمس للرَّجل إلّا هو(1).

وقال بعضهم: بل هو قول القبطيِّ، وقد كان عرف القصَّة من الإسرائيليِّ، واستظهروا هذا الوجه؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، فهذا القولُ إذًا منه لا من غيره، وأيضًا فقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يليق إلّا بأن يكونَ قولًا من القبطيِّ الكافر(2).

بلاغةُ مجيءِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

تنبيهُ موسى عليه السلام إلى تجنُّب العنف والقتل

عدل النَّظمُ القرآنيُّ عن الإضمار إلى الإظهارِ باسم العلم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾؛ لتنبيه موسى عليه السلام وتذكيره بأنَّه ينبغي له ألّا يفعل هذا، فهو موسى المعروف بصدقِه وعدله وخُلقِه، وكذلك لتوقيف موسى عليه السلام على ما وقع منه بالأمس؛ لعلَّه يكفُّ عمّا توهَّمه الإسرائيليُّ من البطش به.

بلاغةُ الاستفهام المجازي في الآية:

الإنكارُ على موسى في العزم على قتلِ النَّفس

تضمَّن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾ أسلوبَ استفهام بهمزة الاستفهام في ﴿أَتُرِيدُ﴾، والغرضُ منه هو الإنكارُ، والمقصود منه التَّوبيخ والتَّعجيب، ويتوجَّه الإنكار على موسى بإرادته نصرة الذي من شيعته مرَّةً ثانية، والبطش بالذي هو عدوٌّ لهما، وأيضًا بما فعل بالأمس، ومبادرته إلى

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 195، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 281.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 587.

وكزِ الرجل حتى مات، كما يمكن حمْلُ الاستفهام على حقيقته بكونه لطلب التَّصديق(1).

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَقۡتُلَنِي﴾:

الإخبارُ عن الحدث مع الدَّلالة على الزَّمان

أوثرَ التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن تَقۡتُلَنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾؛ لنكتة الدَّلالةِ على زمن الفعل، وهو هنا الدلالة على الحال، بمعنى: أتريد أن تقتلني الآنَ أو اليوم، كما قتلتَ نفسًا بالأمس؟ وذلك لأنَّ المصدرَ قد يكون فيما مضى، وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع ﴿أَن﴾؛ ليجتمعَ لهم الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزَّمان(2).

بلاغةُ التَّشبيه في الآية:

القتلُ مُستنكرٌ في الشرائع حتى للمخالف ما لم يأتِ الدليل على إباحته

تضمَّن قوله تعالى: ﴿كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾ فنًّا من فنون البيان، وهو التَّشبيه، فالمشبَّه هو المصدر المؤوَّل: ﴿أَن تَقۡتُلَنِي﴾، والمشبَّه به: ﴿قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾، والأداة هي الكاف، ووجه الشَّبه: هو الظُّلم والاعتداء في كلا القتلين، والنُّكتة في إيراد التَّشبيه: المبالغةُ في الإنكار على موسى عليه السلام بتنبيهه على خطر فعلِه وقبح ما وقع منه بالأمس، كما أنَّ في التَّشبيه دليلًا على أنَّ الإسرائيليَّ توهَّم فعلًا أنَّ موسى كان عازمًا على القتلِ.

فائدةُ تنكير ﴿نَفۡسَۢا﴾:

قتلُ النَّفسِ ظلمًا مستقبحٌ في جميع الشَّرائع

جاء لفظ ﴿نَفۡسَۢا﴾ نكرةً، في قوله تعالى: ﴿كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾، والنُّكتة في تنكيرها الإبهامُ؛ لكون المقتول مجهولًا عنده، ويحتمل أيضًا أن يكون غرضُ التَّنكير التَّعظيمَ؛ ليفيدَ تعظيمَ هول قتل نفسٍ غير مستحقَّةٍ للقتل، وقتلُ النَّفسِ مستقبحٌ في جميع الشَّرائع، وحفظُ النَّفسِ المعصومة من أصول الملل كلِّها(3).

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 487.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 92.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 90.

نكتةُ التَّعبير بظرف الزَّمان: ﴿بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾:

استـعـمـالُ الأمس مجازٌ عن قرب الزمان

استعملَ لفظ ﴿بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾، ويحتمل أن يكون المرادُ بالأمس: اليومَ الَّذي قبل يوم الاستصراخ، ويحتمل كذلك أن يكون الأمس مجازًا عن قرب الزَّمان، فأراد الإسرائيليُّ تذكير موسى عليه السلام بقرب الوقت الذي قتل فيه نفسًا، وهو معرب لدخول (أل) عليه، وذلك الشائع فيه عند دخولها، وقد يُبنى معها على سبيل النُّدرة[1].

بلاغةُ الفصل في ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا﴾:

البطشُ بالنّاس وقتْلُهم يجعل صاحبه جبّارًا في الأرضِ

فُصِلَت جملة: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن الجملة التي قبلها، وهي قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحادُ الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تنزَّل الثانية من الأولى منزلة نفسِها[2]، فقد وقعت الجملةُ الثانية تأكيدًا للأولى؛ ففُصِلت، كما يُفصل بين المؤكِّد والمؤكَّد، واستنبطوا من هذا التَّأكيد أنَّ البطشَ بالنّاس وقتْلَهم يجعل صاحبه جبّارًا في الأرضِ، وقال بعضهم: من قتل نفسَين؛ فهو من الجبابرة[3].

بلاغةُ القصر في ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن﴾:

المـبـالـغـةُ في الإنكار بالقصر على وصف جبّار

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أسلوبَ قصرٍ بطريق النَّفي والاستثناء، فالنفيُ بحرف ﴿إِن﴾، والاستثناء بأداة الحصر ﴿إِلَّآ﴾، فهو من قصر الموصوف على الصِّفة قصرًا إضافيًّا بتقدير: مرادك مقصورٌ على كونك جبّارًا في الأرض[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 267.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 196، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 587.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 487.

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿تَكُونَ﴾:

الـرُّسـوخ بـالـجـبروت والجبلَّة عليه

أوثرَ التَّعبيرُ بفعل الكون، في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾، وقوله: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، للمبالغة في الوصف بالرُّسوخ في الجبروت والجبلَّة عليه، ونفي الرُّسوخ في الاتِّصاف بوصف الإصلاح[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ: ﴿جَبَّارًا﴾:

من قتل نفسين فهو من الجبابرة

جاء لفظ ﴿جَبَّارًا﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾، وأصلها من العظمة والعلوِّ[2]، فالجبّار المتعظِّم الذي لا يتواضع لأمر الله، وهو الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، ولا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن، وقد وصف الإسرائيليُّ موسى بوصف ﴿جَبَّارًا﴾؛ لأنَّ قتل النُّفوس ظلمًا بغير حق من فعل الجبابرة، وقيل: إنَّما قال ذلك لموسى الإسرائيليُّ؛ لأنَّه كان عندهم من قتل نفسين؛ فهو من الجبابرة[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿جَبَّارًا﴾:

استثارةُ النُّفوس بتشبيه المعقول بالمحسوس

تضمَّن قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مجازًا في أصل اشتقاق لفظ (الجبّار)؛ لأنَّ الجبّار في الأصل النخلة الطويلة، فاستُعمِلَ في التعالي والتطاول المعنويِّ والتَّعاظُم؛ تشبيهًا للمعقول بالمحسوس استعارة، ثم صار حقيقة عرفيَّة في ذلك[4].

فائدةُ التَّقييد في قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

تـصويـرُ سطوة الجبّار وما يتركه فـي الأرض من آثار

قُيِّد الجبروتُ بكونه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، مع ظهور أنَّ تصرُّفَ البشرِ لا يكونُ إلّا في الأرضِ، والنُّكتة في ذلك المبالغة في تصوير ظهورِ أثرِ سطوة الجبّار

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 261، والشّربيني، السّراج المنير: 03/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 197.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 487.

وقوَّة بطشِه في الأرضِ، مع تنزيل فعل الجبّار في مكانٍ ما منزلةَ من شمل تجبُّره الأرضَ جميعًا، مبالغة في الذَّم وتنفيرًا من الوصف.

نكتةُ التعبيرِ بالحرف ﴿فِي﴾ في الآية:

تمكُّنُ الجبروتِ تمكُّنَ الظَّرفِ من المظروف

ورد حرف الجر ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو دالٌّ على الظَّرفيَّة والتَّمكُّن من المظروف بالوصف المذكور، بمعنى: أنَّ جبروتك متمكِّن في الأرض منتشر فيها.

فائدةُ التَّعريف بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

احتمالُ السّياقِ الدَّلالةَ على العهد أو الاستغراق

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)، في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وتحتمل العهد؛ إذ المرادُ أرضُ مصر، فهي المعهودة، وهو الأظهر، وقد تُحمل (أل) على الاستغراق؛ لإرادة التَّهويل بأنَّ جبروت موسى يعمُّ الأرضَ كلَّها، وأنَّه يريد ألّا يكونَ فوقه أحدٌ في أيِّ أرض يكون بها[1].

سرُّ العطف بالواو في قوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾:

جمْعُ الجملتَين للتوسُّط بين الكمالَيْن

وُصِلَتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ بالجملة في قوله سبحانه: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بحرف الواو الدالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنَّ بينهما ما يسمّى في البلاغة بالتوسُّط بين الكمالين (كمال الاتِّصال وكمال الانقطاع)، فقد اتَّفقتا في الخبريَّة لفظًا ومعنًى[2].

دلالةُ النَّفي بـ(ما) في ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾:

نفيُ الصَّلاح عمَّن يقتل نفسين

أوثرَ النَّفيُ بـ (ما) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ تأكيدًا من الإسرائيليِّ على نفي الصَّلاح عن موسى عليه السلام عندما توهَّم أنَّه يريد قتْلَهُ، كما فعل بالقبطيِّ بالأمس، وقد آثر النَّظم هذا الحرف للنَّفي؛ لأنَّ في حرف (ما) من معنى التَّأكيد

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 487، والشّربيني، السّراج المنير: 03/ 89.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 127.

ما ليس في غيره، كما قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)؛ فإنَّ نفيه: (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قال: (واللّه لقد فعل)، فقال: (واللّه ما فعل)"[1]، فهي آكدُ في النفي من (لم)[2].

بديعُ المقابلةِ في الآية:

المبالغة في الإنكار بالجمع بين التَّجبُّر ونفي الصَّلاح

جمع المتكلِّم لموسى الجبروتيَّة؛ ونفي الصَّلاح[3]، وبين تقابل الجبروتيَّة والصَّلاح وتخالفهما تضادٌّ يثير الذِّهن، ويجذب الانتباه، وهذا فنٌّ من فنون البديع، وهو المقابلة، يزيد الكلامَ حُسنًا وطرافة، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياء.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تُرِيدُ﴾:

مضارعُ الأزمان لإفادة التجدُّد والدَّوام

أوثرَ التَّعبيرُ بصيغة المضارع في الموضعين: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ و﴿وَمَا تُرِيدُ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ لإفادة التَّجدُّد والدَّوام، بمعنى: أنَّ إرادة التجبُّر وعدم إرادة الإصلاح صارا وصفًا دائمًا متجدِّدًا لمن يقتل النُّفوس بغير حقٍّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالوصف مجموعًا ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

رسوخُ وصفِ التجبُّر وعدم الإصلاح

جاء في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ نفيُ الإسرائيليِّ إرادةَ الإصلاح عن موسى ﵇ بعدم إدراجهِ في زمرة المصلحين، ونفْيُ أن يكونَ من العريقين في الإصلاح، ولم يقل: وما تريد أن تكون صالحًا؛ وذلك لأنَّ جمْعَ الوصفِ، ثم جعْلَ الموصوفِ بها واحدًا من جمع، فيه دلالةٌ على أصالة الفردِ في ذلك الوصف على سبيل المبالغةِ، وكأنَّه من طائفة صارت كالنَّوع المخصوص المشهور ببعض السِّمات[4]، إضافة إلى ما في هذا الأسلوب من رعايةِ الفواصل.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 294.

(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 427.

فائدةُ حذفِ متعلّقِ الوصفِ ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾:

صلاحُ النَّفسِ شرطٌ في الإصلاحِ بين النّاس

حُذِفَ متعلِّقُ الوصفِ، في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾، وتقديرُ الكلام من المصلحين بين النّاس، وفائدةُ حذف المتعلّق إثباتُ معنى الإصلاح في نفسِه، وأنَّه ينبغي ألّا يكون من موسى عليه السلام إلّا الإصلاح، أو أنَّ الإصلاحَ لا يكون إلّا منه على سبيل المبالغة لما ظهر من حالِه، وكان معروفًا به في قومِه ومع النّاس عمومًا، كما أنَّ في حذف المتعلِّق رعايةً للفاصلة.

بلاغةُ الكناية في الآية:

ما كان الرِّفقُ في شيء إلّا زانه ولا يُنزع من شيء إلّا شانه

يتضمَّنُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ كنايةً عن أنَّ موسى عليه السلام كان معروفًا بحسن خُلُقِهِ وصلاح أمره وإصلاحِه بين النّاس، وأنَّ بطشَهُ بالقبطي يخالف ما هو عليه من الصَّلاحِ وما اعتاده من الإصلاح، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنَّ مَن يصلح بين متشاجرَين، فإنَّما يدفعُ أحدهما عن الآخرِ بالَّتي هي أحسن، فلا يقتل أحدهما، ولا يأخذ أحدهما دون الآخر، ولكن يصلح بينهما على السَّواء(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكِبر والجبروت:

الجبروت تعظُّمٌ مع القهر والغلبة، وأمّا الكِبر؛ فلا يتضمَّن معنى القهر

يتمثَّل الفرقُ بين هذين اللَّفظين أنَّ الجبروت أبلغُ مِنَ الكِبر، ويدلُّ على هذا فخامةُ لفظه، وفخامةُ اللَّفظ تدلُّ على فخامة المعنى فيما يجري هذا المجرى، كما أنَّ الفعل (تجبَّر) أبلغُ من (تكبَّر)، فقد قال بعض العلماء: تجبَّر الرَّجلُ؛ إذا تعظَّمَ بالقهر، وأمّا التَّكبُّر؛ فلا يتضمَّن معنى القهر، والجبّار القهّار، والجبّار العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22]، والجبّار المتسلِّط في قوله

(1) النّسفي، التّيسير في التّفسير: 11/ 417.

تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء: 130]، والتجبُّر أصلُهُ النَّخلة الَّتي فاتت اليدَ، فشُبِّهَ بها على سبيل المجاز والمبالغة[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 246.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾

[القصص: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

فُشوُّ أمرِ الدَّفين وتحذير موسى من بطش فرعونَ اللعين

لـمّا أفشى الغويُّ سرَّ قتلِ موسى للقبطيِّ؛ ذاعَ الكلام إلى أن بلغَ فرعون، فأمرَ بقتل موسى عليه السلام، فجاء مخبرٌ محذِّرًا له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡصَا﴾: (قصى) أصل صحيح يدلُّ على بُعدٍ وإبعاد، من ذلك القصا: البُعد، والقَصيُّ: البعيدُ، وهو بالمكان الأقصى والناحية القصوى[2]، والمكان الأقصى: الأبعدُ، وذهبت قصا فلانٍ، أي: ناحيته، وأقصيته: أبعدته، وقصوت عن القومِ أقصو؛ إذا تباعدت[3]، والمقصود بالآية: من آخرها وأبعدها.

2) ﴿ٱلۡمَلَأَ﴾: (ملأ) بالهمز دالٌّ على المساواة والكمال في الشَّيء، ومَلأْتُ الشَّيءَ أملَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسم لِلمِقدارِ الَّذي يُمْلَأُ، ومنه الملأُ: الأشراف من الناس؛ لأنَّهم مُلِئوا كرمًا[4]، وقيل: يملؤون العيونَ رواء ومنظرًا، والنُّفوس بهاءً وجلالًا[5]، والملأ مهموز بغير مد: الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد؛ لأنَّهم يمالئ بعضهم بعضًا، أي: يعاونه، ويوافقه، والمقصود في الآية: أشرافُ القبط الذين في أيديهم الحلُّ والعقد[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قصى).
(3) ابن فارس، مجمل اللغة: (قصى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(5) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ملأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 190.

3) ﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾: أصله (أمر) وهو واحد الأوامر، وأصلُ الائتمار: قبولُ أمر الآمر، فهو مطاوع أمره، ثم شاع إطلاقُ الائتمارِ على التَّشاور؛ لأنَّ المتشاورين يأخذُ بعضُهم أمرَ بعضٍ، فيأتمرُ به الجميعُ، قال تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: 6][1]، وقال ابن قتيبةَ: يَهمّون بك[2]، وقال أبو عبيدةَ في معنى ﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾: يتشاورون فيك ليقتلوك[3]، وهو المقصود في الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نصيحةُ الرَّجلِ لموسى بالخروج من أرض فرعونَ

يُخبر ربُّنا سبحانه أنَّ رجلًا جاء من آخرِ المدينةِ، يسعى إلى مكان موسى عليه السلام، محذِّرًا إيّاه بقوله: إنَّ أشراف قوم فرعون يتشاورون في قتلك، فاخرج من مصر بلد فرعون وقومه، إنّي لك من النّاصحين المشفقين عليك[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل بالواو في الآية:

العطفُ على محذوفٍ يقتضيه المقامُ

وُصِلَتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ بحرف الواو الدالِّ على العطف، حيث عطف الكلام على محذوف يُقدَّرُ من السّياق، أي: فذهب القبطيُّ - الَّذي سمع ما قاله الإسرائيليُّ، وقد علم أنَّ موسى هو قاتل القبطيِّ الأوَّل - إلى فرعونَ، وأخبره بجليَّة الأمر، فغضب فرعونُ، وأمر بقتلِ موسى وإلقاء القبض عليه[5].

فائدةُ التَّنكير في قوله: ﴿رَجُلٞ﴾:

مدحُ الرَّجلِ بصفات الخير والرُّجولة

جاء لفظ ﴿رَجُلٞ﴾ نكرةً، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 330.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 100.
(4) ابن جرير، جامع البيان، 18/ 198، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.
(5) درويش، إعراب القرآن: 7/ 296.

﴿ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، والنُّكتة في تنكيره الإبهامُ، فهو مجهولُ العين، ويفيد التَّنكيرُ الإفرادَ والوحدة، فهو فردٌ واحد من أشخاص الرِّجال، كما يشعر تنكيرُ هذا اللَّفظ بمدح هذا الشَّخص بالرُّجولة التّامة، والسّياق يدلُّ على شجاعته وحبِّه للخير والصّالحين، وأنَّه كان يعرف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مناسبةُ ذِكر المكان في الآية:

الأطـراف منازلُ الأشراف

أوثرَ ذكرُ المكان الَّذي جاء منه الرَّجل، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، وهو أقصى المدينة، والظّاهر أنَّ المقصودَ بأقصى المدينة هو ناحيةُ قصورِ فرعونَ وقومه، فإنَّ عادةَ الملوك السُّكنى في أطراف المدن توقّيًا من الثورات والغارات؛ لتكونَ مساكنُهم أسعدَ بخروجهم عند الخوف، وقد قيل: الأطرافُ منازلُ الأشراف، وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل وأنَّ الرجل كان يعرف موسى(1).

فائدةُ حرف الجرِّ ﴿مِّنْ﴾:

انطلاقُ الرَّجل من ناحية قصرِ فرعونَ إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ حرفُ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾، ومعناه في هذا السّياق ابتداءُ الغاية، بمعنى: أنَّ هذا الرجلَ قد انطلق من أقصى المدينة وصولًا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل وصول جند فرعونَ إليه.

التَّوجيهُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾:

تنوُّع المعاني بتنوُّع التَّقدير الإعرابيِّ

وُصِفَت النَّكرة ﴿رَجُلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ بالجملة الفعلية ﴿يَسْعَىٰ﴾، ويختلف إعرابها تبعًا لتعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، فإذا كان الجارُّ والمجرور متعلِّقين بالفعل ﴿وَجَآءَ﴾، فإنَّ جملة ﴿يَسْعَىٰ﴾ تعربُ صفةً على رأي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 95.

الجمهور، وجوَّز سيبويه كونها حالًا؛ بناءً على مذهبه من جواز مجيء الحال من النَّكرة من غير شرط[1].

أمّا لو جُعِلَ الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ صفةً لـ ﴿رَجُلٌ﴾، فتكون جملة ﴿يَسۡعَىٰ﴾ صفةً ثانية له؛ لتفيد اتِّصافه بهذه الصفة على جهة تصوير الحالة، ويجوز أن تكون حالًا منه؛ لأنَّ تخصيصَ النَّكرةِ بالوصف يلحقها بالمعارف على القاعدة المشهورة[2]، ويُشعر هذا الوجهُ باقتران مجيء الرَّجل بالسَّعي وسرعة المشي، واستمرارِه في السَّعي وتجدُّده حالًا فحالًا من غير انقطاع، إلى أن قال له: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾؛ ليخبره بذلك، وفيه تصويرٌ للحالة؛ لبيان حرصِه على إخبار موسى عليه السلام بائتمار الملأ بقتلِه، وطلبه منه أن يخرج قبل أن يصلوا إليه.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿يَسۡعَىٰ﴾:

إسراعُ الرَّجلِ لبُعد محلِّه ومزيد اهتمامه بإخبار موسى بالخبر

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ بالفعل ﴿يَسۡعَىٰ﴾، والسَّعيُ في اللغة: المشيُ الَّذي فيه شدَّة وسرعة، ولذلك خصَّ غالبًا بمشي الرجل دون المرأة، وهو دون الجري، والنُّكتة فيه الإشعار بتنبُّهه في مشيه وسرعته؛ كي لا يعلم به الملأ، فإنَّ الجري أكثرُ إثارةً عند النّاس من سرعة المشي، وإنَّما أسرع هذا الرَّجل لبُعد محلِّه ومزيد اهتمامه بإخبار موسى عليه السلام ونصحه[3].

توجيهُ المتشابه اللفظيِّ:

تقديمُ الأهمِّ في المعنى، وإلّا التُزِمَ تقديم الأصل

قال ربُّنا جل جلاله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: 20]، فيُلاحظ تقدُّم لفظ ﴿رَجُلٌ﴾ في موضع القصص على المتعلِّقات، وتأخُّره في موضع (يس)، والنُّكتة في ذلك أنَّ موضعَ القصص جاء على الأصل

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 52، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 262.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 399، وابن عادل، اللّباب: 15/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 268، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 207.

في تقديم الفاعل على الفضلات، فإنَّ المرادَ: جاء مَن لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورًا لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارِهم به، فاستوى حكمُ الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدَّم ما أصله التَّقديمُ، وهو الفاعل.

وأمّا موضعُ يس؛ فالرَّجل قصد من أقصا القرية نُصْحَ الرُّسل، ونُصْحَ قومِهِ، فكان أشدَّ وأسرع داعية، فلذلك قدم قاصدًا ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ لأنَّه ظاهرٌ صريح في قصده ذلك، كما أنَّ هذا الرَّجل جاء ناصحًا لهم في مخالفة دينهم، فمجيئُهُ من البُعد أنسبُ لدفع التُّهمة والتواطؤِ عنه، فقدَّم ذكر البُعد لذلك[1].

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

مجيءُ الرَّجل من بعيد مشتمل على التَّحذير

فُصِلَ قَوْله تَعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسِها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ بدلَ اشتمال من جملة: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ﴾؛ لأنَّ مجيئَهُ يشتمل على قولهِ ذلك[3].

سببُ إيثار النِّداء بالاسم الظّاهر:

نداء الرَّجلِ لموسى بالاسم للتعطُّف ودفع الوهم

أفاد النِّداءُ في قَوْله تَعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أنَّ الرجل الذي جاء يسعى كان متوجِّهًا إلى موسى عليه السلام بعينه، مقبلًا عليه، فناداه تعطُّفًا وإزالةً للَّبس، كما دلَّ ذلك على أنَّ الرَّجل كان يعرف موسى من قبل، مُحبًّا له لأخلاقه وصلاحه[4].

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 304، والإسكافي، درّة التّنزيل: 01/ 1084.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 95.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 261.

فائدةُ التَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾:

تأكيدُ وجوبِ الخروجِ باستعجالٍ الاستفصالِ وتركِهِ

وردَ الخبرُ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ مؤكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾ تنزيلًا لخالي الذِّهن من الخبر منزلة المتردِّد لما يقارن المقام من ملابسات تستدعي تأكيد الخبر له؛ ليبادر بالاستجابة، فأكَّد الرجل لموسى تآمر قوم فرعون عليه؛ إشارةً إلى أنَّ الأمر قد دهم، فلا يسعُ الوقت للاستفصال، بل يجب الخروج باستعجال[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْمَلَأَ﴾:

إطلاقُ الملأِ على أشرافِ القومِ أولي الحلِّ والعقدِ

عُبِّرَ بلفظ ﴿ٱلْمَلَأَ﴾، في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، والملأُ - مهموز بغير مدٍّ - الجماعةُ الذين أمْرُهُم واحدٌ، ورأيهم واحدٌ؛ لأنَّهم يمالئ بعضهم بعضًا، أي: يعاونه، ويوافقه، ويُطلق الملأُ على أشراف القوم وقادتهم؛ لأنَّ شأنهم أن يكون رأيهم واحدًا عن تشاور، والمقصود هنا أشرافُ القبطِ الذين في أيديهم الحلُّ والعقدُ؛ لأنَّ لهم القدرةَ على الأمر والنَّهي[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾:

شيوعُ إطلاقِ الائتمارِ على التَّشاورِ

ورد الفعلُ ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾، في قَوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، أي: يتشاورون فيك، ويَهمّون بك؛ ليقتلوك[3]، وأصلُ الائتمار: قَبولُ أمر الآمر، فهو مطاوع أمرِهِ، ثم شاع إطلاقُ الائتمار على التَّشاور؛ لأنَّ المتشاورين يأخذ بعضُهم أمرَ بعضٍ، فيأتمر به الجميع، قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٖۖ﴾ [الطلاق: 6][4].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾:

حكايةُ الحالِ وتصويرِ خطورةِ الموقفِ

أوثرَ التَّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾، في قَوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، والنُّكتة في ذلك: حكايةُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 261.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 262، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 190.

(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 100، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 330.

(4) الواحديّ، البسيط: 17/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.

الحال وتصوير خطورة الموقف لموسى ؛ ليبادرَ بقَبولِ النَّصيحة وطلب النَّجاة.

سرُّ تعديةِ الفعل ﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾:

من بلاغة التَّضمين الدّلالةُ بكلمة على معنى كلمتين

عُدّي الفعلُ ﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ بالباء، والنُّكتة في ذلك تضمينُ الفعل يأتمرون معنى يهمِّون، أي: يتشاورون، ويهمّون بقتلك[1]، وبلاغةُ التَّضمين أن يدلَّ بكلمة واحدةٍ على معنى كلمتين[2].

فائدةُ الباء في ﴿يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾:

أثر حروف المعاني في ثراء النَّظم القرآنيّ

وردَ حرفُ الباء في قَوْله تَعالى: ﴿يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾، وهي تحتملُ السَّببية بمعنى: أنَّ القوم يأتمرون، ويتشاورون بسببك[3]، وتحتمل أن تكون صلةً للفعل، على تضمين الفعل ﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾ معنى: يهمّون، والتقدير: (يتشاورون، ويهمّون بك لقتلك).

فائدةُ اللّام في قوله: ﴿لِيَقۡتُلُوكَ﴾:

تشاورُ أشرافِ القبط لقتل موسى والانتقام للقبطيِّ

استُعمل حرفُ اللّامِ في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَقۡتُلُوكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل، فهي لام (كي)، والمعنى: أنَّ أشراف القبط يتشاورون فيما بينهم لأجل قتلك، والانتقام للقبطي المقتول.

فائدةُ الفاءِ في: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾:

التَّأكيدُ على النَّصيحة بالفاء الفصيحة

عُطِف قَوْلُه تَعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الفاء، وهي الفاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إن سمعت نصيحتي؛ فاخرج[4]، والغرضُ من استعمالِ الفاء الفصيحة التَّأكيدُ على النَّصيحة، والإشعار بخطورة الموقف وضرورة الاستعجال وترك الاستفصال.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 330.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 687.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 399، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 7.
(4) درويش، إعراب القرآن: 7/ 297.

بلاغةُ الإيجازِ بحذف متعلّق الفعل: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾:

الاستعجالُ لمداهمة الخطبِ وقرب الخطر

حُذِفَ في قَوْله تَعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ متعلِّقُ الفعل ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾، وتقدير الكلام: فاخرج من المدينة، فحذف المتعلّق لكونهِ معلومًا من السّياق، ولأنَّ المقامَ مقامُ إيجاز واستعجال لمداهمة الخطب وقرب الخطر.

دلالةُ فصل جملةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

الخيرُ العميم في قبولِ نصيحة الصادقين

وردت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ مفصولةً عن الجملة قبلَها، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾؛ لأنَّ بينهما ما يُسمّى في البلاغة بـ (شبه كمال الاتّصال)، وهو كونُ الجملة الثانية قويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصَل عنها، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[1]، ففي هذه الآية جاءت جملة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ تعليلًا لسبب الأمر بالخروج من المدينة، وهو الإشفاق والنُّصح، قال الزركشي: "وغالب التَّعليل في القرآن، فهو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملةُ الأولى، وهو سؤالٌ عن العلَّة... وتوضيح التَّعليل أن الفاء السَّببية لو وضعت مكان (إنَّ)؛ لَحسُن"[2].

دلالةُ (إنَّ) في قوله: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

تأكيدُ المقالِ لنفي شائبة الشكِّ والاحتمال

صُدِّرت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بحرف (إنَّ) لنكتة تعليل الأمر بالخروج على سبيل التَّأكيد في النُّصح؛ ليزيل ما يطرق من احتمال عدم القتل لكونهِ عزيزًا عند الملك، فقد تربّى في بيته، وكان يسمّى ابن فرعون[3].

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

(2) الزركشي، البرهان: 3/ 96.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 262.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكَ﴾:

الاهتمامُ بنجاة موسى عليه السلام

تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المسند، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، والنُّكتة في ذلك الاختصاص، بمعنى: أنَّ النُّصح خاصٌّ لك، ففيه زيادة في التَّنبيه بما يشعر به لفظُ ﴿لَكَ﴾ من معنى الخصوصيَّة للإسراع في الخروج من المدينة[1]، ويمكن أن يكون التَّقديمُ لنكتة الاهتمام والعناية بنجاة موسى عليه السلام من بطش فرعون، وهذا الاهتمام هو الذي دفع هذا الرجل للسَّعي بسرعة من أطراف المدينة البعيدة لتحذير موسى عليه السلام.

وعلَّل العلماءُ ورودَ حرف اللّام في قوله: ﴿لَكَ﴾ بتعليلات مختلفة، فذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّها صلةٌ؛ لأنَّ أكثرَ ما يُستعمل فعل النُّصح مُعَدًّى باللام، يقال: نَصحتُ لك[2]، وقال فريق آخر: إنَّ هذه اللّام للبيان، فيتعلَّق بمحذوفٍ، تقديره: (أعني) ولم يُجَوِّزِ الجمهورُ تعلُّقه بالنّاصحين؛ لأنَّ (أل) فيه اسم موصول ومعمول الصِّلة لا يتقدَّم الموصولُ، ولا تعلُّقه بمحذوف مقدَّم يفسِّره المذكور؛ لأنَّ ما لا يعمل لا يفسِّر عاملًا، وعند من جوَّز تقدُّمَ معمولِ الصِّلة إذا كان الموصولُ (أل) خاصَّةً؛ لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدِّم ظرفًا للتوسُّع فيه، أو قال: إنَّ (أل) هنا حرفُ تعريفٍ لإرادة الثُّبوت، يجوز أن يكون ﴿لَكَ﴾ متعلِّقًا بالنّاصحين أو بمحذوف يفسِّره ذلك[3].

فائدة التَّعبيرِ بالتَّركيب ﴿مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

رسوخُ الوصف في المفرد بانتزاعه من الوصف مجموعًا

أوثِرَ إيرادُ وصفِ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ مجموعًا، بمعنى: العريقين في النُّصح[4]، والنُّكتة في هذا الأسلوب أنَّ جمْعَ الوصفِ، ثمَّ جعْلَ الموصوفِ بها واحدًا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 268.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 262.

جمعٍ، فيه دلالةٌ على أصالة الفرد في ذلك الوصف على سبيل المبالغة، وكأنَّه من طائفة صارت كالنَّوع المخصوص المشهور ببعض السِّمات[1]، ولقد ورد هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن، بالعدول عن التَّعبير بالمفرد إلى التَّعبير بالوصف مجموعًا، كقوله تعالى: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ [الأعراف: 83]، ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦﴾ [التوبة: 86]، ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [النمل: 27]، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء: 29]، والآيات كثيرة، إضافة إلى ما في هذا الأسلوب من رعاية الفواصل.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الملأ والقوم والجماعة:

عموم الجماعة، وخصوص القوم بالرِّجال، والملأ بالأشراف

يظهر الفرقُ بين ألفاظ (الملأ) و(القوم) و(الجماعة) في علاقة العموم والخصوص، فالجماعة تُطلق على كلِّ تجمُّعٍ لأفراد، ويختصُّ القوم بجماعة الرِّجال دون النِّساء، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، وأمّا الملأُ؛ فهُم خاصَّةُ القوم وصفوتهم، وهم الأشرافُ الذين يملؤون العيون جمالًا والقلوب هيبة، وقيل: الجماعةُ الَّذين يقومون بالأمور، من قولهم: هو مليء بالأمر؛ إذا كان قادرًا عليه، والمعنيان يرجعان إلى أصل واحد وهو الملْءُ[2].

الائتمار والتَّشاور:

عمومُ الائتمارِ وخصوص المشورة بانتقاء أحسنها

يظهرُ الفرقُ بين لفظي: (الائتمار) و(التَّشاور) في عموم الأوَّل وخصوص الثاني، فإنَّ أصلَ الائتمار: قَبولُ أمرِ الآمرِ، فهو مطاوع (أَمَرَهُ)، أمّا (التَّشاور)؛ فهو نوع خاصٌّ من الأمر، وسمّيت المشورة أمرًا؛ لأنَّها على صيغة الأمر، وقال بعض أهل اللُّغة: المشورة مشتقٌّ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 427.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 280.

من شَوْرِ العَسَل، فكأنَّ المستشيرَ يأخذ الرَّأي من غيره، وشاع إطلاقُ الائتمار على التَّشاور؛ لأنَّ المتشاورين يأخذ بعضُهم أمرَ بعضٍ، فيأتمر بهِ الجميع، قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 6][1].

الإرشاد والنَّصيحة:

عمومُ البيان في الإرشاد وخصوص النَّصيحة بالكلمة الخالصة

يظهرُ الفرق بين لفظي (الإرشاد) و(النَّصيحة) في عموم الإرشاد بكونِهِ الدلالةَ والهداية إلى الطَّريق المستقيم بكلِّ أنواع البيان، وتختصُّ النَّصيحة بأنَّها كلمة جامعة لخيري الدنيا والآخرة، معناها حيازة الحظِّ للمنصوح له، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أَخْلَصتُهُ، وناصِحُ العسلِ: خالِصُهُ، أو من قولهم: نَصحتُ الجلدَ: خِطتُه، والنّاصِحُ: الخَيّاطُ[2].

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.

(2) الرّاغب، المفردات: (نصح)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 908.

المحتويات

